قصص الأنبياء

ومعها :

سيرة الرسول ﷺ

لداعية العصر

فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

اعتنى به

إبراهيم عبد الستار على

محمد سامح عمر

الناشر

دار القدس

الطبعة الأولى

1426 هـ - 2006 م

رقم الإيداع : 13766 /2005

I.S.B.N. : 977- 310-191 - 6

الناشر

دار القدس

ت : ٤٢٣٩٥٥٧ - ٠١٢٢٦٣٣٨٧٥



الإهداء

اعترافًا بالفضل والجميل

لأصحـــاب الفضـــل

إلى الأستاذ / سامى محمد الشعراوى

الناشــر

حســن محمــود

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، وصلوات الله وتسليمه على نبيه الأمين ، الذى حمل وحيه ، وأدّاه إلينا كاملًا ، مبيّنًا ، لا عوج فيه ، فعلَّمَنا به من الجهالة ، وهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به بعد الفرقة ، وجعل لنا فى الدنيا والآخرة مكانًا لا تنكره الأمم .

وبعد ، فإن للقصص القرآنى أهمية عظيمة للفرد المسلم ، فهو يعرفنا بقصص الأمم الغابرة ؛ لنتخذ منه العِظةَ والعبرة ، ولنعرف ما لاقاه أنبياء اللّه - عليهم السلام - فى سبيل إرساء دعائم التوحيد ونشر منهج اللّه الذى يرتضيه سبحانه وتعالى .

وإن من العلماء الأجلاء الذين كان دورًا كبيرًا فى الدعوة فضيلة الداعية محمد متولى الشعراوى ، رحمه اللّه تعالى ، فقد حُبب إلى القلوب جميعها من خلال أسلوبه الشيق فى الإلقاء عبر وسائل الإعلام المسموعة أو المرئية أو المقروءة ، وها نحن نقدم للقارئ الكريم « قصص الأنبياء » ومعه « سيرة الرسول ﷺ » .

أما عن علمنا فى هذا الكتاب الجليل المبارك فكان على النحو التالى :

* تصحيح النص تصحيحًا لغويًّا دقيقيًا ، مع ضبط ما يُشكل على القارئ فى بعض عبارات الكتاب .

* تخريج الآيات القرآنية تخريجًا وافيًا .

* ترتيب القصص ترتيبًا زمنيًّا بدءًا من آدم (أبى البشر) عليه السلام ، وانتهاءًا بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

* قمنا بوضع بعض التعليقات اليسيرة المفيدة ، ولم نطل فى ذلك نظرًا لضخامة العمل .

* قمنا بوضع ما رأينا السياق يقتضيه بين معكوفين، وكذلك إضافة بعض العناوين التفصيلية .

* وتتميمًا للفائدة قمنا بجمع القصص التى لم يُعَرِّج عليها الشيخ رحمه اللّه ، وأشرنا إلى أماكن عزوها، وخاصة « البداية والنهاية » ، و« قصص الأنبياء » لابن كثير .

* وفى النهاية قمنا بعمل فهرس تفصيلى للكتاب .

نسأل اللّه عز وجل أن يجعل هذا العمل فى ميزان حسنات فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، وأن يجزيه خير الجزاء ، وأن يغفر تقصيرنا ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

الناشـــــر

قصة آدم عليه السلام وبدء خلق الإنسان

خلق الله تعالى آدم بيده، فكلنا مخلوقون بقانون الخلق، ولا بد أن يجتمع رجل وامرأة ليتم الخلق وفقًا لسنة الله تعالى في خلقه، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢] إذن .. فالتسوية من عند الله، والروح من عند الله؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لإبليس: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]: أي أن آدم ليس مخلوقًا كغيره من البشر، ولكنه مخلوق مباشرة بيد الله تعالى.

وكلمة «آدم» حينما نتكلم بها نجدها في النحو مذكرة، والمذكر يقابله المؤنث؛ لقد خلق الله تعالى الذكورة والأنوثة؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل.

إذن .. كان ولابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد؛ فالذكر والأنثى هما بنو آدم، ومنهما ينشأ التكاثر، لكن العجيب أن الله تعالى حين سمى «آدم»، ونطقناه اسمًا مذكرًا، وسمى «حواء»، ونطقناه اسمًا مؤنثًا، جعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وجد منه الخلق هو «نَفْس» لقد قال الحق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

لقد سمى الحق تعالى آدم بكلمة «نَفْس» وهى مؤنثة.

إذن .. فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير، ولكن التذكير هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية، إن الحق سبحانه وتعالى يطلق على كل إنسان منا «نَفْس»، وهى كلمة مؤنثة، وأن الحق قال عن آدم أنه «نَفْس» رغم أنه مذكَّر، إلاّ أنه سُمِّىَ بالمؤنث وهى «نَفْس» ولم يقل الحق: خلقكم من نفس واحد بل قال: ﴿وَاحِدَةٍ﴾.

وحينما تكلَّم الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكلمة «النَّاس» تعنى مجموع الإنسان. وهكذا نعرف أن كلمة إنسان تطلق مرة على

المذكر ، ومرة أخرى على المؤنث ، إذن فالحق تبارك وتعالى قد أورد مرة لفظًا مذكرًا ، ومرة أخرى أطلق لفظًا مؤنثًا . وذلك حتى لا نقول إن المذكر أحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط .

والله سبحانه وتعالى حينما تعرض لقصة آدم عليه السلام فى سورة « البقرة » لم يوضح لنا كيف تم خلق حواء ، ولكن الخالق الأعز الأكرم أدخل حواء فى خطابه لآدم عليه السلام : ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ٣٥] .

ويوضح الحق لنا أن كل خلق من خلقه إنما هو خلق من زوجين : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ . [النساء : ١] .

إن حواء لو كانت ضلعًا من آدم لقال الحقُّ تعالى : جعل منها زوجها . ذلك أن الجعل يعنى الأخذ من نفس المادة وصناعة ما يريد ، وهو الحق المالك لكل الكون .

إن قول الحق تعالى : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ . هو تعبير عن خلق جديد مستقل ، إننا عندما نأخذ مسألة الخلق هذه فى ضوء الأفكار والمعتقدات الباطلة السائدة الآن كالشيوعية وغيرها ، فإننا نجد أن قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ . كان المقصود به الرد على من سوف يأتون بعد زمن رسالة رسول الله ﷺ ونزول القرآن الكريم هؤلاء الذين قالوا : إن الحياة قد نشأت بقانون الصدفة . لكن هناك فيلسوفًا فرنسيًا هو « مونيه » أراد أن يرد على من قالوا : إن الحياة قد نشأت بقانون الصدفة : تساءل ذلك الفيلسوف قائلًا : كيف يكون أمر الخلق صدفة ؟ ! وهو أمر محكوم بنظام دقيق وقوانين محكمة ، أمن المعقول أن توجد صدفتان فى آنٍ واحد ؟ ! صدفة تخلق رجلًا ، وصدفة تخلق امرأة من جنس الإنسان ، وتختلف مع الرجل فى النوعية بحيث لو التقى الرجل بالمرأة لنشأ عن لقائهما جنين قد يكون رجلًا وقد يكون امرأة بعد أعوام تكاد تكون معروفة ، هل هذا الأمر المنظم بدقة يمكن أن يكون صدفة ؟ ! هل يمكن لهذا النظام الدقيق الذى أوجد اللقاء بين الرجل والمرأة على لذة ومتعة واشتهاء ليكون بهذا اللقاء عمران الكون على أسس وقواعد محسوبة من التكليف .. هل يمكن أن يكون ذلك الأمر صدفة ؟ إذا كانت

الصدفة تملك هذا القدر من التنظيم الدقيق فأنا أسميها اللَّه تعالى ! . هكذا يقول الفيلسوف الفرنسى .

إنه يرفض أن يكون مع الملاحدة الذين يرفضون نظام الكون والخضوع لقوانين التكليف ؛ فيصل بالاستنباط العقلى إلى قدرة الخالق جل وعلا .

وعلى هذا يمكننا أن نفهم قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ . أى خلق حواء مثلما خلق آدم ، وكما أوضح لنا الحق تعالى أنه خلق آدم من طين ، فكذلك خلق حواء ، ولنا أن نفهم أن كلمة زوج لا تعنى الرجل فقط ، ولكنها أيضًا تعنى المرأة ، فالمرأة زوج ، والرجل زوج ، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

إن كلمة زوج تطلق على الرجل عندما يتزوج ، وتطلق أيضًا على امرأته تمامًا ، كما أن كلمة توأم تطلق على الوليد الذى يشاركه وليد آخر فى نفس الرحم ويسميان توأمين ، وذلك أنه من الخطأ الشائع أن تقول زوج على الرجل والمرأة معًا ، إن المرأة والرجل معًا هما زوجان ، وهكذا نفهم من سياق قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى أن حواء قد خلقها اللَّه خلقًا مستقلًا كما خلق آدم ، ولنا أن نتأمل حكمة الخالق الذى ربط الرجل والمرأة برباط تحمل مسئولية عمران الكون ، بأن تبدأ المسئولية بينهما برغبة ولذة ، ثم تعب وتضحيات فى سبيل الأبناء ، إن التأمل للحظة لقاء الرجل بالمرأة فى فراش الزوجية والاستمتاع الحسى فى حدود أوامر الله ، هذا التأمل يجعلنا نقول : إنه لولا عطاء الحق تعالى لنا من انسجام وحنان ومودة وترابط ولذة ؛ لما كان قادرًا على تعمير الكون .

إن قمة اللقاء الذى يحدث منه التوالد مصحوبة بلذة ، وذلك من حكمة الخالق جل وعلا حتى لا يهرب الإنسان من تعمير الكون بالذرية التى تخلفه عملًا فى الأرض .

إن الذى يقولون : إن الخلق تم صدفة ، ويتم بالصدفة . هم جهلاء بحقيقة العلم وبجوهر الإيمان ، أىّ صدفة تلك التى تملك القدرة على خلق بويضة من مبيض المرأة تنزل إلى الرحم فى وقت لا يعلمه إلى اللَّه تعالى وحده ؟ ! ، ويأتيها الإخصاب من حيوان منوى خلقه اللَّه تعالى ضمن ملايين الحيوانات المنوية فى الكيس الحامل لهذه الحيوانات بالجهاز التناسلى للرجل ، ثم يحدث الإخصاب وتكوين العلقة فالمضغة وكساء العظام لحمًا ، ثم إنشاء الإنسان ليولد ليكون

من الميلاد ذكرٌ وأنثى وشعوبًا وقبائل ، لذلك لا يمكن أن تكون صدفة ؛ لأن الصدف لا نظام لها ، أما خلق الإنسان فله نظام حكيم وضعه إلهٌ قادرٌ خالقٌ ، قدر لكل خلق زمانًا ومكانًا وهدفًا ، إنه يخلق على هدى وعلى قدر .

إن الإحصاء المادى هو دليل إيمان بالله تعالى ، إن التعداد السكانى يزداد ، ولو أردنا معرفة تعداد سكان الأرض فى القرن السابق لوجدناهم أقل بكثير من زماننا هذا ، ولو عدنا إلى الوراء لأكثر من قرن لوجدنا التعداد ينقص أكثر ، ولو استمرت عملية قياس السكان بالقياس إلى الأزمان الماضية فلابد أن نصل إلى آدم وحواء ليثبت صدق قول الله جل وعلا : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ . هذا فى أمر خلق آدم وحواء .

قصة خلق الإنسان

وفى سورة « البقرة » يقص علينا ربنا تبارك وتعالى قصة الخلق الإنسانى فيقول جل وعلا : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠- ٣٣] .

هنا تكون بداية التأمل ؛ هى قول الحق تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ . إن التنبيه هنا لكل قارئ للقرآن الكريم أن له خالقًا وربًا ، هذا الخالق الرب اسمه « الله » ، إنه اسمٌ لواجد الوجود صاحب القدرة المطلقة فى كونه وخلقه .

عندما تتأمل هذا القول تجد أنه يتضمن عدة نقاط :

أولًا : بلاغًا من الله تعالى للملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة .

ثانيًا : أن الملائكة لم يسألوا عن الأرض كأنهم على علم مسبق بها ، ولم يسألوا عن الخليفة بل فهموا عن الله تعالى مراده .

ثالثًا : أن استدراك الملائكة كان على الإنسان نفسه الذى أخبرهم الله تعالى أنه خليفته ،

فهم يرون أنه سوف يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ومن ذلك نستنبط أن الملائكة كانوا على علم بوجود الأرض ، ومن ذلك نستنبط أيضًا أن الملائكة رأت خلقًا آخر عاش على الأرض وأفسد فيها ، فكأنهم عاشوا التجربةَ من قبل ، ولكن عليهم أن يذعنوا لأمر اللّه تعالى الذى يأمر فلا يعصيه أحدٌ ، والله تعالى حينما أخبر الملائكة فهو لم يخبر كل جنس الملائكة ، إنما أخبر هؤلاء الملائكة الذين لهم صلة بخدمة الخليفة القادم على الأرض ، وصيانته وحفظه ؛ كالمدبرات أمرًا ، والحافظة ، والرقيب ، والعتيد .

وعندما نتأمل قول الحق تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ . فإن التأمل لكلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ يوضح لنا أن الإنسان إنما جاء ليخلف بعضه بعضًا ، ونفهم أيضًا أن الخليفة هو من استخلفه اللّه تعالى فى الأرض وجعل الأشياء تنفعل له ؛ يوقد النار فتشتعل ، ويزرع الأرض فتنبت ، ويستأنس الحيوان فيأنس له الحيوان ، ويستخدم الأنعام فى الطعام والتنقل ويأخذ منها اللبن ليشربه والصوف ليغزله فتخضع الأسباب للإنسان ، وغفل الإنسان عن حقيقة وضعه على مر التاريخ ، ونسى أنه مستخلف فى الأرض ، وظن أنه الأصل الأصيل فى الكون ، وخضع لوهم أنه خالد فى الأرض وليس مستخلفًا فيها له ميلاد وموت .

فالحق سبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقية المخلوقات ، ونحن لا ندعى أن آدم هو أول من عمَّر هذا الوجود .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

فمن الممكن أن يكون هناك خلقًا كثيرًا قد سبقوا آدم فى الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشرى ، وعندما خلقه اللّه تعالى علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يتعامل مع مجريات الأحداث فى الكون ، فآدم لو لم يكن قد تعلم الأسماء كلها لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ، ولما استطاع على سبيل المثال أن يقول لابن من أبنائه : انظر هل أشرقت الشمس أم لا ؟

إذن .. كان لابد لآدم من معرفة الأسماء كلها ، ولابد أن هناك من علمه إيَّاها ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ، فلا أحد يستطيع أن يتكلم إلَّا بعد أن يكون قد سمع ، فالواحد منا سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ؛ وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فممن سمع آدم حتى يتكلم ؟ إنها مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل ، فمن الذى أسمع

آدم ليتكلم بأول كلمة ؟ لابد أنه اللّه تعالى .

يقول تعالى : ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة : ٣١] والواحد منا عندما يعلِّم ابنه الكلام ، فهو لا يعلمه الأفعال ، لكن يعلمه الأسماء ، أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلَّمها ، إن الواحد منا يعلم ابنه أسماء الأشياء ، يقول الإنسان لابنه : هذا كوب ، وهذه منضدة ، وذلك طبق ، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : « شرب » معناها كذا ، و « أكل » معناها كذا . إن الذى يتعلمه الطفل أولًا هو الأسماء ، هذه هى اللبنة الأولى ،وبعد ذلك تأتى المزاولات والممارسات فيتعلم الإنسان الأفعال .

إذن .. اللّه تعالى قذف بالإلهام كل الأسماء فى قلب ووجدان وإدراك آدم ؛ بدليل أن « المسميات » قد تم عرضها على الملائكة فلم تعرف أسماءها ، ولم تتعرف الملائكة على المسميات ، وذلك من طلاقة قدرة اللّه تعالى عندما ألهَم آدم فتعلم آدم الأسماء ، وعند تلك النقطة يتساءل البعض عن السر فى اختلاف اللغات من مكان إلى آخر رغم أن الخالق الأكرم قد علَّم آدم أسماء المسميات الموجودة فى الكون ، فلماذا إذن هناك ألوان من اللغات والألسنة ؟ **والإجابة هى** : إن تنوع فترات التاريخ ، وتتبع انتشار الإنسان على الأرض يجعلنا نجد أن كل مجموعة من اللغات تقترب من بعضها لتكون لغة واحدة ؛ فالفرنسية والإنجليزية والإيطالية مأخوذة عن اللاتينية ، والعبرية والسريانية لهما علاقة باللغة العربية ، بل إن اللهجات التى يتكلم بها العالم العربى تتنوع فى اللغة الواحدة .

وهكذا نعرف أن اللغة هى وسيلة لمعرفة أسماء الأشياء ، وهكذا نعرف أن اللّه قد قذف بالإلهام أسماء الأشياء فى إدراك آدم عليه السلام ، وكان إدراك آدم توقيفيًا ، أى أنه عرف كل اسم لكل مسمى كما خلقه اللّه تعالى ، ثم نزل إلى الأرض لتتطور هذه المسميات ويعمل العقل الإنسانى لتطوير وتحديد الأشياء مما استدعى أن يضع لها أسماء مشتقة مما تلقاه آدم عليه السلام من الحق سبحانه وتعالى .

الجنة التى دخلها آدم عليه السلام هل هى جنة الخلد . . . أم جنة فى الدنيا ؟

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٩] ، كثير من العلماء قالوا : إن المقصود بالجنة هى

جنة الخلد فى الآخرة ، وهنا تساءل الناس ، كيف يمكن أن يدخل إبليس جنة الطائعين للّٰه تعالى وهو عاصٍ ؟ وكيف يمكن أن يدخل جنة الخلد ثم يخرج منها ، مع أن اللّٰه تعالى قد كتب أن كل من يدخلها لا يخرج منها ؟ نقول لهؤلاء جميعًا : إنكم لا تفطنوا إلى مدلول كلمة جنة ، فهذا شيء يسمى : **غلبة الاستعمال** . ذلك أن اللفظ يكون له معان متعددة ، ولكنه يؤخذ عادة وعرفًا على معنًى واحد ، بحيث إذا سمع اللفظ انصرف الذهن إلى هذا المعنى بالذات ، ومن هذا المدلول حين يسمع كلمة جنة ، ينصرف ذهنه إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هى الجنة الحقيقية . ولكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن الكريم لابد أن نعرف استعمالاته ، لأن المتكلم هو اللّٰه تعالى .

ومن الجائز أن يكون للفظ فى اللغة معان متعددة ، ولكنه فى الدين يأخذ المعنى الشرعى الاصطلاحى ، مثلًا حين تسمع كلمة الحج ، تقول إن معناها : أن تقصد بيت اللّٰه الحرام . ولكن الحج فى اللغة معناه : القصد فقط ، فإذا قصدت الذهاب إلى مكان تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أصبح المعنى الإسلامى الفقهى الشرعى لكلمة الحج : هو أن تقصد بيت اللّٰه الحرام لأداء المناسك ، وكلمة صلاة مثلًا معناها فى اللغة الدعاء ، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١٠٣] . أى ادع لهم ، فلما جاء الإسلام أخذها إلى معنى العبادة المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بكل شروطها .. هذه هى الصلاة . وهكذا أصبح لهذه الألفاظ معانٍ فقهية إسلامية بحيث إذا أردنا أن نستخدمها فى معناها اللغوى الأصلى لابد أن نبين ذلك للناس . وهذا ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة جنة ساعة أن ننطق بها ينصرف المعنى إلى جنة الآخرة .

ولكن الجنة فى اللغة معناها : الستر ، ولذلك يطلق على المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة تستر الإنسان وهو يمشى فيها كلمة : الجنة ؛ وفى نفس الوقت فإنها بثمارها الكثيرة المتنوعة تعطى الإنسان ضروريات وكماليات الحياة ؛ ولذلك فهى تستره عما جاورها ، ويستطيع أن يبقى فيها مستترًا ولا يخرج ، فهى ستر دائم يعيش فيه مستورًا ويجد فيها حاجته ، هذا هو المعنى اللغوى للفظ الجنة .

فإذا جئنا إلى القرآن الكريم وجدنا أن القرآن استخدم الجنة فى المعنيين ، معناها اللغوى ومعنى جنة الآخرة ، وإذا قرأنا القرآن الكريم نجد ما يلى : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة : ٢٦٦] . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ

أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. وقوله جل جلاله: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

نلاحظ هنا أن الاستخدام فى الآيات الثلاث للفظ «جنة» لا يعنى جنة الآخرة؛ بل يعنى جنات الدنيا، **على أن بعض العلماء يقول**: إن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين جنات الدنيا وجنة الآخرة، فلفظ الجنة يطلق على جنة الآخرة وحدها، ولفظ جنة من غير الألف واللام يطلق على جنات الدنيا.

نقول لهم: إن هذا القول غير صحيح بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]. والحديث فى الآية عن جنة أو حديقة لها ثمار فى الدنيا. إذن .. فالألف واللام لا يميزان اللفظ ولا يجعلانه ينصرف إلى جنة الخلد فى الآخرة. **وبعض العلماء يضيف**: إن الله تعالى أدخل آدم وزوجته جنة الخلد، وعندما عصيا أنزلهما إلى الأرض، ولو أنهما لم يعصيا لظلاَّ فى الجنة.

نقول لهؤلاء: أنتم أبطلتم مرادات الله فى خلق آدم، لم يقل الله تعالى: إنه خلق آدم ليعيش فى الجنة؛ بل خلقه ليعيش فى الأرض؛ وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

إذن ... فآدم مخلوق للأرض ليعمرها ويعيش فيها، ولذلك لا يقول أحد: إن لو لم يرتكب معصية لبقى فى الجنة. وكان السؤال الذى يجب أن يسأل هو: أنه ما دام آدم خلق خليفة لله تعالى فى الأرض، فلماذا سكن الجنة أولًا؟

نقول: إن لذلك حكمة، فآدم خلق ليتلقى المنهج من الله تعالى فى: «افعل ولا تفعل»، افعل كذا فإن لم تفعله فسدت الأرض، ولا تفعل كذا فإن فعلته فسدت الأرض. وما لا يظهر منه فساد تركه الله تعالى مباحًا فى أن يفعله آدم وذريته أو لا يفعلوه، فمنهج الله أساسًا يمنع أن تفعل ما يحدث الفساد فى الأرض، ويأمرك أن تفعل ما يمنع الفساد فى الأرض، ولكن هل ترك آدم هكذا دون أن يوجد من يحاول أن يفسد عليه منهج الله؟ لا ... فقد جاء الشيطان

ليفسد منهج الله فى نفس آدم ، فيزين له أن يفعل ما نهاه الله عنه ، وألا يفعل ما أمره الله به ، فإذا قال الله لآدم : صلّ . زين [له] الشيطان ترك الصلاة ، وإذا قال الله له : لا تشرب الخمر . زين له الشيطان أن يشرب الخمر .. [فهى] عملية أفساد للمنهج ، والله سبحانه وتعالى يريد لخليفته فى الأرض أن يتبع منهجه حتى يسعد فى الدنيا والآخرة .

ولذلك كان لابد أن يتم تدريب آدم بالتجربة العملية على ما سيحدث له إذا أطاع المنهج ، وما سيحدث إذا عصاه ، كان لابد أن يتلقى تدريبًا عمليًا فى « افعل ولا تفعل » ، فالمنهج لابد أن تأتى معه التجربة حتى يكون التطبيق صحيحًا .

أى افعل ما تشاء بالنسبة للتمتع بثمار هذه الجنة وخيراتها ، ولا تفعل أى : لا تقترب من الشجرة ، وهكذا منهج الله تعالى فى الأرض ، يبيح لنا الكثير والكثير جدًّا ، ويحرم علينا القليل والقليل جدًّا . وحذر الله سبحانه وتعالى آدم من عدوه وهو إبليس ، فقال تعالى : ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه : ١١٧] . ذلك أن عداوة إبليس ثابتة بامتناعه عن تنفيذ أمر السجود لآدم ، ثم بعد ذلك بما أظهره من نوايا : ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى أخر الآية الكريمة [الأعراف : ١٦] .

إذن . . . لابد أن نعلم أن الجنة التى عاش فيها آدم ليست هى جنة الخلد ؛ لأن الحياة فى جنة الخلد لا تأتى إلا بعد التكليف ، فهى جزاء لاتباع منهج الله تعالى ، وليست سابقة على هذا المنهج ، كما أن جنة الآخرة هى جنة الخلد ، من يدخلها لا يخرج منها أبدًا ، وآدم مخلوق للأرض ، إذن . . . فالجنة التى عاش فيها آدم هى مكان أعده الله سبحانه وتعالى له ليتم تدريبه فيه على المنهج ، أمرًا بقوله تعالى : ﴿فَكُلَا﴾ ونهيًا بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ .

هل كان السجود لآدم عليه السلام بأمر الله تعالى ؟

قال تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] .

قال بعض العلماء : إن أمر الله تعالى بالسجود هنا المراد به هو التحية والتعظيم وليس السجود الفعلى ، لأن السجود لغير الله منهى عنه .

ولكن السجود هنا لابد أن يؤخذ بمعنى السجود . . . لماذا ؟ لأن الملائكة لم تسجد لآدم ، وإنما سجدت لأمر الله تعالى بالسجود لآدم ، تمامًا كمسألة القبلة عندما أمرنا الله تعالى أن نتجه

في الصلاة إلى المسجد الأقصى ، لم يكن المسلمون يسجدون للمسجد الأقصى ، ولكن لأمر الله تعالى في الاتجاه إليه ، فلما تغير الأمر وأصبحت الكعبة هي القبلة اتجه المسلمون إلى الكعبة ، ولكنهم لا يسجدون للكعبة ذاتها ، ولكن لأمر الله سبحانه وتعالى بالسجود في اتجاه الكعبة .

إذن .. السجود هنا لأمر الخالق ، والعمل بالنية ، والنية في سجود الملائكة لم تكن لعبادة آدم ، ولكن لطاعة أمر الله ، وأمر الله لابد أن يطاع .

وبعض الناس يسأل : لماذا كان سجود الملائكة لآدم ؟ نقول : إن الله تعالى سخر الكون كله لآدم وذريته ، وسخر من الملائكة من يخدمون آدم وذريته ؛ منهم المدبرات أمرًا الذين يقومون بتنفيذ أوامر الله بالنسبة للإنسان ، ومنهم الحفظة الذى يكتبون كل ما يحدث من البشر ، فكأن سجود الملائكة هو سجود أُلفةٍ ومعرفةٍ ، والذين سجدوا هم الموكلون بخدمة الإنسان في الأرض ، أما الملائكة العالون المقربون إلى الله فإنهم لم يسجدوا ، بدليل قول الله سبحانه وتعالى لإبليس حينما رفض السجود : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص : ٧٥] . أي : من الملائكة العالين الذين لم يشملهم أمر السجود .

[إذن كان السجود لآدم بأمر الله ولأجل أنه أمر سبحانه وتعالى] .

إبليس .. لم يكن من الملائكة

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف : ٥٠] .

فقوله تعالى : ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ . أخرجه من جنس الملائكة . وقوله تعالى : ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ تأكيد أن إبليس من الجن ؛ لأن الجن كالإنسان مخلوق له اختيار ، يستطيع أن يطيع ، ويستطيع أن يعصى ، ومادام له اختيار فإنه ليس من الملائكة ؛ لأن الملائكة ليس لهم اختيار ، فهم : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم : ٦] . وهكذا نجد أن قوله تعالى : ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ . لا يدل على أن إبليس من الملائكة ؛ لأن الملائكة لا يستطيعون المعصية .

وبعض الناس يقول : إن النص القرآني فيه التزام بأن إبليس من الملائكة بدليل قوله تعالى : ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ، **ولكننا لابد أن نحمل نصَّ الالتزام على**

النص القرآني : ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ ، وهكذا تأتى هذه الآية لتعطينا حكمًا ، [وهو أن] إبليس كان من الجن .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الملائكة ليس لهم اختيار ؛ ولذلك فإن الإنس أو الجن الذى يكون قادرًا على المعصية ويطيع ، ويأتى الله عن طواعية واختيار يكون فى هذه الحالة أعلى منزلة من الملك ؛ لذلك كانوا يسمون إبليس : طاووس الملائكة ؛ لأنه كان يزهو فى حضور الملائكة بإلزام نفسه بمنهج الله تعالى ، فكان يزهو على الملائكة بأنه صالح أن يطيع أو أن يعصى ولكنه تميز بالطاعة ، وهذا الغرور هو الذى أوقع إبليس فى المعصية ، ومادام إبليس قد تلقى أمر السجود ؛ فلابد أنه حضر البلاغ الأول حين قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ . وسجد المفطورون على الطاعة ، وهم الملائكة ، وكان من المفروض أن يسارع فى الامتثال لأمر الله أولئك الذين لهم اختيار على الطاعة أو المعصية ، وهؤلاء قد يكونون أدنى خلقًا من حيث المادة من الملائكة ، ولكنهم يكونون أكثر قربى إلى الله تعالى ؛ لأنهم ألزموا أنفسهم بالطاعة اختيارًا وحبًا لله تعالى .

وهكذا إذا كان أمر السجود قد شمل الملائكة ، وهم أعلى خلقًا في المادة إذ إنهم خلقوا من نور ، فلابد أن يشمل الجن الذى خلق من نار حتى ولو لم ينص عليه ، ولكن مادام إبليس من الجن ، فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار ففسق عن أمر ربه .. لماذا ؟ أخذه الكبرياء حتى فى أمر الله تعالى ، فجاء في القرآن : ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء : ٦١] ثم يقول : ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف : ١٢] ، استكبارًا واستعلاءً على مَن خلَقه .. أتوجد معصية أكبر من ذلك ؟ !

وقوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ ، أى من الذى حجز بينك وبين السجود ؟ ولا توجد « ألَّا » زائدة أو « ألَّا » صلة ، بل إنها لتؤكد لنا المعنى بأن إبليس امتنع عن السجود من نفسه دون أن تقهره قوه على الامتناع .

وقوله تعالى : ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف : ١٢] . دليل يقطع باليقين أن أمر السجود يشمل إبليس ، وإلا ما قال له الله سبحانه وتعالى : ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ .

إذن .. إبليس كان داخل فى الأمر الذى صدر للملائكة بالسجود .

وجاء الرد من إبليس : ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ، ولكن الحق تبارك وتعالى لم يسأل إبليس : ما هى منزلتك بالنسبة لآدم ، ولكنه سأله ما منعك ؟ . وكان الجواب يقتضى أن يقول : منعت قهرًا ، أو أنا ممتنع عن السجود ، ولكنه قال : ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ؛ فكأن إبليس كان يبحث فى ذهنه عن مبرر أو سبب لعدم السجود ، وعندما قال إبليس : ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ . كان هذا كبرًا ومعاندةً ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذى خلق ، وهو الذى يعرف من هو خير مِنْ مَن . ولكن إبليس أراد أن يعدل الأمر على اللَّه تعالى ، ويرد الأمر على الخالق بينما هو مخلوق ، فكأنه - عليه لعنة اللَّه - يُخطِّئ الحقَّ سبحانه وتعالى فى أمره ويقول له : ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ، فكيف تأمر الأعلى أن يسجد للأدنى ؟

وهكذا أخذ الكبر من نفس إبليس درجة جعلته يعتقد- والعياذ بالله- أنه أعلم من الحق سبحانه وتعالى ، وأن من حقه أن يعدل الأمرَ على اللَّه تعالى ، ويخبره بما يجب أن يفعل ، ولم يكن جزاء [لهذه] المعصية أقل من الطرد من رحمة الله .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ . والهبوط : معناه الانتقال من منزلة أعلى إلى منزلة أدنى . **وبعض العلماء يحاول أن يستدل على ذلك أن الجنة التى وجد فيها آدم وإبليس كانت فى أعلى عليين**، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ .

ولكننا نقول : إن الهبوط لا يستدعى مكانًا أعلى ومكانًا أسفل ، وفرق بين هبوط المكان وهبوط المكانة ؛ لذلك عندما قال الحق سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل : ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة : ٦١] . لم يكن بنو إسرائيل يعيشون فى مكان فى السماء ، بل كانوا فوق الأرض ، وعندما قال اللَّه تعالى لنوح : ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود : ٤٨] . كان يعنى الهبوط من السفينة ، ولا يقتضى ذلك النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى .

وعلى أية حالٍ فإن الهبوط قد يكون من مكان إلى مكان ، أو من مكانة إلى مكانة ، فكأن إبليس كان فى حضرة الملائكة عندما ألزم نفسه بالطاعة ، ولما عصى وأصر على المعصية نزل من مكانه الذى كان فيه إلى أسفل السافلين . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف : ١٣] .

فكأن اللَّه تعالى قد أعطانا حيثية طرد إبليس من رحمته ، فإبليس قد تكبر على أمر الله ، فالامتناع عن أمر المعبود من العابد هو نوع من الكبرياء على المعبود ، وما دام إبليس قد تكبر على أمر اللَّه تعالى ، فهو ليس أهلًا لأى مكانة عالية ، فكأن طاعة إبليس قبل معصية السجود هى التى أعطته مكانة عالية ، ومعصية إبليس فى أمر السجود هى التى جعلته فى أسفل السافلين ، إذن فليس منا من هو له منزلة عالية بذاته ، ولكن العمل والطاعة هما اللذان يعطيان الإنسان علوًّا عند اللَّه تعالى ، والمعصية هى التى تعطيه المنزلة السفلى ، وفى هذا حكمة من الحق سبحانه وتعالى ، فالجان لأنه مخلوق من نار يمتاز بالسرعة واختراق الحواجز والنفاذ من الجدران والنفاذ من جسم الإنسان . كما قال النبى ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » . [فهو] مثل الميكروب ، تلك طبيعة المادة التى خلق منها الجان ، مادة النار ، فأنت إذا جلست خلف جدار ، ووضعت فى الناحية الأخرى تفاحة ، لا تستطيع التفاحة أن تتعدى بشكلها ولونها وطعمها الجدار ، وتنفذ إليك ، ولكن إذا كانت هناك نار خلف الجدار فإن حرارتها وإشعاعها يتعديان إليك ، لأن طبيعتها الشفافية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعلمنا درسًا للجن والإنس معًا ، فقال : لا تعتقدوا أن العنصر الذى خُلقتم منه يعطيكم تميزًا ؛ بل إرادة الخالق وحدها هى التى تعطى هذا التمييز .

غواية الشيطان .. وتوبة آدم عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف : ٢٢] . كلمة دلَّى مأخوذة من دلى رجليه فى البئر أى : أنزلهما فى البئر ليرى إن كان فيها ماء أم لا . أو دلى حبل الدلو أى : أنزل الدلو فى البئر بحثًا عن الماء . ومعناه أنه يفعل الشىء مرة ومرة . والغرور هو الإغراء الذى يوقع الإنسان فى المخالفة . وهنا لنا وقفة .. عندما أقسم إبليس لآدم وحواء اعتقدا أنه ينصحهما ، ولكن المسألة لم تكن مجرد الأكل من الشجرة ؛ بل لابد أن إبليس فى أول الأمر خدعهما ليقتربا من الشجرة ، ثم زين لهما ثمارها ، ثم بعد ذلك أغراهما بالأكل ، أى أن المعصية تتم على مراحل وليس على مرحلة واحدة ، وتُنسج عودا عودا كالحصير ؛ **ولذلك فإننا لابد أن نتنبه إلى أن اقترابنا من أماكن المعصية لابد أن يوقعنا فيها ،** والنفس المؤمنة تتبين الحق بمجرد الوقوع فى المعصية ولا تتمادى فيها ، ولذلك قال اللَّه سبحانه

وتعالى : ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ . ولم يقل « فلما أكلا » من الشجرة ؛ لأن الأكل يقتضى إعادة المعصية مرات ومرات ، بينما مجرد التذوق يتبين منه أنها حدثت مرة واحدة فقط ، أى أن المعصية لم تتكرر ؛ بل حدث التنبه بمجرد حدوثها ، ولم يكن هناك إصرار على المعصية ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف : ٢٢] . والخصف هو أن تدارى شيئًا بشىء آخر كما تدارى خرقًا فى الثوب بقطعة القماش ، ولابد أن تكون قطعة القماش أوسع قليلا من الخرق . ولذلك كانت المداراة ليست بورقة من أشجار الجنة ؛ بل بأكثر من ورقة حتى تدارى منطقة العورة . وطفقا معناها : شرعًا فى العلم ، وحينئذ ماذا حدث ؟

قال تعالى : ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف : ٢٢] . ذلك أنه من عدل الله تعالى ألا تقع عقوبة إلا بتحذير ، ولذلك يقول الحق : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] .

أى أن الله تعالى لابد أن يحذرنا أولًا من المخالفة ويقول : إن الجزاء سيكون كذا وكذا . فإذا تمت المخالفة أصبح العقاب حقًّا وعدلًا . ولذلك لا يوجد فى التشريع الإلهى ما يسمى بالقوانين بأثر رجعى ، فلا تحريم فى العدل الإلهى إلا بنص ، والنص هو نهى الله تعالى عن أن يقربا الشجرة ، وتحذيره لهما من أن الشيطان عدو[لهما] . وقال الحق : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ . ولم يقل : لقد نهيتكما عن هذه الشجرة . لأنه لم يشأ أن يجعل النهى خبرًا منه ؛ بل أراد أن يأخذ الحكم من أفواههما . [فقد كان] من الممكن أن يقول : نهيتكما عن هذه الشجرة . أو : أنا نهيتكما عن هذه الشجرة . ولكنه لم يستفهم بالإثبات ؛ بل استفهم بالنفى وقال : ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ . لأن الجواب من أفواههما سيكون : نعم أنت يا ربنا نهيتنا ؟ وفى هذا توكيد للخبر على وجه التأكد واليقين .

حينئذ وقف آدم وحواء أمام الله تعالى مقرين معترفين بالخطأ والمخالفة وقالا : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

تلك هى الكلمات التى قال الله سبحانه وتعالى عنها : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة : ٣٧] . وهذه الكلمات هى اعتراف بالذنب ، واعتراف بأن الله تعالى حق ، وقوله حق ، وأن آدم وحواء لم يستطيعا أن يحملا نفسيهما على اتباع المنهج فظلما نفسيهما ، ثم طلبا من الله تعالى المغفرة والرحمة لئلا يكونا من الخاسرين .

الحكمة من معصية آدم عليه السلام وتوبته

إن اللَّه تعالى درَّب آدم عليه السلام قبل أن يباشر مهمة الاستخلاف فى الأرض تدريبًا يؤهله لمسئولية الاستخلاف فى الكون ، وكان التدريب فى مكان يكفل الحياة والراحة والأمن ، وما كان اللَّه تعالى ليَزُج بآدم فى ذلك الكون الواسع دون أن يدربه أولا على مهمته .

أوضح اللَّه تعالى له الأوامر ، وأجلى له النواهى ، وحذره من الشيطان . ولم يكتفِ الخالق الرحيم بذلك ، بل قدم لآدم الفرصة للتوبة إن أصابته الغفلة ، وأعلمنا الحق كيف أن الشيطان قد ثأر لنفسه من آدم ، لقد عصى الشيطان ربه فلم يسجد لآدم ، وأراد أن يستأثر بآدم ليوقعه هو وأبناءه فى الخطيئة ، ولقد نبه اللَّه تعالى آدم لعداوة إبليس ، ومع ذلك وسوس إبليس لآدم وقادة إلى الخطأ .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧] .

ومعنى ذلك أن اللَّه تعالى خلق التوبة ، وأنه يقلبها ؛ لذلك فلا وجود لواسطة بين اللَّه تعالى وبين البشر ، ولا وجود لإنسان بمفرده قادر على أن يحمل عن البشر خطاياهم ، فخطأ آدم تم تصويبه ، أما الخطيئة التى يرتكبها أى كائن من البشر فالخالق يعاقبه عليها ، وما فعله آدم ليس خطيئة إنما [هو] خطأ ، أما الخطيئة كالقتل وسفك الدماء والدَّسّ بين الناس ، وإثارة الوقيعة بينهم ، فالعقاب عليها إما فى الدنيا أو فى الآخرة ؛ ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

ويجب ألَّا ينظر أبناء آدم إلى أبيهم آدم كأول من ارتكب الخطيئة ، ذلك أن آدم لم يرتكب خطيئة ، ولكنه ارتكب خطأ ، فهو ابن للغفلة والسهو ، إن خطأ آدم ليس من ذنوب الاستكبار على اللَّه كذنب إبليس ، ذلك أن آدم قال هو وحواء[معترفين بخطئهم] : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، هنا كيف استغفر آدم ربه ؟

لقد تحدث آدم إلى ربه بانكسار ؛ لذلك تاب اللَّه عليه ، وتساءل كثير من العلماء عن الكلمات التى علمها اللَّه لآدم حتى يقولها فيتوب عليه ، قال بعض العلماء : إن آدم قال :

« اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك ، تُب علىَّ إنك أنت التواب الرحيم » . وقال بعض آخر من العلماء إن آدم قال : « اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك ربى وبحمدك ، ربِّ إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ، فتقبل توبتى يا خير التوابين » .

ونحن لا نقف عند نص الكلمات التى قالها آدم عليه السلام ، راجيًا التوبة .

لكن نقول : إن آدم عليه السلام ، أقر بطاعة مطلقة لحقِّ الخالق الأكرم فى التشريع .

فطاعة آدم إذن هى اختيار وانكسار واعتذار ورغبة فى أن يقبل اللَّه توبته [لماذا] ؟ محبة منه فى اللَّه الخالق ، ولو نظرنا إلى هذا الموقف- موقف طلب آدم التوبة- لوجدناه مبدأً نورانيًا مُهِمًّا فى حياة الجماعة ، إن طلب آدم للتوبة ، وقبول اللَّه لتوبته ، إنّما هو وضع أساسًا هامًا لمسيرة الإنسان ، إن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحًا ، فيُقبل على اللَّه بانكسار ، ولا يتمادى فى معصيته .

ولو أن باب التوبة لم يكن مفتوحًا ، لتاه كل صاحب ذنب ، ولفسدت الدنيا ، ولكن يجب أيضًا ألَّا نُقبل على طاعة اللَّه بغرور واستكبار . ويجب ألا يخطئ أحد ذلك الخطأ الذى قد يقع فيه البعض فيقول بغرور- حاشا لله- : وماذا للَّه عندى ؟ إن له عندى العبادة وها أنذا أعبده . إن اللَّه تعالى لا يريد مثل هذا اللون من الإقبال على عبادته ، إن اللَّه يحب أن يقبل الإنسان على عبادته وهو محب للَّه الذى فرض هذه العبادة ، ذلك أن العبادة ليست شكلًا تؤديه بدون مضمون ، إن العبادة إجراء كامل من الخضوع التام للَّه تعالى شكلًا ومضمونًا ، فهناك حكمة من خلق الإنسان ، وله خاصية الاختيار ، وليس مقهورًا على العمل الصالح فالحكمة هى أن اللَّه تعالى أراد الإنسان حرًا فى اختيار الطاعة أو العصيان ، حتى يقبل الإنسان وهو طائع بحب ، أو يعصى باختياره فينال عقابه .

ولنا أن نعرف أن الإنسان بطبيعته ليس خيِّرًا مطلقًا ، ولا شريرًا مطلقًا ، ونحن نرى فى الحياة نماذج متنوعة من البشر ، [فنجد إنسانًا] يتميز بعمل الخير ، لكنه فى إحدى المرات قد يعمل عملًا خارجًا عن دائرة عمل الخير ، ونرى إنسانًا آخر يتميز بعمل الشر ، لكنه قد يقوم بعمل خارج عن دائرة الشر ؛ ولهذا كان الثواب وكان العقاب ، قد يسهو الطائع فيزل ، فيعود إلى اللَّه تعالى مستغفرًا ، وقد يجرب العاصى طاعة اللَّه تعالى فيدخل فى رحاب اللَّه طالبًا

المغفرة والتوبة ، وبعض البشر من العاصين يقولون بينهم وبين أنفسهم ، سنعمل ذلك العمل الخيِّر لأنه بسيط على الإنسان ، وقد يغفر اللَّه تعالى لنا به المعاصى ، وقد تجد زلة بسيطة لبعض مَن يعملون الخير ، فيسترها اللَّه عن عيون الناس إكرامًا لعمل الخير.

ولذلك يقول بعض الصالحين ممن ذاقوا حلاوة الإيمان : « رُبَّ معصيةٍ أورثت ذلًّا وانكسارًا ، خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا » . كأنهم عرفوا أن الخالق أوجد الذلة للنفس البشرية حتى يعتدل ميزانها ، ولا تدخل فى باب التيه بالعبادة .

كذلك أراد اللَّه تعالى لآدم عليه السلام ، أن يوجد فى الأرض وهو غير محمل بعبء معصيته نتيجة الغفلة ، وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لآدم : إياك أن تجعل معصيتك فى بالك لتصدك عن حركة الحياة ، وخذ هذه الكلمات لتعلمها لأبنائك من بعدك حتى إذا عصى واحد منهم فإن باب التوبة مفتوح. يقول لنا العزيز الغفور : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وكذلك فقد أخبر سبحانه أن للتوبة شروطًا ، لتسمعها فى قوله تعالى فى الآيتين : ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤، ٥٥].

إن التوبة تستدعى أن ينيب ويرجع الإنسان إلى ربه ، وأن يسلم الإنسان بكل جوارحه لله ، وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجأ بالعذاب فى الحياة الدنيا أو فى الآخر ، ولابد أن يتبع التائب أفضل ما نزل من الخالق إلى المخلوقات ، وهو القرآن الكريم ، ونحن نعرف من قصة آدم أنه تاب إلى الله ، وأن الخالق هو التواب الرحيم ، وكأن اللَّه فى حديثه عن آدم يقول لنا : إننى توَّابٌ ، لم أقبل توبة آدم وحده ، ولكنى أقبل توبة أى عبد منكم يا أبناء آدم . ولنا أن نعرف أن حديث اللَّه عن نفسه أنه « توابٌ » يتضمن التوجيه المباشر لكل عاصٍ أن يسرع بالتوبة إليه ، وإلى تلقِّى رحمته . وهو يغفر الذنوب جميعًا لمن يسلم قلبه وجوارحه إليه .

إن الخالق يستر على عباده رحمة بهم وترغيبًا لهم فى التوبة إليه ، ولكن عندما يزيد الأمر عن الحد ، فإن اللَّه يأخذ العبد بذاك الذنب الذى ارتكبه ؛ لذلك فالمؤمن الواعى هو من يسمع

قول أبي بكر الصديق رضي اللّه تعالى عنه : « والله إنى لا آمن مكر الله » . إن صاحب هذا القول هو الصِّديق ، الذى أسلم وجهه للّه فورَ دعوة الرسول ﷺ له ، وصدقه يوم أن كذبه الناس ، هذا الصديق لا تغفل عينه عن مراقبة نفسه ، خشية أن يرتكب معصية فيعقابه اللّه تعالى عليها ؛ لهذا فكلٌّ منا عليه أن يعرف أن اللّه تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] وأنه : ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ .

العبرة مِن قصة آدم عليه السلام

الله سبحانه وتعالى فى قصة آدم كلها يريد أن يبين لنا أن آدم يتمثل فى عنصرين ، فى أنه بشر يصيب ويخطئ ، ويخالف منهج اللّه ثم يتنبه فيتوب ، ولكن اللّه تعالى أراد أن نعلم أن فى آدم أيضًا عنصر النبوة المعصوم من الخطأ فاجتباه وجعله نبيًّا ، فآدم كبشر أكل من الشجرة فعصى ، وآدم كنبى بلَّغ ذريته الرسالة ؛ ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآنى : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه : ١٢١] وهذه طبيعة البشر [وإلى قوله تعالى] : ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه : ١٢٢] إذن .. فالاصطفاء جاء بعد المعصية . آدم فيه بشرية تخطئ وتصيب ، وفيه نبوة معصومة ، وهذه تتمثل فى الأنبياء من ذريته الذين عصموا من المعصية ؛ لذلك لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟ نقول : تنبه أن النبوة لم تأت إلا بعد أن عصى آدم وتاب وتقبل اللّه تعالى توبته ، وهو يمثل مرحلة البشرية كلها منذ خلقه إلى يوم البعث .

والبشرية تنقسم إلى قسمين : بشر يبلغهم اللّه تعالى منهجه فيطيعون ويعصون ويتوبون ، وأنبياء يبلغون عن اللّه تعالى منهجه ، وهؤلاء عصمهم اللّه تعالى من الخطأ . **والذين يقولون** : إن آدم كان مخلوقًا ليعيش فى الجنة ، وأنه نزل إلى الأرض بسبب المعصية . **نقول لهم** : افهموا عن اللّه تعالى ساعة خلق آدم ، قال اللّه جل جلاله : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] إذن .. فمهمة آدم الأساسية فى الأرض هى المقام فى طاعة اللّه والحكم بالعدل بين خلقه ، والفترة التى قضاها فى المكان الذى أطلق عليه « الجنة » كانت تدريبًا على مهمته فى الأرض ، فلا نقول : إنه طرد من الجنة بسبب المعصية . لأن المعصية أعقبتها توبة مقبولة ثم نبوة ، أما الجنة فكانت مرحلة من مراحل الإعداد للخلافة فى الأرض .

طرف من قصة إدريس عليه السلام

قال اللّٰه تعالى : ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم : ٥٦، ٥٧] إدريس عليه السلام هو أول نبى بعد آدم عليه السلام ، وهو إدريس ابن برت بن شيث بن آدم ، وجاء بعده من الأنبياء نوح ثم الخليل إبراهيم ومنه سلسلة النبوات بعد ذلك عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام .

والصديق هو الذى يبالغ فى تصديق كل ما يجيء به الحق ، ويجعل اللّٰه تعالى له فرقانًا ، بحيث إذا سمع الحق يصدقه ؛ لأن الكلام إذا كان موافقًا للحق ومن الحق فلا يتصادم معه شيطان فى الدخول على العقل ، فالشيطان يدخل بين الناس ولكن الشيء الوارد من الحق سبحانه لا يستطيع الشيطان أن يدخل فيه .

ومعنى : ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ . يقصد به مكانًا فى السماء ، أو رِفعةً معنوية ، أو حسية ؛ لأن الذى خلقه أخبرنا بذلك ، فإياك أن تسأل عن ماهية الرفعة لأن هذه رفعة عند من رفعه سبحانه وتعالى .

* * *

ذكر قصة نوح عليه السلام

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥] عندما تقرأ اللام فى ﴿وَلَقَدْ﴾ تعرف أنه قسم. و﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ معناها قول الحق تبارك وتعالى : وعزتى وجلالى لقد أرسلت نوحا . إذن فاللام للقسم وباقى الآية جواب القسم فى أن الحق قد أرسل نوحا إلى قومه ، على أننا لابد أن نقف عند كلمة : « قوم » فبعض الناس يعتقد أن القوم هم القبيلة أو العشيرة أو أهل البلدة . نقول : إن القوم هم الرجال خاصة من هؤلاء ، والرجال هم اللواجهون بالرسالات السماوية ، والمرأة محتجبة مستترة تسمع إما من أبيها ، وإما من أخيها ، وإما من زوجها ، ولقد احتجت النساء على ذلك فى عهد رسول الله ﷺ وقلن له : غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا من أيامك تعظنا فيه . أى أن الاحتجاج جاء من أن رسول الله ﷺ كان وقته كله مع الرجال وأن النساء يردن أن يجلسن معه ويسألنه فى أمور دينهن ، فجعل لهن يومًا ، ولكن المفروض فى المرأة أنها ستر ، وأن الذى ينقل إليها المنهج إما زوجها ، وإما أبوها ، وإما أخوها ، وهؤلاء يسمعون من رسول الله ﷺ ثم يذهب كل واحد منهم لينقل ما سمعه لأهله .

وإذا كان كل رسول قد واجه قومه فمعنى ذلك أنه قد واجه الرجال خاصة من قومه .. لماذا ؟ لأن « القوم » من قائم على كذا ، أو قيّم على كذا ، وهذا عمل الرجال ، ولذلك قال الشاعر العربى :

وما أدري ولست أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

إذن .. فالقوم المراد بهم الرجال ، والقرآن الكريم ينبئ بذلك فى قوله تبارك وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات : ١١] فكأن النساء لا يدخلن فى القوم ، والرجال هم الذين يواجهون دعوة الرسل بالمقاومة وبالتصلب ، وبالإنكار والجحود ؛ بل بالحروب .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف : ٥٩] . **نجد فى هذه الآية ثلاثة أحكام :**

الأول : فى العقيدة- فى الإله- أنه إله واحد . وما دام إلهًا واحدًا ؛ **يأتى الحكم الثانى** : وهو أن نعبده ؛ لأنه لا إله غيره وهو واجب العبادة .. والعبادة هى أن نطيع أمره وننتهى عما نهانا عنه ، وإذا لم نفعل ذلك ؛ **يأتى الحكم الثالث** : وهو أننا سنواجه بعذاب يوم عظيم ، هو عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم عظيم يسبق يوم القيامة ، يوم أغرق اللّه قوم نوح بالطوفان ، والخوف : هو شىء مستقبل نخشاه ونخاف أن نلقاه ، فكأن نوحًا ينبه قومه إلى أن العصيان سيأتى لهم بما يخشونه وما لا يستطيعون دفعه ، وأنه قلق عليهم من ذلك ؛ ولذلك فهو يحاول أن ينجيهم ، **وهكذا تتحدد الأحكام الثلاثة فى السورة وهى** : أنه لا إله إلا الله ، وما دام لا إله غيره فهو واجب العبادة ، وعبادته تكون فى طاعة ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، فإن لم نفعل فهناك عذاب عظيم ينتظرنا .

من هذه الأحكام الثلاثة .. مَن الذى يفزع ؟ الذى يفزع هم الطغاة والجبابرة والسادة وأعيان القوم ؛ لأن لهم السيادة ، والباقون عبيد يطيعون أوامرهم ، فإذا جاء هذا الدين ليساوى بين الناس فى عبادة إله واحد .. الكل عباده ؛ فإنه سيأخذ العروش من تحتهم ؛ لأن الأمر سيكون للّه والنهى والخضوع لله ، ولا خضوع ولا أمر ولا نهى لعبد من العباد ، لذلك فالذى يتصدَّى للوقوف ضد منهج اللّه دائمًا هم السادة أو المترفون ؛ لذلك فإنهم أول من تصدى لدعوة نوح ، وأول من يتصدى لأى دعوة من أى نبى ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف : ٦٠] . والملأ : هم سادة قومه وأعيانهم وأشرافهم الذى يملأون العين هيبة ، ويملأون القلوب هيبة ويتصدرون المجالس ، هؤلاء خافوا على هيبتهم وعلى سلطانهم فماذا يفعلون ؟ قلبوا الميزان وقالوا عن منهج الحق : إنه ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ، أى غيبة عن الحق ، و« مُبينٌ » أى محيط بحيث لا تستطيع أن تبتعد ولا أن تفلت منه .

ماذا قال نوح عليه السلام لقومه ؟ يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنه قال لهم : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف : ٦١] ولكن هؤلاء الحكام الذى واجهوا دعوة الحق من أولها بالمقاومة قالوا : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وكان الرد يقتضى أن يقول نوح : أنا لست فى ضلال . ولكنه قال : ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ . فلماذا استخدم الحق سبحانه وتعالى ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ بدلًا من « ضلال » . حدث ذلك حتى نعرف أن كل حرف من القرآن يأتى على قدر المعنى تمامًا ، وأن

هذا كلام الله تعالى وليس كلام بشر. هم يقولون لنوح: أنت ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. فيرد عليهم: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ .. لماذا؟ لأن الضلال يشمل ضلالات كثيرة، ولكن نوحًا لا يريد أن ينفي عن نفسه الضلال فقط، بل يقول: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ أى ليس عندى ضلالة واحدة، وهكذا نفى مجرد وجود ضلالة واحدة عنده، ونفىُ الأقل يعنى نفى الأكثر، كما تأتى لإنسان وتقول له: هل لديك تمر من تمر المدينة؟ فإذا قال لك: ليس عندى من تمر المدينة؟ فقد يكون عنده تمرة أو اثنتان أو ثلاث [من أىّ تمر آخر]. ولكن: ليس عندى ولا تمرة واحدة. أى ليس عنده ولا تمرة واحدة من التمر [بصفة عامة]، وبهذا يكون الأقل قد نفى الأكثر.

ولكن لماذا جاء هذا النفى القاطع فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾. لأن منهج الله لم يأت به نوح من عنده، فنقول: إنه غلبه الهوى ولو فى ضلالة واحدة أو أن هناك شيئًا غاب عنه. ولكن المنهج جاء من عند الله سبحانه وتعالى، وما دام نوح هو الرسول المبلِّغ، والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنهج، وما دام المنهج من عند الله فلا يمكن أن تكون فيه ضلالة واحدة ولا شبهة ضلالة؛ ولذلك يأتى نوح عليه السلام بحيثيات أن ما يبلغه للناس من منهج ليس به ضلالة واحدة فيقول: ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢]. وهكذا جاءت الحيثية من أن المنهج الذى بلغه نوح لقومه ليس فيه ضلالة واحدة ولا شبهة ضلالة؛ لأن نوحًا رسول، وما دام رسولًا فهو مبلغ عن الله تعالى، والله منهجه هو الهدى، ونوح ليس رسولًا من ملك أو حاكم أو عظيم، ولكنه رسول من رب العالمين أى من سيد العالمين، أى من الذى خلق .. الذى خلق لكل خلقه مقومات الحياة.

ذلك أن كل نعم الحياة التى تحفظ للإنسان حياته على الأرض من ماء وهواء وشمس وقمر وزرع كلها من الله سبحانه وتعالى، ولا يستطيع مخلوق مهما يبلغ شأنه أن يدّعى مجرد ادعاء أنه هو الذى خلق هذه النعم، وهذه النعم التى وضعها الله تعالى فى الأرض هى عطاء ربوبية، أى عطايا لكل خلقِ الله؛ المؤمن منهم والكافر، فالشمس لا تفرق فى أشعتها بين مؤمن وكافر والأرض تنفعل لمن يزرعها .. آمن بالله تعالى أم جحد وجوده؛ وما دام الله قد أوجد هذه النعم، وسخر كل هذا الكون لخدمة الإنسان، فقد وضع له منهجًا ليصلح حياته فى الأرض؛

لأن اللّٰه سبحانه وتعالى هو الذى خلق السماوات والأرض وأمدَّ الناس بأرزاقهم حتى الكافرين منهم لم يكن ليضع منهجًا إلا ليصلح حياة الإنسان الذى خلقه وجعل كل هذا الكون فى خدمته .

فكأن نوحًا عليه السلام بعد أن نفى أن هناك شبهة ضلالة فيما يقول قال : إن هذا الكلام ليس من عندى ولكنه من عند اللّٰه وما أنا إلا مبلغ ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ، [تقول] : بلغتَ المكان الفلانى . أى انتهيت إليه . والبلاغة : هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة . ومعنى ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ أى أنهى إليكم ما حملنى الحق سبحانه وتعالى من منهج هداية لحركة حياتكم ، ولكن ألم يكن يكفى أن يقول نوح : رسالة ربى . بدلًا من أن يقول : ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ . نقول : إن كل رسول من الرسل يأتى بمنهج يكون فى الأمور الثابتة محتويًا على منهج الرسل الذين سبقوه ؛ حتى لا يقال : إن رسولًا [معينًا] جاء ليناقض رسالة رسول قبله . فالذى قاله آدم هو الذى قاله نوح ، هو الذى قاله شيث ، هو الذى قاله إدريس عن وحدانية اللّٰه تعالى وأنه لا إله إلا هو الواجب العبادة فى هذا الكون .

فمعنى قوله تعالى : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أن ما جعله اللّٰه تعالى منهجًا لأهل الأرض من الأمور الثابتة المستقرة سواء جاءت على لسان من سبقوا فى الرسالات ، أو ستأتى على لسان الأنبياء الذى سيُرسلون بعد ذلك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] إذن ففى الأمور المستقرة الثابتة ، والأحكام التى لا تتغير ، رسالات اللّٰه كلها واحدة ، أو أن يكون معنى ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ أنه يتلقى كل يوم رسالة من اللّٰه تعالى ، وكلما جاءت رسالة بلغها إلى قومه ؛ لأنه لو قال : رسالة ربى . لكان من اللازم : إما أن تنزل الرسالة عليه مرة واحدة فى وقت واحد ، وإما أن يبقيها عنده ولا يبلغها للناس إلا إذا اكتملت ، ولكن كلما نزل إلى نوح شىء من اللّٰه تعالى يقوم بإبلاغه فيكون كل بلاغ عن اللّٰه رسالة ، وإما لأن موضوع الرسالات أمر يتشعب بقدر ما تحتاجه الحياة من مصالح ، وهناك رسالة أوامر ، ورسالة نواهٍ ، ورسالة للوعظ ، وما تحتاج إليه الحياة من مصالح ، وهناك رسالة للإنذار ، ورسالة للقصص .. وهكذا تتعدد رسالات اللّٰه تعالى .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ . ليشمل كل هذه المعانى ، أما قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ . فذلك استكمال لبلاغ كل رسول ، فالبلاغ يقتضى أن يبلغ الرسول قومه بمنهج اللّٰه والمطلوب منهم ، ثم بعد ذلك ينصحهم أن يعملوا بهذا المنهج ؛ لينالوا رضا اللّٰه وينجوا من عذابه ، فلابد بعد البلاغ من النصح ، وإن كان النصح خارجًا عن معنى البلاغ ؛ لأن البلاغ معناه أن يبلغ رسالة اللّٰه وينتهى كل شىء ، ولكن الرسول يظل يُرغِّب قومه فى المنهج ويحببه إليهم ويطلب منهم أن يتبعوه ويترفق معهم فى الكلام ، والنصح : هو أن تبين للإنسان المصلحة فى العمل وتبين نيتك أمامه بأنها نية حسنة ، وعندما تنصح إنسانًا بأن يفعل كذا ، فإنك إما أن تنصحه بعمل يعود نفعه عليك أو يعود النفع عليه هو ، فإذا كانت النصيحة بأمر يعود نفعه عليك فهى لا تخلو من الغرض ، وإذا كانت النصيحة فى أمر يعود عليه هو بالنفع ، ففى هذه الحالة تكون نصيحة خالصة بنية صادقة ، ولذلك لم يقل الحق أنصحكم ، ولكن قال : ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ ؛ ليبين أن هذه النصيحة هى لصالح القوم ، وأن الرسول لا يستفيد منها شيئًا ، فما دام قد بلَّغ فهو قد أدى الأمانة ، ولكن النصيحة زيادة فى هداية الناس إلى الطريق المستقيم وترغيبهم فيه .

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى حيثيات النصح فيقول : ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . أى أن نوحًا يقول لقومه : إننى أعلم من اللّٰه تعالى أشياء لا تعلمونها أنتم ؛ ولذلك فخوفى عليكم مما ينتظركم من الله ؛ لأنكم كفرتم بآياته قد جعلنى أنصحكم ، ليست نصيحة أداء واجب ، ولكنها نصيحة مَنْ يعلم مما علمه الله ، أى أن هذا العلم الذى علمه الرسول ليس علمًا من إنسان حتى يكون مشكوكًا فى أنه قد يحدث أو قد لا يحدث ، أو يكون قابلًا للصدق والكذب ، أو يكون علمًا غير مؤكد الحدوث ، ولكن هذا علم يقينى من اللّٰه سبحانه وتعالى ، ولكننا نقول : إن العلم الذى تبلغه الرسل للناس ليس هو كل علم اللّٰه تعالى ، ولا هو كل ما علمه اللّٰه للرسل ، فهناك أشياء يخص اللّٰه سبحانه وتعالى بها رسله ويريهم ما يثبتهم ، وأن قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مقصود به : أن اللّٰه أعلم نوحًا بالطوفان الذى سيأخذ به الكفار والمكذبين من قومه ، وأن فى هذه الآية إشارة إلى ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف : ٦٣] والحق سبحانه وتعالى قال : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ وكان يمكن أن يقول : أعجبتم .

باستخدام همزة الاستفهام ، ولكن استخدام واو العطف معناه : أن هناك عطفًا على جملة قادمة ، فلو استخدمت همزة الاستفهام لكان السياق يقتضى أن يقال : أكذبتم به وعجبتم من أن الله قد أنزل ذكرًا على رجل منكم ؟

إذن .. فاستخدام الواو للعطف جاء أولًا ، فالواو للعطف والهمزة للاستفهام ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ نحن نعرف أن الذكر والتذكر ضد النسيان ، وأن الشيء يكون على البال أو على اللسان فيذكره الإنسان ، أو يتجاوز بالى ولسانى فأنساه ، ولكن الذكر فى القرآن له معانٍ كثيرة ، وعلى قمة هذه المعانى أن الذكر يراد به القرآن ، وذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران : ٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] ، وقوله جل جلاله : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر : ٦] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ فأى معانى الذكر فيها وجه العجب ؟ إن العجب هو إظهار الدهشة من حدوث شيء على غير ما تقتضيه مقدمات الأمور ، حينئذ تتعجب كيف حدث هذا ؟ ولكن إذا كانت الأمور تسير بطريقة رتيبة ؛ المقدمات تدل على النتائج ، فلا توجد دهشة ولا يوجد عجب ، وفى ذلك قرأنا قولَ الحق سبحانه وتعالى : ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ﴾ [ق : ١ ، ٢] ما وجه العجب هنا ؟ إن الله قد أرسل إلى القوم منذرًا أى رسولًا من جنسهم .. ووجه العجب هنا أنهم كانوا يريدونه ملكًا ، ولكن ما هو الذى تعجبوا منه فى هذه الآية .. أن الرسول قد جاء يبلغهم بأن هناك إلهًا واحدًا واجب العبودية هو الله سبحانه وتعالى ، وليس هذا أمرًا عجيبًا ؛ لأن الإنسان إذا تأمل فى الكون ورأى هذه الهندسة البديعة الحكيمة البالغة الدقة التى لم يُوجدها الإنسان ، وإنما وُجِدَ الإنسان ليجدها موجودة قبله وتخدمه ، كان لابد أن يلفته هذا ليبحث عمن صنع هذا الكون البديع البالغ الدقة فى الصنع ، فإذا جاء لهم رسول ليخبرهم بأن الله الذى خلق الكون بكل أجناسه ، وسخر كل الأجناس لخدمة الإنسان ، فأجناس الكون هى الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، والجماد يخدم النبات والحيوان والإنسان ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان والحيوان يخدم الإنسان .

إذن .. فكل ما فى الكون مُسَخَّر لخدمة الإنسان ، وكل ما فى الكون لم يُوجده بشر ، ولكنه خُلق أولاً ثم بعد ذلك خُلق الإنسان ، فكان يجب حينئذ أن يتنبه العقل لكى يبحث عن خالق كل هذه النعم ، فإذا جاء رسول وقال : إن الله هو الذى خلق . فكان لابد للناس أن يرحبوا بهذا الرسول ويصدقوه ، ويؤمنوا بما يقول .

عناد قوم نوح وتكذيبهم له

يقـول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٥، ١٠٦] والقوم كلمة تطلق على الرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون بمصالح حركة الحياة ، فالقوم غير النساء ، ولذلك قلنا سابقًا : إن الله تعالى عندما أخبر آدم عليه السلام بأن الشيطان عدو له ولزوجته ، فى قوله سبحانه : ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] كان السياق يقتضى أن يقول : فلا يخرجنكما من الجنة فتشقيا . ولكنه قال : ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ ؛ لأن الرجل هو الذى يتعب ويشقى فى حركة الحياة ، والإسلام كرَّم المرأة وأراحها من شقاء حركة الحياة وجعل لهما مهمة أخرى غير الشقاء ! !

قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قوم نوح كذبوا نوحًا فقط ، فلماذا قال إنهم كذبوا المرسلين ؟ قالوا : لأن رسل الله تعالى إنما جاءوا بأصول ثابتةٍ تتصل بالعقيدة والأخلاق لا تتغير من رسول إلى رسول ، فالأخلاق والعقائد وأصول الأحكام كلها أمور ثابتة ، فمن كذَّب رسولاً ، فقد كذَّب كل الرسل ، ولذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] . والاختلاف فى مناهج الرسل هو اختلاف فى التشريعات التى تقتضيها تطورات المجتمعات ، لكن العقائد والأخلاق وأصول الأحكام أمور ثابتة لا تتغير ، فالذى يُكذِّب رسولاً فى هذه الأشياء كأنه كذَّب كل الرسل .

وكلمة : ﴿أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ معناها أنه واحد منهم ليس غريبًا عنهم ، فهم يعرفون نشأته وسلوكه وأخلاقه .

وكلمة : ﴿أَخُوهُمْ﴾ جاءت لتحنن قلوبهم وتعرفهم أن لهم به ماضيًا يعرفونه ، ويعرفون

أخلاقه وسلوكه ، وهذا أدعى أن يؤمنوا به ويصدقوه .

بعد ذلك تأتي العبارة التي قالها كل رسول لقومه وهي قوله تعالى : ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وهذه الكلمة معناها : اتقوا الله ، مثلما تقول لابنك المهمل : ألا تستذكر . معناها استذكر . وهذا الأسلوب من أدوات التحضيض التي تحض على الفعل مثل : لولا تكرم أباك ، هلّا تنزل ضيفًا عندى ، ألّا تستقبل أخاك بالبشاشة . كل هذه أساليب تحث على فعل هذا الشيء . إذن معنى : ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنكر عليكم أن تكونوا غير متقين ؛ لذا أطلب منكم أن تتقوا الله لأنكم أنكرتم التقى ، ومادمتم أنكرتم التقى فأنتم تريدون الإثبات . ومعنى ذلك أن الله رحم غفلة القوم وأرسل لهم رسولًا أمينًا ، هذا الرسول جاءهم من عند الله تعالى ليعطيهم منهج حياتهم كما أراده الله الذى خلقهم . فالرسول يقول لهم : اتقوا الله الذى أرسلنى إليكم ، أحمل إليكم وسائل التقوى وأنا رسول أمين ، فخذوا أوامر الله ونواهيه واسمعوها منى حتى تتقوا الله وتطيعونى ، قال تعالى : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء : ١٠٧ ، ١٠٨] . كل رسول سيقول هذا الكلام ، هنا الحق سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية شيئًا لم يذكره فى الآيات السابقة مع موسى وإبراهيم عليهما السلام ، وهو قوله تعالى : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٩] . حين تقول لإنسان : إنك لن تأخذ منه أجرًا على شيء عملته له . فمعنى ذلك أن هذا العمل كان يستحق الأجر عليه ؛ لأنه شيء نافع لك ، فأنا لن آخذ عليه أجرًا لأنك ستقيمه بمقاييسك البشرية ، وأنا لست زاهدًا فى الأجر ولكنى سآخذ أجرى من الله . فهذا دليل على أنه عمل جليل لا يستطيع البشر أن يُقَيّمُوه ؛ لأنىّ سآتيكم بهداية تسعدكم فى دنياكم وتسعدكم فى أخراكم .

ومعنى : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . أى ما أجرى إلّا على رب العالمين .

وهذا الموضوع : مثلما يكون لك صديق عزيز وأرسل إليك هدية مع سائق تاكسى يعرفه وقال له : أوصل هذه الأمانة إلى فلان .. فحين يأتيك السائق بالهدية تريد أنت أن تعطيه أجرة التاكسى ، فإن كان أمينًا يقول لك : شكرًا لأن الذى أرسلنى إليك بالهدية أعطانى أجرى . هذا مَثلٌ ولله تعالى المثل الأعلى ، فربنا سبحناه وتعالى يعطى الأجر على شيء لا يعود عليه بالنفع ، ولكنه يعود على الخلق إذا آمنوا وأطاعوا ، فهذا كرم ما بعده كرم . وساعة يقول الرسول

لقومه : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء : ١١٠] . ليس معنى هذا أنها طاعة ذاتية للرسول ، ولكن يطيعونه ؛ لأنه رسول من عند اللَّه تعالى ، وطاعته طاعة للَّه تعالى .

بعد أن خاطب نوح قومه ودعاهم إلى طاعة الله ، وأخبرهم أنه لا يطلب منهم أجرًا ماذا كان ردهم عليه ؟ قال تعالى : ﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] . الأرذلون جمع رذل : والرذل هو الرديء من الشيء . فهم يقولون له : كيف نؤمن بك وقد اتبعك ضعاف الناس وفقراؤهم ؟ وفي آية أخرى قالوا له : ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود : ٢٧] . وهم يقصدون بالأراذل ، الناس الفقراء أصحاب الحرف الضعفاء الذين لا يؤبه لهم ، وهؤلاء دائمًا هم جنود الرسالة في البداية ؛ لأنهم المطحونون من المجتمع الفاسد فيكونون متلهفين على أي أحد يأتي ليعدل موازين المجتمع .

وانظروا إلى عدم فهم القوم لدعوة نوح ، عليه السلام ، حيث قالوا له : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ . مع أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وليس به هو ؛ لأنه مجرد رسول يحمل إليهم منهج اللَّه تعالى ودعوته ، وقد يكون معنى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ بمعنى نصدقك .

ونوح عليه السلام رد عليهم بقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء : ١١٢- ١١٥] أي أن الإيمان لا دخل له بالغنى والفقر والقوة والضعف ، لأن الإيمان عمل وسلوك ، وربنا هو الذي يحاسب الناس على أعمالهم ، ومادام الحساب على اللَّه وهؤلاء عجلوا بالإيمان ، فلابد أن اللَّه سيجزيهم خير الجزاء ، كما أنني لا يمكن أن أطرد المؤمنين بالله تعالى ، لأني نذير من عند اللَّه أنذركم بالشر قبل وقوعه .

بعد ذلك يقول تعالى : ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ . أي : يبدوا أنه لا فائدة من الكلام معك يا نوح ، ولكن هذا إنذار لك : لئن لم تنته عما تدعيه من دعوتك إلى عبادة اللَّه وتقريبك للأراذل من الناس لنرجمنك . وهذا تهديد لنوح من قومه ، وهذا معناه أنهم قوم أقوياء لهم بطش وجبروت وطغيان ، ولكن ماذا يفعل نوح عليه السلام ؟ لابد أن يلجأ إلى ربه ، قال سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ١١٧، ١١٨] انظر إلى أدب النبوة ، شَكَا لربه من تكذيبهم ولم يَشْكُ من

تهديدهم له بالرجم ؛ لأن الله عالم بحاله ومطلع عليه ، ولأنه يهمه أن يصدقه قومه ويؤمنوا بما جاء به . والفتح في الشيء يكون إما حسيًا وإما معنويًا . فالباب إذا كان مغلقًا بالأقفال فمعنى فتحه : أن تزيل هذه المغاليق حتى يفتح ، هذا بالنسبة للفتح الحسي ، وقد يكون معنويًا بمعنى أن يفتح الله عليك بالخير المادي والعلمي .

فقول نوح عليه السلام : ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه : يا رب احكم بيني وبينهم ، ونجني أنا والمؤمنين معي من كيدهم . فاستجاب الله تعالى لدعائه ونجاه من شرهم ، قال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء : ١١٩، ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود : ٣٨] فالله سبحانه كان يراقب نبيه نوحًا ويوجهه في صناعة السفينة ، قال تعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود : ٣٧] . فربنا سبحانه وتعالى لا يترك خلقه يتصرفون من تلقاء أنفسهم ، ولكن يوجههم ويراقبهم ولا يغيب عنه شيء ، وكلمة ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ . دلت على أن الفلك قد يطلق ويراد به واحد ، وكلمة مشحون تدل على أن نوحًا عليه السلام كان معه عدد كبير من الأتباع ؛ لأن السفينة مادامت مشحونة فمعنى ذلك أنها كانت مكتظة بالناس وغيرهم من الأنواع الأخرى ، وهذا يدل على أنها كانت مصنوعة لتتسع لعدد معين من الناس هم ثمانون رجلًا وثمانون امرأة ومعهم الأصناف الأخرى من الحيوانات والطيور وغيرها ، وبعد أن ركب نوح وأتباعه السفينة تدفق الماء من السماء والأرض ، قال تعالى : ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر : ١١، ١٢] وبعد ذلك نجى الله المؤمنين وأغرق الكافرين .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء : ٨، ٩] أي أن في هذا الذي حدث لأمر عجيب يجب أن يلتفت إليه الناس ولا يغيب عن بالهم ، وإذا كان المعاندون قد غرقوا جميعًا فعلى من بقي أن يعتبر بما حدث لمن عاند رسولًا من رسل الله وخالفه ، ومع ذلك فإن الله تعالى عزيز لا يغلب ، رحيم يقبل توبة التائب مهما فرّط في جنب الله تعالى .

نوح عليه السلام يحذر قومه

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس : ٧١] نوح عليه السلام قال : إنه قد توكل على الله تعالى ، ومادام قد توكل على ربه ، فإنه قد استعان بمن سيحقق له النصر على الكافرين ، فهو عليه السلام يعلن بإصرار أنه لن يتنازل عن الدعوة ، وأن الله تعالى هو ناصره ورصيده ، وهو الذى أرسله وسيظل يحمل دعوته .

ثم بعد ذلك يقول لهم : أما أنتم فأجمعوا أمركم . أى اجتمعوا وقرروا ما تريدون أن تصنعوه معى ، وأنتم لن تضرونى شيئًا ، خذوا أمركم كجماعة وليس كأفراد ، اجتمعوا على قلب رجل واحد واتفقوا ، إذن فقوله تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ أى اجتمعوا على أمر رجل واحد ، وإن كان بينكم خلاف فاتركوه وانتهوا إلى اتفاق .

وظل نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله تعالى ألف سنة إلا خمسين عامًا .. وهى مدة طويلة تتعرض لأجيال متعددة . والجيل العقلى ينقسم إلى عشرين سنة ، أى عندما يبلغ الإنسان سن العشرين ينضج عقله ويستطيع أن يستوعب المنهج ، فيدخل فى دعوة نوح ، فكم جيل من الأجيال حاول نوح أن يهديه ؟ حوالى خمسين جيلًا ، ومع ذلك لم يؤمن به إلَّا من تحملهم سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات والطيور أيضًا . ونوح خاطب أجيالًا مختلفة ، ولكنها كانت كلها متأثرة بما يقوله الآباء للأبناء ، وبالبيئة التى نشئوا فيها .

أعلن نوح توكله على الله تعالى الذى أرسله لأنه سينصره .. ومادام توكل على الله فلن يجور عليه أحد من خلق الله ؛ لأن الله فوق الخلق جميعًا ، والخلق كله ؛ جماده ونباته وحيوانه ، إنما سيكون من جنود الله ، وإذا أردنا دليلًا واقعيًا على ذلك ، فهو قصة ابن نوح عندما خرج مع الكفار ورفض نصيحة نوح عليه السلام بأن يركب ، وقال كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود : ٤٣] إذن .. فلابد أن ابن نوح نظر فرأى جبلًا عاليًا ظن أنه يستطيع أن يحميه من الطوفان ، ولكنه غفل عن جندى آخر من جنود الله وهو الموج الذى حال بينه وبين أبيه فأغرقه ، وكل خلق الله هم جنود لله ، لأن الله له ما فى السماوات وما فى الأرض . ولكن الذى خرج عن المراد الشرعى لله فى الطاعة والمعصية

للمنهج هو الإنسان ، وخرج بمشيئة الله ، أى أنه خرج ؛ لأن اللّٰه أراده أن يكون مختارًا .

طلب نوح عليه السلام من قومه أن يجتمعوا ويجمعوا أمرهم .. هذا يقول رأيه ، وهذا يقول رأيه ، إلى أن يتفقوا على أمر .. كيف يتزلون الشر بنوح ، ونوح عليه السلام فى هذا يتحدى قومه ، فيقول لهم اجْتَمِعُوا على أمر واحرصوا على أن تنفذوه ، فهو حين يقول لهم : ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ ، ففى هذا تحدٍّ ؛ لأنه كان يجب أن يحرص على أن يكونوا مختلفين ، حتى لا ينتهوا إلى رأى لأنهم أعداء له ، ولكنه واثق من أنه مادام قد توكل على ربه ، فإن أحدًا لن يصل إليه ، ولم يقل لهم نوح عليه السلام : أجمعوا أمركم فقط . بل قال : وشركاءكم . ومعنى وشركاءكم ، أى ما تشركون به من دون الله ، أى استعينوا بكل القوة التى تستعينون بها من دون اللّٰه ، فإنها لن تفيدكم شيئًا . والقول هنا بالاستعانة بالشركاء هو الاستهزاء بأى قوة يحاولون الاستعانة بها ؛ لأنها إفك وباطل لن يفيدهم شيئًا .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ إذن فالتحدى الأول هو أن يجمعوا أمرهم ، والتحدى الثانى هو أن يستعينوا بالشركاء الذين يمكن أن يعينوهم ، والتحدى الثالث ألا يكون الأمر غمة ، والغمة منها الغمام ومنها الإغماء الذى هو فقد الوعى أو ستر العقل ، فالغمة هى ستر الشيء ، أى أن نوحًا قال لهم : لا تتعبوا أنفسكم وتحاولوا أن تختفوا فى مكان بعيد حتى تتفقوا ، بل افعلوا ما تريدون فى العلن وأمام الجميع ، ولا تخفوا علىَّ ما اتفقتم عليه ، بل أعْلِنوه ، لا تخافوا وافعلوا كل شيء بوضوح وصراحة وعلانية وتحد ، ويقول تعالى : ﴿ثُمَّ اقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أى إذا وصلتم إلى قرار فنفذوه ، **وهناك فرق بين : قضى إليه ، وقضى عليه** .. ما هو الفرق ؟ قضوا إليه . أى أنهم من الجائز أن يجمعوا الأمر ويصدروا الحكم ، ثم بعد ذلك يتنازلون عن التنفيذ أو يؤجلونه . ولكن نوحًا يقول لهم : ﴿اقضوا إلىّ﴾ ، أى : احكموا علىَّ حكمًا نافذًا ؛ لأن الحكم على الشيء لا يقتضى بالضرورة التنفيذ ، بل يمكن أن يُقضى على شخص مع إيقاف التنفيذ .. إذن فالحكم شيء ، والحكم والتنفيذ شيئان .. ولكن أقضوا إلىَّ ، أى أصدروا الحكم ونفذوا ما قضيتم به ، أى لا تصدروا حكمكم ، ثم تقولوا : لا تنفيذ . لا تتراجعوا فى الحكم الذى أصدرتموه .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أى لا تؤجلوا الحكم إلى غد أو بعد غد ، لا تمهلونى فى التنفيذ ، بل نفذوا على الفور ، وهل يوجد تحد أكبر من ذلك ، تحد للخصم المعاند ، وهم

الأغلبية من قوم نوح ، وهو تحد يقفل الباب أمام آية مساومة ، أو مصالحة أو عدول ، بل يثير فى الخصم التحدى للتنفيذ ، مع أن الخصم كثرة ، ونوحًا والمؤمنين قلة ، والإمكانيات التى يملكها الكفار كبيرة وكثيرة ، والإمكانيات التى يملكها نوح والمؤمنين ضعيفة .. **فلماذا هذا التحدى ؟**

أولًا : لأن نوحًا قد توكل على اللّه تعالى ، فلا توجد قوة فى الكون تستطيع أن تصل إليه .

ثانيًا : لأن نوحًا ظل يعظهم ويهديهم ألف سنة إلّا خمسين عامًا ، ولم تنفع هذه المدة الطويلة فى هدايتهم أو جعْلِهم يتركون الكفر ويتخذون طريق الإيمان .

ثالثًا : لأن اللّه تعالى أوحى إلى نوح أن هؤلاء القوم الكافرين لن يؤمنوا مهما دعاهم .

وفى ذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود : ٣٦] وهكذا بعلم الحق سبحانه وتعالى الأزلى لم تكن هناك فائدة من استمرار الدعوة ؛ لأن هؤلاء الكافرين قد ملأ الكفر قلوبهم وختم اللّه سبحانه وتعالى عليها ، فهم لن يؤمنوا .

إذن .. فكان لابد أن يأتى فاصل ، وأن يكون الفاصل قويًا ، وأن يعرف الكفار أن اللّه سبحانه وتعالى هو الحق ، وأن ينالوا الجزاء على كفرهم وعنادهم ، فليفعلوا كما يريدون ، وليتآمروا كما شاءوا ، فقد حق عليهم عذاب السماء .

بشرية الرسول ضرورة

قال اللّه تعالى إن قوم نوح قالوا له لما دعاهم لعبادة اللّه وحده : ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ . هذا الاعتراضُ حجةٌ عليهم وليس حجةٌ لهم ، واعتراض فيه غباء من القوم وليس فيه شىءٌ من الفكرِ أو الحكمةِ ، فبشرية الرسول ضرورة لإبلاغ الرسالة ، فالرسول كبشر عاش مع قومه سنوات قبل أن يكلف بالرسالة ، اشتهر خلالها بحسن الخلق والأمانة وكل خلق حميد ، حتى عرفه قومه وعرفوا أنه لا يكذب ، وأنه إنسان يتصف بالصفات الحميدة حتى إذا كُلّفَ بالرسالة كانت المقدمات تؤكد صدق بلاغه عن اللّه تعالى .

والرسول قدوة يُطّبق المنهج عمليًا أمام الناس ، وهم يقتدون به ، أى يفعلون مثله ولو كان من غير البشر ، فلو كان ملكًا مثلًا لقالوا : يا رب هذا مخلوقٌ من نورٍ ، مفطور على الطاعةِ ،

طبيعة خلقه تعصمه من نزوات البشر ، ونحن مَخْلُوقون من طين ، لنا شهوات ، ولسنا معصومين ، كيف يمكن أن يكون المفطور على الطاعة المخلوق من نور قدوة لنا ؟ ونحن مخلوقون من طين ، مختارون في الطاعة والمعصية ، لا يمكن أن يكون هذا الرسول قدوة لنا .

إذن فبشرية الرسول حتمية ومن تمام الرسالة .

ثم تمضى الآية الكريمة تقول : ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ والأراذل هم نقاية الشيء أو أدناه ، وهم القوم المطحونون من الفساد ، وهؤلاء بسبب ظلم الأغنياء والأقوياء لهم ، هم أول من يسارع إلى الإيمان بالرسول ؛ لأنهم يرون فى منهج السماء الذى يحمله دفعًا للظلم عنهم وإعادة لحقوقهم ، وما من ثورة اجتماعية إلا كان أول الذين ينضمون إليها ويؤيدونها وتقوم على أكتافهم أولئك المظلومون المطحونون ، أما المترفون فلماذا لا يؤيدون الثورة ؟ هم يريدون أن يبقى الحال على ما هو عليه ، لأنهم فى عزة وترف ومال ، ولذلك فإن المترفين فى أى نظام هم الذين يهربون نجاةً بحياتهم من أى ثورة تتم ؛ لأنهم هم المقصودون بالثورة لتوقف ظلمهم ، وتنزع منهم مكانتهم الاجتماعية وتزيل ظلمهم عن الناس .

وقوله تعالى : ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ أى ظاهر الرأى أو أول الرأى ، أى أنهم آمنوا بمجرد إبلاغهم المنهج ، ولم يناقشوه أو يتمهلوا ليدرسوه ، ولكن هؤلاء الكفار الذين يتَّهِمون أولَ من آمنوا بنوح بأنهم أراذل القوم وأنهم لم يتعمَّقوا فى المنهج ويدرسوه ، نقول لهم : إنهم عند اللّٰه تعالى ليسوا أراذل ؛ لأن المقاييس الحقيقية للاشياء ليست المقاييس التى عندكم وهى المال والجاه والسلطان وكل ما يعطيكم السيادة ، فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وهؤلاء الأراذل ، الواحد منهم أفضل عند اللّٰه تعالى من ألوف الكافرين ، إذن فهم ليسوا أراذل كما تدَّعون ، ولكن لهم مقام كبير عند خالقهم يوم القيامة ، أما قولكم : إنهم سارعوا إلى الإيمان . فلأنهم وجدوه يدافع عن الحق ، ويساوى بين الناس ، ويخلص المجتمع من آفاته وشروره ، فانطلقوا إلى الإيمان ، وأصبح لهم رأى ، إن المسألة ظاهرة واضحة لا تحتاج إلى تعمق أو جدل . ولكن أنتم بكفركم تريدون أن تختلقوا أسبابًا لعدم الإيمان ، وتريدون أن تجادلوا بالباطل ، إذن فمقاييسكم هابطة ؛ لأنكم ترون الحق ولا تؤمنون به ، وليس هناك عند اللّٰه أراذل وعِلْيَةٌ من القوم إلَّا بالإيمان . والحرفة الصغيرة تتعبك إذا امتنع صاحبها عن عمله . فلو لم يوجد ذلك الذى ينظف الطريق لامتلأ بالقمامة وأصبح مصدرًا لأمراضٍ تصيبنا جميعًا وتهلكنا ؛ بل إن الذى يمسح لك الحذاء يقوم

بعملٍ هامٍ ليحفظ لك مظهرك اللائق فى المجتمع بدلًا من أن تمشى بحذاءٍ متسخٍ ، وذلك الذى يقوم بتسليك المجارى لو أنه امتنع عن عمله ؛ لانتشرت الأمراض والأوبئة بين الناس ، فإياك أن تحتقر أى عملٍ مَهْمَا كان صغيرًا ، فهذا العمل الصغير ومن يقومون به هو الذى يعطيك ترف الحياة ويجعل حياتك مريحةً ، أنت سيدٌ فى بيتك ، ولكن هذه السيادة هى من عمل الآخرين ، هم الذين بجهدهم حققوها لك ، ولو تخلوا عنك ما استطعت أن تكون سيدًا ، فلا تحقّر أى عملٍ فى المجتمع .

ثم يقول الحق : ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ . قوله تعالى : ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قول يوضح لنا فكر هؤلاء الكافرين البعيد عن الحقيقة ، فكما بيّنا فإن المترف صاحب النفوذ لكلٍّ الناس فضل عليه ، ولكى تعرف أن منطق الكافرين واحد اقرأْ قول الحق عن كفار قريش عندما أرادوا أن يوردوا حججهم بعدم الإيمان برسالة محمد قالوا : كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : ٣١] إذن فهم اعترفوا بصحة القرآن ، ولكن سبب عدم إيمانهم : أنهم كانوا يريدون أن ينزل القرآن على واحد من أغنياء قريش وعظمائها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ . لو علم هؤلاء الناس ما معنى الفضل ما قالوه ، فالفضل هو الزائد على الحاجة ، والفضل يقتضى فاضلًا ومفضولًا عليه ، وكل إنسان فاضلٍ ومفضول عليه ، فكل منا فاضل فى مهنته أو حرفته أو ماله ، وكل منا مفضول عليه فى مواهب أخرى .. هذا هو الفضل .

فكل من له فضل فى الأمر الزائد على حاجته ، فيكون العالم كله مرتبط ارتباط تبادل منفعة وليس ارتباط سيطرة ؛ ولذلك نقول لكل من يدعى أن له فضلًا وليس مفضولًا عليه : تواضع لأنك ما سيطرت إلا بمن لهم فضل عليك فى نواحٍ أخرى ، فاستخدمتهم ليحققوا لك ما أنت فيه .

وقوله تعالى : ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [هود : ٢٧] . الظن معناه نسبة راجحة وليس حكمًا فى قضية ، الراجح هو الظن ، والمرجوح هو الوهم ، فهم يتحدثون ظنًّا وليس حقيقة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ

شَيْئًا﴾ [النجم : ٢٨] إذن .. فالظن غير الحقيقة ، ولذلك لم يقولوا : نعتقد أنكم كاذبون . وإنما قالوا : وإنا لنظن أنكم كاذبون .

وقول الحق سبحانه : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود : ٢٨] . البينة هى التى جاءت من الله تعالى كهبة دون أن يكون للإنسان فضل فيها ، والبينة هنا هى الرسالة ، التى هى النور والبصيرة والهداية والفطرة ، والرحمة هى هدف الرسالة ، ثم يقول الحق : ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود : ٢٨] .

أى : عميت أبصاركم وإن كانت تنظر ، إلا أنها لا ترى آيات الله ، وقوله تعالى : ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ . أنلزمكموها : مكونة من الهمزة ونلزم وهى الفعل .. من الذى نلزمه ؟ هو المخاطب ، ونلزمه بماذا ؟ بالإيمان بمنهج الله تعالى .

إذن .. فهناك استفهام وفعل وفاعل مطمور فى الفعل ، ومفعول أول ومفعول ثان ، المفعول الأول هو كاف المخاطبة فى قوله ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ، أى أنفرضها عليكم بالقهر وأنتم لا تريدونها وتكرهونها ؟ طبعًا لا .. لأن الإيمان بالنسبة للإنسان لابد أن يكون طواعية وعن اختيار ، ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد كل خلقه مكرهين لكانوا كذلك ، ولكن الله تعالى يريد أن يأتيه الإنسان عن حب واختيار وليس عن قهر ، لأن الإكراه هو إخضاع القوالب ، والله يريد قلوبًا تخشع وليس قوالب تخضع ، ولو أن الحق يريد الإخضاع بالإكراه ، لأخضعنا كما أخضع كل الكون وجعلهم مقهورين لأمره .

إذن .. فالدين لم يأت للإكراه ، ولكنه جاء لنؤمن به طواعيةً واختيارًا . والحق يقول : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

الحق تعالى يقول : ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [هود : ٢٩] هـذه الآية الكريمة وردت مع كل رسول ، قد جاءت بقوله تعالى : ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ [هود : ٥١] مرة ، و﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ مرة ، ما هو الفرق ؟ لأن الرسول قد يسألهم أجرًا لا يكون فيه مال كأن يسألهم تمرًا أو شعيرًا أو قمحًا أو غير ذلك ، ومرة يسألهم مالًا ولا يسألهم أجرًا عينيًا ، ولذلك نفى الله تعالى عن رسله أن يأخذوا أجرًا أو يأخذوا مالًا ، حتى تنتفى كل أنواع الاستفادة المادية ، وهذا يدل على أن منهج الله الذى جاء به الرسول أمر

نافع للناس ، لأن الأجر لا يستحق إلا مقابل المنفعة ، فالأشياء إما أن تأخذها- أى تشتريها- وإما أن تأخذ المنفعة وتظل العين لمالكها ، وهذا يسمى استئجار ، فكأن الذى قدمه الرسل كان يجب أن يكون له أجر ، ولكن المنفعة الدنيوية ليست هى هدف الرسل ؛ بل هم يريدون أجرهم من الله فى الآخرة ، وهذا لأن الأجر فى الآخرة من الله مباشرة ، وبقدرات الله وهو أجر دائم أبدى عظيم .

قوم نوح قد طلبوا منه أن يطرد الفقراء الذين آمنوا ، ويعدون بأنه إذا طردهم فإنهم سيتبعونه ، انظر إلى الرد : ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ [هود : ٢٩] . أى لن أطرد الذين أعلنوا إيمانهم لأنهم لا يعجبونكم ، فهم عند الله أفضل منكم .

وهذا القول هو الذى رد به نوح عليه السلام على وجهاء قومه الذى طلبوا منه أن يطرد الفقراء ، أى أنكم لم تفهموا مهمتى ، إن هؤلاء القوم جاءونى على الإيمان والجزاء فى الآخرة ، ولم يأتونى ليحققوا مالًا أو ربحًا ، ولو أنى طردتهم لكان هذا غير مقبول منِّى عند الله فأنا لم أجئ للمترفين وحدهم ، وإنما جئت لأهدى كل الناس ، وإن أكرم الناس عند الله ليس أغناهم ولكن أتقاهم .

ولذلك قال : ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [هود : ٢٩] . أى أن الذين جاءوا إلى نوح وطلبوا منه طرد الفقراء هم قوم جهلاء يجهلون مهمة نوح ، ويجهلون الحقيقة ، وهى أن منهج الله لا يفرق بين الناس بغناهم أو بفقرهم ، فهذا غرض دنيوى زائل ، ثم يأتى نوح بحجة بالغة فى قوله تعالى : ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود : ٣٠] هناك تَذَكُّر ، وهناك تفكُّر ، وهناك تعقل ، وهناك تدبر . التذكر : أن يكون قد حدث لك شيء نسيته وتذكرته بسبب قولٍ ما أو حادث ما . والتفكير : أن تستنبط شيئًا جديدًا بعقلك . والتعقل : أن تستخدم عقلك فى فهم الأشياء ، والتدبر : أن تكون هناك أشياء تقال لك فتتدبر فيها ، لا تأخذ ظواهرها ولكن تأخذ حقائقها ، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد : ٢٤] . أى ألا يفكرون فى العطاءات والكنوز التى فى القرآن ، أم يأخذون الظاهر ولا يفكرون فيه ؟ والتدبر : هو الذى يأتيك بالمعانى الحقيقية ، ولذلك كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : « سوروا القرآن » .

إذن .. فنوح يقول لهم : من ينصرنى من الله إن خالفت منهجه ؛ تذكروا هذا جيدًا ، لأنه لا ناصر من الله فى الدنيا والآخرة . ويذكرهم نوح ببشريته ، واقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود : ٣١] وهذا الرد سد منافذ الاعتراض على الكافرين ، فقال : أنا لم أقل لكم : إن عندى خزائن الأرض ، فأطيعونى من أجل مالى . ولم أقل لكم : إنى أعلم الغيب ، فأطيعونى أقولُ لكم الغيب وأعلِّمه لكم . ولم أقل لكم : إنى ملك ذو قوة أكثر من قوتكم ، فأطيعونى خوفًا من بطشى وعذابى . ولم أدَّع أننى من جنس آخر متفوق عليكم ، فإننى بشر مثلكم ، وما دمت بشرًا فأنا لا أزيد على أولئك الذين تزدرى أعينكم ، وكلنا سنلقى الله فى الآخرة ، وأنا أخاف هذا الموقف ؛ لأنى إن طردت المؤمنين سيحاسبنى الله على ذلك .

ثم يكمل الحق : ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود : ٣١] . أى أن أولئك الذين تحتقرونهم وتزدرونهم بأعينكم ، لا أقول لهم : إن الله لن يؤتيهم خيرًا . فالخطاب هنا ليس موجهًا إلى هؤلاء الفقراء من المؤمنين ، فقوله تعالى : ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ .

أى أن نوحًا عليه السلام قال للكفار من قومه : إذا قلت للذين تزدرى أعينكم : إن الله لن يؤتيهم خيرًا . أكون إذن .. ظالمًا ، وإذا طردتهم أكون أيضًا ظالمًا ، وهنا رد الكفار على نوح ، واقرأ قوله : ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود : ٣٢] . ونوح ظل يجادل قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا ، هذه الفترة الكبيرة قضاها فى حوار وأخذ ورَدٌّ مع قومه ليؤمنوا ، والجدل هو المقاولة ، هذا يقول كلامًا وذلك يقول كلامًا يقابله ، وكل واحد من القائلين يريد أن يهدم حجة الآخر أو يضع فيها شبهة كى يسقطها .

إذن .. فالمجادلة : مقاولة اثنين متقابلين فى الكلام ، وكل من الطرفين يحاول أن يهدم حجة الآخر .

الطوفان .. وهلاك الكافرين

يقـو الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود : ٣٦] . فبعد تسعمائة وخمسين سنة من الدعوة ؛ هذه الفترة الزمنية الطويلة التى

قضاها نوح فى تبليغ رسالة ربه ومجادلة الكافرين ونصحهم ، وصل بذلك إلى قمة المجادلة جيلًا بعد جيل ، قال الله تعالى له : انتهت مهمتك ، فمهما فعلت ومهما دعوت فلن يؤمن لك إلا الذين أعلنوا إيمانهم فعلًا . قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ ، « إلَّا » حرف استثناء ، وساعة تقول « إلَّا » يكون الذى بعدها خارجًا عما قبلها . فإذا قلت : جاء القوم إلا فلانًا . فمعنى ذلك أن القوم كلهم جاءوا وفلان لم يأت . ومادام لن يؤمن أحد من قوم نوح إلا من قد آمن ، لا يكون هذا استثناء ، ولكن تكون « إلا » بمعنى غير مَن قد آمن . أى : لن يؤمن من قوم نوح غير الذين آمنوا ؛ لأنه لا يوجد استثناء هنا .

لذلك دعا عليهم نوح كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] .

وأعطى الحق تبارك وتعالى أمره إلى نوح ليبنى السفينة ، فيقول تعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود : ٣٧]

وهكذا نعرف أن الحق أمر نوحًا ببناء السفينة ؛ لأنه سيُغرِق الكفار ، أما المؤمنون فسينجون . إذن .. فقد علم نوح فى هذه اللحظة بإغراق الكافرين .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أى أن الحق سيُلهم نوحًا بوحيه كيف يصنع السفينة ، وعلَّمه كيفية صناعتها .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] . فإن الله لا يقبل شفاعة فى هؤلاء الكافرين ؛ لأنهم ظلوا فترة طويلة وهم يعاندون نوحًا عليه السلام . وقوله تعالى : ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أى أن نوحًا وقومه لم يكونوا يعرفون صناعة السفن ، ولكن الله تعالى هو الذى أوحى إلى نوح بكيفية صناعة السفينة ، أى ألقى فى قلبه وفى عقله الخواطر التى تتيح له حسن صناعة السفينة . إن الله يقول لنبيه نوح : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ . أى : بوحى منا وعلم ، بدليل قوله تبارك وتعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ وقوله الله جل جلاله : ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أى إنهم سيهلكون بالغرق .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟

مِنۡهُۚ﴾ [هود : ٣٨] . كأن القوم الذين كانوا حول نوح مؤمنين أو غير مؤمنين لم يكونوا يعرفون لماذا يصنع السفينة ؟ بل أنهم تعجبوا من هذه المسألة ، وكلما مر الذين كفروا على نوح ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ لأنه يصنع شيئًا غير معروف لديهم ومستغرب عندهم .

وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ [القمر : ١٣] أى أنهم يربطون الألواح بالحبال ، مثل الذى صنع من ورق البردى سفينة ليذهب بها إلى أمريكا ، كلها مربوطة بالحبال محكم رباطها ، فيأتى بأوراق البردى ويحكم ربطها بعضها مع بعض ، لكى يكون الربط محكمًا فلا يدخل الماء إلى السفينة ليغرقها ؛ فالله علَّم نوحًا بأن يأتى بالخشب الجاف ويربطه بالحبال ، وبعد ذلك عندما يكون الخشب فى الماء يزداد حجمه فيسد المسام بدقة أكبر ، مثل الذين ويضعون البراميل ويعضون فيها الأشياء السائلة فلا ترشح من الخارج ، لأن الخشب مدهون بالقطران الذى يسد المسام ، والخشب من المواد التى تتمدد بالبرودة .

وما دام الحق قال : ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ وضحت تمامًا حكمة صناعة الفلك ؛ لأن الذين ينجون هم نوح والذين آمنوا معه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [هود : ٣٨] . أنتم تأخذون ما نصنع بظاهر الأشياء ، بأن المكان ليس فيه بحر أو بحيرات تستخدم فيها السفينة ، ولكنكم لا تعلمون ماذا سيحدث لكم ، لقد سخروا من نوح ، وقالوا : بعد أن كان نبيًّا أصبح نجارًا ، لو كان نبيًّا حقًّا ما لجأ إلى هذا . لقد قالوا : إن هذه السفينة بعيدة عن البحر ، فكيف سينقلها ؟ ولم يعرفوا أن الماء هو الذى سيأتيها ، وهو الذى سيرفعها ، لم يعرفوا أن طوفانًا قادمًا وأنهم مغرقون . ولذلك كلما مر عليه كبار قومه الذين لم يؤمنوا برسالته سخروا من نوح واتخذوه سخرية لهم ، نبى يصنع سفينة وسط يابسة فى مكان بعيد جدًّا عن البحر ، ولم يدركوا قوله تعالى : ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [هود : ٣٩] . أى أنكم لا تعرفون سر بناء السفينة الآن ، ولكنكم ستعرفونها فى المستقبل .

إذن .. فالحدث له عدة صور ، فإذا تكلمت بالفعل الدال على الحدث ، وكان كلامك بعد حدوثه يكون الفعل ماضيًا ، وإن كان كلامك ساعة حدوثه يكون الفعل مضارعًا ، وإذا كان سيقع فى المستقبل القريب يستخدم فيه حرف السين ، وإن كان مسبوقًا بسوف فإنه يكون

في المستقبل البعيد ، واستخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يدل على أن نوحًا صنع السفينة في عدة سنوات ، وأنهم بعد هذه السنوات سيعلمون ؛ ولذلك عندما قال نوح عليه السلام : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سيمر وقت طويل حتى تعلموه . إذن .. فالآية الكريمة جاءت على أوسع مدى من الزمن ، ولكن ما الذي سوف تعلمونه ؟ الحق يقول : ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩] .

إذن .. فالطوفان الذي سيأتي ، سيخزي هؤلاء الكفار ؛ لأنهم كانوا يسخرون ويقولون ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . كلمة يحل ضد الرحيل ، يعني نزل إلى مكان للإقامة فيه بصفة دائمة ، وضدها الرحيل أو الترحال ، أي نزل إلى مكان ليقضي فيه فترة قصيرة ويرحل : ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ يعين عذاب دائم ، عذاب لا يتركهم أبدًا ، بل يقيم معهم إقامة دائمة ، هو معهم كل الوقت ، لا يستطيعون دفعه ولا الفرار منه .

الحق يقول : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] ﴿حَتَّىٰٓ﴾ تدل على الغاية ، « أمرنا » أي الطوفان الذي سيأتيهم ، فالحق سبحانه يقول : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ إذن فكم مرحلة ؟ أمر من الله بصناعة الفلك ، وتنفيذ نوح لأمر الله بصناعة الفلك ثم انتظار نوح إلى أن يأتي الطوفان . إذن فهي عدة مراحل تحمَّل فيها نوح سخرية الكفار منه واتهامهم له بأنه ترك النبوة وأصبح نجارًا .

يقول الحق : ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فار يعني غلى . مثلما يقال : الماء فار أي غلى ، والغليان هو أعلى سخونة للماء ، والماء يكون فيه هواء . والدليل على ذلك ، أن السمك يتنفس منه ، عندما يغلي الماء تجد أن فقاقيع الهواء قد خرجت منه ، ولقد كان من اللازم أن تكون هناك علامة لنوح عندما يرى التنور يفور فيه الماء ، ويقولون : إن أصل هذا التنور أو المخبز أن نوحًا كان يخبز فيه ، وأن التنور كان مخبز سيدنا آدم . الذي يهمنا أنه كان علامة بين نوح وبين ربه يعرف بها قرب بداية الطوفان ، وكان على نوح عندما يرى هذه العلامة ، أن يجمع من كل شيء زوجين ، أي من كل ما تتطلبه حياة الناجين من المؤمنين ، والناجون محتاجون إلى أشياء كثيرة ، محتاجون إلى أنعام وطير وهوام ووحوش وسباع ؛ بل هم محتاجون إلى خنزير أيضًا ، ولذلك عندما يقال : إذا كان لحم الخنزير محرمًا فلماذا خلقه الله ؟ نقول إنه : لم يُخلق ليؤكل ، ولكن له مهام أخرى في الدنيا ، هي أكل القاذورات والقمامة حتى لا تتعفن وتملأ الدنيا بالجراثيم والأمراض .

ويقال : إنه عندما حمل نوح من كل زوجين اثنين ، لم يكن الخنزير موجودًا معه على السفينة ، وعندما خرجت من الراكبين فى السفينة فضلاتهم ، كانت الرائحة كريهة جدًا لا يطيقونها ، فالله تعالى أمر الأسد أن يعطس ، فعطس فخرج من عطسته خنزير ، هذا الخنزير راح يأكل الفضلات والقاذورات فقضى على الرائحة الكريهة فى السفينة ونجا راكبوها من أمراض وجراثيم ربما كانت ستقضى عليهم ، وخصوصًا أن الرحلة استمرت عامين .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود : ٤٠] يعنى من كل شىء زوجين ، يردفه العدد ، وكلمة زوجين اثنين دلت على أنهما اثنان .. لماذا جاءت كلمة اثنين ؟ لأنه يشيع بين الناس أن الزوج مكون من اثنين ، ولذلك يقولون : عدد فردى وعدد زوجى . ولكن الحقيقة أن الزوج لا يعنى اثنين ، ولكن يعنى واحدًا ومعه مثله ، إياك أن تعتقد أن زوجًا معناه شيئان .. لا .. زوج يعنى واحدًا . ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [النساء : ١] أى زوج فرد ولكن معه مثله ، ليكون الاثنان زوجين اثنين ، فلا تعتقد أن زوجين يعنى أربعة ، لأنك قد تأخذ الزوج على أنه اثنان ، وتكون كلمة زوجين اثنين تعنى أربعة ، فكلمة زوجين تعنى اثنين ولكنهما متماثلان .

وإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٣، ١٤٤] . إذن .. فالزوج يطلق على الفرد بشرط أن يكون له شريك يماثله . فإذا قلنا : زوجين اثنين أى فردين ، ولذلك جمعهم الحق ثمانية ، ولو كان الزوج يطلق على اثنين لكانوا ستة عشر ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة : ٣٧- ٣٩] . فقول الحق جل جلاله : ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أى أن الذكر زوج والأنثى زوج ، وهما معًا زوجان اثنان ، والله تعالى أراد بذلك استبقاء الحياة على الأرض وليس هلاكها ؛ ولذلك طلب من كل زوجين

اثنين؛ لأنه ينجيهم بالسفينة من الغرق، فلابد أن يهيئ لهم استبقاء الحياة وإلا انقرضوا، ويقولون: إن السفينة مكثت سنتين في الماء، فلابد أن يكون فيها عوامل استبقاء الحياة.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾. وهذه هي المرحلة الأخيرة في قصة سفينة نوح.

المرحلة الأولى: أمر من الله تعالى لنوح بأن يصنع السفينة.

والمرحلة الثانية: هي قيام نوح بصناعة السفينة، وقد ظل نوح يصنع السفينة عدة سنوات.

والمرحلة الثالثة: هي العلامة بأن يخرج الماء من التنور مكان مخبز معروف في القرية.

والمرحلة الرابعة: أن يحمل نوح معه في السفينة من كل شيء زوجين اثنين وأهله.

والمرحلة الأخيرة: لكل من أعدهم لركوب السفينة: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ القول من نوح: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾ هو أمر من الله تعالى إلى نوح بأن يأمرهم أن يركبوا في السفينة، والركوب أن يكون الراكب مستعليًا على ما يركبه، وتكون السفينة في خدمة من ركبوها، فكأن تسخير الله تعالى للسفينة كي تخدم من ركبها وتطيعه، ولكن الحق تبارك وتعالى قال: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾ ولم يقل: اركبوا عليها. والركوب يكون على السفينة.

ولكن الحق يريد أن يعطينا لقطة بأن السفينة لم تصنع بطريقة بدائية على شكل ألواح خشب يركب الناس فوقها، ولكنها مصنوعة بأحدث نظام لصناعة السفن الآن؛ ولذلك فإنهم يركبون فيها لا يركبون عليها، ولم تكن من طابق ولكنها من عدة طوابق، وفيها عدة أدوار لأن فيها خلقًا مختلفًا؛ فيها حيوانات ووحوش وحشرات ودواب وبشر، وغير ذلك، ولا يمكن أن يركب هؤلاء مع بعضهم البعض. إذن فلابد أن يكون فيها طوابق بحيث يركب كل جنس مع بعضه.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾. فالسفينة مصنوعة لكي تنجي الذين آمنوا وتنجي معهم من كل أجناس الحياة على الأرض زوجين اثنين، وبما أنها مصنوعة لتنجيهم من الغرق فلابد أن تسير بمن فيها إلى مكان عالٍ لا يصله الماء، إذن فلابد من

الجريان بمن فيها ولابد من الرسو ؛ لذلك فجريانها يكون بسم الله ، ومرساها يكون بسم الله ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . لأن الذين آمنوا مع نوح .. صحيح أنهم آمنوا ولكنهم ليسوا ملائكة ؛ بل هم بشر ، قد يكون منهم من أخطأ واستغفر ، أو من أذنب وتاب ، أو من آمن ، ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة . ولكن اللّه تعالى قدر أنهم آمنوا ، فغفر لهم هذه الذنوب والهفوات الصغيرة التي ارتكبوها ولم يأخذهم بذنوبهم .

ولذلك قوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ كما يقول القاضي : باسم القانون أو باسم الدستور أو باسم الشعب . أي أنني لا آخذ حيثية الحكم من ذاتي ولكن باسم من خوَّلها لي ، فالذين سيركبون هذه السفينة ، حيثية ركوبهم أنهم آمنوا بالله تعالى ، لأن السفينة للّه أمر ، وللرسول صناعة ، وكل هذا من اللّه تعالى .

ولذلك يقولون : « كل شيء لا يبدأ بيسم اللّه هو أبتر » لماذا ؟ لأن كل فعل يحتاج إلى طاقات ، فإذا كان فعلًا عضليًا احتاج لقوة ، وإن كان فعلًا عقليًا احتاج إلى ذكاء وفكر ، وإن كان فعلًا قتاليًا احتاج إلى شجاعة ، وإن كان فعلًا للإصلاح بين الناس احتاج إلى صبر ، فاحتياجات الأحداث لابد لها من طاقات مختلفة ، وأنت إن أردت القوة تقول : باسم القادر أو باسم القوى . وإذا أردت علمًا تقول : باسم العليم . وإذا أردت غنى تقول : باسم الغنى . وإن أردت حلمًا تقول : باسم الحليم . وإذا أردت انتصارًا في الحرب تقول : باسم القهار .

ولكن هناك أحداثًا تحتاج لهذه الأشياء كلها ، ولذلك علَّمنا اللّه أن نستعين باسم واجد الوجود ، باسم الله .. ففيه كل صفات الكمال للّه سبحانه وتعالى ، فإذا قلت : بسم الله . إن كنت تريد قوة للفعل أعطاك ، وإن كنت تريد شجاعة وجدتها ، وإن كنت تريد غنى يغنيك ، وإياك أن تتهيب أن تستعين بالله ؛ لأن لك معاصٍ ، فالله سبحانه وتعالى رحمان ورحيم . إذن فقوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه أن اللّه نجّى من هم في السفينة لأنه غفور رحيم .

وقوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود : ٤٢] . تدلنا على أنها مسيَّرة بقدرة اللّه سبحانه وتعالى ، ولذلك فإن هذه الأمواج التي وصفها اللّه أنها في علوها وضخامتها كالجبال ، هذه الأمواج التي لابد أن تغرق أضخم السفن وأقواها لم تفعل شيئًا لسفينة نوح ،

فلم تضربها بقوة أو تقلبها أو تضرها على أى شكل من الأشكال ؛ بل إن السفينة تجري- أى تمشى بسرعة عالية - بين أمواج كالجبال ؛ بل إن طريقها الذى رسمه اللّٰه تعالى لها ليس فيه موج يعوقها أو يضرها ، ولك أن تتخيل سفينة فى بحر هائل بين أمواج كالجبال ، كيف يمكن أن تبحر حتى إذا لم تغرقها الأمواج ، فإنها على الأقل لا تجعلها تسير بسرعة ، ولكن لأن سفينة نوح تسير بأمر اللّٰه تعالى ، فإن هذه الأمواج لم تؤثر فيها .

وهكذا نفذ الماء أمر اللّٰه وأغرق الكافرين جميعًا بما فيهم ابن نوح الذى رفض الإيمان ، والحق أراد أن يعطينا صورة لنهاية الطوفان الذى أغرق الأرض ، فقال جل جلاله : ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هود : ٤٤] . البلع : هو مرور الشيء من الحلق ليسقط فى الجوف ، يقال لك : ابلغ ما فى فمك . أى أدخله من الحلق إلى جوفك . والحق تبارك وتعالى وصف لنا الطوفان وكيف تم بأمر الله ، فقال تعالى : ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر : ١١، ١٢] هذه اللقطة وهى كيفية حدوث الطوفان لم تأت فى هذه الآية ؛ لنعرف أن القرآن يكمل بعضه بعضًا ، ففيما حكاه اللّٰه سبحانه وتعالى لنا فى الآيات التى نحن بصددها ، أعطانا سبحانه وصفًا إجماليًا للأحداث ، وذلك فى قوله تبارك وتعالى : ﴿۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود : ٤١، ٤٢] أعطانا اللقطة إجمالية ولم يقل لنا كيف حدث الطوفان ، ولكن فى آية أخرى أعطانا صورة كيف حدث ؛ لأن اللّٰه سبحانه وتعالى يريد أن يربى فينا فطنة الإيمان ، ونحن مشغولون بقضية إيمانية ، هى ابن رسول لم يؤمن برسالة أبيه ، كان لابد أن يبين لنا ما هو حكمه فى هذه الحالة ؟ وهل سيشفع لابن نوح أن والده نبى فينجيه اللّٰه بكرامة أبيه ، أم سيلقى نفس المصير الذى لقيه من كفر برسالة نوح ؟ فلو أعطانا الحق هذه التفاصيل وكيف بدأ وماذا حدث ؟ لابتعدت أذهاننا عن اللقطة الإيمانية التى يريدنا الحق ، أن ننتبه إليها .

وقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ أى خُذى الماء من السطح إلى جوفك ، ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أى امتنعى عن المطر . وهكذا يمتنع المطر وتبتلع الأرضُ الماءَ فينتهى الطوفان ، لأنه لو كان عندنا مكان فيه مطر والبالوعة مسدودة فإن أول شيء نفعله هو أن نجعل البالوعة تعمل ، ثم ندعو اللّٰه تعالى بالنسبة للمطر ، فنقول يا رب ، حولينا ولا علينا .

وهكذا أمر اللّه الأرض أن تبتلع الماء فى جوفها ، وأمر السماء أن تتوقف عن المطر .

وقوله تعالى : ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود : ٤٤] . مادة غاض تستعمل لازمة وتستعمل متعدية ، أى نقول : غاض الماء وغاض اللّه الماء يصح الاثنان ، ولكن الحق قال : ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ وبناها للمجهول ، مَن الذى غوَّض الماء ؟ هو اللّه سبحانه وتعالى ، ثم يقول جل جلاله : ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود : ٤٤] . قضى أمر ماذا ؟ أمر اللّه فى إهلاك الكافرين ، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أى استوت السفينة على الجبل ، والجودى هذا جبل قرب الموصل ناحية الكوفة فى العراق .

وقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود : ٤٤] أى أن القوم الظالمين ابتعدوا بعدًا نهائيًا عن الإفساد فى الأرض ، فهم قد ماتوا وانتقلوا إلى حياة البرزخ ، وسيظلون فيها إلى أن تقوم الساعة ليلقوا جزاءهم . إذن فابتعاد القوم الظالمين الذين كفروا برسالة نوح عن الإفساد فى الأرض أصبح نهائيًا ، ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون ، ولكن هل هؤلاء وذريتهم سيظلون مؤمنين ؟ أم ستدخل الغفلة إلى قلوب الذرية فيشركون ويكفرون ويفسدون فى الأرض ؟ طبعًا كما نعلم من القرآن الكريم ، فإن الذرية ستعود إلى الكفر والظلم ، فيبعث اللّه رسولاً جديدًا ليعيدهم إلى الإيمان ، ويهلك اللّه الكافرين ، وهذه العملية متكررة سببها الغفلة وعبادة الدنيا وطمع الإنسان ونسيانه حساب اللّه الذى ينتظره يوم القيامة .

نهاية الطوفان . . وعودة مقومات الحياة

بعد أن تم ما قضى اللّه تعالى وقدره قال سبحانه وتعالى : ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود : ٤٨] ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ : أى : انزل من السفينة لتباشر مهمتك الإيمانية فى أرض فيها مقومات الحياة التى حملتها معك فى السفينة من كل زوجين اثنين وفيها المؤمنون كلهم ، وقد شهدوا طوفانًا سيظل فى بالهم حينما يرون أنهم وحدهم الناجون منه ، وقوله تعالى : ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ لأن نوحًا حمل معه فى السفينة من كل أمم الأرض زوجين اثنين ، وهذه الأمم هى الوحوش والحيوانات والحشرات والطير والدواب وغير ذلك ، ولكن الأمة الأساسية التى حملها نوح فى السفينة هى بنى الإنسان ، أما باقى الأمم فهى تخدم الإنسان فى الأرض ، ونوح فى هذا له مقومات الحياة على الأرض ، لأنه

لا يوجد على الأرض ساعة هبوط نوح ومن فى سفينته إلا المؤمنون ، أما الكافرون فقد أغرقهم الطوفان .

وقوله تعالى : ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ . أى بأمن واطمئنان ؛ لأنه لا يوجد على الأرض إلا المؤمنون ، ولم يعد هناك من الكافرين من ينغص عليه أمره ؛ بل إنَّ كل من معك شاهدوا صنع اللَّه تعالى وهو ينجيك وينجيهم من الغرق والموت . وقوله تعالى : ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ أى أن البركة ستكون لك فى العطاء ؛ لأن معنى البركة أن يعطى الشيء أكثر مما هو متوقع منه ، فإذا أحضرت الغذاء لاثنين وجاءك ضيوف فجأة ، فأكلوا حتى شبعوا ، تقول : هذا طعام مبارك ، ونوح معه من كل زوجين اثنين سيتكاثرون بسرعة ويملئون المكان .

ثم يقول الحق : ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . [هود : ٤٨] . أى أن الأمم التى معك سيدخلون الجنة ، ثم بعد ذلك تأتى الأجيال التى بعدهم وتطرأ الغفلة على قلوبهم فينقلبوا كافرين .

إذن .. فالغفلة تنسج كالحصير عودًا عودًا ، تأتى بعود أولا ، ثم الثانى فالثالث ، وهكذا كلما يزداد عودًا تزيد رقعة الغفلة ، فأيما قلب أُشربها أى دخلت فيه دخولًا تامًّا وحلت منه محل الشراب وأحبها كما قال تعالى : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة : ٩٣] . أى حب العجل ، والمعنى : أن الرجل إذا اتَّبع هواه وارتكب المعاصى وأحاطت به خطيئته خرج من قلبه نور الإسلام ، والقلب مثل الكوب إذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا ، فنعوذ بالله من أثر فتنة الغفلة على القلوب .

قول الحق : ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود : ٤٨] ، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ [لقمان : ٢٤] . المقصود : وهو متاع الدنيا ، ثم بعد ذلك العذاب فى الآخرة ، والغفلة تأتى جيلًا بعد جيل وهى على طريقتين : إما أن تكون غفلة الإنسان نفسه ، أو تخليده للغافلين من قبله .

❋ ❋ ❋

ذكر قصة نبى الله هود عليه السلام

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ [هود : ٥٠] رسول جديد جاء بعد أن عم فساد ذرية الذين نجاهم الله مع نوح ، فانحرفوا عن المنهج ، والرسول لا يأتى إلا عندما يعم الفساد ، فلا يوجد من يصلح ؛ لأن الله تعالى لا يبعث الرسل إلا إذا لم يوجد في الأمة كلها من يرفع كلمة الله ، وخلت من دعوة من سبق من الرسل ؛ لأن المناعة الإيمانية فى النفس البشرية قد توجد مناعة ذاتية لمن تحدثه نفسه بالانحراف ، فيعود إلى ربه ، وهذه هى النفس اللوامة ، ولكن إذا لم توجد هناك مناعة في المجتمع ، لا من أهله ولا من القريبين منهم الذين قد ينصحونهم ، أى أن المناعة لا تتوافر لا من ذاته ولا من مجتمعه ، فلابد أن تقوم حجة الله تعالى على الناس برسول جديد وبرهان سديد .

فبعد نوح حدث الانحراف وغرق فيه المجتمع كله ، فأرسل الله تعالى هودًا إلى قومه عاد ، والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ ومادام أخاهم . فإنه لا يريد لهم إلا خيرًا ، ومادام أخاهم يكون مأمونًا على ما يقول ، ماذا قال هود لقومه ؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ولم يقل هود هذا الكلام إلا لأن الفساد قد عم ، وجعلوا لله شركاء ، وافتروا على الله كذبًا– أى تعمدوا الكذب على الله– ومادام أنه لا إله إلا الله ، فالافتراء الذى افتروه هو أنهم اتخذوا غير الله إلهًا ، ثم قال هود : ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ [هود: ٥١] . لأن الذى قد يتعبكم أننى أعطيكم منهجًا وأطلب مالًا عليه كأجر ، ولكننى لن آخذ أجرًا ، ومادمت لن آخذ منكم أجرًا فلا توجد مشقة فى اتباع ما أقوله ، وقال هود : إننى لن آخذ منكم أجرًا لا لأننى غنىٌّ ، ولكننى أريد أجرى ممن أرسلنى وهو الله سبحانه وتعالى .

واقرأ قوله جل جلاله : ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ﴾ [هود : ٥١] أى خلقنى معدًّا لهذه الرسالة ، فالفطرة هنا تعنى التكوين الأساسى لهود بأن يكون رسولًا وأن يُعَدّ لما سيكلف به ، وقوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى ألا تستخدموا عقولكم وأنا لا أطلب أجرًا مقابل المنفعة ، لأنك إما أن تأخذ أجر الشيء شراءً وبيعًا ، وإما أن تنتفع به مقابل إيجار ، أى إما أن تأخذه تمليكًا وإما إيجارًا . ومادامت قد جاءت كلمة

﴿أَجْرًا﴾ فكأن هود يقول لهم : كان من الواجب عليكم أن تدفعوا لى أجرًا ، لأننى سأقدم لكم ما ينفعكم فى دنياكم وآخرتكم ، والأجر يكون مقابل المنفعة ، ولما كنت أعطيكم منفعة فى الدنيا والآخرة ، كان الواجب أن يكون الأجر عليها كبيرًا ، ولكنى لم أطلب منكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ ؛ لأنه هو وحده القادر على أن يعطينى الأجر ، أما أنتم فلا تقدرون على الأجر الكبير الذى أستحقه .

ثم يقول الحق تعالى : ﴿وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود : ٥٢] . الاستغفار طلب المغفرة من ذنب وقع ، والتوبة هى الرجوع إلى الله وعدم العودة للذنب أبدًا ، والاستغفار مما فات ، والتوبة هى عدم الإتيان بذنب جديد . يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَيَٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ فالإنسان حين يطلب المغفرة من الله ، ويتوب ويبتعد عن الذنوب يغفر له الله تعالى ، ويتقبل توبته ، ولكن الإنسان لأنه يعيش حياة رتيبة كل شيء مسخر لخدمته ؛ الأرض تنبت له الزرع ، والسماء تمطر له الماء ، والحيوان يخدمه فى الكون .. هذه النعم قد تُنسيك واهب النعمة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ . فنحن إن تولينا نكون قد أجرمنا فى حق أنفسنا ، لأن إجرام العبد إنما يعود عليه ، فلا تظن أن كفر العبد ومعصيته يعود على أحدٍ إلا على نفسه ، فهو الذى يشقى فى الدنيا ، ويخلد فى العذاب فى الآخرة .

كان هذا ما قاله هود لقومه ، فردوا عليه بقولهم ، كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود : ٥٣] أى لم تأتنا بمعجزة دالة على صدق رسالتك . الله سبحانه وتعالى لم يذكر لنا فى القرآن الكريم ماذا كانت معجزة هود ؛ ولكنه ذكر لنا المعجزة فى قوم صالح وهى الناقة ، والمعجزة فى قوم نوح وهى الطوفان . كل رسول ذكر له معجزة .. فموسى مثلًا شق البحر بعصاه ، وإبراهيم أُلقى فى النار فلم تحرقه ، وعيسى أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله .

وقولهم : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ [هود : ٥٣] وهكذا يسمون الإفك الذى يعبدونه آلهة . وهذا مردود عليه بالقياس والمنطق ، لأنها مادامت آلهة فلابد أن يكون لها منهج عبادة ،

تقول : افعل كذا ولا تفعل كذا .. فما هو منهج الأصنام ؟ إذن فهى آلهة بلا منهج ، ولا توجد عبادة بلا منهج ، إنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تضر وتنفع ؛ لأن هذه ديانة سهلة ، فالآلهة التى ليس لها أوامر تكليفية تتركك لتتبع شهواتك كما تشاء ، وهذا هو الدين الذى يتمناه الكفار ، [يريدون دينًا لا] يمنعهم من شىء ، وفى نفس الوقت يدعون أنهم مؤمنون ولهم آلهة ، وذلك ضد الفطرة ، لأن الفطرة لا تعبد إلا إلهًا له منهج وله قوة ، ولكنهم يعبدون آلهة لا تحد من شهواتهم . يقولون لهم : اشربوا الخمر ، واعملوا الفاحشة ، واسرقوا أموال الناس ، واظلموا .. فلا ذنب عليكم . ولذلك فإن كثيرًا من المثقفين الذين اعتنقوا البابية والبهائية والقاديانية لا يقيدون شهواتهم ؛ بل يتركون لها العنان لتعمل ما تشاء ، ويدعون فى نفس الوقت أنهم متدينون ؛ ولا يمكن أن يستقيم مثل هذا الدين .

وقولهم : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ « إن » هنا بمعنى النفى ، و« إلَّا » أداة استثناء . إذن فلابد أن يوجد مستثنى منه ، ومستثنى . نقول : جاء القوم إلا زيدًا . المستثنى منه « القوم » ، و« زيد » هو المستثنى ، ومعنى قوله تعالى : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ أى ما نقول إلا هذا القول ؛ لأنك سفهت آلهتنا وأبطلت ألوهيتهم ، فغضبوا عليك وأصابوك بالسوء أى بالجنون .

فقال لهم هود عليه السلام : ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود : ٥٤، ٥٥] هود عليه السلام أشهد اللّٰه وأشهدهم بأنه برىء مما يشركون من دون الله ، ثم تحداهم فقال : ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وهذه هى معجزة هود ، أنه تحداهم وهو واحد وهم كثرة طاغية متجبرة وقال لهم : ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ وأنا معى قلة ضعيفة ، وأنتم أقوياء جبابرة ، ورغم هذا فلن تستطيعوا أن تمسونى بسوء . هذه معجزة هود ، فى أنه تحدَّى ، ولا يوجد أحد يجازف بحياته وحياة المؤمنين بكلمة ، ولكنه قالها لهم : اقتلونى ولا تنتظروا إن كنتم تستطيعون . وهود فى هذا مستند إلى قوة اللّٰه تعالى وقدرته ، وهو الذى يستطيع أن يحميه ؛ لأنه قادر قهار ، ولا إله إلا هو ، فلا يوجد إله آخر .

ولذلك قال هود كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ [هود : ٥٦] قال هود لقومه : إنه توكل على اللّٰه تعالى الذى لن يمكن

الكفار مهما كانت قوتهم وطغيانهم ، لن يمكّنهم منه ، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إذن فكل ما يدب على الأرض وله حركة ، اللّه تعالى آخذ بناصيته. والناصية هي مقدم الرأس والشعر الأمامي منها ، عندما تريد أن تُهين أحدًا تمسكه من مقدمة رأسه ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن : ٤١] . الناصية التي هي مكان الفكر والشرف في مقدمة الرأس.

وقال لهم : ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود : ٥٦] . ولم يقل : إن ربي وربكم على صراط مستقيم . لماذا اختلف السياق ؟ فعندما ذكرت السيطرة قال : ﴿رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ . أي أن اللّه تعالى مسيطر على الكون كله ؛ لذلك قال ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ . لأنكم وإن كنتم كافرين لا تستطيعون أن تخالفوا مراد اللّه في كونه في القهر والقدرة فهو سبحانه لا يفلت منه شيء ، أما قوله : ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ . لأن الصراط المستقيم هو طريق اللّه تعالى وحده ، أما آلهتهم فليس لها صراط ولا استقامة ولا أي شيء ، ولكن اللّه يقضي بالعدل ولا يستخدم القهر في الظلم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ . فإن تولوا : هو خطاب للكافرين ومعناه : إن تتولوا ، وفي اللغة : إذا ابتدأ فعل بتاءين ، يقتصر فيه على تاء واحدة ، أي أنهم عندما سمعوا كلام هود يتحداهم في أن يقتلوه ، ويحذرهم بأنهم لن يستطيعوا ، ولو استعانوا بكل ما يدب على الأرض لم يكن لهم حجة ليردوا ، أحسوا بضعفهم وهم كثرة ، وبذلتهم وهم وجهاء القوم .

فقرّروا أن ينصرفوا عجزًا منهم ، ولكن مهمة البلاغ كانت قد تمت ، وأبلغ هود قومه ما أرسله اللّه تعالى به إليهم ، إذن فلا عذر لهم إن نزل عليهم غضب اللّه سبحانه وتعالى ، فاللّه جل جلاله يقول : ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام : ١٣١] إذن .. فقد بلّغهم هود رسالة اللّه تعالى ، وهذا يعني أنهم أُنذروا وبُلغوا .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود : ٥٧] . أي أن اللّه سبحانه وتعالى سيهلككم ويأتي بقوم غيركم مؤمنين ، والخلافة هنا أن يأتي قوم خلفًا لقوم ، أي بعدهم . والحق- تبارك وتعالى- يقول : ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟

ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم : ٥٩] ، ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد : ٣٨] . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾ [هود : ٥٧] . لأن عبادة الناس لا تنفع الله جل جلاله ، ولا عصيانهم يضره .

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ . أى رقيب على كل أمور كونه ؛ لأنه قيوم .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود : ٥٨] فعندما تسمع قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ تعرف أن هناك أمرًا ، وأمرًا مطاعًا سينفذ ، والآن حانت ساعة التنفيذ ويكون ذلك بمجرد صدور الأمر من الله ، لأن الكون يأتمر بأمره .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ إياك أن تقول : كيف ينجى الله عددًا من الناس من عذاب عام جامع ؟ نقول : إنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أى أن الداء لا يمس المؤمنين برحمة الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود : ٥٨] . **إذن فهناك نجاتان : النجاة الأولى** : من عذاب الريح الصرصر ، **والنجاة الثانية** : من العذاب الغليظ الذى ينتظرهم فى الآخرة . ولكن لماذا غليظ ؟ لأن الغلظة تعطينا مفهوم المتانة والقوة ، والعذاب فى الدنيا موقوت بقدرات الدنيا وزمنها وعمرنا فيها ، ولكن عذاب الآخرة بلا نهاية .

إذن .. فعندما جاء أمر الله نجّى هودًا والذين آمنوا معه بالرحمة ، ثم نجاهم من العذاب الغليظ فى الآخرة ، وكأن نجاتهم من عذاب الدنيا الموقوت بشارة ومقدمة أنهم سينجون أيضًا من العذاب الغليظ فى الآخرة .

منهج الأنبياء عليهم السلام واحد

يقول الحق : ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف : ٦٥] وعندما نسمع : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ فإن كلمة أخاهم تدلنا على معان كثيرة ، أولًا أنه من جنسهم ولغته من لغتهم ، وعاش معهم وهم يعرفونه جيدًا ، هذا هو الأُنس بالرسول ، لأنه لو كان أجنبيًا عنهم لقالوا : جاء أجنبى يحاول أن يأخذ السيادة علينا ،

ولو جاء بغير لغتهم لما تمكن من الحديث معهم ، ولكن هناك بعض الآراء التي تقول : إن هودًا لم يكن من قوم عاد .

نقول : إن الأخوة نوعان : أخوة من الأب القريب ، وأخوة من الأب البعيد وهو آدم .

وإذا عدنا إلى قصة نوح نجد أنها متفقة من حيث البداية مع قصة هود ، فالحق يقول : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف : ٥٩] وهذا أول اتفاق .. نوح إلى قومه وهود إلى قومه ، ماذا قال نوح لقومه ؟ ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف : ٥٩] وماذا قال هود : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ الخلاف فقط في أنه في نوح قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَقَالَ﴾ وفي هود : ﴿قَالَ﴾ بدون الفاء ، وهذا اختلاف لا يتنبه له الكثيرون ، ولكنه دقة في الأداء القرآني ؛ لأن المتكلم هو الله ، الفاء هنا في رسالة نوح تقتضي التعقيب ، أي كلما أتاه جبريل بوحي يبلغه لهم ، وتفيد الإلحاح .. وهذا ما تبينه سورة « نوح » في إلحاحه على قومه بدعوتهم للإيمان ؛ ولذلك يقول الحق عن نوح : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح : ٥] .

نأتي بعد ذلك إلى تشابه الأسس الثابتة في الدعوة إلى الله ومنهجه ، نوح عليه السلام قال : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهود عليه السلام قال : ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف : ٦٥] فكأن هناك أسسًا ثابتة لمنهج الله ، أولها لا إله إلا الله ، كل الرسل جاءوا ليبلغوا البشرية بهذه الحقيقة ، ولكن هودًا لم يقل : ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ولكنه قال : ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ نقول : إن نوحًا كان أول الرسل بعد آدم ، ولذلك أعلمه الله تعالى بما ينتظر الكافرين من عذاب ، وبأن الله سيهلكهم حتى ينذر قومه بالعذاب الذي سيأتيهم .

وفي قصة نوح قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف : ٦٠] . وفي قصة هود : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف : ٦٦] . ذلك لأن نوحًا حينما بدأ يبلغ رسالته للناس لم يكن هناك مؤمن واحد في قومه ، أما قوم هود فقد كان لهم في قصة نوح وقومه عبرة ، فعندما أبلغ رسالته آمن معه في الحال عدد من قومه ، ويقال إن الذي آمن معه واحد فقط ، اسمه ابن سعد ، ولهذا حدث الاختلاف في السياق ، على أننا نلاحظ أن جواب قوم نوح اختلف عن جواب قوم

هود ، فقوم نوح قالوا : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ . وقوم هود قالوا : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ الضلال هو البعد عن الحق ، والسفاهة هى الطيش والخفة .

وأضاف قوم هود : ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ . والظن إما أن يكون عدم يقين ، بمعنى : ولكننا نرجح أنك من الكاذبين ، وإما أن يكون يقينًا مِصداقًا لقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة : ٤٦] . ولكن الظن هنا فى هذه الآية معناه أن الكافرين من قوم هود يقولون : إننا نرجح أنك من الكاذبين .

ماذا كان رد نوح وهود ؟ نوح قال : ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٦١] وهود قال : ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٦٧] . ونوح قال : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٦٢] . وهود قال : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف : ٦٨] الفرق هنا أن نوح قال : ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وهود قال : ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ما هو الفرق ؟ نقول : إن الفعل يدل على التجدد و الاسم يدل على الثبوت ، ونوح فى إلحاحه على قومه ليلًا ، ونهارًا ، وجهرًا ، وسرًا كان متجدد الدعوة ؛ وهود كان ثابت الدعوة ، ولذلك استخدم مع نوح الفعل : ﴿وَأَنصَحُ﴾ ، ومع هود الاسم « ناصح » على أننا نلاحظ أن « لكُمْ » موجودة فى قول هود . وهذا يفيد أن كل رسالات الأنبياء هى لصلاح البشر .

ونمضى فى المقارنة ، قول نوح عليه السلام : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف : ٦٣] . وهود قال : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف : ٦٩] نجد أن تعجب القوم من رسالات السماء واحد ، مع أننا كما بينا أن رسالات السماء تقتضيها فطرة الإيمان ، على أن الخلاف هنا أن الحق فى قول نوح قال : ﴿وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفى قول هود لم يقل : لتتقوا ؛ بل قال فقط ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ نقول : إنه فى قوم نوح لم تكن هناك سابقة عذاب ، فكان لابد أن ينبه نوح قومه أن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية ، ولكن فى سورة « هود » كان العذاب قد وقع .

ولذلك أنذرهم هود بأن ذكَّرهم بالعذاب الذى وقع ، فكأن قوم هود وهم خلفاء لقوم نوح

كان لابد أن يتذكروا ما حدث لقوم نوح ويأخذوا منه العِبرة ، وكان ذلك أقوى من أن يطلب منهم أن يتقوا العذاب ، دون أن يشير إلى سابقة حدثت فعلا لتجعلهم يتأكدون أن هذا العذاب واقع .

ثم بعد ذلك ذكَّر هود قومه برحمة اللَّه تعالى عليهم ونعمه ، وفى هذا يقول الحق : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وهكذا يذكِّر هود قومه بنعم اللَّه تعالى عليهم أنه أعطاهم الأرض من بعد قوم نوح ، وأعطاهم أجسامًا فارهة قوية ، وأعطاهم من النعم والخير الكثير ، وكان يجب أن يشكروا اللَّه تعالى على كل هذه النعم ، ولكنهم بدلًا من الشكر واجهوا هودًا بموقف عجيب ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف : ٧٠] . فكأنهم أولًا رفضوا حقيقة الوحدانية للَّه تعالى وهو أساس رسالات اللَّه إلى أنبيائه ، وقالوا : لا نعبد اللَّه وحده . فكأنهم اعترفوا بالألوهية لله ، ولكنهم يريدون شركاء من صُنعهم ، يريدون أصنامًا ليعبدوها ليجعلوا منها شركاء لله ، وهؤلاء الشركاء لا حول لهم ولا قوة ، ولا نفع لهم ولا ضر ، حتى إن الصنم إذا سقط على الأرض احتاج لمن يصلحه .

لماذا اندثرت حضارة عاد ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء : ١٢٣، ١٢٥] لأن تكذيب رسولهم يعتبر تكذيبًا لكل الرسل فى القضايا المتفق عليها من العقائد والأخلاق ، والذى يتغير هو المسائل التى تناسب البيئات والمجتمعات ، وعاد كانت قبيلة ، والقبائل تنسب عادة إلى الأب صاحب الشهرة والنباهة ، فعاد كان أبًا لهذه القبيلة ، وقد يطلق على القبيلة « بنو فلان » أو « آل فلان » فهذا التكذيب من قوم عادٍ حدَث عندما جاءهم أخوهم هود بدعوة من عند اللَّه تعالى ، وقال لهم : ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كأنه ينكر عليهم عدم تقواهم للَّه وهذا معناه ، أنه يطلب منهم أن يتقوا الله ، ويقول لهم مستنكرًا فعلهم : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء : ١٢٨، ١٢٩] . الريع هو المكان المرتفع ، والآية فى البناء : أنهم كانوا يبنون قصورًا آية فى الإبداع والفن ، والعمارة والتشييد ، والزخرفة والفخامة ، والاتساع والعلو ، ويقيمون

المصانع والمباني الضخمة كأنهم مخلَّدون في هذه الدنيا ، هذه القصة وضحتها سورة « الفجر » ، فنحن في مصر لا نعرف عن عمارة عاد وحضارتهم شيئًا ، ولكن نعرف الكثير عن حضارة فرعون ، ونشاهد الأهرامات التي بنوها كمقابر وذلك لأننا مصريون ، ولازالت حتى الآن تبهر عقول العالم كله ، وتعجز دول الحضارة الحديثة عن تفسير ألغازها ، حتى إن العلماء العالميين احتاروا في معرفة كيفية بناء حجارة الأهرام بدون مواد البناء ، وأخيرًا اهتدوا إلى أن هذا تم بتفريغ الهواء ؛ لأن مواد البناء عبارة عن طبقة طرية تملأ الفراغ بين الأحجار أو اللبنات وتفرغه من الهواء .

ولكن هذه الحضارة العجيبة حين نقارنها بحضارة عاد نجد أنها دونها ؛ لأن اللَّه تعالى عندما تكلم عن حضارة عاد قال : ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر : ٨] فكأن حضارة الفراعنة لا تذكر بالنسبة لها ، ربما يقول شخص ما : حضارة عاد هذه في رمال الأحقاف بالقرب من حضرموت في جنوب الجزيرة العربية ، التي يسمونها الربع الخالي ، فأي حضارة في هذه الجبال والرمال ؟ ! نقول له : هذه الرمال أمر طرأ على هذه الحضارة فغطاها ، بعد أن كان فيها زروع وثمار وأشجار ؛ ولذلك يتأكد الإنسان حين يسمع أن إحدى القبائل حاولت أن تذهب إلى هناك ، فهبت عليها عاصفة من الرمل طمرت القبيلة كلها ، بجمالِها ورجالها ونسائها وحيواناتها .

وقوله : ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ نحن لم نشاهد هذه المباني ولا يوجد الآن في هذه الأماكن إلا رمال الصحراء ، فهذه المباني كلها مطمورة . والريع : هو المكان المرتفع ، ويطلق على الارتفاع في كل شيء ريع ؛ ولذلك حين يقيمون عمارة أو أرضًا يقولون : كم ريعها ؟ والمعنى : أتبنون بكل مكان مرتفع آية في المعمار ؟ ! أي شيئًا عجيبًا ، فهم لا يبنون مجرد بيوت تقيهم حر الصيف وبرد الشتاء ، ولكنهم يتفنَّنون ويتكلفون في البناء فوق الحاجة وفوق المسكن ، ويبنون هذه الأشياء للعبث وصد الناس عن الإيمان بالرسول الذي بعثه اللَّه إليهم ، فكانوا يبنون شرفة عالية تكشف كل المنطقة المحيطة بمكان الرسول حتى يروا الناس عند ذهابهم إليه فيصدوهم عنه ، فهذا من العبث ؛ لأنهم يصدون الذين يأتون الرسول ليسمعوا منه كلامًا يلفتهم إلى منهج الحق . والآية تطلق على كل شيء فاق الجمال والفخامة والدقة .

وقوله تعالى : ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ . المصانع تطلق على موارد الماء ،

وتطلق على الحصون لأنها تحتاج إلى بناء وصنعة غير عادية ؛ لأنها لا تبنى للإيواء الذى يحمى الإنسان من هموم الحياة العادية فقط ، ولكن الحصون تحمى الإنسان من الأعداء الشرسين الذين يهددونه ، فهم كانوا يبنون هذه الحصون ويبالغون فيها كأنهم سيخلّدون فى هذه الدنيا ، مع أنها فى الواقع دار ممر وليست دار مقرّ ، والإنسان فيها كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح عنها وتركها . وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]. البطش هو الأخذ بعنف ، ولذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج : ١٢] فهم يبطشون بعنف وجبروت أيضًا ؛ لأنك قد تأخذ عدوك بعنف ، ولكن بعد ذلك يرق قلبك لذلته لك ، فتخفف انتقامك منه ، ولكن قوم عاد كانوا يبطشون دون رحمة ؛ لأنهم جبارون .

فهؤلاء الناس كانت فيهم صفات ثلاث ، وردت فى قول اللّٰه تعالى : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨- ١٣٠] كل هذه الصفات تخدم صفةً واحدة هى الكِبر والتعالى ، فهم يبنون فى العالى ، ويشيدون الحصون الضخمة كأنهم مخلدون فى الدنيا ، وإذا بطشوا بطشوا بعنف ودون رحمة . فهم يريدون أن يأخذوا صفات تقربهم من صفات الألوهية ؛ لأنه ليس أعلى من الحق ، كما أنهم يريدون أن يستديموا بهذه الصفات ؛ لأنهم يريدون علوًّا واستبقاء خلود ، ويبطشون متجبرين لأنهم يريدون التفرد على الغير ، وهذا مخالف لما يريده اللّٰه تعالى من عباده .

إذن . .. قوم عاد كانوا يريدون علوًّا وخلودًا أو استبقاء حياة وبغلظة دون رحمة ، ولكن من رحمة اللّٰه تعالى بالخلق أنهم كلما غفلوا عن منهج من سبق من الرسل يبعث اللّٰه لهم رسولًا يذكرهم بالمنهج .

إذن .. هذا التوالى في إرسال الرسل ليردوا على غفلة الناس ، وينبهوهم إلى اتباع منهج اللّٰه تعالى .

إذن .. هود عليه السلام يذكر قومه بأن من رحمة اللّٰه بهم أنه لم يتركهم على ضلالهم وكفرهم ، ولكن اللّٰه تعالى أرسل إليهم رسولًا يذكرهم بالله ويردهم إلى منهجه ، ولذلك قال لهم : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣١، ١٣٢] فهذه

التقوى لله لن تذهب عنكم ما أعطاكم الله من أنعام وبنين وجنات وعيون ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ، وليس العكس وأنا لا أطلب منكم أن تطيعونى لذات نفسى ، لأنى لن أستفيد من إيمانكم شيئًا ، والله تعالى غنى عنكم ؛ لأنه سبحانه قبل أن يخلق الخلق كانت له صفة الكمال المطلق ، فهو تعالى لم يصبح خالقًا بعد أن خلق ولا بالمقدور عليه صار قادرًا ، ولكنه خالق قبل أن يوجد مخلوق ، وقادر قبل أن يوجد مقدور عليه ، فهذه الصفات له فى ذاته قبل أن توجد متعلقاتها ، وقال لهم : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء : ١٣٢- ١٣٤] أى : اتقوا الله الذى أعطاكم كل هذه النعم التى تعرفونها مثل الصحة والعافية ، وأمدكم بآلة لأن كل مدرك فى الوجود له آلة تدركه بها ، فالعين ترى المناظر ، والأذن تسمع الأصوات ، والأنف يشم الروائح ، واليد تقضى بها المصالح والحوائج وتسلم بها وتلمس بها ، واللسان تتكلم به وتتذوق الأشياء ، والرِّجل تمشى بها وتذهب إلى المسجد وإلى مكان العمل .. إلخ . وفوق ذلك أمدكم بالإنعام والبنين والحدائق وعيون الماء وبالأنعام : هى الضأن والمعز والإبل والبقر التى تأكلون لحومها ، وتشربون ألبانها ، وتنتفعون بأصوافها وأوبارها ، وتحملون عليها متاعكم وأنفسكم ، وأمدكم بالأرض الخضراء ذات الأشجار المثمرة والحدائق الغنَّاء ، وعيون الماء التى تشربون منها وتسقون حيواناتكم ، كل هذه النعم كانت موجودة فى جنوب الجزيرة العربية قبل أن تغطيها الرمال ، وأنتم حين تطيعون الله تعالى وتتقونه ، فأنتم [حينئذٍ] لا تشكرونه على نعمه فقط ، ولكن تجعلون لأنفسكم وقاية من عذاب يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء : ١٣٥] فلا تظنوا أنكم أخذتم نعم الله تعالى وهربتم بها ؛ لا ، إنكم سترجعون إليه فيحاسبكم على أعمالكم فإن لم تشكر السابق من النعم ، فخف اللاحق من النِّقم ، فماذا كان ردهم عليه ؟ قال تعالى : ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء : ١٣٦- ١٣٨] كلمة ﴿أَوَعَظْتَ﴾ تدل على أن الحق يجرى على لسان المكابر ؛ لأن الوعظ ليس تعليمًا ولكنه مرحلة تأتى بعد التعليم ، فأنت علمت الحكم ولكنك أهملته ، فأنا أعظك لتعمل به ، فالوعظ لك دليل على أنك علمت المطلوب فغفلت عنه .

فما كان من قومه إلا أن أعرضوا عما جاءهم به وأصرُّوا على كفرهم وضلالهم ، وقالوا

له : إنهم لن يستجيبوا له سواء استمر فى وعظه أو حتى إن لم يكن عنده وعظ يعظهم به ؛ فالأمر يستوى عندهم ، فكأنهم لم يسمعوا ، فالذى نحن عليه الآن هو ﴿ خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾- بضم الخاء- بمعنى أخلاق الأولين ، وهناك قراءة تقول : (إن هذا إلا خَلْق الأولين)- بفتح الخاء- اختلقوا هذا الكلام من عندهم ونحن لن نؤمن به ، أو أننا وجدنا آباءنا الأولين على هذا الوضع وسنكون مثلهم ولن نؤمن بما تقول . وإن كانت كلمة : ﴿ خُلُقُ ﴾ بمعنى الأخلاق . فالخلق صفة ترسخ فى النفس تصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة . والصفات التى يكتسبها الإنسان صفات لا تعطى مهارة من أول الأمر . بل تعطى مهارة بالتدريب ، فإذا كان عملًا ماديًّا يدويًّا يقال : العمل بالنسبة له أصبح آليًا ، ومادام صار كذالك فلن يتعب صاحبه ولا يحتاج منه إلى تفكير .

فكذلك الخلق المعنوى مثل الآلية فى الماديات ، فمثلًا الإنسان حينما يرى شخصًا محتاجًا يسأل الناس ، يحدث نفسه أن يعطيه شيئًا مما أعطاه الله ، وفى بادئ الأمر ربما سأل هذا المحتاج عن ظروفه وما هى حاجته ، ويتردد قبل أن يعطيه شيئًا ، وبعد ذلك تتأصل فيه صفة الكرم ، فعندما يجد أحدًا محتاجًا يعطيه دون أن يشعر به أحد ، كذلك الذى يتعلم الفقه مثل طلاب الأزهر مثلًا ، إذا سألته عن حكم معين تجده يتذكر ما درسه فى هذا الموضوع ويورد على عقله ما يعرفه عن هذه المسألة ويستغرق وقتًا حتى يصل إلى الحكم ، ولكن بعد أن يدرسها تمامًا ويعقلها ويصبح ملمًّا بتفاصيلها إذا سألته عنها يجيبك فى الحال بأنها كذا وكذا ؛ لأنه تمرَّن عليها وأصبحت آلية عنده .

فالخُلق صفة ترسخ فى النفس يصدر عنها الفعل بيسر وسهولة ، فالرسل كلهم كانت عندهم هذه الأخلاق ودعوا الناس إليها ، وكان كثير من الناس يكذبونهم ويصفونهم بشتى الصفات ، ويرمونهم بشتى التُّهم ؛ من كذب وافتراء وسحر وجنون .. إلخ . والأخلاق السيئة كانت راسخة أيضًا عند الكافرين فى كل العصور فتجدهم دائمًا يقولون : ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٣] . وهذا كله جاء بعد قولهم : ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء : ١٣٦] : أى أن هذا أصبح خُلُقًا وعادة عندهم لن يحيدوا عنها ؛ لأنهم توارثوها عن آبائهم وأجدادهم وصارت صفة ملازمة لهم ، فهم على كفرهم ثابتون وبضلالهم متمسكون .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠] كان الحق تبارك وتعالى قبل الرسول محمد ﷺ، يؤيد الرسول بمعجزة ويجعله يبلِّغ منهجه إلى الناس لا يطلب منه أن يؤدب الناس، ولكن اللَّه تعالى يتولى التأديب، لكن أمة محمد ﷺ أمنت على نفسها هذا التأديب؛ لأن اللَّه رحمها من عذاب الاستئصال الذى عاقب به الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فجعل اللَّه تعالى من أمة محمد ﷺ مؤدبًا لمن يخرج عن منهج اللَّه ويتصدى لدعوة الحق، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

ففى الأمم السابقة كان القوم إذا كذَّبوا رسولهم وعاندوه يهلكهم الله. وكلمة ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دليل صدقها فى الوجود قائم فى أماكن كثيرة، مثل إرَمَ ذات العماد التى بلغت حضارتها القِمة ولم تستطع أن تصون نفسها من الهلاك والاندثار، وكذلك الحضارات التى تواردت فى الكون لم توجد من بينها حضارة ظلت طوال الدهر، فلو كانت هذه الحضارات مبنية على قيم ثابتة، لاكتسبت مناعة ضد الزوال، ولكن لأنها حضارة مادية ليس لها رصيد من القيم والأخلاق، أخذها اللَّه تعالى أخذ عزيز مقتدر، فتنتهى الحضارة دون أن يعرف الناس حتى أسرارها وسر تفوقها، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]. ولذلك فإن اللَّه تعالى يذكرنا بهذه الحضارات التى أصابها الهلاك فيقول: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] فأنتم أيها الناس لم تبلغوا مثلما بلَغ أصحاب هذه الحضارات التى أهلكها اللَّه بظلمهم وكفرهم، فإذا كانت حضارتهم القوية المتقدمة لم تمنعهم من أخذ اللَّه لهم، فعليكم أيها الناس أن تتنبهوا وتعودوا إلى اللَّه خاصة وأنكم أقل منهم حضارة وقوة حتى لا يكون مصيركم كمصيرهم، ومعنى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية [الشعراء: ١٣٩]. هى الشىء العظيم الملفت؛ لأن الحضارات التى قامت وبلغت هذه القمة فى التقدم والقوة لم تستطع أن تحمى نفسها من الدمار مما يدل على أن الذى دمرها أقوى منها وأشد، فعلى الإنسان أن يأخذ من ذلك العِبرة والعظة حتى لا يقع فيما وقعوا فيه.

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء ١٤٠] . أى أن ربك الذى رباك وجعلك على هذه الدرجة من الإيمان والاستقامة هو وحده العزيز الذى لا يغلب ؛ لأن المربى تعظم منزلته فى الرباية بمقدار كمال المربَّي- بتشديد الباء وفتحها- وكأن اللّٰه تعالى يقول : فأنا ربك الذى أكملت تربيتك وجعلتك على هذه القمة من الخلق والتربية ، فأنا رب عظيم . إذن المربى يبلغ القمة فى الرباية إذا صار من ربَّاه عظيمًا ؛ ولذلك لم يقل ربهم وإنما قال : « ربك » . فالذى يريد أن يرى قدرة الربوبية يراها فى تربيتك أنت أيها الرسول ، ولذلك يروى أن الرسول ﷺ قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . فكأن الحق سبحانه وتعالى يعطى نموذجًا لدقة تربيته ولعظمة تكوينه لما يصنعه على يديه بمحمد لله ، وكأن محمدًا ﷺ أكرم مخلوق مربى فى الأرض .

والعزيز هو الذى لا يغلب ، ومع ذلك فهو ليس بجبار ولكنه رحيم بعباده . ولذلك قلنا : إن الإسلام يربى الأمة الإسلامية على ألا تجمد عند خصلة ولا عند خلق ولا عند طبع ؛ لأن كل طبع فى الإنسان له مهمة ، ولذلك قال تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة : ٥٤] . فالمسلم ليس مجبولًا على الذلة ولا على العزة ، وإنما الموقف يجعله ذليلًا أو عزيزًا ، فمع المؤمنين تكون الذلة والخضوع ولين الجانب والرأفة والرحمة ، ومع الكافرين تكون العزة والشدة والقوة ، قال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح : ٢٩] . فالمسلم ليس مطبوعًا على الشدة ولا على الرحمة ؛ لأن الرحمة فى غير موضعها خَوَرٌ .

سبب وقوع الغضب على قوم هود ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾ [الأعراف : ٧٠] أفصح قوم هود عن العلة فى شركهم ، وفى هذا هم مقلدون لقوم ضلوا عن الحقيقة ، فهم مقلدون لآبائهم ، وليسوا مقلدين عن اقتناع ، فلو أنهم ناقشوا المسألة مناقشة عقلية بسيطة لعرفوا أنهم فى ضلال ، فالصنم الذى لا يستطيع أن ينفع أو يضر نفسه ، لا يمكن أن يكون إلهًا ينفع أو يضر غيره ، وليتهم رفضوا النقاش فقط ، بل تحدوا وقالوا : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف : ٧٠] فكأنهم أغلقوا كل باب

للاقتناع وزادوا على ذلك بأن طلبوا العذاب من اللّٰه تعالى كما حدث لقوم نوح الذين يعرفون قصتهم جيدًا ، هم طلبوه بأفواههم ، فماذا حدث ؟ قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف : ٧١] فكأنهم وهم يناقشون هودًا ويقولون : لن نعبد اللّٰه وحده . ويصرون على الشرك ويتحدونه أن يأتيهم بالعذاب ؛ جاء الخبر إلى هود بأنه قد وقع عليهم رجس وغضب من الله ، والرجس هو التقذير ضد التطهير ، فالشيء تزكيه وتطهره ، فإذا جاء له رجس امتلأ بالقذارة ، وفى ذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة : ١٢٥] .

ولكن كيف يقال : إن العذاب قد وقع عليهم ، ووقع فعل ماض بينما العذاب سيأتيهم . أى أنه قادم فى المستقبل ؟

نقول : إن كلام اللّٰه سبحانه وتعالى مجرد عن الزمان ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا ، والله سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ فكأنه حدث فعلًا ؛ لأنه لا أحد يملك أن يمنع قضاء الله ، فالله قادر على إنفاذ قضائه فى أى وقت ، فمتى قضى فقد حدث ، ولكن لماذا غضب اللّٰه عليهم وأنزل عليهم العذاب ؟

الجواب فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف : ٧١] وهنا تظهر لنا المكابرة من الكفرة ؛ ذلك أن هؤلاء الناس صنعوا أصنامًا ثم أطلقوا عليها أسماء من عندهم ، ثم قالوا : إنها آلهة ، مع أنها أسماء أطلقوها هم ، فكيف يصنع المخلوق إلهًا ثم يسميه ، ثم بعد ذلك يصر على عبادته ؟ ولو أن اللّٰه سبحانه وتعالى أنزل عليكم سلطانًا بهذا ربما كان لكم العذر ، ولكن ها هو رسول اللّٰه ينهاكم عن أن تفعلوا ذلك ، ولكنكم ترفضون وتتحدون ! !

إذن .. فقد استحق عليكم العذاب ، ﴿فَانتَظِرُوا﴾ أى انتظروا ما سيقع عليكم مستقبلًا من عذاب الله : ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أى أن هودًا رسول اللّٰه سيبقى معهم حتى يتحقق هذا العذاب ، ويأتى [هذا القول من هود عليه السلام] تحديًا لهم على ما سبق أن تحدوا به من الإصرار على الشرك وطلب العذاب من الله ، ولكن إذا كان الحق قد قال : ﴿قَدْ وَقَعَ

عَلَيْكُم﴾ ثم يقول : ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أى أن الأمر لم يأت ولا بد لهم أن ينتظرا مجيئه ، نقول إن هذه الآية مثل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل : ١] أتى فعل ماض ، ولا تستعجلوه أى أن زمن الفعل لم يأت بعد فلا تتعجلوا حدوثه ، نقول : إنه مادام اللّٰه سبحانه وتعالى قد قال : « أتى » فقد وقع فعلًا ، فمع أنه لن يظهر لكم إلا فى المستقبل ، إلا أنه قد وقع وانتهى ومسألة حدوث الفعل لكم مسألة واقعة لا محالة ؛ لأن قضاء اللّٰه تعالى - كما قلنا - لا يستطيع أن يمنعه أو يوقفه أو يؤجله أحد .

ويقص علينا الحق سبحانه وتعالى نهاية قوم هود بعد تكذيبهم وطلبهم العذاب فيقول : ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف : ٧٢] ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا وسيلة النجاة فى قصة هود كما ذكرها لنا فى قصة نوح حين قال : ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلۡفُلۡكِ﴾ [الأعراف : ٦٤] أى أن وسيلة نجاة المؤمنين من قوم نوح كانت السفينة ، فما هى وسيلة نجاة المؤمنين من قوم هود ؟ لقد كان العرب قديمًا إذا أصابهم سوء يذهبون إلى الكعبة ليتضرعوا إلى اللّٰه ليذهب عنهم السوء ، وحتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك .

وعندما بدأ عذاب اللّٰه يصيب قوم هود أصابهم الجدب فلم تنبت الأرض فأسرع جماعة منهم إلى الكعبة وعلى رأسهم رجل اسمه القيس ورجل اسمه مرصد بن سعد وكان لهم أخوال يحكمون مكة من العماليق أولاد عمليق بن لاوث بن سام ، فنزلوا عندهم فأكرموا وِفادتهم وجاءوا لهم بالطعام والشراب ومجالس الطرب ، وهؤلاء جاءوا من أرض جدباء ، فاستمرءوا هذه الضيافة وظلوا شهرًا يأكلون ويشربون دون أن يذهبوا إلى الكعبة ، فتعجب معاوية بن بكر كبير العماليق من حالهم ، فهؤلاء الجماعة جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب ، ولكنهم نسوا ما جاءوا من أجله ولم يذهبوا إلى الكعبة ، وفكر معاوية كيف يلفت انتباههم لكى يذهبوا إلى الكعبة ، وفى نفس الوقت لا يقال إنه ضاق ذرعًا بضيوفه . فتكون سُبة له بين العرب ، وكانت عند معاوية مغنيتان فأخبرهما بهذا الأمر ، فقالتا له : قل فى ذلك شعرًا ونحن نغنيه لهم فيذكروا ما جاءوا من أجله ؛ فعمل لهم شعرًا يعرض لهم فيه وأمر المغنيتين أن تغنيهما به ، فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهيم ... لعل اللّٰه يصبحنا غمامًا
فيسقى قوم عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما

ثم أكمل الأبيات بأن قوم عاد أصابهم الجدب حتى فقدوا القدرة على الكلام فما عادوا يستطيعون كلامًا ، وظلت المغنيتان ترددان هذه الأبيات حتى تنبه القوم لما جاءوا له فانتهوا إلى الكعبة وجلسوا يبتهلون إلى الله أن يمطر أرض عاد ، فسمع داعيهم وهو : قيل بن عنز هاتفًا يقول : اختر لقومك . .. هناك سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء فأى سحابة تريدها أن تذهب لقومك ؟ فاختار السحابة السوداء اعتقادًا منه أنها مادامت سوداء داكنة فلابد أن تكون مليئة بالمطر ، وعاد ومن معه إلى قومهم واخبروهم بما حدث واختيارهم للسحابة السوداء ، فلما رأوا السحابة السوداء قادمة عليهم استبشروا وقالوا : جاءنا المطر . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] . حينئذ يرد الحق سبحانه وتعالى عليهم : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف : ٢٤، ٢٥] هذه هى قصة العذاب الذى حدث لعاد قوم هود .

أما كيفية نجاة هود والذين آمنوا معه ، فإنه حين رأى السحاب قادمًا سمع هاتفًا يقول له : اخرج من هذا المكان فهذا السحاب فيه العذاب ، فأخذ جماعة المؤمنين وانطلق إلى مكة وعاش هناك إلى أن لقى الله عز وجل .

* * *

ذكر قصة نبى الله صالح عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود : ٦١] ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أى تلقوا أوامركم ونواهيكم من الله سبحانه وتعالى فى كل حركة من حركات الحياة . قوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أى أن الله تعالى لم يرسل رسولاً غريبًا عليهم ، بل هو أخوهم الذى يعرفونه ويعيشون معه ، يعرفون حسن سلوكه وسيرته الطيبة وعقله الراجح ، وهذا حتى لا يكون للناس حجة على الله تعالى ؛ لأنه لو جاءهم برجل غريب ربما قالوا : هذا رجل لا نعرفه ، ولا نعرف صدقه أو كذبه أو سلوكه ، ربما كان كذابًا أو لا خُلاق له ، جاءنا يكذب علينا لتكون له السلطة الدنيوية .

الحق سبحانه وتعالى*يبطل هذه الحجة تمامًا ، بأن يأتيهم برسول منهم عاشوا معه ولم يعرفوا عنه كذبًا ، بل عرفوا عنه الأمانة والصدق والإخلاص ، لا يريد نفوذًا دنيويًا ، ولم يسعَ إليه ، ففى هذه الحالة لا عذر لهم إذا كذبوه ؛ لأنهم يعرفون كل شيء عنه ، و كل ما يعرفونه عنه يعطيهم الثقة الكاملة فيه ، ماذا قال صالح ؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ القوم يطلق عادة على الرجال ولكنه يشمل المرأة أيضًا كما ذكرنا سابقًا .

وقوله : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ الإنشاء هو الإيجاد من عدم وبدون واسطة ، أنشأ أى أوجد وجود ابتداءٍ دون الاستعانة بأحد ، فالذى يخترع آلة لا نقول أنشأها ؛ لأنه استعان بأشياء كثيرة كى يخترعها ؛ استعان بالمادة ، واستعان بما وصل إليه الذين من قبله من علم ، واستعان بنتائج عقول الآخرين ، ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنين : ١٤] لماذا ؟

لأنه وحده سبحانه وتعالى الذى يخلق بغير موجود وبغير مثال سابق ، ودون الاستعانة بأحد ، فهو وحده الموجِد من عدم ، والمنشئ من عدم .

وقوله : ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب هنا لقوم صالح وهؤلاء لم يشهدوا خلق الإنسان من الأرض ؛ لأن آدم هو الذى خُلِقَ من الأرض ، ونحن ذريته ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ استعمركم . . . وعندما ترى الألف والسين والتاء . اعرف أنها للطلب ،

فلستخرج : يعنى طلب الإخراج ، واستفهم يعنى طلب الفهم ، واستعمر يعنى طلب التعمير .

وقوله : ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أى : طلب منكم عمارتها . والتعمير ضد التخريب .

وعمارة الأرض تقتضى [عدة أمور] :

أولًا : أن يبقى الصالح على صلاحه ، أو نزيده صلاحًا ، ولقد كان الناس فى الماضى يشربون من الآبار ، ولكن الآن صار الماء فى كل بيت .

الثانى : أن تنميها بما يناسب التكاثر الذى يوجد ؛ لأن ما يتكاثر بالاستقبال يقل بالماضى .

وقوله : ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود : ٦١] الاستغفار : طلب المغفرة من الذنوب التى وقعت ، والتوبة : ألا تعود إلى هذه المعصية أبدًا ، ولكنك تجد إنسانًا يقول : أنا ذاهب للحج . والحج غفران للذنوب ، أفلا أرتكب ذنبين أو ثلاثة ثم أحج فيغفر اللّٰه لى ، نقول هل أنت تضمن أن تعيش حتى تحج ؟ لا تضمن ، فحافظ على نفسك فإن الأجل ربما يأتى فجأة .

وقوله : ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود : ٦١] فمادمت استغفرت فقد سمعك ؛ لأنه قريب ، ومادمت قد تبت فقد قبل توبتك ؛ لأنه مجيب .

الحق سبحانه وتعالى يقول وهو يروى لنا حوار الكفار مع صالح : ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود : ٦٢] ﴿كُنتَ﴾ أى فى الزمن الماضى قبل أن تكلف بالرسالة . مرجوًا من قبل ، يعنى نأمل على يديك الخير . فما الذى جعلك تقول : اعبدوا اللّٰه وحده ؟ قد كنت تعين الضعيف وتعطى الفقير ، وتملك كل خصال الخير قبل أن تنادى بأنه لا إله إلا اللّٰه ولا عبودية إلا للّٰه وحده .

ويمضون فى مجادلتهم : ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود : ٦٢] أى أتقول لنا إن عبادة آبائنا للأصنام أو الشمس أو غيرها كانت خاطئة ، وتطلب منا أن نتركها ؟ ولو كان هؤلاء الناس يعقلون ، لسألوا أنفسهم : هل الآلهة التى يعبدونها تأمرهم بشىء أو تنهاهم عن شىء ؟ طبعًا لا . إذن فلا منهج لها . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود : ٦٢] والشك هو استواء الطرفين ؛ الإثبات والنفى . إذن فهم ليسوا على يقين من آلهتهم ، والذى منعهم أن يكذبوا صالحًا تكذيبًا قاطعًا ، أنهم قالوا : ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود : ٦٢] .

كذبت ثمود المرسلين

يقول تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء : ١٠٥ - ١٠٨] هم كذبوا رسولهم صالح عليه السلام ، ولكن الله وصفهم بتكذيب جميع الرسل ؛ لأن الرسل جميعًا إنما يصدرون عن شيء واحد ، هو سلامة العقيدة أولًا ، وهذه لا يختلف فيها رسول عن رسول ، ولكن الاختلاف بين الرسل يكون في المسائل البيئية والاجتماعية التي تناسب العصر والبيئات المختلفة ، لكن أصل المنهج واحد ، قال تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء : ١٦٣] وقال أيضًا : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] .

إذن .. هناك قدر مشترك في كل الرسالات ، هذا القدر المشترك : هو إيمان بإله له كل صفات الكمال المطلق ، وأن هناك بعثًا ونشورًا وحسابًا .. إلخ ، هذه الأساسيات يتفق فيها كل الرسل ، فإذا كذب قوم رسولهم فكأنهم كذبوا جميع الرسل ، فثمود كذبوا المرسلين بتكذيبهم لنبيهم صالحًا عليه السلام ، الذي دعاهم إلى تقوى الله تعالى فرفضوا ما جاءهم به من عند الله مع أنه لم يطلب منهم أجرًا على هدايتهم إلى منهج الحق ، وقوله : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٤٥] يدل على أن هذا العمل في عرف العقلاء يستحق الأجر عليه ؛ لأنه يعمل لهم عملًا يمد حياتهم بالسعادة إلى الآخرة .

ثم يقول تعالى : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء : ١٤٦، ١٤٧] الجنات معناها البساتين التي إذا دخلها الإنسان سترته لخصوبة أرضها ولارتفاع أشجارها ، والجنات تحتاج دائمًا إلى الماء ، والماء قال الله فيه ﴿وَعُيُونٍ﴾ تضمن بقاء الجنات واستمرار نموها ، ثم يقول الحق عز وجل : ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء : ١٤٨] معلوم أن الجنات والزروع تشمل النخل وغيره ، فلماذا ذكرت الآية النخل دون غيره من الزروع ؟ لأن النخل شبهه رسول الله ﷺ بالمؤمن قال : « إن من الشجر شجرًا لا يسقط ورقه » . فظن الصحابة أنه شجر البوادي ، فلما خرج عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وكان مع الجالسين قال له ابنه عبد الله بن عمرَ وكان مع أبيه : يا أبي لقد وقع في ظني أنها

النخلة . لأنها مثل المؤمن كل ما فيها خير ، جذعها يستعمل سواري- أعمدة- وجريدها يسقف به وسعفها يستخدم في أشغال الخوص ، وليفها يستخدم في عمل الحبال والمكانس وفائدتها الكبرى في ثمار البلح التي تطرحها .

وهناك فائدة أخرى اكتشفها العلماء الأمريكان مؤخرًا وهي أنهم أخذوا جزءًا من مؤخر جريد النخل الذي يسمى « قحفًا » ووضعوا هذا الجزء في تربة مشابهة لتربة الأرض التي ينمو فيها النخل ثم سقوها بالماء بحساب ، وكانت النتيجة أنها أنبتت نخلة جديدة ! ! والنبي ﷺ عندما قال : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها » . كان على حق ؛ لأن شجرة النخل لا يسقط ورقه أبدًا حتى لو جفَّ . وبعد ذلك يقول تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء : ١٥٠، ١٥١] المسرف هو الذي تجاوز الحد ، وتجاوز الحد له مراحل ، فالله تعالى حرم أشياء وأحل أشياء ، وعمل لها حدودًا مرسومة ، فالإسراف فيما شرع الله : هو أن تتجاوز الحد في الحلال وتدخل فيه شيئًا من الحرام ، أو تأتي بشيء من الحرام ، وتدخل فيه شيئًا من الحلال .

قول الحق : ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء : ١٥٢] نفهم منه أن الأرض مخلوقة على جهة الصلاح في كل شيء ، يأتي الإنسان بتدخله فيفسد فيها ، فالله تعالى خلق الأرض على هيئة الصلاح ، ومادامت كذلك ، فإياك أن تتدخل في إفسادها ؛ ولكن حركتك يجب إما أن تنمي الصالح إلى أصلح بطاقة اللّه المخلوقة لك ، أو تتركها على حالها .

وبعد ذلك يقول الحق تعالى : ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء : ١٥٣] أي أجرى له سحرًا متواليًا عدة مرات ، والذي فعل له السحر شخص آخر . إذا كان الأمر كذلك فإننا نسأل : من الذي سحره ؟ هل هو منكم أم من أتباعه ؟ إن كان الذي سحره منكم فإنكم تستطيعون معالجة الموقف وتفكون هذا السحر لتوقفوه على حقيقته ، وإن كان الذي سحره من أتباعه ، فهذا غير معقول ولا يصدقه أحد ؛ لأن الأتباع في الغالب يعينون صاحبهم ولا يفعلون ما يعوق حركته ومهمته . فإذن قولهم : إنّه من المسحَّرين . زعم باطل ، معناه أنهم يوجهون للنبي اتهامًا بلا دليل لمجرد ألا يتبعوه ولا يؤمنوا به .

ثم تقول الآيات : ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء : ١٥٤] هم يستنكرون أن يكون الرسول بشرًا مثلهم .. وماذا كانوا يريدون ؟ . كانوا يريدون ملكًا ينزل عليهم من السماء، وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٤] هب أن الله بعث إليهم ملكًا رسولًا ، كيف يتعامل معهم ، إن طبيعة خلق الملائكة تختلف عن طبيعة خلق بنى آدم ، الملائكة مخلوقات نورانية لا يمكن رؤيتها بالعين ، والإنسان مخلوق من طين يتجسد ويمكن رؤيته بالعين ، ولو بعث الله رسلًا من الملائكة لاستحال على بنى آدم رؤيتهم والتلقى عنهم .

معجزة صالح عليه السلام

قال صالح لقومه : ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [هود : ٦٣] قوله : ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أى : أخبرونى . كأنه ارتضاهم حكمًا ، فقال لهم : أخبرونى إذا كنت أنا على بينة من ربى ، ويقين أن أنه أرسلنى وأيدنى ، وأنا إن خدعت الناس كلهم لا أخدع نفسى . وقوله : ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أى أن ربى أكرمنى باليقين . فماذا تطلبون منى ؟ أن أترك يقين ربى وأستمع لكفركم ؟ وقوله تعالى : ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ التى هى المنهج والنبوة والرسالة .

وقوله : ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود : ٦٣] عندما تجيء الآيات فى القرآن الكريم على صيغة الاستفهام ليس معناه أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يستفهم عن شيء ، ولكن الله جل جلاله واثق بأنهم لن يجدوا إجابة إلا ما يريدهم أن يقولوه ويعترفوا به لكى يكونوا شهداء على أنفسهم .

وقوله الله عز وجل : ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أى : إن أنا رضيت حكمكم ، فقولوا لى : من الذى يمكن أن ينجينى من الله سبحانه وتعالى إن عصيته ؟ أى قولوا لى : أين أذهب إن عصيت الله ؟ وكيف أتجنب عذابه ، وأنا راض بحكمكم ، والجواب الحتمى هنا : يكون لا أحد ؛ لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفلت من حساب الله . أنتم تقولون إنكم تشكون فيما أبلغكم به ، وأنا أقول إننى على يقين فإن أطعتكم وعصيت الله ، فلا أزيد إلا خسرانًا ، أى فما تزيدوننى غير تخسير .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ما هو التخسير ؟ إن الخسارة ضد

المكسب ، ومعنى الخسارة أن ينقص رأس المال . ومعنى المكسب أن المال يزداد ، إن أنا وافقتكم على ما تريدون ، فسأخسر كل شيء ، الدنيا والآخرة . أى أننى لن أزيد بطاعتكم إلا خسارة .

حينئذ وبعد أن وصل الحوار إلى هذه النقطة ؛ كان لابد أن تأتى معجزة ليعرف هؤلاء الكفار أن صالحًا مرسل من ربه ، وأن المنهج الذى يبلغه هو منهج اللّٰه سبحانه وتعالى .

وقال صالح لقومه كما جاء فى الذكر الحكيم : ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [هود : ٦٤] حينما يقال : هذه ناقة الله . فهذا دليل على أنهم طلبوا من صالح معجزة ، وأن اللّٰه تعالى استجاب لرسوله ، وأعطاه المعجزة التى طلبوها .

إنهم قالوا : إن كنت رسولًا حقًّا ، فأت لنا من هذه الصخرة بناقة . وسبب طلبهم الناقة من الصخرة ، أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا . فقالوا له : نريد أن تخرج لنا من هذه الصخرة ناقة ، هم اقترحوا الآية ، والله سبحانه وتعالى أجابهم ، فانفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة ، والناقة حامل على وفق ما طلبوها ، لم يكن فى استطاعتهم فى هذه الحالة أن يكذبوا الآية التى حدثت أمامهم ؛ لأنها رؤية عين ورؤية يقين ، فهم لا يستطيعون التكذيب لما حدث أمامهم .

ولكنهم عقروها ظنًّا منهم أن هذا إبطال للمعجزة ؛ لأن الناقة بعد أن عقورها لن تستطيع السير ، فيقولون : هذه آية باطلة .

وكان من الممكن أن تخرج شجرة من الصخرة فيكون هذا إعجازًا ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يخرج نباتًا من الصخرة ، بل أخرج حيوانًا ، ناقة تحمل فى بطنها جنينًا ، ومادامت ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ معجزة طلبتموها فحققها اللّٰه لكم ، وجعلها مشهودة منكم ، فحافظوا عليها ، لا تتعرضوا لها حين تشرب وحين تأكل ، اتركوها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود : ٦١] فهى ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ اتركوها ترعى فى أرض اللّٰه وتأكل من خير اللّٰه وحافظوا عليها ، ولا تمسوها بسوء ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك فسيأتيكم عذاب اللّٰه وسيكون قريبًا .

وكان صالح عليه السلام قد طلب من قومه أن يتقوا الله ، وأنذرهم عذابه وبشرهم برحمته ، وكل هذا مفهوم من السياق . ماذا قال صالح ؟ قال لهم : ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ

مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] أى: هى تشرب يومًا وإبلكم يومًا، فوافقوا على ذلك، وكانت المياه فى مدائن صالح قليلة، فكانت ناقة الله إذا شربت أخذت كل كميات المياه التى فى الآبار وأعطتهم كمية هائلة من اللبن، فتأتى إبل غير المؤمنين لتشرب فلا تجد ماء، أما المؤمنين فقد كان لبن الناقة يكفيهم جميعًا ويزيد بحيث لا يحتاجون إلى شىء، وكانت هناك امرأتان لهما إبل، فلم تجدا للإبل ماء؛ لأن المياه فى الآبار قلَّتْ جدًّا، فذهبتا إلى رجل اسمه أحيمر ثمود وأغرياه على قتل الناقة فقتلها- فلما قتلت الناقة صعد فَصِيلُها على صخرة تسمى القارة ورغا ثلاثة أصوات. فقال صالح: يا قوم أدركوا هذا الفصيل لعل الله يرفع عنكم العذاب فذهبوا يبحثون عن الفصيل فلم يجدوه، حينئذ أبلغ الله تعالى صالحًا أن العذاب سيأتى بعد ثلاثة أيام .. أول يوم يروا سحابة مصفرة، والثانى محمرة، والثالث مسودة ثم يأتيهم العذاب.

المؤامرة على نبىِّ الله صالح عليه السلام

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] انظروا القِحَةَ وقلة العقل والسفاهة، يبيتون لقتل نبى الله صالح ويقسمون بالله ويتعاهدون مع بعضهم على فعل هذه الجريمة النكراء، فهم يتقاسمون بالله على قتل رسول الله، هذا مما يدل على غبائهم ووقاحتهم، وأنهم ليس عندهم ذرة عقل حتى لو فى خدمة ضلالهم.

ومعنى ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ أى قالوا لبعضهم: هيا نحلف بالله أن نبيت لهذا الرجل ونقتله حتى نتخلص منه ومن دعوته. ومعنى: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ المبيت هو ما يقطعك عن الحركة، ثم تعود فتبيت الليلة وتصبح فى الصباح لتواصل عمل يوم جديد، ولكن قولهم هنا: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ يقصدون من ذلك أن يُعدوا له بياتًا لا يقوم منه، فلا يخرج عليه صباح بعده أبدًا، وذلك بأن يقتلوه، وحينما يقتلونه لابد أن له أهلًا وأقارب سينتقمون ممن قتله؛ ولذلك احتاط الكفار لهذا الأمر بأنهم سيقولون لأقاربه وأولياء الدم: إنهم لا يعرفون شيئًا عن هذا الأمر وليس لديهم فكرة عنه، هم دبروا ذلك وفهموا أن الله تعالى يسلم نبيه ويتركه لهم ليقتلوه ثم يتنصلوا من جريمتهم؛ ولكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد.

ولكن ماذا كانت نتيجة مكرهم؟ قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ

مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل : ٥١] فكيف حدث ذلك ؟ الكفار رصدوا تحركات صالح عليه السلام وعرفوا المكان الذى يبيت فيه ودخلوا عليه ، فساعة دخلوا عليه ليفعلوا فَعلتهم ؛ استقبل كل واحد منهم حجرًا لا يعرف من الذى رماه ، كأن اللَّه تعالى سخر ملائكة يضرب كل واحد منهم واحدًا من الكفار فهلكوا جميعًا ، ونجا النبى ومن معه ، أو أن اللَّه صنع له حيلة خرج بها ، وقالوا : إنه ذهب إلى حضرموت ، ولما ذهب إلى هناك مات ، فسموها حضرموت من أجل ذلك . وقال بعض العلماء : إن الرهط ذهبوا لينتظروا صالحًا فى مكان وجاءوا فى سفح جبل واختبئوا فيه حتى يمر صالح ، فبينما هم يجلسون فى هذا المكان أسقط اللَّه عليهم صخرة قضت عليهم . المهم [أنهم] هلكوا ودمروا سواء كان ذلك بالملائكة التى رمتهم بالحجارة ، أو بنجاته منهم إلى حضرموت ، أو بوقوع الصخرة عليهم ، فكل هذه جنود اللَّه تعالى ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

فهم أرادوا أن يهلكوه هو وأهله ، فأهلكهم اللَّه هم وقومهم أجمعين ، قال سبحانه وتعالى : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل : ٥١، ٥٢] ، والدليل على هلاكهم أنه لم يبق منهم أحد ، وأصبحت بيوتهم خاوية لا أحد فيها .

قوم ثمود فى انتظار العذاب

أعطى اللَّه تعالى ثمود العظات كلها ، لقد أرادوا آية ، فجاءتهم ناقة اللَّه تحمل جنينها فى بطنها ، كما طلبوا تمامًا ، وكانت معجزة مشهودة .. وأمرهم ألا يتعرضوا لها أو يمسوها بسوء ، وإلا أتاهم العذاب من اللَّه سبحانه وتعالى ، فالحق جل جلاله حين يطلب منه الكفار آية ، ، ويحققها مشهودة لهم ، ولا يؤمنون بها ، يحق عليهم العذاب ، فماذا فعلت ثمود ؟ وجدوا الناقة تأكل من زرع الكفار فتمسحه مسحًا ، وتأتى لزرع المؤمنين فلا تقربه ، وإذا شربت كمية من الماء ، شربت بحيث لم يبق فى الآبار إلا اليسير ، فإذا ما أتوا ليرووا فى اليوم الثانى لم يجدوا ماء ، ويأتى اليوم الثالث فتمتلئ الآبار بالماء ، فقد حدد اللَّه سبحانه وتعالى أن للناقة شرب يوم ، ولهم شرب يوم .. فلما لم يستطيعوا الاحتمال عقروها فأنذروا بعذاب الله .

واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ

غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود : ٦٥] عندما عقروا الناقة قال لهم صالح : تمتعوا ثلاثة أيام لن يمسكم فيها شيء ، ثم يأتي وعد الله بالعذاب في اليوم الرابع ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود : ٦٦] ولم يقل : فلما جاءت الصاعقة أو الصيحة . بل جاء أمر من الله تعالى بالعذاب ، وهو أمر واقع لا محالة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى له الأمر كله . يقول للشيء : كن فيكون .

والحق سبحانه وتعالى قال : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود : ٦٦] الفاعل واحد ، هو الله سبحانه وتعالى ، والأمر واحد . فكيف ينجو المؤمنون ويهلك الكافرون ؟ هذه هي عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، يبطل طبائع الأشياء أو يمضيها ، وهكذا كانت الصيحة أو الريح أو الرجفة . فالقوم كلهم موجودون في مكان واحد ، كافرهم ومؤمنهم . تأتي الصيحة فيهلك الكافر وبجواره المؤمن لا يحدث له شيء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الآمر لكل خلقه .

ويسأل بعض الناس إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قرر إهلاكهم ، فلماذا الإمهال ثلاثة أيام ؟

نقول : إن العذاب إذا جاء انقطع الألم الحسي ؛ لأن الإنسان يموت وعند موته ينقطع الألم ، والله تبارك وتعالى يريد أن يعيشوا ثلاثة أيام ليعانوا قرب تنفيذ الوعيد الذي قال الله سبحانه وتعالى عنه : ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود : ٦٥] .

الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ . في ديار كم؛ معناه أنها ديار متعددة ، فكأن الذين كفروا كانوا في أكثر من مكان ، بل إن المسافرين منهم لحقهم عذاب الله وتتبعهم حيثما كانوا ، فكأن العذاب نزل على الديار وعلى الذين كانوا خارج الديار ، ولم ينج من العذاب إلا شخص واحد اسمه . « أبو رغال » ، كان يحج بيت الله الحرام ، ولذلك ظل الحجر الذي سيُضرب به أو الصيحة التي ستودي بحياته إلى أن خرج من الحرم فوقعت عليه ، فكل الكفار أهلكوا إلا هذا الرجل ، ظل العذاب ينتظره حتى خرج من بيت الله الحرام فوقع عليه الحجر .

بماذا أهلك الله عز وجل ثمود ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : « جَاثِمِين » أى حين جاءت الرجفة أخذت كلا منهم على الحالة التى كان عليها ، فالذى كان واقفًا ظل على وقوفه ، والذى كان قاعدًا ظل على قعوده ، والذى كان نائمًا ظل على نومه ، أخذوا جميعًا على هيئاتهم ، مع أن الحق سبحانه وتعالى يخبرنا أن صالحًا كلمهم بعد أن أخذتهم الرجفة وعاتبهم وقال لهم : إنى نصحتكم ، فكيف كلمهم وهم أموات ؟ الميت يسمع كلام الحى ، ورسول الله ﷺ خاطب القتلى من كفار بدر ، وقال لهم : « إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا » ؟ . قال المسلمون : يا رسول الله ، أتكلمهم وقد جيفوا ؟ أى أصبحوا جيفة . قال رسول الله ﷺ : « والله ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يتكلمون » . وهكذا كان صالح يخاطب قومه بعد أن أخذتهم الرجفة فيقول لهم : لقد أبلغتكم رسالة الله ونصحتكم ولكنكم لم تقبلوا نصحى .

هؤلاء هم ثمود قوم صالح ، أخذتهم الرجفة أى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز ، ويعطى لنا القرآن الكريم صورًا مختلفة لتأديب الله لثمود ، فمرة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ومرة يقول : ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة : ٥] ومرة يقول : ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود : ٦٧] وسماها فى سورة أخرى « الصاعقة » فى قوله تعالى : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت : ١٣] والرجفة والطاغية والصيحة والصاعقة كلها تؤدى معنى الحدث .. وهو عذاب يفاجئهم ولا يمكنهم النجاة منه .

على أننا لابد أن نتنبه إلى قوله تعالى : ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وكان القياس السطحى يقتضى القول : وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، ولكن الذى يتكلم هو الله تعالى ، فالذين يقولون كان لابد أن تكون أخذت بالتأنيث نقول لهم : إن الصيحة ليس معناها أنها حدثت مرة واحدة ؛ لأن التاء هنا تستخدم عندما تكون حدثت مرة واحدة ، ولكنها صياح وليست صيحة فقط ، والصياح فيه عزيمة الرجولة .

ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يجمع الأمرين تكون صيحة وقوة . ولذلك قال تعالى :

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ولم يقل أخذت ؛ لأنها حدثت مرات متعددة .

وقوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي ملقين على ركبهم وجباههم هامدين بلا حِراك ، وقوله سبحانه : ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ٦٨] مادة غني كلها سواء ، غني وغنيٌ وغناء كلها تؤدي نفس المعنى ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] « تَغْنَ » يعني أنها لم تكن موجودة بالأمس . إذن .. فالمعنى معناه الوجود وضده العدم .

وقوله تعالى في الآية الكريمة : ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [الأعراف: ٩٢] . أي : كأنهم لم يقيموا فيها ، بمعنى : كأنها أصبحت خالية ولم تكن مليئة بالحياة منذ ساعات .

وقوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨] هذه حيثية إهلاكهم بالصاعقة وهم لعنوا في الدنيا والآخرة ، وقد قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا بشاعة جريمتهم حتى نعرف أن القِصاص عدل ومناسب لبشاعة الجريمة .

وقوله تعالى : ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ عادةً يقال : كفروا بربهم ، ولكن الحق تبارك وتعالى قال : ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أي أن هناك فرقًا بين المعنيين .. كفروا ، أي ستروا وجوده وأنكروه ، وكفروا بربهم أي لم يؤمنوا به مع اعترافهم بأنه موجود ، هذا هو الفرق ، وعندما نرى الذنب الكبير الذي ارتكبوه نعرف أن إهلاكهم كان عدلًا ، ونقول كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ .

* * *

ذكر قصة نبى اللَّه إبراهيم عليه السلام

قال اللَّه تعالى : ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم : ١٤] .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء ، امتدحه اللَّه تعالى فقال سبحانه : ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ [النحل : ١٢٠] . ومعنى : ﴿كَانَ أُمَّةٗ﴾ قالوا : إنه لا يوجد فرد يحتوى على خِصال الكمال ومواهب الفضل كلها ؛ لأن مواهب الفضل وخصال الكمال أكبر من أن يحتويها فرد ، لكن المجموع يحتويها ، فهذا شجاع وقوى البنية ، وهذا ذكى وهذا نظره قوى ، وهذا سمعه مرهف ، وهذا قوى الذاكرة ، وهذه كلها وغيرها مواهب متفرقة ، ولا يستطيع فرد أن يجمع كل هذه المواهب فكل فرد يمكن أن تكون فيه لمسة موهبة ، وكذلك كل كمال موزع فى خلق كثيرين ، إلا إبراهيم عليه السلام فقد كان وحده أُمَّة .

فكأنه أخذ المواهب والكمالات الموجودة فى أمة كاملة .

وكلمة : « صديق » من مادة صدق ، وصدق معناها : تكلم بواقع ، وكذب معناها : تكلم بغير واقع ، والذى صدق يسمى صادقًا أى يتكلم كلامًا له واقع ويوافق الواقع .

والصدِّيق هو الذى بلغ الغاية فى تصديق ما يأتى من الحق ، فهو يأخذ أمر اللَّه تعالى دون مناقشة .

وهناك فرق بين الصديِّق والنبى . فالصِّديقية هذه ذاتية عنده وإشراقية من اللَّه تعالى فيه ، أما النبى الرسول فجاءه تشريع من عند الله ، فقد يكون الإنسان صديقًا ولكن ليس عنده تشريع يقوله لنفسه ، ولكن النبىَّ الرسول يأتيه تشريع وهدى من اللَّه تعالى ، ولذلك حينما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه : ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم : ٤٢ ، ٤٣] لم يقل هذا الكلام بوصفه صديقًا ، ولكن قاله بوصفه نبيًا ورسولا جاء ليعدِّل سلوك الناس واتجاهاتهم بما أوحاه اللَّه تعالى له .

وكلمة « لأبيه » لم يذكر القرآن اسم العلم المشخص لوالد إبراهيم عليه السلام ، فالأب هنا وصف ولكن اسمه لا نعرفه .

وإذا استعرضنا نصوص القرآن الكريم نجد أنه جاء بنصين : نص يسرد الآباء المباشرين

« الابن عن الأب عن الجد عن أبِ الجد » وذكر آية أخرى مخالفة فجاء بالأعمام وأدخلهم فى الآباء ، ففى سورة « يوسف » مثلًا قال لصاحبيه فى السجن : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۞ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف : ٤٢، ٤٣] .

فهنا كلمة آبائى فى قوله : ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ ، فهى جمع أب وهؤلاء الآباء هم : إبراهيم ، ثم ابنه إسحاق ، ثم ابنه يعقوب . فالآباء جمع أب ، فذكر القرآن الآباء وعدد الآباء المباشرين فيوسف بن يعقوب . ويعقوب بن إسحاق ، وإسحاق بن إبراهيم عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه .

والآية الأخرى هى قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٣] وإذا كان إبراهيم هو جد يعقوب وإسحاق والده ، فما دَخْل إسماعيل هنا ؟ هو عم يعقوب فاعتبر العم أبًا .

إذن .. فالقرآن اعتبر العم أبًا ، فلو قال الحق فى كل آيات القرآن بالنسبة لإبراهيم كلمة ﴿لِأَبِيهِ﴾ كان الأمر سينصرف لأبيه الحقيقى ، إنما ذكر فى مرة واحدة أن أباه آزر ، ولا يؤتى بالعلم بعد الأبوة إلا إذا كان يقصد به العم .

ما المقصود بملة إبراهيم عليه السلام ؟

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر : ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٣- ٤٥] . والصراط السوى هو الطريق الذى يصل إلى الغاية بأقل مجهود وأقصر وقت ، وكلمة : ﴿تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ . فالشيطان يسمع ويبصر ، وإبراهيم سبق أن قال لعمه : لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ؟ وهذا يسمع ويبصر ، قالوا : لأن الشيطان هو الذى يسوِّل للإنسان أن يعبد الصنم ، فالمسألة كلها مردها للشيطان ، ولكن إبراهيم حلل المسألة المباشرة ، فعمه يعبد صنمًا لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى [عنه] شيئًا ، وهذا بشهادة عُبَّاد الأصنام أنفسهم قال تعالى : ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ

تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء : ٧٢، ٧٣] هذا استفهام ، ولا يستفهم مجادل من يجادله عن شىء إلا وقد علم أن الجواب لابد أن يكون فى صفه ؛ لأنه ائتمنه على الجواب .
﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم : ٤٤] . إذن .. العبادة لغير اللّه تعالى مردها إلى إغواء الشيطان الذى يجعل الإنسان يعبد صنمًا أو وثنًا أو شمسًا أو شجرة أو غير ذلك .

ومعنى : ﴿عَصِيًّا﴾ : أى يعصى أوامر اللّه بِلَدَد ، ثم قال له : ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ المس : هو الالتصاق الخفيف . ولم يقل له يصيبك العذاب ولكن تلطف معه وقال : يمسك . مثلما تقول لإنسان عزيز عليك أنا أخاف عليك من نسمة الهواء ، ومعنى أخاف تفيد أن أمرك يهمنى فأخاف عليك أن يصيبك مكروه ، والولى هو التابع والقريب ، فولى الشيطان تابعه والقريب منه ، ومثلما يعذب معه ، أخشى عليك أن تعذب مثله . انظر إلى منطق الداعى كيف رتب الأمور هذا الترتيب الذى لا يثقل على أذن المجادل ، لكن المجادل له لدد ، ولذلك مطلوب منك حينما تجادل أحدًا ، أن تجادله بالتى هى أحسن ، لأنك تجادله لتخرجه عن الفساد الذى هو فيه ، وما دام عن فساد فهو اشتهى الفساد أولًا ثم اعتاد الفساد بالفعل ثانيًا ، فاشتهاه واعتاده فأصبح متمكنًا منه وعزيزًا عليه ، فحين تأتى لتخرجه من الفساد لا تخرجه بقسوة ، ولكن لابد أن تحتال عليه وتتلطف معه وتترفق به ، لأنك إذا نهرته فستجعله يعرض عنك ، وإذا أعرض عنك فلن يسمع لنصحك ، وإذا لم يستمع للنصح سيظل على فساده .

بعد ذلك يأتى رد آزر على إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٦] كلمة : ﴿أَرَاغِبٌ﴾ يختلف معناها إلى المقابل بحرف الجر الذى يأتى بعدها تقول : رغب فى كذا . أى أحبه ، و : رغب عن كذا . أى كرهه واعتزله ، مع أن المادة اللغوية واحدة هنا يقول تعالى : ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ﴾ والمعنى هل تريد آلهة غيرها يا إبراهيم ؟ وهناك آية تقول : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البقرة : ١٣٠] فرغب عنه أى تركه وذهب إلى غيره ، ورغب فيه أحبه . إذن أنت راغب فى كذا ولكنك لم تأخذ الوسيلة إليه ، فالرغبة فى الشىء لا تفيد إلا إذا رغبت فى الطريق الموصل إليه من الخير .

وهناك فى اللغة رغب عنه ، ورغب فيه ، ورغب إليه . فالذى يرغب فى حب اللّه يرغب فى الطريق الموصل إلى الله .

وقوله : ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٦] أى إن لم تنته عن موقفك هذا من آلهتنا سأرجمنك . والرجم : هو الضرب بالحجارة .

وقوله : ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ أى : ابتعد عنى ، وكلمة : ﴿مَلِيًّا﴾ الملىّ ، هى البرهة الطويلة من الزمن ، وهى من الملاوة التى هى الفترة الطويلة من الزمن ومنها سمى الليل والنهار الملوان . ولكن ماذا قال إبراهيم ردًا على هذا الكلام القاسى ؟

إنه لم يخرج عن سمته العادل فى عرض دعواه وأدبه مع عمه ، ولذلك رد عليه قائلًا : ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم : ٤٧] فكأنه أراد أن يؤكد كلامه الذى قاله له سابقًا لأنه ينبه أنه يقول : وإن لم يستغفر له سيكون مصيره مؤلمًا فذكره بالله تعالى وأنه سيستغفر اللّه له لأنه لا يرضى له بهذا المصير . وظل يستغفر له : ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ . فمعنى أنَّ اللّه تعالى كان به ﴿حَفِيًّا﴾ : أى يزيد فى إكرامه إكرامًا يحقق سعادته ، ومن سعادته أن يغفر اللّه لعمه الذنب الذى عمله .

فهو هنا يضخم شيئين : يضخم الذنب الذى فعله عمه ، ويعظم الرب الذى سيستغفر لعمه عنده ، وما دام ربى ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ سيكرمنى ، ودليل إكرامه لى أنه جعلنى نبيًا ، وهو فى كل ذلك يؤكد معنى الصدق فى كلامه فيقول له : اسمع كلامى لأننى ذو مكانة عند ربى .

ثم قال بعد ذلك : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم : ٤٨] كلمة : « اعتزال » معناها ترك صحبة إلى خير منها ولو كان ذلك فى اعتقاده هو .

إذن .. فالاعتزال أمر مطلوب إن وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل من الحق حتى لا نوصِّل الجدل ، ولذلك قال الخليل عليه السلام : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم : ٤٨] فالمسألة مبدأ إيمانى .

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا

نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٩، ٥٠] فالقرآن ذكر إسحاق ويعقوب ولم يذكر إسماعيل ، فكأن الحق سبحانه يتكلم عن إسحاق ويعقوب اللذين منحهما اللَّه لإبراهيم جزاء صبره ونجاحه فى ابتلاء الرؤيا وذبح إسماعيل ، ورد ذلك فى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات : ١٠٢] فحينما صبر إبراهيم على السلام ، على الابتلاء فى ذبح ابنه إسماعيل وصدَّق الرؤيا وأطاع هو وابنه أمر اللَّه تعالى ، فَدَى اللهُ له إسماعيلَ وبشّره بإسحاق أيضًا ، وإسحاق سيكون من ذريته يعقوب فبشره اللَّه تعالى به أيضًا وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٢] ؛ لأن إسحاق هو الابن الثانى لإبراهيم ، ويعقوب هو ابن إسحاق ، وحفيد إبراهيم .

فكأن الحفيد نافلة فى عطاء الذرية ، وقوله : ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم : ٤٩] تفيد أن الامتنان هنا ليس لأن إسحاق ولد أو يعقوب ولد ، ولكن الامتنان بأنهما سيكونان نبيين ، فبشر إبراهيم بأنهما سيكونان نبيين ؛ لأن هذا هو حظ إبراهيم أن يرى الدعوة حيًّا ، ويريد أن تنشأ ذريته على هذه الحال امتدادًا للدعوة إلى دين اللَّه تعالى ، ليس من أجل الكثرة والعزوة ، ولكن للقيام على أمر الدعوة واستمرار منهج الحق ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما قال : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ﴾ [البقرة : ١٢٤] . أى أن اللَّه تعالى اختبره بتشريعات فأتمها على وجهها الصحيح ، فلما أتمها علم اللَّه تعالى شدة حبه للتكليف ؛ لأنه أتمها على الوجه الأكمل . فكان جزاؤه أن اللَّه تعالى جعله للناس إمامًا .

ولكن رغبة إبراهيم فى امتداد هذا الشرف فى الذرية جعلته يطلبها لذريته أيضًا ، أى إنه يريد أن يكون من ذريته أئمة ، فوضع اللَّه تعالى مبدأ هو : أن النبوة باختيار اللَّه تعالى واصطفاؤه سبحانه لمن يشاء من خلقه .

ولما كان تبارك وتعالى يعلم أزلًا بعصيان الكثير من الذرية فقال لخليله عليه السلام : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

إبراهيم عليه السلام وتأملاته فى أسرار الكون

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام : ٧٥] وإذا سمعت كلمة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ فاعلم أن الحق يريد أن يلفتنا إلى أنه كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين ، فإن اللَّه سيكرمه ما دام ارتبط بالإله الحق ، وسيريه أسرارًا فى الكون .

وقوله : ﴿مَلَكُوتَ﴾ : من صيغ المبالغة ، فهناك رحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ؛ وعندما تضاف التاء تدل على المبالغة ، والذى يتبع الأسباب المشهودة فى الكون ، أن المُلك هو ما تحسه وتشهده أمامك ، أما الملكوت فهو ما وراء هذا الملك ، ولذلك نلاحظ أن إبراهيم عليه السلام عندما تحدث عن الأصنام التى يعبدها قومه قال : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء : ٧٧- ٨١] ولابد أن نلاحظ الأساليب المختلفة التى جاء عليها قول إبراهيم لقد قال : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ . ولم يقل : الذى هو خلقنى . لأن الخلق قضية محسومة للَّه سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن يدعيها ، وهى قضية مسلَّم بها لا تحتاج إلى تأكيد .

ولكن فى قوله : ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ . استخدام « هو » للتأكيد ؛ حتى لا يدعى أحد من بشر كذبًا أنه جاء بمنهج هداية للناس ، فاستخدم كلمة ﴿فَهُوَ﴾ تأكيد بأن اللَّه سبحانه وتعالى بيده وحده الهداية ، وإذا جاء قول الحق : ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ . نجد أن هناك عودة لاستخدام كلمة « هو » ؛ لأن هناك أسبابًا وضعها الحق جعلت للإنسان عملًا فى الطعام والشراب .

وقوله : ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ؛ لأن الموت والحياة بيد اللَّه تعالى وحده لا ينازعه فيهما أحد ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم : ٣٧] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة : ١٢٤] كأن اللَّه قد ائتمنه على الدين فجعله إمامًا للناس .

حينما سمع إبراهيم ذلك قال ببشريته ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة : ١٢٤] أى : يا رب اجعل

من ذريتي أئمة . وحينئذ أراد الله تعالى أن يلفته إلى الملك والملكوت فلا يتحدث بظواهر الأمور فقال الحق سبحانه تعالى : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

ونلاحظ فى الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل :

يقين بعلم من تثق فيه ، ويقين بعين ما تخبر به ، ثم يقين بحقيقة ما تخبر به .

فاليقين هنا بمراحله الثلاثه قد دخل نفس إبراهيم ورسخ فيها .

وتمضى الآيات تقول : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام : ٧٦] كلمة ﴿جَنَّ﴾ تفيد الستر والتغطية ، ولذلك فإن الجنون ستر للعقل ، ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ . بمعنى أظلم وستر ما حولك ، فغيرك لا يراك وأنت لا ترى غيرك . والجنة سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها أشجارًا تستر من يمشى فيها ، أما كلمة ﴿كَوْكَبًا﴾ فمعناها أنه ياخذ ضوءه من مصدر آخر ، ولقد أتى الله تعالى بهذا المثل لأنهم فى زمن إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون القمر والنجوم والشمس والأصنام ، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام : ٧٦، ٧٧] هنا وقف العلماء عند هذه الآيات وتساءلوا : كيف يجرى إبراهيم على لسانه لفظ الشرك ؟ وبدأ العلماء يبررون ويفسرون هذا ، ونحن نقول لهم : إن الذى قال عن إبراهيم إنه قال : ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ هو الذى قال : ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم : ٣٧] وهو الذى قال : ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ١٢٤] إذن .. فمقولة إبراهيم هذه لا تخدش وفاءه الإيمانى ، ولكن لابد أن لها معنًى آخرَ ، ذلك أن القوم كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد العقيدة ولكن يلفتهم بأدب النبوة ، وليس بالشتائم ولا بالسب ؛ ولذلك فإن هذا الأسلوب يقتضى أن يذكر الشيء وفيه نقص والناس لا تلتفت إليه ولكن سياق الحركة يدل عليه .

فكأن إبراهيم حين يقول : هذا ربى . يبدى استنكاره أن يكون هذا الكوكب إلهًا ، وهو يتهكم على الذين يعبدونه ، والدليل على ذلك هو سياق الحوار حين يقول : ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾

وأفول النجم والقمر وغروب الشمس ، أمور قد شهدها إبراهيم قبل ذلك مئات المرات ، فلا يمكن أن يكون قد فوجئ بأن النجم قد أفل ، أو أن الشمس قد غابت ولكنه كان يعلم ذلك جيدًا .

على أننا لابد أن نلاحظ ملاحظة هامة في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام : ٧٨] المنطق اللغوى كان لابد أن يقول : « هذه » لأن الشمس مؤنث ، يمكن أن يكون السياق هنا على أساس قوله هذا عن الكوكب وعن القمر ، فحمل الأمر على السياق أو الحال ويمكن أن يكون لأن الشمس ضياء ، ويكون المعنى هذا الضياء . والله سبحانه وتعالى أراد أن ينزِّه كلمة الرب أن تلحق بها علامة التأنيث ؛ لأن التأنيث فرع للتذكير ، ويمكن أيضًا أن نقول : إن الشمس مؤنث مجازى .

والعلماء يفطنون إلى هذه المسألة فى كل الصفات التى تتحدث عن الحق سبحانه وتعالى ، فأنت إذا أعطيت أحدًا صفة العلم تقول : فلان عالم ، وإذا أردت أن تعطيه صفة أكبر من العلم تقول : عليم ، ولذلك يقول الحق : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٦] . فإذا أردت أن تعطيه وصفًا أكبر- وصف المبالغة- تقول : علَّامة ، ولكن عندما يتحدث اللّٰه تعالى عن نفسه يقول : ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ١٠٩] ووصف الحق بأنه علَّام لئلا تلحق به تاء التأنيث ولو كانت للمبالغة .

وينهى إبراهيم قوله لقومه بعد أن رأى النجوم والقمر والشمس تغيب أو تأفل ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ٧٨] فلماذا قال إبراهيم : إنى برىء مما تشركون . ولم يقل لهم : كونوا جميعًا براء مما تشركون ؟ لأن طبيعة المنذر أو المباشرة أو المبلغ أو الرسول أن يحمل نفسه أولًا على الأمر قبل أن يحمل مخاطبيه ، وألَّا يأمرهم بأمر يخالفه هو؛ ذلك لأن الإنسان إذا غش الناس فإنه لا يغش نفسه .

والبراءة من الشرك : هى التخلى عن المفسد ، أو الانقطاع عن العمل المفسد والدخول فى العمل الصالح ، أمَّا قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام : ٧٩] . فمعنى ذلك أننى توجهت للّٰه الإله الحقيقى لهذا الكون الذى خلق السماوات والأرض . ولكن لماذا استخدم إبراهيم عليه السلام السماوات والأرض

كمظهر للكون ، ولم يقل مثلًا : إنى توجهت للذى خلق النجوم والكواكب والشمس والقمر ؟

[**والجواب فى نقاط**] :

أولًا : لأن هذا التعبير أعم .

ثانيًا : لأنه ظاهر للناس جميعًا لا يحتاج إلى دليل .

ثالثًا : لأنه لا أحد من البشر منذ بدء الخليقة حتى الآن زعم أنه هو الذى خلق السماوات والأرض .

رابعًا : لأن خلق السماوات والأرض يشعر بالقدرة الخارقة للإله الذى خلق هذا كله ، وفى هذا يقول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر : ٧٥] .

وحين أعلن إبراهيم عليه السلام وبيَّن للناس أن ما يعبدون هو مجرد إفك ، وأن ما اتخذوه آلهة لا ينفع ولا يضر ولا يخلق شيئًا ؛ بل هو مخلوق أو مما صنعته أيديهم هل اقتنع القوم بذلك ؟ [الجواب] : لا ، بل أخذتهم العزة بالإثم . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام : ٨٠] . هنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قوم إبراهيم مصرُّون على الضلال ، ولذلك فقد بدءوا يجادلونه فى نقاش ، كل واحد يُدلى بكلامه ليحاول أن يُبطل كلام الآخر ، وهم هنا يجادلون إبراهيم فى اللّه جل جلاله ، وكأنه قد عز عليهم أن يعلن إبراهيم أنه توجه إلى اللّه الذى فطر السماوات والأرض ، أى يريدون أن يصرفوا إبراهيم عن دينه الحنيف .

ما هى حجتهم ؟ وهل يملكون حجة ؟ بالطبع لا ، إذن .. فكيف يواجهون إبراهيم وماذا يقولون ؟ إنهم لا يستخدمون الحجة والمنطق ؛ بل يستخدمون الخرافة ، ولذلك فإن الجدل هنا يقوم على أساس التخويف أى يقولون لإبراهيم : لو كفرت بآلهتنا فإنك ستتعرض لانتقامها وستفعل بك هذه الآلهة كذا وكذا ، وسيحل بك غضبها وسخطها فتمرض ولا تشفى ، أو تجوع ولا تجد طعامًا أو تسلبك الحياة .

هذه هى الحجة التى يقولها من لا حجةَ له ، وما دام قد جاءت كلمة الخوف ونفاها إبراهيم عليه السلام عن نفسه فكأنه حدث تهديد وقالوا له : إن آلهتنا لن تتركك . حتى يخوفوه ليترك عبادة الله ، إنهم ينذرونه بأشد العواقب . وهنا يرد إبراهيم عليهم بالحجة : ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ . أى أن هذه الكواكب والأصنام والشمس والقمر لا تنفع ولا تضر ولا تخيف أحدًا ؛ ذلك أن إبراهيم يقول للكفار : إنه قد يحدث الضر لى ، ولكن الضر هنا لا يأتى من آلهتكم التى تحاولون إخافتى منها ؛ لأن النافع والضار هو اللَّه تعالى ، فإن أصابنى الضر فهذه مشيئة اللَّه تعالى وليست مشيئة أحد غيره .

ثم يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ كلمة ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة ، ولكن إقبال النفس على الشهوات هو الذى يحاول أن يغطى هذه الفطرة فليس مطلوبًا من الإنسان أن ينشئ فكرة عقائدية ، ولكن المطلوب منه فى قضايا الإيمان أن يتذكر فقط .

ثم يمضى إبراهيم عليه السلام فى حجته : ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام : ٨١] وهنا يعطى اللَّه تعالى إبراهيم عليه السلام الحجة على الكفار فيقول له : أنتم عبدتم ما لا يضر ولا ينفع ، وأنا آمنت بمن يضر وينفع . فمن منا الذى يجب عليه أن يخاف ؟ الذى أشرك بالضار والنافع أم الذى آمن به ؟

إذن .. يريد اللَّه سبحانه وتعالى أن يجذبهم إلى الإيمان دون أن يهيج فيهم الذاتية التى قد تجعلهم يمتنعون مع اقتناعهم .

قصة الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٨] وساعة تسمع ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ فيجب أن تعلم أنها مكونة من ثلاثة هى : الهمزة « أ » وحرف النفى هو « لم » وفعل منفى هو « تَرَ » . والهمزة تأتى هنا لشىء اسمه الإنكار ،

والإنكار نفى بتقريع ، كأن تقول للابن على سبيل المثال : أتضرب أباك ؟ ! . إن الهمزة هنا جاءت لا لتستفهم وإنما لتنكر الفعل المثبت بعدها . وما دام الإنكار نفيًا وقد دخلت الهمزة على فعل منفى فهى « نفى النفى » ونفى النفى إثبات .

إذن .. فقول الحق : ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ يكون المقصود به- أنت رأيت . وقد يسأل سائل : ولماذا لم يقل الحق « أرأيت » ؟ والرد على مثل هذا السؤال هو : إن الحق سبحانه وتعالى أورد هذا المعنى بأسلوب نفى النفى من أجل أن يكون أثر المعنى أوقع فى نفس السامع ؛ لأن مجىء الإثبات فقط قد يعطى أثر التلقين .

وعندما يقول الحق : ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ . فالمخاطب الأول بالقرآن الكريم هو الرسول ﷺ ، فهل رأى الرسول الكريم حادث الرجل الذى حاج إبراهيم فى ربه ؟ طبعًا لا ، فكأن : ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ هنا تأتى بمعنى « ألم تعلم » . وقد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : « ألم تعلم » ؟ والرد على مثل هذا القول : إن اللَّه تعالى يخبرنا بخير ، وعلينا كمؤمنين أن نصدق الخبر كأننا رأيناه بعيوننا .. لماذا ؟ لأن العين وهى حاسة قد تخدع ، ولكن ربك لا يخدع أبدًا . إذن .. فمجىء ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾ هنا تكون بمعنى « ألم تعلم علم اليقين بأن هناك رجلًا قد حاجَّ إبراهيم فى ربه ؟» .

واستعمال حرف « إلى » هنا يشير إلى أمر عجيب قد حدث .

وعندما ننظر إلى كلمة : ﴿حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ . فإننا نجد أن كلمة : ﴿حَآجَّ﴾ أصلها « حاجج » مثلما نقول : « قاتل » و« شارك » . وفى اللغة العربية عندما يكون فى الكلمة حرفان متماثلان نقوم بتسكين الأول ونضغم الثانى فيه .

ومثل ذلك : « حاجج » فننطقها « حاج » وهى من مادة « فاعل » وتأتى للمشاركة .

وما معنى المشاركة فى اللغة ؟ إنها مثلما نقول : « قاتل زيد عمرًا » والمعنى هنا يتسع لأن يكون عمرو قد قاتل زيدًا .. لماذا ؟ لأن كليهما قد تقاتلا ، وكليهما من حيث المعنى فاعل ومفعول به فى نفس الوقت ، لكننا نغلب الفاعل فى جانبٍ ونغلب المفعول فى جانب آخر ؛ وعادة ما نغلب الفاعلية فيمن بدأ بالفعل ونغلب المفعولية فى الثانى .

وفى قول الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ نحن نلاحظ أن

كلمة : ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ في الآية الكريمة منصوبة بالفتح ، أى يغلب عليها المفعولية فمَن إذن الذى حاجَّ إبراهيم ؟ إنه شخص ما ، وهو الفاعل ؛ لأنه الذى بدأ بالمحاجَّة ، هكذا تدلنا الآية الكريمة وتصف الآية ذلك الرجل : ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أى أن الرجل قد وهبه اللَّه الملك وحاج هذا الرجل إبراهيم فى ربه ، فكان جواب إبراهيم على هذه المحاجة ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ومن هذا الجواب نفهم أن الرجل قد حاج إبراهيم بأن سأله : من ربك ؟ ومن إعجاز القرآن الكريم أنه يترك للسامع فى أن يرد كل شىء إلى أصله ؛ لذلك لم يورد الحق سؤال الرجل الذى حاج إبراهيم إنما أورد جواب إبراهيم : ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ .

فكيف أعان اللَّه تعالى إبراهيم هذا الرجل ؟ إن الرجل الذى آتاه اللَّه الملك يدخل مع إبراهيم عليه السلام فى محاجة بهدف السفسطة أى إطالة الجدل ، فألهم اللَّه تعالى إبراهيم أن يقول هذا القول الحكيم : ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ، لماذا جاء إبراهيم عليه السلام بهذه الحجة ؟ لأن أحدًا لم يجرؤ أن يدعى القدرة على الإحياء والإماتة ، إلا أن الخصم الذى حاج إبراهيم يريد ألا ينهى الجدل فقال الرجل ناقلاً المحاجَّة إلى لون من السفسطة : أنا أحيى وأميت . فسأله إبراهيم عليه السلام : كيف تحيى وتميت ؟ ! ، فقال الرجل : إن عندى من المسجونين عددًا وأستطيع أن أقتل منهم من أشاء ، وأن أمتنع عن قتل من أشاء ، فمن لم أقتله كأنى أحييته ، ومن قتلته فأنا أمته . لم يقل له إبراهيم عليه السلام : لنتفق أولا ما الحياة ؟ وما الموت ؟ ذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يرد أن يطيل هذا المجادلة ، إنما أراد أن يأتى بالحجة التى تسقط للرجل كل ما يحاجج به .. فجادله بما يُلْجمه ، لقد كان من الممكن أن يدخل إبراهيم مع الرجل فى جدل ، فيقول إبراهيم عليه السلام للرجل : ما الحياة ؟ ولم يكن قادرًا على أن يجيب بأن الحياة بالنسبة للإنسان هى إعطاء المادة ما يجعلها متحركة حساسة مريدة مختارة ، إذا سأل إبراهيم الرجل : ما الموت ؟ فما كان الرجل قادر على التفرقة بين الموت وبين القتل ، فالرجل قد ظن أن الموت إخراج الروح من الجسد بجرح أو بنقض بنية بأن يهشم لإنسان ما رأسه ، إن هذا هو القتل وليس هو الموت ؛ لأن الموت هو إخراج الروح من البدن بدون جرح أو نقض بنية أو أى عمل فى بدن الإنسان ، ولا يقدر على ذلك إلا واهب الحياة الحق بأن يقول بقدرته للإنسان : مت فيموت .

انتقل خليل الرحمن بالحوار إلى أمر مشهود فماذا قال ؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

حينئذ واجه الذى حاج إبراهيم فى ربه أمرًا لا قبل له به ، لقد بهت الذى كفر ولم يجرؤ على الرد على مقولة إبراهيم عليه السلام ، بأن اللّه تعالى يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . إنه يكون غاية في الذكاء ؛ لأنه إذا كان قد علم أن اللّه يسند إبراهيم عليه السلام ، لذلك لم يقل : ما دام اللّه يأتى بالشمس من المشرق فاجعله يأتى بها من المغرب ، إنه فى هذه الحالة يعلم قدرة اللّه وإن كان قد أنكرها وأعلن الكفر بها ، وقد يكون هذا الذى حاج إبراهيم غبيًّا ، لذلك لم يرد على إبراهيم ويقول : ما دام اللّه يأتى بالشمس من المشرق فاجعله يأتى بها من المغرب ، وهو فى هذه الحالة قد فقد القدرة على مراجعة إبراهيم .. لقد بهت لأنه كفر.

والبهت يأخذ ثلاث صور :

الدهشة **أولًا** ، ثم الحيرة **ثانيًا** ، ثم الهزيمة **ثالثًا** . لقد انتقل الذى كفر من القدرة على المواجهة إلى مفاجأة الدهشة ، هذه هى الصورة الأولى ، ومن المفاجأة والدهشة انتقل إلى التحير ؛ لأنه يبحث عن مخرج لنفسه فلم يجد مخرجًا من ورطته ، وهكذا تلقى النتيجة وهى الهزيمة ، ويلخص لنا الحق كل ذلك فى جملة واحدة : ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحدوث البهت لمن كفر أمر ليس بعجيب ؛ لأنه بلا ولاية من الله ، إنما أولياؤه هم الطاغوت .

ابتلاء إبراهيم فى ولده

إبراهيم عليه السلام لم يبتل بالنار وحدها ؛ بل ابتلي فى آخر أيامه بأن أمره اللّه تعالى بذبح ولده الوحيد ، والإنسان فى أول حياته تكون ذاتيته ، هى المسيطرة على نفسه ولكنه فى أواخر حياته تكون ذاتية أولاده فوق ذاتيته . فقد اقتربت حياته من النهاية ولذلك فهو يريد أن يعطى أولاده كل شيء ، ويريد أن يحقق لهم مالم يحققه لنفسه ، وهكذا عندما كبر إبراهيم وصار شيخًا جاءه الابتلاء الثانى بأن يذبح ولده .

وإبراهيم عليه السلام يعلم يقينًا أن الحق سبحانه لا يطلب من خلقه إلا الاستسلام لقضائه ؛ ولذلك إذا رأيت إنسانًا طال عليه القضاء فى أى شيء ؛ فى مرض ، في مصيبة ، فى مال ، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لانتهى القضاء .

ولكن حب إبراهيم لابنه جعله لا يريد أن يجعل إسماعيل يمر بفترة سخط فلا يفوز برضا

الله ، ولذلك لم يأخذه رغمًا عنه ويذبحه ؛ لأن في هذه الحالة قد يكون إسماعيل غير راض ، فيُحرم من الجزاء على هذا الابتلاء ، فيقول إبراهيم عليه السلام لولده : ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات : ١٠٢] . فكان رد إسماعيل على أبيه عليهما السلام : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات : ١٠٢] ولم يقل : يا أبت افعل ما تريد ؛ حتى يأخذ الابن ثواب عبودية الطاعة ، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات : ١٠٣] ناداه الله تعالى : ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات : ١٠٤- ١٠٧] . إذن .. فعندما صدق إبراهيم الرؤيا نزل الذبح العظيم من السماء ليفتدى به إسماعيل ؛ بل وأكثر من ذلك نزلت معه البشارة بأن إبراهيم سيرزق بولد آخر مصداقًا لقول الحق : ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات : ١١٢] . هكذا لم تكن البشرى فقط من الله بإنجاء إسماعيل من الذبح ؛ بل كانت أيضًا بأن إبراهيم سيرزق بولد ثان ، وهذا الولد سيكون نبيًا من الصالحين .

البشرى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود : ٦٩] . وقال أيضًا : ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ [هود : ٧٠] هذا معنى الوجدان ، قوله تعالى : ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ ، ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ . أي ما مرت فترة فبمجرد أن دخلوا وسلموا أحضر العجل ، والعجل هو ولد البقرة ، أي أحضر عجلًا صغير السن ، و﴿حَنِيذٖ﴾ معناها مشوى على الحجارة . فالشواء : يشوى مرة على اللَّهب ومرة يشوى على الفحم ، ومرة يشوى على الحجر ، بأن يُعرض الحجر للَّهب شديد حتى يحمر ثم يشوى عليه العجل . هم يسمونه في البلاد العربية بالسلاج ، يأتون بحجر رقيق مثل الصاج ، يضعونه على نار حتى يُحمى ، ويُصبح لونه أحمر من شدة الحرارة ، ثم يلقون عليه اللحم ، ذلك أن الحجر لا يتفاعل مع اللحم ، ولكن الحديد واللَّهب والفحم تخرج منه تفاعلات ، ولذلك فإن الشواء على الحجر هو أنظف أنواع الشواء ، و﴿حَنِيذٖ﴾ قد تعنى كثرة الدهن يسيح فوق اللحم .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ . تدلنا على أن الخليل

إبراهيم ، أنه كان يحب الضيوف ، واليوم الذى كان لا يأتيه فيه ضيف يحزن ، وساعة رأى وجوهًا جديدة قدمت عجَّل بالطعام ، وهذا أيضًا يمثل الكرم ؛ لأنه عندما يأتيك ضيف لم تعرف كم ساعة مضت عليه وهو لم يأكل ، فتأتى له بالطعام بعد أن يدخل عندك ، فإن كان جائعًا أكل ، وإن كان شبعانًا لم يأكل .

وعندما قدَّم إبراهيم لضيوفه العجل المشوى ، لم يمدوا أيديهم للأكل . ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ وما داموا لم يمدوا أيديهم إما أنهم غير جائعين ، وإما أنهم جاءوا يقصدون شرًّا ، فيرفضون ما يقدم إليهم .

ولذلك يقول الحق : ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود : ٧٠] ولكن هؤلاء كانوا من الملائكة ، لم يمدوا أيديهم للأكل من العجل ، والضيف إذا جاءك وقدمت له طعامك فأكل فقد استأمنك على طعامه ، أما إذا قدَّمت له الطعام ولم يأكل فإنه لا يستأمنك على طعامه أو جاء يقصد شرًّا .

فعندما لاحظ إبراهيم عليه السلام أنهم لا يأكلون خاف منهم ، ولكن هذا الخوف ظل حبيسًا فى نفسه ولم يقم بأى فعل يظهر خوفه ، ولكن الملائكة أحسوا بخوف إبراهيم ، فأرادوا أن يطمئنوه بأنهم لم يأكلوا ، ليس لأنهم جاءوا يقصدون الشر ، ولكن لأنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ، جاءوا لينفذوا مهمة كلَّفهم الله تعالى بها . فقالوا : ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ . ولكنهم لم يقولوا : إنا رسل ربك ، مثلما قالوا للوط عليه السلام ، وعندما قالوا لإبراهيم : ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ فهم أنهم ملائكة ، مع أنهم كانوا فى هيئة رجال .

والملائكة يتشكلون بشكل الرجال ، فجبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ على هيئة رجل . والجن أيضًا لهم قدرة على التشكل ، ولكن الجن إذا تشكل تحكمه الصورة التى تشكل بها ، ولكن الملك لا تحكمه الصورة .

وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود : ٧٠] مادة النون والكاف والراء معناها أنه لم يعرفهم ، وهناك نكر وأنكر ، وتأتى بالاشتقاق .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وفى آية أخرى : ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ . الآية الأولى كشفت الانفعال النفسى ، والآية الثانية أحضرت المعنى النزوعى ،

فلما قالوا : ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ . عرف إبراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة . وأنهم أرسلوا ليعذبوا قوم لوط خصوصًا أن امرأة إبراهيم كانت قد قالت له : ألا تضم ابن أخيك لوطًا إلى كنفك ؛ لأن قومه يوشك أن يعمهم الله بالعذاب . ولذلك عندما سمعتها الملائكة سرت من فراستها فضحكت ، وذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود : ٧١] هذه البشارة بينت لإبراهيم أنهم لم يأتوا لعذاب عنده ، ولكنهم جاءوا لعذاب قوم يكرهونهم وهم قوم لوط ، ولقد بشرت الملائكة امرأة إبراهيم بشيء كانت تتمناه وإن كان وقته قد فات ؛ لأنها كانت قد تقدَّمت فى العمر ، ولكنهم بشروها بأنها بعد هذا العمر الطويل ستلد ابنًا ، وأنها ستكون جدة وسيكون لها حفيد هو يعقوب ، فاستقبلت البشارة بالدهشة ، قالت كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود : ٧٢] ساعة تقول : يا ويلتى فإنك تفهم أن الفاجعة صعبة عليها ، كيف سيحدث لها أن تحمل وهى عجوز وزوجها شيخ كبير ؟ !

قولها : ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ أى إن مهمتى انتهت فى الحمل . ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ يعنى زوجى شيخًا . ودقة التعبير أن البعل هو الذى يقوم بأمر المبعول .

وكذلك الزوج يقوم بأمر الزوجة ولا يعوزها لأحد . والبعل : هو النخل الذى لا يحتاج إلى زارع ليسقيه ، وإنما يكتفى بما يمتصه من الأرض وما ينزل من مطر السماء .

قولها : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ الشيء العجيب : هو الذى يقع على غير انتظار ، ويخالف سنة من سنن الكون .

هجرة إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة

لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل عليهم السلام وخرج بهما ليضعهما فى هذا المكان ، فماذا قالت هاجر لزوجها : قالت : هل أنزلك الله هذا المنزل أم أنه من اختيارك ؟ إنها تعرف أن مكونات الحياة هى الماء والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم : كيف تتركنا هنا ؟ وهل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله تعالى . حينئذٍ اطمأنت وقالت : والله لا يضيعنا أبدًا . إنه

الإيمان العالى ؛ لذلك لم تقلق هاجر ، لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره اللّٰه تعالى به .

هكذا نرى الإيمان فى قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك الزوج يذهب بعيدًا عنها ويتركها هى وابنها الرضيع فى هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء ، إنها لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن بربِّ إبراهيم .

البيت الحرام

قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

من هذه الآية الكريمة نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت اللّٰه الحرام ، وعندما نقرأ عن رفع قواعد البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده ، بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام فيها ، قال تعالى : ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودًا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر فى معنى كلمة : « بكة » التى وردت فى قول اللّٰه سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦] ونحن نعرف أن هناك اسمًا لمكان البيت الحرام هو « بكة » وهناك اسمًا آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و« الباء » يتعاونان ، ونلحظ ذلك فى الإنسان الأخنف أو المصاب بزكام أنه ينطق « الميم » كأنها « باء » و « الميم » و« الباء » حرفان قريبان من طريق النطق والألفاظ منها تأتى مع بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » ، إننا نقرأ « بك المكان » أى : ازدحم المكان ، وهكذا نعرف أن قول الحق : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾ . أى : أنه المكان الذى ازدحم ، وهو مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود ؛ لتحج بيت اللّٰه الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلطون بعضهم بالبعض أثناء الطواف . و« بكة » هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة . و « مكة » هى اسم مكان البيت الحرام ، و« مكة » مأخوذة من « مك الفصيل الضرع » أى امتص كل ما فيه من

لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الأبل أو صغير البقر ، وما دام الفصيل قد امتص كل ما فى الضَّرع من لبن ، فمعنى هذا أنه جائع ، وكما نعرف أن مكة ليس فيها مياه والناس تكاد تمتص المياه القليلة عندما تجدها .

وقوله : ﴿مُبَارَكًا﴾ مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات . و« الثبات » هل هو الثبات الجامد أو الثبات المعطى النامى الذى مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضًا ؟ ، ونحن فى حياتنا العادية نقول : إن هذا المال فيه بركة مهما أنفقت منه فإنه لا ينتهى . أى أنه ثابت لا يضيع ويعطى ولا ينفد . وكلمة « بِرْكَة » فى حياتنا تعنى أنها تجمعٌ من الماء نأخذ منه بعض الماء ولكن الماء يأتى إليها مرة أخرى وكلمة « تبارك الله » تعنى « ثبت الحق » ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحد إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات فى معنى البيت الحرام ، إن البيت الحرام مبارك ، وإذا سأل أحد كيف ؟ نرد على هذا القائل : أليست تضاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تجبى إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع . فقد كان قاصد البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت اللّٰه الحرام يذهب ليأتى بكماليات الحياة من هناك .

وقوله : ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ؛ ومن يزر البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للجنة أم لا ؟ إنه يعرف بحج البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى لما تكلم عن البيت ، لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه مع أن فيه آيات كثيرة قال الحق : ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٧] . إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة فى قول الحق : ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ وبينات هى وصف الجمع ، وبعد ذلك قال الحق : ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إن الحق لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات والمقام آية واحدة ، وهكذا نجد أن ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تدل على الآيات البينات ، وقد يقول قائل : أليس فى المقدور أن نضيف الأمان الممنوح لمن دخل البيت مع مقام إبراهيم ؛ لتكون هذه هى الآيات الموجودة فى البيت الحرام ؟ لكن الآيات فى البيت الحرام أكثر من هذا بكثير ؛ بل إننا عندما نرى مقام إبراهيم نجد فيه الآيات البينات ، ونحن نقرأ : ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بفتح الميم الأولى فى كلمة « مقام » ولا

ننطقها « مقام » بضم الميم الأولى ؛ لأن « المُقام » بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم ، أما « مَقام » بفتح الميم فهى مكان القيام .

لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟ لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » وعندما تنظر إلى ﴿ مَقَامِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ فإنك تجد فيه كل الآيات الدينية لماذا ؟ لأن اللَّه تعالى طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب اللَّه تعالى ، لكن إبراهيم عليه السلام تعود أن يؤدى كل تكليفات اللَّه تعالى بحب وإكمال وتمام ؛ لذلك تساءل إبراهيم عليه السلام ، ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى ؟ ولم تكن هناك فى ذلك الزمن القديم فكرة « السقالات » ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا إسماعيل ، وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرًا ووقف عليه ، وعندما يأتى إبراهيم بحجر يضعه تحت قدميه ليقف عليه ، فإنه يرفع القواعد قدر الحجر .

إذن .. فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر اللَّه بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط ، ولكن بقدر الاستطاعة والاحتيال ، وهذا يوضح لنا معنى قوله تعالى : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] أى أنه أدى مطلوب اللَّه أداءً كاملًا ، ولا أدل على الأداء من أنه أتى بحجر منها ليقف عليه وليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر ، نحن نعرف أن إسماعيل قد شارك فى رفع القواعد للبيت الحرام ، وعندما ننظر إلى الحجر نجده لا يسع إلا وقوف إنسان واحد عليه .

وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار .

أما مكان الأقدام الموجودة فى هذا الحجر فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرًا من المفروض أن يحمله اثنان كان لابد من ثبات القدمين فى مكان آمن ، وكان إسماعيل يساعد فقط فى نقل الأحجار وكان إبراهيم هو الذى يحمل الحجر ، وعندما يحمل إبراهيم وزنًا لا يحمله إلا اثنان ويقف ليرفعه فلعله خاف أن يقع من على الحجر ، فهل يا ترى أن اللَّه سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة أن رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله– سأكفيك

مئونه ذلك ، وجعل قدميه تغوصان فى الحجر غوصًا يسندها إن هى زلت ، والذى لا يتسع ذهنه إلى أن اللّه تعالى ألان لإبراهيم الحجر ، نقول له : إن إبراهيم قد احتال وخاف أن ينزلق أو تزل قدمه من على الحجر فنحت مكانًا فى الحجر على قدر قدمه ، حتى يستطيع أن يحمل ويرفع الحجر الذى يحمله اثنان ، وهذه آيات بينات .

إبطال دعوى اليهود والنصارى فى إبراهيم

يقول الحق عز وجل : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران : ٦٥] .

إذن .. فإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديًا كما يدعى اليهود ؛ لأن اليهودية جاءت من بعد إبراهيم ؛ وكذلك النصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيًا ؛ لأن النصرانية جاءت من بعد إبراهيم فلمَ المحاجّة إذن ؟

لقد أُنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم ، فكيف يكون تابعًا للتوراة أو الإنجيل ؟ !

ويقول الحق بعد ذلك : ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران : ٦٧] . لم يكن إبراهيم يهوديًا ؛ لأن اليهودية جاءت من بعده ، ولم يكن إبراهيم نصرانيًا ، لأن المسيحية جاءت من بعده ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ . أى أنه مائل عن طريق الاعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل اللّه تعالى : إن إبراهيم كان على طريق الاستقامة بشكل مباشر ؟ **تكون الإجابة :** حتى لا يضل أحد ويظن أن هذا اللون من الاستقامة مشابه لما كان موجودًا فى عصره . إنه مسلم ، وكلمة مسلم تقتضى مُسَلِّمًا إليه وهو اللّه تعالى ، إنه أسلم زمامه إلى الله ، ومسلَّمًا : هو نحن ، ومسلمًا فيه : وهو الإيمان بالمنهج ، ولذلك نسمى شريعتنا المسلمة : الحنيفية السمحة ، أى التى مالت عن زيغ . كما يقول الحق تعالى : ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج : ٣١] وذلك يعنى أن نكون مائلين عن كل زيف أو زيغ .

إذن .. كان إبراهيم عليه السلام ﴿حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ أى أنه كمسلم ألقى زمامه إلى مسلَّم إليه ، فى كل ما ورد فى « افعل » و« لا تفعل » .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وكلمة «اتبعوا» توضح أن هناك مقدمًا كما أن هناك تابعًا، «والملة» تشمل المعتقدات والتشريعات العامة، ونحن نعرف أن الشريعة تشمل الأحكام، والدين يوضح العقائد، والصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلًا، وإذا ما قال الحق سبحانه فلابد أن يوافق ذلك ما هو واقع، فليس من المعقول أن يتكلم اللَّه تعالى كلامًا يأتى على لسان رسول، وبعد ذلك يأتى واقع الحياة مخالفًا لهذا الكلام.

إن الحق العليم أزلًا ينزل من الكلام ما هو فى صالح بقاء الدعوة؛ لذلك فحين يطلق اللَّه قضية من قضايا الإيمان، فإنه لابد أن نعلم أنها سوف تحدث على وفق ما قال، حتى إذا كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على أن يصدق الإنسان أنها تحدث.

إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ومرهقين وإذا لم يكن لأحدٍ منهم عشيرة تحميه فهو يهاجر عن البلاد، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يعذب ويضطهد، وفى هذه الأثناء وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وعندما يسمع عمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه هذا القول يتساءل: أى جمع هذا؟ إن الواقع لا يشجع على التصديق، وبعد ذلك جاءت بدر، وهزم المؤمنون الجَمْعُ.

إبراهيم عليه السلام .. وإحياء الموتى

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. إبراهيم عليه السلام مؤمن بقدرة اللَّه تعالى، لكنه يريد أن يعرف الكيفية، إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًا؛ لأن رسول اللَّه ﷺ قال: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ونحن المسلمين لم نشك فى هذا الأمر.

إذن .. فإبراهيم عليه السلام لم يشك من باب أولى أن الرسول الكريم قال ما معناه: إن كان هناك شك فنحن أولى بالشك من إبراهيم، وإبراهيم عليه السلام لم يشك بدليل منطق الآية السابقة.

إن إبراهيم عليه السلام يسأل ربه : ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ؟ أى أنه يطلب الحال التى تقع عليها عملية الإحياء ، إن إبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى القدرة على الإحياء ، ولنضرب هذا المثل فى حياتنا ، ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد . والمثل لتقريب المسألة من العقول ؛ لأن الله منزه عن أى تشبيه . إن أحدنا يقول للمهندس المعارى : كيف بنيت هذا البيت ؟ إن صاحب السؤال يشير إلى حدث وإلى محدَث هو البيت وقد تم بناؤه . إن صاحب السؤال يريد أن يعرف الكيفية . ولنا أن نسأل : وهل معرفة الكيفية تدخل فى عقيدة الإيمان ؟ إن الإجابة هى : أن معرفة الكيفية لا تدخل فى عقيدة الإيمان ، إنها ترف زائد عن عقيدة الإيمان ، إن عقيدة الإيمان هى أن يعلم المؤمن أن الله يحيى الموتى ، أما كيف يحيى الموتى ؟ فلا مدخل لها فى قضية الإيمان .

ولذلك نجد أن بعض السطحيين قالوا- والعياذ بالله- عن إبراهيم قال : أرنى كيف تحيى الموتى ، فقال الله له : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ قال إبراهيم : ﴿بَلَىٰ﴾ إن كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ حين نسمعها هى جواب بما بعد النفى . إنها جاءت هنا بمعنى محدد هو : بلى أنا مؤمن بقدرتك - سبحانك - على الإحياء والإماتة . وهذا هو القدر الكافى فى العقيدة الإيمانية .

هذا البعض من الناس قال : إذا كان إبراهيم مؤمنًا ، والإيمان كما نعرف هو اطمئنان القلب إلى قضية ما ، بحيث لا تطفو لتناقش من جديد ، ولذلك نسمى هذا الأمر عقيدة ، أى أمر معقود ، فكيف يقول إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ؟ أليس هذا القول دليلاً على أن قلبه لم يكن مطمئنًا ؟ ومعنى عدم اطمئنان القلب هو خلو القلب من الإيمان ، لكن الرد على مثل هذا القول : هو سؤال محدد : إلى أى شيء أراد إبراهيم أن يطمئن قلبه ؟ إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يطمئن إلى الكيفية ، ويطمئن إلى أنه أدار بفكره الكيفيات التى يكون عليه الإحياء ، إنه لم يعرف على أى صورة يكون الإحياء ، إن الاطمئنان هنا قادم لمراد فى كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتخيلة .

هنا قال الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام : ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦٠] إن الحق يعلم أن إبراهيم عليه السلام مؤمن تمام الإيمان ولكنه يسأل عن الكيفية ، والكيفية لا يمكن أن يتم شرحها بكلام إنما يتم شرحها بعملية واقعية . إن الحق يأمر إبراهيم عليه السلام أن يأخذ أربعة من

الطير الحى ويضمهن إلى صدره ليتأكد من ذوات الطير ، حتى لا يقول إن الحق - سبحانه - ربما أحضر إليه طيرًا آخر .

وقال المفسرون : إن الأربعة من الطير لم تكن من نوع واحد ؛ بل مختلفة ففيها غراب وطاووس وديك وحمامة ، وكل نوع له شكلية مخصوصة .

وأمر الحق سبحانه إبراهيم أن يجعل على كل جبل من هذه الطيور جزءًا ، بعد أن يذبحهن ويقطعهن ، ثم يوجه إلى هذه الطيور الدعوة ، فتأتى الطير إلى إبراهيم عليه السلام سعيًا ، هذه العملية .. هل قام بها إبراهيم أم لم يقم بها ؟ هل اكتفى إبراهيم بما شرحه الله تعالى له بالكيفية ؟ إن القرآن الكريم لم يتعرض لهذه المسألة ، فإما أن يكون الله قد قال لإبراهيم عليه السلام الكيفية فقال إبراهيم عليه السلام : بدلًا من أن أقوم بهذه العلمية فأنا مصدق لقولك يا ربى سبحانك وتعاليت ، وإما أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قام بهذه العلمية . إن الأمر فى الحالتين جائز ؛ لأن القرآن الكريم لم يتعرض لذلك .

وعندما يقول الحق : ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ وقد يقول قائل : ألم يكن من المقرر أن يقول الحق « يأتينكَ طيرانًا » ؛ لأن الحديث يدور حول الطير ، والطيران من خصائصه وليس السعى . إن الحق أراد بذلك أن يوضح الأمر بصورة محددة ؛ لأن الطير جاء طيرانًا ، فهو يطير فى الجو ، وقد يقول إبراهيم ، إن الطير قد اختلط على بعضه وجاء إليه ، إنما المجىء للطير بالسعى هو إيضاح كامل .

وذلك ليكون إبراهيم عليه السلام متأكدًا بالكيفية ، فجاءت الطير من أنواع مختلفة ، وهو الذى قام بذبحها وتقطيعها ، وهو الذى وضع على كل جبل جزءًا ، وهو الذى دعا الطير .

إذن .. إبراهيم عليه السلام مؤمن إيمان الاستدلال ، والمطلوب له الكيفية ؛ لأنه يجهل الحالة التى تكون عليها كيفية الإحياء .

واتخذ الله إبراهيم خليلًا

قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء : ١٢٥] ما هى حيثيات الخلة ؟ أن يتبع أفضل دين ، وأن يسلم وجهه لله ، وأن يكون محسنًا ، ويتبع الملة ، وأن يكون حنيفًا .. هذه هى حيثيات الخلة . وكان إبراهيم عليه السلام فيه كل هذه الصفات ، فإبراهيم عليه السلام

قد أسلم وجهه لله بدليل أن قومه عندما ألقوه فى النار وجاءه جبريل عليه السلام وقال له : ألك حاجة . أى ألك حاجة تطلبها ؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا . أى أنه لا يطلب من جبريل بذاته شيئًا وفى ذلك قمة الإسلام لله .

ونحن نعرف مدى أُنس الناس بأبنائهم ، ونحن نعلم أن إبراهيم قد جاءه ولد فى آخر حياته ، وقد ابتلاه الله فيه ، وكان الابتلاء غاية فى الصعوبة بأن يذبح إبراهيم ابنه ، إن الابن لا يموت ولا يقتله أحد ، ولكن يقوم الأب بذبحه ، ولنتأمل كم درجة من الابتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام ؟ إن إسماعيل هو الابن الوحيد الذى جاء إلى أبيه على كبر . ويكون الابتلاء بالقتل على نوع مخصوص .. أن يقتله الأب . وسارع إبراهيم لتنفيذ أمر الله ، ولذلك نقرأ عن إبراهيم عليه السلام : ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات : ١٠٢] ويجعل الحق ذلك رؤيا فى المنام لا بالوحى المباشر ، ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام ، إنه لم يقل : افعل ما بدا لك يا أبى ، ولكنه قال : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات : ١٠٢، ١٠٣] أى أن إسماعيل وإبراهيم استسلما معًا لأمر الله . فماذا كانت النتيجة ؟ قال الله تعالى : ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ * وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ * وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات : ١٠٤- ١١٢] . كان الفداء لإسماعيل ، والبشارة بإسحاق ، جزاء الصبر على الابتلاء .

وقول الحق : ﴿خَلِيلٗا﴾ [النساء : ١٢٥] كلمة : « خليل » مأخوذة من « الخاء واللام » و« الخلُّ » : هو الطريق فى الرمل ، وهو ما نسميه فى عرفنا « مِدَقٌّ » ، والمدق عادة يكون ضيقًا ، وحينما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان الود بينهما عاليًا ، وإذا لم يكن بينهما ود ، فأحدهما يمشى فى الأمام والآخر يمشى فى الخلف .

ولذلك سموا الاثنين اللذين يسيران متكاتفين « خليل » . كفلاهما متخلل فى الآخر أى متداخل فيه ، والخليل هو من يسد خلله آخر ويسد هو خلل صاحبه . والخليل هو الاتحاد فى الخلال والصفات والأخلاق . والخليل هو من يتخلل إليه الإنسان فى مساتره ، ويتخلل هو أيضًا فى مساتر الإنسان .

وكلمة خليل هنا معناها أن اللّٰه سبحانه وتعالى اصطفاه اصطفاءً خاصًا ، فالحب قد يشارك فيه ، فهو قد يحب واحدًا وآخر وثالث ورابع . والحق سبحانه يحب كل المؤمنين . فالحق قد قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة : ٧٦] . والحق يقول : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ٧٦] وهو سبحانه يُعلمنا : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٦] وهو يُعلمنا : ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٨] والحق أيضًا يقول : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة : ٤٢] ولكن الحق اصطفى إبراهيم خليلًا ، أى لا مشاركة لأحد فى مكانته . فالحب يعم ، ولكن الخلة لا مشاركة فيها . ولذلك فنحن نرى رسول اللّٰه ﷺ يخرج على قومه قائلًا : « ألا إن ربى اتخذنى خليلًا » .

* * *

قصة نبيِّ الله إسماعيل عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم : ٥٤، ٥٥] يقول الله سبحانه إن إسماعيل عليه السلام كان صادق الوعد ، ومع أن كل الأنبياء كانوا صادقين فى وعودهم ، ولكن هنا صفة تبرز فى شخصه عليه السلام وإن كانت موجودة فى غيره ؛ لأنك من الممكن أن تصدق مع إنسان فى موعد أو لقاء أو قضاء مصلحة ، ولكن إسماعيل صدق الوعد فى حياته التى هى أغلى شيء عند الإنسان ، فحينما أخبره أبوه أنه رأى فى المنام أنه يذبحه ، لم يتردد لحظة وقال لأبيه : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ . فهذا صدق وعد فى القمة ؛ لأن الإنسان يصدق الوعد فيما يملكه ، لكن أن يصدق الوعد فى أمر يتعلق بحياته وهو أمر رآه غيره ولم يره هو ، ورآه فى رؤيا ، والرؤيا لا يثبت بها الحكم إلا عند الأنبياء ، فشجع أباه على تنفيذ ما رأى ، ووعده أنه سيكون من الصابرين وأسلم له رقبته ليذبحه .

فلما رأى الحق – سبحانه وتعالى – أن إبراهيم سلم أمره لله وكذلك إسماعيل ، رحمهما الله من هذا العذاب ، وعفا عن إسماعيل وفداه بكبش من أكياش الجنة ، فالله تعالى ابتلاهما بهذا البلاء العظيم فلما أظهرا الرضا بقضاء الله وقدره ، فدا الله الذبيح إسماعيل من الذبح ووهب لإبراهيم ولدًا آخر هو إسحاق ، وهذه لقطة قرآنية تعطينا فكرة : أن الإنسان إذا استسلم لقضاء الله وقدره ، يرفع الله عنه البلاء ، والذى يزيد من عذاب الابتلاء على الناس أنهم لا يرضون به . لكن الذى يرضى بالقدر إما أن يرفعه الله عنه ، أو يبين للمقدور عليه خير هذا القدر .

ومن هنا نعلم أن كل شيء ينزل علينا من قضاء الله لا رفع له إلا بالرضا فلا يُرفع قضاء عن خلق إلا إذا رضوا به . والرضا بقدر الله يكون فى كل شيء ؛ مثل الموت وأقضية الحياة التى لا تسر الإنسان ولا تسعده ، فلو أن أحدًا أقل منك كفاءة فى العمل ولكن أصبح رئيسًا عليك فلا تناصبه العداء وتحقد عليه ؛ لأنه لا أحد يأخذ شيئًا غصبًا من الله سبحانه ، فإذا لم تحترم هذا الإنسان لشخصه فاحترم قدر الله فيه . ولذلك الرسول ﷺ يقول : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولِّى

عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

ومن صفاته ﷺ كما جاء فى كتاب الله تعالى : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ . قد يكون هذا شيئًا عاديًا بالنسبة للأنبياء ، ولكن ربنا سبحانه حين يذكر خصلة فلابد أنها كبيرة عنده تعالى ، فمن أراد أن يأخذ خصلة من خصال النبوة فليأمر أهله بالصلاة ، واختص الأهل بهذا الأمر ؛ لأنهم البيئة المباشرة التى إن صلحت للرجل صلح له كل بيته ، وصلحت له كل ذريته ؛ لأنه إذا كان يأمر أهله بأن يمثلوا بين يدى ربهم - سبحانه وتعالى - خمس مرات فى اليوم والليلة فهذا لا يجعل للشيطان مجالًا للدخول بينهم ؛ ولذلك الرسول ﷺ يقول : « رحم الله امرأ استيقظ من ليل فصلى ركعتين ثم أيقظ أهله ، فإن أبت ينضحها بالماء لكى تقوم ، ورحم الله امرأة قامت من ليل فصلت ركعتين ثم أيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » .

ومن صفاته أيضًا : ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ هنا القرآن ذكر أن إسماعيل ﷺ كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، **فلماذا تقرن الصلاة دائمًا بالزكاة ؟**

قالوا : لأن الصلاة تأخذ بعض الوقت ، والزكاة تأخذ بعض المال ، والمال فرع العلم ، العمل يحتاج إلى وقت ، فكأن الزكاة محتاجة إلى وقت أيضًا ، فإذا كانت الزكاة تأخذ شيئًا من نتيجة الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه تجد أن الصلاة فيها زكاة أقوى من الزكاة ، فكما أن الزكاة نماء فكذلك الصلاة .

لأنك إذا أرسلت أى جهاز إلى صناعة لابد أنه سيعود إليك أفضل مما كان عليه ، فأنت صنعة الله ، فإذا وقفت بين يديه خمس مرات فى اليوم والليلة لابد أنك ستتزود بطاقة إيمانية تعينك فى حركة حياتك وتساعدك فى عملك وأدائك لواجبك ؛ لأن الصنعة التى يطلع عليها صانعها خمس مرات فى اليوم لا يمكن أن يوجد بها عطب أبدًا ، وإذا كان إسماعيل يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو يؤديها من باب أولى ؛ ولأجل هذه الصفات المذكورة فيه فهو مرضىٌّ عند الله ، وهو مرضىٌّ أيضًا لأن الله اختاره رسولًا .

* * *

نبى الله إسحاق عليه السلام

[قال الله تعالى : ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات : ١١٢، ١١٣] .

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ، ليدمروها عليهم لكفرهم وفجورهم ، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود : ٦٩- ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر : ٥١- ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات : ٢٤- ٣٠] .

يذكر الله تعالى : أن الملائكة قالوا :- وكانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل- لما وردوا على الخليل حسبهم أولًا أضيافًا ، فعاملهم معاملة الضيوف ، وشوى لهم عجلًا ثمينًا من خيار بقره ، فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية ؛ وذلك لأن الملائكة

ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فنكرهم إبراهيم : ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي : لندمر عليهم . فاستبشرت عند ذلك سارة غضبًا لله عليهم ، وكانت قائمة على رءوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فلما ضحكت استبشارًا بذلك ، قال الله تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي بشرتها الملائكة بذلك : ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [هود : ٧١] أي : في صرخة : ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي كما يفعل النساء عند التعجب ، وقالت : ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود : ٧٢] أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضًا ، وهذا بعلي أي زوجي ، شيخًا ؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ، ولهذا قالت : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود : ٧٢، ٧٣] .

وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارًا بهذه البشارة وتثبيتًا لها وفرحًا بها : ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر : ٥٤، ٥٥] أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه ، فبشروهما ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق أخو إسماعيل ، ﴿غلام عليم﴾ مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر ، وقال في الآية الأخرى : ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ . وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل ، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ ، وهو المشوي رغيفًا من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن ، وعندهم أنهم أكلوا ، وهذا غلط محض ، وقيل : كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء .

وعندهم أن الله تعالى قال لإبراهيم : أما سارة امرأتك فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة ، وأبارك عليها وأعطيك منها ابنًا ، وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه فخر إبراهيم على وجهه- يعني ساجدًا- وضحك قائلًا في نفسه ، أبعد مائة سنة يولد لي غلام ، أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة ؟ ! .

وقال إبراهيم للَّه تعالى : ليت إسماعيل يعيش قدامك ، فقال اللَّه لإبراهيم : بحق إن امرأتك سارة تلد غلامًا وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل ، وأوثقه ميثاقى إلى الدهر ولخلفه من بعده ، وقد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جدًّا كثيرًا ، ويولد له اثنا عشر عظيمًا ، وأجعله رئيسًا لشعب عظيم .

فقوله تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ، ثم من بعده بولد ولده يعقوب . أى يولد فى حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده ، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة ، ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله .

وقال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ﴾ [مريم : ٤٩] .

وهذا إن شاء اللَّه ظاهر قوى ، ويؤيده ما ثبت فى الصحيح من حديث سليمان ابن مهران الأعمش ، عن إبراهيم بن يزيد التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، قال : قلت : يا رسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » . قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » . قلت : ثم أى ؟ قال : « ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد » .

وعند أهل الكتاب ، أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد « إيليا » بيت المقدس شرفه الله .

وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام وهو- إسرائيل- بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء . وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق ؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا ، قال فى دعائه كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ

إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم : ٣٥ - ٤١] .

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثًا كما ذكرناه عند قوله : ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [ص : ٥٣]- وكما سنورده في قصته- فالمراد من ذلك والله أعلم ، أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد أن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في « تقاسيمه وأنواعه » ، وهذا القول لا يوافق عليه ، ولم سبق إليه][1] .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » لابن كثير : (٢٠٠- ٢٠٣) .

نبى الله لوط عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٠] . قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلُوطًا﴾ أى : أن اللَّه كما أرسل نوحًا إلى قومه ، وأرسل إلى عاد أخاهم هودًا ، وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، أرسل لوطًا إلى قومه ، ولذلك جاءت منصوبةً ، ولكن الحق بدأ الآية بقوله : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وربما يقول قائل : ما دام لوط قد قال ، فلابد أنه أُرسل لقومه قبل حدوث هذا القول ، إذ كيف يرسله اللَّه فى وقت أن قال ؟ نقول : إن « إِذْ » بمعنى الزمن ، وإن معنى الآية : ولوطًا أرسلناه إلى قومه إذ قال .. فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه بمجرد أن يقال للرسول : بلغ . فساعتها يقوم بالبلاغ ، فكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ لا فاصل بينهما .

وكلمة « قومه » تعنى أنه عاش معهم فترة ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف : ٧٣] ، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف : ٦٥] ولم يقل هنا وإلى قوم لوط أخاهم لوطًا ، ولكنه قال : ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ، فكيف ذلك ؟ لابد أن نتنبه إلى أن لوطًا لم يكن من هذا المكان ، فلوط كان هو وإبراهيم فى مدينة بعيدة ، ثم جاء إلى هذا المكان فرارًا من الاضطهاد هو وإبراهيم ، وفى هذه الحالة يكون طارئًا عليهم ؛ ولذلك لم يقل : أخاهم الذى كان يقيم معهم . ولكنهم قومه بمعنى أنه عاش معهم فترة فعرفوا أخلاقه وصفاته ، وأنسوا به لفترة من الزمان جعلتهم يعرفونه معرفة بعضهم لبعض ، وهكذا نرى دقة التعبير فى القرآن ، لم يقل أخاهم لأنه لم يولد ولم يُرَبَّ معهم ، ولكنه قال : ﴿لِقَوْمِهِۦٓ﴾ لأنه عاش معهم فترة فعرفوه .

ماذا قال لوط لقومه ؟ لم يقل لهم : إن ربى نهاكم عن العملية القذرة التى تقومون بها ، ولكن أدب النبوة جعله يقولها بأسلوب الاستفهام . ولكنه استفهام تقريع واستفهام استنكار . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . وهكذا يحمل السؤال استنكارًا لما يحدث ، يقول لهم : إن العقل الفطرى يستنكر هذه العملية القذرة . وهذا شىء لم يسبقهم إليه أحد ، ولكنهم فعلوه للشهوة . إذن فرغم أنها عمليةقذرة والفطرة السليمة تأباها ، فإنها كانت موجودة فى هذا المجتمع بقصد

الشهوة والشذوذ عن الطبيعة ، وكلمة « فاحشة » هى التزيد فى القبح ؛ أى أن الشىء ليس قبيحًا فقط ولكن فيه زيادة فى القبح ، ولكن الذى يأتى أنثى بدون زواج مثلًا تكون فاحشة . ولكن يمكن أن يتزوجها بعد ذلك وتصبح حلالًا ، أما إتيان الرجل الرجل ففاحشة بمعنى مركب ؛ لأنه ليس مخلوقًا لهذه العملية ، ولا يمكن أن يصير حلالًا أبدًا .. فهو فحش مركب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول بعض الفقهاء إن « مِنْ » زائدة ! ! ولكن بالنسبة لكلام الحق سبحانه وتعالى فلا يوجد شىء زائد ، فلو أننا قلنا : ما سبقنا واحد أو اثنان . أىْ عدد قليل جدًّا لا يعتد به . ولكن إذ قلنا من أحد ، فمعناه أنه لم يسبقنا أحد بالنفى القطعى . تمامًا كما تقول لإنسان : ما عندى مال ، فقد تملك عشرة قروش أو عشرين قرشًا ، ولكنك لا تعتبرها مالًا . ولكن إذا قلت له : ما عندى من مال ، أى من بداية ما يقال له مال ولو مليمًا واحدًا . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أى : من بداية ما يقال له أحد ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أى : ما يطلق عليه اسم العالمين . فالحق سبحانه وتعالى سماها أولًا : فاحشة أى تزيد فى القبح ، ثم أكد لنا أنه لم يسبق قوم لوط إليها من أحد ، أى أنها بدأت بينهم وهذا استنكار فظيع .

ولنبحث المسألة عقليًا ، لما جعل اللَّه الإنسان خليفة كان لابد من بقاء النوع وخصوصًا أن الأعمار محدودة . وبقاء النوع مضمون بالزواج فهو الوسيلة لإبقاء النوع ، والله تعالى تكفل للإنسان بالقوت الذى يقيم به صلبه .

إذن .. فالإنسان خليفة فى الأرض يريد إنجابًا ويريد قوتًا ؛ ولذلك حين خلق اللَّه تعالى الأرض قدر فيها أقواتها ليبقى الإنسان ، وخلق فيها الذكر والأنثى لبقاء النوع ، والإنسان لا يولد ومعه كل مقومات الخلافة ؛ بل يمر بخمس مراحل . فهو يكون فى أول الأمر نطفة فى ظهر أبيه ، ثم جنينًا فى بطن أمه ، ثم يولد وهناك فترة طفولة محتاجة إلى عناية ، وفترة تربية حتى يبلغ رشده ويصلح للخلافة فى الأرض .

إذن .. فالمسألة تأخذ مراحل عدة بين الحمل والولادة ورعاية الطفل وهو صغير . وأطول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ما الذى يجعل الإنسان يتحمل كل هذه المتاعب ؟ إنها الشهوة

التى وضعها اللّه تعالى فى الذكر والأنثى ؛ لكى يحفظ بها النوع ، وعندما توضع فى مكانها ويتم منها الإنجاب تتحمل المتاعب فى التربية ، وإذا عزلت الشهوة عن بقاء النوع تكون قد أفسدت فى سنة الكون ؛ لأنك عطلت الإنجاب وعطلت عمارة الأرض ، وهذا يتم حين تكون الشهوة فى غير موضعها ولا يستفاد منها فى الإنجاب .

والحق سبحانه وتعالى حين تحدث عن الفاحشة لم يفصلها لنا فى الآية الأولى ، إذ قال سبحانه وتعالى : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٠] ومعنى ذلك أنها أمر معلوم بالفطرة ، ولكن بعض الناس قد يطلب التفصيل ، ولذلك فسرها فى الآية الثانية فى قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف : ٨١] . ما هو الإسراف ؟ الإسراف : هو تجاوز الحد ، والله وضع لنا مصرفًا للشهوة وهى المرأة وجعلها وعاء للإنجاب فهى تعطينا الشهوة وتعطينا الإنجاب . ولكن إذا كانت هذه العملية مع الرجال فهى تجاوز للحد ؛ لأنها بُعدٌ عما شرع اللّه تعالى ، وانقياد لشهوة الإنسان فى غير ما أحل الله ؛ لذلك فهم مسرفون لأنهم تجاوزوا الحد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى فى سورة « الشعراء » : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٦٥] استنكارًا لهذا الفعل الشائن الذى انفرد به قوم لوط على سائر الناس . ولذلك يقول اللّه عز وجل فى آية أخرى : ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء : ١٦٦] يقول لهم نبيهم لوط : لماذا تفعلون الفاحشة وعندكم حرثكم الذى أنعم به عليكم ربكم ، زوجاتكم ؟ ! !

عندكم مندوحة فى تصريف الغرائز وهى الزوجات ، فلماذا تنقلون ما ينبغى فعله مع الزوجات ، إلى فعل حرام غير جائز مع الذكران من العالمين ؟ والآية تحتمل معنى آخر ، هو أنهم كانوا يأتون نساءهم فى مواضع حرمها الله ، كما يفعلون مع الذكران من العالمين .

إن اللّه جعل للأزواج محلًا للاستنبات فى زوجاتهم ، قوم لوط تجاوزوا محل الاستنبات الحلال واستبدلوه بالموضع الحرام . محل الاستنبات الحلال الذى يجوز للرجل أن يأتى زوجته فيه هو الذى أشار إليه قول اللّه عز وجل : ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٢٣] بعض الناس فهم هذه الآية خطأً . فهموها على أن موضع الحرث مشاع فى أى مكان إن

الآية واضحة وصريحة تقول : ﴿حَرْثَكُمْ﴾ ومعنى الحرث هو مكان استنبات الولد ، والمرأة تضع الولد من مكان معروف من الأمام وليس من الخلف . ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء : ١٦٦] العادى هو الذى شرع له شيء يقضى - إربته - حاجته فيه فتجاوزه إلى شيء آخر حرام .

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل : ٥٤] هنا لوط عليه السلام يقول لقومه مستنكرًا فعلهم : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ معنى : ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أى : وأنتم تتعالمون بها وتتجاهرون ، مما يدل على أن الكل مجمع على هذه الفاحشة ، وأنه لم يعد هناك حياء . أو المعنى : كيف تفعلون ذلك وأنتم تبصرون ما حل بأصحاب الفساد من عذاب وهلاك ؟ ثم يقول بعد ذلك : ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل : ٥٥] . كلمة : ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فى ظاهر الأمر أنها تخالف قوله : ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ لأنهم ما داموا يبصرون ويعلمون ويرون فكيف يجهلون ؟

فالجهل هنا ليس ضد العلم ، ولكنه مرادف السَّفه ، لأن الجهل له إطلاقات .

الناس يفهمون أن الجهل عدم العلم ، مع أن الأمية هى ألا تعلم ، والجهل أن تعلم قضية مخالفة للواقع ، ولذلك الذى يتعب فى الدنيا هو الجاهل وليس الأمى ؛ لأن الأمى خالى الذهن ، تقول له القضية فيأخذها وكفى ، لكن الجاهل عنده قضية مخالفة ، فأنت تحتاج معه إلى عملين اثنين : أن تنزع منه قضية الباطل أولًا ، ثم تدخل له قضية الحق ، وهذا شيء يحتاج إلى جهد كبير ، فالذى يتعب العالم هو الجاهل لا الأمى .

منطق أصحاب الفطر المطموسة

قال لوط عليه السلام للمسرفين من قومه : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف : ٨٠، ٨١] ماذا قال له قومه ؟ هل ناقشوه ؟ .. لا .. يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف : ٨٢] . أى لم يكن فى العملية أى منطق ، إلا أن قول لوط قد أشعر قومه بعقدة الذنب

وفحش ما يحدث ، فقالوا : الحل أن نخرج لوطًا وقومه من القرية ؛ لأنه جاء ليفسد علينا شيئًا نتمتع به . وحتى فى علة الإخراج لم يكن هناك أى منطق ، إلا أن لوطًا ومن آمن معه يريدون أن يتطهروا من قذارة هذه القرية وما يحدث فيها .

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى : ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء : ١٦٧] ما الذى يريدونه من نبيهم لوط ؟ أن يكف عن لومهم ونهيهم عن فعل الفاحشة . و﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أى : من المطرودين خارج بلدتنا . ولذلك يقول الحق عز وجل فى موضع آخر : ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل : ٥٦] لماذا أخرجوا لوطًا ومن اتبعه من قريتهم ؟ لأنهم يتطهرون بفعل الحلال وإتيان ما أمرهم اللَّه به ، والعصاة الذين كذبوا لوطًا لا يريدون أن يكونوا من المتطهرين . وهكذا كل أهل الباطل ، لا يحبون أن يكون بينهم من يأمر بالحق وينهى عن فعل الباطل . يضيقون به ذرعًا ويحاولون بشتى السبل أن يتخلصوا منه . إما بالنفى أو الحبس أو السجن أو القتل .

ماذا كان موقف لوط من هؤلاء المكذبين ؟ ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ هناك فرق بين من يعمل العمل ، وبين من يكره العمل ، وبين من يكره عامل العمل نفسه ، لوط عليه السلام قال لهم : أنا كاره لعملكم وكاره لمن يفعل الفاحشة منكم .

خيانة امرأة لوط

قال تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [الأعراف : ٣٨] إذا سمعنا « أنجيناه » فإن ذلك يكون نجاة على أمر واحد . ولكن « نجيناه » يعنى من أشياء متعددة ، أى من أخطار متعددة . ولأن اللَّه سبحانه وتعالى هو المنجى فإنه ينجى بكلمة ﴿كُن﴾ ومهما تعددت الأخطار فإنها لا تحتاج من اللَّه سبحانه وتعالى إلا كلمة : ﴿كُن﴾ .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ الأهل هنا : إما أن يكونوا أهلًا له بالنسب ، أو بالتدين والتبعية . فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف : ٣٨] . فهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى قد أنجى أهل بيت لوط وأتباعه الذين هم أهل كل رسول ، فعندما حاول نوح عليه السلام أن يقنع ابنه بركوب السفينة ورفض الابن وأصر على كفره فغرق ، قال نوح وهو يدعو اللَّه تعالى : ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود : ٤٥] فقال

له الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود : ٤٦] فأهل الرسول هم أصحاب الأعمال الصالحة الذين يتبعون منهجه .

إذن .. فزوجة لوط لم تدخل فى الإنجاء .. لماذا ؟ لأنها كانت من الغابرين وغبر تأتى لمعان متعددة ، فمعناها أقام ، ومعناها مضى ، ولذلك يقال : هذا الشيء غبرت أيامه أى مضت . فأى معنى تتناوله الكلمة فى هذه الآية الكريمة ؟ نقول : إن المعنيين ملتقيان ، فمادامت لم تخرج مع لوط وبقيت فى مكانها ، فقد بقيت فى المكان الذى سينزل فيه العذاب . ومادامت قد بقيت فى المكان الذى سينزل فيه العذاب ، فقد أصبحت من الماضين لأنها ؛ ستهلك .. أصبحت تاريخًا .

والحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا التفاصيل فى هذه الآية عن أسباب هلاك امرأة لوط ، ولكن المعنى يؤكد لنا أنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به ، ولكنه جاء بالتفاصيل فى آية أخرى فى قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم : ١٠] وليس الغرض من المثل الذى ضربه اللّه تعالى هنا أن يقال : إن امرأة لوط كانت زانية .

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الرسول مع أنه مرسل من اللّه لا يستطيع أن يفرض إيمانًا حتى على امرأته ؛ لأن حرية الاعتقاد وحرية العقيدة قد كفلها اللّه للإنسان ليكون الحساب عدلًا فى الآخرة ، ولذلك فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ . أى الذين رفضوا منهج اللّه ورفضوا أن يؤمنوا به ، والله سبحانه وتعالى لأنه أعطى كلًّا منا حرية الاختيار ، أعطاها بعدله حرية أن تختار الكفر أو الإيمان ، ولم يقيد هذه الحرية حتى فى زوجات الأنبياء . ويجب ألا يعتقد أحد أن امرأة لوط كانت متكبرة متسلطة على لوط ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى نفى ذلك فى قوله جل جلاله : ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ ومعنى ذلك أن إمْرَة الرجل كانت عليها ، ولم يكن لوط هو الذى يطيع أوامرها ولكنها كانت خاضعة له ، ولكن حرية الاختيار جعلتها تختار الكفر على الإيمان .

ولذلك يجب ألا يأتى أحد ويقول : إن قول الحق سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام عن ابنه :

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] معناه أنه ابن زنى ، لا ، ولكن معناه كما قال الله وبيَّن : ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ، ولذلك لابد أن نتنبه إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠] ، لنفهم أن حرية الاختيار فى العقيدة هى التى جعلت هذا يحدث ، وأن رسولين من رسل الله تعالى لم يستطيعا أن يرغما زوجتيهما على الإيمان ، فالمسألة فى حرية العقيدة التى كفلها الله للإنسان ، ولا أحد يستطيع أن يجبر عليها أحدًا بالقوة . وفى هذا ضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون ، ليرينا أن فرعون المتجبر مدعى الألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن به وتكفر بالله . إذن فنبيٌّ لم يستطع أن يجعل امرأته تؤمن ، ومدعٍ للألوهية لم يستطع أن يجعل امرأته تكفر ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختيارى حماه الله تعالى بكل أنواع الحماية ، بحيث لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس اقتناع وليس على أساس قهر .

نجاة لوط عليه السلام وأهله ، إلا امرأته

يقول تعالى : ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] كلمة « أنجينا » تشير أولًا إلى أن عذابًا سيقع ، وأن العذاب سيقع فى المكان الذى فيه قوم لوط ، وأن النجاة لن تكون بقدرة لوط أو المؤمنين معه ، ولكن بقدرة الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى سينجيهم من هذا العذاب ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ ونسب الفعل إلى ذاته سبحانه وتعالى ، ولذلك فإن الله هو الذى أخرج آل لوط وأنجاهم من العذاب .

قوم لوط قالوا : ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] فجاءت إرادة الحق سبحانه وتعالى موافقة لما طلبه قوم لوط ، أخرج الله لوطًا ومن معه فعلًا من القرية ، ولكنه أخرجهم لينجيهم من العذاب ، فكأن ما كان يحسبه قوم لوط خيرًا لهم بإخراج لوط ومن معه من المكان كان شرًّا لهم ؛ لأنهم بإخراجهم نزل العذاب على قوم لوط .

والحق سبحانه وتعالى قال فى آية أخرى : ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨، ٥٩] ، والقوم المجرمون هم قوم لوط الذين عادوه وكذبوه ، وهم الذين يفعلون المعاصى والمنكرات . وهل آل لوط كانوا ضمن القوم المجرمين ؟ نحن نعرف أن الاستثناء هو إخراج ما بعد « إلا » مما قبلها . فآل لوط لم يكونوا فى القوم « المجرمين » ؛ إذن فالاستثناء ليس من قوم لوط ، ولكنه من مجرمين ؛ لأن القوم كان

أغلبهم فاسدين ، فصار « قوم لوط » اسم علم على القوم . والاستثناء فى هذه الآية قضية لغوية أفاض فيها العلماء كثيرًا ، فقالوا : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ أى إلى مجرمين ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ هذا استثناء ، فنحن لم نرسل لآل لوط ، إذا كنتم ستنجونهم فيكون الإرسال للإنجاء والإهلاك ، نعم ؛ لأنهم جاءوا فى الأصل لكى يهلكوا قوم لوط المجرمين ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ فاستثنى آل لوط من كلمة مجرمين .

ثم قال : ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أى آل لوط ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ . إذن فامرأة لوط لن تنجو ، بل ستدخل فى عداد المجرمين ، ولذلك قالوا : إذا توالت الاستثناءات على مستثنى منه ، تأخذ المستثنى الأول من المستثنى منه ، والمستثنى الثانى من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث من المستثنى الثانى . وهنا الآية تقول : ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ ، واستثنى من آ لوط امرأته فتكون قد دخلت فى القوم المجرمين : ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر : ٦٠] .

ولكن هل الرسل هم الذين قدروا أم الذى قدر هو اللَّه تعالى ؟

نقول : إن الفعل يصح أن ينسب إلى الآمر به وإلى المبلغ وإلى المباشر له ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر : ٤٢] . ويقول : ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة : ١١] فمرة ينسب الفعل للآمر الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة للمبلغ ، ومرة لمن يباشر العملية ، وقوله تعالى : ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ حين تسمع كلمة « غابر » تظن أن الزمن الغابر هو الذى مضى ، ولكن هنا غابر بمعنى باق ، أو هو من أسماء الأضداد ، فمعنى ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أى من الباقين فلن تخرج ولن تنجو ؛ لأن الذى سينجو سيخرج من القرية ، والذى سيبقى هو الذى سيهلك .

وفى موضع آخر أشار القرآن إلى من تكون هذه العجوز التى أهلكها اللَّه مع العصاة المكذبين من قوم لوط قال تعالى : ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٦٩- ١٧١] . العجوز معروف وهو من تقدمت به السن وتجاوز الستين فى عرفنا هذه الأيام ، و﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أى الهالكين . كأن اللَّه تعالى يخبر رسوله لوطًا ، بأن هذه الزوجة التى لم تكن أهلًا للزواج من نبى اللَّه لوط وخانته فى نبوته ، وأنها ستهلك مع العصاة المذنبين ، إنها ستظل فى الدار ولا تخرج معك ؛ مع الذين اتبعوا لوط ، وسيصيبها ما يصيب غيرها من الهالكين . وفى المثل العربى « هذا أمر غبر وقته » أى : ذهب وقته ومضى .

الملائكة فى بيت لوط

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود : ٧٧] أى : شعر فى نفسه بالسوء . وضاق ذرعًا ، والذرع مأخوذة من الذراع . والذراع فيه الكف ، والكف فيه الأصابع التى تدفع بها الأشياء عن نفسك ، وأى شىء تستطيع أن تمد له ذراعك لتدفعه عنك فلا تصل ذراعك إليه يقال : ضقت به ذرعًا . أى أنت عاجز عن أن تدفع أذًى جاءك . ولذلك يقال : « لو أن ذراعى طالته لحدث كذا وكذا » أى : أنك عجزت عن أن تصل إليه ، أى أنه فوق طاقتك .

الملائكة جاءت إلى لوط فما الذى ساءه وجعله يحس بعجزه ؟ لأن الملائكة جاءت إليه على هيئة بشر ، وهو يعلم ما يفعله قومه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ لماذا ؟ لأنه عندما رأت امرأة لوط هؤلاء الرجال قادمين ، صعدت إلى سطح البيت وأوقدت نارًا ؛ لتحدث دخانًا كثيفًا إشارة إلى القوم أن هناك ضيوفًا قد وصلوا ، وأنهم حسنو المظهر يستحقون أن يفعل بهم آل لوط ما يفعلونه بالرجال . لوط حين وصل إليه القوم : ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ يعنى يوم صعب ومنه العصابة التى يربطها الإنسان على رأسه فى يوم يعانى فيه من تعب شديد ، ومنه العصبة لأنهم جماعة يتكاتفون على فرد ، فلا يستطيع أن يدافع عن نفسه ، فيكون اليوم عصيبًا بالنسبة له ؛ لأنه يلاقى فيه أذًى كثيرًا .

امرأة لوط أوقدت النار وارتفع الدخان ، وعرف أهل القرية أن عند لوط رجالًا حسان المظهر ، فلم يضيعوا وقتًا كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود : ٧٨] ومعنى ذلك أن قوم لوط جاءوا إليه مسرعين متدفقين ، والإنسان حين يتعود على الإثم يفعله بسهولة ويسرع إليه ، فالذى يسرق أول مرة يكون متهيبًا وخائفًا أن يمسك به ؛ لأنه ليس له دراية بالسرقة أما الذى يسرق كل يوم ، فهو يقدم على السرقة بجرأة ونشاط . وكلمة يُهرعون من ألفاظ اللغة العجيبة ، كل فعل له فاعل مثل : يضرب زيد عمرًا . من الذى ضرب ؟ زيد . وضرب من ؟ عمرًا .. هذا فاعل وهذا مفعول ولكن كلمة يُهرع إذا سمعناها فالضمة على الياء ، وهى ملازمة للبناء للمجهول ، يُهرع مثل جُن بضم الجيم ، ومعناها فلان أُصيب

بالجنون ، ولكن هل هو أحضر لنفسه الجنون ؟ لا .. الجنون هو الذى جاءه ، ونحن لا نعرف للجنون سببًا فبنيت للمجهول ، مثلًا يقال : نكب فلان ، ولكننا لا نعرف ما الذى نكبه ؟ ولكن إذا جهل الفاعل بنى للمجهول ، إنما ما بعده يكون فاعلًا .

قوله تعالى : ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ الإنسان إذا أقبل على شيء باندفاع فهو عاشق إلى أن يذهب إلى ذلك الشيء ، ولا يعشق إنسان أن يذهب إلى شيء إلا إذا كان يذهب إلى ما يحب ودون أية هيبة ، فيه اندفاع منه وفيه دفع من غيره ، فأى جماعة تكون مقبلة على أمر محبب إلى نفسها تندفع إليه . فإذا كان هناك نقص فى مادة غذائية ، ثم عرف الناس أنها موجودة فى محل معين هرعوا إليه ، أى اندفعوا إليه ودفعوا غيرهم ، وقوم لوط مدربون على هذا الإثم .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود : ٧٨] إذن فهم متدربون على هذا العمل ، يعشقونه ويفعلونه بلا هيبة ولا حياء ؛ لأن الحياء أن يفعل بعضهم ويخاف بعضهم ، ولكن إذا كانوا كلهم يقومون بهذه السيئة ، فلا أحد يخشى أو يمتنع ؛ لأن ما يفعلونه مع الرجال من الفاحشة قد تعودوا عليه . أقبل قومه على بيته بسرعة واندفاع وفى أعداد كبيرة ، وهو يعلم نيتهم من سوابقهم ، ويريد أن يصرفهم عن ضيوفه انصرافًا من جنس اندفاعهم . ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود : ٧٨] ، أيعرض لوط بناته عليهم ؟ وما المانع ، فالمرأة معدة لهذا ، ومن الممكن أن يتم الزواج بينها وبين الرجل . ولكن هؤلاء كافرون ولوط رسول الله ، هل كان من الممكن أن يزوج الرجل ابنته لغير مؤمن ؟ نقول نعم ، ورسول الله ﷺ زوج ابنته رقية لابن أبى لهب ، ولأبى العاص بن الربيع ، ولم يكن فى ذلك الوقت قد نزل التشريع بالتحريم .

لوط قال : هؤلاء بناتى . هل قالها بالنسبة لبناته اللاتى من صلبه ؟ أو لبنات أمته ؟ أو بنات المؤمنين به ؟ لوط لم يؤمن برسالته إلا هو وبنتاه . إذن فلم يكن المقصود بنتيه ؛ لأنهما لا يكفيان هذا العدد الكبير ، إن لوطًا كان يحاول أن يهدى قومه ويدفعهم إلى الزواج ، ولذلك فقوله بناتى يعنى بنات القرية ، بدليل أنه قال : ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ، أى : أن زواجكم من البنات أطهر لكم مما ترتكبونه من فاحشة مع الرجال ، فالزواج شريعة الله والفاحشة مع الرجال إثم عظيم .

ثم عندما لم يجد اقتناعًا منهم بذلك ، حاول أن يستعطفهم بأن يحفظوا عليه كرامته بالنسبة لضيوفه ، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ [هود : ٧٨] ، كلمة ضيف مفردة وتطلق على الجماعة ، يعنى إن كان هناك واحد يقال : هناك ضيف ، وإن كان هناك اثنان يقال : هذان ضيف ، وجماعة يقال : هؤلاء ضيف ، فهو مفرد للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع ، والله سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ .

إذن .. فضيف كلمة مثلها مثل كلمة طفل تقال للمفرد والمثنى والمذكر والمؤنث والجمع . والله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١] . فكأن الطفل تطلق على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾ . ما هو الخزى ؟ الخزى هو الفضيحة أمام الناس ، فالإنسان حين يهان لو كان بمفرده فهذا هوان ، ولكن الخزى أن يهان أمام جمهرة من الناس . وقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود : ٧٨] ، أى : رجل يقف مع الحق ويمنع هذه المهزلة .

لما عرض لوط عليه السلام على قومه الزواج من بناته ، قالوا له : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود : ٧٩] يعنى : أنت تعلم أنه ليس لنا حق فى بناتك ، وأنت تعلم أننا لا نريد البنات ، ولكننا نريد ضيوفك هؤلاء ، الضيوف الرجال ذوى الهيئة الحسنة لنرتكب معهم الفاحشة . لوط أحس بالضيق الشديد وبالخزى والعجز ، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود : ٨٠] ساعة تسمع ﴿لَوْ﴾ تكون للتمنى ، أى أتمنى أن تكون لى قوة أدفعكم بها عن ضيوفى ، لو أن عندى القوة لفعلت ، وإن لم يكن عندك القوة الذاتية . فإنك تبحث عن قوى أو أقوياء ، تستطيع أن تأوى إليهم ليدفعوا عنك السوء ، وقوله تعالى : ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، أى أجد من الأقوياء من ينصرونى عليكم ، فآوى إليهم ليدافعوا عنى .

والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى توضح موقف قوم لوط من الملائكة الذين جاءوا إليه بالبشرى والحوار الذى دار بينهم وبينه ، قال تعالى : ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الحجر : ٦٧] أى : جاء أهل المدينة فرحين مستبشرين ؛ لأن الاستبشار هو استشراف النفس إلى شيء مفرح وسار ؛ لأنهم حينما سمعوا بأن لوطًا جاءه جماعة فى غاية الحسن والجمال : تحركت نوازعهم المنحرفة وقالوا : هذه فرصة ، فجاءوا مستبشرين ومسرورين ؛ فكأنهم رأوا أن هذه فرصة يجب ألا تفلت من أيديهم ؛ لأنهم كانوا أهل منكر وانحراف ، لا يستحون منه ، بل كانوا يفعلونه بسرور واستبشار .

ولما جاءوا لوط قال لهم : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ [الحجر : ٦٨] وكان من عادة العرب أن الضيف يأخذ كرامته واحترامه من المضيف ، ولا يسمح لأحد أن يناله بسوء وهو عنده ؛ لأنه أخذ جواره ، وأى اعتداء على الضيف يعتبر نقيصة وعارًا على المضيف . ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ هؤلاء جمع ، وضيفى مفرد . وقوله : ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ . الفضيحة هى هتك المساتير التى يستحى منها الإنسان ؛ لأن هناك أشياء يفعلها الإنسان ولكنه يستحى أن يظهرها ، هذه تسمى المساتير .

لأنك لو عرفت لمحسن حسنات متعددة ، ثم اطلعت منه على سيئة فقد تلعنه وتقاطعه ، فتحرم نفسك من حسناته فالمولى سبحانه يستر عنك هذه السيئة حتى تنتفع بحسناته ولذلك يقولون :

اعمل بقولى ولا تنظر لأفعالي   واجنِ الثِّمار وخلِّ العودَ للنار

فهو يقول لهم : لا تفضحون لأنهم ضيفى ، فهذه كرامتى . ثم يقول لهم : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ [الحجر : ٦٩] الفضيحة تكون أمام النفس ، والخزى يكون أمام الناس ، فردوا عليه بقولهم : ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ألم نقل لك لا شأن لك بهذا الموضوع . وعن العالمين : العالم ما سوى اللَّه تعالى ، أى دعنا نفعل فى الكون ما نشاء ، وإياك أن تناقش هذا الأمر معنا لا فى هؤلاء ولا فى غيرهم .

عندما بلغ الضيق بلوط منتهاه تكلمت الملائكة ، فماذا قالوا ؟ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ [هود : ٨١] لوط عليه السلام ، لم يكن يعرف أنهم رسل ؛ بل كان يعرف فقط أنهم ضيوف من البشر ، ولم يكن يعرف لماذا جاءوا .

عندما رأى الملائكة لوطًا فى هذا الضيق الشديد ، يحاول أن يحمى ضيوفه ولكنه فرد أمام مجموعة من الشواذ لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، أطلعوه على الحقيقة وهى أنهم لم يأتوا ضيوفًا ، ولكنهم رسل من الله ، وأهل القرية لن ينالوا منهم شيئًا ولن يصلوا إليهم ، بل لن يصلوا إلى لوط نفسه .

لذلك : ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ الملائكة أعلموا لوطًا ألا يخاف من هؤلاء المتجمعين ، فهم لن يصلوا إليهم ، بل لن يصلوا إلى لوط نفسه ، ثم أبلغوه أوامر الله ، بأن يسير بأهله ليلا ، هم قالوا : ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ يعنى إخرج من هذه القرية ليلًا ولا يهم أى وقت من الليل سواء فى أول الليل أو فى آخره . إذن فهم أعطوه مهلة لكى يسير ويخرج من هذه القرية ليلًا ، ويقال قطع من الليل أى ما يقطع الليل أى منتصف الليل ، ثم أكملوا له ما يجب أن يفعله : ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ والالتفات هو الانصراف عن الشيء الذى أمامك ، إلى الشيء الذى خلفك أو بجانبك ، يكون الشيء أمامك فتنصرف عنه ، وهل المقصود بذلك الالتفات الحسى أو الالتفات المعنوى ؟ إن لوطًا وأهله يخرجون من ديارهم ويتركون أموالهم ومتاعهم وما اعتادوا عليه من حياة . إذن الأمر معناه : إياكم أن تتجه قلوبكم أو أنظاركم إلى ما تركتم ، اخرجوا وأنتم مصممون على الخروج ، وسيعوضكم اللَّه تعالى عما فاتكم ، هذه هى اللفتة المعنوية ، إنهم لا ينظرون إلى ما تركوه وفى قلوبهم حسرة . واللفتة الحسية هى الفتة بالنظر ، هى أن تلتفت أنظاركم إليهم .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر : ٦١، ٦٢] ، و﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أى : لا أعرفكم ، لم أركم من قبل . كما أن مجيئهم إليه حرك همومه وأثار فى نفسه خواطر واسعة ؛ لأنه يعلم رذيلة قومه ، وهؤلاء ملائكة جاءوا على أجمل صورة ، فهذه المسألة ساءت لوط عليه السلام كثيرًا ؛ ولذلك يقول ربنا فى آية أخرى : ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود : ٧٧] . لأنه يعرف ما سيحدث من قومه ، ولكن الملائكة طمأنوه ، قال تعالى : ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ فقد أعلموه أنهم جاءوا للقوم الذين أتعبوه ، وكانوا يمترون ويشكون فى أن اللَّه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فنحن جئنا لنحقق لك رغبتك فى هؤلاء المفسدين ، الذين

يمترون ويشكون فى عذاب الله أن يقع بهم فى الدنيا قبل الآخر ، ثم يقول تعالى ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحجر : ٦٤] مثل قولهم لإبراهيم : ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر : ٥٥] وبعد ذلك أعطوه المنهج الذى يتبعه حتى ينجو هو وأهله .

قال تعالى : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر : ٦٥] ، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ الفعلان « سرى » و « أسرى » يتواردان على معنى سريت أنا وأسريت ، أى مشيت بالليل ، ومرة أسرى تكون هى المتعدية ، مثل قوله تعالى : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ، ﴿بِأَهْلِكَ﴾ الأهل كناية عن المرأة والأولاد وما يتبعهم ، ولذلك فإن الناس عندنا فى القرى لا يتكلمون عن نسائهم بأسمائهن ، وإنما يقولون : الأولاد قالوا كذا ، أو الجماعة يريدون كذا ، ولا يذكرون اسم المرأة . يعنون بذلك نساءهم فكأن اسم المرأة دائمًا مبنى على الستر ؛ ولذلك نجد المرأة فى كثير من الأحكام مطمورة فى حكم الرجل إلا فيما يتعلق بها خاصة .

وقوله تعالى : ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قطع : جمع أو اسم جمع ، مفرده قطعة . وعندنا الذى يدل على أكثر من واحد ، ننظر هل تغير فيه شكل المفرد أو لم يتغير ؟ فإن لم يتغير يطلق عليه : جمع سالم ، سواء كان مذكرًا أو مؤنثًا ؛ لأن المفرد سلم من التغيير وألحقت به علامات الجمع مثل : كاتب .. كاتبون أو كاتبات . أما إذا تغير المفرد فيسمى جمع تكسير مثل : رجل .. رجال ، قلم .. أقلام . فإن دل اللفظ على جمع وليس من هذا ولا ذاك ، يكون « اسم جمع » أى يدل على الجمع ، فيفرق بينه وبين مفرده بالتاء ، مثلا تقول : هذا تمر ، معناه شىء كثير ، مفرده تمرة وعنب مفرده عنبة ، فعنب جمع ولكن ليس من جموع التكسير ولا من الجموع السالمة ، فدل على جماعة وليس من واحد منها ، فهذا نطلق عليه « اسم جمع » .

إذن .. قطع جمع قطعة ، وقوله تعالى : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ هذا منهج النجاة ، يخبرون به لوطًا عما يفعله بالنسبة لأهله والمؤمنين به . ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ هذا أمر ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ هذا زمان الإسراء أى المشى أو الرحيل . و﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ الدبر هو الخلف ، ولماذا يتبع أدبار القوم ؟ ليحثهم على السرعة ، وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ورحلوا عنه ، فكل واحد منهم يضع رحله على ناقته وأهله فيها . وبعد ذلك يركبون ويبدءون السير ويتخلف رئيس القوم ، ويسمى « معقب » . لينظر هل نسوا شيئًا من

أمتعتهم أو سقط منهم متاع أو غيره ، ويطمئن عليهم . ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ كُنْ خلفهم ، لكى تحثهم على السير حتى يسروا بسرعة ، ولتحمى أمرًا سنأمرك به فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أى : لا يلتفت أحد منكم خلفه ، وحتى تراقب من يلتفت لابد أن تكون متخلفًا عنه .

ولماذا لا يلتفت منهم أحد ؟ لأن الالتفات يأخذ وقتًا فيؤخر السير ، ونحن نريد السرعة . وأيضًا فإن القوم إذا التفتوا إلى مواقع انتمائهم من الأرض التى نشئوا عليها وعاشوا فيها واعتادوها قد ينتابهم الحنين إلى بلادهم ويقوى عندهم الانتماء . ونحن لا نريد ذلك ، بل نريد أن تسرعوا إلى الأمام ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أو : أن الحق سبحانه لا يريد أن يلتفت أحد خلفه ؛ حتى لا يشهد عذابًا أو مقدمة عذاب للقوم ، فتأخذه بهم الشفقة . ولذلك يقول سبحانه فى إقامة حد من حدوده : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور : ٢] . يدل على أن الموقف سيؤثر فى النفس ، مع أنهم فعلوا جريمة ، ولذلك قلنا إن بشاعة الجريمة بمرور الوقت تزول وتبقى بشاعة العقوبة . أو أنه سبحانه يريد أن يعجل بهم قبل أن يوجد العذاب ولو بالتفزيع فقط ، من هول ما يرون من إنزال العذاب بالقوم .

فهنا كم أمر ؟ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ والظرف ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ والكيفية ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ ، و﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ، ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ . ولماذا لا نأخذ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ مؤكدة لقوله : ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ؟ أى : لتكن وجهتكم الأمامية والغاية ، وليس لكم شأن بمن تركتموهم .

عاقبة المجرمين من قوم لوط

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٤] والمطر عادة هو الذى يأتى بالماء ، والماء أساس كل خير ، ولكن هذا المطر لم يكن خيرًا ولم يكن ماء ، بل كان حجارة انهالت عليهم من السماء ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة « هود » : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٨٢، ٨٣] إذن .. فالمطر كان حجارة ، وكان حجارة من النار .

الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن نعتبر بما حدث لقوم لوط حتى لا نقع فى نفس المعطية أو نقترب منها فيقول : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أى : اعتبر يا من تسمع هذه القصة بما يحدث للمجرمين الذين يصادمون ويعاندون دعوة اللّه تعالى ويصرون على المعصية فينزل عليهم غضب الله . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] و﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أى : إلى لوط ، بمعنى أوحينا إليه أو أعلمناه . مثل قوله تعالى : ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤] .

بعد أن تكلم سبحانه عن الإنجاء لآل لوط ، تكلم عن العذاب لقومه المنحرفين . أى أوحينا إليه أن ﴿دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أى قوم لوط « مقطوعٌ » وقطع دابره ، أى آخره كما نقول : أخرجه من جذوره . أو أن الدابر هو الأصل ، ولذلك فى القرآن الكريم : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥] . أى : أن هؤلاء القوم مأخوذون عن آخرهم ، أو مخلوعون من جذورهم فلا يبقى منهم أحد .

متى يحدث ذلك ؟ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ فأنتم ستسيرون بقطع من الليل وهم سيؤخذون مصبحين ، وأخذ الصبح هذه طريقة العرب ، وطريقة الحروب عندهم : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنْذَرين » .

فالصبح ؛ لأنهم يكونون نائمين ومسترخين ، وليس عندهم استعداد للمقاومة ، فيؤخذون على غِرة . ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أى : فى حاله صباح وهى لا تتناقض مع قوله تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] فكأن بدء الصيحة كان صُبحًا وأخذهم ونهايتهم كان فى الشروق . والصيحة : كما نرى الآن فى الألعاب العنيفة مثل الكاراتيه والجودو ، كلها تبدأ بالصياح ، فهذه الحركات الإرهابية للخصم تبدأ بالصيحة فيحدث اضطراب للخصم يفقده توازنه الفكرى ، وكذلك أيضًا عند التحام الجنود فى القتال .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ويقول فى آية أخرى : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٤٣] و﴿مُّشْرِقِينَ﴾ أى وقت الشروق . ثم يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] أى : قُلبت رأسًا على عقب . وكون هذا الانتقام جعل عاليها

سافلها ، فلابد أنه كان انتقامًا منظمًا ومدبرًا بدقة . ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل : ٤] مثل حادثة الفيل . ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر : ٧٥] المتوسم : هو الذى يدرك حقائق المستور بمكشوف المظهور ، أى يتوسم من الظاهر فيقول مثلًا : أنا توسمت فى فلان كذا . فأخذ من الظاهر ما يدل على الحقيقة .

وما حدث لقوم لوط لا يحتاج إلى توسم ولا فراسة ؛ لأن المسألة واضحة . لذلك يقول تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر : ٧٦] و﴿وَإِنَّهَا﴾ أى : قرية سدوم التى نزل بها العذاب ، ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أى : على الطريق ، والطريق ثابت ؛ لأن هناك سبيلًا عارضًا . مثل إقامة مدن فى أكثر من جهة من الطريق . ولكن « سبيل مقيم » أى طريق مستقيم وثابت . كما نسميه الآن مرصوف ، ويقول فى آية أخرى : ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات : ١٣٧، ١٣٨] أى : أنكم ترونه ؛ لأنه ما دام طريقًا ثابتًا فإن التغير وعوامل التعرية لن تخفيه ؛ لأنه محكم التكوين والرصف والتثبيت . ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر : ٧٧] بعدما قال سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ فكأن من حق المؤمن أنْ يتفحص فى أدبار الأشياء ، ويعرف الأشياء بسيماها ، ويكون عنده فراسة . ولذلك قيل : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله » . والحق تبارك وتعالى قال فى آية أخرى فى سورة « الشعراء » : ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء : ١٧٢، ١٧٣] كلمة « مطر » تعنى الماء النازل من السماء إلى الأرض ، وهو فى غالب الأحوال « غيث » يغيث الناس وينقذهم من الجدب والعطش ، يروى الأرض ويشرب الناس منه ، هذا المطر يكون مطر رحمة . [أما] المطر الذى أصاب قوم لوط ، مطر من نوع آخر ، مطر عذاب ، ولذلك قالوا عنه : ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فرد عليهم بقوله : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف : ٢٤، ٢٥] لماذا جاء الحديث عنها بلفظ « مطر » الذى هو بشير خير ؟ ذلك للإيناس ؛ حتى يظنوا أنه بشير خير ، فيخيب ظنهم وينقلب عليهم نذير شر ، كما قالت الآية : ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود : ٨٢] قوله سبحانه : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى : جاء أمر الله بالعذاب ، يدل على أن الأمر حين يصدر من الحق جل جلاله يستجيب كل شيء قهرًا . القرى التى كان يعيش فيها لوط وقومه خمس

قرى . قرية اسمها دومة ، وقرية اسمها سدوم ، وقرية اسمها حيوان ، وقرية اسمها عاموراء ، وقرى أخرى . اللّٰه سبحانه وتعالى قال عن هذه القرى : ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أى : انقلبت فأصبح أعلى مكان فيها هو الأسفل ، والأسفل هو الأعلى ، واقرأ قول اللّٰه تعالى : ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم : ٥٣] المؤتفكة : من الإفك ، والإفك هو الكذب المتعمد . أى : أن تعرف الحقيقة وتقول ما يخالفها .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود : ٨٢] ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ تأتى دائمًا فى العذاب ، وأمطرنا عليها حجارة يعنى نزلت كالمطر . وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات : ٣٣] هل هى حجارة صلبة أم طين لين ؟ نقول إن الطين الذى يمطره اللّٰه عليهم من المساء يكون أصلب من حجارة الأرض .

وقوله تعالى : ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ [هود : ٨٣] أى : معلمة كل حجر ينزل على صاحبه مثل الصورايخ الموجهة . كل صاروخ متجه لهدف معين بدقة لا ينحرف عنه ، نحن البشر استطعنا أن نصنع صورايخ نوجهها للهدف الذى نريده . اللّٰه سبحانه وتعالى جعل هذه الحجارة كالصواريخ الموجهة ، كل حجر منه يعرف صاحبه ويصيبه بدقة . قوله تعالى : ﴿مَّنضُودٍ﴾ [هود : ٨٢] أى منظمة ولها أوامر خاصة بها من اللّٰه سبحانه وتعالى ، متى أمر انهمرت ، معدة من قبل وموجودة . على أنه فى أيات وردت : ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود : ٨٢] . وفى سورة « الفيل » قال الحق جل جلاله : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل : ٣، ٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٨٣] . قلنا : إن القصص القرآنى قد جاء لتثبيت الرسول والمؤمنين بأنباء من سبق من الرسل ؛ لذلك يقول اللّٰه سبحانه : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود : ١٢٠] ولذلك يقص علينا القرآن الكريم أنباء المعارك التى قامت بين الرسل المؤيدين بمعجزات من اللّٰه تعالى ، وبين الكافرين وهذه القصص تنتهى دائمًا بانتصار المؤمنين على الكافرين ، إلا أن الرسل السابقين لم يكلفوا هم ومن آمن بهم أن يقاتلوا من أجل نصرة الإيمان ويحاربوا الكفر . ولذلك كان اللّٰه يعاقب المخالفين ويهلكهم . أما أمة الحبيب محمد رسول اللّٰه ﷺ فقد عافاها اللّٰه من الاستئصال ، ببركة دعاء نبينا الحبيب ﷺ .

نبى الله شعيب عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود : ٨٤] قصة أخرى من القصص التى أخبرنا بها الله تبارك وتعالى عن موكب الرسالات التى بدأت من عهد آدم عليه السلام ، واختتمت برسالة النبى الخاتم محمد ﷺ .

كلمة ﴿مَدْيَنَ﴾ اسم قبيلة سكنت هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم ، فكأن خطاب الله تبارك وتعالى موجّه إلى أهل هذه القبيلة أو القرية ، أما نبيهم فهو شعيب عليه السلام ، والله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يخاطب المكان ويقصد به المكين ، المكان هو البقعة من الأرض التى يقع فيها الحدث ، والمكين هم أولئك الذين يقيمون فى هذا المكان . ولذلك تجد مثلا فى سورة « يوسف » عليه السلام قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف : ٨٢] هل مطلوب منا أن نسأل القرية أو نسأل أهل القرية ؟ وهل نسأل العير أو الذين قدموا بالعير ؟ المفروض أن نسأل أهل القرية والذين قدموا بالعير .

إذن فقوله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أى : وإلى أهل مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وشعيب عليه السلام ككل رسول جاء إلى قومه ، اختير من أهله وعشيرته ؛ ليكون معروفًا لهم قبل الرسالة وبعد الرسالة ، فيستطيعوا أن يشهدوا له قبل الرسالة بالخلق الكريم والصدق والأمانة ، فيكون تكذيبهم له بعد الرسالة حجة عليهم وسببًا لهلاكهم ، وتسقط حجتهم فى عدم تصديقه .

شعيب جاء ككل رسول بقضية التوحيد ، وهى أن اعبدوا الله وحده لا شريك له ولا إله غيره . هذه هى قمة الدعوة الإيمانية .. وحدانية الألوهية التى جاء بها كل الرسل .

شعيب حين أُرسل لقومه قال : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ . أى : اعبدوا الحق سبحانه وتعالى ، والعبادة ليست هى الصلاة والصوم والزكاة والحج فقط . هذه هى أركان الإسلام ، ولكن لابد أن نتنبه إلى أن كل تكليف إيمانى لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود : ٨٤] يعنى إياك أن تأخذ الأمر بـ« افعل ولا تفعل » إلا من الله سبحانه وتعالى ، فلا تكليف من أحد آخر ؛ لأن هناك إلها واحدا ، وإياك أن تستدرك حكما على الله جل جلاله . وإلا فكأنك تقول : إن هذا الحكم فات على الله .. بمعنى أنه حكم جديد .

إذن .. فالأمر الأول لكل رسالة هو التوحيد : ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ منذ آدم عليه السلام حتى خاتم المرسلين محمد ﷺ ، الذين فى أصلة واحد ، إلهنا إله واحد أحد ، نتجه إليه جميعا ، هذا هو جوهر الرسالات كلها والتى أكملتها وختمتها رسالة رسولنا محمد ﷺ .

شعيب يطلب من قومه عدم الإفساد فى الأرض

قال الله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [هود : ٨٥، ٨٦] حينما جاء شعيب إلى قومه يطلب منهم ألا ينقصوا المكيال والميزان ، لم يفطنوا إلى الحكمة الحقيقية فى ذلك ، إن الذى يحكم البائع والمشترى هو المكيال والميزان ، فإنك إذا كنت مشتريًا فالمطلوب من البائع أن يعطيك حقك ، ومن جانبك عليك أن تعطيه حقه . إذن فالقضية ليست قضية كتل يوزن بها ، ولكنها قضية حقوق الناس ، فيما بينهم فساعة ترى قضية المكيال والميزان قد اختلت فى مجتمع عليك أن تعرف أن المجتمع قد اتبع هواه ، وأنه انصرف عن الحق ، أى أنه مجتمع تضيع فيه حقوق الناس ، ذلك أن الأمر المشهود من العدل بين الناس فى البيع والشراء هو : الكيل والميزان . ولكن كل الأمور التى تحدث فى الحياة معنوية وليست مادية فقط ، فلا بد أن يطبق عليها مقياس الكيل والميزان .

ولكى لا يأخذ أحدٌ حق غيره لابد من ميزان لكل حركة الحياة ؛ حتى تأخذ الناس حقوقها بالكامل ؛ وحتى لا يقوم العالم على الظلم فينتشر فيه السحت وأكل أموال الضعفاء والفتن وغير ذلك ؛ ولأن الحياة كلها تمضى بميزان فالتعامل بين الناس غنيهم وفقيرهم ، جاهلهم ومتعلمهم لابد أن يتم بميزان ، ولو اقتنع كل إنسان أنه أخذ حقه تمامًا لاعتدل المجتمع بكل ما فيه . والكيل والميزان يكون بالزيادة وبالنقص . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ

ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود : ٨٤، ٨٥] وهذان أمران مختلفان ؛ لأن الكلام ليس فى المكيل أو الموزون ، وإنما الكلام فى المكيال والميزان سواء وفيته أم لم توفه . فالآية الأولى تنص على عدم الإنقاص ، والثانية تنص على الوفاء .

على أننا لا بد أن نلتفت إلى قوله تعالى : ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ ما هو الخير فى هذه المعصية ؟ نقول : إنه لا خير فى معصية أبدا ، ولكن : ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ لأن عندكم ما يكفيكم من مال لحياتكم ، وما يغنيكم عن سرقة غيركم ، فاكتفوا بالخير الذى أمدكم اللّه به ، وليأخذ كل واحد منكم حقه ، وهذه قضية يغفل عنها كثير من الناس ، فالبائع .. يبيع صِنفًا واحدًا أو صِنفين ، فهو إن غش فى صنف أو صنفين ، سيغشه غيره فى كل ما يَشترِى وهو كثير ، فإذا كنت مثلا قَصَّابًا تُنقص الوزن فى اللحم ، فسوف ينقص لك كلٌّ من يبيعك كلما استريت تكون أنت الخاسر . فقوله تعالى : ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ لأن حقوق الناس تضيع هنا ، والله وكيل على حقوق عباده جميعا ، لا يظلم أحدا ولا يتقرب إليه أحدٌ إلا بالتقوى . ولذلك فإذا اختلس منك أحد حقًّا من حقوقك فعاتبه ، وإذا بغى عليك وظلمك فحسابه ، ولذلك يقول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

إذن .. فالمسألة أن اللّه تعالى يسمع ويرى ، وأن الميزان فى الحياة إذا اختل فسدت الحياة وضاعت الثقة بين الناس ، حتى يقال فى بنى فلان رجل أمين .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى فى سورة « الرحمن » يقول : ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن : ٧- ١٠] .

فى هذه الآيات البينات ، يلفتنا الحق سبحانه إلى أن الكون كله لا يستقيم إذا اختل الميزان فيه ، ولا يظن ظان أن المقصود هنا ميزان الجرام والدرهم فقط ؟ لا . إنما يقصد ميزان الحياة ، فالعبرة بالميزان وليس بالموزون ، فالميزن يجب أن يكون دقيقا فى كل الأمور .

الحق تبارك وتعالى حين يقول : ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود : ٨٤] أى : عذاب يوم لن

يفلت منه أحد ، فإذا أفْلَت فى الدنيا أو احتمى فيها بذى نفوذ ، كان عذاب اللَّه تعالى ينتظره فى الآخره ، فعذاب الدنيا من الممكن أن يحتال البعض للنجاة منه ، ولكن فى الآخرة لن ينفع شىء من هذا .

فى هذه الآية يقول : ﴿أَوْفُواْ﴾ والاثنان مطلوبان ؛ لأنه ليس المقصود هو المكيال وإنما الكيل بإطلاقه وليس المقصود هو الموزون ولكنه الميزان بإطلاقه فاعدل ولا تنقص ولا تزد ، واقرأ قوله عز وجل : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين : ١- ٥] ، إذن .. فالمطلوب لا إفراط ولا تفريط ، لا زيادة ولا نقص ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ . أى بالعدل .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود : ٨٥] هذا كلام عام ليس فيه كيل ولا مكيال ولا ميزان ولا موزون ، فى كل شىء خذ حقك وأعط الناس حقوقهم .

قوله : ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود : ٨٥] البخس هو الضرر ، إما بالنقص إذا كان للشىء وزن أو حجم أو كم أو كيل ، وإما بإنقاص القيمة المعنوية للشىء .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ من المعلوم أن الإنسان مطالب بعمارة الأرض وإصلاحها ، وأقل الصلاح أن تترك الصالح على صلاحه ، فإن استطعت أن ترقى به فافعل . وقول اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ تدل على أن المجتمع مأمور كله بعدم الإفساد فى الأرض ، وبذلك يكون على كل واحد منا أن ينفذ ذلك على نفسه وأهل ولايته ، إنما الآفة أن كل واحد منا يريد أن ينفذه على غيره .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى : ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير من كل ما تحصلون عليه من حرام . وأنت تتوهم أنك عندما تحصل على مال من حرام قد ربحت ، ولكنك فى الحقيقة أخذت من المال الحلال بركته ، فلو أبقيت مالك كله حلالًا لكان خيرا لك من أن تضيف إليه حراما ؛ لأن الذى أخذ غير حقه من أى شىء يسلط اللَّه عليه أبوابا تنهب منه الزائد الذى لم يأخذه حلالا .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى : إن كنتم مؤمنين بأن اللَّه رقيب عليكم ، وأن اللَّه قيّوم ، وأنكم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئًا دُون أن يراكم فراقبوا اللَّه فى أعمالكم ، واقنعوا بما آتاكم حلالا .

وقوله تعالى : ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أى : أنا لا أستطيع أن أحافظ عليكم من النار ، بل كل واحد يحافظ على نفسه . ولذلك فإن كل عمل تعمله لا تنظر إلى قيمته الدنيوية ، بل احرص على قيمته فى الآخرة . ومادمت قد رضيت ببقية من اللَّه لها بركة ؛ فهذا خير لك من الحرام الذى لا يأتى إلا بالشرّ ، ولا يعطيك إلا كل ما يؤذيك فى الدنيا والآخرة .

الغش أهلك أمة

ماذا كان داء قوم شعيب ؟ الداء الذى كان منتشرا فيهم علمناه من قول اللَّه تعالى : ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء : ١٨١- ١٨٣] . الكيل : ما يقدر به الشىء المكيل . ومثله « الكيلة » فى تقدير الحبوب . والميزان فى تقدير أوزان السلع والبضائع . هناك شىء يكال ، وهناك شىء يوزن . ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ يعنى اجعلوا ما تكيلون به صحيحًا ولا تغشوا فيه . ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ المخسر : هو الذى يُخَسِّر الذى يقابله ، إن كان يشترى فهو يزيد فى وزن السلعة التى يشتريها . وإن كان يبيع فهو يجعلها أنقص من وزنها الحقيقى . فالذى يقابله خسران سواء اشترى منه أو باع له ، هو مخسر فى كلتا الحالتين .

قوله تعالى : ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ « زنوا » أى : اجعلوا آلة الوزن مضبوطة . « القسطاس » هو العدل المطلق الذى فى قدرة البشر . لماذا جاء بالكيل والميزان ؟ هل وسائل العيار أو البيع والشراء هى الكيل والميزان فقط ؟ لا .. فهناك أشياء كثيرة يمكن قياسها بالمتر أو بالذارع . المهم هو العدل فى أداء الاستيفاء فى كل شىء له تقدير .

الآيات ذكرت الكيل والميزان فقط ؛ لأن الأمم فى ذلك الوقت كانت بدائية لا تعرف إلا هذين اللونين من التعامل ، ونحن نعرف أن المبادلات كانت هى وسيلة البيع والشراء فى الأزمنة الماضية ، ولذلك كان الإنسان بائعا ومشتريا فى نفس الوقت ، يعرض سلعة يملكها ويأخذ مقابلها سلعة يحتاجها ، وبالتالى لا يكون البائع بائعا على حدة ، ولا المشترى مشتريا على

حدة . ولم يعرف الناس البيع والشراء بأثمان إلا بعد صكّ العملة .

والسلع التى فيها مقايضة كان فيها انتفاع مباشر ، كل واحد يقايض بالسلعة التى يحتاج إليها . كل سلعة كان فيها بيع وشراء . ولذلك قال الله تعالى فى سورة « يوسف » : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف : ٢٠] قال الله سبحانه : ﴿وَشَرَوْهُ﴾ مع أنهم باعوه . وهكذا لو قدرت أن كل واحد فى الصفقة بائع ومشتر لقلت: شرى وباع . هذا النوع من التعامل الذى كان سائدا فى زمن شعيب عليه السلام ورد ذكره بتفصيل أكثر فى سورة كاملة هى سورة « المطففين » وفيها يقول الله عز وجل : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين : ١- ٣] ، اكتال عليه وكال له .. ما الفرق بينهما ؟ « كال » يعنى أعطى و« اكتال » أى : أن غيره يعطيه . إذا كانت الآية وصفتهم بأنهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ فما ذنبهم ؟

اللوم عليه ؛ لأنه يستوفى عندما يكون الأمر لنفسه وعندما يكون لغيره يطفف و« المطفف » هو الذى يأخذ شيئًا طفيفًا ، فإذا كان الويل لمن أخذ شيئا يسيرا فكيف يكون عذاب من أخذ الكل ؟ إذن .. فالويل للقوم الذين أرسل إليهم شعيب لأنهم كانوا يأخذون الوزن كاملا عندما يشترون لأنفسهم ويبيعونه بالنقص إذا كان لغيرهم . والأصل الشرعى فى البيع والشراء أن تعدل ، فتوفى لنفسك عندما تشترى من غيرك ، وتوفى لغيرك عندما يشترى منك ، والحديث الشريف يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . فلا تكن « أنانيًا » تحب لنفسك الخير وتكرهه لغيرك ، هذا هو الحال المطلوب فى الأخذ والعطاء فى البيع والشراء . فما هو حال من يعطى أكثر ، بمعنى إذا اشترى منه واحد قدرًا معينًا من السلع أعطى له زيادة عليه؟ مثل هذا أجره على الله : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ٩١] .

قول الحق سبحانه : ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء : ١٨٢] يدخل فيه ضرورة القياس المضبوط العادل أيضًا : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ البخس معناه النقص . ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ حقوقهم .

الآيات تنهى عن النقص فى الكيل والميزان عند البيع والشراء . فما هو حال من يغتصب

السلعة كلها ؟ أو يتصرف فيها من غير أمر صاحبها ؟ هذا كله يدخل فى إطار النهى عنه فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ . إذن .. كل شيء ينقص بالأخذ منه ، أو بغصبه ، أو بالتصرف فيه عن غير رأى وإذْنِ صاحبه ، كل ذلك يسمى بخسًا للشيء .

سؤال قوم شعيب

بماذا رد قوم شعيب على ما قاله شعيب لهم ؟ قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود : ٨٧] هنا نلاحظ أن قوم شعيب لم يقولوا له أإلهك أو أدينك يأمرك ، وإنما قالوا : أصلاتك تأمرك .. لماذا ؟ لأن الصلاة هى الركن الدائم فى الإسلام الذى لا يسقط أبدا . فالإسلام بنى على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إيتاء الزكاة يشترط فيه وجود فائض من المال ، ولذلك فإن الزكاة تسقط عن الفقير ، وصوم رمضان يشترط فيه الصحة وعدم السفر ، فالمريض لا يصوم وكذلك المسافر لا يصوم . وحج البيت يشترط فيه الاستطاعة ، فغير المستطيع يسقط عنه الحج .

إذن .. فالزكاة قد تسقط ، والصوم قد يسقط ، والحج قد يسقط ، وقول : لا إله إلا اللّٰه محمد رسول اللّٰه يكفى أن تقال مرة واحدة فى العمر ، ولم يبق من أركان الإسلام إلا الصلاة . الركن الذى لا يسقط أبدا ؛ ولذلك يقول رسول اللّٰه ﷺ : « الصلاة عماد الدين من أقامها أقامه ومن تركها ترك الدين » والصلاة هى الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه خمس مرات كل يوم ، ودوام الولاء للّٰه لا يتوقف ، فالمؤمن يصلى قائمًا ، فإن عجز يصلى قاعدا ، فإن عجز يصلى مضطجعا ، فإن عجز عن الحركة يصلى إيماءً بعينيه وبرمش عينيه ، ويجرى الصلاة على قلبه ، حتى فى حالة الحرب والقتال دائر لا تسقط الصلاة ولكن تقام صلاة الخوف .

إذن .. فقولهم : ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ لأن الصلاة هى الركن الدائم الذى لا يسقط أبدا ، أعطاها اللّٰه سبحانه فى التشريع ، ما يناسب كل تكليفات الإسلام . وكان دين اللّٰه من أوله إلى آخره بوحى من اللّٰه تعالى لجبريل ، ثم ينزل جبريل بالوحى إلى رسول اللّٰه ﷺ ، إلا الصلاة استدعى اللّٰه نبيه عليه الصلاة والسلام إلى سدرة المنتهى فى السماء السابعة ، وهناك

عند سدرة المنتهى كلف الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بالصلاة ، فكانت وحدها بالتكليف المباشر لأهميتها وعظم أمرها .

سؤال قوم شعيب : ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ نعم الصلاة تأمر ؛ لأنك إن أثبت لشيء حكما فإنك أثبت له مقابله ، والله سبحانه وتعالى يقول عن الصلاة : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ومادام الشيء له نهى فله أمر ، إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فلابد أنها تأمر بالإيمان وبالالتزام وبالمعروف ، ولابد أنها تأمر بالخير والبر .

إذن .. فقول قوم شعيب : ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ كان لابد أن يقول لهم : نعم صلاتى تأمرنى ، إن أردت بالصلاة عماد الدين ورمزه ، وبماذا تأمره الصلاة فى هذه الحالة ؟ تأمره بألا يقلد آباءه والناسَ تقليدا أعمى ؛ لأن إيمان المقلد لا ينفع .

قولهم : ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ هى رد على قول شعيب : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود : ٨٤] وقولهم : ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ ردًا على قول شعيب : ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ والله سبحانه وتعالى قد حدد حركة الحياة التى تفسد فى الأرض ، فلو أنه أباح الربا مثلا .. لازداد الغنى غنى ، وازداد الفقير فقرا ، وهذا ما نراه فى عالمنا اليوم ، فالدول الغنية تزداد غنى ، والدول الفقيرة تزداد فقرا ، مما خلق فجوة كبيرة فى العالم تعدد الكتلتين : الغنية والفقيرة ، وبدأت المؤتمرات فى محاولة للوصول إلى حل وسط ، هذا إحدى نتائج الربا : الغنى الفاحش والفقر المُدْقِع الذى يخل بميزان الحياة وتنشأ عنه الحوادث والكوارث والإرهاب والعداء المستحكم بين الشعوب والأفراد . ولذلك قيد الله حركة المال هنا . كذلك تقييد حركة المال فى الميزان حتى لا ينتشر الفساد فى المجتمع ، وتبنى العمارة فتسقط فوق ساكنيها ، وتفسد المرافق ويعانى الناس .

إذن .. فقوانين الله سبحانه وتعالى فى حكم المال وحركته فى الحياة هى لصالح البشر ، وكان يجب عليهم أن يطالبوا بها .

وكلام قوم شعيب هنا : ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ موجودة هنا على شكل تهكم ، فالمنافقون

مثلا كما قال عنهم الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون : ١] كيف يكذب المنافقون وقد شهدوا أن محمدًا رسول الله ؟ ، اللَّه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن المنافقين ينطقون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فهم بألسنتهم يشهدون لمحمد ﷺ بالرسالة ، ولكن هذا الكلام لا يوافق ما فى قلوبهم من كفر .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود : ٨٧] ومادام قوم شعيب يعترفون بأنه الحليم الرشيد ، كان من الأولى أن يتبعوا آياته ؛ لأنه جاءهم بالحق ، ولكنهم لا يريدون الحق ؛ لأنهم يريدون أن يوافقهم على عبادة غير اللَّه ونقص المكيال والميزان ، ويتعجبون كيف يأمرهم بترك هذا وهو الحليم والرشيد .

وأسلوب التهكم يأتى كثيرًا فى القرآن الكريم ، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى عن عذاب ذلك الرجل ، الذى طغى وتجبر وماذا يحدث له فى الآخر ، الملائكة يقولون لهذا الرجل وهم يعذبونه : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان : ٤٩] أيذيقونه كل هذه الذلة ، ثم يقولون له أنت العزيز الكريم .

وفى موقف آخر عن أهل النار : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا﴾ [الكهف : ٢٩] فكأنهم يبشرونهم بأنهم ماداموا قد استجاروا ، واستغاثوا من العذاب ، فإن اللَّه سيغيثهم ، ثم يأتى الغوث ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف : ٢٩] إذن .. فهم استغاثوا من العذاب ، فجاءتهم الإغاثة أشد من العذاب .

وقول قوم شعيب : ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ . هم يتهكمون ، فلو كانوا يؤمنون فعلا بأنه حليم ورشيد لاتبعوه وعلموا أنه لا يمكن أن يأتى بافتراءات أو أكاذيب .

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

بماذا كان رد شعيب عليه السلام على قومه ؟ ، وماذا قال لهم ؟ : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ [هود : ٨٨] أى : يا قوم إن كنت على يقين وحجة ومنهج صادق من ربى ، وأعطانى الخير كله من رزق وعلم ، وأعطانى قبل ذلك كله النبوة . ثم جاء شعيب بالحجة

الدامغة لصاحب المذهب الحق، صاحب الرسالة الصحيحة : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ ؛ ذلك أن صاحب المنهج المعوج والرسالة غير الصادقة، يأمر الناس أن يفعلوا شيئًا وهو يفعل عكسه، يأمرهم مثلا بأن يتبرعوا بأموالهم للفقراء ثم يأخذها هو ليصبح غنيًا، يأمرهم بأن يقاتلوا ويختبئ هو فى مكان أمين، فإذا انتصروا خرج وأخذ الغنائم بلا قتالٍ. وهكذا كل أوامره لا ينفذها هو، وكل نواهيه يفعلها هو، فكأن شعيبًا يقول لقومه : أنا آمركم ألا تنقصوا المكيال والميزان، ثم بعد ذلك أحله لنفسى.

وقوله تعالى : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ هناك خالفه إلى كذا وخالفه عن كذا، فهنا أنا لا أريدكم أن تتركوا نقص المكيال والميزان لأذهب أنا إليه. فمثلًا إذا وجدت إنسانًا يشرب الخمر، ونهيته ثم شربت أنت، فأنت خالفته إلى ما نهيت عنه. ولكن إذا قمت وتوضأت وأذن للصلاة وفات الوقت ولم تصل، ثم جئت إلى رجل تأمره بالصلاة، قال لك تأمرنى بأمرٍ وأنت لا تفعله. إذن .. فالمخالفة هنا عن أن تأمره به.

شعيب يقول : اللَّه سبحانه وتعالى اصطفانى بالنبوة وتلقيت الوحى منه، وربى كلفنى بإبلاغ المنهج وسأكون أول مطبق له، ولن تجدونى أفعل أبدًا ما أنهاكم عن فعله.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى : لا أريد إلا الصلاح .. صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتى، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى : أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقًا بين العمل وبين أن توفق فى العمل، قد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة للَّه سبحانه وتعالى، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق ؛ لأن الأعمال بالنيات وبالإخلاص لله.

وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ حين تسمع إنسانًا يقول : على اللَّه توكلت، قل له : أتوكلت على اللَّه وحده ؟ فإن قال لك : وعليك أيضًا، فاعلم أن مسألته لن تقضى، أما إذا توكل على اللَّه وحده فلابد أن يقضى اللَّه حاجته، ذلك مثل الرجل الذى يدخل المسجد ؛ لأنه يريد أن يتكلم مع فلان الذى دخل إلى المسجد فى أمر من أمور الدنيا، ساعة يحدث هذا يجب أن تقول له : إن اللَّه لن يقضى هذا الأمر. تمامًا كالذى جاء يبحث عن ناقته التى ضلت فى

المسجدِ ، فقال له رسول الله ﷺ ما معناه : « لا رد الله عليك ضالتك » . والذى جاء لعقد صفقة فى المسجد قال له عليه الصلاة والسلام ما معناه : « لا أربح الله لك صفقتك اتسحب الدنيا معك داخل المسجد ؟ » .

وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ غير قول : « توكلت عليه » فإذا قلت توكلت : على الله . قد تعنى أنك توكلت على الله وعلى فلان وعلى فلان . ولكن قولك عليه توكلت ، أى : لا أتوكل على أحد غيره . ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ . أى أرجع إليه ، فالله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم فى البداية ثم إليه مرجعنا جميعًا فى النهاية .

وما دامت المسألة أن التوفيق بيد الله ، وعليه التوكل وإليه العودة ، فأنت غير محتاج إلى غير الله جل جلاله ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ علمنا أن نقول ما معناه : اللهم إنى أستغفرك من كل عمل قصدت به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك . أى دخلت فيه الدنيا ولو قليلًا .

يقول شعيب لهم : ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٨٩] . قوله : ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يعنى لا يجعلنكم تجرمون . أى : عدواتكم لى واختلافكم معى لا يجعلكم تنحرفون إلى الإجرام ؛ لأن عداء قد نشب بينى وبينكم ، أنى جئتكم بمنهج من الله تعالى وأنتم تريدون منهجًا من عند أنفسكم ، فالعداوة من هنا بدأت ، لأنكم تريدون عبادة الأصنام ونقصًا فى المكيال والميزان وإفسادا فى الأرض ؟ ! . الخلاف واضح بين المنهجين وشعيب يحذر قومه : لا تقفوا من منهج الله موقف العداء ؛ لأن الذين سبقوكم عندما فعلوا ذلك أنزل الله عليهم العذاب ، منهم من أغرقوا بالطوفان ، ومنهم أهلكوا بالصاعقة ومنهم من أخذتهم الصيحة ، لا تغريكم العداوة لى أن تجرموا جرمًا يصيبكم به مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

ويذكرهم : ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٨٩] أى أن قوم لوط قريبون منكم مكانًا وزمانًا ، ولو أنكم فكرتم قليلًا لعدتم إلى الله تبارك وتعالى ، ذلك أنه إذا كان العبد مصرًا على شيء من المعصية ، فالله تعالى لا يغلق أمامه باب التوبة أبدًا ، يكون العبد عاصيًا ولكن كما أخبرنا رسول الله ﷺ : « إن الله أفرح بتوبة العبد من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى

فلاة » وانظر إلى الصورة جيدًا لتتأمل عمقها ، عندما يكون هناك إنسان معه بعير « جمل » وعليه كل ما يملك ، طعامه وماله وملابسه وشرابه ، ثم يتوه منه البعير فى صحراء قحلة ليس فيها أى شيء ، ويبحث الرجل عنه فلا يجده ، وينام ثم يستيقظ فيجد البعير الذى عليه كل ما يملكه واقفًا إلى جواره ، كيف تكون فرحته بعودة هذا البعير إليه ؟ اللَّه سبحانه وتعالى أشد فرحًا بتوبة عبده من صاحب هذا البعير بعودة بعيره .

ولذلك يقول شعيب لقومه كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود : ٩٠] أى : رغم كل ما فعلتموه فإن باب التوبة مفتوح ، ولا يتطلب منكم إلا أن تستغفروه . ومادمتم طلبتم المغفرة فسيقبلكم فتوبوا إليه ، أى استغفروا من الذنوب التى سبقت ، وتوبوا إليه فلا تعودوا لهذه الذنوب أبدًا . والله تبارك وتعالى رحيم ودود ، لا يرد من يقف ببابه ، رحمته سبقت عذابه ، ومغفرته تسع الذنوب جميعًا . والله رحيم واسع المغفرة ، ودود محب لعباده .

كان المفروض وقد لفتهم شعيب إلى الطريق إلى اللَّه سبحانه وتعالى والعودة إليه أن يعودوا ؛ لأن اللَّه تبارك وتعالى محب لهم عطوف عليهم . وفى الحديث القدسى يقول اللَّه عز وجل : « يا ابن آدم لا تخف من ذى سلطان مادام سلطانى باقيًا فسلطانى لا ينفد أبدًا ، يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبدًا . يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب وضمنت لك رزقك فلا تتعب . فوعزتى وجلالى إن رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك وكنت عندى محمودًا ، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك ، يا ابن آدم خلقت السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن أيعيينى رغيف عيش أسوقه لك ! ! يا ابن آدم لا تسألنى رزق غد كما لم أطلب منك عمل غد ، يا ابن آدم أنا لك محب فبحقى عليك كن لى محبًا » .

ولولا رهطك لرجمناك

عندما لفت شعيب قومه إلى أن اللَّه سبحانه وتعالى رحيم ودود وطلب منهم أن يستغفروه ليغفر لهم ، ويتوبوا إليه .. ماذا قالوا ؟ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ

فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود : ٩١] لا نفقه أي : لا نفهم ، فعندما يكون القلب مشغولًا بالكفر لا يوجد فيه مكان للإيمان ، ولكى يدخل الإيمان إلى القلب لابد أن يخرج منه الكفر أولًا ، ولذلك فإن الإنسان المشحون قلبه بالكفر لا يدخل قلبه الحق ، فهم قالوا لشعيب : إننا لا نفهم شيئًا مما تقوله ، ثم أضافوا : ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي أنت ضعيف لا قوة لك بحيث تستطيع أن تتحمل هذا الرجم ، وهذا إقرار بإعجاز النبوة ؛ لأنه مع أن شعيبًا ضعيف وهم أقوياء ، إلا أنهم لم يقدروا عليه ، فالضعيف يصرخ في وجوههم بالحقيقة ، والأقوياء يقولون : أنت ضعيف ولكنهم لا يفعلون شيئًا ، بل يتعللون .

ولذلك قالوا : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود : ٩١] رهطك يعنى أهلك ، والرهط : الجماعة من الرجال خاصة من ثلاثة إلى تسعة ، ورهط الرجل : قومه وقبيلته . لماذا يخشى قوم شعيب أهل هذا النبى ويمتنعون عن قتله ؟ إما أن يكون هؤلاء الأهل مع الكفار ، ولذلك فهم يخافون إن اعتدوا على شعيب أن يغضب قومه الذين هم مع الكفار ويعلنون إيمانهم وحينئذٍ يقوى جانب شعيب وقد يتبعه آخرون . والله سبحانه وتعالى يسخر الكفر دائمًا لخدمة الإيمان ، عم رسول الله ﷺ الذى كفله ورباه هو أبو طالب ، الذى ظل على كفره ومات كافرًا ، ولكنه قال لابن أخيه : قل ما شئت من الدعوة وأنا معك ، ورغم أن أبا طالب وقف حاميًا لرسول الله ﷺ من أذى كفار مكة وعلى رأسهم قريش ، فإنه ظل على دينه ومات كافرًا .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي : نحن لا نفهم ما تقوله والحقيقة أنهم لا يريدون أن يفهموا ، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ لا تتحمل وقوفا أمامنا . ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي لولا أهلك لقتلناك رجمًا بالحجارة . ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي أنت لا تعز علينا ، ليس لك مَنَعَةٌ عندنا ولا عزة ، نستطيع أن نأتى بك فى أى وقت ، وأن نفعل بك ما نشاء .

ماذا كان جواب شعيب ؟ هل خاف وهرب وهو الضعيف الواقف وحده وهم الأقوياء بعددهم وبتضامنهم وبقدرتهم ؟

قام شعيب عليه السلام يذكر قومه بمن هو أقوى منهم : ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود : ٩٢] أي أنكم تخافون عائلتى وهم عدة أفراد ، فتمتنعون عن إيذائى خوفًا منهم ،

ولكنكم لا تخافون اللّه القادر على أن يهلككم بينما أن رسول اللّه يحمينى بقوته وقدرته . كان المفروض أن يتذكروا اللّه أولًا ، وكان قوم شعيب يعتقدون أنهم ماداموا قد قالوا : ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ فإنه سيحتمى برهطه ؛ لأنهم هم الحماية له ، ولكن الذى قال : على اللّه توكلت . لا يحتمى بأحد غير اللّه سبحانه وتعالى ، بل إنه يلوم قومه ، كيف يخشون قوة عدد محدود من الرجال ولا يخشون قوة الله ؟ !

وقوله تعالى : ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود : ٩٢] ، أى : أنتم جاملتم رهطى ، وإكرامًا لهم لم ترجمونى ، ولكنكم نسيتم اللّه سبحانه وتعالى ، الذى تأتى منه العزة جميعًا ، وقال : ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ ساعة تقول : أنت طرحت فلانًا وراء ظهرك . يعنى أنك جعلته بعيدًا عن الصورة بالنسبة للأحداث ولم تحسب له حسابًا ولم تخشه ، شعيب يقول لهم : أنتم لم تأبهوا بعزة اللّه سبحانه وتعالى ، وبحماية اللّه وبقدرة الله ، ولكنكم التفتم إلى خلق لا حول لهم ولا قوة ، ثم يلفتهم إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعلم كل ما يفعلونه ظاهرًا وباطنًا فيقول : ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ أى : يعلم ما تفعلونه علم إحاطة لا يخفى عليه شيء ، ولكنكم أنتم نسيتموه وخفتم بعض خلقه أو رهطًا من خلقه .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ قلنا : إن هناك عملًا وهناك فعلَ العمل يطلق على ما يحدث ، أى شيء يحدث يقال له عمل ، وجوارح الإنسان كثيرة اختص اللّه سبحانه وتعالى منها اللسان بالقول والجوارح كلها بالفعل ، فالقول هو عمل اللسان ، والفعل هو عمل كل الجوارح ، عمل العين وعمل الأذن وعمل اليد وعمل القدم وكل شيء . ولكن إذا طابق القول الفعل ، أى عندما نقول قولا يقابله فعل يكون هذا عملًا ، ولذلك نجد قول الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف : ٢، ٣] وهكذا فصل الحق سبحانه وتعالى بين الفعل والقول ، ولكن لماذا اختص الحق تبارك وتعالى اللسان بالقول وكل الجوارح بالفعل ؟ لأن القول هو وسيلة الإعلام الأولى عن اللّه جل جلاله .

ثم يقول شعيب لهم كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود : ٩٣] نلاحظ هنا أن شعيبًا قد أخذ لهجة التهديد .. لماذا ؟ لأنهم خافوا من أهله

ونسوا اللَّه تعالى ، فأراد أن يعلمهم أنه مستند إلى أقوى قوة ، وهى التى خلقت هذا الكون ، وهو يأوى إلى هذا الركن الشديد ، وكأنه يقول لهم افعلوا ما تستطيعون ، افعلوا ما فى وسعكم ، وسأفعل أيضًا ما فى وسعى ، فأنا آخذ أوامرى من اللَّه تعالى الذى بعثنى ، وأنتم بشر ضعاف من خلقه والله هو القوى . ولذلك فأنا مستغيث به ، اعملوا أنتم على قدر إمكاناتكم أى على قدر ما تستطيع الدنيا أن تعطيكم بأسبابها ، وأنا سأعمل ، سأعمل ماذا ؟ سيبشر بالمنهج وبما جاءه من الله ، ولن أسكت عن الدعوة ، وسوف تعلمون قريبًا من يأتيه العذاب والخزى فى الدنيا والآخرة . سيبين لنا الزمن المستقبل من الذى يأتيه العذاب والخزى ، ومن الذى يكون له النصر .

والخزى هو الفضيحة بين الخلق ، وإصابة النفس بالهوان هى الفضيحة فى ذات النفس . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ . أى من الذين سيأتيهم العذاب الذى يفضحهم؟ ومن هو الكاذب ومن هو الصادق ؟ وشعيب يقصد هنا طبعًا أن هؤلاء الذين رفضوا الإيمان وكذبوه سوف يأتيهم العذاب ، وأنهم سيعلمون من هو صادق ومن هو كاذب ، فهم سيسلط اللَّه عليهم عذابًا يفضحهم بين الخلق ويهينهم فى أنفسهم .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ . كان المنطق أن يقال ومن هو صادق : ولكن الحق سبحانه وتعالى جاراهم فى منطقهم ، فلم يقل ومن هو صادق ، ولكنه قال : ﴿وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود : ٩٣] . وذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ : ٢٤] . كيف يمكن أن يقال للقوم الكافرين : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كيف هذا ؟ إن رسول اللَّه ﷺ ومن معه يقينًا على الهدى والمسألة لا تحتاج إلى تشكيك ، إنما هذا اسمه مجاراة الخصم ، يريد اللَّه سبحانه وتعالى أن يقول : إن الضلال والهدى لا يجتمعان أبدًا ، ونحن مختلفون لا نجتمع على رأى ، فلابد أن أحدنا على هدى والآخر على ضلال ، وسنترك الزمن يكشف لنا من على هدى ومن على ضلال .

تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين

ماذا قال الكافرون من قوم شعيب عندما جاءهم هذا الترغيب وهذا الترهيب من اللَّه تعالى ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ

بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧، ٨٨] . الملأ الذين استكبروا هم السادة والأعيان والمترفون الذين يقفون أمام كل دعوة حق ؛ لأنها ستسلبهم الميزات التي يتمتعون بها من أكل حقوق الناس وظلمهم . ماذا قال الذين استكبروا ؟ قالوا : لنخرجنك يا شعيب من قريتنا . وهكذا ارتكبوا نفس المعصية التي ارتكبها قوم لوط حين قالوا : ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ﴾ [النمل: ٥٦] وكلمة قرية قد أخذت الآن معنى غير معناها الحقيقي ، فهي الآن البلدة الصغيرة التي يسكنها عدد محدود من الناس . ولكن القرية في اللغة معناها : المكان الذي تتوافر فيه كل متطلبات الحياة ، بدليل أننا نقول على مكة المكرمة أم القرى .

ومعنى تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين أنهم سيخرجونهم من المكان الذي تتوافر فيه كل متطلبات الحياة إلى مكان قفر لا يصلح للحياة ، فكأن المترفين من الذين يقاومون المنهج قد أعطوا لشعيب ومن آمن معه خيارين ، إما أن يعودوا كفارًا أو يخرجوا من القرية ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨] معناه أن الذين آمنوا بشعيب كانوا يعتنقون ملة أهل القرية ، ثم خرجوا منها وآمنوا بالله وبرسالة شعيب ، وهم يريدونهم أن يعودوا إلى الكفر .

ولكن لابد أن نتنبه هنا إلى أن الخطاب موجه لشعيب ؛ لأن الخطاب أخذ شعيبًا والذين آمنوا معه ، ومن آمن مع شعيب من الجائز أنه كان على ملة القوم أولًا ثم آمن ، ويطلبون منه أن يعود مرة أخرى إلى ملتهم ، أما شعيب نفسه فلا يعقل أنه كان على ملة القوم ، ولكن الخطاب هنا هو تغليب للكثرة ، فالكثرة من المؤمنين مع شعيب كانوا في ملة القوم ، ثم آمنوا ويطلبون منهم العودة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ، وهنا لابد أن نتنبه إلى قول الحق : ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ . فعندما كان هؤلاء في الظلمات لم تكن قد بلغتهم الرسالة ، فكيف يصفهم الله سبحانه وتعالى بالذين آمنوا أي نفى عنهم الكفر ، ثم يقول إنه أخرجهم من الظلمات إلى النور ؟ نقول إن : التكليف بالنسبة للإنسان موجود في خلقه مختارًا .

فالإنسان ما دام قد خلق مختارًا فهو يستطيع أن يتبع سبيل الإيمان أو أن يتبع سبيل الكفر ، وكونه يختار اتباع الإيمان يكون قد ترك اتباع الكفر ، فكأنه خرج من قدرة اختياره لسبيل الكفر واتبع قدرة اختياره لطريق الإيمان . ومن هنا فإن خروج الإنسان من الظلمات إلى النور لا يعنى بالضرورة أنه كان كافرًا ، إنما يعنى أنه خرج من قدرته على اختيار سبيل الكفر ، إلى قدرته على اختيار طريق الإيمان . وهنا يستقيم المعنى ويصبح المقصود بالنسبة لشعيب أنه خرج من القدرة على اختيار سبيل عدم الإيمان إلى القدرة على إختيار طريق الإيمان ، وهذا ما يحدث بالنسبة للمؤمنين .

شعيب يحتكم إلى الله تعالى

بماذا رد شعيب عليه السلام على القوم الكافرين : ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا﴾ [الأعراف : ٨٨، ٨٩] . نلاحظ هنا أن شعيبًا والمؤمنين معه قد أعلنوا كراهيتهم للعودة إلى الكفر ، ونلاحظ أيضًا أن الكفار فى كلامهم قد نسوا الله ، فخيروا شعيبًا بين أن يعود لملتهم أو يخرج من قريتهم . ونسوا أن اللّٰه سبحانه وتعالى قد قسم شيئًا غير هذين الاختيارين ، كأن يكون قد قسم أن يهلك هؤلاء الكافرين ويبقى المؤمنون فى القرية ، فلا يخرج المؤمنون من القرية ولا يعودون إلى ملة الكافرين . وقول شعيب : ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أى : أننا ضيقنا النطاق على قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى ، فالكذب هو أن تقول كلامًا غير الواقع ، فإذا كنت لا تعرف الحقيقة فهذا مطلق كذب ، وإذا كنت تعرف الحقيقة فهذا إفتراء كذب ، وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون : ١] . نقول : إن المنافقين كذبوا حين قالوا : نشهد إنك لرسول الله . والشهادة هى أن يوافق اللسان ما فى القلب ، والمنافقون شهدوا ولكن قلوبهم منكرة لهذه الشهادة ، فهم يقولونها باللسان وقلوبهم منكرة لها فقد كذبوا حين قالوا : نشهد [إنك لرسول الله] .

إذن .. فقوله تعالى : ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف : ٨٩] دليل على أن المؤمنين يعرفون أن دين اللّٰه هو الحق ؛ ولذلك إذا عادوا لملة

الكافرين يكونون قد افتروا الكذب ؛ لأنهم يعرفون الحقيقة ويقولون غيرها ، وقول الحق : ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أى أن اختيارنا كان إلى جانب الحق فنجونا ، أما قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف : ٨٩] ، هذا الكلام يذكرنا الحق فيه بطلاقة القدرة للَّه تعالى ، فالله يفعل ما يشاء متى شاء ولا قيد على قدرته ، ورسول اللَّه ﷺ قال : « إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن » . والخليل إبراهيم قال : ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ، فكأنه سلم للحق سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة فى كونه ، فما شاء اللَّه كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقول شعيب عليه السلام : ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أعطى طلاقة القدرة للحق سبحانه وتعالى وفى نفس الوقت اللَّه سبحانه وتعالى لا يشاء العودة للكفر لمعصوم ، وقول الحق : ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف : ٨٩] ، أى : أن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم كل ما يتم وما يقع الآن من المستكبرين ، وإذا كان مع هؤلاء المترفين قوة الدنيا فإن شعيبًا والذين آمنوا معه قد توكلوا على اللَّه وأسلموا أمرهم له ، وما دام معهم اللَّه فشعيب والمؤمنون هم الأقوى .. وهم المنصورون .

ثم بعد ذلك ماذا قال شعيب والمؤمنون بعد أن أعلنوا أنهم توكلوا على الله : ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ حينما نسمع كلمة فتح نفهم أن هناك شيئًا مغلقًا ونريد أن نزيل إغلاقه وأن نفتحه . والحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة « يوسف » عندما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم وهم يحملون البضائع التى أحضروها : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف : ٦٥] ، ومعنى فتح المتاع هنا أنهم أزالوا كل ما كانوا يحيطون به أمتعتهم من سلاسل وأحبال ، هذا فتح حسى . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر : ٧١] . وما دام هناك أبواب يكون الفتح حسيًا . ولكن هناك فتحًا معنويًا فى قوله تعالى : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة : ٧٦] ، وهذا حديث اليهود ليخفوا عن المسلمين ما أنزل اللَّه فى التوراة ، فكأنما إنزال التوراة من اللَّه فتح ولكنه فتح معنوى ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر : ٢] ، وقوله جل جلاله : ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

[الأعراف : ٩٦] ، وكان القاضى فيما مضى يسمى الفاتح لأنه يزيل الإشكالات . ولكن قول شعيب وقومه : ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ ، أى : يا رب احكم بيننا وبين قومنا وأنت لا تحكم إلا بالحق : ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ .

ماذا رد الكافرون من قوم شعيب ؟ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٠] ، الخطاب هنا من الكافرين لمن ؟ للذين آمنوا أم للذين كفروا ، ما دام المتحدثون هم الكفار ، وما دام المؤمنون قد اتبعوا شعيبًا وآمنوا به يكون الخطاب هنا من أئمة الكفر لأتباعهم ، فلابد أن الكافرين قد وجدوا أتباعهم بدءوا يميلون إلى الإيمان مما رأوه من قوة وشجاعة وثبات الذين معه . ولذلك حذرهم سادتهم بقولهم : ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ، نلاحظ هنا إستخدام اللام الشرطية ، وعندما تستخدم اللام الشرطية لابد أن يأتى جواب الشرط ، وجواب الشرط هنا ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ماذا سيخسر هؤلاء الأتباع ، سيخسرون إيواء السادة لهم وسيخسرون نزواتهم التى يقيدها المنهج .

قوم شعيب يستعجلون العذاب

بعد أن فَصَّلَ شعيب عليه السلام لقومه ما هو مطلوب منهم ، ماذا كان ردهم على نبيهم ؟ قال تعالى : ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء : ١٨٥، ١٨٦] ، نحن قلنا : المسحر هو من سحره سواه ، وهذه مبالغة فى الفعل لأن الفعل سحر مفعوله مسحور . لكن سَحَّرَ - بتشديد الحاء وفتحها - مفعولها مسحر وهى للمبالغة فى السحر . والمعنى أنهم يصفون رسولهم بأن عقله مختل وأن الناس قد سحروه ، وما دمت مسحورًا فلن نسمع لكلامك لأنه كلام مجنون . وقولهم : ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ . قوم صالح عليه السلام قالوا له : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء : ١٥٣، ١٥٣] .

وقوم شعيب قالوا له هنا : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فزادت هنا الواو فى قولهم : ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فهناك اتفاق فى اتهام الرسل فى شيئين بأنهم مسحورون وأنهم مثلهم . وما دام مسحرًا فلن يسمعوا له لأنه مجنون ، وما دام بشرًا مثلهم فلماذا يتميز عليهم بالرسالة ؟ هم كانوا يقولون لأنبيائهم ذلك ويطلبون منهم الآيات الدالة على

صدق رسالتهم ، ولذلك قالوا لشعيب عليه السلام : ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فأنت بشر مثلنا وما نظنك إلا من الكاذبين وإن كنت صادقًا فيما تقول فأسقط علينا قطع العذاب من السماء .

قال تعالى : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فهم يستعجلون نزول العذاب عليهم ، والعجيب أن كل قوم كذبوا رسولهم واستعجلوا نزول العذاب عليهم ، حينما يحل بهم العذاب يدعون الله أن يكشفه عنهم أو أن ينظرهم إلى وقت آخر أو يعطيهم الفرصة للتوبة . والكسف جمع كسفة مثل قطع وقطعة ، وكلمة كسف جاءت على لسان جميع الذين كذبوا الرسل ، فالكفار فى مكة قالوا لرسول الله ﷺ مثل ذلك : واقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٩ - ٩٢] ، وفى آية أخرى قالوا : ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وهذا دليل على حماقتهم ؛ لأنهم لو كانوا عقلاء لقالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ووفقنا لاتباعه . ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب ، واستعجلوا العقوبة .

ولكن ماذا كان رد نبى الله شعيب عليهم ؟ : ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ، أى ربى يعلم أحوالكم ومطلع على سرائركم ، فإن كان سبحانه يعلم أن فى قلوبكم خيرًا ، وأنكم ستندمون وتتوبون إليه سيؤخر عنكم العذاب ويحفظكم منه وإذا علم أنكم مستمرون على كفركم وعنادكم فسينزل عليكم العقاب الذى تستحقونه من عذاب الهلاك والاستئصال . فأنا لا أعلم ما سيفعله بكم ربى ولكنى أكِلُ الأمر لصاحب الأمر الذى يعلم أمرى وأمركم . ولكن ماذا كان موقفهم ؟ استمروا فى تكذيبهم .

وأخذت الذين ظلموا الصيحة

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود : ٩٤] ، وفى آية أخرى

يقول الحق : ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود : ٦٧] بدون تاء التأنيث ، نقول : إن القرآن جاء على لغة قريش ، وليس هذا لعلو قريش ، ولكن لأن لغة قريش مصفاة من لغات جميع القبائل ؛ لأن القبائل كلها كانت تأتى للأسواق والحج ، فتأخذ قريش صفوة اللغة . ولكن ليس معنى هذا أن اللغات الأخرى تطمس ، لا .. فيؤتى من كل لغة بكلمة أو كلمات حتى لا تأخذ قريش سيادة إسلامية بلغة القرآن كما كان لها سيادة جاهلية ، فتأتى مرة تاء التأنيث فى المؤنث الحقيقى ، فيقال : الصيحة ، والغرفة ، والحجرة هذا مؤنث صحيح ، وهناك مؤنث مجازى ، أى يتجاوزون فيه ؛ فمرة تأتى تاء التأنيث ومرة لا تأتى ، فصل بين التاء وبين الفاعل ، الفاصل يكون قائمًا مقام التأنيث ، فمرة يقول : ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ ، ومرة يقول : ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ .

قول الحق : ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ، كلمة : ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ تدل دائمًا على العذاب . ولذلك نجد فى آية : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ﴾ [هود : ٨١] وفى آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر : ٣٨] وفى آية أخرى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل : ٥٨] ووقت الصبح هو وقت الهجعة بالنسبة للغافل النائم طوال الليل ، وما زال ناعسًا فى نومه : ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ كان من المفروض أن يقول : دارهم وليس ديارهم . ولكن القرآن احتاط أن يكون واحد منهم فى مكان آخر أو فى عمل أو فى زيارة ؛ ولذلك قال : ﴿فِي دِيَٰرِهِمْ﴾ ، ولقد كان أحدهم فى مكة فلم تصبه الحجارة ؛ لأن اللَّه جعل بيته آمنًا ، وعندما عاد كانت تنتظره ، فكأنها كانت تتبعهم أو تنتظرهم . وقوله تعالى : ﴿ جاثمين﴾ الجيم والثاء حينما يوجدان ، بصرف النظر عن الحرف الثالث الموجود فى الوسط ، مثل جدث الجيم والثاء تعنى شيئًا من الهلاك أو شيئًا من المصائب . فقوله تعالى : ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ . أى ملقون على بطونهم ليس بهم حراك .

وقوله تعالى : ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ﴾ [الجاثية : ٢٨] أى : على ركبتيها دليل الذل والخضوع ، والجثة لا تقال إلا للميت ، وكل إنسان يكون له شأن فى الدنيا . ولكن فى اللحظة التى يموت فيها ، ينسى كل شىء حتى اسمه ، ويلقب بالجثة ، فيقال غسلوا الجثة ، كفنوا الجثة ، ادفنوا الجثة .. انتهى من الدنيا فإذا وضع فى النعش سمى الخشبة . فإذا وضع فى القبر نسيه الناس ، لا تقبله إلا أمه الأرض ، تمتص كل ما ينزل منه من صديد وروائح كريهة ، كل

الناس تتأبى عليه إلا أمه الأرض ، هي التي تتقبل منه كل شيء ، والإنسان وهو حي ما دام فيه الروح يكون إنسانًا ، فإذا مات وخرجت الروح يصبح جثة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ أي : كأنهم لم يوجدوا فيها ، تمر على هذه الديار فلا تشعر أنهم كانوا يعيشون ، واقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس : ٢٤] أي كأن لم يعش فيها أحد من قبل ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [يونس : ٩٥] ، « ألا » عندما تسمعها فى القرآن أو فى أى كلام عربى ، فهى أداة استفتاح يفتتح بها الكلام وليس لها دلالة ، وإنما هى لتنبيه السامع ، والمتكلم قبل أن يتكلم تكون هناك نسبة ذهنية فى عقله ، فإذا بدأ الكلام فإنه متنبه لما يقول ، ولكن السامع قد يكون فى عقله شيء آخر ، أى لا يكون منتبهًا لما سيقال ؛ ولذلك فعندما يبدأ المتكلم الكلام ينبه السامع بكلمة « ألا » . ولذلك تجد فى القرآن الكريم آيات كثيرة على هذا النحو ، منها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس : ٦٢] ، وقوله سبحانه : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ١٢] كلها لتنبيه السامع .

قوله تعالى : ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود : ٩٥] ، كلمة : ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ ، معناها أنك تدعو عليه بالبعد ، أى أنهم مروا وهلكوا وانتهوا ، فبعدًا لكل ما كان منهم . مادة الباء والعين والدال ، تستعمل استعمالين : مرة تريد بها الفراق مثل لقاء لا تحب أن يقع فتقول : بعدًا ، وفى الموت تقول : بعدًا : ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أى أن الذى أخفى ثمودًا ، وما فعلت وما حدث لها ، يخفى قوم شعيب .

نلاحظ هنا فى عهود هذه الرسالات أن العالم كان منعزلًا حتى إنه تم إرسال رسولين فى وقت واحد ، هما إبراهيم ولوط عليهما السلام ، وكان كل منهما يعالج داء من الداءات فى وقت واحد ، ولكن سبق فى علم الله أن العالم سيتوحد ، وبالتالى ستصبح الأمراض والداءات واحدة ، ولذلك جاءت وحدة المعالجة ممثلة فى رسالة رسول الله ﷺ . ونحن نرى الآن كيف

أن العالم يصبح أصغر فأصغر كل يوم ، لا من ناحية الحجم ، ولكن من ناحية وحدة الداءات ووحدة المعالجة .

ويقول تبارك وتعالى فى آية أخرى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف : ٩١] ، و﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ هى الهزة العنيفة التى ترج الإنسان رجًا ، و﴿ جاثمين ﴾ أى : جالسين على ركبهم وقد ماتوا على هذه الهيئة إمعانًا فى إذلالهم فهم استكبروا فى الأرض فأراد الحق أن يميتهم أذلاء .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٩٢] أى أن القرية التى كانت غنية بمن كذبوا شعيبًا ، وغنى بالمكان أى أقام فيه مدة طويلة . و﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أى : خسروا كل شىء ، جاه الدنيا ونعيم الآخرة ، ماذا فعل شعيب بعد أن أخذ اللّه الكافرين بالعذاب ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف : ٩٣] فكأن شعيبًا قال للكافرين بعد أن أخذتهم الصيحة أنه قد أبلغهم رسالة اللّه ونصح لهم وألح عليهم أن يعودوا إلى رشدهم فهو لم يقصر فى حقهم .

أصحاب الأيكة

قال تعالى : ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ [الحجر : ٧٨] الأيكة مفرد أيك ، والأيك هو الشجر الكثير الملتف والمثمر . وشعيب عليه السلام أُرسل إلى أهل مدين وإلى أهل الأيكة ، ومدين بلد ، أما أصحاب الأيكة فكانوا مثل ضاحية بينهم وبين البحر ، وكان فيها الشجر الملتف ، ولذلك قال ربنا سبحانه عن « سدوم » وهى بلد قوم لوط : ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر : ٧٦] ولكن هنا قال : ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قد يقول قائل : من أين جاءت هذه التثنية مع أنه يتحدث عن أصحاب الأيكة فقط ؟ نقول : إنه ضم إليها مدين أيضًا .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ، الإمام هو ما يؤتم به فى الحركات والسكنات ، وما يؤتم به فى الفتيا وفى الرأى . وكذلك يطلق على الطريق المؤدى إلى الغايات المختلفة « إمام » لأنه يدلنى على الأماكن التى أريدها ، وله بدء وله منتهى ، وفى كل جزئية منه « من » و« إلى » التى نرقمها الآن بالكيلو مترات . ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أى : مدين وأصحاب الأيكة ، ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أى

طريق واضح، هذا الطريق الواضح يأتم به السائر.

وقد قال الحق سبحانه وتعالى فى سورة «الشعراء»: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] لما استمر القوم فى تكذيبهم لرسولهم وتمسكوا بضلالهم وكفرهم عاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، وهو عذاب مشهور حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام، وحجز عنهم الريح إلا بمقدار ما يمسك رمق الحياة فصارت حياتهم لا تطاق من شدة الحر، فالتمسوا غمامة تظلهم رأوها قادمة فى الجو فهرعوا نحوها مسرعين فلما اقتربوا منها أنزلت عليهم نارًا أحرقتهم وأبادتهم.

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] وعذاب يوم الظلة كان عذابًا عظيمًا ليس لقوته وإحاطته بهم فقط، ولكن لأنه عذاب جاء بعد طمع فى راحة؛ لأنهم ظنوا أن هذا السحاب سيظلهم وينزل منه المطر الذى يرويهم ويرطب أجواءهم فكان منه العذاب الذى أحرقهم وأبادهم.

ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠] قوله: ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من مواكب الرسل، وما حدث للرسل وما حدث لأممهم.

ويقول تعالى فى موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣] فالمعنى: أن فى ذلك الذى حدثتم به من قصص الأنبياء السابقين مع أممهم وما آلوا إليه من نصر الأنبياء ودحر الكافرين عبرة لكم؛ لأن معنى «آية» أى عبرة، ونحن قلنا: كلمة عبرة أى تعبر من شىء إلى شىء. فهم قوم عندهم لدد وخصومة؛ فحتى يعتبروا، عليهم أن يعبروا من هذا الموقف المعادى إلى الإيمان، ولذلك نقول: «نحن نعبر الطريق»؛ لأننا ننتقل من مكان إلى مكان. فالعبرة أن تنتقل من حال أنت عليها من لدد وجحود وكبرياء عن اتباع الرسل إلى الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠] حماية لأن منهم من قد يهتدى إلى طريق الحق ويؤمن.

ذكر قصة نبى الله يعقوب عليه السلام

قال ابن كثير : ذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج « رفقا » بنت بتوابيل فى حياة أبيه ، كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقرًا فدعا الله لها فحملت ، فولدت غلامين توأمين : أولهما اسمه « عيصو » وهو الذى تسميه العرب « العيص » وهو والد الروم . والثانى خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه « يعقوب » وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل .

قالوا : وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب ، لأنه بِكره ؛ وكانت أمهما « رفقا » تحب يعقوب أكثر ؛ لأنه الأصغر .

قالوا : فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعامًا ، وأمره أن يذهب فيصطاد له صيدًا ويطبخه له ؛ ليبارك عليه ويدعو له ، وكان العيص صاحب صيد ، فذهب يبتغى ذلك ، فأمرت « رفقا » ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ، ويصنع منهما طعامًا كما اشتهاه أبوه ، ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له ، فقامت فألبسته ثياب أخيه ، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين ؛ لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك . فلما جاء به وقربه إليه قال : من أنت ؟ قال : ولدك . فضمه إليه وجَسَّه وجعل يقول : أما الصوت فصوت يعقوب ، وأما الجس والثياب فالعيص . فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدرًا ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده ، وأن يكثر رزقه وولده . فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره والده فقربه إليه ، فقال له : ما هذا يا بنى ؟ قال : هذا الطعام الذى اشتهيته ، فقال : أما جئتنى به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك ؟ فقال : لا والله ، وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك ، فوجد فى نفسه عليه وجْدًا كثيرًا .

وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما ، وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى ، أن يجعل لذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم .

فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب ، أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها « لابان » الذى بأرض حرَّان ، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه ، وأن يتزوج من بناته ، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له . ففعل .

فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم ، فأدركه المساء فى موضع فنام فيه ،

وأخذ حجرًا فوضعه تحت رأسه ونام ، فرأى فى نومه ذلك معراجًا منصوبًا من السماء إلى الأرض ، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب تبارك وتعالى يخاطبه ، ويقول له : إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك ، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك .

فلما هب من نومه فرح بما رأى ، ونذر للَّه لئن رجع إلى أهله سالمًا ليبنينَّ فى هذا الموضع معبدًا للَّه عز وجل ، وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون للَّه عشره ، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرفه به ، وسمى ذلك الموضع : « بيت إيل » أى بيت الله ، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتى . قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران ، إذا له ابنتان : اسم الكبرى : « ليا » واسم الصغرى « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما ، فخطبها من خاله فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين ، فلما مضت المدة على خاله « لأبان » صنع طعامًا وجمع الناس عليه ، وزف إليه ليلًا ابنته الكبرى « ليا » وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر ، فلما أصبح يعقوب إذا هى « ليا » فقال لخاله غدرت بى ؟ وأنت إنما خطبت إليك « راحيل » . فقال : إنه ليس من سُنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها .

فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها . وكان سائغًا فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة . وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ ؛ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته ؛ لأنه معصوم ، ووهب « لابان » لكل واحدة من ابنتيه جارية ، فوهب لـ « ليا » جارية اسمها « زلفى » ووهب لـ« راحيل » جارية اسمها « بلهى » . وجبر اللَّه تعالى ضعف « ليا » بأن وهب لها أولادًا ، فكان أول من ولدت ليعقوب ، روبيل ، ثم شمعون ، ثم لاوى ، ثم يهوذا ، فغارت عند ذلك « راحيل » وكانت لا تحبل ، فوهبت ليعقوب جاريتها « بلهى » فوطئها فحملت ، وولدت له غلامًا سمته « دان » وحملت وولدت غلامًا آخر سمته « نيفتالى » فعمدت عند ذلك « ليا » فوهبت جاريتها « زلفى » ليعقوب عليه السلام فولدت له : جاد ، وأشير ، غلامين ذكرين ثم حملت « ليا » أيضًا فولدت غلامًا خامسًا منها وسمته « إيساخر » ثم حملت وولدت غلامًا سادسًا سمته « زابلون » ثم حملت وولدت بنتًا سمتها « دينا » فصار لها سبعة من يعقوب . ثم دعت اللَّه تعالى « راحيل » وسألته أن يهب لها غلامًا من يعقوب ، فسمع اللَّه نداءها وأجاب دعاءها ، فحملت من نبى اللَّه يعقوب ، فولدت له غلامًا عظيمًا شريفًا حسنًا

جميلًا سمته « يوسف » .

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران ، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى ، فصار مدة مقامه عشرين سنة .

فطلب يعقوب من خاله « لابان » أن يسرحه ليمر إلى أهله ، فقال له خاله : إنى قد بورك لى بسببك فسلنى من مالى ما شئت . فقال : تعطينى كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أَبْقَع وكل حمل مُلْمع أبيض بسواد ، وكل أملح ببياض ، وكل أَجْلَح أبيض من المعز . فقال : نعم .

فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس ، لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات ، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم . قالوا : فعمد يعقوب عليه السلام إلى قطبان رطبة بيض من لوز ولب ، فكان يقشرها بلقًا وينصبها فى مساقى الغنم من المياه ، لتنظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها ، فتصير ألوان حملانها كذلك .

وهذا يكون من باب خوارق العادات ، وينتظم فى سلك المعجزات .

فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد ، وتغير له وجه خاله وبنيه ، وكأنهم انحصروا منه .

وأوحى اللَّه تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعده بأن يكون معه فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته ، فتحمل بأهله وماله ، وسرقت « راحيل » أصنام أبيها .

فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم ، لحقهم « لابان » وقومه ، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه فى خروجه بغير علمه ، وهلا أعلمه فيخرجهم فى فرح ومزاهر وطبول ، وحتى يودع بناته وأولادهن . ولم أخذوا أصنامه معهم ؟

ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه ، فأنكر أن يكونوا أخذوا له أصنامًا فدخل بيوت بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئًا ، وكانت راحيل قد جعلتهن فى برذعة الجمل وهى تحتها ، فلم تقم ، واعتذرت بأنها طامث . فلم يقدر عليهن .

فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها : « جلعاد » على أنه لا يهين بناته ، ولا يتزوج عليهن ، ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر ، لا لابان ولا يعقوب ، وعملا طعامًا وأكل القوم

معهم وتودع كل منهما من الآخر ، وتفارقوا راجعين إلى بلادهم ، فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم . وبعث يعقوب البُرُد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له ؛ فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة راجل .

فخشى يعقوب من ذلك ، ودعا اللّٰه عز وجل وصلى له ، وتضرع إليه وتمسكن لديه ، وناشده عهده ووعده الذى وعده به . وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص ، وأعد لأخيه هدية عظيمة وهى : مائتا شاة ، وعشرون تيسًا ، ومائتا نعجة ، وعشرون كبشًا ، وثلاثون لقحة ، وأربعون بقرة ، وعشرة من الثيران ، وعشرون أتانا ، وعشرة من الحمر ، وأمر عبيده أن يسوقوا كلًّا من هذه الأصناف وحده . وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة ، فإذا لقيهم العيص فقال للأول : لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ فليقل : لعبدك يعقوب ، أهداها لسيدى العيص ، وليقل الذى بعده كذلك ، وكذلك الذى بعده ، وكذلك الذى بعده ، ويقول كل منهم : وهو جاء بعدنا .

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين ، وجعل يسير فيهما ليلًا ويكمن نهارًا ، فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية ، تبدى له ملك من الملائكة فى صورة رجل ، فظنه يعقوب رجلًا من الناس ، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه ، فظهر عليه يعقوب فيما يرى ، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب ، فلما أضاء الفجر قال له الملك : ما اسمك ؟ قال : يعقوب . قال : لا ينبغى أن تُدعى بعد اليوم إلا إسرائيل . فقال له يعقوب : ومن أنت ؟ وما اسمك فذهب عنه فعلم أنه ملك من الملائكة ، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله . فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء !

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة راجل ، فتقدم أمام أهله . فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات ، وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان . وكان مشروعًا لهم ، كما سجدت الملائكة لآدم تحية له ، وكما سجد إخوة يوسف وأبوه له كما سيأتى .

فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ، ورفع العيص عينيه ، ونظر إلى النساء والصبيان فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهب اللّٰه لعبدك ، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له . ودنت « ليا » وبنوها فسجدوا له ، ودنت « راحيل » وابنها يوسف فخرًّا

سُجدًا له . وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها . ورجع العيص فتقدم أمامه ، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأغنام والمواشى والعبيد قاصدين جبال « ساعير » .

فلما مر بساحور ابتنى له بيتًا ، ولدوابه ظلالًا ، ثم مر على « أورشليم » قرية شخيم فنزل قبل القرية ، واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة ، فضرب هنالك فسطاطه ، وابتنى مذبحًا فسماه « إيل » إله إسرائيل وأمره اللَّه ببنائه ليستعلن له فيه . وهو بيت المقدس اليوم ، الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التى علمها بوضع الدهن عليهما قبل ذلك ، كما ذكرنا أولًا . وذكر أهل الكتاب هنا قصة « دينا » بنت يعقوب بنت « ليا » وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذى قهرها على نفسها ، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها ، فقال إخوتها : إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا ، فإنا لا نصاهر قومًا غلفًا ، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم . فلما كان يوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان ، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا شخيمًا وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم ، مضافًا إلى كفرهم ، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم ، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت « راحيل » فولدت غلامًا هو « بنيامين » إلا أنها جهدت فى طلقها به جهدًا شديدًا وماتت عقيبه ، فدفنها يعقوب فى « أفراث » وهى بيت لحم ، وصنع يقوب على قبرها حجرًا ، وهى الحجارة المعروفة بقبر « راحيل » إلى اليوم ، وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلًا ، فمن « ليا » روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وإيساخر وزابلون . ومن « راحيل » : يوسف وبنيامين . ومن أمة « راحيل » دان ونفتالى ، ومن أمة « ليا » جاد وأشير عليهم السلام .

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها . كما قدمنا .

* * *

ذكر قصة نبى الله يوسف عليه السلام

قصة يوسف جاءت بالشخص - وهو يوسف عليه السلام- تدور حوله أحداث كثيرة : رأى الشمس والقمر والنجوم تسجد له ، تآمر عليه إخوته وألقوه فى الجب شراه السيارة بثمن بخس وباعوه للعزيز ، امرأة العزيز أعجبت به وراودته عن نفسه دخل السجن ، ثم أصبح حاكمًا لمصر ، إذن فهو شخص دارت حوله أحداث ، وفى نفس الوقت هى أحداث دارت حولها أشخاص إخوته وماذا فعل الحقد بهم ، امرأة العزيز وكيف كادت له ، أبوه وكيف واجه فقده ، الصراع حول السلطة والنفوذ ، كل هذا موجود فى **قصة يوسف فهى جاءت بشخص حوله أحداث وبحدث حوله أشخاص .**

وقصة يوسف عليه السلام تكلمت عنها الكتب التى سبقت القرآن الكريم ، ولكن عندما جاءت القصة فى القرآن ، ترك علماء اليهود كتبهم وأخذوا يقرءونها فى القرآن الكريم ؛ لأن القصة فى القرآن فيها إعجاز صياغة الأداء والقدرة على هز ما هو داخل النفس ، وإظهار المواقف المختلفة فى النفس البشرية ، كل هذا فى قمة أداء البيان فهى أحسن القصص ؛ لأن الكل يعرف تاريخها وأحداثها ؛ لأنها نزلت فى الكتب السابقة .

ثم هى أحسن القصص ، لأنها اشتملت على عبر متعددة ، فى الطفولة وفى الشباب وفى الشيخوخة ، والحقد بين الأخوة والتمرد على الأب وخداعه ، وحب كل من ربّى يوسف له ، ودخوله السجن مظلومًا ومع ذلك لم يهتز ، ثم بعد ذلك عفو يوسف عن إخوته ، ولذلك فهى أحسن القصص تزيح غطاء الصدور وتعرفنا ماذا يدور فى القلوب ، وهى تعرض للنفس البشرية فى العمر الزمنى والعمر العقلى والعمر العاطفى ، وأطوار الإنسان حينما يكون مغلوبًا على أمره ، وحينما يكون قويًا يستطيع أن يسيطر .

وهى أحسن القصص لأنها رويت بأشكال مختلفة ، ولكن القرآن جاء بها بإعجاز فى البلاغة ، والقصة إعجاز لا يقدر عليه أسلوب البشر .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف : ٣] ، ومعنى من قبله أى من قبل أن يوحى إلى محمد ﷺ هذا القرآن ، كان ﷺ معروفًا بالصفات الخلقية العالية ، وهى الصدق

والأمانة ، والوصفان مطلوبان فى الرسالة ؛ لأنه ما دام لا يكذب على الناس فإنه لا يكذب على الله ، وما دام أمينًا فإنه لن يخون الرسالة وسينقلها بصدق وأمانة ، وقد كان أبو بكر الصديق والمؤمنون إذا قال رسول الله ﷺ شيئًا يقولون : **إن كان قد قال فقد صدق** .

وعندما حدثت معجزة الإسراء والمعراج ، وقفت بعض العقول مشدوهة أمام هذه المعجزة ، وإذا بأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول دون أن يناقش الوقائع : « إن كان رسول الله ﷺ قال فقد صدق » وعندما قيل لأبى بكر : كيف تقول صدق؟ قال : أنصدقه فى خبر السماء ونكذبه فى هذا؟

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ . الغافل لا يُتهم ؛ لأنه لا يعلم القضية فهو ﷺ لم يقرأ كتابًا ولم يجلس إلى معلم فمن أين يعرف قصة يوسف ؟ ، ومن بين معجزات رسول الله ﷺ أن اليهود قالوا للكفار اسألوه عن : إخوة يوسف ، وقوم يعقوب عندما خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر ، وعندما سألوه هذا السؤال أنزل الله سبحانه وتعالى عليه آيات قصة يوسف ، فدهشوا وقالوا : هذا لم يقرأ ولم يكتب فمن علَّمه ؟

قوله تعالى : ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الوحى إعلام بخفاء بحيث لا يفهم إلا الموحى والموحى إليه ، والله سبحانه وتعالى يوحى للملائكة وللرسل وللمؤمنين ، ويوحى للأرض وللسماء وللنمل وللنحل ، ولكن الوحى الشرعى أى الوحى المتعارف عليه هو وحى أخذ بمعناه الشرعى وحى من الله لرسله .

ويقول الله تعالى : ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف : ٤] كلمة يا أبت أصلها يا أبى ولكن يقال فى اللغة العربية : يا أبى ويا أبت ويا أبتاه .

ورؤيا يوسف للشمس والقمر والكواكب تتميز بإعجاز ؛ لأننا جميعًا نرى الشمس والقمر والكواكب ولكن الشىءالعجيب فى هذه الرؤيا أنه رأى الشمس والقمر يجتمعان معًا ! نقول : إنه لا القمر ولا النجوم نراها مع الشمس . فالشمس بضوئها الشديد تحجب هذا كله عن أعيننا . شىء آخر فى هذه الرؤيا : أن يوسف رأى أحد عشر كوكبًا وعرف عددها ، ومعنى

ذلك أنها واضحة . إذن فالإعجاز الأول اجتماع الشمس والقمر معًا ، والإعجاز الثانى رؤيته لأحد عشر كوكبًا من دون الكواكب التى تملأ السماء ، ولم يقل يوسف عليه السلام رأيتهم ساجدين أى الشمس والقمر والكواكب ، وإنما قال : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فكأنه رآها أولًا ثم رآها ثانية وهى تسجد له ، ذلك لأنك إذا قلت : هذا الشىء سجد لى ، فلابد أن ترى هذا الشىء قبل أن يسجد ثم تراه ساجدًا ؛ لأنه لو رآهم من أول الأمر ساجدين فقد يكون هذا وصفهم ، وليس هناك سجود ولكنه لابد أنه رآهم بدون سجود ، ثم رآهم يسجدون له .

ولقد تكررت كلمة « رأى » فى قوله تعالى : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وفى قوله جل جلاله : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ وتكرار كلمة رأى هنا أظهر لنا أنه رأى الشمس والقمر والكواكب أولًا ، وقام بِعَدِّ الكواكب حتى عرف أن عددها أحد عشر كوكبًا ، تدل على أن الكواكب تميزت من دون كواكب السماء ، وقوله تعالى : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ لها معنى : فهو لم يرهم ساجدين على إطلاقها فقد تكون ظاهرة طبيعية أو أى شىء من الظواهر الفلكية ، ولكن يوسف عليه السلام قال : إنهم كانوا ساجدين له . فلابد أنه رأى فيهم من مظاهر الخضوع لذاته ما جعله يتأكد أن السجود له أو أنهم يسجدون له ، و« ساجدين » جمع مذكر سالم ولا يجمع المذكر السالم إلا إذا كان للعاقل ، والشمس والقمر والكواكب ليسوا عاقلين نقول : أرآهم يوسف يسجدون له ، ولا يكون عندهم عقل ؟

ما هى مهمة العقل ؟ أن يختار بين البدائل ويرى مصالح الدين ومصالح الدنيا ، وأسمى آيات الخضوع فى الدين هو السجود ، ولكن هل سجدت الشمس والقمر والكواكب ليوسف من نفسها أو بأمر يوسف ؟ **لا ، بل سجدت بأمر اللّه تعالى سجود التكريم ، لا سجود العبادة تمامًا كسجود الملائكة لآدم** ، وما داموا قد سجدوا فعبر عنهم بصيغة سجود العقلاء ، وهم ليسوا عاقلين لك أنت ، ولكن عاقلين عن ربهم .

واقرءوا قول الحق تعالى : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق : ١، ٢] أذنت من الإذن أى سمعت من الله ، فمبجرد أن سمعت أطاعت وعقلت ، وانشقت ؛ والكون كله مكون من عوالم للّه تبارك وتعالى يقول : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨] . ونحن البشر مع أننا نتفاهم بلغة اللسان ، ولكن إذا التقى اثنان منا لا يتكلمان لغة واحدة ، لا يتفاهمان

إلا بواسطة مترجم يعرف اللغتين ، هذا فى لغة الإنسان اللغة اللسانية ، فإذا كانت اللغة ليست لغة لسان فمن المستحيل أن تفهمها ، ولذلك فنحن لا نفهم لغة الحيوان ولا لغة النبات ولا لغة الجماد ، إلا إذا أفهم اللَّه سبحانه بعض خلقه هذه اللغات .

ومصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء : ٧٩] والجبال تسبح مع داود ومع غير داود فهى مسبحة دائمًا ، ولكن اللَّه تعالى أفهم داود تسبيحَ الجبال وجعل تسبيحها يوافق تسبيحه ، فكل ما فى هذا الكون من أعلى الكائنات إلى أدنى الكائنات مسبِّح للَّه تعالى ، ولكننا لا نفهم تسبيحهم ، فإن علَّمنا اللَّه نفهم ، وإن لم يعلمنا لا نفهم .

الله سبحانه وتعالى علَّم سليمان مَنْطِق الطير فكأن للطير منطقًا ، ألم يبتسم سليمان عندما سمع النملة تتكلم كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل : ١٨، ١٩] ، إذن فكل شىء له لغة والذى يفهم كل هذه اللغات هو خالقها وخالق لغاتها ، **إذن فسجود الشمس والقمر والكواكب كما رآها يوسف فى المنام** سجود تكريم وليس سجود عبادة ، وسجود لأمر اللَّه تعالى وليس سجودًا لأمر يوسف .

ويعقوب عليه السلام أبو يوسف قال له : ﴿يَا بُنَيَّ﴾ [يوسف : ٥] ومعناها يا ابنى وعندما تخاطب ابنك تقول له : يا بنى ؛ لأن الخطاب للابن يخرج من القلب ، وإذا كان الخطاب ليوسف وهو صغير السن تكون العاطفة فيه أكبر ، وتحس بعاطفة الأب القوية تجاه يوسف التى أثارت حقد أولاده ، واقرأ قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف : ٨] إذن فيوسف قال : يا أبت . ويعقوب قال له : يا بنى . دليل على قوة العاطفة التى تربط بينهما وكلما أصاب الإنسان شىء مفزع أسرع إلى مَن يحبه ليقص عليه ما حدث ، وقال الأب يا بنى وهو لفظ مملوء بالحنان والعطف ، يعطينا الإحساس بأن يوسف ما زال صغيرًا وأنه ليس له ذاتية ولكنه محتاج إلى حكمة الأب ونصيحته .

الأب الممتلئ قلبه حنانًا ، خاف على ابنه من حقد إخوته وهو يعلم شعورهم نحوه ؛ لذلك

أسرع يقول له : ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف : ٥] ، كلمة : ﴿رُءْيَاكَ﴾ لفتتنا إلى أنها رؤيا ؛ لأن يوسف رأى الشمس والقمر والكواكب ساجدين له ، والشمس والقمر والكواكب لا تسجد لأحد .

وقوله تعالى : ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ تلفتنا إلى أنها رؤيا منام ؛ لأن اللغة من دقتها تجعل رأى واحدة ، ولكن يختلف المصدر فيها باختلاف من يرى ، أرأيت وأنت مستيقظ أم وأنت نائم ؟ إن رأيت وأنت مستيقظ تقول : رأيت رؤية ، وإن رأيت وأنت نائم فقل : رأيت رؤيا ، الأولى بالتاء المربوطة والثانية بالألف .

والرؤيا هي مصدر رأى فيها اتفاق ، فأنت رأيت فى المنام كما ترى فى اليقظة هذا رأى وهذا رأى . إذن فهناك التقاء فى أنه رأى ، ولكن الاختلاف فى حالة الرائى أهو يقظان أم نائم ؟ ولقد فرق اللّه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بين الرؤيا فى المنام والرؤية فى اليقظة ، إلا فى آية واحدة عندما أسرى برسول اللّه ﷺ إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى سدرة المنتهى . قال اللّه سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء : ٦٠] وهذه الآية كانت مثارَ جدلٍ ، يستشهد بها من قال : إن الإسراء والمعراج تم فى المنام ؛ لأن اللّه تبارك وتعالى وصفه بأنه رؤيا . وقالوا : لو كان فى اليقظة لقال رؤية بالتاء . **تقول لمن يروج هذا الكلام** : أنت لم تفهم عن ربك ؛ فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن ما رآه رسول اللّه ﷺ رؤية العين فى معجزة الإسراء والمعراج شيء عجيب ، لا يحدث حتى فى الأحلام ، ولكنها ليست أحلامًا بدليل أن اللّه تعالى قال : ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ .

وهل إذا حدّث إنسان إنسانًا آخر بأنه رأى فى المنام كذا وكذا أيكون هذا فتنة لأى شخص آخر ؟ هل إذا قال الإنسان إنه رأى فى المنام أشياء لا يصدقها عقل أيكذبه أحد ؟ طبعًا لا . إذن فما دامت ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فلابد أن تكون رؤية يقظة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ . أى يعقوب يقول ليوسف : أنا مأمون عليك ، ولكن إخوتك ليسوا مأمونين عليك ، إذا رويتها لى أرشدتك الصالح فيه ، وإذا رويتها لإخوتك حقدوا عليك ، ولو أن يوسف رواها لإخوته لعرفوا تفسيرها ولزاد حقدهم عليه وكراهيتهم له ، ويعقوب بما آتاه اللّه من علم يعرف أن هذه الرؤيا ستتحقق ؛

لأن رؤيا الأنبياء حق ، وإخوة يوسف وهم أولاد يعقوب هم أسباط ولا نأخذ موقفهم من يوسف ليكون فى قلوبنا شىء ضدهم ؛ لأن هؤلاء من خيار البشر ، ولكنهم لم يكونوا أشرارًا ؛ لأن الشرير هو من يتصاعد عنده السوء ، فإذا كان هناك شرير غضب على إنسان فإنه يقول : عندما أقابله سأضربه ، ثم يقول : سأحطم عظامه من الضرب . ثم يتصاعد فى الشر ، ولا يقول : أقتله ، ثم يقول : سأضربه ثم يقول : سأوبخه أو سأعفو عنه . إخوة يوسف قالوا : اقتلوا يوسف ، ثم تصاعدوا فى الخير فقالوا : اطرحوه أرضًا يعيش فى الصحراء بعيدًا ، ثم تصاعدوا فى الخير فقالوا : ألقوه فى غياهب الجب يلتقطه بعض السيارة . إذن فهم ليسوا أشرارًا . الحق سبحانه يقول : ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ معنى الكيد : احتيال مستور لمن لا تقوى على مواجهته ، إذن فلا يكيد إلا الضعيف ، أما القوى فإنه يواجه .

ى ﷲ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف : ٦] ، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أى كما أراك ربك هذه الرؤيا التى أنبأتك بأنه سيكون لك شأن عظيم بالنسبة لإخوتك . ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ أى ينزل عليك من حمايته ما يعطيك الأمان ويحفظك من كيد إخوتك ، بل يجعل هذا الكيد لصالحك أى لصالح يوسف عليه السلام فيعلمه تأويل الأحاديث ، ويجعل أصحاب الجاه والنفوذ والسلطان يلتفتون له ، ثم بعد ذلك يصير حفيظًا لخزائن الأرض حين يعم الجدب والمجاعة ، ثم يصبح عزيز مصر وحاكمها .

وقول الحق تعالى : ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ وتمام النعمة ليس بنعم الدنيا ولكن بالنعمة الكبرى ، بأنه سيكون رسولًا وهذه النعمة هى نعمة الرسالة لا تسلب منه أبدًا ؛ لأننا نعيش فى عالم متغيِّر ، هناك أشياء تأتى ثم تُنزع ولكن الرسالة والملك الذى سيأتى ليوسف عليه السلام لن ينزع منه .

والله سبحانه وتعالى سيتم نعمته عليه ، بأن يصل نعيم الدنيا بنعيم الآخرة ، فهو مُنَعَّمٌ فى دنياه ، وفى الآخرة مع الرسل أصحاب المقام العالى ، فكما أنعم اللّٰه عليه بالرؤيا ليجتبيه ويحميه من كل سوء ويعلمه من تأويل الأحاديث ، أتم عليه النعمة بالرسالة .

ومعنى تأويل الشىء معرفته معناه أو ما سيؤول إليه ، والإنسان حينما يرى رؤيا فى المنام تأتى فى كثير من الأحيان بشكل غير مفهوم ، بحيث يحتار من رآها فى تفسيرها ، بالنسبة

ليوسف عليه السلام تأتى بإلهام من اللّه تعالى ، ولذلك لا يأتى بشر ويقول : إنه يستطيع أن يعلمك علم تفسير الأحلام أو أن هناك علمًا خاصًا بتفسير الأحلام ، فالرؤيا لا يفسرها إلا إلهامًا من اللّه سبحانه وتعالى أو شفافية خاصة ولكنها ليست علمًا بشريًا .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفت يوسف إلى أن ما سيفعله به إخوته ليست عداوة بينهم وبينه ، بل هى زلة ستنتهى ، وسيعود الإخوة متحابين وستعمهم جميعًا نعمة الله .

ولذلك قال : ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف : ٦] ، قوله تعالى : ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى أن اللّه أعلم حيث يجعل رسالته ، و« حكيم » كل ما يفعله يتم بحكمة إلهية بالغة .

دروس وعبر من قصة يوسف وإخوته

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أى كان فى أمر يوسف وإخوته ؛ لأن ﴿فِى﴾ تدل على الظرفية فكأن القصة ستدور حول يوسف ؛ موضوعها وأحداثها هو يوسف وإخوته . ويوسف اسم أعجمى وليس عربيًا ؛ فهو ممنوع من الصرف لو كان اسمًا عربيًا لقال اللّه سبحانه : « فى يُوسُفٍ » لأن ﴿فِى﴾ حرف جر ، ولكن يوسف ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة .

فقوله تعالى : ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف : ٧] والآيات جمع آية . والآية هى الأمر العجيب اللافت للنظر ولو أن الإنسان نظر فيه لوجد فيه أشياء كثيرة .

إن كلمة : « آية » ترد فى القرآن بثلاثة معان : آيات كونية ، وآيات هى المعجزات التى يؤيد اللّه سبحانه وتعالى بها رسله لتثبت صدق بلاغهم عن الله ، وآيات القرآن وهى التى تحمل لنا أحكام المنهج .

والآيات الموجودة فى سورة « يوسف » من آيات العجائب ، التى تثبت القدرة للّه تعالى ، وأنه جل جلاله هو الخالق والفاعل والمسيطر ، فيوسف عليه السلام يلقى فى الجب ، ربما كان المقصود بهذا أن ينتهى أمره بالنسبة لأبيه وإخوته ، ولكن إلقاءه فى الجب جعله اللّه سببًا لكى يأخذه عزيز مصر ؛ ليُرَبَّى فى أعز بيت فى مصر ثم يصير له شأن فى الحكم .

إن إخوة يوسف كانوا يكيدون له لكى يبعدوه عن أبيهم ، فنصره اللّه عليهم وأعاده إلى

أبيه ، ولقد جاءت قصص الأنبياء ؛ سلوى لرسول الله ﷺ وتثبيتًا له .

وقوله تعالى : ﴿لِلسَّآئِلِينَ﴾ تدل على أن هناك من سأل ؟ فمن الذى سأل ؟ إنهم اليهود بعثوا من قريش من يسأل محمدًا عليه الصلاة والسلام عن قصة يوسف وإخوته . وهم لثقتهم أن رسول الله ﷺ لم يقرأ شيئًا ولم يجلس إلى معلِّم وهو أمى ، اعتقدوا أنهم لو سألوه مثل هذا السؤال لأحرجوه ، ولقال : لا أعرف شيئًا . أو أتى بقصة من خياله ، تختلف مع ما ذكر فى الكتب السابقة .

ولكنهم تعجبوا عندما نزلت سورة « يوسف » تحكى كل شىء بالتفصيل وبإتقان وإحكام ، وهى تروى لهم العجائب التى حدثت ليوسف وإخوته .

والقصة من أولها إلى آخرها ، قد تستغرق ساعة أو أكثر فى قراءتها . رسول الله ﷺ عندما نزل عليه الوحى بالسورة رواها للصحابة ، وطلب منهم أن يحفظوها ويكتبوها ، ثم تمر سنة ويأتى رسول الله ﷺ ليقرأ قصة يوسف فلا يغير فيها حرفًا واحدًا .

ولو أنك طلبت من إنسان أن يردد ما قاله بعد يوم واحد ما استطاع أن يأتى بنفس الألفاظ ولا بنفس الكلام . ولكن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى : ٦، ٧] وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال لرسوله : « فلا تنسى » . فمعنى ذلك أنه لن ينسى ولا حرفًا واحدًا .

إيثار يعقوب ليوسف وأخيه

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف : ٨] فلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ وقبل ذلك قال : ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف : ٧] **إن الإخوة ثلاثة أقسام** : قسم قد يكون من ناحية الأب والأم ، وقسم قد يكون من ناحية الأب دون الأم ، وقسم قد يكون من ناحية الأم دون الأب .

قوله تعالى : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ ، فلابد أنهما شقيقان : والباقون أولاد زوجة أو زوجات أخريات ، ولقد قالوا : إن أولاد يعقوب كانوا اثنى عشر . اثنان منهم أخوان شقيقان هما يوسف وأخوه ، والباقون أولاد الزوجات الأخريات فيكون مجموعهم اثنى عشر ، ستة إخوة

من واحدة ، وأربعة من سريتين هما زلفة وبلهة . ولما ماتت « ليا » زوجته الأولى تزوج بأختها « راحيل » ، وأنجب منها يوسف وبنيامين .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ﴾ اللام موطئة للقسم ، أى أنهم يقولون : والله ليوسف ، فاللام دلت على القسم ، والمعنى والله ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ، لماذا أتى بالقسم ؟ القسم لا يأتى إلا بصدد إنكار ؛ لأن هذه القضية قضية الحقد على يوسف ومحاولة التخلص منه ، الإخوة اختلفوا فيها : واحد قال نقتله ، والثانى قال : نطرحه فى الصحراء ، والثالث قال : نلقيه فى الجب يلتقطه بعض السيارة . كل هذا مجمعه أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم ، وهنا لابد أن يأتى القسم ليؤكد هذا الحب ، ولكنهم لم يقولوا : ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾ ، ولكن من غفلتهم البشرية قالوا : ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وكان هذا هو السبب فى حب الأب ليوسف وأخيه ؛ لأنهما صغيران .

وهذه مسألة أوجدها اللّٰه تعالى فى قلوب البشر ، دون اختيار منهم حتى فى الحيوانات ما دام الابن صغيرًا وضعيفًا وفى حاجة إلى الرعاية ، فإنه يتمتع بحماية الأب والأم حتى يكبر ، ولذلك عندما سألوا المرأة الأنمارية : أى أولادك أحب إليك ؟ قالت : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . قالوا لها : فمن تحبين أكثر ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن .. فالضعيف يتوجه إليه الحنان أكثر وهذه نراها فى واقع الحياة ، والابن الصغير أحب دائمًا إلى أبويه عمن هم أكبر منه . ويقولون : إن هذا من عدل اللّٰه سبحانه وتعالى ، ذلك أنه مهما عاش الولدان مع أبيهما فإن الصغير قد تمتع بخير أبيه سنوات أقل من الكبير ؛ فيعوضه اللّٰه سبحانه وتعالى بزيادة الحنان عن قصر المدة . وإذا كانت امرأة لها ولدان : ولد غنى يقوم بحاجتها وولد فقير لا يأتى بشىء فقلبها يكون مع الفقير ، والحب مسألة عاطفية لا تقنين لها ولا تكليف فيها ، ولذلك نجد القرآن الكريم يجردنا من هذه العاطفة فى الحكم بين الناس ، يقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٨] فالله سبحانه وتعالى حرص فى هذه الآية الكريمة لا على أن يقول : أبغض من تحب ، أو : أحب من تبغض . وإنما طلب منا الحق سبحانه ألَّا نجعل عواطفنا تتدخل فى العدل فى الحكم بين الناس . قد يعترض البعض ويقول إن رسول

اللَّه ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ، نقول له : إن عمر رضى اللَّه تعالى عنه قال : يا رسول الله ، إنى أحبك عن ولدى وعن مالى ، أما عن نفسى فلا . ولكن رسول اللَّه ﷺ كرر نفس الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » . فرأى عمر فى تكرار الحديث إلزام عقيدة وتكليف ؛ فأدرك أنه ليس حب العاطفة وإنما هو حب العقل ، فقال : يا رسول اللَّه الآن أحبك أكثر من نفسى . فقال له رسول اللَّه ﷺ : « الآن يا عمر » . أى الآن فهمت أن هناك حبًا عقليًا وحبًا عاطفيًا ، فالحب العقلى أن تؤثر النافع على الضار ، فتحب الدواء المر وإن كانت عاطفتك لا تقبله ولكن عقلك يحبه ؛ لأنه الطريق إلى الشفاء هذا حب العقل . فرسول اللَّه ﷺ حينما قال لم يكن يتحدث عن حب العاطفة .

وعمر بن الخطاب رضى اللَّه تعالى عنه حين مر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، قال له رجل : يا عمر هذا هو قاتل أخيك ، فقال له : وماذا أفعل به وقد هداه اللَّه للإسلام ؟ ثم لفت وجهه عنه ، فقال له الرجل : أتلفت وجهك عنى ؟ فقال له عمر : نعم ؛ لأننى لا أحبك . فقال له الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقًا من حقوقى ؟ فقال عمر : لا ، فقال له الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

كان يجب على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب أبيهم ليوسف وأخيه انفعال طبيعى لا يسيطر عليه الأب ، ولكنهم لم ينتبهوا إلى ذلك ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ ، يفهم منه أن المؤامرة ستكون ضد يوسف وأخيه بنيامين ولكن انتقامهم انصب على يوسف ، مع أن أخا يوسف أحب إلى أبيهم منهم ، ولكنهم ربما عرفوا عن الرؤيا التى رآها يوسف ، فقالوا : إن يوسف هو الذى سيأتى منه الخطر ؛ فقرروا أن يبدءوا به ، ومن العجيب أنهم يقولون : ونحن عصبة ولم ينتبهوا إلى أن العصبة من عشرة فأكثر ، وهم عصبة متكاتفة متعصبة يقضون مصالح بعض ويعينون بعضهم ، وهم يباشرون كل شىء وأبوهم شيخ كبير لا يباشر شيئًا . نقول لهم : كونكم عصبة يجعل حب الأب لمن ليسا عصبة أكثر ؛ لأنهما ضعيفان صغيران ، وهذا أمر طبيعى .

ثم نأتى إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف : ٨] نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ؛ لأن يوسف وأخاه صغيران ، وأنتم عصبة فى غنى عن الأب وعطفه فكيف تقولون : ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ؟ نقول : إن الناس تأخذ كلمة ضلال على المعنى

الواسع ، هناك ضلال مقصود ؟ طبعًا لا ، ولكن أن تعرف الحق وتذهب إلى الباطل ، فهذا ضلال مقصود مذموم ، وقد يوجد الضلال غير المقصود ؛ لأن الإنسان لا يعرف الحق أو لأنه نسي مثلًا . واقرأ قوله تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، فالضلال هنا ليس متعمدًا ، ولكنه عن نسيان ، وفي قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى : ٦، ٧] ، خصوم الإسلام أخذوا هذه الآية الكريمة ، وأخذوا يشككون فيها بأن رسول الله ﷺ قد ضل . نقول لهم : أنتم لا تعرفون اللغة العربية رسول الله ﷺ لم يكن يعرف أين طريق الحق وأين طريق الباطل ، إلى أن هداه الله إلى الحق فاتبعه ، فالهداية جاءت هنا هداية دلالة إلى طريق الحق ؛ لذلك يقول الله تعالى : ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فالضلال المذموم هو أن تعرف الحق ثم تذهب إلى الباطل . وإخوة يوسف لم يكونوا يعرفون الفرق بين حب العاطفة وحب العقل ، ومن هنا وصلوا إلى نتيجة أن أباهم كان يجب أن يحبهم أكثر ، والنتائج الضارة لا تنشأ إلا من مقدمات باطلة ، ولو أن كل مقدمة بحثت مع الحق لخرجت النتائج ، فكأن قولهم : ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ مقدمة خطأ ؛ لأنهم ما كان يجب أن ينظروا إلى حب أبيهم ليوسف وأخيه ، وإنما كان يجب أن ينظروا إلى أنهم عصبة ، وأن كل ما يملكه أبوهم في أيديهم ، ولكنهم تركوا هذا واتجهوا إلى حب أبيهم ليخطئوه .

ثم ماذا فعلوا ؟ بدءوا يتآمرون على يوسف وقالوا : ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف : ٩] إذن فهم يقدرون أنهم سيفعلون ذلك ، ثم يتوبون فيتقبل الله توبتهم ويكونون قومًا صالحين ولكنهم لم يقولوا لنا من يضمن لهم أن يعيشوا إلى أن يتوبوا . وقوله تعالى : ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ الوجه المقصود به المواجهة والابتسام والحنان ، والانفعال كله يظهر على الوجه فهم يريدون أن يقولوا : إن وجه أبيهم سيصفو لهم بالحب والحنان بعد ذلك . كأنهم يقولون : عندما ننتهي من قتل يوسف أو طرحه أرضًا نرتاح مع أبينا وينتهي كل شيء .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف : ١٠] الجب هى البئر المطوية ، التى تحفر لكى يتجمع فيها الماء من باطن الأرض .

والبئر المطوية يأتيها استطراق الماء من أسفل ، إذن ففى غيابة الجب أى فى فجوة من الجب حتى لا يراه أحد ، وكلمة غيابة أى المنطقة الخفية من الجب ، فالجب مخفى بالنسبة للواقف على سطح الأرض ، ولكن كونهم يريدون أن يخفوه ولا يراه أحد لا يتلاءم مع قوله تعالى : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ ولقد قلنا إن الشر عند الأخيار يتناقص ؛ لذلك بدءوا بالقتل ثم قالوا : اطرحوه أرضًا أخف من القتل ، فقد ينجو وقد تفترسه الوحوش ، ثم قالوا : ضعوه فى الجب عملية أقل ضررًا ، على الأقل يجد الماء الذى يشرب منه ويحفظ حياته مدة طويلة ، ثم يقولون : ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ .

والله تعالى لم يقل لنا من الذى قال : ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ ، وإنما قال : ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ لأن الله تعالى لم يردنا أن نكره الآخرين فجعلها مجهلة ، وقوله تعالى أى أن هناك أملًا ألا يفعلوا ويتراجعوا عن هذا كله . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ﴾ [يوسف : ١١] .

ساعة تسمع « قالوا » ، والكلام لواحد من الجماعة تعرف أنهم تحدثوا معًا واتفقوا على الكلام الذى يقال ، ثم قام واحد منهم بالكلام نيابة عنهم ، فكأنهم تكلموا جميعًا ؛ لأنهم اتفقوا ووافقوا على ما سيقال ، لماذا ؟ لأن المؤمن أحد الداعين .

إذن .. قوله تعالى : ﴿قَالُواْ﴾ يعنى إنهم اتفقوا عليه ، فكأنهم جميعًا قالوا .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وما داموا قالوا : لا تأمننا . فكأن هناك محاولات سابقة منهم أن يأخذوا يوسف ولكن أباهم رفض . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف : ١١] أى سينصحونه ولن يأتيه شر . ثم يقول الحق تبارك وتعالى حكاية عنهم : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ولماذا قالوا : يرتع ويلعب ؟ لأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ، ولابد أن يجدوا حجة ليأخذوا بها يوسف ، فهو لا يصلح للرعى ولا للعمل ، ولكنه سيرتع ويلعب ، واللعب وقت الطفولة مسموح به ؛ لأنه ليس هناك تكليف بعد ، واللعب أن تنشغل بمباح بقصد انشراح النفس .

والشرع لا يمنع اللعب بشيء قد يطلبه الجد مستقبلًا ، كتعلم السباحة والرماية والمصارعة وركوب الخيل . أمر يمكن أن ينفعه فى المستقبل وهذا هو اللعب ، أما اللهو فهو شغل يلهى عن واجب مثل ألعاب التسلية التى تضيع الوقت ، وتأخذهم عن الصلاة وعن ذكر الله ، هذا لهو ولو أنهم بمجرد سماع الأذان قاموا إلى الصلاة وتركوا ما فى أيديهم لا يكون هذا لهوًا ولكنه تسلية .

قولهم : ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ تقول : « مالك » حينما تريد أن تعرف السبب . وقولهم كما يروى لنا القرآن الكريم : ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف : ١٢، ١٣] ، إذن .. فالمسألة من يعقوب ليست مجرد خوف على يوسف ، ولكن فراق يوسف يحزن يعقوب ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف : ١٣] ولقد قال بعض الناس : إن يعقوب نبه أذهان أولاده إلى مسألة الذئب ، فاستخدموها كذبًا . ولذلك عندما جاءوه بقميص يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله قال يعقوب : هذا ذئب حليم رحيم أكل يوسف ولم يمزق قميصه ! أى عرف الكذب .

وهم الذين سبق أن قالوا : ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف : ١٤] أى أن يعقوب قال لهم : إنى أخاف أن يأكله الذئب ليس وأنتم منتبهون ، ولكن أنتم عنه غافلون ، وهو بذلك يريد أن ينبههم إلى أنهم بشر تأخذهم الغفلة ، ولم يستطيعوا أن يردوا عليه فقالوا : ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أى لا يكون عندنا أى نوع من الرجولة إن أكله الذئب ونحن مجموعة من الرجال .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف : ١٥] قوله تعالى : ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ دليل على أن المسألة كانت أخذًا وردًّا فيما بينهم ، إلى أن قرروا أن يلقوه فى الجب ، وفى هذه اللحظة – لحظة الضيق – وإخوة يوسف يخلعون عنه قميصه ويلقونه فى الجب . جاء الوحى من الله تعالى ؛ ليثبت يوسف قبل أن يصل إلى مبلغ التكليف بالرسالة ، جاءه وحى من الله بأنه سيبلغهم ما فعلوه فيه وهم لا يشعرون ، بأن زخاهم يأتيه وحى من الله بأنه سيقص عليهم نبأ ما فعلوه به .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعضهم قال : إنهم لا يشعرون بالوحى أو بما يوحى ليوسف . وبعضهم قال : إنهم لم يشعروا بأن أخاهم قد علم شيئًا ، ولكنهم لم يشعروا بالوحى ؛ لأن الوحى إعلام بخفاء ، ولذلك لم يشعروا بأن يوسف قد أعلمه اللَّه بأنهم سيأتون إليه للحصول على المِيرة وأنه سيخبرهم . والله سبحانه وتعالى أبلغ يوسف بما سيحدث . ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ . وأوحينا إليه أى ألهمه الله ؛ حتى يؤنسه وهو يواجه هذه المحنة التى يلقى فيها فى البئر ، يواجه مصيرًا مجهولًا ، والتى يبعد فيها عن حنان أبيه وأنس أخيه ، والتى يفارق فيها بلده وأهله وكل من عاش معهم .

إنها لحظة صعبة على النفس والإنسان يترك كل ما أحب ليواجه مصيرًا مجهولًا ولهذا كان لابد أن يلهمه اللَّه أن هؤلاء الذين ألقوه فى الجب سيأتونه وهو عزيز ؛ ليعترفوا بخطئهم وذنبهم ، ويطلبوا منه أن يدعو اللَّه سبحانه ليغفر لهم ، إن هؤلاء الإخوة الذين فعلوا بك هذا سيأتون إليك ؛ ليطلبوا أقواتهم وستعرفهم وستنبئهم بما فعلوه معك .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف : ١٦] نلاحظ أن القرآن قد صور بدقة الانفعالات التى توجد داخل النفس البشرية ، إخوة مكروا بأخيهم وأخذوه وألقوه فى الجب ، وهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان لا يأمنهم عليه ، فكيف يواجهونه ؟ لابد أن يواجهوه بانفعال نفسى كاذب ، ولابد أن يكون الانفعال الكاذب مستورًا بظلام الليل ؛ حتى لا يكتشف الأب ، بما أودعه اللَّه تعالى من نور فى قلبه الانفعال المصطنع على وجه أولاده ، ولذلك جاءوا وقت العشاء ؛ ليستر الظلام وجوههم ؛ حتى لا تفضحهم انفعالاتهم المصطنعة ، فاتفقوا على أن يعودوا إلى أبيهم وقت العشاء ، وبكاؤهم كان بكاء مصطنعًا .

فالانفعال الطبيعى فى البكاء أو الضحك غريزى ، ليس لإنسان اختيار فيه ؛ لذلك فإنك ترى إنسانًا يريد أن يخفى حزنه وبكاءه أمام الناس ، ويتظاهر بالتجلد ، ولكن دموعه تفضحه ، وإنسانًا آخر فى موقف لا يصح الضحك فيه ولكنه يضحك رغمًا عنه ، فالضحك والبكاء هما انفعالان وغريزتان من اللَّه تعالى ، ولذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم : ٤٣] . إذن .. فالإنسان يستطيع أن يفتعل البكاء والضحك ، ولكنه لا يملك الضحك الطبيعى والبكاء الطبيعى .

إخوة يوسف أرادوا أن يستر الظلام انفعالاتهم للبكاء ؛ حتى لا يكشفهم أبوهم ، فلا يعرف أنهم لا يبكون ولكنهم يتباكون . كل هذه الانفعالات التى أرادوا أن يخفوها فضحها ضوء النهار ؛ لذلك فقد اختاروا وقت العشاء ، إنهم جاءوا بالليل ليخفوا هذه الانفعالات .

بعد أن تأخر إخوة يوسف إلى أن جاء وقت العشاء ؛ ليستروا انفعالاتهم فى الظلام ماذا قالوا ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] ، كلمة : ﴿نَسْتَبِقُ﴾ لا تكون إلا بين عدة أشخاص يتسابقون فى الجرى ؛ ليعرف من الذى سيسبق الآخر .

إذن .. فيستبقون يعنى يتسابقون ، والاستباق له أنواع متعددة ، استباق فى الجرى من ناحية المسافة ، واستباق فى رمى السهام أو فى التصويب بإطلاق النار ، واستباق فى إصابة الهدف ، والتسابق لإصابة الهدف هام جدًّا ؛ لأنه ينفعك حين تواجه عدوك ، والإسلام يبيح اللعب والتسابق **بشرطين** :

الشرط الأول : ألا يؤدى بك ذلك إلى لهو عن طاعة الله .

الشرط الثانى : أن ينفعك هذا اللعب فى وقت الجد ، فمثلًا أنواع الرياضة التى تعطيك القوة والسرعة والحكمة فى الأداء بشرط ألا تلهيك عن واجب فرضه اللّه عليك ، ولا تظهر فيها بالمظهر الذى يكشف عن عورة أمر اللّه بسترها .

إخوة يوسف ذهبوا يتسابقون وتركوا يوسف عند متاعهم ليحرسه ؛ لأنه صغير السن ولا يستطيع أن يتسابق معهم ، وهم بهذا قد خالفوا اتفاقهم مع أبيهم ، الذى كان قد اشترطه لخروج يوسف معهم ؛ لأنهم قالوا : ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ فأين الحفظ فى أن يتركوه وحده عند متاعهم ؟ وذلك يجعل منه عرضة لأن تفتك به وحوش الصحراء .

ثم هم طلبوا من أبيهم أن يذهب معهم يوسف ليرتع ويلعب ؛ لأنه ما زال صبيًّا صغيرًا لم يبلغ التكليف ومباح له اللعب ، ولكنهم بدلًا من أن يجعلوه يرتع ويلعب تركوه عند أمتعتهم وأخذوا هم يلعبون ويتسابقون ، وكانوا فى كذبهم هذا لا تتطابق المشاعر على وجوههم مع الكلام الذى يقولونه ، ولكن الليل كان يسترهم .

أولاد يعقوب أحسوا حتى والليل يسترهم أن أباهم يعرف أنهم يكذبون ؛ لذلك ظهرت ريبتهم من أنفسهم ، واقرأ قولهم لأبيهم : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف : ١٧] وهذا ينطبق عليه المثل الذى يقول : يكاد المريب يقول خذونى . وهم كانوا يعلمون أن أباهم يحب يوسف ، وكانوا يعرفون أيضًا أن أباهم يعرف كراهيتهم ليوسف ، بدليل أن يعقوب قال ليوسف وهو يروى له الرؤيا : ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف : ٥] ، إذن .. فمعرفة يعقوب بعداوة أولاده ليوسف ، جعلته لا يصدقهم وهم أحسوا بذلك ، ولذلك قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ . ويؤمن له أى بصدقه ، وهم فى تخبطهم حاولوا أن يتهموا أباهم بأنه لا يصدقهم ، وفى هذا محاولة لمداراة الإثم الذى يشعرون به .

كذب إخوة يوسف ... ودليل كذبهم

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف : ١٨] ودم كذب يعنى دم مكذوب ، ولكن الدم لا يكذب ، وإنما الذى يكذب هو من أتى بالدم من شاة ذبحها ولطخ بدمها قميص يوسف .

وفى اللغة العربية يعطى لشيء الوصف المصدرى للمبالغة ، وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ، كأن تقول : فلان عدل . فكأن فلانًا تجمعت فيه كل صفات العدل ، أو أن تقول : فلان شر . أى أنه هو الشر نفسه ، هذه صيغة المبالغة .

وإخوة يوسف قالوا : إن الذئب قد أكله . فلو كان هذا صحيحًا يكون الدم صادقًا ، أى مصدقًا للقول الذى قالوه ، أما إن لم يكن هذا هو دم يوسف ، فيكون دمًا مكذوبًا فيه ، أى مكذبًا لما يقولونه .

ولقد أتى إخوة يوسف معهم بدليل كذبهم ؛ إذ لو كان هذا الدم دم يوسف والذئب قد أكله فعلًا ، والدم سينزل من لحمه ، تكون بقع الدم على القميص من الداخل للخارج ، ولكنهم عندما ذبحوا الشاة لطخوا القميص من الخارج ، كما أنه لو أن الذئب أكل يوسف ، فلابد أن يكون قد مزق قميصه بأنيابه ومخالبه ؛ لكى يصل إلى اللحم ، ولكنهم جاءوا بقميص يوسف سليمًا غير ممزق .

ويقال : إن يعقوب عليه السلام سمعهم وهم يتشاورون ماذا يقولون لأبيهم ؟ فقال أحدهم : قولوا لأبينا إن اللصوص قتلوه ، فقال يعقوب فى نفسه : اللصوص أحوج لقميصه منهم لدمه ماذا سيفعلون بقتله ؟ ولكنهم إذا سرقوا قميصه فسيبيعونه ولكن إن قتلوه فلن يستفيدوا شيئًا وهذه هى فراسة الاستنباط من يعقوب ، وهذه الفراسة هى التى يستعملها القاضى فى معرفة الحقيقة من المتهم فى قضية اتهم فيها عدد من الناس ؛ لأن القاضى يعرف أن الكذاب تخونه ذاكرته دائمًا ، ولذلك قالوا : إذا كنت كذوبًا فكن ذكورًا ؛ لأن الكذاب لا يذكر ماذا قال بالأمس ، أما الإنسان الصادق الذى يستوحى من الواقع فهو يروى نفس القصة بتفاصيلها .

فى أحد القضايا سأل القاضى أحد الشهود : كيف رأيت هذا القاتل يرتكب جريمته ؟ فقال الشاهد : كان القمر بدرًا ينير الكون فرأيته وهو يرتكب جريمته ، ثم يمشى محاولًا أن يترك المكان ، وسأل القاضى باقى الشهود ، فقال : وأنتم من أين أتيتم ؟ قال أحدهم : كنا فى المدينة . فسأله القاضى : ماذا كنت تفعل فى المدينة ؟ قال الشاهد : كنت أشترى ياميش العيد ، فسأله القاضى كيف يكون القمر بدرًا فى ليلة عيد الفطر التى هى ليلة الأول من شهر شوال ؟ هذه هى الفراسة التى تفضح الكذاب .

يعقوب ساعة رأى قميص يوسف وهو غير ممزق وملطخ بالدم من الخارج ، قال لأولاده كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ، ﴿سَوَّلَتْ﴾ ، بمعنى سهلت أو يسرت ، أى أن أنفسكم يسرت لكم الكذب ، وقوله تعالى : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف : ١٨] الصبر مطلبو فى هذا الموقف ، وأنت إما أن تصبر على كذا وإما أن تصبر عن كذا ، تصبر على شىء فيه ألم لك ، وتصبر عن شىء فيه شهوة لك ، فتصبر عن شرب الخمر أو لعب القمار أو الربا ، وتصبر على المرض .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فكأن هناك صبرًا غير جميل والصبر الجميل الذى ليس فيه شكوى ولا جزع .

والصبر غير الجميل هو الذى فيه شكوى ونواح وبكاء وجزع ، والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج : ٥] الصبر الذى ليس فيه هلع ولا جزع ولا شكوى .

الذين يريدون أن يتصيدوا بجهل أشياء متناقضة ، يقولون : إنه ما دام يعقوب قد قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ والصبر الجميل لا شكوى فيه ، فإن يعقوب نفسه الذى قال : ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكيف يكون الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا حزن ولا جزع ؟ ثم يقول يعقوب : إنه يشكو بثه وحزنه إلى الله . نقول : إنكم لم تفهموا ، هناك فرق بين شكوى إلى اللّه تعالى ، وشكوى من قدر الله ، وصبر جميل يعنى لا أشكو من قدر اللّه إلى بشر ، ولا أعلن حزنى وسخطى من قدر الله ، ولكن الشكوى للّه هى دعاء وقرب من اللّه وما بين العبد وربه هو بلا حدود فالذى يشكو إلى الله ، هذا صبر جميل ، والذى يشكو من قدر الله ، هذا صبر غير جميل .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف : ١٨] كأن الصبر شاق على النفس فيعقوب لا يستطيع أن يصدق ما يقوله أولاده ، وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يجمع الناس ويقول لهم : أبنائى كذابون ، لقد أخذوا يوسف ولم يعودوا به فابحثوا لى عن يوسف ، تمامًا كالرجل الذى قالوا له : ابنك قتل أخاك ، فقال : نقول للنفس : تعسًا وتعزية ، إحدى يدى أصابتنى ولم ترد كلاهما خلفًا عن فقد صاحبه ، هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى . فالمعونة من اللّه فى مثل هذه الحالة أن نطلب منه أن يرزقنا الرحمة والصبر من قسوة ما حدث ، ولا نتجه بذلك إلى خلق الله ؛ لأن الخالق موجود .

ولذلك علمنا رسول اللّه ﷺ أنه إذا حدث أمر جَلَل فزع الإنسان إلى الصلاة . وأنه إذا صادفه أمر يفوق أسبابه فزع للصلاة ، ووقف بين يدى الله .

يوسف يباع بثمن بخس

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ [يوسف : ١٩] ولم يقل لنا من أين جاءت هذه القافلة ، وهل هى كانت ذاهبة إلى مكان ما أو عائدة ؟ لأن هذا لا يهم فى سياق القصة ، المهم أنهم وصلوا إلى مكان البئر التى فيها يوسف ، وكلمة سيارة معناها جماعة سائرون ، ولكن اللّه سبحانه لم يقل : سائرون . لأن السائر هو الذى يقوم بالسير مرة واحدة .

إنك إذا وجدت باب حجرتك مخلوعًا ، وجئت بقطعة خشب وشاكوش لتصلح الباب لا يقال عنك : نجار ، ولكن يقال عنك . ناجر ؛ لأن النجار هو الذى صنعته النجارة ، أما الناجر

فإنه يفعلها مرة واحدة بغير خبره .

كذلك « سيارة » معناها قافلة تحترف السير من مكان إلى مكان ، ولذلك فهى تعرف دروب الصحراء ، وتعرف مواقع المياه وتعرف أن هنا جبًّا فيها ماء .

أما السائر العادى فلا يعرف ؛ لأنه لا خبرة له . حينما تأتى القافلة وتريد الماء لايذهبون جميعًا إلى البئر ، إنما يذهب بعضهم ليأتى للباقى بالماء ، وهذا اسمه الوارد أى أن الوارد ، هو الذى يرد الماء ليأتى به لبقية القافلة .

لذلك يقول اللَّه سبحانه : ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ والدلو هو « الجردل » و« أدلى » أى ربطه فى حبل وأنزله إلى مستوى الماء ، فإن كان مستوى الماء بعيدًا يطيل الحبل ، ويسمون الحبل « الرشاء » فكلما كان الماء بعيدًا أطال الرشاء ؛ ولذلك يقول الشاعر فى أولئك الذين يبالغون فى مدح الأمراء ليأخذوا منهم العطاء :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه

[لو لم يُقدِّرْ فيه بُعْدَ المستقَى عند الورود لَما أطال رِشاءَه]

لماذا ؟ لأنه لو لم يقدر أن الماء على بعد كبير ما أطال الرشاء أو الحبل . ساعة جاء وارد القافلة وأدلى بالدلو رأى يوسف شيئًا فتشبث به ؛ ليخرج من هذا الجب حينئذ أحس الذى ألقى الدلو بثقل غير طبيعى على عضله ، فنظر ليرى ماذا فى الجب ، والذى قد سبب هذا الثقل الشديد ، كأن حاسة العضل هى التى تعرفنا ثقل الأشياء . فهكذا نعرف أن اللإنسان حواس أخرى غير الشم والسمع والبصر والذوق واللمس ، منها حاسة العضل التى تدلك على ثقل ما تراه أمامك ، فأنت حين ترى أمامك حقيبتين متشابهتين فى الحجم لا تعرف أيهما أثقل بالنظر أو بالشم أو بالسمع أو بالذوق أو باللمس ، ولكن لابد أن تستعمل حاسة العضل وترفع كلا منهما عن الأرض لتعرف أيهما أثقل .

كذلك هناك حاسة البين فى الأنامل ؛ تبين لك سُمْك القماش لتعرف أن هذا غليظ وهذا رقيق ، ولا يمكن أن تعرف أى نوع من القماش أرق إلا إذا أخذت القماش بين إصبعيك لتعرف سمكه .

وارد الماء حين ألقى دلوه ووجده ثقيلًا بشكل غير عادى ، نظر داخل البئر ليرى ماذا

حدث ؟ فوجد غلامًا قد تشبث بدلو الماء . غلام جماله يلفت النظر . فما كان منه إلا أن قال : ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ حينما يقول : يا بشراى فهو يريد من أفراد القبيلة أن يأتوا ليشاهدوا بشرى حسنة ، شيء يهمهم ويفرحهم كأنه يقول لهم : تعالوا وأسرعوا انظروا ماذا وجدت فى البئر ، إنه غلام ! !

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أى أخفوه وسط أمتعتهم ؛ خوفًا من أن يكون أهله يبحثون عنه فيأخذونه منهم ؛ ولذلك أخفوه كأنه بضاعة ، وقرروا أن يبيعوه كالبضاعة . ويقول الحق : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف : ٢٠] إذن فالضمير فى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ هنا تأخذ معنى آخر أنهم باعوه بثمن بخس ؛ فشرى تأتى هنا بمعنى باع وأخذ الثمن ، وكان البيع بثمن بخس والبخس هو النقص ، والنقص إما أن يكون فى الكمية أو فى الثمن ، شيء يساوى مائة درهم تبيعه بعشرين . ولماذا باعوه بثمن بخس ؟ لأنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا منه بسرعة ؛ خوفًا من أن يأتى ذووه أو أهله ويأخذوه منهم ، فهم أسرعوا ببيعه بأى ثمن ليفوزوا بالمال ، قال تعالى : ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أى لم يكونوا يرغبون فيه ولا فى الإبقاء عليه .

يوسف فى مصر

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف : ٢١] ومن هنا نعلم أن سبب الشراء أن الرجل لم يشتره لنفسه بل اشتراه لامرأته ؛ ربما لأنها لم تكن تنجب وكانت هذه المسألة تحزنها ، فعندما نعلم أن الرجل اشتراه لامرأته تعطينا لقطة كبيرة عن دخول الفساد فى البيوت ، التبنى والخدم الذين بلغوا الحلم سواء من الرجال أو النساء هم وراء هذا الفساد ؛ ولذلك فإن اللّه سبحانه وتعالى يأمر بغض البصر والفصل بين النساء والرجال حتى فى البيت الواحد ، قال تعالى : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور : ٣١] .

قول الذى اشتراه لامرأته : أكرمى مثواه ، المثوى هو : الإقامة ، أى أعدى له مكانًا طيبًا ليقيم فيه فسيكون فيه منفعة عندما يكبر أو نتخذه ولدًا . وهذا دليل على أن الزوجة لم يكن لها ولد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف : ٢١] أى بعد ما كان ملقًى فى الجب بدون قميص يلبسه وإخوته له كارهون ، أخذه عزيز مصر وقال لزوجته : أكرمى مثواه . قوله تعالى : ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أى أكرمناه وهيأنا له بيت عزيز مصر .

وقوله جل جلاله : ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف : ٢١] كأن هناك نقلة أخرى ستحدث ليوسف من علمه بتأويل الأحاديث ، والأحاديث هى الرؤى التى يراها النائم ، وقد أدت هذه الرؤى إلى أن يأخذه الملك ويجعله عزيز مصر .

هذا الحديث يرينا أن الإنسان لا يصلح حكمًا على الأحداث ،فإخوة يوسف أرادوا به شرًّا فألقوه فى الجب ، ولكن اللَّه تعالى جعل هذا الشر الظاهرى من أسباب الخير العميم الذى سيصيب يوسف ويجعله عزيز مصر ، ولو علم إخوته أنهم بسبب إلقائهم له فى الجب سيرتفع شأنه ، ما ألقوه أبدًا ؛ لأنهم لا يريدون له خيرًا ، وهذا شأن جميع الظالمين ؛ ولذلك يقال : لو علم الظالم ما أعده اللَّه للمظلوم لضَنَّ عليه بالظلم .

وقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف : ٢١] لأنه لا قوة فى الأرض ولا فى هذا الكون تستطيع أن ترد أمرًا للَّه تبارك وتعالى ، فبالنسبة للإنسان يخشى إن أراد شيئًا أن يأتى من هو أقوى منه فيرد الشىء ولا يحقق له ما يريد ، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى الذى لا إله إلا هو قال للأرض : كونى فكانت ، وقال للسماء : كونى . فكانت ، وقوله سبحانه ﴿كُن﴾ نافذ فى كونه .

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . لا يعلمون ماذا ؟ لا يعلمون أنهم لا قدرة لهم فى هذا الكون ، ولا قوة لهم إلا بما شاء الله ، إنهم يخططون ويحسبون أنهم يفعلون ويظلمون الناس ، والله يُرى المظلوم انتقامه من الظالم ، وكم رأينا فى التاريخ ظالمين اجتمعوا على ظلم الناس ، ولو أن الناس الذين ظلموا تمكنوا منهم ما صنعوا فيهم

ما صنعوه هم فى أنفسهم . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٢٢] والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ يعنى وصل إلى غايته من النضج والاستواء ، فكأن مهمة الإنسان فى الكون تبدأ حين يبلغ أشده ، ويصبح صالحًا لأن ينجب مثله ، تأتيه الغريزة التى نسميها سن البلوغ ؛ لأنه فى هذه السن يبدأ نضج العقل ويستقيم تركيب الجسد ، وما دمت فى عمر تستطيع فيه أن تنجب مثلك ، تكون قد دخلت التكليف وتحاسب عليه .

يوسف عليه السلام تربى فى بيت نعمة وأكرم العزيزُ مثواه ، وأمده اللّه بالحكمة والعلم ليحرسه ، وقد بلغ أشده ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ما هو الحكم ؟ هو الفصل بين قضيتين ، بين خصمين متعارضين حق وباطل ، ومادام اللّه تعالى أعطاه العلم فهو يقدر أن ينقل ما تعلمه لغيره .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إذن فكل إنسان يدخل فى مقام الإحسان ، يقوم الليل يسبح ويصلى ويعبد اللّه كأنه يراه ، يعطيه اللّه تبارك وتعالى ثمرة إحسانه بأن يمده بحكمة وعلم ، وكل واحد يصير على قدر الله ، إذا خلقه فقيرًا ، فيكدح ويقوم بأى عمل ، ويتقنه ويخلص لعمله يقول اللّه تبارك وتعالى له : قبلت قدرى وأحسنت عملك فخذ جزاءك ؛ ولذلك تجد عظماء الدنيا كلهم من هذا النوع ، أعطاهم اللّه تعالى الحكم والعلم ؛ لأنهم أحسنوا استقبال قدر اللّه ولم يتأبوا عليه ، والله جل جلاله عندما يقول حكمًا من الأحكام بالنسبة لنبى أو رسول ثم يعمم الحكم بعد ذلك ، فالحكم ليس له خصوصية للرسول ، ومادام اللّه تبارك وتعالى قد قالها عمومًا ، تكون لكل محسن ، فمن أحسن يعطه اللّه حكمًا وعلمًا ؛ لأنه سبحانه قال : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

امرأة العزيز . . تراود يوسف عن نفسه

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ . معناها أنها تراوده ليس من الشرفة أو فى الشارع أو وهما يركبان عربة ، إنما هو فى بيتها . إذن فهى متمكنة بحكم المكان منه ، وهى التى تراوده **فالمسألة مجموعة عليه من عدة جهات :**

هو تربى فى البيت كخادم لها ، وجوده معها فى حجرة واحدة مسألة لا تثير استغراب أحد ، وهى تلاطفه وتحتال عليه . هنا نجد أدب التناول فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف : ٢٣] إذن .. فالحادث فيه مبالغة ؛ لأنها غلقت الأبواب ولم تغلق بابًا واحدًا ، بل عدة أبواب ؛ حتى لايفاجئها أحد ، مما يدلنا على أن القصر مبنى وكل حجرة ليس لها باب واحد ، بل لها أبواب ، وهكذا القصور تدخل من باب إلى باب .

قوله تعالى : ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ . معناها أنها غلقت بابًا وراء باب ، مما يدل على إدراكها تمام الإدراك أنها مقبلة على فعل قبيح ؛ ولذلك فهى حريصة على أن تخفى ما ستفعل ، وكونها غلقت الأبواب دليل على أنها تريد إذا فتح باب أن تتنبه فلا يفاجئها أحد .

الله سبحانه يقول : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ . أى أنها تهيأت له ، انتقلت من الاحتيال والمراوغة إلى الوضوح فى الطلب . يوسف عندما رأى هذا قال : ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ . والمعاذ هو ما تستجير به ، وأنت لا تستجير إلا إذا كان الأمر فوق قدراتك وطاقاتك ، فتستجير بمن ينجدك ممن هو أقوى منك .

يوسف عليه السلام لم يجد معاذًا إلا الله ؛ لأنه هو سبحانه الذى أعطاه الحكم والعلم ، وقال له : هذا حلال وهذا حرام ، ولأن اللَّه تبارك وتعالى قادر دائمًا على أن يعيذ عباده ويمنع عنهم ما يكرهون . وكلمة : ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ عند المؤمن إذا قالها فلابد أن الأمر عصيب .

الحق جل جلاله يقول : ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ إذن فيوسف لم يوافق على ما تريده ، وطلب المعونة من الله ، وقوله تعالى : ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أن نجانى من الجب ومن شر إخوتى ، وهيأ لى مكانًا رغدًا لأعيش فيه فلا أكافئه بأن أعصيه وأن أجعل نعمه علىَّ وسيلة لمعصيته خصوصًا أن العزيز زوجها قد أكرم يوسف وقال : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف : ٢١] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف : ٢٣] معناها أن اللَّه سبحانه وتعالى يجازى على الإحسان بالإحسان وعلى الظلم بالسوء ، فلا يفلح من ظلم .

كيف همت به وهم بها ؟

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف : ٢٤] . ولقد اختلف العلماء في تفسير هذه الآية ، والهمّ : هو حديث النفس بالشيء قد يفعل الإنسان أو لا يفعل ، ومن رحمة اللّه تعالى بخلقه أنه من همّ بحسنة ليفعلها ولم يفعلها كتبت له حسنة لماذا ؟ لأن ذهنه شغل بها ، ولكنه وجد دافعًا داخل نفسه يدفع ما في ذهنه فلا ينفذه . فهذا أخذ حسنة ، وهناك من تحدثه نفسه بمعصية ، ولكن لا يفعلها ، هذا له حسنة .

العبارة هنا جاءت في أمر المراودة ، هي راودته وهو ممتنع . إذن فهناك مفاعلة : اثنان يتصارعان على شيء ، أحدهما امرأة العزيز : ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾ . والطرف الآخر وهو يوسف ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ . النظرة السطحية تقول : أن هناك مساواة ، هو حدثته نفسه بالفعل وهي حدثتها نفسها بالفعل ، ولكن النص لم يقف عند هذه العبارة ، فقد قال بالنسبة لامرأة العزيز : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ . أي : حدثتها نفسها أنها تريده ، وعندما تكلم الحق سبحانه عن يوسف قال : ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ . لو حللنا هذه العبارة تكون : ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، ولولا حرف امتناع للوجود .

تقول : لولا زيد عندك لأتيتك . فأنا لم آتك لوجود زيد عندك ، بالنسبة ليوسف نقول : لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها ، لولا معناها : أنه لم يهم بها ، والامتناع حدث ؛ لأنه رأى برهان ربه ؛ فكأن العبارة : لقد همت به ، ولولا أنه رأى برهان ربه لهمّ بها ، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمّ بها وتنتهي المسألة .

هي همت به وهو فوجئ بأن سيدته هي التي طلبت منه ولكنه لم يهم بها ، ولو أن اللّه سبحانه قال : لقد همت به ولم يهم بها ، لقلنا : أمر طبيعي حدث كأن انفتح الباب ودخل الناس . ولكن اللّه أراد أن نعرف أنه لولا برهان ربه لهمّ بها ، ولكن البرهان جعله لم يهمّ فليس هناك نقص في رجولته ، ولكن هناك إيمانًا ورعاية من اللّه تعالى ، وعدم الهمّ ليس راجعًا إلى عدم الرجولة وإنما إلى عصمة الله . إذن .. فبرهان اللّه سبحانه وتعالى سابق على الهمّ ؛ لأنه لو همّ ولم يفعل نقول : إن البرهان أتى بعد الهمّ ، ولكن برهان ربه كان في نفسه .

ولقد قال بعض المفسرين : إنه هم بها ، وجلس بين شعبها الأربع ، ولم يرجع إلا عندما

تمثل له أبوه ، وقال له هذه معصية ، **ونقول : إن هذا عبث يتحججون بأن اللّٰه تبارك وتعالى قال :** ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ ولم يقل ولقد همت به ولم يهم بها .

نقول : إن اللّٰه سبحانه وتعالى يريد أن يثبت فحولة يوسف ، وإنه لم يمتنع عنها ؛ لأنه لا يقدر أو لأنه ضعيف ، ولذلك قال جل جلاله : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ . أى أن يوسف كامل الرجولة يمكن أن يهم بها ، ولكن الذى جعله لا يهم بها أن برهان ربه فى داخله ، وهذا البرهان هو الذى جعله لا يهم بها . وإذا نظرت إلى القصة تجد أبطالها امرأة العزيز ، ويوسف ، والنسوة اللاتى دعتهن عندما لمنها ، والشاهد الذى شهد أنه هى التى راودته ، والعزيز نفسه ، كل هؤلاء شهدوا أن يوسف لم يفعل شيئًا .

أما يوسف فقال : ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف : ٢٦] ، وهى اعترفت بعد ذلك أنها راودته عن نفسه ، وقالت : ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف : ٥٣] ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف : ٥٢] ، أى لم أقل عليه كلامًا يخالف الواقع لأى شىء سمعته ، ولقد جاءت آيات اللّٰه كلها تبرئ يوسف ، فهى التى همت به وشهدت بأنها هى التى راودته عن نفسه .

والنسوة اللاتى قطعن أيديهن ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ . والله تعالى صرف عنه كيدهن ، ومادام اللّٰه قد صرف عنه كيدهن ، فالشيطان لا يستطيع أن يوسوس له ؛ لأن الشيطان يدخل فى معركة مع خلق الله ، ولكن عباد اللّٰه المخلصين لا يقترب منهم . واقرأ قوله سبحانه : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] أى الذى يعبد اللّٰه مخلصًا له الدين لا يقربه الشيطان ولا يغويه ، وهناك الشاهد الذى شهد لمصلحةِ يوسف وقال : ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف : ٢٧] .

كل هذا وتجد بعض العلماء يقولون : إنه هم بها ، والحقيقة أنه لم يهم ، وإنما استعاذ بالله واعتصم ببرهان الله ، ما هو البرهان ؟ البرهان هو عبوديته وإخلاصه للّٰه سبحانه وعصمة اللّٰه له .

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ والفحشاء هى

الزنا . فما هو السوء ؟ السوء هو المرحلة السابقة للفحشاء ، هى فكرة الهم وما يصاحبها إذن فامرأة العزيز راودته عن نفسها ، وبمجرد أن راودته أسرع إلى الباب فجرت خلفه لعلها تسبقه وتمنعه من [illegible] الحجرة ، وفى ذلك يقول اللّٰه سبحانه وتعالى : ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ [يوسف : ٢٥] إذن فالمسألة خرجت من المراودة إلى المنازعة ، فهى من سعار ما هى فيه تريد أن تقتله ، وهو يريد أن ينجو بنفسه .

اللّٰه سبحانه وتعالى صرف السوء عن يوسف ، ولم يجعلها تقتله ولم يجعله يقتلها حتى لا يقال دفاعًا عن النفس ، ويقول بعض العلماء : إن قول اللّٰه تعالى : ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ . أى همت به لتقتله وهم بها ليقتلها ، لولا أن رأى برهان ربه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ . تدل على أن الشيطان لم يكن يستطيع إغواء يوسف على المعصية ؛ لأنه لا سلطان له على عباد اللّٰه المخلصين كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص : ٨٣] وبما أن اللّٰه سبحانه وتعالى وصف يوسف بأنه من عباده المخلصين ، فالشيطان لا يستطيع أن يقترب منه ، ولا أن يغويه على المعصية . وقول اللّٰه سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ لم يقصر المسألة على يوسف ولكنه جعلها عامة .

نقول : إن هناك عبادًا للّٰه تعالى يصلون بطاعة اللّٰه إلى كرامة الله ، أطاعوا اللّٰه فأكرمهم الله ، وهناك عبادًا للّٰه يكرمهم فبالإكرام يطيعون اللّٰه **أى هناك قسمان** :

الأول : عباد مخلصون كسبوا وجاهدوا ، ووصلوا إلى كرامة اللّٰه بطاعة الله .

الثانى : من يصل بطاعة اللّٰه إلى كرامة الله ، والفرق بين الاثنين أنه قد يأتى إلى بيتك من يطرق الباب ويطلب خيرًا فتأخذه وتكرمه ، وهناك من تقابله فى الشارع فتأخذه وتكرمه فيزداد بهذا الإكرام طاعة .

إذن فهناك من يطلب فيأذن اللّٰه له ويكرمه ، وهناك من يطلبه اللّٰه ويكرمه فيزداد إيمانًا .

قوله تعالى : ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ [يوسف : ٢٥] أى أن كل واحد منهما يريد أن يصل الباب قبل الآخر ، على أننا لابد أن نلاحظ أن قول اللّٰه تبارك وتعالى : ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ قال قبله : ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ كيف نفهم هاتين الآيتين ؟ نقول : ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ . أى

الباب الآخير الذى يفصل بين حجراتها وبين القصر . لذلك قال سبحانه : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ مما يدل على أن الباب الذى تسابقا إليه كان هو الباب الأخير ، وأنهما تسابقا الأبواب حتى وصلا إلى الباب الأخير ، فوجد العزيز أمام الباب ، والسؤال هنا : أن كل واحد منهما يريد أن يسبق الآخر إلى الباب لماذا ؟ هى المراودة فلماذا تريد أن تسبقه إلى الباب ؟ لتمنعه من الخروج ، وهو يريد أن يسبقها إلى الباب ليهرب . **هنا ستأتى قضية الشاهد وكيف استنبط الحقيقة ؟**

وشهد شاهد من أهلها

قال اللّه تعالى : ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أى من الخلف وهذا دليل على أنه سبقها يحاول الهرب . إذن فهو يريد أن يخرج ، وهى تجذبه بقوة من قميصه لتعيده ، فقطعت القميص من الخلف ، امرأة العزيز حين رأت زوجها أمامها عند الباب ، وكل الشواهد تدل على أنها كانت هناك مراودة بينها وبين يوسف ، أرادت أن تبرئ نفسها وتلصق التهمة بيوسف ، وبأنه هو المذنب وبأنه هو الذى أراد أن يغريها على الفاحشة وهى التى صدته .

لذلك ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هى من غيظها من رفض يوسف لمراودتها له ، وفضحها أمام زوجها تريد أن تعاقبه بأن يسجن أو يعذب ، ولذلك قالت لزوجها : اسجنه أو عذبه عذابًا شديدًا ؛ لأنه أراد السوء بزوجتك .

وهنا رد يوسف عليه السلام : ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ .

إذن .. فهى ادعت أنه يحاول أن يعتدى عليها ، وهو قال : إنها هى التى حاولت أن تغريه على المعصية وعرضت عليه نفسها .

العزيز لم يتصرف تصرفًا أهوج بحكم العاطفة ، وكان من الممكن أن يفعل ذلك ويقتل يوسف فى ثورة غضب ، ولكنه استمع لشاهد من أهل زوجته حتى لا يظلمها ؛ ليفصل فى هذه المسألة ويقول الحقيقة . ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ « شهد » جاءت فى القرآن الكريم بمعان متعددة ، جاءت بمعنى حضر ، وجاءت بمعنى أخبر .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى وليحضر عذابهما طائفة من المؤمنين ، وجاءت بمعنى أخبر فى قوله تعالى : ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ

إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف : ٨١] وتأتى شهد بمعنى حكم ، وذلك فى قوله سبحانه : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ١٨] أى أن اللّه حكم وقضى أنه لا إله إلا هو أو « شهد » أى رجح كلامًا على كلام ؛ لاستباط حق والوصول إلى حقيقة بين وجهتى نظر متعارضتين .

الحق يقول : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف : ٢٦] أى أنه يوثق لشهادة هذا الشاهد بقرابته لامرأة العزيز بأنه من أهلها ، وليس من أهل يوسف ولن ينحاز إليه ، ولو كان من ناحية يوسف لردت شهادته ، على أنه منحاز ليوسف ؛ لأنه من أهله .

ما هى الشهادة ؟ اللّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف : ٢٦، ٢٧] نلاحظ أنه بدأ بالافتراض الذى هو فى صالح امرأة العزيز ، يجعلها صادقة ويوسف كاذبًا . ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ لماذا ؟ لأنه فى هذه الحالة يكون هو المقبل عليها ، وهى التى تحاول الفِرار منه والدفاع عن نفسها ، فهى إما من المقاومة تقطع له القميص من الأمام ، أو هو قد يكون من الاستعجال والمقاومة بحيث يطأ هو نفسه على قميصه من الأمام فيمزقه . إذن فالاحتمال الوحيد لأن يكون يوسف هو الذى حاول الاعتداء عليها ، أن يكون قميصه ممزقًا من الأمام ؛ لأنه لا يمكن وهو مقبل عليها أن يكون قميصه ممزقًا من أى جهة أخرى .

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أى إن كان قميصه ممزقًا من الخلف فلابد أنها هى التى راودته عن نفسها ، وأنه حاول أن يهرب منها فأمسكت بقميصه من الخلف فتمزق ، ولا يمكن والقميص ممزق من الخلف ، أن يكون هو الذى يحاول الاعتداء عليها ، وهى تدافع عن نفسها .

هذه هى الحجة التى قدمها الشاهد ؛ لتفصل بين قولين متعارضين : قول يوسف ، وقول امرأة العزيز .

إذن .. فالشاهد أصدر حكمه أولًا قبل أن يرى القميص ، وأعطى الافتراضين والدليل

على كل منهما ، ورتب على رؤيته للقميص ترجيح حكم على الآخر .

ثم كان الحكم : ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٢٨] والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بشخص ما على أن يتم ذلك فى الخفاء ؛ لأن المحتال ليس له القدرة على أن يواجه عدوه ؛ لذلك يدبر له فى الخفاء ، وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ دليل على أن المرأة كيدها عظيم وضعفها أعظم .

وحينما عرف العزيز أن امرأته أرادت أن تخونه مع يوسف ، وأن يوسف صادق وامرأته كاذبة قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف : ٢٩] أى أن العزيز طلب من يوسف ألا يتحدث فى هذا الأمر أبدًا ؛ حتى لا تسوء سمعة العزيز وزوجته بين الناس .

وقال لزوجته : لقد أذنبت وكنت من الخاطئين فاستغفرى لذنبك .

ولكن الخبر انتشر فى المدينة وانتشر بين النساء ، كيف خرج الخبر من القصر ؟ قد يكون أحد العاملين فى القصر أو من النسوة اللاتى يعملن فى خدمة امرأة العزيز هم الذين أشاعوا الخبر فى المدينة ، ولكنها مسألة لا نقطع فيها بشىء ؛ لعدم ورود الخبر فى القرآن أو الحديث النبوى عنها . فيوسف لن يقول عن نفسه ، وامرأة العزيز لا تقول عن نفسها ، فهل الشاهد هو الذى قال ؟ إن الخدم حينما سمعوا الضوضاء تصنتوا فعرفوا القصة .

المهم أن الخبر خرج من قصر العزيز إلى نساء المدينة بطريقة ما ، وأُبلغ إليهن .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف : ٣٠] كلمة نسوة وكلمة نساء تدل على الجماعة ، ومفردها ساقط فى اللغة ، ولذلك فمفرد نسوة هو امرأة ومفرد نساء هو امرأة ، والعجيب أن المفرد له مثنى وهو امرأتان ، ولكن الجمع لا يأتى امراءات وإنما يأتى نسوة أو نساء ، على أننا لابد أن نلتفت إلى أن القضية الإيمانية متغلغلة حتى فى نفوس المنحرفين والمتسترين عليهم .

العزيز يطلب من يوسف أن يكتم الأمر ولا يحدث به أحدًا ، وفى الوقت نفسه يقول لزوجته : أنت صاحبة الخطيئة ، ولا يعرف الخطيئة إلا من يؤمن بمنهج سماوى ؛ لذلك يقول

لامرأته كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ .

وهذا معناه أنه يعرف أن ذنبًا قد حدث ، وأن هذا الذنب يوجب الاستغفار ، ولا يمكن للعزيز أن يعرف ذلك إلا إذا كان قد عرف منهج الله ، الذى بين له الذنب وبين له طريقة الاستغفار من الذنب ، وأن الله سبحانه غفور رحيم .

مكر النسوة ودهاء امرأة العزيز

ينتقل الحديث بعد ذلك إلى عرض أوسع ، فالمشهد حتى الآن كان رباعيًّا أبطاله امرأة العزيز ، ويوسف ، والشاهد ، والعزيز نفسه ، ولكن الخبر انتقل إلى خارج القصر ، مع حرص العزيز من أول الأمر على أن يبقيه سرًّا بين جدران القصر .

وهذا يدل على أن هناك عيونًا ترصد الأسرار وتنشرها وترويها للناس حتى لا يعتقد أحد أنه يمكن أن يحمى نفسه من الفضيحة لمجرد كتمانها وسترها ؛ فهناك عيون تتبع ما يحدث وتنقله إلى الناس .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [يوسف : ٣٠] قضية واقعة تتناقلها النسوة فيما بينهن فى بيوتهن ، هو أن امرأة العزيز راودت يوسف عن نفسه ، أنها بفعلها هذا فى ضلال مبين .

فماذا كان رد امرأة العزيز ؟ القرآن الكريم يريد أن يلفتنا إلى أن المرأة أكثر كلامًا فى الأعراض ، وأكثر علمًا بالإشاعات من الرجل ، وأن الخبر ينتقل من فم امرأة إلى أخرى حتى يعرفنه جميعًا فى وقت قصير ، أى أن نسوة المدينة عرفن الخبر وتحدثن به ، ولم يمض إلا وقت قصير ، حتى وصل الخبر إلى امرأة العزيز ، بأن النسوة يقلن كذا وكذا .

أدركت أن هذا مكر بها ، وأن قول نساء المدينة ليس غضبة للحق ، ولا كرهًا فى الضلال الذى وقعت فيه ، إنهن أردن شيئًا آخر هو إذلال كبرياء امرأة العزيز ، ونشر فضيحتها بأنها وهى امرأة الحاكم تراود من يخدمها عن نفسه .

إنها امرأة العزيز رفيعة المستوى ، أرفع شخصية فى المدينة . تجرى وراء خادمها ومملوكها وتراوده عن نفسه وهو يرفض ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ وهذا دليل على أنها فهمت القصد من

القول ، ذلك أن الماكر يستر ما يريد أن يقوله في شيء آخر ليدعي أمام خصمه أنه بريء .

لقد فهمت أنهن يردن أن يشعن بين الناس أنها وهي امرأة العزيز- والعزيز معناه الغالب الذي لا يغلب- أرادت أن تعطي نفسها لغلام مملوك اشتروه بدراهم معدودة ولكنه رفض ، لقد قلن إنه شغفها حبًا ولم يقلن أحبته ؛ لأن الحب منازل أولها الهوى ، والهوى يعني أنه رأى الشيء فهواه ، والهوى قد ينتهي بالرؤية ، وقد يستمر لتنشأ علاقة ، ثم تنتقل المسألة من الهوى والعلاقة إلى الكلف في أن هناك مطلوبًا لهذه العلاقة يريد أن يصل إليه ثم بعد ذلك تصل إلى مرتبة العشق ، أي أنه صار هناك تبادل مشاعر وصل إلى مرتبة أن يعلن كل منهما عن مراده ، وينتقل العشق إلى مرتبة التدله ، أي يكاد الإنسان يفقد عقله ، ثم مرحلة الهيام ، يهيم على وجهه ولا يدري أين يذهب .

قوله تعالى : ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف : ٣٠] أي أن حبه انتقل من الإدراك إلى العقل ، فنوقش ثم استقر في القلب أو تمكن منه ، والشغاف هو الغشاء الرقيق الذي يستر القلب ، وهذا دليل على تمكن حبه من قلبها .

امرأة العزيز حين سمعت بمكرهن ، وأدركت أنهن لا يردن بما يقلن كلمة حق ، وإنما يردن إذلالها وإهانتها ، ولم تشغل نفسها بالبحث عمن أخرج هذه الأسرار من القصر ؛ لأنه لابد أن يكون الذي أخرج هذه الأسرار له علاقتان : علاقة بالقصر ، وعلاقة بخارج القصر ، علاقته بالقصر جعلته يدرك أو يرى ما حدث ، وعلاقته خارج القصر جعلته يشيع ما حدث بين الناس .

قال العلماء : إنهن خمس نسوة : امرأة الخازن الذي يأتيه كل من في القصر ليأخذوا ما يحتاجون إليه من مخازن القصر ، وامرأة الحارث أو السايس الذي لا يأتي إلى القصر أو يخرج منه أحد إلا ويعلمه ، وامرأة السجان ، وامرأة ساقي الملك الذي يسقي الملك ، وامرأة الحاجب .

نقل هولاء الأزواج الذين يعيشون داخل القصر إلى زوجاتهم ما سمعوه ، ثم انتقل الكلام من بيت إلى بيت في المدينة ، حتى شاع وانتشر .

امرأة العزيز حينما سمعت هذه الأخبار وشعرت أنهن يردن إهانتها والتشهير بها ، مكرت بهن وأرادت أن تدخلهن في تجربة عملية ، بحيث يراودن يوسف عن نفسه ، فماذا فعلت ؟ أرسلت لهن دعوة بالحضور إلى القصر في ضيافتها .

قال اللّه سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف : ٣١] أى دعتهن وأعدت لهن المتكأ ، وهو الشيء الذى يستند إليه الإنسان فى الجلسات الطويلة ، فالإنسان إذا جلس للحظات لا يحتاج إلى متكأ ، أما إذا كان سيجلس ويمكث ساعات ، فهو يريد أن يتكئ حتى يكون جلوسه مريحًا .

ثم بعد ذلك : ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف : ٣١] ومعنى ذلك أن امرأة العزيز خططت أن ترد على المكر بمكر أشد منه ، لأنه ما دام أعطت كل واحدة منهن سكينا فلابد من مبرر لاستخدام السكين ، سواء كان هذا طعامًا أو فاكهة أو أى شيء آخر . المهم فى هذا كله أن الإنسان حين يستخدم السكين لابد أن يكون منتبهًا إلى ما يفعل ، لأنه لو ضاع انتباهه أو انتقل إلى شيء آخر فستقطع السكين يده ، وهذا ما كانت تهدف له امرأة العزيز ، أن يأخذ يوسف بجماله وحسنه انتباه النسوة ؛ فيقطعن أيديهن ، ولذلك قالت ليوسف : ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فماذا حدث ؟ ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف : ٣١] يقال أكبرت الشيء ، أى : تخيلته قبل أن تراه على صورته ، ولكن حين تراه تجد أن الرؤية أكبر كثيرًا من التخيل ، بمعنى أنك تخيلته فى صورة حلوة ، ثم وجدت آية من آيات الجمال التى خلقها الله .

ثم لما عاد إليهم رشدهم الذى سلبه حُسن يوسف عليه السلام ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف : ٣١] كلمة : ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أى تنزيه للّه تعالى ، التنزيه هنا ؛ لأن اللّه وحده القادر على أن يخلق مثل هذا الجمال الذى يُذهب العقول ، أو أن يوسف منزه أن يكون قد حدث بينه وبين امرأة العزيز شيء ، وهذه الشهادة ليست شهادة تثبت أن امرأة العزيز كانت امرأة قبيحة ، ولكنها تنزيه أن يخلق اللّه مثل هذا الجمال الأخاذ فى يوسف ، ثم بعد ذلك يجعله يرتكب ما يغضب ربه .

وقولهن : ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأنه خرج عن كل صور الجمال فى البشر ، فهو صورة أرقى من الإنسان الذى يرونه كل يوم ، فكأنهن قلن : لم نر مثل هذا بين من نراهم من بنى آدم ، لابد أن يكون هذا ملكًا . ولكن هل رأين ملكًا حتى يحكمن على يوسف أنه ملك ؟ نقول : لا ، ولكنهن تخيلن الملك فى أبدع صورة .

فلما رأين جمال يوسف يتخطى صورة الإنسان قلن : لابد أن يكون هذا ملكًا كنوع من

التخيل ، فالإنسان عندما يرى بشرًا فيه من صفات الجمال ، والكمال الكثير ، فإنه يقول : هذا ليس إنسانًا هذا ملك . لأن الإنسان فى حكمه على الأشياء يتخيلها بالحكم الذى يناسب طبيعتها .

إذن .. قول نساء المدينة فى يوسف : ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ . دليل على أن اللّٰه تبارك وتعالى وضع فيه كل اللقطات ؛ لذا جذبهن جميعًا ، فلم تشذ واحدة ولم يختلفن فى الرأى ، كلهن قلن : ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ دليل على أنه جذبهن بالإجماع ، أو أن اللّٰه سبحانه وتعالى وضع فيه من صفات الجمال ، ما يجعله محببًا إلى القلوب جميعًا ، وهذا من عظيم قدرة اللّٰه فى نبيه يوسف عليه السلام .

وهكذا رأته نساء المدينة ، كل واحدة رأت فيه جمالًا مختلفًا عن الأخرى فصحن : ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ووجدت امرأة العزيز الفرصة ؛ لتبرر ما فعلته وترد على كيدهن ، فقالت كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أى فذلك الذى وجهتن إلىّ اللوم أننى راودته عن نفسه ، وها أنتن ترين ماذا فعل جماله فى نفوسكن .

قوله تعالى : ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ « ذا » إشارة ليوسف و« لكنَّ » خطاب للنساء ، الناس لا يفرقون بين لفظ الإشارة ولفظ الخطاب ، لكن الإشارة شىء والخطاب شىء آخر ، و« ذا » إشارة للمخاطب ، نقول : ذلك فلان . ولكن عندما تشير إلى ذكر وتخاطب أنثى تقول : ذلكِ ، « ذا » تشير للذكر و« كِ » تخاطب الأنثى ، فإذا كنت تخاطب اثنتين تقول ذلكما ، وتخاطب جماعة تقول : ذلكن .

يقول الحق فى القرآن الكريم حكاية عن امرأة العزيز : ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ هنا لابد أن نلتفت إلى أن امرأة العزيز بعد أن كانت تنكر الحقيقة وتحاول أن تخفيها ، وتقول : إن يوسف هو الذى راودها عن نفسها ، اعترفت بالحقيقة لماذا ؟ لأنها فى المرة الأولى كانت فى وضع الاستنكار ، ولكن بين النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، وقلن هذا ملك كريم ، وجدت المبرر لفعلتها ، ولم تجد استنكارًا من النساء ، بل أكثر من الإعجاب فقالت : ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ لأنها لم تسمع لومًا يقول : كيف تراودينه ولماذا تفعلين ذلك ؟ أمام الانبهار الذى استقبلت به النسوة يوسف .

ولذلك قالت : ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ أى فعصم نفسه عن الخطيئة ، كلمة : « استعصم » تدل على التكلف والمشقة فى حجز النفس ، فهل وجد يوسف مشقة ؟ نقول : إن اللَّه تبارك وتعالى يريد أن يثبت أن فحولة يوسف ورجولته غير ناقصة ، وأنه لم يمنعه إلا الإيمان ؛ ولذلك جاهد نفسه ليمنعها ، ولو أن المسألة مرت هكذا لقالوا : إن يوسف ليس له فى النساء ، وهى مثل : ﴿هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ التى تحدثنا عنها فيما سبق .

ولكن امرأة العزيز تجاوزت هذه المرة كل الحدود ، فقالت : ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف : ٣٢] هنا امرأة العزيز تخلت عن حيائها وتحفظها تمامًا ، وهذا لا يحدث إلا فى مجالس النساء ، ذلك أنه عندما يكون هناك رجل فى المجلس ، يكون هناك بعض الحياء ، فكأنها بعد أن رأت أن النساء رأينه وأكبرنه ، قالت : لئن لم يفعل ما آمره به فسأسجنه وأجعله من الصاغرين . وصاغر ليس معناها أنه صغير ، ولكن صغر يصغر معناها أنه صار ذليلًا مهانًا . فهى توجه كلامها للنساء أنتن أكبرتن يوسف ، وأنا سأجعله ذليلًا مهانًا إذا لم يفعل ما آمره به أى : إذا لم يوافقنى على ما أطلبه منه ! !

ولكن لماذا قالت : إنها ستسجنه وتجعله ذليلًا ، ولم تقل : إنها ستطرده مثلًا أو تبيعه لغيرها ؟ لأنها تريد أن تعرف كل الحاضرات أن يوسف لن يخرج من القصر ، وأنه لن يراه أحد إلا هى ، فلو أنها قالت : ستطرده أو تبيعه لسارعن لشراءه وأخذه .

يوسف لم يجد فى هذا الموقف الذى اتفقت فيه جميع النساء الحاضرات ، إلا أن يستغيث بالله ، قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف : ٣٣] نلاحظ هنا ؟ أنه قال : مما يدعوننى إليه . مع أن امرأة العزيز هى التى قالت : ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ﴾ فما دخل الباقيات ؟ يبدو أنهن عندما رأين يوسف أشرن إليه ببعض أنواع الإشارات التى يفهم منها أنهن يراودنه عن نفسه ، أو صدر منهن كلام بذلك لم تأت به الآية الكريمة ، وإلا فلماذا كان الخطاب بالجمع هنا ؟ إنهن ساعة رأينه نسين أنفسهن وسط الانفعالات والذهول ، فكما قطعن أيديهن دون أن يدرين ، صدرت منهن إشارات أو إيماءات أو تعبير بالوجه دون أن يدرين .

فكل واحدة نظرت إليه نظرة تستميله إليها فعرف ماذا يردن ، فسواء راودنه بالكلمة أو

بالإشارة أو بأى طريقة أخرى ، فإنه استعاذ بالله منهن جميعًا .

ودعا ربه قائلًا : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كأن يوسف قال : يا رب ، إن السجن أحب إلى نفسى من معصيتك .

نلاحظ هنا أن يوسف كان يقول : ربى . ولا يقول : إلهى . لأن الألوهية منطق التكليف ، وهو لم يكلف بالرسالة بعد ، ولكن « الله » الرب الذى ربّاه وتعهده ، لن يتخلى عنه فى هذا الوقت العصيب ، فدعا اللّه باسم الربوبية : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ ثم استغاث بالله من بشريته فهو بشر تملؤه الرجولة ، وهو فى سن خطيرة سن البلوغ والرجولة ؛ ولذلك فهو يستغيث بالله بأن يصرف عنه كيد النسوة ؛ لأنه إن لم يصرف عنه كيدهن ، ويقيه مما يردن منه ، سيميل إليهن فى هذه الحالة ويكون من الجاهلين .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يؤكد بشرية يوسف وفحولته ، وأنه أعرض عن هؤلاء النسوة ؛ لأنه وضع منهج اللّه أمام عينيه ، فلو أنه مال إليهن لكان من الجاهلين لماذا ؟ لأنه فى هذه الحالة سيخسر كل شىء ، سيخسر دنياه وآخرته ، اللّه تبارك وتعالى استجاب له ؛ لأنه لجأ إليه ، ولجأ إليه مضطرًا ؛ لأنه ليس أمامه من الأسباب ما يمكن أن يأخذ به ، فإما أن يصرف اللّه سبحانه وتعالى عنه كيدهن ، وإما أن يقع فيما لا رغبة له فيه .

ولأن يوسف دعا اللّه تعالى مخلصًا من قلبه فى ساعة اضطرار ، استجاب له ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف : ٣٤] . أى أن اللّه سبحانه وتعالى يسمع ويعلم ويرى ، ويوسف اتجه إليه سبحانه مخلصًا ، فأخذ اللّه بيده ونجاه من كيد النسوة ، وهو سميع لما يقول عليم بحاله .

ابتلاء يوسف عليه السلام بدخوله السجن

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف : ٣٥] قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ ، أى عندما عرفت النسوة أنه لا فائدة من يوسف ، تآمرن عليه ليدخل السجن ، وكان دخول يوسف السجن دليلًا على استبقاء حركة الحب له فى نفوس النسوة .

ألم تقل امرأة العزيز : ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ . إذن فالسجن استبقاء للحب

لم يقلن اقتلوه لماذا ؟ لأنه كان لديهم أمل فى أن تقييد حركته فى السجن ، سيجعله يفكر فى أن يقبل ما سبق أن رفضة ، وربما الذل الذى سيراه فى السجن بعد العز الذى كان يعيشه فى قصر العزيز يليّن من عناده .

فى السجن تقترب النفوس من بعضها ، ودخل مع يوسف السجن رئيس الخبازين ورئيس السقاة ، كانا يعملان فى قصر الملك ، وكانت تهمتهما أن الخباز كان قد تآمر على الملك ، والساقى كان سيضع له السم فى الشراب . الخباز والساقى قد رأى كل منهما رؤيا ، وطلب أن يفسرها له يوسف ، وهنا نعلم أنهما لابد قد مكثا مع يوسف فترة طويلة لأن هذه الأشياء لا تحدث بين يوم وليلة ، بل لابد من طول العشرة الذى جعلهما يلجآن إلى يوسف فى كل أمر يهمهما ؛ لأنهما رأيا فى يوسف الإنسان السوى حسن الخلق .

قال تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٣٦] .

إذن .. كل منهما رأى رؤيا **أحدهما** : رأى أنه يعصر خمرًا ، **والثانى** : رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه ، فكأن الاثنين قد عرفا أن يوسف يقوم بتأويل الأحلام وبأنه صادق فيما يقول وسواء جرّبا ذلك على نفسيهما أو حدث ذلك بالنسبة لمسجونين آخرين ، فإنهما قد تأكدا من علم يوسف بتأويل الأحلام ، وأنه صادق فى تأويله فقولهما : ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هى سبب سؤالهما له فى الرؤيا التى رأياها ، ولذلك لابد أن يسبق سؤالهما أن هناك أشياء صدرت منه ، بينت أنه من المحسنين كما يدل على أن الإحسان ظاهر فى يوسف عليه السلام ، أى أنهما ليسا محتاجين لتتبع عمله ؛ لأن كل ما يعمله يوسف هو فى مقام الإحسان ، فكأنما المسألة واضحة كرؤية العين لا تحتاج إلى ذكاء أو فكر ، وكل إنسان مؤمنًا كان أو كافرًا ، يعرف الإحسان ويعرف السوء .

ولأن يوسف إنسان على منهج مستقيم وملتزم ، ورأى مَنْ أكبر هذه الخصلة فيه فلابد أن هذين الشخصين عندهما بداية إيمان وإحسان ، ولذلك قرر قبل أن يعطيهما حاجتهما أن يأخذ حاجته منهما أولًا .

نلاحظ هنا أن يوسف لم يتحدث عن الرؤيا التى رآها السجينان ، لقد أخذ يوجههما إلى الطريق المستقيم ، دون أن يجيبهما على ما سألاه ؛ لأنه لو أجابهما أولًا ؛ لانصرفت آذانهما عن الانتباه إلى ما يقوله ، من ترغيب فى الإيمان وتنفير من الكفر ، ولكنه حين يؤخر إجابتهما عما يطلبان ، فإنهما ينتبهان إلى ما يقول ويتوقعان فى كل دقيقة أنه سيجيبهما على ما طلباه ، فينصتان باهتمام شديد فيعطيهما طريق الإيمان .

وهكذا كان يوسف حريصًا على أن يأخذ حاجته منهما ، قبل أن يجيبهما إلى طلبهما ، ويقول لهما ما يريد أولًا ، ويكون بذلك قد شغلهما بشىء أنفع لهما ، وخير مما يسألان عنه ؛ لأن هذا تذكير بالمنهج ، أما الجواب فهو جزئية صغيرة فى حياتهما .

وقال لهما كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ [يوسف : ٣٧] وكأنه يقول لهما : إنه يعلم أشياء كثيرة غير التى يشاهدنها ظاهرة عليه ، ثم أراد أن يأخذهما إلى اللفتة الإيمانية ، فقال : إن هذه ليست من عندى ولاخصوصية لى ؛ لأن هذه علمها لى ربى ، وربى لم يعلمها لى وحدى ، وإنما علمنى وعلم غيرى ، فهو يُعَلِّم كل من يتجه إليه ، ويشرح صدره ، وكان قول يوسف لهم : ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۞ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ .

ولقد قال لهما يوسف من قبل : ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [يوسف : ٣٧] إن يوسف الصديق وهو يخبر صاحبى السجن بما عنده من علم إنما ينسبه إلى صاحب كل علم ، العليم سبحانه : ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ .

يوسف عليه السلام يريد أن يلفت السجينين إلى الطريق إلى اللَّه تعالى ، فيقول : ما تريانه مما علمنى ربى ، لأنى تركت ملة من لا يؤمنون بالله ، واتبعت ملة آبائى المؤمنين الموحدين إبراهيم وإسحاق ويعقوب . وهذه تدلنا على أن الإنسان إذا رأى فى إنسان آخر خصلة خير ، فإن عليه أن ينمى هذه الخصلة ، ويأخذ صاحبها إلى الطريق الصحيح ، ويوسف يريد أن يلفت هذين السجينين ، بأنهما لو ابتعدا عن الكفر وعبادة الأصنام ، وآمنا بالله وحده ، فإن اللَّه يفتح لهما من أبواب رحمته وعلمه .

وكان تأويل الرؤيا أن قال لهما : ﴿يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا

ﭐلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ [يوسف : ٤١] هذا هو تفسير الرؤيا التى قصها الرجلان على يوسف : **أحدهما :** تظهر براءته ويعود إلى القصر ، ويسقى سيده خمرًا . **أما الآخر :** وهو خباز فتثبت عليه التهمة فيصلب ، وتأتى الطير لتأكل من رأسه . إذن فالساقى الذى اتهم بأنه سيضع السم للملك فى الشراب ، تظهر براءته ويعيده الملك إلى خدمته .

والثاني : وهو خباز القصر وكان ينوى دس السم للملك فى الخبز ، تظهر إدانته فيصلب وتأكل الطير من رأسه ، وهذا معنى أنه رأى نفسه يحمل خبزًا فوق رأسه تأكل الطير منه .

وقوله تعالى : ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف : ٤١] يعنى انتهينا وقلت لكما الجواب ومعنى تفسير الرؤيتين ، وقضى الأمر ؛ لأن القاضى ساعة يحكم ، يكون ذلك بموضوعية الحكم وليس بالهوى ، فالهوى يلون الحكم ؛ ولذلك فإن يوسف ألقى بالحكم على ما رآه السجينان دون أن يلتفت إلى أنه ينذر أحدهما بالموت ، قالها دون أى لون من التلوين حقيقة ثابتة ، وقالها دون أن يلتفت للعواطف .

إن المنحرف يحاول أن يجر أصدقاءه إلى ما هو أكثر انحرافًا مما فعل ، وكل مؤمن يذكر قصة صاحبى يوسف فى السجن . ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ :

إن دخول يوسف السجن لم يكن للانحراف ، ولكن رفضًا للانحراف ، ومعه فى السجن قوم دخلوه ؛ لأنهم منحرفون ؛ لذلك رأوا فيه الإحسان ، ولهذا قالا له : ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لقد خطر لهما من سلوك يوسف الصديق الإحسان .

لقد ارتفع فعل وسلوك يوسف الصديق فى نظر المنحرفين ، والقيم الرفيعة معروفة حتى عند المنحرف ؛ لذلك عندما جاء أمر يهمهما فى ذواتهما سألا يوسف ، ونحن نسمع أن لصًّا سرق من هنا أو من هناك ، ثم جاء له أمر ليسافر إلى مكان غير مأمون ، فإنه يذهب إلى إنسان يتوسم فيه الأمانة ؛ ليضع عنده ما سرقه ، ولا يذهب إلى لص مثله . إذن فالقيم هى القيم ؛ لذلك قال السجينان ليوسف : ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ واستغل يوسف المسألة ؛ ليدلهما على الصواب وكان قوله لهما : ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ

﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ لقد نقلهما من حاجتهما الشخصية إلى قضية التوحيد ، وعبادة الإله الواحد .

إن يوسف الصديق يدعوهما إلى المقارنة ، بين الإيمان بالله الواحد وبين التشتت فى العبادة : ﴿ءَأَرۡبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف : ٣٩] إذن .. القيم هى القيم .

ثم ينتقل يوسف عليه السلام إلى نقطة أخرى ، يبرأ فيها من عبادة الأصنام التى كانت منتشرة فى تلك الأيام ، وقد كانت كل قبيلة لها صنم تعبده ، فيقول : ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف : ٣٨] لأن اللَّه سبحانه وتعالى ليس له شريك فهو إله واحد ، وهذا من رحمة اللَّه علينا ، فلو أن هناك آلهة متعددة لتعبنا لأنه سيكون لكل إله أمر ونهى ، ولا نعرف من نتبع ، ولكن وحدانية الألوهية للَّه سبحانه وتعالى رحمة بنا لابد أن نشكر اللَّه عليها ، وكون اللَّه هدانا إلى منهجه فلا نشرك به ، فهذه منة أخرى لابد أن نشكر اللَّه عليها .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى أنه كيف أن قضية الإيمان بإله واحد مريحة للنفس ، تأخذها إلى الصراط المستقيم : ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ أى أآلهة متعددة متفرقون فى ذواتهم وفى عطائهم خير أم اللَّه سبحانه وتعالى وحده ؟ وعندما تطرح هذه القضية لابد أن نتساءل : هل تعدد الآلهة التى يدعيها البعض والتى سادت أيام الفراعنة كانت تكرارًا ؟ أى آلهة متعددة ، وكلها تشبه بعضها البعض ، فى كل واحد منها إله فى ناحية ، فهذا إله البحار ، وهذا إله الأنهار ، وهذا إله الخير وهذا إله الشر ، وفى هذه الحالة يكون الإله المختص بناحية من النواحى ، ضعيفًا فى باقى النواحى التى لها آلهة أخرى ! !

الله تبارك وتعالى فى قصة يوسف يضرب لنا المثل ، فيقول : ﴿ءَأَرۡبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ . هل خير لكم أن تعبدوا آلهه متفرقين ، أم أن تعبدوا إلهًا واحدًا ، هو اللَّه سبحانه وتعالى ، فلو أنكم اتبعتم منهج الله ؛ لجنبتم أنفسكم كثيرًا من المتاعب فى الدنيا والآخرة .

ولذلك كان قول يوسف كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يوسف : ٣٨] ساعة تسمع فى القرآن الكريم كلمة

﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ اعلم أن الأمر الذى يدور الحديث عنه ، يستحق بمقاييس العقل السليم ، والفطرة السليمة أن تشكر اللَّه عليه ، وأنت لا تشكر الله إلا على نعمة ، فلو أنك أخدتها بمقاييسك ، فلابد أن تشكر اللَّه على أنه بلغ رسله المنهج ، وأنه أمرهم أن يبلغوه لك ، فعلمت وعملت فنفعك فى الدنيا والآخرة . وهذه مسألة تستحق منك الشكر لله ، أنه أرسل رسلًا وبلغت المنهج .

قوله : ﴿يَٰصَٰحِبَيِ﴾ كلمة صاحب معناها ملازمك أو مقيم معك . و﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ نسبت الصحبة لمكان الإقامة ؛ لأن الجامع بينهم هو السجن ، والذى يجمع فى الصحبة أشياء كثيرة : صحبة سلاح للمجندين معًا ، وصحبة عمل لمن يعلمون فى مكان واحد ، وصحبة حج لمن يحجون معًا ، وصحبة دراسة لمن يدرسون معًا .

إذن .. فالشيء الذى يربط بين الاثنين ويجمعهما يسمى صحبة كذا ، ويمكن أن تنسب الصحبة إلى مكان الإقامة ، أو أن تنسب إلى الظرف الذى جمع الاثنين .

وقوله : ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ .

حين تجد فى القرآن سؤالًا كن على يقين أنه لا يوجد له إلا جواب واحد ، والسؤال يطرح حتى يعترف المسئول بالحقيقة . قطعًا أرباب متفرقون ليسوا خيرًا من اللَّه الواحد الأحد ، ولكن لماذا نسألهم ؟ لأنهم يعبدون آلهة متعددة ، ثم وجدوا أنفسهم محتاجين للعلم والمعرفة ممن يعبد إلهًا واحدًا ، فيسألهم : ألا توحى لكم ألهتكم بشيء ؟ إنهم ليسوا خيرًا ، ولكن اللَّه الواحد القهار هو الخير ، يوجه هذا السؤال وهو واثق أن إجابتهم لا يمكن إلا أن تكون : عبادة إله واحد خير وأبقى .

ولكن كيف تأمن خصمك على الجواب الذى سيقوله ؟ لا يحدث ذلك إلا إذا كنت واثقًا أنه سيدير كل الأجوبة فى رأسه ، ولن يجد إلا جوبًا واحدًا هو ما تريده أنت ، كأن يأتى إنسان وينكر معروفك عليه ، فتقول له : ألم أصنع معك كذا فى يوم كذا ؟ حينما يراجع نفسه لن يجد جوابًا إلا كلمة نعم ، وهذا إقرار منه بالحقيقة . إذن لا يوجد فى القرآن الكريم سؤال إلا وله جواب واحد ، هذا الجواب هو التسليم بالحقيقة .

وقوله : ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ سميتموها أى

اتخذتموها أنتم ، أى أنتم صنعتم هذا الكفر ؛ لأن الاسم يوضع عادة للدلالة على مسمى ، نصنع الشيء ثم نجعل له اسمًا ؛ حتى إذا نطقنا بالاسم نعرف المسمى ، ولذلك عندما يولد مولود يسمى هذا المولود فلانًا ، فإذا جاء مولود ثان نسمية اسمًا ثانيًا ، وثالث تجعل له اسمًا ثالثًا ، ومعنى هذا أننا نضع لما هو موجود اسمًا ، إذا أطلق انصرف إلى الشخص نفسه ، فإذا قررنا أن نطلق اسمًا واحدًا على أشياء مختلفة ، كان لابد أن نفرق بينها بوصف ، كأن يكون هناك أب ، يريد أن يسمى كل أولاده محمدًا ، لابد أن نميز المسمى الواحد ، فنقول : محمد الكبير أو محمد الصغير ، أو محمد الأول ومحمد الثانى ومحمد الثالث حتى نستطيع أن نميز بينهم .

فالاسم يوضع علمًا على مسمى ، إذن لابد أن يوجد المسمى أولًا ، ثم نضع له الاسم ، فإذا وضع الاسم لغير مسمى ، أو أن المسمى غير موجود ، يعتبر الإطلاق اسمًا لمسمى زائف لا وجود له .

إذن .. فهم وضعوا أسماء ولا توجد مسميات ؛ ولذلك فى الآخرة يقول الله عز وجل : ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر : ٧٣، ٧٤] . إذن ..فلم يكن هناك آلهة على الإطلاق ، وهم أطلقوا أسماء على غير مسميات ، وسيظهر ذلك فى يوم المشهد العظيم فى الآخرة ، وهكذا المسمى ليس له وجود فمن أين جئتم بالاسم إلا افتراء على الله ؛ ولذلك يقول : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أى : أن يكون كفر تقليد للآباء ، وقوله : ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أى : إن الله تعالى لم يطلب منكم ذلك وليس لكم حجة .

ثم يقول : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ . أى لا حكم فى هذا الكون إلا لله ، وما يبلغه الرسل من أحكام يبلغونها عن الله .

والله سبحانه وتعالى وحده له الحكم وله الأمر فى كونه ، وأمره سبحانه وتعالى هو : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أى لا تطيعوا فى أمر أو تنتهوا عن شيء إلا بإذن من الله ، والله تبارك وتعالى أمر أن تعبدوه وحده ، ومعنى العبادة هى طاعة مخلوق لخالق أن يفعل وألا يفعل ، فإذا فعلتم ذلك كنتم على ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى : الدين المستقيم ، أى الدين الحق : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ . لا يريدون أن يعلموا . لا يستمعون لرسول الله ، ويلغون فى القرآن ، ويشوشون عليه ، ويؤذون المؤمنين أو لأنهم رفضوا العلم ، رفضوا استقبال رسالة السماء بقلوب صافية ؛ حتى تهتدى قلوبهم . هؤلاء أبلغوا ولكنهم كذبوا ، وصموا آذانهم وانطلقوا إلى شهواتهم .

ويقول اللَّه تعالى : ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ و ﴿ظَنَّ﴾ أى رجح عنده أنه هو الذى سيسقى الملك خمرًا ؛ لأن ﴿ظَنَّ﴾ لا تعنى اليقين ، ولكنها تعنى الترجيح ، و« الذكر » هو حضور شيء بالبال ، يعنى قضية مر عليها وقت ثم تذكرها فجأة . فالإنسان له استقبالات للأحداث ، هذه الاستقبالات لا تبقى فى بؤرة الشعور ؛ لأن الذهن لا ينشغل إلا بشيء واحد ، فإذا شغل بشيء لا يستقبل شيئًا آخر ، ولكن الشيء يرحل من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ ليستقبل أحداثًا أخرى .

فكل خاطر يستقبله ذهنك يبعد عن بؤوة الشعور ؛ ليأتى خاطر آخر ، ثم يحدث حادث ، يجعله يعود من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ؛ لتتذكره وكأنه يحدث أمامك الآن . إذن فقول يوسف ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ أى حرك ما حدث لى إلى بؤرة شعور الملك ؛ حتى يعرف أننى مظلوم . **وقد قال العلماء عن هذه الجملة :** إنها جعلت يوسف يبقى فى السجن بضع سنين ؛ لأن الأنبياء عملهم مع اللَّه تعالى مباشرة لا بواسطة الخلق ، وما دام يوسف مستقبلًا عن اللَّه سبحانه وتعالى ، فلابد أن يتجه إلى اللَّه مباشرة ، ولا يطلب الواسطة من بشر ؛ ولذلك حينما قال ذلك ، ماذا حدث ؟ : ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ونسيان ذكر اللَّه فيه شيء من العقوبة وشيء من التأديب ، قوله تعالى : ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع من ثلاثة إلى عشرة ، وقد حددها العلماء بأنها سبع سنين .

رؤيا الملك وتأويلها

يُعلمنا ربنا عز وجل كيف يُجرى الأحداث ؛ لتتم أقداره دون أن يشعر أحد ، اللَّه تبارك وتعالى أراد أن يعطى يوسف الحكم ، وأن يكون عزيز مصر ، ماذا حدث ؟ الذى حدث أن الملك رأى فى منامه رؤيا أفزعته . فجمع الملك حاشيته وقص عليهم منامه الذى رآه فماذا قال ؟ قال : ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف : ٤٣] .

رأى الملك هذه الرؤيا ففزع وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف : ٤٣] .

هنا الكلام عن مصر ، والذى اشترى يوسف هو عزيز مصر ، والقصة وقعت فى مصر ، ولكن هناك عزيز وهناك ملك مع أن الذين كانوا يحكمون مصر كانوا يسمونهم الفراعنة ، فكيف حدث هذا ؟ وأين ذهب فرعون ؟

عندما تتبعنا التاريخ واكتشفنا حجر رشيد ، وعرفنا تاريخ مصر القديم وعرفنا لغة قدماء المصريين ، وعلمنا أن هناك فترة من الفترات توقف فيها حكم الفراعنة ، وجاء الرعاة الذين يسمونهم الهكسوس وحكموا مصر . وكان يوسف وإخوته فى وقت حكم هؤلاء الرعاة ، ثم استعاد الفراعنة حكم مصر وطردوا الهكسوس ، وجاءوا بمن تحالفوا معهم فقتلوهم وعذبوهم ، وفى الفترة التى عاشها يوسف لم تكن مصر تحت حكم الفراعنة ، وإنما كان الهكسوس يحكمون ، وكان هنا ملك هو الذى يحكم ، والعزيز مثل الوزير أو رئيس الوزراء ، وهذا من إعجاز التنبؤ فى القرآن الكريم ؛ لأن هذه الحقيقة لم يعرفها العالم إلا حديثًا فى فترة الاحتلال الفرنسى لمصر ، ولكن القرآن ذكرها منذ أربعة عشر قرنًا ، قبل أن يقوم أحد بالعثور على حجر رشيد أو فك رموزه وجاءت الحقيقة العلمية ؛ تأكيدًا لإعجاز التنبؤات فى القرآن الكريم .

ملك مصر عندما رأى هذه الرؤيا طلب تأويلها أى : معناها ، وطلب الفتوى وقال : ﴿أَفْتُونِى﴾ . الرؤيا منامية تتعارض مع الفكر السليم ، فالبقر الهزيل يأكل البقر السمين .

﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف : ٤٣] سمان يعنى : سمينة ، وعجاف : يعنى هزيلة ، طلب الملك أن يفسروا له رؤياه ماذا قال وجهاء قومه ؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يوسف : ٤٤] والضغث هو حزمة حشائش مختلفة الأجناس ، ومادامت ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أى : مختلفة مع بعضها البعض فليست لها تأويل ، قال تعالى : ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف : ٤٤] إن الملك حينما رأى رؤياه عرضها على مستشاريه ، فلم يستطيعوا أن يفسروها ، وقالوا : ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ وقالوا : لا علم لنا بالتأويل ، وذلك هو صدق الاستشارة ؛ لأن الذى يعلن جهله بأمرها ، ويطلب سؤال غيره يكون أمينًا فى رده ، **ولذلك قال العلماء** : من قال لا أدرى فقد أفتى ؛ لأنه حين يقول : لا

أدرى سيضطرك إلى أن تسأل غيره ؛ حتى تصل إلى الحقيقة ؛ كانوا أمناء وقالوا : لا نعرف شيئًا ، من الذى سمع هذا الحوار ؟ إنه الساقى الذى نجا فتذكر ما حدث فى السجن وما قاله يوسف .

وأيضًا فقد قال البعض من أهل تفسير الرؤى أن قوله تعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يعنى أنه يوجد اضطراب فى القول . فمن الذى رأى الرؤيا ؟ إنه الملك . إذن فلا ضرورة للرائى أن يكون مؤمنًا ولا صالحًا . قد يقول قائل : كيف يطلعه اللَّه على مثل هذه المسائل ؟ نقول : قد تكون الرؤيا إكرامًا للرائى ، وقد تكون الرؤيا إكرامًا للمعبر الذى يعرف التأويل ؛ وهى هنا إكرام للمعبر وهو يوسف عليه السلام .

قول الحق جل جلاله : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ [يوسف : ٤٥] إذن .. فالساقى الذى قال له يوسف : إنك ستسقى الملك خمرًا ، سمع وهو يسقى الملك عن الرؤيا التى رآها الملك ، ورأى حيرة القوم ، وتذكر بعد فترة قصته مع يوسف ، وقال : إننى أعرف من ينبئكم بتفسيره . قال : ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ يعنى : ابعثونى إلى من سيروى لنا معنى هذا الحلم وأرسلوه ، وأسرع إلى يوسف ، فماذا قال له ؟

قال كما يقص علينا القرآن : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف : ٤٦] وهنا نلاحظ أن القرآن الكريم يتجاوز الأحداث ، التى يحكم العقل بحدوثها ، فلم يقل الحق سبحانه إن الساقى بعد أن قال لهم : أرسلونى إلى السجن لأسأل يوسف ، تداولوا ثم وافقوا على إرساله ، وأذن له وذهب والتقى بيوسف وقص عليه القصة ، فجاءت المواجهة قوله تعالى : ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ وبعدها مباشرة : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف : ٤٦] . قوله : يوسف أيها الصديق ، تدل على أنه جربه فى مسائل متعددة ، وكان فيها صادقًا ، وأنه صادق فى كل أقواله ، فكأن الصدق يلازم يوسف فى أقوله وأفعاله . أما فى الأقوال ؛ لأنه يقول كلامًا له واقع ، ولا يقول كلامًا لا واقع له ، إذ إن هناك لكل قول قضية كلامية ، وهى التى تنطق بها ، وقضية واقعية وهى فى الحقيقة أو فى الواقع خارج النفس . والكذب أن تقول كلامًا ليس له واقع ؛ لأن حركات الإنسان فى الحياة إما قول وإما فعل .

جاء الساقى إلى يوسف من عند الملك ، فماذا قال له ؟ قال : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أى أننا نريد أن نعرف تفسير هذا الحلم ؛ كى ننقله إلى الملك ؛ لأنه انزعج . والفتوى المطلوبة فى ماذا ؟ ﴿فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أى أن البقر الهزيل يأكل السمين ، وهذا ضد طبيعة الأشياء ؛ لأن المفروض أن البقر السمين القوى هو الذى يفتك بالبقر الضعيف الهزيل . ثم ماذا ؟ : ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ .

الحق سبحانه يبين أن الساقى جاء يطلب هذه الفتوى ليس لنفسه ، ولكن لمن أرسلوه ، وهو الملك وحاشيته ؛ ليخبره بتفسير يوسف ؛ لذلك يقول كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

لماذا قال : ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ﴾ ولم يقل لأرجع ؟ لأن الساقى وقد أثر فيه ما أبلغه يوسف فى السجن يعلم أن الأمور ليست بيده ، وهو ليس متيقنًا أنه سيعود إلى الملك ، فقد يأتى قضاء اللَّه ولا يصل بالفتوى إلى الملك وحاشيته ؛ ولذلك لم يقل : لأرجع . ولكن قال ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ﴾ ؛ لأن رجوعه قضية لا يجزم بها ، وذلك إيمان منه بقدر اللَّه تعالى مع الإنسان ، فرجوعه ليس فى يده ؛ لذلك الاحتياط مع قدر اللَّه يخرجك من أن تكون كاذبًا .

إذن .. فاستعمال كلمة : ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . احتياط آخر فى الأداء ، ويقول ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ﴾ ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، يعلمون ماذا ؟ يعلمون القضية ، أو يعلمون التأويل ، أو يعلمون منزلة يوسف عند ربه وقدراته ؛ ليخلصوه من السجن الذى وضع فيه ظلمًا ، أو يعلمون علم يوسف وفضله .

قوله : ﴿أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ نحن نعرف أن الملك هو الذى كلفه ، وأن الحاشية قد اختلفت فيما بينها فى إرساله ، وقال بعضهم : لا ترسلوه ، وقال بعضهم : أرسلوه ، ولكنه قال : ﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ . أى أنه نسبها للكل ؛ لأنه ساعة يعود لن يستمع إليه الذين وافقوا على إرساله فقط ، ولكن سيستمع إليه من قالوا : أرسلوه . ومن قالوا : لا ترسلوه .

يوسف عليه السلام أبلغ مندوب الملك تفسير الرؤيا ، فماذا قال له ؟ : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف : ٤٧، ٤٨] .

يوسف عليه السلام أفهم الساقى أنهم سيزرعون سبع سنين ، يواصلون خلالها الزراعة ، وهذا

معنى كلمة : ﴿دَأَبًا﴾ . أى لا يوجد كسل ، ونتاج هذا الزرع اتركوه فى سنبله ، أى لا تتصرفوا فيه بالتجارة ، ولا بالمبادلة ولا بأى شيء آخر ، الزرع الذى تحصدونه فى هذه السنوات السبع ، خذوا منه بقدر حاجتكم إلى الطعام ، على أن يكون ذلك أقل ما يمكن .لقد علمتنا هذه الآية الكريمة حقيقة اهتدى إليها العلم أخيرًا بالبحوث المختلفة هى : أن الشيء إذا ترك أو تم تخزينه فى وعائه من القشر الخارجى ، فذلك يحفظه من السوس .

إذن فيوسف أخبرهم بأن يتركوا القمح ، الذى سيرزعونه خلال هذه السنوات السبع فى غلافه الخارجى حتى يقيه من السوس والآفات . إذ فليس المطلوب فقط الزرع بجد واجتهاد السنين السبع القادمة ، ولكن المطلوب أن يتركوه أيضًا فى سنابله أى غلافه الخارجى ، بل إن بعض العلماء يقولون : إن المطلوب هو أن يترك القمح فى عيدانه كلها ، وليس فى السنابل أو الغلاف الخارجى ؛ وذلك لكى يأكل الناس ما فى السنابل ، وتأكل الحيوانات عيدان القمح .

ومادامت الحيوانات ستأكل العيدان ، نكون بذلك قد وفرنا الغذاء فى فترة الجدب ، للإنسان والحيوان وليس للإنسان وحده ، كما أننا عندما نطحن القمح بقشره تخرج منه الردة « النخالة » ، والردة الخشنة غذاء أيضًا للحيوان ، كما أننا حين « ندرس » القمح كى نذرّيه نفصل الحبة عن قشرتها . إذن فهناك غلافان لحبة القمح : الغلاف الأول : هو القشر الذى نطيره عندما نذرّيه ، والقشرة الثانية : تخرج عند طحن القمح .

وقوله : ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ . إشارة إلى القشرة الحافظة للقمح فهى حافظة وداخلة فى كيماوية الغذاء ، فالناس الذين كانوا مترفين ، يطحنون القمح ويتخلصون من القشرة ؛ ليحصلوا على الدقيق الأبيض ، الذى لا يوجد داخله شيء من الرّدة ، هذه القشرة التى يتخلص منها بعض الناس ؛ ليحصلوا على الدقيق الأبيض الصافى ، هى التى امتن بها اللَّه جل جلاله على خلقه فى قوله : ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن : ١٢] أى ذو القشرة التى وجد أنها تحتوى على كمية كبيرة من المواد اللازمة للجسم .

ثم ماذا بعد ذلك ؟ : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف : ٤٨] قوله تعالى : ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ . أى ما حفظتموه فى سنوات الرخاء ، تأتى السنوات السبع الشداد وتأكله ، وهنا نسب الحدث للزمن فقال : ﴿يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ

﴿شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ هل السنوات السبع الشداد هى التى ستأكل ، أم الذين يعيشون فى هذه المنطقة خلال السنوات الشداد هم الذين سيأكلون ؟ والحدث يحتاج إلى زمان ومكان ، هنا نسب للزمن ؛ لأنه هو الذى نسبت إليه الأحداث مرة رخاء ومرة شدة ، وينسب الحق تبارك وتعالى الحدث للمكان فى قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ [يوسف : ٨٢] . هل سنسأل القرية أم نسأل أهل القرية ؟ وهل سنسأل عير القافلة أم سنسأل أصحاب القافلة ؟ إذن فقد ينسب الحدث إلى المكان أو الزمان ، إذا كان للزمان والمكان خصوصية فى الحدث ؛ ولذلك نسب الأكل للسبع الشداد .

وقوله : ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى من العرق والعمل فى المحاصيل التى أتت بها سنوات الرخاء .

قوله : ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ كلمة حصن معناها الامتناع . يقولون : بنوا حصنًا ليحتموا فيه إذا هاجمهم أعداؤهم ، بحيث يمتنع على أعدائهم النصر وتمتنع عليهم الهزيمة ، واقرأ قوله سبحانه : ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء : ٢٤] أى : المتمنعات عن الفجور ، ويقول جل جلاله : ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ . أى : امتنعت عن التفريط فى عرضها ، كل هذا معناه الامتناع ، ومعنى ذلك : أنكم بعد انتهاء السبع الشداد ، ستحتاجون إلى تقاوى ؛ ولذلك فلا تأكلوا القمح كله ، لابد أن تبقوا ما ستستخدمونه كتقاوى بعد انتهاء سنوات الجدب ؛ ولذلك امتنعوا عن أكل التقاوى ، واحفظوها جيدًا فلا يصل إليها أحد ؛ لأنكم إن أكلتموها يكون القمح قد نفد ، فلا تجدوا ما تزرعونه .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف : ٤٩] هذا خارج عن الرؤيا ؛ لأن الرؤيا : ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ﴾ انتهت الرؤيا عند السنة السابعة من السنوات الشداد .

كلمة : ﴿ثُمَّ يَأْتِى﴾ هذه نبوءة من يوسف ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أى يعانون معاناة شديدة ؛ والغيث ينزل لينقذ الناس من الجدب ، يغاث الناس أى لا يحصلون إلا على قوتهم الضرورى ، ﴿يَعْصِرُونَ﴾ أنت لا تعصر شيئًا إلا إذا احتجت إلى كل قطرة منه ، فإن كان عندك تمر مثلًا أكلت منه ، ثم قلت اعملوا جزءًا عجوة وجزءًا آخر جففوه ، فهذا دليل على أن عندك فائضًا ،

ولكن إذا جئت لهذا التمر ، وأخذت منه تمرة تمرة ، وقلت حافظوا عليه فكأنك لا تملك منه الكثير ولذلك تأخذه قطرة قطرة كأنك تعصره .

الملك يطلب لقاء يوسف

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف : ٥٠] . لم يقل : إن الساقى رجع إلى الملك ، وروى له ولحاشيته ماذا قال له يوسف ، ثم تداولوا وقرر الملك أن يرسل فى طلب يوسف ؛ لأن هذا مفهوم بالسياق ، ونحن نلاحظ أن هذه سمة مميزة للقرآن الكريم ، فهو يترك الأشياء التى يتوصل إليها العقل ؛ لتجتهد العقول فيها .

القرآن تجاوز ذلك كله ، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ [يوسف : ٥٠] فلما جاءه الرسول ، معنى هذا أن يوسف كان مازال باقيًا فى السجن ، حتى بعد أن فسر رؤيا الملك ، ولذلك عاد الساقى إلى السجن مرة أخرى ؛ ليبلغ يوسف أن الملك يريد أن يراه ، فقال يوسف كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف : ٥٠] . وهكذا رفض يوسف عليه السلام ، أن يخرج من السجن الذى هو فيه ، إلا إذا برئت ساحته براءة يعرفها أهل المدينة جميعًا بما فيهم الملك ، وطلب يوسف أن يسأل الملك النسوة ، كيف راودن يوسف عن نفسه ، وهكذا تعطينا قصة يوسف العبرة التى تخدمنا فى قضايا الحياة فبراءة الساحة أمر مهم بالنسبة لكل إنسان ، ومادام بريئًا فلابد أن تعلن براءته ويعرفها الجميع ، لم يرد يوسف أن يخرج من السجن وتلاحقه الإشاعات الكاذبة رغم أن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم براءته ، لكنه أراد أن يعرفها الناس جميعًا ؛ لأنه رسول ، والرسول قدوة سلوكية ، ولكى يؤدى رسالته ويتبعه الناس ، لابد أن يكون قدوة سلوكية لا تشوبها شائبة .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ معناه أنه سيقربه إليه ، ولكن رغم هذا فإن يوسف رفض أن يترك السجن إلا بعد أن يبرأ علنًا ، ومن الملك وأمام الناس جميعًا ؛ ولذلك يُروى عن رسول اللَّه ﷺ ما معناه : رحم اللَّه أخى يوسف ، لقد كان كريمًا حينما جاءه الرجل يسأله عن تفسير الرؤيا ، كان من الممكن أن يقول لن أفسرها إلا إذا أخرجتمونى من السجن ، وكان كريمًا حينما قال الملك أئتونى به ، وذهب إليه من يأخذه ، فقال لن انتقل إلا

إذا نظرت حكاية النسوة ، وكان كريمًا حينما ستر على امرأة العزيز ، وقال : ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ .

قال الملك : ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف : ٥١] الملك جمع نسوة المدينة ، وخاطبهن وواجههن بأنهن راودن يوسف عن نفسه ، المرادة بالاتهام هى امرأة العزيز ، ولكن الملك بناء على ما قاله يوسف ، جمع كل النسوة وقال لهن : ما خطبكن ؟ والخطب حدث ولكنه حدث هام يتناقله الناس ؛ الملك حينما خاطب النسوة ، اعتبر أن مراودتهن يوسف عن نفسه عملية خطيرة ، تدل على انعدام القيم ، ولما رأى النسوة هذه اللهجة الشديدة من الملك ، أسرعن ينفين التهمة عن أنفسهن ، فقلن : ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ نلاحظ هنا أنهن يتحدثن عن مسألة مراودتهن يوسف ، أى برأن يوسف ولم يبرئن أنفسهن : ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهًا ليوسف من أن يفعل ما يغضب الله ، وقلن : ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ . يعنى يوسف كريم الخلق لا يفعل سوءًا أبدًا ، بالنسبة لهؤلاء النسوة أو غيرهن ، وكانت امرأة العزيز جالسة مع هؤلاء النسوة ، فقد أتى بها الملك معهن ، ولم يشر إليها القرآن الكريم إلا عندما تكلمت وقالت : ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف : ٥١، ٥٢] .

امرأة العزيز وقفت وقالت : إنه لم يعد هناك مجال للستر ، أنا راودته فعلًا وهو صادق ، مما يدلنا على أن الجذوة الإيمانية فى الإنسان تتوهج ، وأنه قد ينسى الله ، ولكن عندما ينتهى الخاطر السيئ ، يعود إلى توازنه الكمالى ، وربما جعل من الزلة الأولى ، وسيلة الإحسان فيما ليس له فيه ضعف . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود : ١١٤] . ولو أن الإنسان عمل سيئة ، فقد يضاعف من حسناته حتى يغفر الله له هذه السيئة ، ولذلك على الإنسان أن يكثر من عمل الخير ، ليمحو الله سيئاته التى سترها عن الناس .

قول امرأة العزيز : ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف : ٥٢] يعنى حتى يعلم يوسف أننى فى غيبته دافعت عنه ، وقلت الحق وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٢] معناه أن الجريمة لا تفيد ، ولا بد أن يعرف الناس الحقيقة ولو بعد حين .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾

[يوسف : ٥٤] . يعنى أنا لا أريد أن أبرئ نفسى كذبًا ؛ لأن النفس على إطلاقها تأمر بالسوء ولكن يوسف نفس ؛ ولذلك قال القرآن الكريم : ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ومعنى غفور : أى للذنوب ، ورحيم يمنع الإنسان بعد ذلك من الوقوع فى الذنب ؛ لأن الإنسان محتاج إلى ما يشفيه من المرض وإلى ما يعطيه مناعة ؛ حتى لا يعود إليه المرض مرة أخرى ، ولذلك يقول المولى جل جلاله : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء : ٨٢] أى أنك عندما تؤمن بمنهج الله يشفيك مما أنت فيه يشفيك من الداء ، ثم يعطيك المناعة فلا يعود لك المرض أبدًا .

قوله تعالى : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من تمام قولها أم لا ؟ بعض العلماء قالوا : إنه من قول يوسف عليه السلام ، عندما أُبلغ أن امرأة العزيز قالت كذا وكذا . قال يوسف : أنا لا أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ؛ لأن هناك أحيانًا يأتى غرور الإيمان فى النفس ، فيحاول الرسول أن يتذكر أنه بشر لا تعصمه إلا رحمة الله ، ومن لطف الله سبحانه أنه قال : ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ . ولم يقل : آمرة بالسوء ، « أمرة » يعنى تأمر بالسوء مرة أما « آمرة » فمعنا أن عادتها هى السوء لماذا ؟ لأن التكاليف الإلهية كلها إما أمر أو نهى ، الأوامر تكون صعبة على النفس أن تفعلها والنواهى عزيز على النفس أن تتركها ، العاقل ينظر إلى الغاية البعيدة الباقية ، كيوم القيامة ولا ينظر إلى اللذة العابرة .

تمكين الله عز وجل ليوسف عليه السلام

يقول الحق تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ [يوسف : ٥٤] فكأن الملك قال أئتونى به مرتين ، مرة حين رفض يوسف الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ، والمرة الثانية عندما ظهرت براءة يوسف فذهب إلى الملك ولما التقيا قال له الملك : ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ . أقاله الملك بمجرد وصول يوسف إلى القصر ؟ لا ، لابد أنه جلس وتحدث معه ووثق من علمه ، ووثق من أمانته وحفظه ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف : ٥٤] دليل على أن الملك اختبر يوسف مرة ، وربما مرات ووثق فى علمه وأمانته .

إذن .. ما السبب فى أن الملك مكن يوسف من الحكم واستأمنه على أشياء كثيرة ؟

السبب : أنه حفيظ وعليم ، أى أنه حافظ على أعنف غريزة فى الإنسان ، وهى غريزة الجنس ، وحافظ عليها وهو فى عنفوان شبابه ، فكأنه ليس مندفعًا ، بل هو قوى يستطيع أن يكبح أعنف الغرائز ، وكذلك فإن يوسف عليم ؛ لأنه الوحيد الذى استطاع أن يفسر للملك رؤياه ، وهذا يقتضى علمًا ، كما أن الملك حين كلمه اكتشف فيه رجاحة العقل ، والقدرة على الفكر السليم ، وكل الصفات المطلوبة فى عزيز مصر ؛ ولذلك فإن الملك قال سأستخلصه لنفسى ، أى سأجعله مقربًا منى ، فلما كلمه واكتملت عنده الصورة الطيبة ، قال له : ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى : ممكن ، أى : من أهل الثقة الذين لا يُطعن فيهم .

إذن .. فيوسف عليه السلام أصبح من أهل الثقة ، لماذا ؟ لأنه حاز ثقة الحاكم ، وفى نفس الوقت كان يجب على الحاكم أن يتأكد من صلته بالمحكومين ، فى أن يكون أمينًا معهم ، لا يحابى أحدًا على حساب أحد ، وهذا ما زاد يوسف عليه السلام كفاءة فى وظيفته . لذا يتحتم على أهل الحكم ألا يفضلوا أهل الثقة ، على أهل الخبرة الذين يعرفون الشىء معرفة دقيقة . حينما سمع يوسف هذا الكلام وعرف أنه حاز ثقة الملك ، قال : لو طلبت منه الآن شيئًا ، لأعطانيه وأنا سأطلب ما يتعلق بتفسير الرؤيا ، سأطلب أن أكون على خزائن الأرض ؛ لأنقذ الناس من المجاعة ، وأحفظ لهم حياتهم ، فقال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ وكان هذا الطلب تأكيدًا لثقة يوسف فى أن رؤياه ستتحقق فى سبع سنين رخاء ، وسبع سنين جدبًا ، وأنها محتاجة لحكمة وإدارة ، فى سِنى الخصب تضمن ألا يحدث إسراف فى الاستهلاك وفى سنوات الشدة تضمن أن كل محتاج إنسانًا كان أو حيوانًا ، كل كائن حى سيجد طعامه ، وهذه تحتاج إلى علم يعطيك حكمة التصرف ، وأمانة تعطيك العدل بين الناس ، وخبرة تضع كل شىء فى موضعه تمامًا ؛ لذلك طلب يوسف عليه السلام أن يكون على خزائن الأرض ؛ لأنه حفيظ عليم .

يوسف عليه السلام طلب الولاية ، وطالب الولاية فى الإسلام لا يولى ، ولكن الظروف التى أدت إلى تولى يوسف ، لم تكن ظروفًا عادية بل كانت ظروفًا استثنائية ؛ ولذلك فى هذه الظروف ، لابد لمن له الحكمة أو الخبرة ، أن يعرض نفسه ويطلب أن يتولى الأمر .

وقوله : ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أى اجعلنى أتولى الاقتصاد ، وقوله : ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى عندى من الخصال ما يتطلبه العمل .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف : ٥٦] مكنا ليوسف كيف ؟ بأن اللَّه تعالى علمه تأويل الأحاديث ، ثم جعل الملك يرى رؤيا تزعجه ، لم يفسرها إلا يوسف ، ومكنه بأمانته وحسن خلقه ، ومكنه بأن أبطل كيد إخوته الذين تآمروا عليه ؛ وألقوه فى الجب ليباع عبدًا ، ليس هذا فقط ، بل إن يوسف ابتلى من كل من أحبوه ، فابتلى من عمته التى تحبه فاتهمته بالسرقة كيدا ، لتبقى عليه معها ، وابتلى بسبب حب أبيه له ، فأخذه إخوته وألقوه فى الجب .

وابتلى بحب امرأة العزيز فدخل السجن ، وحكاية عمته أنها كانت تحبه جدًّا وربته وهو صغير بعد أن ماتت أمه ، وأراد أبوه أن يأخذه منها ، ولكنها لم تكن تصبر على فراقه ، ففكرت كيف تبقى يوسف عندها ، وكان هناك حزام يتحزم به إبراهيم ، اسمه مِنطقة إبراهيم ، والحزام كان عند عمة يوسف ، وكان المبدأ أن من يسرق شيئًا يعاقب بأن يصبح عبدًا لمن سرقه .

عمة يوسف عليه السلام ألبسته مِنطقة إبراهيم تحت ثوبه ، وعندما جاءوا ليأخذوه قالت إنه سرق .

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف : ٥٦] كلمة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تدل على سعة ساحة الأرض ، التى مكِّن منها يوسف ، ومعنى ذلك أن المشكلة كبيرة ؛ لأنه عندما يأتى جدب ويشمل منطقة كبيرة ، فإن العبء يكون ثقيلًا ؛ لكثرة عدد الذين يطلبون الطعام ، ولذلك كانت القوافل تأتى من الشام وغيرها ، من الدول المجاورة لمصر ؛ لتحصل على القمح ، مما يدل على أن الجدب كان عامًّا وشمل المنطقة كلها .

وقوله تعالى : ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ . أى يسكن فى أى بقعة شاء ، وفى أى منطقة يريدها ، وهذا يؤكد أن يوسف عليه السلام ، كان يتمتع بحب الناس ، وأنه فى نفس الوقت كان يتنقل من بقعة إلى أخرى ؛ حتى تنال كل البقاع قدرًا مساويًا من الاهتمام .

والحاكم حين يقيم فى منطقة ، تلقى اهتمام الدولة لمرافقها وطرقاتها ، كما أن هذا يدل على أن كل الأرض المحيطة كانت تخضع لإدارته ، وأنه يكون يومًا هنا ويومًا هناك ، وليس هذا ترفًا ولكنه نوع من التكليف ، فوجود يوسف فى أى منطقة ، سيجعل الناس تنشط من أجله ويستفيد بذلك المحيطون .

الله سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن يوسف عليه السلام مُكن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، أراد أن يلفتنا إلى أن ذلك رحمة للناس ؛ لأنه فى كل منطقة سيذهب إليها ، سيعرف المشاكل على حقيقتها أو على الطبيعة ويحلها فإذا كانت هناك منطقة محرومة من المياه ، أنشأ فيها خزانات للمياه ، وإذا كان لا يأتيها طعام أمر لها بالطعام ، هذا بالنسبة لأمور الدنيا ، وبالنسبة لجزاء الآخرة قال سبحانه : ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والمحسن هو الذى يؤدى فوق ما طلب منه ، وأجر المحسنين فى الدنيا لا يضيع ، وفى الآخر لا يضيع أيضًا ، ولكنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف : ٥٧] والخير يقابله الشر ، فهل أجر المحسنين فى الدنيا شر ؟ نقول : لا ، **كلمة خير تستعمل استعمالين :** استعمال أن شيئًا خير من شىء ، واستعمال أن كِلا الشيئين خير . يقول رسول اللّه ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى اللّه من المؤمن الضعيف وفى كل خير » .

إذن .. فالمؤمن الضعيف كونه عند اللّه أقل درجة من المؤمن القوى ، لا يعنى أنه شر ولكن هو خير ؛ ولذلك قال رسول اللّه ﷺ : « وفى كل خير » فالمؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف ، هذه اسمها أفعل التفضيل .

أما الخير الذى يقابله شر فاقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٨] .

وقوله تعالى : ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعدل ميزان حركة الحياة ؛ لأن ميزان حركة الحياة لا يستقيم بالحديث عن الآخر فقط ؛ لأن الكافر الذى لا يؤمن بالآخرة ، وينكرها يملأ الدنيا ظلمًا وعدوانًا ؛ لأنه يعتقد أنه ليس هناك آخرة ، ولذلك لابد أن ينتقم اللّه من الظالم فى الدنيا ؛ ليكون عبرة لغيره ، وفى نفس الوقت يعطى للذى يحسن فى الدنيا حسنة ، ويقول له : إن أجرك فى الآخرة سيكون خيرًا من أجرك فى الدنيا .. لماذا ؟ لأن خير الدنيا إما أن تفوته أو يفوتك ، ولكن أجر الآخرة أبدى ودائم ولذلك فهو خير .

لقاء يوسف عليه السلام بإخوته

نعود إلى إخوة يوسف ، فمنذ أن ألقوه فى الجب لم نعرف ماذا فعلوا ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف : ٥٨] لقد

جاء إخوة يوسف ، وهم عصبة يتحركون مع بعضهم ، جاءوا فى طلب القوت ؛ لأنها مجاعة ولا يوجد طعام إلا فى خزائن يوسف ، ولا يصرف للناس إلا بأمر منه ، يوسف عرفهم ؛ لأنهم لم يتغيروا ، ولكنهم لم يعرفوه لماذا ؟ لأنه كان صغيرًا وأصبح رجلًا ولأنه كان على خزائن الأرض ، فكانت هذه تعطيه هيبة ، أما إخوته فقد كانوا كبارًا فلم تتغير ملامحهم ولكنه تغير ؛ لأنه أصبح عزيز مصر ، يعيش فى قصر محاطٌ بأشياءَ كثيرة لا تمكنهم من معرفته ، مضافًا إلى ذلك أنهم كانوا مكروبين ، فلم يدققوا فيه ، فقد جاءوا لطلب الطعام ، وكان هذا كل همهم ؛ ليحفظوا حياتهم وحياة أهلهم ، كما أنهم لم يتوقعوا أن يكون يوسف هو العزيز .

والحق سبحانه وتعالى يخبرنا بعد ذلك لماذا جاء إخوة يوسف ؟ فيقول : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ [يوسف : ٥٩] وهكذا أسلوب القرآن الكريم ، لا يذكر الخطوات التى يمكن للعقل أن يصل إليها بالبديهة ؛ ولذلك لم يقل لنا : إنهم جاءوا لطلب الطعام ، وقالوا له : إننا نحتاج إلى طعام ، وأن عددنا كذا ، وأنه أمر بإعطائهم ما يريدون ، وإنما قال : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ والباقى يمكن أن يستنتجه العقل بسهولة .

وهذه لقطة تعطينا ما كان فيه إخوة يوسف من اضطراب عقلى ؛ لأنهم كانوا يريدون الحصول على طعام ، ولم يكن تفكيرهم إلا فى هذا الطعام .

ذلك أن يوسف قال لهم : ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ وكان العقل يقتضى أن يقولوا : من الذى أعلمه أن لنا أخا من أبينا ؟ . لم ينتبهوا إلى هذا ؛ لأن المجاعة والحصول على الطعام كان هو الهم الأكبر لجميع الناس . قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ الجهاز هو ما جاءوا من أجله ؛ لينقلوه من مكان إلى مكان أى : القمح ، وهو الأمر الذى جاءوا ليحصلوا عليه .

قول يوسف عليه السلام : ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ لأن كل واحد جاء على بعير ، والبعير موضوع عليه الثمن ، يحمل القمح ويترك الأثمان ، سواء كانت على هيئة أقمشة أو غير ذلك .

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أى أعطيتكم حقكم فى الكيل وزيادة ، ولو جئتم بأخيكم من أبيكم ، فسأزيد الكيل لكم ؛ ولذلك قالوا وهم يساومون أباهم على أخذ أخيهم . قالوا :

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يوسف يحاول أن يغريهم حتى يأتوا بأخيه .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ المنزل فى ظاهر الأمر عكس المعلى ، ولكن هنا معناها الذى ينزل المكان ، ويكون المكان معدًّا له إعدادًا فيه كل متطلبات الحياة ؛ ولذلك يسمون الفنادق بالنُّزُل .

قوله تعالى : ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ إخبار يؤكد أن إخوة يوسف هم الذين نزلوا عنده ، وأن اللَّه سبحانه وتعالى قد جعلهم يأتون وينزلون عنده ؛ ليقول لهم أحضروا إلىَّ أخاكم من أبيكم ، ثم يتبع ذلك بقوله : ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف : ٦٠] . الوقت وقت مجاعة وجدب وقحط ،ومثل هذا الإنذار يجعلهم يحاولون أن يأتوا بأخيهم بأى طريقة ؛ لأن يوسف لو نفذ تهديده ، ومنع عنهم الكيل فسيواجهون الموت جوعًا .

يوسف عليه السلام قال لهم : إن لم تأتونى بأخيكم من أبيكم ، فلا يوجد لكم كيل عندى ، ولا تقربوا هذه الناحية أبدًا ؛ لتحصلوا على طعام .

المسألة بالنسبة للإخوة ليست سهلة ، فهو خيّرهم بين أن يأتوا بأخيهم ، أو لا يأخذون الكيل . وهم يعرفون أن أباهم لن يثق فيهم ، بعدما فعلوه بيوسف ، حتى يسلمهم أخاه الصغير ؛ لذلك قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف : ٦١] كلمة ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ أى سنتفاهم مع أبينا ؛ لأن هذه مسألة صعبة ، والمراودة أخذ ورد ، أنت تقول وهو يرد عليك ، ثم ترد عليه . وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ يعنى سنذهب ونحضره معنا .

ماذا فعل يوسف ؟ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف : ٦٢] البضاعة هى ما جاءوا به ثمنًا للقمح ، يوسف قال لرجاله : أعطوهم القمح ، وأعيدوا إليهم الأثمان التى أتوا بها وضعوها فى رحالهم بحيث لا يرونها ، إلا إذا عادوا إلى دار أبيهم ، ولماذا يضع البضاعة ؟ « لعلهم يرجعون » أى لعلهم يعودون مرة أخرى ؛ ليردوا ثمن ما أخذوه . ماذا فعل إخوة يوسف حينما عادوا إلى أبيهم ؟ .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ [يوسف : ٦٣] منع منا الكيل : أى أنهم لم يلحظوا أن يوسف قد جهزهم بالقمح الذى أرادوه ،

أو منع منا الكيل : أي في المستقبل بعد هذه المرة ؛ لأن العزيز قال لنا : إن لم تحضروا أخاكم ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي : إذا أردتنا أن نأتي لك بالقمح ، فالكيل لنا ممنوع إلا إذا أخذنا أخانا معنا . ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي أن إخوة يوسف قالوا ليعقوب عليه السلام : منع منا الكيل ، ولن نأخذ كيلًا إلا إذا كان معنا أخونا ، ولا تخش شيئًا فإننا سنحفظه ، ولن يحدث له أذى ، ورد الأب الملتاع بفقد ابنه ، كما يقص علينا القرآن الكريم قائلًا : ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ قول يعقوب : ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ دليل على أنه وافق على أن يذهب أخو يوسف معهم ، بعد أن أحس إخوة يوسف أن أباهم سيرسل معهم ابنه الصغير ، نزلوا وبدءوا ينزلون ما فوق الإبل ، فوجدوا القمح ووجدوا بضاعتهم ، التي أخذوها معهم ثمنًا للقمح ردت إليه ، حينئذ قالوا : ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ﴾ [يوسف : ٦٥] أي لا نريد أن نأخذ أخانا ، فبضاعتنا موجودة والقمح موجود .

وكل ما سنزداده إذا ذهبنا ، هو حمل بعير ، وهو البعير الذي سيركب عليه أخو يوسف ، وهذا كيل لا يساوي الإزعاج ، بل هو كيل يسير ، ولكن يعقوب يعلم أنه بعد فترة ، سينتهي القمح الذي أحضروه ، فلابد لهم من الذهاب ، وهو في نفس الوقت شيخ كبير ، ولا يستطيع أن يصحبهم في الرحلة ، فلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ، وقال : ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ﴾ [يوسف : ٦٦] أي لن أرسله معكم ، حتى تحلفوا لي بالله إنه لن يحدث له شيء ، وسيعود معكم . ثم جاء الاحتياط من يعقوب ، أي أن تحدث ظروف خارجة عن إرادتكم ، في هذه الحالة فقط يكون ما حدث قدرًا لا يد لكم فيه .

ويعقوب الرسول المؤمن راض بقدر الله ، مهما يكن ولو كان فيه ضياع أولاده جميعًا ، وقبل أولاد يعقوب الاحتكام إلى الله ، وفعلًا أخذ منهم العهد والميثاق ، وأشهد الله عليهم كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف : ٦٦] وهكذا أشهدوا الله على ما في قلوبهم ، واحتكموا جميعًا إلى الله سبحانه .

جاء موعد الرحلة والسفر إلى مصر ، وبحنان الأبوة وقف يعقوب يودع أبناءه ، ويزودهم بنصائحه ، قال يعقوب : ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يوسف : ٦٧] قال يعقوب هذا الكلام ؛ لأنه شهد حفاوة يوسف بإخوته ، رغم أنه لم يعلم السبب ، ولا أن هذه البضاعة من عند يوسف عليه السلام ، ولا أن يوسف هو عزيز مصر ، ولكنه أحس أن أولاده أصبح لهم شأن وهم أغراب ، وهم حين يذهبون لإحضار القمح ، يغادرون قريتهم إلى قرية غريبة قد يكيد لهم الناس حين يعلمون أن معهم كميات كبيرة من الطعام . وأولاد يعقوب كانوا أحد عشر بانضمام بنيامين لهم ، وربما خشي عليهم أبوهم من الحسد كما بين الحق سبحانه وتعالى أن هناك حاجة في نفس يعقوب قضاها .

فكأن يعقوب يخشى على أولاده من الحسد ، وهو يستعيذ بالله من ذلك ، مما يدل على أن البشر لا يقى نفسه من الحسد ، إلا بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى .

قال يعقوب عليه السلام لأولاده : ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف : ٦٧] يعقوب أراد أن يقي أولاده شر الحسد ، فقال لهم : لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة ؛ حتى لا يحسدكم الناس على كثرة عددكم وعلى قوتكم .

وقال : إن تفرقكم لن يغني عنكم من الله من شيء ، فالحكم كله لله قضاء وقدرًا ، وأطاع أبناء يعقوب أمر أبيهم ، ودخلوا من أبواب متفرقة .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ [يوسف : ٦٨] أي أنهم -حينما أطاعوا أمر يعقوب ، لم يكن ذلك لينجيهم ، أو يمنع عنهم قدرًا من أقدار الله ، فالأمر كله لله ، ولكن خاطرًا ورد على نفس يعقوب فقضاه ، وهو أنه خاف أن يحسدوهم ، أو أن يتشككوا فيهم ، أو أي خاطر آخر .

لذلك يقول الحق تعالى عن يعقوب : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ أي : أنه لم يقل لأولاده ، ادخلوا من أبواب متفرقة من فراغ ، ولكن كان عن علم علمه الله له ، علم خاص

بيعقوب : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . أى : أن أكثر الناس يعزلون الأسباب عن المسبب ، ويعتقدون أن الأسباب تعمل بذاتها وهذا ما يتعب الدنيا .

اللَّه ﷻ يحقق ليوسف عليه السلام الأمل الذى تمناه بأن يكون شقيقه معه

وننتقل إلى مشهد آخر من مشاهد قصة يوسف عليه السلام ، حين وصل إخوة يوسف إليه ، ورأى يوسف عليه السلام أخاه ، أخذه وضمه إليه وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف : ٦٩] وكان يوسف متشوقًا إلى أخيه ، الذى لم يره منذ سنوات طويلة ، وقد كان شقيقه من أب واحد وأم واحدة ، وأراد يوسف أن يطمئن أخاه ؛ لأنه لم يكن يدرى شيئًا عن قصة يوسف والبئر ؛ لأنه كان صغيرًا . ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أى : لا تحزن فأنا أخوك يوسف ، وقوله تعالى : ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ دليل على أنهم كانوا يعاملونه معاملة مهينة ؛ حقدًا منهم كما حقدوا على يوسف لحب أبيه له .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف : ٧٠] أى أنه أعطاهم ما يريدونه من القمح والطعام ، وكل ماطلبوه وجعل السقاية فى رحل أخيه ، والسقاية تطلق إطلاقات متعددة : سقاية الماء مصداقًا لقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف : ٧٠] .

إذن .. فالسقاية هى المكان الذى يوضع فيه الماء ؛ ليشرب منه الناس ، والسقاية هى الإناء الذى يملأ بالماء ؛ ويعطى للناس لتشرب ، وما داموا قد وضعوها فى المكان الذى يوضع فيه ما يحمله البعير فهى إناء يشرب منه الملك مثل الكأس ، وأحيانًا يجعلونه مكيالاً وهو فى العادة يكون نفيسًا .

ويقولون : السقاية هى الصواع أو الصاع ، فهى تطلق على المكان الذى يوجد فيه الماء ، وعلى الآلة التى يرفع بها من المكان إلى فم الشارب . و﴿جَعَلَ﴾ هنا لا تعنى أنه قام بنفسه بهذا ، بل أمر القائمين بالكيل أن يجعلوا السقاية فى رحل أخيه .

ثم بعد ذلك جاء رجل من الحاضرين ، وقال بصوت عالٍ : إنكم لسارقون . أى اتهمهم

بالسرقة ، وهذا اتهام خطير شد انتباههم ، لقد كانوا جالسين متفرقين أو بعيدين عن الإبل التى تحمل القمح ، فلما سمعوا ذلك المنادى ، تنبهوا وأقبلوا يسألونه : ما الذى ضاع ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف : ٧١، ٧٢] .

إذن .. فصواع الملك هو الذى وضعوه فى راحلة أخى يوسف ، ولقد وضع صواع الملك ؛ لتكون جريمة كبرى فى حق الملك ، ولابد لها من عقاب ، ولا تنفع فيها الشفاعة .

ثم قال الذى كلف بإعلان نبأ السرقة : ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ . أى أن الذى سيأتينا بهذا الصواع لن نعاقبه ، بل سنعطيه حمل بعير زيادة .

والسرقة اتهام قبيح ، ولذلك أسرع إخوة يوسف يقسمون بالله إنهم لم يسرقوا شيئًا . وقالوا : ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ أى أنهم أقسموا أنهم ما جاءوا ليفسدوا فى الأرض ، وأنهم أمناء لا يسرقون ؛ لأنهم من الأسباط ، ولا تمتد أيديهم إلى السرقة .

أراد يوسف أن يأخذ أخاه بحيلة لا يتنبهون إلى أنها مدبرة ، أو أنه هو يوسف ؛ لذلك أمر رجاله فقالوا : ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف : ٧٤] وهذا هو القصد الذى أراد يوسف أن يصل إليه ، هو أن يترك إخوته يحددون العقوبة على أخيهم ، ويكون الحكم برضاهم ولا يمكن أن يتراجعوا فيه ، وهنا قال إخوة يوسف : ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ وهذه هى القضية ، لقد صدر الحكم من إخوة يوسف ، وبرضاهم ولا يستطيعون التراجع فيه ، ويوسف أمر رجاله أن يضعوا صواع الملك فى رحل أخيه ؛ ليأخذه ويبقيه عنده ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ ولم يقل : كدنا يوسف ؛ لأن الكيد لم يقع على يوسف ، وإنما كان له ولم يكن عليه .

ماذا فعل يوسف بعد ذلك ؟ أمر رجاله أن يبدءوا أولًا بأمتعة إخوته ، والإبل التى جاءوا بها ، وأن يتركوا البعير الخاص بأخيه من أمه آخر ما يفتشونه ، فيقول الحق سبحانه : ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لأنه لو بدأ بوعاء أخيه أولًا ؛ لانكشفت الحيلة ، ولكنه بدأ بأوعيتهم أولا ، وآخر ما فتشوا كان وعاء أخيه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٦] أي أن اللّٰه سبحانه وتعالى حقق ليوسف الأمل ، الذى تمناه فى أن يكون شقيقه معه ، وأعطاه من العلم ما جعله ينتصر على أشقائه ، أى علمه سبحانه الكيد لصالحه ، وما كان له أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله . وقوله تعالى : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ تدلنا على أن اتهام شقيق يوسف بالسرقة ، لم يكن لكى يعذب فى الآخرة ، ويقام عليه الحد فى الدنيا فهو فى الحقيقة برىء لم يسرق ولكن كان هذا لرفع درجته فى الدنيا والآخرة ، حيث سيعيش مع أخيه عزيز مصر عيشة رغدة ، بعد أن كان إخوته يحقدون عليه ، ويجعلون حياته مليئة بالمضايقات ، وفى نفس الوقت سيكون مع نبى اللّٰه يوسف ، فيزداد علوًّا فى الآخرة بتطبيقه منهج اللّٰه الصحيح ، فكأن اللّٰه سبحانه وتعالى حينما كاد ليوسف بالاتهام بالسرقة الذى وجه إلى أخيه ، كان ذلك فى رفع الدرجات ، اللّٰه سبحانه وتعالى يلفتنا هنا ، إلى ألا نأخذ أقداره بمظهرها فقط ، بل نعرف أن لها حكمة ، وكثير من المصائب التى تحدث للناس ، قد لا يعرفون أنها قد تؤدى بهم إلى خير كثير ، ولذلك فإن كل أقدار اللّٰه التى تحدث للإنسان ، من غير رأى أو اختيار منه ، لابد أن يتقبلها ؛ لأن للّٰه فيها منحة وعلو درجة ؛ ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ . ذى علم : يعنى صاحب علم ، ولكن فوقه عليم .

إخوة يوسف اعتقدوا حين جاء الاتهام بفقد صواع الملك ، أو الإناء الذى يشرب فيه ، اعتقدوا أن فى هذا شرًّا لأخى يوسف ، هذا هو مبلغ علمهم ، ولكن العليم الذى دبر ونفذ وأحكم ، كان يعلم أن هذا رفع للدرجات لأخى يوسف . فماذا فعل الإخوة ؟ لقد كانوا يكرهون يوسف وأخاه ، ويقولون : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف : ٨] . إذن .. فعندهم كره له ولأخيه ؛ لأنهما ابنا امرأة أخرى هى راحيل ، ولذلك بمجرد أن اتُّهم ، لم ينظروا ما إذا كان هذا الاتهام صادقًا أم كاذبًا ، وإنما بدءوا يهاجمونه ، ويقولون : ما نزل علينا البلاء إلا منك ومن أخيك ، أى منه ومن يوسف ، وأسرعوا يظهرون حقدهم وأن الوقت والسنوات الطويلة لم تغير ما فى قلوبهم تجاه يوسف ، فقالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ فأظهروا بذلك الحقد الذى يملأ قلوبهم .

وقوله تعالى : ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾ فهذه قضية شرطية ، أى إن حدث حدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر ، تقول لابنك : إن تذاكر دروسك جيدًا تنجح ، إذن فهناك حدثان : حدث المذاكرة وحدث النجاة ، فكأن حدوث النجاح يشترط له أن تكون مذاكرًا ، والذى يأتى أولًا هو الشرط ، فما دام هناك حدث فهناك شرط لوجوده قبل أن يحدث . قوله تعالى : ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ هذا هو الشرط يأتى أولًا ، ولكن الآية الكريمة تقول : ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وكان المفروض : إن يسرق الآن يحدث كذا وكذا ، ولكن الآية جاءت بأمر غير منطقى فى الشرط .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن إخوة يوسف قالوا له : إن يسرق فلا تتعجب يا عزيز مصر ! ! لماذا ؟ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، لقد سرق أخوه الأكبر من قبل ، وهكذا اتهموا يوسف وأظهروا حقدهم عليه ، وهم لا يدرون أنه هو العزيز الذى يخاطبونه ، حين يسمع يوسف هذا الكلام لابد أن تخرج الملكات عن استقامتها ؛ لأن اتهام إنسان برىء بالسرقة ، لابد أن يحزنه ويؤلمه ، ولذلك لابد أن يحدث انفعال مضاد : هذا الانفعال إما أن يبقى داخل النفس فلا يخرج ، وإما أن يظهر فيحدث رد فعل عنيف .

وكان يوسف عليه السلام يستطيع أن يبرئ نفسه وأخاه من تهمة السرقة كان يستطيع أن يقول لهم : أنا لم أسرق وأخى لم يسرق ، وأنتم الذين يملأ الحقد قلوبكم علينا ، ولكنه لو فعل ذلك لكشف عن شخصيته ، وهو يريد أن يبقى مجهولًا لديهم ، فهو برىء من السرقة وأخوه برىء ، ولكنه لا يستطيع أن يتكلم ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ إذن .. فهذا الاتهام أثار فى نفس يوسف انفعالات ولكنه كتمها داخل نفسه . ورسول الله ﷺ يقول ما معناه : « إذا غضب أحدكم فليغير وضعه فإن كان واقفًا يقعد وإذا كان جالسًا يقوم ويمشى » وذلك حتى لا يحدث منه انفعالات ضد من أغضبه ، يوسف قال فى نفسه كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لماذا ؟ .. لأنهم جاءوا بقصة كاذبة ، بأن يوسف أكله الذئب ، كما أنهم يؤكدون اتهامًا باطلا بأن يوسف سرق . يوسف لم يأكله الذئب ولم يسرق ، ولكن أنتم الذين سرقتم ، سرقتم طفلًا من أبيه هو يوسف عليه السلام .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا

يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ﴾ . هنا لابد أن نفهم أن يوسف عليه السلام لم يقل قولًا سمعه إخوته ، بل هو قالها فى نفسه ؛ لأنه لو قالها علنًا ونطق بها لكشف عن نفسه وهو مالا يريده ، ولا تتعجب ، فإن الإنسان يقول لنفسه ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة : ٨] إذن فهم قالوا فى أنفسهم ، كما قال يوسف : ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ . كلمة : ﴿تَصِفُونَ﴾ أى بمعنى تنعتون أو تبدون من الصفات ، أى أنها تطلق على الكذب ، واقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل : ١١٦] ويقول سبحانه : ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٠] إذن .. فـ﴿تَصِفُونَ﴾ إذا جاءت تلفتك إلى أن الذى يقال كذب ، فكأن يوسف يقول : اللَّه يعلم إنكم لكاذبون .

إخوة يوسف حين أحسوا أن أخاهم سيؤخذ منهم ، وأنهم سيعودون إلى أبيهم من غيره ، تذكروا وعدهم لأبيهم ، فبدءوا يستعطفون يوسف ، الذى لم يعرفوا شخصيته الحقيقية ؛ لكى يطلق سراح أخيه . قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٧٨] إذن فقد حاولو أن يستخدموا الضعف ؛ ليرق يوسف لهم ويترك أخاهم ، قالوا : إن لهم أبا عظيمًا فى قومه وهو شيخ كبير ، وإذا بلغه أن ابنه قد سرق ، فهذه تهزه من داخل نفسه ، وتهزه فى شرفه بين قومه ، تمامًا كما يُتهم إنسان فى جريمة ، وتقول : اتركوه ؛ لأن أبويه صالحان كريمان فلا تفضحوهما .

وسواء كانوا يقصدون شيخًا كبيرًا ، كبر فى مقامه بين قومه أو كبر فى سنه بحيث لا يتحمل الصدمة .

ثم انطلقوا بعد ذلك يعرضون أنفسهم بدلًا منه ، فقالوا كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أى أنه إذا كان لابد أن تأخذ واحدًا بجريمة السرقة التى حدثت ، فخذ أحدنا مكانه واتركه يعود إلى أبيه . وهنا رد يوسف عليه السلام كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف : ٧٩] أى أن يوسف رفض أن يأخذ أحدهم ، وقال : لا أريد إلا الحق ، ولو أخذت إنسانًا بذنب إنسان آخر أكون من الظالمين .

حينئذ علموا أنه لن يجدى النقاش ولا الرجاء مع يوسف ، بل إنهم ظلوا يناقشونه حتى بلغوا مرتبة اليأس ، أى قطع الأمل من الشيء تمامًا ، كما يقول الأطباء : الطب يئس من علاج هذا المريض ، أى : لا أمل فى علاجه .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ﴾ [يوسف : ٨٠] عندما أحس الإخوة أنه لا فائدة من الجدل مع يوسف ، فى أن يعطيهم أخاهم خلصوا نجيا ، أى أنهم ابتعدوا عن العزيز ومن حوله ، وجلسوا فى مكان خالص لهم ، وخالص معناها : لا يوجد شيء غريب ، تمامًا كما تضع الذهب فى البوتقة كى تخالص معناها : لا يوجد شيء غريب ، تمامًا كما تضع الذهب فى البوتقة كى تخلصه من المعادن الأخرى ؛ ليصبح ذهبًا صافيًا لا يختلط به شيء . إخوة يوسف ابتعدوا إلى مكان خالص لهم ، لا يشاركهم فيه أحد ، ولا يسمعهم أحد ، وجلسوا يتشاورون ، على أننا نلاحظ أن كلمة : ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟﴾ جمع ، و﴿نَجِيًّا ۖ﴾ مفرد وهذه من ضمن الأشياء التى يثيرها بعض المستشرقين للتشكيك فى القرآن الكريم ، نقول لهم : تفهموا اللغة العربية ؛ فهناك ألفاظ يتساوى فيها المفرد والجمع ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم : ٤] لم يقل الله سبحانه وتعالى والملائكة ظهراء . وقوله جل جلاله : ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ٧٥- ٧٧] ولم يقل : أعداء لماذا ؟ .. لأن كلمة « عَدُوٌّ » معناها أنهم جميعًا مشتركون فى العداوة يجمعهم هدف واحد .

ساعة يئسوا من يوسف ذهبوا إلى مكان ليتناجوا فيه ، وعادة فى مثل هذه الحالات يكون الرأى الأول للكبير منهم ؛ لأنه أرجحهم عقلًا وأكثرهم حكمة ، إذن فهم عندما ذهبوا إلى المكان ، ليتناجوا كان لابد أن يبدأ الكبير بالحديث .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أى أنه إذا أردتم أن تتناجوا ، فلابد أن تكون المناجاة فى إطار أنكم عاهدتم بموثق من الله ، أن حكاية يوسف لن تتكرر ، وأنكم ستعودون إلى أبيكم ، ومعكمْ أخوكم شقيق يوسف من الأب والأم ، وقوله تعالى : ﴿وَمِن

قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ لأنكم وعدتم أباكم أن ما حدث مع يوسف لن يتكرر .

ثم قال كبيرهم وهو أكبر الإخوة سنا : ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف : ٨٠] إذن فكبيرهم أوضح خطته ووضع ثلاثة شروط :

أولها : أنه سيبقى فى المكان الذى فيه أخوه ، حتى يأذن له أبوه أن يعود ، ولن يتحرك من هذا المكان إلا إذا اقتنع أبوه ببراءته . **أما الشرط الثانى** : أن يحكم الله له ، أى يحكم بأن يسلموه أخاه ، فيأخذه معه ويذهب . **الشرط الثالث** : فإذا لم يحدث هذا ، فسيبقى فى هذه الأرض حتى يموت ، والله هو خير الحاكمين .

لأنهم إذا كان لهم يد وتدبير فيما حدث مع يوسف ، فليس لهم يد وتدبير فيما حدث مع أخيه ؛ ولأن هذا الأخ هو الكبير ، وهو المسئول عن إخوته ، فلم يقدر أن يتحمل مسئولية إبلاغ أبيه بما حدث ؛ لأن هذه صدمة كبيرة على الأب الذى فقد يوسف ، ثم فقد أخاه الأصغر بنيامين ، ولم يفكر هذا الكبير أنه لو بقى فى هذا المكان فسيفقد أبوه الابن الثالث ، ثم أصدر أوامره إلى أخوته : ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف : ٨١] ، فكأنه طلب من إخوته أن يعودوا إلى أبيهم ، ويقولوا له القصة بحقائقها ، يقولون : إن ابنك سرق وهم لم يقولوها جزافًا ؛ لأنهم قالوا ما علموا : ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ أى أنهم لم يجزموا ، إنما قالوا هذا من ظاهر الأحداث التى علموا بها : ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ أى ما كنا نعلم أن ابنك يسرق ، ويقول المولى تبارك وتعالى : ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف : ٨٢] لأنهم كذبوا فى قصة يوسف ، فإنهم يعرفون أن أباهم لن يصدقهم فى هذه القصة ، فقالوا : إنك يا أبانا لن تصدقنا ، ولكن اسأل القرية التى كنا فيها ، والقافلة التى عدنا معها . هنا نلاحظ أن قولهم : ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ الأحداث محتاجة إلى فاعل ، وإلى مكان وإلى زمان ، ولكن هل سيسأل يعقوب القرية ، مساكنها وشوارعها ؟ .. طبعًا لا ، وإنما سيسأل أهل القرية ، لماذا لم يأت السياق : واسأل أهل القرية ؟ لأن حادث السرقة يعرفه كل من كان فى القرية ، فلو سأل أى واحد فسيرويه له ، حتى إنه من وضوحه سيشهد به الجماد ، وما دام يعقوب نبى ، فلو أنطق الله له الجماد لروى له القصة . وقولهم : ﴿وَٱلۡعِيرَ﴾ العير : هو ما يركب فى القافلة ، سواء كانت ناقة أو جملًا أو بغلًا أو غير ذلك ، إنها الدواب

التي تحمل البضاعة في القوافل ، وفي العادة يكون معها عدد قليل من الحراس ، ولكن هل سيسأل يعقوب العير؟ .. طبعًا لا ، ولكن المفروض أنه سيسأل كل من كان في القافلة . وقولهم : ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ هكذا أقسموا مرة أخرى أنهم يقولون الصدق ، والدليل على صدقهم ، أنهم استشهدوا بكل من كانوا معهم في القافلة والإنسان إن كان صادقًا استشهد بالناس ، وإن كان كاذبًا هرب من الشهادة .

عودة إخوة يوسف إلى أبيهم

عاد أولاد يعقوب عليه السلام إلى أبيهم بدون أخاهم وأخذوا يتعللوا ويعتذروا لأبيهم ولكن كان الرد من الأب حاسمًا إذ قال لهم : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف : ٨٣] وهذا يدل على أنه مازال في نفسه شك منهم و﴿سَوَّلَتْ﴾ بمعنى سَهَّلت ويسَّرت وزينت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي تخفون شيئًا دبرتموه ولا أعرفه ، ولماذا قال لهم : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ؟ لأن الأشياء التي تخالف منهج الله ، ويستحي منها الإنسان ويخشى عاقبتها ، تستعصى على النفس فلا تقبل حدوثها ؛ لذلك فإن النفس تحتاج لتبريرات ؛ كي تطاوع صاحبها في الفعل ، ولذلك فإنه حين يبدأ الإنسان في الإثم ، يكون مترددًا خائفًا ، يحاول أن يفعل الشيء ، فتمنعه نفسه ولا تصاوعه ، ولكن عندما يسهله لها وييسره ويزينه ، تقدم النفس عليه بسهولة دون التردد وصعوبة التنفيذ .

والحق سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية في آية أخرى ، ولكن التعقيب في الآية التي نحن بصددها ، يختلف في التعقيب عن الآية الأخرى ، يعقوب حين أبلغه أبناؤه أن يوسف أكله الذئب ، قال : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ هذا في قصة الذئب ويوسف ، أما في قصة بنيامين شقيق يوسف فقد قال : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ . في الآية الأولى قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ مما يدل على أن الأحداث لن تقف عند هذه النهاية ، بل ستحدث تطورات تحتاج إلى الصبر الجميل ، والصبر الجميل ليس فيه شكوى ، لم يقل يعقوب عسى الله أن يأتيني بهم ، ولكن في هذه الأية قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ فكأن هبات الفرج هبت على يعقوب ، وهو النبي ، ووضعت في نفسه ، ما يؤكد له بأن الله تعالى سيأتيه بأولاده جميعًا ، ويجزيه خيرًا

على صبره . الذين ليس لهم دراية كاملة بالقرآن الكريم ، يأخذون آية ويتركون أخرى ، يقولون : إن القرآن يقول : ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ﴾ ، بينما هما يوسف وأخوه بنيامين . نقول لهم : أنتم نسيتم كبيرهم الذى قال : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ **إذن .. فهناك ثلاثة** : يوسف ، وأخوه بنيامين ، والأخ الكبير ، فلابد من استخدام صيغة الجمع .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العليم الذى لا يغيب عن علمه سبحانه شيء ، فهو يعرف مكان يوسف وبنيامين والأخ الأكبر ، وحكيم فيما يجرى علينا من أقدار .

لما جاء أولاد يعقوب وقالوا له ما قالوا ، ماذا كان موقفه منهم ؟ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف : ٨٤] . ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أى : عن أولاده الذين أتوه ، لم يواصل معهم الحوار ، بل تركهم . ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ تأتى عندما يأتيك أحدهم بخبر مُحزنٌ ؛ فتتركه لتخلو بنفسك ، كذلك خلا يعقوب بنفسه ؛ لأنه يتحسر على يوسف وأخيه وهو لا يريد أن يظهر الحزن والأسى لأحد من خلق الله ؛ لأنه قال : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولذلك قال له أحد إخوانه ، وهو يرى ما فيه يعقوب من حزن بليغ : تهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سن أبيك إسحاق ، قال : إنما هشمني يوسف . فعتب اللّٰه سبحانه وتعالى عليه هذه الكلمة ، وقال له أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يعقوب يديه إلى السماء ، وقال خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى ، فقال له اللّٰه تبارك وتعالى : غفرت لك . وكان يعقوب لا يشكو إلى الناس ولكن يشكو إلى الله .

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ساعة تسمع : يا أسفا ، ويا ويلتا ، تعرف أنه نداءٌ لشيء محزن ، ولكن هل أنت تنادى المصيبة ؟ هناك ساعات تضيق فيها النفس ، فينادى الإنسان الأحزان ، و ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ معناها : يا أسف هذا أوانك فاحضر . ولكنه أبدى حزنه على يوسف ، بينما الذى ضاع منه هو بنيامين وابنه الأكبر ، فلماذا لم يظهر الحزن عليهما وأظهره على يوسف ؟ لأن يوسف هو قاعدة كل هذه المصاعب ، هو أصل الحزن . كيف ؟ : بنيامين أخذ بسببه والكبير قعد بسببه ، ولقد كان وجود بنيامين عزاء وسلوى ليعقوب ، ولكن عندما ذهب طفا الحزن على الاثنين ؛ لأنه حرم منهما معًا ، وقوله تعالى : ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ العين فيها بياض وفيها سواد ، فابيضت أى التى كانت سوداء صارت بيضاء ،

والإنسان إذا امتلأت عيناه بالدموع ، تُحدث غشاء على سواد العين ، فيبدو أبيض فكأن عينيه ابيضتا من الحزن وكثرة البكاء . وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الكظم فى الحزن انفعالات عاطفية لا يستطيع أحد أن يمنعها ، بل هى التى تقدر عليه ، ولذلك فإن رسول اللّٰه ﷺ عندما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه فقال له الصحابة : ألم تنهنا عن ذلك يا رسلو الله ؟ قال : « إن العين لتدمع والقلب ليحزن وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون » . والله سبحانه وتعالى لا يريد للإنسان أن يكون صخرًا ، لا ينفعل للأحداث ؛ لأن هذا لون يجب أن يكون فى إنسانيتك ، وعاطفة يريد اللّٰه تبارك وتعالى أن يبقيها ؛ لأن اللّٰه سبحانه خلق فى لإنسان عواطف وغرائز ولو لم يشأ العواطفَ والغرائزَ ما خلقها فينا ، فالعواطف لها مهمة والغرائز لها مهمة ، وساعة تخرج إحداهما عن مهمتها ، فإن المنهج يحكمها ؛ حتى لا تكون شرًا ، مثلًا غريزة الجنس ؛ هى لاستبقاء النوع وإنجاب الأولاد والذرية ، فلا تجعلها انطلاقًا وحشيًا . إذن فالغرائز والعواطف هى التى تجعلك تحنو على طفلك الصغير ، وترعى امرأتك . . . إلخ .

وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كظيم مأخوذة من كظمت القربة ؛ لأن القربة إذا امتلأت لابد أن تكتمها ؛ لكى لا يسيل الماء منها ، فكأن يعقوب أبقى حزنه فى قلبه وكظمه ، كما تكظم القربة فلا يسقط منها شىء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف : ٨٥] من الذى قال ؟ إن يعقوب تولى عنهم واعتزلهم ، وقال : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ، ساعة قال ذلك قالوا له : ستظل تذكر يوسف وتحزن عليه حتى تموت ؟ ! فكأنهم ساعة سمعوه يذكر يوسف قالوا هذا الكلام ، والحرض : هو الإشراف على الهلاك ، أى أنهم قالوا : إن يعقوب من حزنه سيشرف على الهلاك ، ثم يكون من الهالكين فعلًا ، وهنا ردَّ يعقوب عليهم : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أى لا شأن لكم بى واتركونى لحالى ، وشكوى العبد إلى اللّٰه هى من تمام العبودية لله ؛ لأن اللّٰه هو الأعلى ، فإذا ما أصاب العبد – وهو الأدنى – سوء يفزع إلى خالقه ، إلى اللّٰه سبحانه وتعالى ، والشكوى هنا نوعان : تودد إلى اللّٰه سبحانه وتعالى بالاستغفار والطاعات ؛ لعلّ اللّٰه يصرف عنه السوء . ونوع آخر ذلك الذى يتأبى على الله ، ويسخط مما وقع عليه ولا يشكو الأمر لله ، ولكنه يشكو اللّٰه إلى خلقه ، ويتأبى على الطاعة ويزداد فى المعصية .

ثم يقول يعقوب لأولاده : ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ نلاحظ هنا أن المسألة الآن لم تعد يوسف وأخاه ؛ لأنهم أصبحوا ثلاثة : يوسف وأخوه من ناحية ، والأخ الأكبر الذى قال : ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ هذا الأخ موجود باختياره بعيدًا عن أبيه ، ولذلك لم يأت ذكره هنا ؛ لأنه فى أى لحظة يستطيع أن يعود إلى أبيه وتنتهى المشكلة ، أما اللذان جاء ذكرهما فى الآية الكريمة فهما يوسف وأخوه ، موجودان فى مكان لا يعلمه الأب ، ولا يعرف كيف يصل إليها ، وقد فقد الأمل فى أن يراهما .

قوله : ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ من الحس ، والحس تجمع كل الحواس ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، والمعلومات التى تتكون عندنا هى معلومات محسوسة ، أى قدرتها الحواس .

إذن .. فقوله تعالى : ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ أى استخدموا كل حواسكم ، سواء الظاهرة منها أو غير الظاهرة ؛ لتصلوا إلى المعلومات التى تؤدى إلى أن تعرفوا مكان يوسف وأخيه ، والإنسان عادة حين تُطلب منه معلومات ، فإنه يستخدم أكثر من حاسة ، إنه يستخدم العين ليرى ، والأذن ليسمع المعلومات ، وأحيانًا يستخدم الشم واللمس ، يعقوب عليه السلام يريد من أولاده أن يستخدموا كل حواسهم ليعرفوا مكان يوسف وأخيه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ معناه : إياكم أن تقولوا : إننا تعبنا من البحث ، ويئسنا من الوصول إلى مكان يوسف وأخيه ؛ لأن اللّٰه تعالى أمرنا بألَّا نقنطَ من رحمته ولا نيأس من عفوه ؛ ولذلك يقولون : لا كرب وأنت رب ، أى أن الأشياء التى لانستطيع الوصول إليها بقانون الأسباب نلجأ إلى اللّٰه سبحانه وتعالى خالق الأسباب ، ونقف بين يديه .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ هنا الرَّوْح بالسكون على الواو ، هى الرائحة التى تهب على الإنسان فيستروح بها ، كأنك وأنت جالس والجو حار خانق ، ثم جاءت نسمة لطيفة باردة ، هذه ما يسمونها الروْح بالسكون على الواو هى الشيء الذى يجعلك تنتعش بعد شدة الحر ، ولذلك فإن الرائحة التى نأخذها بتقطير الزهور تنعش النفس . اللّٰه سبحانه وتعالى يقول عن الآخرة فى سورة « الواقعة » : ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ

نَعِيمٍ﴾ أى أن الروح تهب بالطيبات تنعش النفس ، خصوصًا إذا كنا فى حديقة ، فتأتينا هذه الروح بروائح الزهور العطرة ، ولكن فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَاْيْـَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ معناها : أن اللَّه الذى خلق الروح يملكها ، ويعرف سرها وحده ينفخها فى الجماد ، فتعطيه الحياة والحس والحركة . ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ أى القوم الذين لا يؤمنون بالله ؛ لأن هؤلاء الناس لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية ، فإذا تخلت عنهم هذه الأسباب ، يملأ قلوبهم اليأس فينتحرون أو يصابون بالجنون ، أما المؤمن فيقول : لى رب هو خالق الأسباب ، سيفتح لى طريق الخلاص ، فإذا كان اللَّه يعطى بالأسباب ، فهو سبحانه القادر على أن يعطى بدون الأسباب قال سبحانه وتعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] .

إخوة يوسف يتعرفون عليه

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف : ٨٨] وهكذا دخلوا على يوسف بالترقيق والتفخيم ؛ لأن كلمة عزيز معناها : المالك المتصدق المكين ، أى أن ما يطلبونه منه لا يخرج عن إرادته وسلطانه ، يشكون إليه قسوة الجوع ، ويقولون له : إنهم جاءوا ببضاعة مزجاة ، أى مدفوعة الثمن ، يزجى يعنى يدفع ، ولكن هذه البضاعة رغم أنها مدفوع ثمنها ، إلا أنها رديئة ليست جيدة ، فكأنما بلغ الحال بأولاد يعقوب أن أصابهم الضر ، حتى إنهم لم يعد عندهم البضاعة الجيدة ، التى أتوا بها فى المرات السابقة ، ولذلك جاءوا بالبضاعة الرديئة يدفعونها ثمنًا للقمح ، وهم يستعطفون يوسف ألا يعطيهم ثمنًا قليلًا ، مقابل هذه البضاعة المزجاة ، فيقولون له : ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أى لأنهم يعانون من المجاعة ، يطلبون كيلًا وافيًا من القمح ، فإن لم يكن هذا الكيل يساوى البضاعة ، التى يحملونها فَلْيَكُن الباقى صدقة ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ . إنك لن تأخذ الجزاء منا ، حتى تقول : لا تملكون شيئًا تعطونه ، ولكنك ستأخذ الجزاء من اللَّه سبحانه وتعالى ، وهو الغنى دائمًا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ إذن هنا ردوه إلى من هو أغنى وأعلى وأقدر من الدنيا كلها ، وهو اللَّه سبحانه وتعالى ، وقالوا : إذا كنا لا نستطيع أن ندفع ، فستأخذ الثمن من

اللَّه الذى لا تفرغ خزائنه . وإذا قلنا : إنهم أولاد نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة . نقول : لا ؛ لأن هذه اختص بها اللَّه سبحانه وتعالى محمدًا ﷺ .

يوسف عندما سمع هذا الكلام ابتسم وضحك فظهرت ثناياه ، وكانت مميزة بحيث إن كل من يراها يعرفه ، فلما رأوا ثناياه ، بدءوا يدركون الموقف ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف : ٨٩] بمجرد أن قالها ؛ ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ . أى أنهم أعلنوا شخصية يوسف بعد أن وثقوا منها ، ولم ينكر يوسف عليه السلام ، بعد أن رأى الحال الذى وصل إليه إخوته ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ ورغم أنهم عرفوه إلا أنهم فوجئوا باعترافه ، وينبههم يوسف إلى أن أخاه دخل فى النعمة معه ، ثم أعطاهم حيثيات النعمة : ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أى أن حيثيات النعمة هى أن الإنسان يتقى اللَّه دائمًا ، ولا يفعل ما يغضبه . والتقوى والصبر يدخلانك فى مقام الإحسان ، وهو أعلى مقامات العبادة والقرب من الله .

قوله تعالى : ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ كأن يوسف يلتمس لهم العذر ، أى أنهم لو كانوا يعلمون أن ما فعلوه يغضب اللَّه ما أقدموا عليه ، إذن فأساس عملهم هو الجهل وليس المعصية ، **هنا تنبه إخوة يوسف إلى القضية كلها** ، وكيف أنهم أرادوا أن يحرموا يوسف من حب أبيه وحنانه ، فأعطاه اللَّه ما جعله مفضلًا عليهم جميعًا فى النعمة ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أى أن اللَّه تبارك وتعالى قد ميَّزك علينا جميعًا ﴿وَإِن كُنَّا﴾ أى حالنا وقت أن فعلنا ذلك كنا خاطئين ، وهناك فرق بين خاطئين ومخطئين .

الخاطئ هو الذى يعلم منطقة الصواب ويخطئ عن علم وعمد ، أما المخطىء فهو يقصد الصواب لكنه يخطئ ، ولذلك لم يتم خطؤه عن عمد ، الاثنان لم يصلا إلى الصواب ، ولكن الخاطىء اختار الخطأ وهو يعلم موقعه والمخطئ اختلط عليه الخطأ والصواب . ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ وهذا قسم مثل : والله ، وبالله ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ومعنى آثرك : أى فضلك ، وقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف : ٩١] اعترف بالذنب ، فهم أخذوا طريق الخطأ وهم يعلمون فكانت النتيجة أن عَدْلَ اللَّه أعطاهم ما يستحقون وفضَّل يوسف عليهم .

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ والتثريب معناه اللوم العنيف ، وهى كلمة مأخوذة من الثرب ، عندما يذبحون الذبيحة ، ويجدون حول أمعائها كثيرًا من الدهن ، هذا اسمه ثرب ، وهذا الثرب تصاب به الشاة ، وعندما لا تجد المرعى فتصاب بالهزال فإنها تتغذى من هذا الدهن ، فالتثريب هو اللوم العنيف ، الذى يصل بالإنسان إلى درجة أنه يهزل من إحساسه بالذنب ، وقوله تعالى : ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أى بعدما اعترفتم بذنبكم وتبتم ورجعتم إلى الله . ورسول اللّه ﷺ يقول ما معناه : إذا زنت جارية أحدكم فاضربوها الحد ولا تثربوها أى : لا تذلوها حتى لا تصاب بالهزال من فرط الإحساس بالذنب .

ثم تنقل اللقطة مرة أخرى إلى الأب يعقوب عليه السلام ، ولابد أنهم قد حكوا ليوسف ما حدث لأبيهم ، وكيف أنه يبكى بكاءً مرًا ، وكيف أن عينيه ابيضتا ولم يعد يرى ، كل هذا تركه القرآن الكريم ؛ لأن هذه أشياء من السهل الوصول إليها ، وجاء قول يوسف مباشرة : ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ ، إذن .. فلا بد أنه عرف أن أباه يربط عينيه من الحزن ، ولكن من الذى ناوله يوسف القميص ليأخذة لأبيه ؟ إنه كبيرهم الأخ الكبير الذى تقدم ، وقال ليوسف عليه السلام : أيها العزيز إننى أنا الذى حملت إلى أبى قميصك ، وجئت عليه بدم كذب ، فدعنى أكفر عن ذنبى ، وأحمل إلى أبى القميص الذى فيه الشفاء .

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أى : يأتى إلى يوسف وقد زال عنه الضر والمرض ، يأتيه مبصرًا ، إذن فهذا القميص الذى فيه رائحة يوسف ، سيعيد البصر إلى يعقوب ، فيأتى لابنه مبصرًا .

وقوله : ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف : ٩٣] هنا نلاحظ دقة تعبير القرآن الكريم ، فيوسف لم يدع إخوته فقط ، ولكنه قال لهم : كل من له صلة قرابة بكم من أى جهة فائتوا به ، والمعروف أنه حينما طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ؛ ليواجه السنوات السبع الشداد ، كان يأخذ ثمن القمح ذهبًا وفضة ، فإن لم يكونوا يملكون ذهبًا وفضة ، يأتوا بأحجارهم الكريمة مثل الياقوت والمرجان ، فإذا نفدت الأحجار يأتون بالدواب فإذا نفدت الدواب يأتون بأولادهم يعطونهم ليوسف ويأكلون بثمنهم .

ولقد فعل يوسف ذلك ؛ ليقلل من الاستهلاك ، فلو أنه أعطى الناس القمح مجانًا ؛

لأسرفوا فيه وبعثروا ، حتى إنه لم يكن يكفيهم طوال هذه السنوات السبع المليئة بالجدب ؛ لذلك كان تشدد يوسف حتى يتوخى الناس الحرص فى استهلاكهم ، ولكن بعد أن انتهت سنوات المجاعة ، أعاد يوسف لكل واحد ما أخذه منه ، أى رد للناس أشياءهم ؛ وكان قد أخذها لتحديد الاستهلاك فقط حتى يواجهوا المجاعة .

يعقوب يشم رائحة يوسف

وحمل الإخوة القميص وخرجوا من عند يوسف باتجاه أبيهم : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ [يوسف : ٩٤] . وفصلت : تدل على أن شيئًا كان متصلًا وفصل ، أى أن العير تجاوزت المدينة ، وكانت تمشى وهى خارجة من المدينة فى موكب واحد متصلة ببعضها البعض ، فلما خرجت خارج المدينة ، انفصلت عن بعضها ، وذهبت كل قافلة إلى طريقها : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف : ٩٤] ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ أى : تتهموننى بالتخريف لكبر سنى ، وقوله : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أى أنه شم رائحة يوسف التى كانت فى القميص ، رغم المسافة الكبيرة التى بين القافلة وبين المدينة التى بها يعقوب ، وهذا من دلائل النبوة التى أعطاها اللّٰه سبحانه وتعالى ليعقوب .

ولقد ثبت الآن علميًا أن لكل إنسان رائحة مميزة ، لا يشترك فيها مع إنسان آخر ونحن لا نستطيع أن نميز هذه الرائحة ، ولكن الكلاب البوليسية تستطيع بحاسة الشم القوية التى لديها ، أن تتعرف على الإنسان من رائحته ، عندما يترك المجرم أى ملابس أو أشياء فيها رائحة عرقه فى مكان الجريمة ، يأتى الكلب البوليسى فيشم الرائحة ويتعرف على صاحبها ، ويخرجه من بين مئات الأشخاص الموجودين ، ويتكرر العرض عدة مرات ، فيخرج الكلب نفس الشخص من بين الموجودين .

الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة ، يلفتنا إلى هذه الحقيقة العلمية ، وهى أن لكل إنسان رائحة خاصة لا يشاركه فيها غيره ، ونبى اللّٰه يعقوب بما علمه اللّٰه عرف من رائحة قميص يوسف أن يوسف ما زال حيًا .

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ لأن القافلة الكبيرة لما غادرت المدينة التى كان يقيم فيها يوسف ، كانت تضم عددًا كبيرًا من الناس ، فكانت رائحة قميص يوسف مختلطة بروائح

كثيرة ، كما أن مبانى المدينة كانت تحجزها ، فلما خرجت القافلة من المدينة ، وانقسمت إلى مجموعات صغيرة ، وأخذت كل قافلة منها طريقها إلى بلدها ، أوصل الله تعالى رائحة يوسف إلى يعقوب عليه السلام ، عندما سمع من هم حول يعقوب قوله بأنه يشم ريح يوسف ؛ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ ولقد كان هذا القول عن جهل طبعًا ؛ لأن الله علَّم يعقوب ما لم يعلموه وميزه عنهم ، وهكذا اتهموا يعقوب بأنه يردد الخرافات التى كان يرددها حول يوسف ، وليس المقصود بالضلال هنا ما يتعلق بالدين . ولكن القصود به الجزئيات التى لا علاقة لها بالدين ، كأن يقول : أنا واثق أن يوسف سيعود أو غير ذلك ، كانوا يعتبرون هذا ضلالًا ، وهو دائمًا قول كل جاهل لم يؤت من العلم شيئًا .

وصلت القافلة وجاء الأخ الأكبر يحمل قميص يوسف ، وألقاه على وجه أبيه ، ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . انظر إلى دلائل الحق والنبوة ، وكيف أن النبى يحس بالأشياء قبل الناس ، ثم يأتى الواقع فيؤيد ما يقول ، ولذلك عندما يصلكم خبر من معصوم ، فإياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مدركات الأشياء على قدرها ، وهناك أشياء فوق قدرة العقول ، فإن حُدثتم بها فلا تكذبوا ، خذوها وإن لم تفهموها ؛ ولذلك قال يعقوب : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ كأن ذنوبهم كثيرة ، وهم معترفون بخطئهم ، ماذا قال يعقوب ؟ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

يعقوب وأبناؤه فى مصر

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف : ٩٩] نقلة سريعة من بيت الأب فى الشام إلى حيث يوسف .

إذن .. إخوة يوسف جمعوا أهلهم وأعدوا الدواب وركبوا مع أبيهم ، حتى وصلوا إلى مكان يوسف ، ثم استأذنوا فى الدخول فأذن لهم .

وقوله تعالى : ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ . كيف يقال : أبويه ، وأم يوسف ماتت وكذلك جده ، والأب وحده الذى كان موجودًا ؟ نقول : إن العادة كانت ، إذا ماتت الأم ، يدعون الخالة أمًّا ويجعلونها فى مقام أمهم .

وقوله : ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف : ٩٩، ١٠٠] هذا يدل على أن هناك **دخول أول** : حينما قال : ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ، **ودخول ثان** : عندما آوى إليه أبويه ، ذلك أنه من عادة العظماء أن يستقبلوا كبار ضيوفهم فى مداخل أو عند حدود البلاد ، فاستقبال العظماء يتم أولًا عند الحدود ، حيث يقدم إليهم وجهاء القوم وأعيانهم ، ويستريحون من عناء السفر ، ثم بعد ذلك ينتقلون إلى مقر إقامة حكم البلاد .

قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أى أجلسهم فى مكان مجلسه الدائم الذى يصرف منه كل أمور الدولة .

﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ السجود هنا هو شكر لله ؛ لأنه جمع شملهم وهداهم أو اعتذار ليوسف على ما بدر منهم نحوه ونحو أخيه ، أو تعبير عن الفرحة بجمع الشمل بعد هذا العمر الطويل ، أو أن هذا كان من شريعتهم ، المهم فى هذا كله أنه ليس سجود عبادة .

وقوله : ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ يسترجع يوسف البداية ، يوم رأى وهو طفل الشمس والقمر والنجوم تسجد له ، فأسرع يقص على أبيه هذه القصة ، فقال الأب : هذه الرؤيا تدل على أنه سيكون لك شأن عظيم ، فلا تقصصها على إخوتك ؛ فتمتلئ صدورهم غيظًا منك وقلوبهم حقدًا عليك ، وهذه الصدرو حاقدة الآن ، فما بالك إذا علمت بهذه الرؤيا ؟ ! لأن يعقوب رأى النبوة فيه ، وكان يعرف حقد إخوة يوسف عليه ، وكيف أن هذا الحقد سيؤدى إلى أحداث كثيرة ، وهكذا يعيدنا فى آخر القصة إلى أولها حيث يقول : ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف : ١٠٠] . لأن رؤيا الأنبياء واقع يحدث .

قال تعالى : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف : ١٠٠] . يوسف عليه السلام يعدد نعم اللَّه عليه ، فيقول : إن اللَّه سبحانه وتعالى قد نجاه من الجُب الذى ألقاه فيه إخوته ، وأنقذه من السجن الذى ألقته فيه امرأة العزيز ، ثم بعد ذلك مكنه فى الأرض ، وجعله عزيز مصر ، واللقاء هنا بين يوسف وإخوته كان لقاء صفاء ، وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ، هذا إحسان

يوسف ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف : ١٠٠] وهذا إحسان لإخوة يوسف ، بعد أن عاشوا فى البدو جاء بهم إلى قصر العزيز .

كلمة « أَحْسَنَ » مرة تتعدى : الإحسان إليك والإحسان لغيرك ، ومرة تقتصر على الإحسان لك أو بك . والإحسان هنا متعدد ؛ لأنه أحسن إليه بإخراجه من السجن ، وأحسن لإخوته بأن جاء بهم من البدو ، قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ اعتبرت إحسانًا إلى إخوة يوسف لماذا ؟ لأننا نعرف أن البدو قوم رُحَّل ، يعيشون على الانعزالات الأسرية ، فلا يضمهم مجتمع ولا يبقون فى مكان واحد بل ينتقلون من مكان إلى آخر ؛ بحثًا عن المياة والعشب ، بيوتهم على ظهور جمالهم ، هم وراء العشب من منطقة إلى أخرى وحياتهم على الفطرة ، ليس لهم أى نوع من الحضارة ؛ لأن البدو رُحَّل باستمرار ، إنما الحضر معناها أن يحضر إليك كل شىء وأنت فى المدينة ، أى أنه فى البادية أنت تذهب باحثًا عن الخير ، أما فى الحضر فالخير يأتيك إلى مكانك ، وأنت مستقر فى حياتك ومعيشتك وسكنك وملبسك .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أى أن يعقوب وإخوة يوسف ، سيعيشون منذ الآن فى مصر ، ذات الحضارة العريقة وسيجدون فيها كل شىء . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف : ١٠٠] فكأن الشيطان هو الذى وسوس لإخوة يوسف ، وأن الوسوسة كانت نزغًا فقط ، وليست استقرارًا على سوء .

ثم يتوجه يوسف إلى ربه قائلًا : ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف : ١٠١] ﴿رَبِّ﴾ : نداء لخالقه ، فالرب هو الخالق ، والمربى هو الخالق من عدم والممد من عدم ، اللّٰه سبحانه وتعالى أباح التزواج والتكاثر لاستبقاء الحياة على الأرض ، إن من صفات الربوبية ، وصفات الربوبية يأخذها المؤمن والكافر ، فالمؤمن خُلق من عدم وأمد من عدم ، والكافر كذلك يأخذ كل متعلقات الربوبية ، فالكون كله يخدمه فى الحياة الدنيا : الشمس تشرق عليه والهواء يتنفسه ، والمطر ينزل على أرض المؤمن والكافر ، والأرض تعطى المؤمن والكافر بالأسباب ، والله سبحانه وتعالى هو رب هذا الكون كله ، خلقه وأوجده ، ولذلك فهو سبحانه متكفل بوسائل حياته ، حتى نهايتها ، ولكن عطاء الألوهية فى الدنيا والآخرة للمؤمن وحده ، فالله لا يكلف كافرًا ، ولكنه يقول للمؤمن وحده : افعل هذا ولا تفعل ذاك .

يوسف عليه السلام يقول كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ لأن اللّٰه سبحانه وتعالى هو الذى أعطى يوسف عليه السلام الملك ، ولا يمكن لأحد أن يعطى ملكًا فى الأرض قهرًا على اللّٰه سبحانه ، بل حتى الظالم والمفسد لا يصل أحدهما إلى الملك إلا بإرادة اللّٰه تبارك وتعالى .

الله جل جلاله أعطى يوسف الملك : ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ ، لأن اللّٰه علم يوسف أن يفسر الرؤى ، ففسر لمن معه فى السجن ، وفسر للمَلِك ، والله سبحانه وتعالى حين يعلم يوسف ذلك فهذه ليست عجيبة ؛ لأنه سبحانه فاطر السماوات والأرض ، أى أنه خالق كل شيء ويعلم أسرار خلقه .

وقوله : ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ، ﴿وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أى ناصرى ومعينى ؛ لأنه نصره على كل العقبات التى واجهته فى حياته ، ولكن هل يوسف عليه السلام يريد الدنيا ؟ إنه يريد الآخرة تلك الحياة الباقية التى لا تزول ، ولذلك تأتى الدعوة الهامة : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ ؛ لأن الدين عند اللّٰه الإسلام ، فيوسف أخذ عطاءات اللّٰه فى الدنيا وأتاه اللّٰه الملك ، هنا يتساءل العلماء : كيف يتمنى الإنسان الوفاة ؟ نقول : إن الإنسان إذا وُفِّق فى دنياه ، فهو دائمًا طموح يريد زيادة الخير .

دخل ميمون بن مروان على عمر رضى اللّٰه تعالى عنه وهو يسأل ربه الموت ، قال له : يا أمير المؤمنين أتسأل اللّٰه الموت ، وقد صنع اللّٰه على يدك خيرًا كثيرًا ، فأحييت سننًا وأمت بدعًا وبقاؤك خير للمسلمين ؟ قال : ألا أكون كالعبد الصالح يوسف حين أتم اللّٰه عليه نعمته ، فقال كما جاء فى القرآن : ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وقوله يوسف : ﴿تَوَفَّنِي﴾ اللّٰه يتوفى الأنفس جميعًا ، فكلنا يتوفانا اللّٰه طلبنا أم لم نطلب ، ولكن المطلوب أن يتوفى يوسف مسلمًا ، أى يعبد اللّٰه وحده لا إله إلا هو ؛ ولذلك عندما نزور القبور نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين أنتم السابقون ، وإنا إن شاء اللّٰه بكم للاحقون . لماذا قلت : « إن شاء الله » مع أنك يقينًا ستلحق بهم ؟ قلت : إن شاء الله ؛ ليتوفاك اللّٰه مؤمنًا

مثلهم . يوسف عليه السلام يقول : ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كيف يقول نبى لربه : ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والنبى أعلى درجة من الصالح ؟ نقول : إن الصالحين منهم الأنبياء .

ألم يُعلم العبد الصالح موسى نبى اللَّه عليه السلام ، أسرار أقدار اللَّه فى الأرض ؟ ألم يأت العبد الصالح لسليمان بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه ؟ بينما كان سليمان نفسه عاجزًا عن أن يأتى بالعرش . بهذه الطريقة ، وكان يحاول الاستعانة بالجن وغيره ، إذن .. إبراهيم وإسحاق ويعقوب والنبيون كلهم من الصالحين .

* * *

ذكر قصة نبى الله أيوب عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣، ٨٤] ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أى : دعاه ؛ لأن النداء بالنسبة للّٰه دعاء ؛ لأن النداء أن تطلب إقبال أحد عليك ، لكن نداء اللّٰه تعالى معناه دعاء ؛ لأنه غير نداء البشر ؛ لأن نداء البشر كل مراده الإقبال ، تقول مثلًا : يا محمد ، فيأتيك ، لكن فى أى شىء تحتاجه ، هذا شىء آخر ، لكن أيوب حينما نادى ربه ناداه بمطلوب يريد أن يحققه له ، والضر ابتلاء فى جسده بمرض أو غيره ، وقالوا : إن الأنبياء لا يمرضون مرضًا ينفر الناس منهم ، ومعنى الضر : هو الإيذاء فى الجسد ، أما الضرر : فهو أى إيذاء فى أى شىء آخر غير الجسد .

أيوب عليه السلام لما أصابه الضر صبر ، ولكن ألم الضر جعله يدعو ربه أن يكشف عنه ضره ؛ لأن الإنسان لا يتشجع على الله .

وكلمة : ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ نحن قلنا : حين ترى جمعًا يدخل اللّٰه فيه نفسه مع خلقه فى شىء ، فاعلم أن له معنى آخر ، مثل : ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ و« خير الحاكمين » .. إلخ ؛ لأن البشر منهم الراحمون ، ولكن رحمة العبد ليست مثل رحمة الخالق ، وذلك مثل الفارق بين ما يخلقه الخلق ، وما يخلقه الخالق .

ربنا سبحانه حين ناداه أيوب استجاب له وكشف عنه الضر ، قال تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٤] .

فهو كان يشتكى من الضر وقلة الأهل ، فلم يكن له عزوة ، فلما استجاب اللّٰه دعوته ، أعطى له إجابة دعائه وزاده أشياء لم يطلبها فى دعائه ، فكشف عنه الضر وآتاه أهله وزاده مثلهم أيضًا ، رحمة من عند اللّٰه فوق ماطلب ، وهذا كله رحمة من اللّٰه وذكرى لكل عابد ؛ لأن العابد الذى يخلص عبادته لله ، عليه أن يعلم أنه إذا أصابه مكروه ولجأ إلى الله ، فإن اللّٰه يرفع عنه هذا المكروه ، ويعطيه نعمًا فوق ما طلب .

* * *

ذكر قصة ذو الكفل عليه السلام

[قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة « الأنبياء » : ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ .

وقال الله تعالى بعد قصة أيوب أيضًا في سورة « ص » : ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ . فالظاهر في ذكره في القرآن العظيم ، بالثناء عليه مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي ، عليه من ربه الصلاة والسلام ، وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًا ، وإنما كان رجلا صالحًا ، وحكمًا مقسطا عادلا وتوقف ابن جرير في ذلك .. فالله أعلم .

وروى عن مجاهد : أنه لم يكن نبيًا ، وإنما كان رجلا صالحًا . وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضي بينهم بالعدل ، فسمى ذا الكفل .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند ، عن مجاهد أنه قال : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلا على الناس ، يعمل عليهم في حياتي ؛ حتى أنظر كيف يعمل . فجمع الناس ، فقال : من يتقبل مني بثلاث أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب . قال : فقام رجل تزدريه العين ، فقال : أنا ، فقال : أنت تصوم النار وتقوم الليل ، ولا تغضب ! ! قال : نعم . قال : فرده ذلك اليوم ، وقال مثلها في اليوم الآخر ، فسكت أناس ، وقام ذلك الرجل فقال : أنا ، فاسخلفه . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان ، فأعياهم ذلك ، فقال : دعوني وإياه ، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام الليل ولا النهار إلا تلك النومة ، فدق الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم ، قال : فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه ، فقال : إن بيني وبين قومي خصومة ، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطوّل عليه ، حتى الرواح وذهبت القائلة . فقال : إذا رحت فإنني آخذ لك بحقك . فانطلق وراح فكان في مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ ، فلم يره ، فقام يتبعه . فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس ، وتنتظره فلا يراه ، فلما رجع إلى القائلة ، فأخذ مضجعه ، أتاه فدق الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : الشيخ الكبير المظلوم . ففتح له فقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتني ؟ قال : إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد ، قالوا : نحن

نعطيك حقك ، وإذ أقمت جحدونى ، قال : فانطلق فإذا رحت فأتنى . قال : ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينتظره فلا يراه ، وشق عليه النعاس ، فقال لبعض أهله : لا تدعنّ أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام ، فإنى قد شق علىّ النوم . فلمّا كان تلك الساعة جاء ، فقال له الرجل : وراءك وراءك . فقال : قد أتيته أمس وذكرت له أمرى . فقال : لا والله ، لقد أمرنا ألا ندع أحدًا يقربه . فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت ، فتسور منها ، فإذا هو فى البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل . قال : فاستيقظ الرجل ، فقال : يا فلان ، ألم آمرك ؟ قال : أما من قبلى والله فلم تؤت ، فانظر من أين أوتيت ؟ قال : فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الرجل معه فى البيت فعرفه . فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم ، أعييتنى فى كل شىء ، ففعلت كل ما ترى لأغضبك . فسماه اللّه ذا الكفل ؛ لأنه تكفل بأمر فوفّى به . وروى ابن أبى حاتم : عن أبى موسى الأشعرى رضى اللّه تعالى عنه ، وهو على هذا المنبر يقول : ما كان ذو الكفل نبيًا ، ولكن كان رجلا صالحًا ، يصلى كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة ؛ فسمى ذا الكفل . وروى أحمد : عن ابن عمر قال : سمعت من رسول اللّه ﷺ حديثًا لو لم أسمعه إلامرة أو مرتين ، حتى عد سبع مرات ، لم أحدث به ، ولكنى قد سمعته أكثر من ذلك ، قال : كان الكفل من بنى إسرائيل ، لايتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ، أرعدت منه وبكت ، فقال لها ، ما يبكيك ؟ أأكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملتنى إليه الحاجة . قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ! ثم نزل فقال : اذهبى بالدنانير لك . ثم قال : والله لا يعصى اللّه الكفلُ أبدًا ، فمات من ليلته ، فأصبح مكتوبًا على بابه : قد غفر اللّه للكفل » .

ورواه الترمذى وقال : حسن ، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر .

فهو حديث غريب جدًا وفى إسناده نظر ، فإن سعدًا هذا . قال أبو حاتم : لا أعرفه إلا بحديث واحد . ووثقه ابن حبان ، ولم يرو عنه سوى عبد اللّه بن عبد اللّه الرازى هذا .. فالله أعلم . وإن كان محفوظًا فليس هو ذا الكفل ، وإنما لفظ الحديث : الكفل من غير إضافةٍ فهو رجل آخر غير المذكور فى القرآن .. فالله تعالى أعلم][1] .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » لابن كثير (٢١٤ - ٢١٧) .

ذكر قصة أصحاب الرس

[قال اللَّه تعالى فى سورة « الفرقان » : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ .

وقال تعالى فى سورة « ق » : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ . وهذا السياق والذى قبله ، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا ، وهو الهلاك . وهذا يرد اختيار ابن جرير ، من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة « البروج » ؛ لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعه ، كانوا بعد المسيح عليه السلام وفيه نظر أيضًا .

وروى ابن جرير قال : قال ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود . وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر فى أول تاريخه ، عند ذكر بناء دمشق ، عن « تاريخ » أبى القاسم عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن جرداد وغيره ، أن أصحاب الرس كانوا بحضور ، فبعث اللَّه إليهم نبيًّا ، يقال له : حنظلة بن صفوان ، فكذبوه وقتلوه ، فصال عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح وولده من الرس ، فنزل الأحقاف . وأهلك اللَّه أصحاب الرس ، وانتشروا فى اليمن كلها ، وفشوا مع ذلك فى الأرض كلها ، حتى نزل جبرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح دمشق ، وبنى مدينتها ، وسماها جبرون ، وهى إرم ذات العماد ، وليس أعمدة الحجارة فى موضع أكبر منها بدمشق ، فبعث اللَّه هود بن عبد اللَّه بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد ، إلى عاد « يعنى أولاد عاد » بالأحقاف ، فكذبوه فأهلكهم اللَّه عز وجل .

فهذا يقتضى أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة ، فالله أعلم .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الرس بئر بأذربيجان . وقال الثورى عن أبى بكر عن عكرمة قال : الرس بئر رسوا فيها نبيهم ، أى دفنوه فيها .

قال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة .

قلت : فإن كانوا أصحاب « يس » كما زعمه عكرمة ، فقد أهلكوا بعامة ، قال اللَّه تعالى فى قصتهم : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ وستأتى قصتهم بعد هؤلاء . وإن

كانوا غيرهم ، وهو الظاهر ، فقد أهلكوا أيضًا وتبروا ، وعلى كل تقدير فهذا ينافى ما ذكره ابن جرير .

وقد ذكره أبو بكر محمد بن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم ، وتكفى أرضهم جميعًا ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وَجْدًا عظيمًا ، فلما كان بعد أيام ، تصور لهم الشيطان فى صورته ، وقال : إنى لم أمت ، ولكن تغيبت عنكم ؛ حتى أرى صنيعكم ، ففرحوا أشد الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لا يموت أبدًا ، فصدق به أكثرهم ، وافتتنوا به وعبدوه ؛ فبعث اللَّه فيهم نبيًّا ، فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة اللَّه وحده لا شريك له . قال السهيلى : وكان يوحى إليه فى النوم ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فعدوا عليه فقتلوه وألقوه فى البئر ، فغار ماؤها وعطشوا بعد ريِّهم ، ويبست أشجارهم وانقطعت ثمارهم ، وخربت ديارهم ، وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم ، وسكن فى مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يُسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن ، وزئير الأسود ، وصوت الضباع .

فأما ما رواه أعنى ابن جرير ، عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود » وذلك أن اللَّه تعالى بعث نبيًّا إلى أهل القرية ، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم أهل القرية عدوا على النبى ، فحفروا له بئرًا فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم ، قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ، ويشترى به طعامًا وشرابًا ، ثم يأتى بها إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعينه اللَّه عليها ، ويدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت ، قال : فكان كذلك ما شاء اللَّه أن يكون . ثم إنه ذهب يومًا يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته ، وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها ، وجد سنة فاضطجع فنام ، فضرب اللَّه على أذنه سبع سنين نائمًا . ثم إنه ذهب فتمطّى ، فتحول لشقه الآخر ، فاضطجع فضرب اللَّه على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حزمته ، ولا يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار ، فجاء إلى قرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعامًا وشرابًا كما كان يصنع ، ثم إنه ذهب إلى الحفرة ، إلى موضعها الذى كانت فيه ، يلتمسه

فلم يجده وقد كان بدا لقومه فيه بداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه . قال : فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ، فيقولون له : ما ندرى ، حتى قبض اللَّه النبى عليه السلام ، وهبّ الأسود من نومته بعد ذلك ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » .

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظى . والله أعلم .

ثم قد رده ابن جرير نفسه ، قال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون فى القرآن ، قال : لأن اللَّه أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بد لهم فآمنوا بنبيهم ، اللهم إلا أن يكون حدثت لهم أحداث ، آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم . والله أعلم . ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود ، وهو ضعيف ، لما تقدم ، ولما ذكر فى قصة أصحاب الأخدود ، حيث توعدوا بالعذاب فى الآخرة إن لم يتوبوا ، ولم يذكر هلاكهم ، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس . والله تعالى أعلم][1] .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » (٢١٨ - ٣٢١) .

ذكر قصة قوم يس

[وهم أصحاب القرية أصحاب « يس » قال الله تعالى : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ
ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم
مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ
أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا
تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى
وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس : ١٣- ٢٩] .

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية « أنطاكية » ، رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، وكذا روى عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهرى وغيرهم . قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب : إنهم قالوا : وكان لهم ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام . فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم : صادق ومصدوق وشلوم ، فكذبهم .

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل ، وزعم قتادة أنهم كانوا رسلًا من المسيح وكذا قال ابن جرير ، عن وهب ، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجبائى : كان اسم المرسلين الأولين : شمعون ، ويوحنا ، واسم الثالث بولس ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جدًا ؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح فى ذلك الوقت ، والقدس ، والإسكندرية ، وروميه ، ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا . وأهل هذا القرية المذكورة فى القرآن أهلكوا ، كما قال فى آخر

قصتها بعد قلتهم صديق المرسلين : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون فى القرآن ، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديمًا ، فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فلما كان فى زمن المسيح آمنو برسله إليهم ، فلا يمنع هذا . والله أعلم . فأما القول بأن هذه القصص المذكورة فى القرآن ، هى قصة أصحاب المسيح ؛ فضعيف لما تقدم ، ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضى أن هؤلاء الرسل من عند الله . قال اللَّه تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ يعنى لقومك يا محمد ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ يعنى المدينة ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أى أيدناهما بثالث فى الرسالة ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم . كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم ، يستبعدون أن يبعث اللَّه نبيًّا بشريًّا .

فأجابوا بأن اللَّه يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام ، ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، والله تعالى هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أى تشاءمنا بما جئتمونا به . ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قيل : بالمقال ، وقيل : بالفعال ، ويؤيد الأول قوله : ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة .

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أى مردود عليكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أى بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ، ودعوناكم إليه ، توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أى لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يعنى لنصرة الرسل ، وإظهار الإيمان بهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أى يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة .

ثم دعاهم إلى عبادة اللَّه تعالى وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئًا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى أن تركت عبادة الله ، وعبدت ما سواه .

ثم قال مخاطبًا للرسل : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قيل : فاستمعوا مقالتى ،

واشهدوا لى بها عند ربكم ، وقيل معناه : فاسمعوا يا قومى إيمانى برسل اللَّه جهرة . فعند ذلك قتلوه ، قيل : رجمًا . وقيل : عضًا . وقيل : وَثبُوا إليه وَثْبَةَ رجل واحد فقتلوه .

وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال : وطئوا [عليه] بأرجلهم ، حتى أخرجوا قصبته .

وقد روى الثورى عن عاصم الأحول ، عن أبى مجلز : كان اسم هذا الرجل حبيب ابن مرى ، ثم قيل : كان نجارا ، وقيل : حبَّاكا ، وقيل : إسكافا ، وقيل : قصَّارًا ، وقيل : كان يتعبد فى غار هناك .. فالله أعلم .

وعن ابن عباس : كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة فقتله قومه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعنى لما قتله قومه أدخله اللَّه الجنة ، فلما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ يعنى ليؤمنوا بما آمنت به ، فيحصل لهم ما حصل لى . قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته فى قوله : ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ رواه ابن أبى حاتم . وكذلك قال قتادة : لا يلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا يلقى غاشًّا ؛ لما عاين ما عاين من كرامة الله : ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة اللَّه وما هو عليه ! قال قتادة : فلا والله ما عاتب اللَّه قومة بعد قتله : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أى : وما احتجنا فى الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم .

هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود . قال مجاهد وقتادة : وما أنزل عليهم جندا ، أى رسالة أخرى . قال ابن جرير : والأول أَوْلَى . قلت : وأقوى ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أى وما كنا نحتاج فى الانتقام إلى هذا ، حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ .

قال المفسرون : بعث اللَّه إليه جبريل عليه السلام ، فأخذ بعضادتى الباب الذى لبلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة ، فإذا هم خامدون ، أى قد أخمدت أصواتهم ، وسكنت حركاتهم ،

ولم يبق منهم عين تَطرِف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم ؛ فلهذا قيل إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح .

فأما الحديث الذى رواه الطبرانى من حديث حسين الأشقر ، عن سفيان بن عيينة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى : يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى : صاحب يس ، والسابق إلى محمد : على بن أبى طالب » . **فإنه حديث لا يثبت ؛ لأن حسينًا هذا متروك ، شيعى من الغلاة** ، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية . والله أعلم](1) .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » (٨٧، ٨٨) .

ذكر قصة نبى اللّه يونس عليه السلام

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧، ٨٨] هذه قصة نبى اللّه يونس بن متى ، وكان فى بلد تسمى « نينوى » ، وهى فى الموصل فى العراق ، والتى ذكرها عداس خادم بستان الطائف ، عندما ذهب رسول اللّه ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة ، فحرض أهل الطائف عليه غلمانهم وسفهاءهم ، فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان ، فدخل إلى بستان ، فرآه خادم البستان واسمه عداس ؛ وأتى له بِقِطف عنب ليأكله ثم تكلم معه ، فأخبره عدَّاس أنه من نِينَوَى » ، قال له رسول اللّه ﷺ : « قرية العبد الصالح [يونس] » ، قال عداس : وما أدراك بالعبد الصالح ؟ فقال رسول اللّه ﷺ « إنه نبى وأنا نبى » .

والنون هو الحوت ، وجمعه نينان مثلما تجمع حوت على حيتان ، فهى مثلها وزنًا ومعنًى ، فكلمة ذا النون أى : صاحب الحوت ؛ لأن له مع الحوت قصة ، كما أن النون اسم من أسماء حروف المعجم ؛ ولكن أحيانًا حرف المعجم يوافق اسمًا له معنى ، مثل الحرف « قاف » يوجد جبل يسمى باسمه [وهو] جبل « قاف » ، وحرف العين تسمى عليه عين الماء ، والعين المبصرة ، وحرف السين يسمى على نهر « السين » ، إذن قد يصادف اسم الحرف اسم شىء آخر .

ومادة الغضب إن أخذت منها المفرد ، تقول : فلان غاضب ، ولكن كلمة مغاضب تدل على أن أحدًا يشاركه الغضب ، مثل الفعل شارك ومشارك ، فتقول شارك زيد عمرا . فكل واحد منهما يكون فاعلًا مرة ومفعولًا مرة ، بعبارة أخرى : هناك غاضب ومغاضب ، الغاضب يكن غضبان من نفسه ، ولم يغضبه أحد ، وإنما مغاضب يعنى الناس أغضبوه ، مثل هاجر أى ترك المكان من نفسه ، ومهاجر أجبره أهل المكان على المهاجرة ، والمغاضبة من جهتين التى يسمونها المفاعلة ، فعندما تقول : قاتل زيد عمرًا . معناه أن عمرًا قاتل زيدًا أيضًا ، أى هناك مشاركة فى القتال من الطرفين .

ولكن لماذا غضب يونس بن متى ؟ قالوا : لأن قومه كذبوه ، وحذرهم من أن تكذيبهم

لمنهج الله سيجلب لهم المتاعب ، وينزل عليهم غضب الله وعقابه ، ولكنهم عصوا وتمردوا ، وتأخر عنهم عذاب الله ، فلما تأخر العذاب عنهم ، خاف أن يكذبوه ، فترك قومه ومشى ، ولم يكن يعلم أن القوم قد تابوا ، فأجل الله عنهم العقاب ، ولكن يونس لم يعلم بهذه التوبة ، فغضب لتأخر العذاب عنهم ؛ لأنه خشى أن يشكوا فى دعوته ويكذبوه ، فتركهم مغاضبًا . ورسول الله ﷺ ترك مكة مهاجرًا ؛ لأن قومه هم الذين ألجئوه إلى الهجرة ، ولذلك قال ﷺ وهو يغادر مكة : « والله إنك لأحب بلاد الله إلى نفسى ، ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت » .

ذا النون خرج مغاضبًا : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء ٨٧] والظن ترجيح ، أى أنه اعتقد أن الله سبحانه وتعالى لن يضيق عليه ، فأرض الله واسعة ، وظن أنه سيجد مكانًا آخر ، يكون أهله أكثر قبولًا للدعوة وأقل عداوة له ، ولكنه مرسل إلى هؤلاء ، وكان لابد أن يتحمل الأذى منهم ، ولكن معارضة دعوته كانت شديدة ، التعنت كان شديدًا من أهل هذه القرية نينوى » .

بعض الناس يقولون : كيف يظن يونس ، وهو نبى أن الله لن يقدر عليه ! ! وهذا جهل باستعمالات اللغة ؛ لأنه لا يمكن أن يطرأ على ذهن عاقل ، أن الله لا يقدر على شىء ؛ لأنه سبحانه على كل شىء قدير ، إذن .. معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أى ظن أن الله لن يضيق عليه ويتعبه ، بل سيبعثه إلى قوم أكثر طاعة واستجابة من قومه الذين تركهم ، فيسعد بطاعتهم واستجابتهم له ، بدليل أنه نادى فى الظلمات : ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهذا القول منه دليل على أنه يريد من الله أن ينفس عنه كربته ، وتنفيس الكربة لا يكون إلا بصفة القدرة له ، إذن ﴿لَّن نَّقْدِرَ﴾ أى : لن نضيق عليه ، ونرسله إلى قوم أفضل من قومه طاعة واستجابة .

رحمة الله تعالى ليونس عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات : ١٣٩- ١٤٤] ونحن نعرف قصة يونس عليه السلام مع

الحوت ، وكيف نجاه الله من الابتلاء الشديد ، هناك شبهة يرددها خصوم الإسلام ، وغير الفاهمين ، حول قول الله تعالى فى قصة يونس : ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ . فقالوا : كيف يظل فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ، مع أنه إن استمر فى بطن الحوت ، فإنه سيموت والحوت أيضًا سيموت ، عندما يجئ أجله ، ولن يستمر أحد منهما إلى يوم يبعثون ؟

هذه هى الشبهة ، وقد فات هؤلاء أن هناك نظرية اسمها نظرية الاحتواء ، مثلما تأتى بكوب وتضع فيه قطعة سكر ، وتذيب السكر فى الماء ، فتصبح كل جزئية من الماء فيها جزئية من السكر ، وهنا نقول : إن الماء احتوى السكر ؛ لأن الاحتواء يكون للأكثر ، إذن فلو أن يونس سيموت ، والحوت سيموت فسيتحولان إلى ذرات بعد الموت ، تتفاعل مع بعضها ، فحجم يونس وذراته أقل من حجم الحوت وذراته ، فالحوت هو الذى احتوى يونس إلى أن تقوم الساعة ، فى ذراته المنثورة فى الكون ، إذن التعبير القرآنى صحيح ، ولكن هؤلاء لم يفهموا المقصود منه .

وقول الحق : ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أعطى لكل من يقرأ هذه القصة جزءًا من رحمة الله ليونس عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه أن هذه الدعوة ، ليست خاصة بيونس فقط ، ولكن الله سبحانه ينجى كل من قالها من المؤمنين ، فأى مؤمن يقع فى كرب أو يصيبه هم فيقول : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن الله تعالى يفرج عنه ما هو فيه ، فكل من يصيبه غم ثم يتجه إلى الله ويقرأ هذه الآية لابد أن يذهب الله غمه ؛ لأنه سبحانه قال : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى مثل هذا الإنجاء ننجى المؤمنين .

إيمان قوم يونس عليه السلام

أحس قوم يونس لما بيداية العذاب ، آمنوا وردوا المظالم إلى أصحابها ، أنجاهم الله من العذاب ، ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس : ٩٨] أى أن الله تبارك وتعالى أنجاهم من الهلاك بعذابه حتى تأتى آجالهم عند نهاية العمر ، ولم تقع عليهم عقوبة من السماء ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾

[يونس : ٩٩] نقول : إياك أن تفهم أن الحق سبحانه وتعالى يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن اللّه له كمال الصفات منذ الأزل ، وقبل أن يخلق الخلق ، وبكمال صفاته خَلَق ، وبكمال صفاته أَوْجَد .

ويقول اللّه تبارك وتعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس : ٩٨] . أى أنه لو أن باقى القرى فعلت مثل قوم يونس لنجيناهم ، واقرأ قول الحق جل جلاله عن يونس عليه السلام : ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات : ١٤٣- ١٤٤] أى أن يونس كان سيظل فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ولكن ذلك امتنع ؛ لأنه من المسبحين ، كذلك امتنع عذاب قوم يونس ؛ لأنهم آمنوا قبل أن يقع عليهم العذاب .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس : ٩٨] كلمة قرية مأخوذة من مكان فيه بناء يقيم فيه أهله ، بحيث إذا أتيناهم فى أى لحظة تجدهم جالسين أو مقيمين ، وماداموا مقيمين ، فلابد أن فى القرية أو حولها ما يقيم حياة هؤلاء الناس من طعام وشراب وغير ذلك ، ولذلك سميت مكة أم القرى ؛ لأن كل القرى تأتى إليها فى مواسم الحج والعمرة ، فتجد فيها أهلها وتجد فيها الطعام والشراب .

* * *

ذكر قصة نبيِّ الله موسى عليه السلام

قال تعالى فى سورة « القصص » : ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص : ٣] هذه السورة اختصت بموسى وفرعون ، ولم تتعرض لأحد غيرهما إلا قارون ، مع أن السور الأخرى جاءت فيها مواكب أنبياء وذلك لأن هذه القضية تعرضت لمسألة القمة ، والقمة هى ادعاء الألوهية ، فجعلها الله سورة وسماها سورة القصص ، وقال فيها الحق سبحانه : ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ لم يقل : نتلو عليك من خبر موسى أو من أمر موسى ولكن قال : ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ ؛ لأن النبأ أمر مهم ، وهل هناك أهم من أن يأتى موسى ليرد واحدا عن ادعاء الألوهية ؟ فهى مسألة مهمة حقا ، قال الله فيها سنتلو عليك بالحق ، وسماه الله القصص ، لماذا ؟ لأن القصص من قص الأثر ، فقد كان العرب قديما يتتبعون آثار الأقدام ، فإذا حدث شيء وأرادوا أن يبحثوا عن الفاعل ، يسيرون وراء أثر القدم ، ويعرفون إلى أين ذهب ، وكذلك يعرفون إن كانت هذه القدم قدم طفل أو شاب أو امرأة . إلخ .

فمعنى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ [يوسف : ٣] أى : نقول لك : أشياء هى الواقعة بالفعل . والبشر أخذوا القصص وأدخلوا فيه الخيال والحبكة والرواية والعقدة والبطل وهذا ليس قصصًا ؛ لأن القصص هو الشيء الحقيقى .

ولذلك يسميه ربنا أحسن القصص ؛ لأنه مطابق للواقع إذن ما هو هذا القصص ؟ هو فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ .

وفرعون استعلى على رعيته وعلى من هم فوق الرعية ، من وزراء ومسئولين ليس هذا فقط ؛ بل إنه علا حتى على ربه والعياذ بالله وأراد أن يكون إلهًا ، فانظر كيف وصل به طغيانه إلى هذا الحد ؟ ! ومادامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوى ، فسيستخدمها فى إذلال رعيته فهو لم يستعل فى الأرض فقط ؛ بل إنه جعل أهلها شيعًا مع أن المفروض فى شرع الله أن الرعية كلهم سواء ، فلا تستأثر طبقة بحظوة عن طبقة أخرى ، لكن فرعون جعلهم شيعا وسلط بعضهم على بعض .

ومصر فى ذلك العصر كانت مسكونه بالقبط ، وبعد ذلك فى أيام يوسف عليه السلام دخلها

بنو إسرائيل ، وسكنوا فيها وتناسلوا وكان المفروض أنهم يذوبون فى المجتمع القبطى . والناس يفهمون أن كلمة قبطى معناها نصرانى ، وهذا خطأ ؛ لأن القبطى معناه المصرى القديم ، لكن لما احتل الرومان مصر كانوا على دين المسيحية فدخل هذا الخطأ عند كثير من الناس ، ولكن ما هو السبب فى أن فرعون جعل طائفة تستعبد طائفة أخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة الرعاة الذين أزاحوا حكم الفراعنة ، وتولى المُلك ملوك الرعاة ، فالذى كان يخدم هؤلاء الملوك هم بنو إسرائيل ، وكان من عادة الحكام أنه حينما يتولى حاكم ينظر إلى أنصار من كان قبله ويضطهدهم فلما انقرض ملوك الرعاة بدأ اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل لماذا ؟ لأن بنى إسرائيل كانوا يخدمون ملوك الرعاة .

هنا تجد إعجاز القرآن أنه حينما تكلم عن ملوك مصر فى القديم والحديث سماهم فراعين ، فهناك الآية التى نقرأ فيها قوله تعالى : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ وهنا فى قصة موسى عليه السلام قال عن حاكم مصر : فرعون ، لكن فى قصة يوسف عليه السلام لم يأت ذكر للفراعنة ، ولكن ذُكر لقب الملك ، وهذا من إعجازات القرآن ؛ لأنه فى أيام يوسف كان الذى يحكم مصر هم ملوك الرعاة ، لكن قبلها وبعدها كان الحكام فراعنة فمن الذى أخبر محمدًا ﷺ بذلك ؟ إنه سبحانه الذى علمه ما لم يكن يعلم ، وأخبره بما لم يكن يدرى .

وفرعون كان يستضعف طائفة من رعيته وهم بنوا إسرائىل ؛ لتعاونهم مع ملوك الرعاة الذى غزوا مصر ، وتفصيل هذا الاستضعاف يتمثل فى ذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وهو بهذا العمل وغيره كان من المفسدين . والإفساد أن تأتى إلى شىء صالح فى ذاته فتفسده ، فكون فرعون يقتل الذكور من أطفال بنى إسرائيل ويستحيى النساء فهذا فساد كبير ؛ لماذا ؟ لأن هناك شيئا اسمه استبقاء الحياة ، وآخر اسمه استبقاء النوع ، فهو حين يقوم بهذا العمل يهدد بقاء النوع ، فهو يقتل الأولاد ؛ خشية أن يناله منهم شر ، لكن النساء يستبقيهن للخدمة والإذلال ؛ لأنهن ليست لهن شوكة ، ولا خطر منهن على ملكه .

والقرآن الكريم قال عن فرعون فى هذه الآية : ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٤] ونجد القرآن قد شرح هذه الحكاية فى ثلاث آيات : ففى سورة « البقرة » يقول تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم

مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

الآية الثانية فى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

والآية الثالثة ذكرها اللّه تعالى على لسان موسى لقومه، حيث يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

فحين جاءت القصة من اللّه سبحانه مباشرة قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

وفى الآية الثانية قال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فهنا تكلم عن ذبح وقتل، ونحن نلاحظ أن «واو العطف» جاءت على لسان موسى فى قوله تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فلماذا لم تأت هذه الواو عندما جاء الكلام من اللّه سبحانه مباشرة، وجاءت عندما كان الكلام على لسان موسى عليه السلام؟ قالوا: لأن موسى يعدد على قومه نعم اللّه عليهم، وأنت حين تعدد فضائلك على ابنك مثلًا فتقول له: ألم أشتر لك بدلة جديدة؟ ألم أشتر لك حقيبة؟ ألم أحضر لك حذاء وكراسة وقلما؟ ألم أشتر لك دراجة تذهب بها إلى المدرسة؟ ألم أدفع لك المصاريف ... إلخ. فأنت تعدد فضائلك عليه أو توضح له كثرتها، لكن حين يكون الكلام من الأعلى لا يذكر النعم الصغيرة، فموسى حين تكلم أراد أن يضخم نعم اللّه على قومه، فذكر «يسومونكم سوء العذاب»، وعطف عليها «يذبحون»، لكن حين يتكلم الحق سبحانه لا يمتن إلا بالشيء الأصيل من النعم.

وفى الآيتين اللتين جاء الكلام فيهما من اللّه تعالى مرة قال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وفى الأخرى قال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فلماذا قال فى الأولى: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وفى الثانية ﴿يُقَتِّلُونَ﴾؟ قالوا: لأن إزهاق الحياة له وسيلتان إما الذبح وإما الخنق فذكر الوسيلتين، ولابد

أن هذه حدثت وهذه حدثت أيضًا ، إذن عندما عطف ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ على ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ كان الكلام على لسان موسى ، وموسى يريد أن يعدد نعم الله على قومه ويبين أنها كثيرة فقال : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ لكن ربنا حين يمتن ، لا يمتن بالنعم الصغيرة ولكن يمتن بالنعم الأصيلة الكبيرة ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء ، هو نفسه سوم العذاب .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٤] العلو : هو الطغيان والتجبر والتكبر . وبلغ من ادعائه العلو أن ادعى الألوهية .

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى : طوائف يخدم بعضها بعضا ، ويسخر بعضها لبعض وجعل الأمة الواحدة طوائف يكون لها عند الفاعل ملحظ ، هذا الملحظ أنه لا يريد أن تستقر بينهم الأمور ؛ لأنه إن استقرت بينهم الأمور ، ربما تفرغوا إلى شيء ضده فيشغلهم بأنفسهم حتى يظل هو مطلوبًا من كل واحد منهم ، والله سبحانه وتعالى قضى ألا تدوم هذه الحال ؛ لأنه لن يفلح ظلوم ، ولا يموت ظلوم فى الكون حتى ينتقم الله منه ويرى المظلوم آثار هذا الظلم الذى وقع عليه . فربما رحمه ، وحسبك من حادثٍ بامرئٍ أن ترى حاسديه بالأمس راحمين له اليوم .

ثم يقول تعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص :] والمنّة عطاء معوض بدون مجهود ممن يعطاه كأنها هبة من الله سبحانه ؛ لأن الحق كما قال الإمام على رضى الله تعالى عنه : إن الله لا يُسلِم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غيرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه ، غار سبحانه عليه ، فالله يريد أن يمن على هؤلاء المستضعفين فى الأرض ، ليس برفع الظلم عنهم فقط ، ولكن بجعلهم أئمة فى الدين ، وفى سياسة الأمور والملك ، قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف : ١٣٧] وإذا أراد الله تعالى فلا تستطيع قوة أن تقف أمام إرادته سبحانه فأمره نافذ ولا راد لمشيئته قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] ؛ لأنه تعالى لا يخلق بالمعالجة ، ولكنه يقول : ﴿كُن﴾ ولذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى

سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨] فمن عدل الله سبحانه أنه مَنَّ على المستضعفين بفضله ، فلم يرفع العذاب والظلم عنهم فقط ، ولكن جعلهم أئمة ، وليسوا أئمة فى مكان آخر غير الذى كانوا مستضعفين فيه ولكن فى نفس المكان بعد أن أورثهم من كان يظلمهم فرفع عنهم العذاب وجعلهم أئمة على الذين ظلموهم .

ثم يقول تعالى : ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص : ٦] كلمة نمكن ، نحن نعرف أن الأرض مكان والمكان هو الذى يحدث فيه الحدث ؛ لأن كل حدث يحتاج إلى مكان يحدث فيه وزمان يقع فيه ، فمعنى نمكن أى نجعل الأرض مكانا لممكن فى الأرض وقد كان فرعون ممكنًا فى الأرض ، يتصرف فيها تسلطًا ويأخذ خيرها والله سبحانه أعطانا ذلك فى لقطات متعددة من القرآن الكريم ، فنبى الله يوسف عبر الرؤيا للملك وفرح به وأخرجه من السجن ثم قال له الملك : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف : ٥٤] فمعنى مكين هنا أى لك مركز ثابت ، ولا ينال أحد منك شيئًا ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى : أعطيناه سلطة فيأخذ خير الشيء ويصرفه للآخرين .

ومعنى : ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أن هامان هو وزير فرعون ، وكلمة ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ تدل على أنه كان لكل منهما جنود وحرس خاص ، أو أن المعنى أن هامان يزاول سلطانه من باطن فرعون لأن فرعون لا يزاول سلطانه إلا بواسطة وزرائه ، فالجنود يأخذون أوامرهم من هامان ، فالمسألة واحدة . أو أن المقصود أن يجعل لهامان سلطة فرعون ؛ فالله تعالى أراد أن يُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من هؤلاء السمتضعفين .. يريهم الشيء الذى كانوا يحذرونه ويخافونه . ما هو هذا الشيء؟ الشيء الذى كانوا يحذرونه ويخافونه هو النبوءة التى جاءتهم إما بواسطة الرؤيا أو بواسطة الكهنة أنه رأى نارا تأتى من بيت المقدس وتتسلط على القبط فقط وتترك بنى إسرائيل ، فلما عبروا له الرؤيا قالوا : إنه سيأتى أحد من جهة بيت المقدس ويقضى على فرعون ويستولى على المُلك أو أن الكهنة قالوا لفرعون : إن طفلا سيولد هذا العام يكون ذهاب ملكك على يديه .

إذا كان الكهنة قالوا له : إن ذهاب ملكه سيكون على يد طفلٍ يُولد من بنى إسرائيل فى عام كذا ، فمعنى ذلك أن هذا الطفل سينجو من القتل ويكبر ، ثم يكون على يديه زوال ملك

فرعون ، فلماذا أتعب نفسه وقتل الأبرياء ، مع أن الرؤيا أخبرت أنه سيكون وسينجو من القتل ، فهو سيقتل غير الذى سيكون ذهاب الملك على يديه ، وطالما أفلت هذا الطفل من يده فهو إذن ليس إلهًا ؛ لأنه لم يعرف ذلك لا بألوهية ولا حتى بعقله وذكائه فهذا عجب ؛ لأن الله أنقذ هؤلاء المستضعفين وأبان لفرعون وهامان وجنودهما من هؤلاء المستضعفين ، ما كانوا يحذرونه ويخافونه من أن ذهاب ملكهم وهلاكهم سيكون على يديهم .

منزلة موسى عليه السلام عند الله تعالى

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

كأن الله تعالى يريد أن يلفتنا إلى عطاءاته وفُيوضَاتِه وهى كثيرة أَجَلُّ من أن تحصى ، وهو سبحانه يذكُّره بها فى هذا المقام ، فالله قد اصطفاه أى اختاره وميَّزه على الناس ، وهذه دقة الأداء ، فلو أن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ ولم يقل ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ، لكان معنى هذا هو الاصطفاء المطلق على كل خلق الله حتى الملائكة المقربين ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يفهمنا أن هذا الاختيار والتفضيل ، هو فى دائرة البشر ، ولكن الله تعالى اصطفى من الرسل غير موسى ؛ فلذلك نقول : هناك فرق بين اصطفاء أو تفضيل برسالة منفردة ، وبين تفضيل برسالة ومعها شىء زائد ، والرسل اصطفاهم الله سبحانه وتعالى بالرسالات ، ولكن موسى عليه السلام اصطفاه الله بالرسالة والكلام .

وقال الله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم : ٥١] . مخلص - بكسر اللام - أى خلص الغرائز المخلوقة لمهمة ، مما يصيبها من شوائب تؤدى إلى الانحراف بها عن هذه المهمة ، وأما المخلَص - بفتح اللام - فهو الذى بدأه الله مخلصا من ذلك ، دون أن يدخل فى تجربة ، وهؤلاء هم الذين يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية ، فبدلًا من أن يخلِّصوا أنفسهم ، يخلقهم الله مخلصين فالمخلَص خلصه الله من شوائب الغرائز ، والمخلِص - بكسر اللام - خلص نفسه من شوائب الغرائز ، وذلك بالتربية واستعمال منهج الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم : ٥٢] وكلمة

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ النجئ : هو المناجى الذى يحدثك عن قرب ، مع أن الله تعالى كلمه كلاما سمعه موسى ، فمعنى ﴿نَجِيًّا﴾ أى : كلاما لا يسمعه سواه ؛ لأن كلام الله خصوصية له فلا يسمعه غيره ، فلما سمعه موسى وأخفاه عن غيره صار كأنه ناجاه ، وهذه عظمة القدرة وطلاقتها تعطى الكلام والمناجاة فى وقت واحد .

وقال الله سبحانه : ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [طه] والسُّؤل هو الشىء المسئول ، المعنى : قد أوتيت مسئولك يا موسى ، فالذى سألته أعطيناك ومعنى : ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ أى أعطيناك قبل أن تسأل ، فنحن لم ننتظر حتى تسأل ، ولكننا أعطيناك قبل السؤال ، ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم : ٣٤] أى من كل الذى سألتم ، وهناك قراءة أخرى تقول : (وآتاكم من كلٍّ) بتشديد اللام والتنوين (ماسألتموه) أى : أتاكم حتى قبل أن تسألوا ؛ لأنه سبحانه أعطاك قبل أن تعرف أن تتكلم وتسأل ، ومعنى ﴿ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ أى : مرة ثانية ، فهذا اسمه ترتيب ذكرى وإن كانت هذه متأخرة عن تلك .

وكلمة : ﴿مَنَنَّا﴾ المنة : تعنى عطاء بلا مقابل ، فالجزاء على العمل فى الآخرة يكون بعمل ؛ لأنك عملت عملًا تجازى عليه ، ولكن المنَّة أن يعطيك الله شيئًا بغير عمل فالمنَّة بلا مقابل ، وذكر وقت هذه المنَّة فقال تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه : ٣٨] فالمنَّة الأولى حدثت وقت أن أوحينا إلى أمك ما يوحى ، فأنت يا موسى ولدت فى عام كان فيه فرعون يقتل أولاد بنى إسرائيل ، فمننا عليك بأن أوحينا إلى أمك أنها إذا خافت عليك تلقيك فى اليم ، وأننا سنحفظك ونردك إليها ونجعلك من المرسلين .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه : ٣٩] ولذلك لما رآه فرعون ورأته امرأته ، وقع فى قلبيهما حبه ، فهناك محبة بأسباب الله ، ومحبة بدون أسباب ، ولكن الله أرادها .

وقوله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ : ذلك يعنى أن الذى سيربيه فرعون ولكنه يربيه على عين الله تعالى : فإن تعرض لشىء فى تربيته يتدخل الحق سبحانه لإصلاحه .

وحى الله إلى أم موسى

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

« الوحى » فى عموم اللغة معناه : إعلام بطريق خفى . لكن الوحى الشرعى : هو إعلامٌ من الله لرسوله بمنهجه لخلقه ، هذا هو الوحى الشرعى ، بخلاف الوحى في اللغة ؛ لأنه قد يكون الموحِى هو الله ، يُوحى إلى الملائكة كما قال تعالى : ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

كما يُوحى سبحانه إلى الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

إذن .. هناك وحى اللملائكة ، ووحى للأنبياء والرسل ، وهناك وحى للمؤمنين ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ . وكما أوحى سبحانه إلى أمِّ موسى ، وإلى السيدة مريم ، ليس هذا فقط ؛ بل أوحى الله سبحانه إلى النحل . كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

ليس هذا فقط ؛ بل أوحى الله إلى الجماد أيضًا فقال سبحانه : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١- ٥] . فهذا كله إعلام من الله إلى كل الأجناس .

وقد يكون الإعلام من الشيطان ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقد يكون الوحى بين الضالين من بعضهم لبعض ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إذن .. فالوحي على إطلاقه : إعلام بطريق خفى ، إلى أى مخلوق ، فى أى موضوع .

وأما الوحى الشرعى : هو من الله تعالى للذى اصطفاه من رسله بمنهج يهدى به خلقه ،

فالوحي إلى أم موسى من المرتبه الرابعة ، لكن هل الوحي إلى أم موسى كان نفثا فى الروع وإلهامًا ؟ يجوز . وهل كان بواسطة رؤيا ؟ يجوز . وهل كان بواسطة ملك كلّمها وأرشدها إلى هذا الفعل ؟ المهم أن الذى أوحى بذلك إلى أم موسى هو اللّه سبحانه وتعالى .. أوحى إليها بماذا ؟

الأمر الأول : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ .

والأمر الثانى : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ .

ومن النواهي : قول اللّه تعالى لأم موسى : ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ .

وهناك خبران وبشارتان : فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ آية واحدة جمعت بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين ، فى إيجاز معجز .

وقضية الوحى إلى أم موسى وردت فى القرآن مرتين ، فظن المستشرقون أن القرآن يكرر الآيات دون داع ، وجاءوا بقول اللّه تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه : ٣٨، ٣٩] وهنا هذا الوحى لم يذكر أن أرضعيه ؛ لأن الرضاع فى وقت الأمان ، لكن الوحى هنا جاء فى وقت الخوف ، وكلمة ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾ دليل الاستعجال واللهفة ، فليس فيها حنان ؛ لأنه ليس هناك وقت للعواطف ، فتقذفه فى التابوت ، ثم تقذف التابوت فى البحر ، ثم أمر اللّه البحر أن يلقى التابوت إلى الساحل أمام قصر فرعون .

إذن .. مادام لم يذكر كلمة : ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ فى هذه الآية ، فهذا دليل على أن الحديث هنا عن الموقف ساعة الخوف عندما أمرها اللّه بإلقائه فى اليم بالفعل فكأن الوحى الأول تمهيدٌ لِمَا سيحدث لتستعد نفسيا للعمل .

ولذلك تجد فى الكلام الأول اطمئنانا ، وذلك فى قول اللّه تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تجد الكلام يغلب عليه طابع الهدوء والاطمئنان ؛ لأنه ليس فى وقت الحدث .

ولكنه تمهيد وإعداد لما قبل الحدث ، لكن الكلام فى الآية الأخرى جاء وقت الحدث ،

فكأنه يقول لها : هيا ضعى الولد فى التابوت ، واقذفيه فى اليمّ قبل أن يقتله جنود فرعون ، ألقيه بسرعة ؛ ولذا تجد الأسلوب فى سرعة واستعجال ؛ فالوقت لا يسمح بالإطناب . قال تعالى : ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ فالله قد طمأنها عليه حتى لا تخاف ، لأنه حين يلقيه اليمُّ بالساحل فهذا أمان له .

ويقول تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص : ١٠] كل واحد منا له صدر ، والصدر فيه القلب ، والقلب فيه الفؤاد . والقلب لا يسمى فؤادا إلا إذا كان فيه قضايا تحرك حركته ، وكلمة « فارغًا » معناها : ليس فيه شىء ينفع ، وليس فيه قضية تضبط التصرف ، فأم موسى أصبح فؤادها فارغًا من الشىء الذى يضبط التصرفات ؛ لأنها لم تكن قادرة على تحمل هذا الموقف الصعب ، لولا أن ربط الله على قلبِها وصبرَّها .

والإنسان حين يدرك شيئًا يدركه بآلة إدراك ، فإما أن يسمعه أو يراه أو يلمسه أو يشمه أو يتذوقه ، فمثلًا لو كنت سائرا فى بستان ، ورأيتَ وردةً جميلةً أعجبتك فأنت ساعة نظرت إليها استقر فى نفسك وجدان تجاهها ، فإذا أردت أن تقطفها فهذا يسمى نزوعًا ، فالذى يضبط قضية النزوع هذه هو : هل ستقطف هذه الوردة من بستان مملوك لغيرك ؟ فتجد عندك قضية فى قلبك ، وهى أن هذا ليس من حقك ؛ لأنها ليست ملكك .

إذن .. فى القلب قضية ، وهى ألا تتعدّى على ما ليس لك ، وإن كنت تريد وردة فعليك بشرائها أو زراعتها ، فهنا أنت قد أدركت ووجدت فى نفسك إعجابًا واستقرارًا ، وأردت أن تنزع لكى تملك ، لكن الذى منعك من قطفها قضية مستقرة فى قلبك ، وهى أن هذا الشىء ليس من حقك ، وأن صاحبها قد يعاقبك أو يقاضيك ...إلخ .

فأم موسى كان قلبها فارغًا من القضية التى تجعلها تصبر ، ولا تذكر سيرة هذا الولد لأى إنسان ، لكن لأنها أم ، والأم تخشى على ابنها من أقل خطر ؛ فكادت تبدى قلقها ، لولا أن ربط الله على قلبها ؛ فالربط على القلب حتى يصبح الأمر عقيدة لا تطفو على السطح .

فقول الله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بلغ من فراغ قلبها أنها كادت أن تقول : هذا

ابني . لولا أن ربط اللَّه على قلبها ، فالله ربط على قلبها لتكون من المؤمنين ؛ لأن الإيمان يمنعك من الضار ويجلب لك النافعَ ، وإن كان الضار فيه شهوة عاجلة لك ، فهذا ابنك حقًّا ، وأنت ملهوفة عليه ، لكنك لو أظهرت ذلك لفرعون أو أحد من حاشيته سيقتلونه في الحال ، فالله لا يريد منك ذلك حتى يظل ابنك حيًّا .

عودة موسى عليه السلام إلى أمه

يقول تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص : ١٢] فالتحريم هنا ليس كتحريم بعض الأشياء التي حرمها اللَّه علينا ؛ لأن هذا طفل لم يبلغ سن التكليف ، ولكن المعنى : منعناه من أن يقترب من أية امرأة تأتي لترضعة ؛ حتى يبحثوا له عن مراضع ، فلما رأت أخت موسى أنه لا يرضع من أحد قالت لهم : ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص : ١٢] . فلما قالت ذلك ، سمعها هامان فسألها إن كانت تعرف شيئًا عن هذا الطفل ، قالت : لا ، ولكنهم ناصحون ، محبون للملك ومخلصون له .

فردّه اللَّه إلى أمه ، قال تعالى : ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص : ١٣] فردّه اللَّه سبحانه إلى أمه كي تفرح وتقرّ عينها به ولا تحزن على فراقه .

وكلمة ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ تدل على أن الأسباب في يد المسبِّب ، فالله رده ؛ لأن اللَّه يجري الأمر وفق إرادته ومشيئته ويحول بين المرء وقلبه ، ولتعلم أن وعد اللَّه حق في قوله : ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص : ٧] فحفظه اللَّه تعالى ورده إليها ، كما وعدها من قبل .

خروج موسى إلى مدين

ثم تمضي الأحداث فيقول اللَّه تعالى : ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص : ١٥] ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ أي : في وقت القيلولة ؛ لأن قوم موسى كانوا مضطهدين ، وهناك بعض

المدن يمنعون من دخولها ؛ لأن بها أكثرية من أعدائهم ، وكان موسى واحدا منهم ، ولكن الله جعل موسى يعزم على دخول المدينة – وهى « منف » – فأراد أن يدخلها فى وقت غفلة من أهلها ، فاختار وقت القيلولة لأن الناس يقيلون فيه فى بيوتهم ، فلما دخلها وجد فيها رجلين يتشاجران أحدهما من شيعته أى من بنى إسرائيل ، والآخر من القبط .

ومعنى استغاث : أى طلب الغوث ، فاستغاثة الإسرائيلى على القبطى فوكزه موسى ، أى ضربه بِجُمْع يديه ، فجاء قَدَرُ القبطى مع الوكزة ، فلم يمت من الوكزة ، ولكنه مات عندها لا بها ؛ لأن ساعة أجله قد حانت لما ضرب موسى الرجل فمات ، حزن وقال : ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ عرف أن هذا العمل من فعل الشيطان ؛ لأنه عدو مضل واضح الضلال ، فاستغفر ربه وأناب إليه . قال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص : ١٦] ساعة يخطئ الإنسان ويفعل ذنبًا ويعرف أنه أذنب لا يكابر فيه ، بل يبادر على الفور ويقول : أنا ظلمت نفسى وحكمك الحق يارب فاغفر لى .

موسى عليه السلام لما استغفر ربه غفر له ؛ لأنه سبحانه هو الغفور الرحيم ؛ لأن الإنسان إذا أصابته غفلة ، واقترف ذنبًا ولم يفتح الله له باب التوبة والمغفرة ، لكان الذى يخطئ ويعمل ذنبًا واحدا فى حياته ، ييأس ويعمل كل الذنوب ؛ لأنه وقع فى الخطأ ولا توبة له . إذن .. مشروعية التوبة من الله ، والمغفرة لمصلحة الناس تعطى صاحب الذنب أملًا فى أنه لم يطرد من رحمة الله تعالى .

ولما غفر الله تعالى لموسى وقَبِل توبته ، عاهد موسى ربه ألا يكون ظهيرًا للمجرمين ، قال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص : ١٧] أى يا رب ، بما أنعمت علىّ بالمغفرة وعذرتني وتبت علىّ ، أعاهدك يا ربى أننى لن أكون معينًا للمجرمين . وأصبح بعد هذا الحادث خائفًا يترقب قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص : ١٨] ، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ : أى يرقب انفعالات الناس المقبلين عليه لأنه يخشى أن يؤذوه انتقامًا للقبطى الذى مات فى المشاجرة .

ولما أصبح موسى فى المدينة خائفًا يترقب انفعالات الناس المقبلين عليه ؛ خشية أن ينتقموا منه ، وجد الرجل الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أنت تريد أن تغوينى لأكرر خطأ الأمس ، ومع ذلك حنّ لنصرته ولم يترك خصمه يفتك به ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص : ١٩] .

وعندئذ جاء الرجل المؤمن من آل فرعون من آخر المدينة يسعى إلى موسى ليحذره ، وقال له : ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [القصص : ٢٠] ، فكأن الرجل ينصحه بالهرب قبل أن يقتله فرعون وقومه ، ولم يجد موسى بُدًّا من الخروج ، ولكن كان ذلك لحكمة أرادها اللَّه سبحانه وتعالى .

قال سبحانه : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص : ٢١] أى : خرج من المدينة متخفيًا ؛ خشية أن يراه أحد ؛ لأن قوم فرعون كانوا يضطهدونهم دون أن يفعلوا شيئًا ، فما بالك إن اعتدوا وقتلوا منهم واحدًا ؟

موسى .. وابنتى شعيب

الله تعالى يقول : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص : ٢٣] قصة قصيرة موجزة ، لكنها تحدد مهمة المرأة ومهمة المجتمع ، ومتى تكون الضرورة ، وكيف تقدر بقدرها ؟ وموسى عليه السلام ورد ماء مدين ، وكلمة ﴿وَرَدَ﴾ ليس معناها الشرب ، ولكن معناها الوصول عند الماء ، فالورود لا يقتضى الشرب .

فلما جاء موسى العين ، أو البئر التى كان يشرب منها أهل مدين ، وجد عليها أمَّة ، أى : جماعة من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم ، ووجد امرأتين تذودان ومعنى ذاد الشيء : أى منعه أن يفعل كذا ، فالغنم تندفع نحو الماء وهما تمنعانها ؛ حتى يسقى الناس أنعامهم .

ولما رأى موسى هذا الأمر استغرب ؛ إذا كان الناس جاءوا إلى البئر ليسقوا أنعامهم ، فلماذا تمنع هاتان المرأتان أغنامهما من الاقتراب من الماء ؟

فسألهما وقال لهما : ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أى : ما حكايتكما ؟ ولماذا تفعلان ذلك ؟ فأخبرتاه أنهما لا تسقيان حتى يصدر الرعاء ، هنا كلمة ﴿يُصْدِرَ﴾ وفيه أيضًا أصدر يُصْدِر ، كلمة صدر أى هو بذاته ، وورد هو بذاته ، وأصدر : أى أرسل غيره ، وأورده : أى أرسل غيره أيضًا .

و﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أعطت حكمًا ، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أعطت حكمًا ثانيًا ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أعطت حكمًا ثالثًا .

فأخذنا من هذه الآية ثلاث قضايا : لا تخرج المرأة لعمل الرجل إلا للضرورة ، فالضرورة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ، ونأخذ الضرورة بقدرها : ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ ، والمجتمع الإيمانى عليه أن يساعد أصحاب هذه الحالات ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ .

قال تعالى : ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ كأنه كما حدثت القصة طوال رحلته لم يتيسر له الحصول على الطعام ، وكان يأكل من بقل الأرض حتى نحل جسمه ، وأصبح مهزولاً ، وضعف من قلة الأكل ، ومع أنه على هذه الحالة من الضعف ، فهو عندما رأى المرأتين فى هذا الموقف قام وسقى لهما ، وقضى مصلحتهما ، ومعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يريد من الضعيف أن يتجه إلى المعونة ، وحين يتجه إلى المعونة فلن يفعل هو بقوته ، وإنما يفعل بمعونة الله ، وبعد أن سقى للبنتين رجع إلى الظل مرهقًا متعبًا ، بدليل أنه قال : ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

قوله : ﴿رَبِّ﴾ دعاء بما يناسب الإجابة ؛ لأنه كان يستطيع أن يقول : يا الله لكن كلمة « الله » تعنى المعبود الذى له أوامر ، لكن الرب هو متولى التربية ، ولذلك جاء بالصفة التى تناسب الموقف ، أى : يا رب ، أنت الذى خلقتنى وأوجدتنى فى هذا الكون ، وما دمت كذلك فأنا جائع أريد الطعام . ومعنى : ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ أى أن هذا الرزق من عندك أنت ، وإن جاءنى الآن أحد بطعام فأنت الذى أنزلته إلىَّ .

وبينما هو يناجى ربَّه طالبًا العون والمساعدة جاءه الفرج من عند الله ، قال تعالى : ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص : ٢٥] . أى : جاءته إحدى الابنتين تمشى فى حياء ، فعندها حياء فى المجىء وحياء فى المشى ، فأخبرته أن

أباها يدعوه إلى مقابلته ؛ ليجزيه على شهامته وسقى الغنم لهما ، فموسى لبَّى الطلب ولم يرفض الدعوة ؛ لأن بابًا من الرزق سيفتح له وهو فى حالةٍ صعبة ، هنا لم يذكر القرآن الكريم كيف مشى موسى إلى بيتِ شعيب ، وكيف دلّته ابنته على الطريق ، فموسى لم يكن يعرف الطريق ، والفتاة هى التى ستدله عليه ، وما دامت ستدله لابد أن تسير أمامه وحينما تأتى الرياح من الخلف فإنها تكشف الجسم أو تحدد معالمه ، فلما سارت أمامه لتدله على الطريق ، حوّل موسى وجهه بعيدًا عنها ، وقال لها : سيرى خلفى ودلينى على الطريق بقذف الحصى ، فلما وصل إلى بيت شعيب وحكى له القصة وهروبه من مصر وتربُّص القوم به ، طمأنه وقال له : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

ثم يقول تعالى : ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وهذه الآية أعطتنا حكمًا جديدًا بعد الأحكام الثلاثة التى ذكرناها سابقًا ، فمع أن الضرورة هى التى اضطرت البنتين إلى الخروج وأخذتا هذه الضرورة بقدرها ولم تزاحما الرجال ، والمجتمع المسلم يساعدهما فى ذلك ، فالبنت حينما وجدت الإنسان الأمين طلبت من أبيها أن يستأجره ، وهذا دليل على أنها لم تهوَ الخروج ، وتريد أن تجد من يعفيها من هذه المهمة ، بعكس الحال عند كثير من النساء اليوم ، التى تبذل الواحدة منهن كل ما تستطيع من أجل الخروج ومزاحمة الرجال ، يسّر اللّه لهن من يكفيهن مشقة الخروج ، وشرح صدورهن للالتزام بالمهمة التى من أجلها خُلقن .

قال بعض العلماء : إن موسى عليه السلام حينما وجد الناس يسقون ، ووجد المرأتين تذودان لم يذهب ويجترئ على الرعاة ويزاحمهم ، ولكنه تركهم وشأنهم وتلفت حوله ، فوجد بعض الخضرة والحشائش فعرف أنها لا تنمو إلا فى وجود الماء فبحث عنها ، فاهتدى إلى وجود بئر أخرى فى هذا المكان ، ولكنها كانت مردومة بحجر ، فأخذ يزحزح هذا الحجر من فوق البئر حتى كشف عن الماء وسقى للبنتين ، وكان هذا الحجر كبيرًا لا يقوَى على حمله عدد من الرجال ، فعرفت البنت أنه قوى ، وحينما سارت أمامه لتدلَّه على بيت أبيها وهبّت الريح ، طلب إليها أن تمشى خلفه ، فعرفت أنه أمين ؛ فلذلك قالت لأبيها : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ .

الأب كان عنده حزم ؛ لأن موسى سيدخل بيته ويرعى غنمه ، والبيت فيه بنتان وموسى

غريب عنهما ، فوجد الأب أن أفضل حل أن يزوجه إحداهن فتصبح الأولى زوجته والثانية محرمة عليه .

فقال شعيب لموسى : ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]. أى : تكون أجيرًا عندى لمدة ثمان سنوات ، فإن أكملتها عشر سنوات فهذا كرم منك ، ولن أشق عليك فى العمل ، وحين تعايشنى ، ستعرف أنك عايشت رجلًا من الصالحين تحب ألا تفارقه ، وستكمل العشر سنوات برغبتك وإرادتك .

فوافق موسى على هذا العرض وقال : ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] أى : هذا الاتفاق بينى وبينك سواء قضيت ثمانى أو عشرًا فلا عدوان علىَّ ، وهنا العلماء أخذوا من هذه الآية حكمًا آخر فقالوا : هل يعنى هذا الكلام أن موسى سينتظر عشر سنين ثم يبنى بالبنت رغم أنهما اتفقا وأشهدا الله على هذا الاتفاق ؟ قال العلماء : لا ليس المقصود ذلك ، ولكن تسمية المهر هى المطلوب ، أما قبضه فيمكن أن يؤخر ، أو يُقَدَّمَ جزء منه ويؤخر جزء ، لكن لابد من تحديده ، فتسمية المهر هو الشرط ، أما قبضه فليس مهمًا ، بدليل أنه اشترط أن يزوجه ابنته على أن يعمل عنده ثمانِ سنوات أو عشرًا واتفقا على ذلك ، وبنَى موسى بالفتاة قبل أن يقضى جزءًا من هذه المدة .

عودة موسى وأهله

ثم يقول تعالى : ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] . ﴿ٱلْأَجَلَ﴾ هو : الثمان سنوات أو العشر ، والحق سبحانه أطلق على الزوجة : أهل الرجل ، أو : إن الجماعة معى ؛ وذلك لأن الزوجة تقضى للرجل ما لا يقضيه غيرها ، وتزيد شيئًا لا يصح أن يقضيه غيرها ، فقامت مقام الأهل أو الجماعة .

ومعنى ﴿ءَانَسَ﴾ أبصر ورأى أو أحس بشىء يؤنس ، من الأنس . ﴿ٱلطُّورِ﴾ هو جبل الطور بجنوب سيناء ، ومعنى ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أى : انتظروا فى هذا المكان .

وقوله : ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ معناه أنه يخبرها ، وأنها لم ترها ، ولو كانت نارًا مادية من

صنع البشر لاستوى الأهل معه فى الرؤية ، فكأن هذه حالة خاصة به .

وكلمة ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ تفيد الرجاء ؛ لأنهما كانا تائهين لا يعرفان أين يذهبان ، ولا أين الطريق ، فهذا هو الخبر الذى يسألان عنه ، وكان الجو باردًا يستلزم البحث عن جذوة من النار يستدفئان بها ، فمأرب موسى وأهله فى تلك اللحظة شىء يهديهما الطريق ويعرفهما أين هما ، وشىء يدفئهما من البرد ، فجاءهما الحق سبحانه بهذين الأمرين معًا برؤية هذه النار .

وقال فى آية أخرى : ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا﴾ [النمل : ٧] على سبيل اليقين ، لكنه راجع نفسه بعد ذلك ، وتوقع أنه ربما ذهب إلى النار فوجدها انطفأت ، فقال : ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ على سبيل الرجاء . والنار التى سيأتى بها أنواع ، فإن كانت النار مشتعلة سيأتى بشعلة ، وإن كان اللهب انتهى يأتى بجذوة ، أو جمرة من النار ؛ ولذلك قال : ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ، والاصطلاء : هو التدفئة ، فهو بذلك جاء بكل الاحتمالات ، فلما وصل موسى إلى النار ماذا حدث ؟

وصول موسى إلى الوادى المقدس

قال الله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه : ٩، ١٠] . « هل » أداة استفهام ، والاستفهام طلب الفهم ، ولكن الله تعالى يعلم الحكاية كلها وليس فى حاجة إلى الاستفهام من أحد ، ولكن هذا أسلوب تشويق وهو : إلقاء صيغة الاستفهام ، ولم يكن يعلم موسى هل سيدرك لهبًا ، أم أنه سيصل إليها بعد أن ينطفئ اللهب وتبقى الجمرات ؟ فمرة تجده يقول : ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل : ٧] . ومرة يقول : ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص : ٢٩] ، وحاجته إلى النار كانت شديدة ، لأن الليلة كانت ممطرة والجو بارد وهم غرباء عن المكان . وكان مع نبى الله موسى زوجته ، وابنه ، وخادمه ، وكانوا جميعًا فى حاجة إلى التدفئة ؛ ولأنهم غرباء كانوا فى حاجة إلى دليل يهديهم إلى الطريق الذى يسلكونه إلى مصر ، وذلك قوله : ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ .

إذن .. تعددت الكلمات لأن الموقف لا يمكن أن ينتهى بكلمة ؛ لأنهم لن يتركوه يذهب

بسهولة . فالحق سبحانه وتعالى ذكر كل هذه اللفظات فى آيات كثيرة حتى يجمع القصة كلها ، ومعنى : ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أى : أجد أحدًا يهدينى بأن يدلنى على الطريق الذى سيوصلنى إلى غايتى .

ثم يقول تعالى : ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه : ١١، ١٢]. قال المفسرون إنه لما أتاها وجد نورًا يتلألأ فى شجرة ، وهذا النور الذى يتلألأ فى الشجرة لا خضرة الشجرة تؤثر عليه فتبهته ، ولا النور يطغى على خضرة الشجرة فيضعفها .. مسألة عجيبة ؛ لأن الضوء الشديد حين يسقط على الخضرة يبهت لونها والخضرة الشديدة تبهت الضوء ، ولكن هذا لم يحدث مع النور الذى رآه موسى عليه السلام على الشجرة .

وقوله : ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ هناك كلمتان متقابلتان : « آنست » و« توجست » فمعنى « آنست » : أى : شعر بشىء يؤنس به ، ويُفرَح به ، ويطمئن [إليه] . و« توجست » أى : شعرت بشىء يخيف ؛ ولذلك يقولون : توجست شرًّا .

فنبى اللّه موسى لما أتى هذا المكان هاله منظر النور الذى رآه « نُودِيَ يَا مُوسَى » ، وهذا معناه أن الذى يناديه يعرفه جيدًا ، وما دام يعرفه جيدًا ، فلعله اطمأن حينما سمع من يناديه باسمه ، مع أنه أخذ يبحث عن مصدر النداء فلم يعرف . بعد ذلك قال له الحق سبحانه : ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فحينما سمع موسى ذلك لم يتعجب مما رأى من النور والخضرة الذى لم يطغَ أحدهما على الآخر ، ولم يتعجب من سماع الكلام دون أن يرى من يكلمه ؛ لأن هذا شىء من عند اللّه تعالى ، ولا يقاس بأحداث البشر ، فاطمأن على أنه فى حضرة ربه الأعلى سبحانه وتعالى .

وكلمة « ربك » فى قوله تعالى : ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ تفيد الإيناس ؛ لأن كلمة اللّه مطلوبها عبادة وتكليف لأن اللّه مطاع فيما يأمر ، لكن الرب « عَطَّاء » حتى للكافر فخاطبه بصفة الرب الذى يتولى التربية .

إذن .. فالألوهية تطلب منك أن تفعل ، وتقيد حركتك ، بينما الربوبية كلها عطاء ، فالحق سبحانه خاطب موسى عليه السلام بالربوبية والعطاء فقال : ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ

﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ لم يقل إننى الرب المطلق . ولكن قال : له أنا ربك أنت وذلك لأن الرسل لهم تربية خاصة تختلف عن باقى الخلق جميعًا ؛ ولذلك قال له فى آية أخرى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. وقال أيضًا : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، فهو سبحانه يعطيك من التربية بما يناسب مهمتك عنده .

وأول أمر وجهه الحق سبحانه لموسى فى هذا الموقف أن يخلع نعليه ، وعلة ذلك أنه بالوادى المقدس الذى اسمه « طوى » . وفى آية أخرى يقول : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]. وهذا ليس تكرارًا فى القرآن .

معجزات نبى الله موسى عليه السلام

قال تعالى : ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٧، ١٠٨].

إلقاء العصا أخذ فى القرآن ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : هى التى واكبت اختيار الله لموسى عليه السلام ليكون رسولاً حينما قال الله له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٧، ١٩].

الله سأل موسى عن الذى فى يده ، وموسى عليه السلام كان يمكن أن يجيب بأنها عصا ، ولكنه إنسان كُرِّم بأن يكلمه ربه فأراد أن يطيل أُنسه بكلام الله سبحانه ، فذكر صفات العصا ، واستخدامها ، وفوائدها له .

ولكن أخبره الله تعالى أن لها مهمة أخرى عنده وأمره أن يلقيها ، قال تعالى : ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٩، ٢٠]. فلما ألقاها انقلبت حية بعد أن كانت عصا ، والعصا معروف أنها كانت غصنًا من شجرة ، ولم تصبح عصا إلا بعد أن انتهت حياتها النباتية ، وصارت جمادًا بعد قطعها من الشجرة ، ومع ذلك فهى لم تنقلب إلى شجرة كما كانت فى الأصل ولكنها تجاوزت مرحلة النباتية التى كانت عليها فى البداية ، وانتقلت إلى مرحلة الحيوانية ، وهى مرتبة أعلى من النباتية .

وعندما رأى موسى هذا المنظر خاف ، فطمأنه ربه وقال له : ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا

سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه : ٢١] . فأمسكها فصارت عصا ، فكأن اللَّه تعالى يدربه على المهمة ، فحينما يقابل فرعون يكون قد جربها قبل ذلك ؛ لأنه لو بدأها مع فرعون قد يخاف من إلقائها ؛ خشية ألا تتحقق المعجزة ، ولكنه بعد أن تدرب عليها اطمأن قلبه وأصبح واثقًا من المعجزة .

والمرحلة الثانية : حينما ألقاها أمام فرعون وحاشيته .

والمرحلة الثالثة : حينما ألقاها أمام السحرة في يوم الزِّينة .

هنا يقول ربنا سبحانه : ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٠٧، ١٠٨] . ومعنى ثعبان مبين . أى : [واضح] « الثعبانية » من حياة وحركة وشكل وكل شيء .

والقرآن الكريم يصف عصا موسى بعدة أوصاف : مرة يصفها بالثعبان ومرة بالحية ، ومرة بالجان ، وهذه الأوصاف كلها مجتمعة فيها فهى حية وثعبان وجان فهى فى خفة حركتها كأنها جان ، وفى شكلها المرعب كأنها حية ، وفى تلوينها كأنها ثعبان . فى الوقت الواحد تأخذ كل هذه الأوصاف .

وموسى أسمر اللون ، ومن معجزاته أنه سيضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء لها شعاع وبريق يأخذ الأبصار ، فالجيب ليس هو جيبك الذى تضع فيه المنديل أو النقود ، ولكن الجيب معناه فتحة الصدر ، موسى أخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين .

ما أجراه اللَّه على عصا موسى لم يكن سحرًا

خَرْق الناموس يكون بإذن اللَّه تعالى للرسل والأولياء ، إن الحق يفعل ذلك لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، **وهذا الإثبات مشروط بشروط :** منها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة ، ومثال ذلك خرق الحق لناموس العصا ، وهى فرع من شجرة ، وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى .

إن ما أجراه اللَّه على عصا موسى لم يكن سحرًا ، ولكنه نقلها من جنس إلى جنس ، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه قال تعالى : ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه : ١٨]، وجاء الأمر بإلقاء العصا : ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ . ولذلك كان لابد أن تُدهش المسألة موسى عليه السلام ؛ لذلك أوجس خيفة ؛ ولأن موسى

عرف سر عصاه ، فلم يوجس خيفة عندما تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون فى يوم الزِّينة ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ، ولكن اللَّه أتاه بمعجزة ستبهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أنهم يغيرون من تخيل الناس للأشياء ، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها ، لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون فى يوم الزينة ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن نظام السحرة كان موجودًا ؛ ولذلك طالَب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف : ١١٣] . وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ، ورقى كل منهم فى فرع من فروع السحر ، فإنهم جميعًا سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه ، [قال تعالى مخبرًا عن ذلك] : ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء : ١٣١، ١٣٢] إنهم عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ، ولكنه قدرة فوق قدرة البشر .

ولكن كل آية تعطى لقطة ، فلو جمعنا اللقطات تعطينا القصة كاملة ، فالوادى المقدس اسمه « طوى » ، وفى الآية الثانية حدد المكان أكثر وبين أنه فى ﴿شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِى ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ . فهذا تحديد للمكان ، ولكن لماذا أمره [اللَّه] بخلع نعليه ؟ قالوا لأنه ما دام واديًا مقدسًا لا يصح أن تفصل جسمك بشىء يفصلك عن هذا الوادى مع أنه يمكنك أن تصلى فى نعلك ما دام طاهرًا ولكن هنا الوادى مقدس أى مطهر ؛ ولذلك بعض الناس كانوا يمشون حفاة فى المدينة المنورة لعلهم يصادفون موطئًا لقدم الرسول ﷺ .

ثم أخبره أنه اختاره لمهمة فقال تعالى : ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه : ١٣] . فالله تعالى اختاره ، وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله تعالى : ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ لم يقل له : « اسمع » . لأن الإنسان يسمع ما يهمه وما لا يهمه ؛ لأن الأذن ليست كالعين يمكن إغلاقها عن الشىء الذى لا تحب أن تسمعه ، ولكن « استمع » معناها : أن تتكلف السماع . إذن .. هناك سمع وهذه ليس لك فيها خيار ، واستمع : تكليف أن يسمع ؛ ولكن تسمَّع أى طلب السماع وأرهف أذنه من أجله .

ومعنى ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ أى هيئ كل جوارحك لأن تسمع ، لأن الأحاسيس مختلفة . هناك أذن تسمع ، وهناك عين تبصر ، وأنف يشم ، ولسان يتكلم ، ويد تلمس ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ أى : جنِّد كل حواسك وأعضائك للسماع واستحضر قلبك ونفذ المطلوب الذى ستسمعه وقوله :

﴿يُوحَىٰٓ﴾ أى : يأتيك عن طريق الوحى .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه : ١٤] ، أى : أنا اللَّه صاحب الأمر والنهى . لماذا قال اللَّه له ذلك ؟ لأنه سيكلفه ، والتكاليف دائمًا شاقة على النفس ، فعطاء الألوهية تكليف بينما عطاء الربوبية نعم وخيرات ينهل منها العبد فى الدنيا ، وكلمة : « لا إله إلا الله » هى المنتهى وهى الينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك الإيمانى وهى كلمة التوحيد التى قال عنها الرسول ﷺ : « خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله » . وما دام لا إله إلا هو سبحانه ، فلا يصح أن نتلقى عن أحد غيره ولا نعتمد إلا عليه ولا ننشغل إلا بذكره سبحانه .

وكلمة : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ . معناها : أنك لن تتلقى أوامر من أحد غيرى ، وقوله تعالى : ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ أى : أطع أوامرى ، واجتنب النواهى ؛ لأنه ليس لى مصلحة فى ذلك ولكنها مصلحتك أنت .

إيناس اللَّه تعالى لموسى عليه السلام

أراد اللَّه تعالى أن يؤنس موسى عليه السلام فقال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه : ١٧] « ما » استفهامية ، والتاء : إشارة لشىء مؤنث ، والكاف : لخطاب موسى . أى : ما هذا الذى معك يا موسى ؟

أنت إذا سألت أحدًا وقلت له : ما هذا الشىء الذى معك ؟ يقول لك : معى كتاب ، أو قلم ، أو مصحف ، أو أى شىء معه . فلما قال الحق تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ كان الجواب الذى هو على قواعد اللغة أن يقول له : عصا . لكنه يعلم أن الذى يخاطبه يعلم أن التى معه عصا ، ولكن هذا كلام الإيناس ؛ لأن الموقف صعب على موسى ، فأراد اللَّه أن يؤنسه ، ومقام الإيناس إذا كان من اللَّه لعبده ؛ فلابد أن يستغل العبد هذا الإيناس ، فلا يرد ردًّا مُقتَضبًا . كما يقولون : « كلمة ورد غطاها » ؛ فموسى لأنه يكلم ربه ويريد أن يطيل أُنسه به قال : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه : ١٨] مع أن اللَّه لم يسأله عن عمله بهذه العصا ، ولكن موسى أطال فى الإجابة ؛ لأن هذا مقام الأنس فى الخطاب مع الله ، ولا ينهيه إلا زاهد فى اللَّه – حاشا اللَّه – فكلمة « هي » فى الجواب

غير مطلوبة « عصاي » لم يقل له : لمن هذه العصا ؟ ولم يقل له : ماذا تفعل بها ؟ حتى يقول له : إنه يتوكأ عليها ويهش بها على الغنم ، وأن له فيها مآرب أخرى . والعصا لها تاريخ طويل فهي أولًا لازمة للتأديب والرياضة ، ولازمة من لوازم الأسفار .

فموسى حينما تكلم مع ربه ذكر بعض فوائدها فقال : ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ . وذلك حين يكون ماشيًا أو متعبًا ؛ وذلك لأن المشى عنده حركتان فهو يحتاج إلى طاقة لحركة المشى بقدميه ، ويحتاج إلى طاقة أخرى ؛ لأن القدمين تحملان بقية الجسم ، فإذا تعب وأصبحت قدماه لا تقويان على حمل الجسم ، فإنه يعتمد على العصا ، فتساعده فى حمل الجسم ، فإن كان عنده بعض القوة يستطيع أن يمشى قليلًا ، وإن لم يكن عنده يجلس .

من معجزات موسى عليه السلام

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] . الكفار طلبوا من الرسول ﷺ بعض الآيات والمعجزات مثل : أن يفجر لهم من الأرض ينبوعًا ، وأن يكون له بيت من زخرف ، وأن تكون له جنة من نخيل وأعناب ، وغير ذلك ، فالحق سبحانه وتعالى بيّن لهم أن غيره طلبوا آيات وجاءتهم ، ومع ذلك كفروا ؛ لأن المسألة كلها تعنت وتهرب ، فالله تعالى أتى موسى عليه السلام تسع آيات واضحات مشهورة ؛ لأنها كلها كانت على مشهد من الناس ورأوها ومع ذلك لم يؤمنوا .

من هذه الآيات : الحية التى انقلبت عصا ، ويده يدخلها فى جيبه تخرج بيضاء ، وأخذ اللَّه تعالى آل فرعون بالسِّنين ونقص الأموال والثمرات ، فكذبوا فابتلاهم اللَّه بالطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، وهذه تسع آيات .

بعض المفسرين يقولون : نبى اللَّه موسى جاء بآيات كثيرة وليس تسعًا فقط ، وذلك مثل : الحجر الذى ضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، وعملية نتق الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة ، والمنّ والسلوى كل هذه آيات أنزلها اللَّه لنبيه موسى .

هنا علينا أن نفهم النص ، اللَّه سبحانه يقول : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ﴾ وهى الآيات الخاصة بفرعون .

هنا الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ .

كيف يكون السؤال لبنى إسرائيل الذين جاءهم موسى بالبينات ؟ سؤالهم متعذر لأنهم ماتوا والموجود ذريتهم ، ولكن السؤال لهؤلاء هو عين السؤال لذريتهم الذين تناقلوها فيما بينهم إلى أن وصلت إليهم ، كما قال اللَّه مخاطبًا بنى إسرائيل المعاصرين لرسول اللَّه ﷺ : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة : ٤٩] . مع أن هؤلاء اليهود لم يشهدوا هذه الأحداث ، ولكنها وقعت لآبائهم وأجدادهم ، لولا أن اللَّه نجَّى آباءهم وأجدادهم من الهلاك ، لما وجدوا هم أنفسهم ، فكأنه سبحانه نجَّاهم ؛ لأن نجاة آبائهم نجاة لهم . لماذا يسأل رسول اللَّه ﷺ بنى إسرائيل ؟ لأنهم الأمَّة التى لها علاقة بوحى اللَّه ولها اتصال بالرسل ، واتصال بالكتب المنزلة على الرسل ، كالتوراة والإنجيل ، ولكن مشركى قريش ليس لهم صلة بذلك .

موسى رغم كل هذه الآيات التى جاء بها قال له فرعون : ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ وكلمة : « مسحور » هل هو الساحر أم سحره غيره ؟ قالوا : هناك اسم مفعول ويرد بمعنى اسم الفاعل لحكمة ، مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء : ٤٥] . فهل الحجاب ساتر أم مستور ؟ قال العلماء : إن المعنى حجاب ساتر ، ولكن اسم المفعول جاء بمعنى اسم الفاعل ؛ لأن اللَّه يؤكد الستر فيقول : إن الحجاب ليس ساترًا فقط ولكنه مستور أيضًا فإذا كان الحجاب نفسه مستورًا فمعنى ذلك أن الستر أحكم . ومثل : « الظل الظليل » أى : المظلل ، لأنه ظل مركب فكأن الظل مظلل وكلمة « المسحور » بمعنى المخبول أى أثر فيه السحر فصار مخبولاً مجنونًا ، وهذه الكلمة قالها الكفار لرسول اللَّه ﷺ .

قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان : ٨] . ونفس الكلمة قالها فرعون لموسى عليه السلام .

مرة يقول ساحر ، وهذا كلام غير منطقى ؛ لأنه إن كان قد سحر الذين آمنوا به ، فلماذا لم يسحر باقى الكفار وتنتهى المسألة ؟

وإن كان مسحورًا ؛ فالمسحور هو المخبول الذى تتأتى منه حركات دون أن تمر على العقل الواعى الذى يختار بين البدائل ، فليس له سيطرة إرادة على نفسه ولا سيطرة خلق ، والرسول لم يكن كذلك . قال تعالى : ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ١- ٤] . والمجنون لا يكون على خلق عظيم أبدًا ، وحتى فرعون تناقض مع نفسه فى هذه القضية ، فهو يتهم موسى بأنه مسحور ، وحين يخر السحرة ساجدين ويؤمنون بموسى ، تجد فرعون يقول لهم : ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه : ٧١] . فهذا دليل على التخبط ؛ لأن الساحر لا يسحره أحد .

وكان ردُّ موسى عليه السلام على فرعون : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء : ١٠٢] .

وكلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تشير إلى الآيات الكثيرة التى أنزلها اللّٰه على موسى ؛ لتكون حجة على فرعون وقومه ، فأنت يا فرعون تعلم أن هذه الآيات منزلة من عند اللّٰه وأن موسى ليس بساحر أو مجنون ، فهو يعلم ذلك فى قرارة نفسه . قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] فهو على يقين من صدق موسى ، وأن هذه الآيات من عند الله ، ولكنه يعلم أنها ستزلزل سلطانه .

وكلمة : « بَصَائِرَ » معناها أن هذه الآيات تعطى بصيرة للناس تفتح بصائرهم ، وتجعلهم يقبلون على ذلك الرسول الذى جاء بآية معجزة من جنس ما نبغ فيه القوم .

والمثبور هو : الممنوع عن أىِّ خير أو الهالك ، وهذا القول من موسى لفرعون دليل على أن اللّٰه أطلعه على أن هذا الرجل سيهلك ، ويغرق ، ويموت على كفره .

ففرعون اتَّهم موسى بأنه مسحور ، وموسى عليه السلام لم يسكت على ذلك بل رد عليه بقوله : ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ .

ولا شك أن المسحور أفضل من المثبور ؛ لأن المسحور أو المجنون تصحبه حياة وإن كان عقله غائبًا ، أما المثبور فهو الهالك أو الممنوع عن أى خير .

* * *

تدريب موسى على استخدام العصا

قال تعالى : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ [القصص : ٣١] ما هذه العجائب ؟ فى البداية النار اشتعالاً فى الشجرة ، والشجرة تزداد اخضرارًا ؛ لا النار تحرق الشجرة ، ولا الخضرة تطفئ النار ، ويأتى الكلام - كلام اللّٰه من كل جانب - وبعد ذلك العصا تنقلب حية ، مع أن العصا أصلها فرع شجرة جاف ، فكان من الممكن أن تكون المعجزة بأن تنقلب العصا شجرة خضراء ؛ لأن الشجرة من جنسها ، ولكن العصا هنا تعدت مرحلة النباتية ، وذهبت إلى مرحلة الحيوانية ، وليست الحيوانية الهادئة العادية ، ولكنها انقلبت ثعبانًا بكل ما فى الثعبان من صفات ، وأمام هذا المنظر المرعب ولَّى موسى مدبرًا أى : جرى إلى الخلف فناداه ربه : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾ أى : ارجع ثانية ولا تخف ، واعطى له القضية التى يجب أن يصحبها موسى فى كل تحركاته فى الدعوة : ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ لم يقل له الحق سبحانه : أنت هنا فى أمان ، ولكن قال له : ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾ فهى قضية مستمرة طمأنه اللّٰه بها ؛ لأنه فى مَعية الله ، فإذا كنت ستخاف وأنت فى معية الله ، فماذا ستفعل أمام فرعون ؟ ولذلك جعل اللّٰه لموسى دربة معه ، وجعل له دربة مع فرعون وخاصته ، ليعده للجولة الأخيرة مع فرعون وخاصته وجمهوره والسحرة والقوم كلهم ، فكان لابد أن يؤنسه مرة ومرة ، حتى يقبل على مواجهة المواقف بلا خوفٍ ولا وجلٍ ، ويثق من نصر اللّٰه وتأييده له .

انتفع موسى عليه السلام بهذه المواقف كلها ؛ ولذلك لما جاء قوم فرعون وراءه وأخذوا يدركونه حينما خرج من مصر ببنى إسرائيل ، ماذا قال أصحاب موسى ؟ قالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء : ٦١] ، فلما قالوا ذلك قال موسى بملء فيه : ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] قال هذا الكلام من الرصيد الموجود عنده من وعد اللّٰه له بالتأييد والنصر .

واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء

قال اللّٰه سبحانه وتعالى : ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه : ٢٢] . اليد معروفة ، والجناح معروف أنه للطير ، ويقابله فى الإنسان الذراعان .

والحق سبحانه حين يوصينا بحسن معاملة الوالدين يقول تعالى : ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء : ٢٤] . فالحق سبحانه يأمر موسى أن يدخل يده من جيب القميص ثم يخرجها ، وساعة يخرجها ستعطى ضوءًا وبريقًا ولمعانًا ، وموسى كان لونه مائلًا إلى السُّمرة ، ولذلك النبى ﷺ حينما وصف الرسل الذين لقيهم فى المعراج قال : « أما موسى فرجل آدم أسمر طوال كأنه من رجال أزْد شنوءة » . ومعنى طوال أى زائد الطول ، وأزْد شنوءة قبيلة معروفة بطول رجالها ولونهم الأسمر .

وفى آية أخرى يقول اللّه تبارك وتعالى لموسى عليه السلام : ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [القصص : ٣٢] . وهذه لقطات مختلفة حتى تكتمل الصورة .

وإذا كان لون موسى أسمر ، فإن بياض يده كان له شعاع وبريق يخطف الأبصار ، وأحيانًا البياض حين يأتى مع السمرة ، قد يكون مرضًا كالبرص مثلًا ؛ ولذلك الحق سبحانه حتى يبعد هذا الأمر قال عن يد موسى : ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه : ٢٢] .

إذن .. هناك بياض على سمار ولكن بسوء ، ومعنى : ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه : ٢٣] . أى نريك المعجزات والآيات العجيبة التى عندنا لنثبتك بها حتى تفهم أن الذى أمرك بذلك إله ، فإياك أن تخاف أو تهتز ، فالحق سبحانه سيرسله إلى فرعون ، وسيواجه فى ذلك مشكلات عديدة تحتاج إلى شحنة قوية من اليقين والتثبيت .

ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٠٨] . كلمة : « نزع » تدل على أنه إخراج بعنف وبعسر ؛ لأن الشىء السهل لا يقال : نزعته ، ولكن يقال : خلعته ، إنما النزع يدل على مقاومة ، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ يدل على أن يده كان لها وضع خاص ، وكانت فى مكان هو حريص على وجودها فيه ، وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل : ١٢] وهكذا أوضحت لنا هذه الآية الصورة .

ففى قوله تعالى : ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ لم يبين لنا أنه أدخلها ثم نزعها ، ولكن فى الآية الأخرى بين الإدخال والنزع ، وفى آية ثالثة قال : ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أى إلى جيبك ،

والجيب هو مكان دخول الرأس من الثوب ، ولكن الجيب الآن هو أى شيء نجعله لما نحب ، ولقد كان الناس فى الماضى الطريق الوحيد إلى جيوبهم من فتحة الرقبة فى الثوب وقد كان الجيب هو الشيء الذى توضع فيه الأشياء الثمينة ، ولابد أن يكون فى الموقع الأمامى من الثوب حتى يكون الشيء النفيس أمام نظر الشخص ، وأن يكون مكان هذا الجيب تحت الإبط حتى يكون أمام وتحت يده .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ ، إذن .. حدث إدخال وإخراج ، بينما فى الآية الثانية فى قوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ ، وفى آية أخرى قال : ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ ، إذن .. هناك ثلاث حالات : إدخال اليد فى الجيب ، وضمها إلى الجناح ، ونزعها إلى الخارج ، وكل آية من الآيات الثلاث جاءت بلقطة ، فإن أخذناها معًا أعطتنا الصورة الكاملة .

لذلك إن كل من يقول : إن قصص القرآن فيه تكرار .. نقول له : لا ، إنه متكامل كل آية تأتينا بلقطة لتتكامل القصة ، على أننا يجب أن نفطن إلى أن هناك صراعًا نشأ بين فرعون وموسى ، والصراع لا ينشأ إلا عن عداوة ، ولكى يحتدم الصراع لابد أن تكون هناك عداوة متبادلة .

ما هو الإعجاز فى بياض اليد ؟ الإعجاز هنا لكى يقع لابد أن يكون موسى أسمر اللون ، وبذلك يكون البياض فى يده مخالفًا للون جسمه ، ولكن قوله تعالى : ﴿بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أى بياضها ليس مجرد اختلاف فى اللون ، ولكنه يلفت أنظار الموجودين ، إذن .. فلابد أن تكون يد موسى بيضاء ، بحيث أن الضوء الصادر منها يجذب أنظار كل الموجودين فى المكان ، ولكن بعض الناس قد يقول : إن يد موسى ابيضّت بسبب مرض أصابه ، كأن يكون مصابًا بداء البرص مثلًا فتبيض يده ، حتى هذا الظن لم يدعه اللّه سبحانه وتعالى بل أوضحه ، فقال فى آية أخرى : ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ فكأن كل لقطة تعطينا استكمالًا لما حدث ، وتكون فى هذه الحالة بيضاء للناظرين ، تدل على أن ضوء يد موسى لامع مضيء يلفت نظر الناس كلهم ، ولا يلفت نظر واحد أو اثنين من الموجودين فحسب ؛ بل يلفت نظر الموجودين جميعًا ، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان ليد موسى عليه السلام بريق ولمعان وسطوع ، وكما عرفنا فإن هذا البياض من غير سوء .

قيام موسى بدعوة فرعون لإخلاء سبيل بنى إسرائيل

قال اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء : ١٠، ١١] .

و﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم الذين ظلموا أنفسهم فجعلوا للَّه ندًّا وشريكًا ، والشرك ظلم عظيم . و﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم : قوم فرعون ، قال لهم موسى : ألا تتقون ربكم لأن هناك طلبًا يكون بالأمر فيقول لك : افعل كذا ، ومرة يتحنن إليك فيقول لك : ألا تفعل كذا . فهنا يقول : ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أى : يتقون اللَّه فى ظلمهم لأنفسهم ، باتخاذهم فرعون إلهًا من دون الله ، وظلمهم بنى إسرائيل بأنهم كانوا يذَبّحون أبنائهم ويستحيون نساءهم ، أى يذبحون المواليد الذكور فقط دون الإناث ، ولا شك أن قوم فرعون سبب فى تجبره وادعائه الألوهية لأنهم لم يتصدوا له وأطاعوه ، فلو أنه حينما ادعى الألوهية وجد معارضة من قومه ، لاستحى وما تجرأ وزعم أنه إله . ولكنهم وافقوه وأطاعوه ، فهم شركاء فى الجريمة ، ولذلك فى اللغة هناك طاغية وطاغوت ؛ فالطاغوت هو الذى يعينه الناس على أن يكون طاغوتًا .

وموسى عليه السلام لم يأخذ الأمر من اللَّه تعالى وينصرف لتنفيذه ، ولكن لأنه يعرف مشقة المهمة التى كُلِّف بها ، وأنه عايش فرعون ويعرف مدى ظلمه وجبروته ، فقال مناجيًا ربه : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء : ١٢- ١٤] ، فهذا رجل ادعى الألوهية ، ومن الصعب أن يستجيب لرسول يدعوه من القوم الذين يستعبدهم هو ، فخاف موسى أن يكذبوه ، وساعة يكذبونه سيضيق صدره ؛ لأنه سيشاهد باطلًا يجابه حقًّا واضحًا ، وإذا ضاق الصدر تلجلج اللسان فلا يستطيع أن يتكلم الكلام المقنع ؛ لأن الغضب يجعله لا يعرف أن يرتب كلامه أو أفكاره ، فلا يحسن التعبير عما يريد ؛ ولذلك طلب موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليعينه فى هذه المهمة الشاقة ، حتى يساعده فى توصيل الدعوة إلى فرعون وقومه .

كما أن المسألة ليست عادية بين موسى وبين فرعون وقومه ؛ لأن لهم ثأرًا قديمًا عنده ، لأنه قتل منهم واحدًا مع أنه لم يكن يقصد قتله ، فهو يخاف أن يقتلوه بسببه ، ولكن اللَّه أخبره بأن

هذا لن يحدث . ولذلك قال تعالى : ﴿كَلَّا﴾ [الشعراء : ١٥] ، و﴿كَلَّا﴾ حين ترد تنفى ما قبلها ، وما قبلها هنا ثلاثة أشياء : ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ ، ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ فـ﴿كَلَّا﴾ هنا منصبة على نفى ما يكون من موسى مثل ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان ، لكن التكذيب ليس منه وهم سيكذبونه فعلًا فـ﴿كَلَّا﴾ هناك لا تنفى التكذيب الذى سيحدث منهم لموسى عليه السلام.

و﴿كَلَّا﴾ هنا تفت تخوف موسى فى قوله : ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ وقوله : ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ فقال له ربه : ﴿كَلَّا﴾ أى اطمئن إن هذه الأشياء لن تحدث ، وكلمة : ﴿كَلَّا﴾ لها شأن مع موسى ، فالله علَّمها له وهو حفظها ؛ ولذلك حينما خرج موسى عليه السلام من مصر هو وأصحابه واتبعه فرعون بجنوده ، ورأى أصحاب موسى فرعون وجنوده من خلفهم والبحر أمامهم فخافوا وقالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء : ٦١] . فقال لهم موسى بإيمان الواثق من نصر ربه : ﴿كَلَّا﴾ . أى أن هذا لن يحدث . وهذا ليس بقوته هو ، ولكن بقوة الله الذى أرسله ؛ لذلك قال : كلا إن معي ربي سيهدنى .

هنا الحق سبحانه يقول : ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء : ١٥] أى فاذهبا بالمعجزات الدالة على أن موسى رسول صادق من عند الله ، وأنه جاء بمعجزة وهذه الآيات هى العصا ، وبياض اليد من غير سوء حين يخرجها من جيبه .

وقول الله تعالى : ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ ، وفى آية أخرى قال : ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٦] لأن الإيذاء قد يكون من السمع فقط فى أول لقاء ، وقد يكون من السمع والعين بعد ذلك ، ثم يقول تعالى : ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء : ١٦، ١٧] هنا لم يقل : « إنا رسولا رب العالمين » لأن الرسول هو الواسطة من المرسل إلى المرسل إليه ، فإن كان واحدًا يصح وإن كانا اثنين أو ثلاثة فهم رسول أيضًا ، وهما حين يلتقيان بفرعون ، لن يتكلم الاثنان فى نَفَسٍ واحد ، ويقولا : « إنا رسولا رب العالمين » ولكن سيتكلم أحدهما ويؤمِّن الثانى على كلامه أو يسكت ، فسكوته أو تأمينه كأنه قال ، ولذلك حينما دعا موسى على فرعون وقومه قال : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٨٨] . وقال له ربه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس : ٨٩] . يقصد دعوة موسى وهارون ؛

لأن موسى كان يدعو وهارون يؤمن ، والمؤمّن أحدا الداعيين ، **ولكن ما هو طلب موسى من فرعون ؟**

الأصل فى رسالة موسى أنه لم يأت لدعوة فرعون إلى الإيمان بالله ، ولكنه جاء ليخلص بنى إسرائيل من العذاب ثم يلتفت إليهم ليعطيهم المنهج ، لكن الكلام فى الإيمان والحوار مع فرعون عن الألوهية جاء تبعًا للقصة ، فموسى جاء لإنقاذ بنى إسرائيل ؛ ولذلك يقول الله تعالى فى آية أخرى : ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه : ٤٧] فتنوع الأساليب فى القرآن يشرح لقطات فيها تكرار المعنى الإجمالى .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه : ٢٤] . علة الذهاب أن فرعون طغى ، والطغيان هو مجاوزة الحد ، ومجاوزة الحد هى أن تأخذ ما ليس لك ، وتبالغ فى أخذ ما ليس من حقك ، وفرعون لم يعتدِ على حق من حقوق بشر مثله ، ولكنه اعتدى على حق من حقوق الله بادّعائه الألوهية ، وموسى حينما سمع اسم فرعون بدأ يتذكر ما حدث له فى مصر قبل سفره إلى مدين ، حينما وَكَزَ الرجل فقتله ، وتآمر عليه القوم ليقتلوه ، وخرج هاربًا يترقب ، وتذكر أن فرعون هو الذى ربّاه ، وكيف سيواجهه بعد هذه الأحداث . خواطر كثيرة جالت فى ذهن موسى فى هذه اللحظة ، وشعر أن العبء أصبح ثقيلًا عليه ، فقال : يا رب ، أوامرك نافذة ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى أشياء كثيرة طلب من الله أن يعينه بها ، فقال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه : ٢٥، ٢٦] . فطلب من الله أن يشرح له صدره ، حتى لا يقابل هذه المهمة بانقباض ؛ لأنك لو أقدمت على مهمة بانقباض فقدت ثلاثة أرباع قوتك ، ولكن إذا أقدمت منشرح الصدر تكون مجتمع القوى .

فالإنسان حين يقابل الأحداث بانقباض الصدر يُعينها على نفسه ، دون أن يعلم أن المهمة الصعبة تحتاج إلى شرح صدر زائد ؛ لأنك لابد أن تواجهها بانشراح أكبر يناسب المجهود ، كما طلب موسى من الله أيضًا أن يُيسر له أمر هذه المهمة ؛ لأن شرح الصدر أمر من جهة الفعل ، وتيسيير الأمر يتعلق بجهة المقابل ؛ ولأن موسى سوف يقوم بتبليغ رسالة ، وهذا يحتاج إلى منطق ، وكان منطقه فيه لثغة أو حبسة فى لسانه ، وكذلك الحسين بن علىّ رضى الله تعالى عنهما كان فى لسانه لثغة أو حبسة خفيفة فى الكلام ، فكان النبى ﷺ حين يراه يضحك

ويقول : « ورثها عن عمه موسى » .

طلب موسى من ربه أن يشرح صدره لهذه المهمة ، وأن ييسر له الأمر حتى لا يتعبه القوم الذين سيدعوهم [وهم] فرعون وقومه ، وحتى يستطيع أن يتكلم بسهولة فدعا ربه أن يحل عقدة من لسانه ، ولم يطلب من ربه أن يحل عقد لسانه كلها ؛ حتى لا يكون متمردًا على قدر اللّه في جعل لسانه محبوسًا بعض الشيء ، ولكن هذا مجرد لطف في قدر الله ، والهدف منه أن يفقه المخاطبون قوله ويفهموه ، ومع أن اللّه اختار موسى فهو لا يطغى بهذا الاختيار لهذه الرسالة ؛ بل طلب من اللّه أن يرسل معه أخاه هارون ؛ ليعينه على هذه المهمة ؛ لأنه يريد أن يؤدى الرسالة على أكمل وجه ، فالجانب الذى عنده فيه قصور ، أراد أن يكمله بأخيه . وهو بذلك يعطى نموذجًا للبشر ، وهو أن الإنسان إذا كُلف بأمر ، ثم وجد فى نفسه قلة كفاءة فى بعض النواحى ، فعليه أن يستعين بغيره لسد هذا النقص ؛ وهذا دليل على إخلاصه لهذه المهمة ، ورغبته فى إتمامها على خير وجه .

وبعد ذلك أتى بعلّة هذا الطلب فى أن يكون هارون معه فى هذه المهمة ، فقال : ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص : ٣٤] وهارون بالإضافة إلى أنه أفصح من موسى قالوا : إنه كانت فيه صفات أخرى حميدة ، منها أن موسى كانت فيه حدّة – أى أنه سريع الغضب ، أما هارون فكان فيه لين وحلم ؛ ولذا طلب موسى أن يكون معه ؛ ليجبر عقدة لسانه بفصاحته ، وليعالج بلينه شدة موسى وحِدَّته ، فيكمل كل منهما الآخر .

والدليل على ذلك أن موسى لما رجع ووجد بني إسرائيل اتخذوا العجل ، غضب وثار وأمسك بهارون وجذبه من لحيته ، فهنا ظهرت حدة موسى فماذا قال له هارون ؟ قال : ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه : ٩٤] . انظر الرقة واللين فى كلام هارون لأخيه موسى ، فالفصاحة تجبر عقدة اللسان ، واللين يجبر الشدة والحدة التى كانت فى طبع موسى عليهما السلام .

والشيء الآخر أن موسى كان أسمر اللون ، وهارون أبيضه ، وكان شعر موسى أجعد ، وهارون شعره سبط ناعم ، وكان هارون حسن تقاسيم الوجه وكان موسى أقنى الأنف .

ولا شك أن جمال الخلقة أمر ترتاح له الأبصار ، فرسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحى فى صورة دحية الكلبى ؛ لأن دحية كان جميل الشكل ، فكان الله يرسل له جبريل فى صورة دحية الكلبى لكى يؤنسه ويسعده ، فهارون كان يتميز بهذه الأشياء ، فلم يأخذها موسى على أنها أشياء تميز بها ليحقد عليه ، ولكنه أخذها على أن أخاه تميز بها ليكمل نقصه هو ، وهذه هى النظرة التى يجب أن تكون فى الناس ، فإذا كان إنسان فيه خصلة طيبة فعلى غيره أن يفرح بها ؛ لأنك إذا ما رأيت كمالاً فى غيرك فاعلم أن هذا فى صالحك أنت .

وكلمة : « وزير » مأخوذة من الوزر وهو الملجأ الذى يلجأ إليه الناس ، مثل قوله تعالى : ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[القيامة : ١١، ١٢] . لأن الإنسان لا يقدر على أعباء العمل بمفرده فيأتى بوزير ليعينه ، ولكن هذا الوزير الذى يأتى به ليعينه فيكتشف أنه ليس معينًا له ، وإنما هو وزر عليه . فالوزير إن كان ناصحًا أمينًا يكون بحق حصنًا وملجأ ، وإن كان غير ذلك فاستغل الوزارة لتحقيق المكاسب الشخصية له ولأقاربه ، فهذا لا يكون وزيرًا ، ولكنه يكون وِزْرًا ؛ لذلك فالرسول ﷺ يقول : « خير الملوك ملك جعل الله له وزيرًا ، إن نسى ذكره ، وإن نوى على خير أعانه ، وإن أراد شرًا كفَّه » وبين فى حديث آخر أن كل حاكم له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف ، وبطانة تأمره بالسوء كما قال عنها رسول الله ﷺ ، فى المقابل انظر إلى سياسة البشر ، فمثلاً أنوشروان قال : إياكم أن تفهموا أن أحدًا يستغنى عن أحد . فكل واحد له مهمة ، فأنت إن زدت فى شىء فقد نقصت فى أشياء ، هذه الأشياء قد وضعها الله فى غيرك حتى تكملك ، وأنت تكمل غيرك ، فالمعايشة مشتركة ، ولكن الضرورة تفرضها وليس التفضل .

ومعنى : ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه : ٢٩] أى مأمونًا علىَّ . والإزر : هو القوة . ولهذا تجد أنهما حينما يذهبان إلى فرعون ، رغم أن المتحدث هو موسى ، إلا أنه تكلم بلسان الاثنين فقال : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ . فالشىء الذى يتحدث فيه موسى هو عن نفسه وعن هارون ؛ ولذلك لما دعا موسى على فرعون وقال : ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٨٨] أجابه الحق سبحانه بقوله : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس : ٨٨] مع أن موسى هو الذى دعا ، لأن موسى كان يدعو وهارون يقول آمين ، والمؤمِّن أحد الداعيين . وموسى حينما طلب من ربه أن

يرسل معه أخاه هاروه ، لم يقل ذلك حتى يريح نفسه من عناء الدعوة ومواجهة فرعون وقومه ، ولكنه فعل ذلك حتى يكون أداء المهمة على خير وجه ؛ حيث يكمل كل منهما الآخر ، وأراد أيضًا ألا يبدد طاقته كلها فى الدعوة ، وأن يبقى شيئًا منها لعبادة اللَّه وذكره وتسبيحه ، فقال : ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه : ٣٢ - ٣٥] .

وقوله : ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ يعنى أن تكليف هارون بالدعوة يكون من قِبل اللَّه تعالى ؛ حتى لا يكون تفضلًا من موسى عليه .

ومعنى : ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ ، التسبيح : التقديس . تقديس اللَّه ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا . فمن ناحية الذات ليس هناك ذات مثل ذاته ، قال تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ومن جهة الأفعال ليس هناك فعل مثل فعله ، فإذا قال الله : فعلتُ ، فلا تقل : لماذا فعل ؟ لأنه مقدس فى فعله أيضًا ، وفى الصفات أيضًا تعرف أن اللَّه سميع ، ولكن إياك أن تظن أن سمعَهُ مثل سمعك ، فهو سبحانه مقدس ، أى منزه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله . ومعنى « نسبحك » أى نقدسك تقديس الألوهية الذى أنت فيه ، فلا نأتى لك بشىء من اختلاقنا ، ونسبحك ليس تسبيحًا قليلًا ولكن تسبيحًا كثيرًا ، فكان التسبيح من المسبح يورثه لذة فى نفسه ؛ والطاعة من الطائع تورثه لذة فى نفسه ، لذلك قال النبى ﷺ : « وجُعلت قرة عينى فى الصلاة » ، وحينما كان يحزبه أى أمر كان يقوم إلى الصلاة . ومعنى : ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أى : إنك قيُّوم علينا ، ترى وتسمع ما نقوم به من عمل وعلم نيتنا فيه .

وقوله تعالى : ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٦] بعض المستشرقين يشككون ويقولون : كيف يأتى لفظ رسول مرة مثنى ومرة مفردًا ؟

والجواب : أنهم لم يفطنوا إلى شىء هام ، هو وحدة رسالة موسى وهارون ، لأن كلًا منهما لم يأت برسالة منفصلة ، بل جاء الاثنان برسالة واحدة ؛ ولذلك فإن كان الرسول ليس واحدًا بل اثنين ، فإن الرسالة لم تتعدد بل جاءا برسالة واحدة ومن هنا فإن قوله تعالى : ﴿رَسُولُ﴾ بالمفرد إشارة إلى وحدة الرسالة ، وأنها ليست بتعاقب الرسل ولكنها رسالة واحدة وإن كُلِّف بها رسولان ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [يونس : ٧٥] الملأ : هم أشراف القوم وأعيانه والمقربون لصاحب السيادة والسلطان ، هؤلاء اسمهم الملأ ، وذلك لأنهم هم الذين يملئون العين ؛ لأن العين إذا اتجهت إليهم تتعلق بهم لوجاهتهم وسلطانهم ولا تنظر إلى سواهم ؛ وذلك لما لهم من مهابة وإجلال دنيوى ، فالعيون تتعلق دائمًا بالسلطان أو الرئيس إذا جاء إلى أى مكان وبمن حوله من المقربين .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لأن الملأ هم الذين جعلوا فرعون يطغى وهم الذين ساعدوه وأعانوه على ادِّعاء الألوهية ويدعون له بكل مبادئه ، ويحيطونه بهالةٍ قدسية ؛ ولذلك فإن الطاغية لا يطغى إلا بمن حوله يزينون له الباطل ويعينونه على الفساد ، ولو وجد أشخاصًا يقفون ضده ويقاومونه لما طغى وتجبر ، ولكنه يجد الملأ حوله كلهم يعينونه على الباطل ويملئون حياته نفاقًا ورياء .

إذن .. فهو بهم فرعون وبدونهم لا شيء ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآيات هى المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون ، وعلى صدق المنهج الذى يحملانه من الخالق الأعلى ، ولكن هل هذه الآيات استطاعت أن تقنع فرعون وملأه ؟ طبعًا لا ؛ لأنهم يريدون نفوذ الدنيا ولا يبحثون عن الحق .

المواجهة بين نبي موسى عليه السلام ، وفرعون الطاغية

لما ذهب موسى وهارون إلى فرعون وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل قال له فرعون : ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء : ١٨، ١٩] أى أنا الذى ربيتك وأنت صغير ، ورعيتك حتى صرت شابًّا قويًّا . والعلماء يقولون : إن موسى ظل فى بيت فرعون ولم يتركه ، إلا فى سن الثامنة عشرة أو فى سن الثلاثين ، ففرعون رباه ولبث عنده سنين ، وهنا فرعون يذكِّره بالرجل الذى قتله قبل أن يهرب إلى أرض مدين ومعنى : ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إما : من الكافرين بألوهية فرعون ، أو : الكافرين بنعمنا عليك ؛ لأننا ربيناك وأكرمناك . والعقلاء يقولون : إن الحق سبحانه وتعالى حين يوفقك فى تربية الأبناء ، عليك أن تفهم أن هذه عناية من الله ؛ بدليل أن الأب يكون واحدًا ، والأم واحدة والبيئة واحدة والمنزلة واحدة ويخرج الأخوان كل منهما له

سلوك مختلف واتجاه معاكس للآخر ، فهذا دليل على أن هناك عناية إلهية أعلى من عناية الوالدين بأولادهما ، هنا فرعون يعدّد ما فعله من أجل موسى ؛ فقد رباه صغيرًا ولبث عنده سنين عدة ، وهو هنا يسوق الأدلة التى تكشفه وتفضح ادعاءه الألوهية ، فلو كان إلهًا لعرف أن هذا الغلام الذى رباه فى بيته ، وعطف عليه وأراد أن يتخذه ولدًا ؛ سيكون هلاكه على يديه .

والفعلة التى فعلها موسى هى قتل الإسرائيلى حينما ضربه بيده فقضى عليه مع أنه لم يكن يقصد قتله ، فرد عليه موسى ليبرئ نفسه : ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : ٢٠، ٢١] أى أننى لا أنكر أننى قتلت ، ولكن كنت جاهلًا بما سيترتب على هذه العملية ، وما كنت أعتقد أبدًا أن وكزةً كهذه ستميت أحدًا ، فكلمة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ هنا ليس معناها أنه كان ضالًّا عن الهدى ؛ ولذلك يقول ربنا لرسوله محمد ﷺ : ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى : ٧] فهذا ليس معناه أن الرسول كان ضالًّا عن الحق ؛ لأنه لم يكن عنده منهج من اللَّه وتركه إلى غيره ، لم يحدث هذا أبدًا .

فموسى فرّ من مصر خشية القتل ، خاصة بعد أن سمع عن تآمر القوم عليه ، كما فى قول اللَّه تعالى : ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص : ٢٠] . ومعنى ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أى حكمة تجعلنى أضع الأشياء فى مواضعها ؛ لأننى خرجت مظلومًا ولم أقصد قتل الرجل ، فأعطانى ربى من الحكمة ؛ حتى لا أضع الشىء إلا فى محله ، بعد ذلك يقول موسى عليه السلام لفرعون : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء : ٢٢] . أى هل تمن علىّ بهذه الأشياء التى فعلتها معى من تربية ورعاية ؟ هل هذه الحسنة تقارنها بما تفعله مع بنى إسرائيل ، من ذبح الأطفال الذكور واستحياء النساء واستعباد الرجال ، فهل هذا يقارن بما تفعله فى حق قومى ؟ ! ومعنى : ﴿عَبَّدتَّ﴾ أى جعلتهم عبيدًا .

ثم يقول تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ٢٣] . أى من رب العالمين الذى تتحدث عنه ؟ فرد موسى : ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء : ٢٤] أى ربى هو رب هذه السماوات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأبراج ، ورب هذه الأرض بما فيها من زروع وثمار وجبال وبحار وأنهار وحيوان ، وهو الذى خلقها قبل أن توجد أنت يا فرعون .

موسى ردّ على فرعون بشيء ثابت [متحققٍ] في الكون قبل وجوده ، فما الذى زدته أنت في الكون يا من تدّعى الألوهية ، ثم تلطف معه في الحوار فقال : ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى إن كنتم تظنون أن هذه الأشياء لم يخلقها أحد .

استغرب فرعون هذا الكلام من موسى فقال لمن حوله : ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ . فرعون قال ذلك ؛ لأنه كان ينتظر من أتباعه بمجرد أن ينفى موسى عنه الربوبية والألوهية ، وينسبها إلى من خلق السماوات والأرض ، أن يهبّوا للرد على موسى ؛ لأنه حقّر إلاههم ، ونفى عنه ما يدَّعى ، فقال لهم مستنكرًا سكوتهم : ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أى أما سمعتم ما قاله لى ؟ ! فلماذا تسكتون ؟ وهم سكتوا لأنهم يعلمون أنه كاذب في ادعائه الألوهية ، ويتمنون في قرارة أنفسهم أن ينصر اللَّه موسى عليه ؛ حتى يتخلصوا من جبروته وطغيانه .

[ولكن] موسى سارع في بسط حجته ، قبل أن يتدخل أحد من القوم في الحوار [ردًّا على سؤال فرعون : من رب العالمين] ؟ فـ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء : ٢٦] أى من الذى كان إله آبائك وأجدادك يا فرعون قبل أن توجد أنت .

حينما رأى فرعون أن موسى سيهزمه بالحجة والمنطق ، أراد أن يخرج من هذا الجدل فاتهمه بالجنون ، وهذه أيسر تهمة للدعاة عند الحكام المستبدين ، قال تعالى : ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء : ٢٧] هذا الأسلوب يفضح فرعون ، فهو يعترف أن موسى رسول مرسل ، وما دام مرسلًا فلابد أن هناك من أرسله وهو الله ، فكلامه شهادة ضده مع أنه لم يستطع أن يرد على كلام موسى ، فاتهمه بالجنون ولكن موسى لم يعبأ بقوله ومضى في عرض دعوته ، و﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء : ٢٨] أى أن ربى هو رب المشرق والمغرب وما بينهما ، إن كان عندكم عقل تقيسون به الأمور .

ولما ضاق فرعون به ذرعًا ولم يجد حجة يردّ بها عليه ، هدّده بالسجن شأن كل حاكم طاغية لا يتفاهم ، ولا يقتنع بالحوار مع معارضيه .

قال تعالى : ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء : ٢٩] . وهذا إفلاس في الحجة ، فكونك تقوى على الغالب وتأخذه إلى السجن ، فأنت لم تقوَ على الحجة فلو كانت عندك حجة لقرعتَ الحجةَ بالحجة .

حين سأل فرعون موسى قائلًا : ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ قال له موسى : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فهذا دليل البدء ، وهذه هى المهمة الأساسية ؛ لأن فرعون الذى ادعى الألوهية ، وأى إله لابد أن يكون هناك مألوه له ، والمألوه هنا خلق مثل فرعون ، والذى يعتز به هو الملك والأرض ، والنيل ، والخيرات ؛ حيث قال : ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف : ٥١] . فالحق سبحانه يريد أن يردّ عليه ويبينٌ له أن هذه النعم التى ادعى بها الألوهية ، ليس له صلة بخلقها وإيجادها ، كما أنه لم يخلق البشر الذى يريد أن يتأله عليهم فردّه الحق سبحانه إلى قضية الخلق الأولى .

فإذا قيل لفرعون : ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] [أى] هداه إلى أن يرتقى ، وينتفع بما أعطى ، لا فرعون ، ولا غيره يستطيع أن يناقش فى هذا الأمر ؛ ولذلك [نرى أن] فرعون نقل النقاش من هذه القضية الجوهرية إلى قضية تافهة ، فقال لموسى وهارون : ﴿فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] . ذلك لأنه لا يقدر على القضية الأساسية تمامًا .

ولكن موسى أغلق أمامه هذا الباب وردّ عليه قائلًا : ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أى أن هذا الشىء علمه ليس عندى أنا ، ولكن عند اللَّه الخالق ، قال تعالى : ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه : ٥٢] الذى يَسألُ عن حال القرون الأولى هو الذى يجازيها إن كانت مؤمنه أو كافرة ، ففرعون لماذا يسأل ؟ هل هو الذى سيجازى هؤلاء الناس السابقين ؟ طبعًا لا ، إذن فالسؤال هروبٌ من جدل الجد إلى مهاترة الهزل ، فقطع موسى عليه هذا الطريق ، وقال له : ﴿عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ، فهو الذى سيجازى وما دام هو الذى سيجازى ، فهو الذى يعرف ، وأن ربى لا يضل ولا ينسى .

بعد ذلك دخل معه فى قضية أخرى تفصيلية لما سبق أن حدّثه فيه فأوضح له أن ربه الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى هو الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلًا ، قال تعالى : ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه : ٥٣، ٥٤] كلمة « مهد » إذا سمعتها فاعلم أن هناك تمهيدًا ومعنى التمهيد توطئة كل شىء لصلاحية ما هو عليه .

فالحق سبحانه جعل لنا الأرض مهدًا ؛ لتصلح حياتنا عليها ، ومعنى مهَّدها أى سوّاها لمهمتها ، وليس المقصود أنه جعلها مستوية ؛ لأنه جعل فيها الجبال والوديان والأنهار ؛ حتى تكون صالحة لمهمتها ، فالسالك فى الصحراء مثلًا يسلك طريقًا متعرجًا وهذا أفضل له ؛ لأنه لو كان طريقًا مستقيمًا فإن واجه الشمس يظل طريقه فى شمس دائمًا ، ولكن إن كان متعرجًا يسير بعض الوقت فى الظل ، فهذا الالتواء مقصود ، فإياك أن تظن أنها مستوية أى ليس فيها عوج ؛ لأن كل شىء له مهمة مثل قضيب الحديد الذى عوجناه ؛ لنجعله خطافًا فنحن لم نعوجه ، ولكننا عدلناه لمهمته ، إذن معنى التسوية هنا هو جعل الشىء صالحًا لمهمته ، سواء كان بالاعتدال أو بالاعوجاج .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه : ٥٣، ٥٤] هذا أيضًا فى عملية الخلق التى لا يستطيع أحد أن يدّعيها ؛ لأن هذه الدعوى ترد على مدّعيها ؛ لأنه لا يستطيع أحد أن يفعل شيئًا منها ، فهنا إنزالُ الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن إخراج النبات قد يكون لنا عمل فيه ، فنحن نحرث ونبذر البذورَ ونرويها بالماء ونتعهدها بالسماد والرى ؛ فهذا كله عمل منَّا مع أنه عمل بأسباب مخلوقة خلقها اللَّه سبحانه وتعالى .

وموسى عليه السلام في حواره مع فرعون يعرض قضايا ليست لفرعون فقط ، ولكنه يعرضها حتى لا يجىء فرعون آخرَ ويدّعى ما ليس له بحق .

إتهام موسى عليه السلام بالسحر

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس : ٧٦] ؛ ذلك لأن السحر كان موجودًا عند الفراعنة ، وكان الكهنة مشهورين بالسحر ؛ ولذلك فهم ظنوا أن معجزات موسى سحر ، واعتقدوا أنه لا يغيّر طبيعة الأشياء ، ولكن يسحر أعينهم ، فيخيل إليهم أنها قد تغيرت ؛ ولذلك فإن موسى عندما اتهموا المعجزات التى جاء بها أنها سحر ، قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس : ٧٧] ؛ أى أن موسى عليه السلام قال لهم : أنتم لا تفرقون بين الحق والباطل ، إن ما أرسلنى به اللَّه من معجزات هو الحق ، أتقولون عليه سحر ؟

ولكن بعض الذين يتطاولون على القرآن يقولون : إن الكلام جاء على لسان موسى وكأن موسى قد قال : ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ ؟ ولكنها جاءت بأسلوب الاستفهام ولم تأت بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، نقول له : إذا أردت أن تؤكد شيئًا يصح أن تأتى بجملة خبرية منك . هم قالوا : إن هذا لسحر مبين ، وكان المفترض أن يقول موسى : لا ليس هذا بسحر . ولكنه قال : ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ ؟ تمامًا كما تأتى لإنسان وأنت واثقٌ من قضيتك وتقول له : أنا أرضى ذمتك هل هذا سحر ؟ حينئذ لا يمكن إلا أن يقول : هذا ليس بسحر تمامًا . كما تذهب لتشترى قطعة من القماش الصوف ثم تشعل عود ثقاب وتقربه من فتلة من الصوف فتحترق ، فتقول له : أهذا صوف يا رجل ؟ فيقول : هذا ليس صوفًا ، إذن .. فإذا طرحت الأمر على الاستفهام الإنكارى يكون أبلغ من أن تقوله على أنه خبر .

وقال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم ؟ أى : لا تحكموا على الحق بأن الذى جاء به هو موسى من عنده ، ولكن انظروا إذا كان الذى جاءكم حقًّا أم لا . اللَّه تبارك وتعالى يقول : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أى أن هذا لو كان سحرًا فإنه لن يفلح ولن يستمر . ولقد قلنا : إن المعجزة التى يأتى بها اللَّه سبحانه وتعالى على يدِ رسول من الرسل ليثبت صِدقه فى البلاغ عن الله ، لابد أن تكون من جنس ما نبغ فيه القوم ؛ لأنه لو أتاهم بمعجزةٍ فيما لم ينبغوا فيه لقالوا : لو تعلمنا هذا الفن أو هذا الشيء لجئنا بمثل هذه المعجزة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ ؛ فالفلاح هو الوصول إلى الثمرة والثمرة لا تأتى إلا بعد مجهود حرثٍ وبذر وريّ ، ثم تأتى الثمرة ، ومنه فَلَحَ الحديد : أى شقّه ، لأن الحديد ككتل أو قطع لا يصلح لشيء إلا إذا شُكِّل التشكيل المناسب لاستعماله ، والسحر ليس حقيقة ولكنه تخيل ، والله سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى ذلك فقال : ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف : ١١٦] ، وقال جل جلاله : ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه : ٦٦] . إذن .. فالسحر فى طبيعتهَ لا يغير طبيعة الأشياء ولكنه يسحر أعين الناس فترَى غير الحقيقة ؛ ولذلك عندما أتى فرعون بأمهر السحرة ، جمعوا حبالهم وعصيّهم وألقوها وخيل للناس أنها تسعى ، وعندما ألقى موسى العصا فإذا هى تلقف ما صنعوا ، حينئذ خرَّ السحرة سجّدًا .. لماذا ؟ لأن العصى والحبال التى ألقوها خيل للناس أنها تسعى ولكنها كانت أمامهم حبالاً وعصيًا ، لأن أحدًا لم يسحر عيون السحرة ولكن السحرة سحروا أعين الناس ، فكانت الحبال والعصىّ أمام الناس كأنها ثعابين ضخمة تسعى ، أما فى

أعين السحرة فهى حبال وعصى ؛ ولذلك لما ألقى موسى عصاه ورآها السحرة حية تلقف حبالهم وعصيهم ، قالوا : هذا ليس من فعل موسى ، بل من فعل رب موسى . وأدركوا أن هذه معجزة ، وليست سحرًا ولا يمكن أن يأتى بها موسى ، فآمنوا برسالته وسجدوا للَّه الذى أعطى موسى هذه المعجزة .

محاولة فرعون قَلْب الدَّفة على موسى عليه السلام

وبعد ذلك انتقل فرعون إلى قضية أخرى فقال : ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه : ٥٧، ٥٨] ؛ أراد فرعون أن يستعدى الناس الذين استعبدهم ونصَّب نفسه إلهًا عليهم على موسى وهارون فقال لهم : إن موسى قد جاء ليخرجكم من أرضكم . وبذلك يستعدى القوم عليهم حتى لا يستجيبوا لهما ويقفوا ضدهما ؛ لأنهم يخشون أن يخرجاهم من هذه الأرض التى يعيشون على خيرها حول النيل فأخبرهم أن موسى جاء ليخرجهم من أرضهم بسحره .

فحوّل المسألة التى بينه وبين موسى وهارون ، إلى مواجهة بين موسى وهارون من جانب والرعية من جانب آخر ، وذلك لأنه رأى أن الكلام الذى قاله موسى وهارون من الجائز أن يدخل على عقول الرعية فتفهمه وتؤمن به ، فتتمرد على فرعون وتثور عليه ، فأراد أن يزرع فى قلوبهم عداوة موسى وكراهيته حتى لا يستجيبوا له ، فقال : لقد جئتنا يا موسى لكى تخرجنا من أرضنا بسحرك ونحن سنأتى لك بسحر مثله . هنا فرعون سمى معجزة موسى سحرًا وهذه تسمية خاطئة ؛ لأن الذى مع موسى ليس سحرًا وإن كان الذى عند قوم فرعون هو السحر ، والفرق بين الاثنين أن السحر لا يقلب حقيقة الشيء ، بل يظل الشيء على حقيقته ولكن السحر يكون للرائى ؛ ولذلك ربنا سبحانه قال فى الآية الكريمة : ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف : ١١٦] ، فحبالهم وعصيهم تظل كما هى ، فيراها الساحر حبالًا وعصيًّا لم تتغير ، بينما يراها المسحور ثعابين وحيات ، لكن معجزة موسى غير ذلك ، بدليل أنها لو كانت مثلها لم يكن موسى ليخاف وهذا دليل . عند الساحر تظل الحبال كما هى يراها حبالًا ، وإن كان المسحور لا يراها كأنها حيات .

اللقاء الحاسم ... يوم الزينة

فرعون طلب من موسى أن يضرب لهم موعدًا يجتمع فيه السحرة ليقاوموا سحره فقال : ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ الموعد هو الميعاد يتفق عليه الطرفان حتى لا يخلفه أحد منهما ؛ ومعنى : « مكانا سوى » أى مكانًا مستويًا ؛ لأنه سيكون مشهدًا يراه الناس ، فلابد أن يكون مكانًا مستويًا حتى يتمكن الجميع من الرؤية بسهولة ، أو أن المعنى « مكانا سوى » ، أى سواء بالنسبة لنا ولك ، أى نختاره سهلًا على الناس وعلينا وعليك . مثلما نقول : هيا نتقابل فى منتصف الطريق ، فلا يكون فى ذلك تعب لنا ولا تعب لك .

فقال موسى له : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه : ٥٩] إن كل حدث يتطلب مُحِدثًا له ومُوقَعًا عليه الحدث ، فالحدث يتطلب زمانًا ومكانًا ، فلا حدث بغير زمان أو مكان ، فبعد أن تم تحديد المكان ، كان الزمان هو ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ . إذن عناصر الحدث اكتملت زمانًا ومكانًا ، ويوم الزينة هو اليوم الذى كان يجتمع فيه كل سكان مصر ، ويبدو أنه كان يوم وفاء النيل ، وسُمِّى ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ لأن الناس كانوا يحتلفون فيه بأغلى شيء عندهم وهو النيل ، فيلبسون أفخر ما عندهم من ثياب ويخرجون فى موكب الاحتفال .

وموسى اختار يوم الزينة تحديدًا ؛ لأنه اليوم الذى يجتمع فيه كل الناس ؛ لأنه واثق تمام الثقة من أن ربَّه سينصره ، ويريد أن تكون فضيحة فرعون أمام الناس جميعًا .

إتهام موسى عليه السلام بالإفساد فى الأرض

قال اللَّه تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ؛ هذا الخطاب من الملأ يدل على أن فرعون لم يتعرض لموسى ، حينما أمر بصلب السحرة ؛ ذلك لأن رهبة الحق واليقين فيما رآه من معجزة موسى ، كانت تملأ قلبه فتجعله لا يقترب منه ، ففرعون قد علم ورأى أن السحرة كذابون ، وأن موسى على حق ، وانهدمت ألوهية فرعون أمام الحاضرين ؛ ولذلك كان فرعون فى موقف ارتباكٍ ، وهنا أراد أن ينبه الحاضرين إلى أنه لم يفعل شيئًا بالنسبة لموسى وهارون ، وأنهما تركا المكان دون أن يصابا بسوء فتساءل الملأ : أتترك موسى ومن اتبعوه ليفسدوا فى الأرض ؟ كأنهم قد وصفوا منهج

الحق بأنه إفساد .. لماذا ؟ لأنه يأخذ منهم جاههم وسلطانهم ونفوذهم ؛ ولذلك فهو فى رأيهم [فسادٌ] يقول الحق : ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ، وهنا نلاحظ كلمة : ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ . لم يكن فرعون يدّعى الألوهية ؟ نعم . كان يدعى الألوهية فى الأرض ، ويقول : إن هناك آلهة للسماء ، وإن كانت بعض التفاسير تقول : إن آلهتك معناها ألوهيتك .

فبماذا أجاب فرعون ؟ ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف : ١٢٧] . نلاحظ هنا أن فرعون لم يتعرض لموسى ، وفى ذلك تقول بعض التفاسير : إن الحيّة التى ظهرت حينما ألقى موسى عصاه اتجهت إلى فرعون وفتحت فاها حتى ظهرت أنيابها ، وإن هذا جعل فرعون يخشى موسى ولا يقترب منه .

وقول فرعون : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ ؛ يريد أن يعطى الحجة أمام ملئه أنه ترك موسى ، فالقوى حين يهاجمه شخص ضعيف فإنه لا يقضى عليه ويتركه ، مؤكدًا أنه يستطيع أن يأتى به فى أيّة لحظة ؛ لأنه يملك القهر الذى يجعله يأتى به ، وقتل فرعون للرجال واستحياؤه للنساء إذلالٌ لقوم موسى .

ولما ذهب قوم موسى إليه يشكون الذلّ الذى يعانونه ؛ فما كان من موسى إلا أن قال لهم : ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ؛ يريد موسى أن يُسَرِّى عن قومه العذاب الذى هم فيه ، ويذّكرهم بأن النصر للمتقين المؤمنين ، وقول موسى : ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ معناه أنه إذا كان قوم فرعون قاهرين مستعلين مسيطرين ، فاستعينوا بالله الذى هو أقوى منهم . ونحن نعرف أن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يمنّ على بنى إسرائيل ويمكّنهم ويجعلهم الوارثين ، ولكن ماذا قال قوم موسى ؟ وما موقفهم بعد أن طلب منهم أن يستعينوا بالله : ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف : ١٢٩] كأنما هم يذكّرونه بأن مجيئه لهم لم يغير شيئًا ، فقبل أن يأتى موسى كان الفراعنة يقتلون الأبناء ويستحيون النساء ، ولم يغير مجيئه إليهم شيئًا .

ماذا كان جواب موسى ؟ ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، لماذا استخدم اللَّه سبحانه وتعالى كلمة «عدو»، في وصف آل فرعون؟ لأن الإيذاء لا يمكن أن يحدث إلا من عدوٍّ، فالصديقُ يحاول دَفْع الأذى عن صديقه، أما العدو فهو الذى يدبر الأذى لعدوه.

وقول موسى عليه السلام هو بشارة من اللَّه بأن أسباب الإيذاء بالنسبة لبنى إسرائيل ستنتهى؛ لأنه قد اقترب موعد هلاك آل فرعون، بل إن البشارة لم تقتصر على ذلك، بل امتدت كما فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر كلمة: ﴿عَسَىٰ﴾ فى قوله جل جلاله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ﴾، وكلمة: ﴿عَسَىٰ﴾ تدل على الرجاء أى: ما يأتى بعدها يرجوه الناس، وهى غير التمنى، فالتمنى هو أن تطلب أمرًا مستحيلًا تعرف أنه لن يتحقق. وأداة التمنى «ليت»، بينما أداة الرجاء «عسى».

وموسى رسول مرسل لهداية قومه، مؤيَد بمعجزات، وإذا كان هذا هو موقفه فلن يردّ اللَّه له رجاء، ويكون الرجاء منه مقبولًا. إذن فالحديث هنا هو رجاءٌ محقق الوقوع، ولكن نعمة اللَّه على بنى إسرائيل لن تتوقف عند إزالة الضرر عنهم إنما تمتد ليستخلفهم اللَّه فى الأرض تمامًا.

المؤامرة على موسى

جمع فرعون أعوانه ووجهاء قومه وقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٧] أراد فرعون أن يُخرج نفسه من هذه الورطة التى أوقع نفسه فيها، فاتهم موسى بأنه ساحر عليم بفنونِ السحر، خاصة وأن المصريين كان لهم إلف بفنون السحر، فأراد أن يستعدى القوم عليه فاتهمه بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره بعد أن يصبح له أتباع وأنصار، ويحدث انقلابًا ويخرجهم من أرضهم، فهذا استعداء للناس على موسى عليه السلام، والغريب أنه بعد ذلك يستشيرهم فيما يفعله ضد موسى، وهذه ألوهية كاذبة انحدرت إلى مرتبة العبيد؛ لتسألهم عن رأيهم فى هذه المسألة، فنزل مِن الألوهية التى يدعيها إلى حاجته [وهى] مشورة الناس الذين يستعبدهم، ولو كان إلهًا كما يزعم لكان عنده الحل، ولكنه

يسألهم عما يأمرونه به ، فكان كلامهم بالنسبة له أمرًا وليس مشورة فقط ، فهل الإله يأمره أحد ؟ ! ولكن القوم وجدوا الفرصة أن يقولوا رأيهم ، مما يدل على أن أكثرهم كانوا يضيقون بغطرسة فرعون وتسلُّطه ، فأشاروا عليه بأن يبقيه هو وأخاه وأن يجمع لهما أمهر السحرة ويواجههما بهم ، ويرى لمن تكون الغلبة ؛ وذلك قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧] و« الإرجاء » هو التأخير ، قالوا له : ابعث رسلك ليحشروا الساحرين الموجودين فى طول البلاد وعرضها ويجمعوهم لمقابلة موسى وهارون .

و﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾ جمع مدينة ، فهؤلاء الناس مهمتهم جمع السحرة من كل مكان ، وبعد ذلك تم تجميع السحرة فى المكان المعلوم ، قال تعالى : ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨- ٤٠] . الميقات هو الوقت من اليوم المتفق عليه ؛ هناك آيات أخرى حددت اليوم بأنه يوم الزينة ، وهو اليوم الذى يتزين فيه الناس بملابسهم الجديدة ، وتتزين فيه الفتيات أبهى زينة ؛ لأن عروس النيل ستؤخذ منهن وتلقى فيه : ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] . فهذه الآية حددت اليوم بأنه يوم الزينة والوقت بأنه وقت الضحى ، فحدد اليوم وحدد الزمن من اليوم وهو الضحى ، ثم تكلم فى آية أخرى عن المكان فقال : « مكانا سوى » ومعنى « سوى » إما أنه وصف للمكان الذى ستقام فيه المبارة السحرية فى مكان مستوٍ من الأرض ؛ حتى يتمكن كل واحد من رؤية المنظر فهو مكان مستوٍ ليس فيه علو أو انخفاض ، أو أنه مكان وسط المدينة وليس بعيدًا فى أطرافها ؛ حتى يسهل على الناس الحضور إليه ، وكل هذا حرص على إتمام المعركة من جانب الطرفين ؛ لأن كل طرف يريد أن يتغلب على الآخر .

وبعد ذلك بدأت الدعاية بين الناس ؛ حتى يتجمعوا فى هذا اليوم لمشاهدة ما سيحدث ، قال تعالى : ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٨ - ٤٠] . أى أنهم سيجتمعون وعندهم أمل فى أن يتغلب السحرة على موسى ويبطلوا حجته ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ انظر هنا إلى مسيرة هذا الإله المزعوم فى رعيته ! !

إن الإله الحق يُعطى ولا يأخذ ، فهو سبحانه : ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] .

و : ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون : ٨٨] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى : ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه : ٦٢، ٦٣] . ساعة أن خوَّفهم موسى وحذرهم ، أخذوا يتناجون مع بعضهم البعض ؛ خوفًا مما سيحدث لهم ، وكلمة : ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ دليل على أن خوفهم من قول موسى : ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه : ٦١] . جعل عندهم شيئًا من الرَّهبة والتردد والتفكير فى الحق ، حتى وإن اقتصر هذا الأمر على الذين كان عندهم استعداد للخير بعد الحوار والجدال بين السحرة ، فانتهوا إلى اتفاق على أن يكملوا الشوط إلى آخره .

وهذا القول منهم ترديد لما قاله فرعون عن موسى وهارون ، وهو دليل على أن دعاية فرعون وكيده أثَّرا فى موقف الرعية من قضية موسى وهارون ، والطريقة هى المذهب الذى يرتضيه الإنسان لنفسه ، والمسلك الذى يسلكه فى حياته ، إذن الطريقة : هى ما ارتضاه الإنسان لنفسه ؛ لتسير عليه أمور حياته ، والطريقة المثلى عندهم هى أنهم جعلوا فرعون إلهًا ، يأتمرون بأمره ، وهو الذى يتصرف فى شئونهم ويدبر أمورهم كما يشاء ، ومعنى المثلى : أى الفاضلة ، ومعناها أمثل طريقة .

ومعنى : ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ [طه : ٦٤] أى اشحذوا كل أذهانكم وحركتكم فى السحر ؛ حتى لا تمكنوهما من تحقيق هذين الهدفين وهما : الإخراج من الأرض ، والذهاب بالطريقة المثلى .

ومعنى : ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ ؛ لأن هذا أهيب لكم ويُدخل الرعب فى قلب الخصم . ومعنى كلمة : ﴿أَفْلَحَ﴾ أى فاز .

ومعنى : ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه : ٦٤] أى من طلب العلو على خصمه وتمكن من تحقيق هذا العلو ، والذى يريد تحقيق هذا الهدف لابد أن يشحذ ذهنه ويبذل جهده فى طلب هذا العلو .

وعندما ألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان ، ونزع يده فامتلأت بالضوء الذى يجذب

أنظار الحاضرين ، هنا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف : ١٠٩] ، والملا هم وجهاء القوم المحيطون بالحاكم ، وقولهم : « ساحر » معناه أنهم كانت عندهم فكرة عن السحر ؛ ولذلك قالوا : ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ؛ أى أنه ليس ساحرًا عاديًا ولكنه ساحر متمكن ، وفى سورة « الشعراء » هناك آية أخرى تدل على أن فرعون هو الذى قال : إن موسى ساحر ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء : ٣٤] . إذن .. فهناك آية نسبت القول إلى الملأ ، وآية نسبت القول إلى فرعون .. فهل هذا تناقض ؟ بالطبع لا ؛ لأنه من الجائز أن تتوارد الخواطر فى أمر معلوم متفق عليه .

هل أعطى فرعون وملؤه حيثية أو سببًا لمجيء موسى واستعراضه لسحره أمامهم ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف : ١٠٩، ١١٠] . كأنما هو أعلنوا أن موسى قد جاء لإخراج فرعون وقومه من الأرض ؛ ليعود إليها هو وأتباعه ، كما حدث فى أيام الهكسوس .

فرعون فى هذا يريد أن يصرف الناس عن الإيمان ، والاقتناع بما قاله موسى عليه السلام من أنه رسول رب العالمين ؛ ولذلك فإنه طعن فى معجزة الرسول بأن قال : إنه ساحر . ثم أراد أن يهيج القوم ضد موسى فقال : إنه ساحر جاء ليخرجكم من الأرض التى تعيشون فيها . وبهذا يكون فرعون قد أضاع من عقول الناس أثر المعجزات التى جاء بها موسى وأضاع اللمسة الإيمانية التى يمكن أن يكون حديث موسى ومعجزاته قد أدخلها إلى قلوبهم .

وقوله تعالى : ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يدل على أن الذين قالوا هم الملأ ، ولكن الذى يأمر فى هذه المسائل هو فرعون ، ولكن من الممكن أن يكون الكلام من فرعون على أساس أنه لا يقطع أمرًا إلا بالمشورة ، وهذا أول ما ينفى عن فرعون تلك الألوهية المزعومة التى ادّعاها ، فالإله لا يشاور ولا يتشاور مع عابديه عندما يقرر أمرًا ، ولا يوجد إله يستعين بأمر العابدين ، وهذه سَقْطَةٌ كان يجب أن يتنبه إليها أولئك الذين عبدوا فرعون ؛ ليعرفوا أنه ليس إله وأنه أُرتِجَ أمام موسى ، واختلط عليه الأمر حتى أصبح لا يستطيع أن يقطع رأيًا بدونهم فلجأ إليهم .

بماذا أفتى القوم فرعون ؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يعنى أخِّر الحكم عليه ، و« الإرجاء » هو التأخير ، فالموقف عصيب ومحتاج إلى تمهل وإلى بطء فى اتخاذ

القرار حتى لا يضيع كل شيء . ماذا فعل الملأ من آل فرعون ؟ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف : ١١١، ١١٢] . فكأنهم قالوا : إذا كان موسى ساحرًا فعندنا السحرة وهم جمع وهو فرد ، فلنرسل فى كل البلاد من يحضر أبرع السحرة منها ليواجهوه ، وفى هذا القول هَدْمٌ آخَرَ لقضية الألوهية بالنسبة لفرعون .

الهدم الأول : هو التشاور وعدم القدرة على اتخاذ القرار .

والهدم الثانى : هو استعانة فرعون بالسحرة ، فكيف يكون الإله عاجزًا بحيث يستعين بمن يعبدونه لينصروه على عدوه ؟ !

إذن .. فقد انهدم ركنان من أركان ادّعاء فرعون الألوهية من هول الموقف والارتباك ، وكون فرعون سيرسل إلى المدن المختلفة فمعنى ذلك أن السحر كان منتشرًا وكان هناك فى كل مدينة سحرة . ففرعون قال لموسى : انتظر ، وأرسل الجامعين فجمعوا السحرة ، وجاءوا بهم إلى فرعون ، وكانت اللقطة الثانية عن السحرة وهم موجودون يطلبون منه الأجر إذا غلبوا ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف : ١١٣، ١١٤] .

والسحرة حينما جاءوا أمام فرعون انفعل كل واحد منهم وتكلم ، ولكن جمع حديثهم على اختلافه أمرٌ واحدٌ هو هل سيعطيهم فرعون أجرًا إذا غلبوا موسى أم لا ؟ والكلام هنا إما أن يكون بصفة استفهام ، أى أنهم استفهموا هل سيأخذون أجرًا أم لا ؟ أو بصفة خبرية أى أنهم يريدون أجرًا ، والقرآن غطى هذه وغطى هذه ، فالذين أخذتهم الشجاعة طالبوا بالأجر ، والذين خانتهم الشجاعة جاءوا بها على هيئة استفهام .

ماذا قال فرعون عندما تحدث السحرة عن الأجر ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ . « نَعَم » : حرف جواب يدل على تقرير ما بعده ، إذا سألك أحدهم : أجاءك زيد ؟ تقول : نعم ، أى : نعم جاءنى زيد ، فالسحرة يقولون : هل لنا أجر إن كنا نحن الغالبين ؟ وقول فرعون : « نَعَم » معناه : لكم أجر إن كنتم غالبين ، هذا إذا كانت الجملة استفهامية ، أما إذا كانت خبرية فإنها تحتاج أيضًا إلى

جواب ، وبذلك يكون الجواب قد شمل الحالتين ، وقوله : « نَعَم » معناها لكم أجر ؛ ولذلك جاء ما بعدها معطوفًا بالواو : ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ دلت على فساد حكم فرعون ؛ لأن المفروض أن يكون كل المحكومين بالنسبة للحاكم سواء ، ولكن أن يكون هذا مقربًا وهذا غير مقرب ، يكون الناس مصنفين عند الحاكم ، وما دام الناس مصنفين وليسوا متساوين عند الحاكم يكون فساد الحكم ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا جلس أصحابه حوله يستمعون إليه سوَّى بين الناس جميعًا في النظر ؛ حتى لا يظن إنسان من الصحابة أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يدنى أحدًا ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع أنه مقرب .

حينما اطمأن السحرة إلى الأجر ، واطمأنوا إلى أنهم سيكونون من المقربين ، حينما تيقنوا من هذا كله التفتوا إلى موسى ، فقد جاءت لحظة التحدى .

لحظة التحدى بين الفريقين

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس : ٨٠، ٨١] موسى عليه السلام أراد أن يرهب السحرة ليضعف معنوياتهم ، فلما ألقى السحرة عصيهم قال لهم : ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس : ٨١] ، وما دام ما جاءوا به سحرًا ، والسحر تخيل وليس حقيقة ، فإن اللَّه سبحانه وتعالى سيبطله ؛ لأنه سيغير حقيقة عصا موسى ويجعلها حية حقيقة وليس مجرد تخيل ؛ ولأن السحر إفساد فى الأرض فإن اللَّه لا يصلح العمل لمن يريد الإفساد ، وينصر سبحانه الحق بكلماته ، وهو سبحانه وتعالى بمجرد أن يقول : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] ، فأمره بين الكاف والنون ولا ينتظر التنفيذ أن يكتمل الحرفان ، وذلك قوله : ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس : ٨٢] ليريح العالم من إضلال المجرمين ومفاسدهم .

لما تجمع السحرة فى اليوم المعلوم وبدأت المبارزة طلب موسى منهم أن يُلقوا هم أولًا ، قال تعالى : ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٤٣، ٤٤] فألقوا ما معهم من حبال وعصى ، وأقسموا بعزة فرعون إنهم هم الغالبون ، وقد خابوا فى القسم ؛ لأن العزة معناها أنه لا يُغلب ولا يُقهر ، وهذه

العزة الفرعونية عزة كاذبة ؛ لأنها بلا رصيد .

موسى عليه السلام طلب من السحرة أن يلقوا ما يريدون إلقاءه ، والآية هنا جاءت بالغاية التى انتهى إليها بعد المشاورة بينه وبين السحرة ، وإلا فهناك آية أخرى تدل على أن المسألة لم تنته إلا بعد تشاور وحوار ، فالآيات لم تأت لتكرر الحدث الواحد ؛ وإنما جاءت لتستوعب كل أجزاء الحدث ، فاتفق موسى معهم أن يلقوا هم أولًا ما معهم من أدوات السحر ، قال بعض العلماء : إن الحبال والعصى كانت مجوفة ، ووضعوا فيها زئبقًا حتى إذا ألقوها فى الشمس تلوَّت كأنها ثعابين وهذا من حِيَل السحرة ، لكن السحر هو تخييل للمسحور ، فيرى الشىء على غير حقيقته ؛ لأن حقيقة الشىء لا تتغير لكن المسحور يرى الحقيقة عن طريق التخيل .

فالسحرة ألقوا حبالهم وعصيهم وأقسموا بعزة فرعون أنهم سيغلِبون ، والعزة هى القوة والمَنَعَة والغلبة ، ومنها العزة بالإثم وهى أنفة وكبرياء بلا رصيد من الحق .

هناك آيات كثيرة أخرى تعرضت لموضوع السحرة منها قول اللّٰه تعالى : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه : ٦٦ - ٦٩] أى أن السحرة لما ألقوا حبالهم وعصيهم تخّيل موسى أنها تسعى فخاف ، فأوحى اللّٰه إليه : ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ .

إذن .. موسى ألقى عصاه بعد وحى من ربه أثناء المعركة ، قال تعالى : ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء : ٤٥] كلمة ﴿تَلْقَفُ﴾ معناها : تبتلع بسرعة وبقوة ، فالسرعة فى اختصار الزمن ومعها القوة ، فجمعت بين السرعة والقوة ، « والإفك » هو قلب الحقائق ؛ ولذلك سمى الكَذِبُ إفكًا ؛ لأنه يقلب الحقيقة ، فالكذب لا يوافق واقع الأشياء فالنسبة الكلامية فيه لا تطابق النسبة الواقعية .

إيمان السحرة .. وعقاب فرعون لهم !!

بعد ذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه : ٧٠] ، شىء عجيب ، كما قال الزمخشرى : من العجيب أن هؤلاء ألقوا حبالهم

وعصيهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يلقون أنفسهم للشكر والسجود . فهم قد دخلوا هذه المعركة وهم كفرة جاحدون ، وخرجوا منها وهم مؤمنون موحدون ؛ وذلك لأنهم جمعوا كل كيد السحر وفنونه ، ووجدوا أن العملية ليست من هذا النوع أبدًا ، فالساحر يرى الأشياء على حقيقتها ، وهم لم يروا عصا موسى على حقيقتها ، بل رأوا لها حركةَ حياةٍ ، فأيقنوا أن هذا ليس من فنون السحر ، ولكنه شيء أعلى ، وهذا يدل على أن الفطرة الإيمانية فى النفس تطمسها الأهواء ، هذه الفطرة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة » . فالهوى يطمس على الفطرة الإيمانية ، ولكن أحيانًا تستيقظ هذه الفطرة ، وحين تستيقظ الفطرة الإيمانية ، فأقل شيء يصادف هذا الاستيقاظ يؤثر عليه ، والذى يدل على أن هذه العملية جاءت على هوى السحرة : أنهم سيقولون لفرعون : ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه : ٧٣] . فهذا دليل على أن طبائعهم وفطرتهم كانت تأبى هذا ، لكن فرعون هو الذى كان يُكرِههم على السحر ، وحين يكبر الواحد منهم فى السن يأمره بأن يأخذ مجموعة من الغلمان ليعلمهم السحر ؛ لأن هذا يناسب شعوذة فرعون وادّعاءه الألوهية .

وقولهم : ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ : يدل على أنهم وإن كانوا سحرة إلا أنهم كانوا مقهورين لأوامر الطاغية ، لكن إذا خلوا إلى أنفسهم تستيقظ فطرتهم ، فإذا جاء شيء يزكّى الفطرة وينمّيها مثل : عصى موسى فلا يملكون إلا التسليم ؛ ولذلك فإن الحق سبحانه حينما تحدث عن إلقائهم للحبال والعصى قال : ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء : ٤٤] ، فالإلقاء عمل اختيارى منهم ، ولكن ساعة رأوا المعجزة واستيقظت عندهم الفطرة الإيمانية ، قال الحق سبحانه عنهم : ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه : ٧٠] ، فهنا الفعل « أُلقى » مبنى للمجهول ، فكأن نفوسهم من تلقاء نفسها خرّت ساجدةً للّه فكأن قوة الحق فاجأت صَحْوَةَ الفطرة ، فلم يملكوا إلا أن يقعوا ساجدين بدون اختيار ، وهذا السجود عملية مرئية .

وهناك عملية أخرى قولية هى قولهم : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ . إذن هناك منظر رآه الناس وهو : أنهم أُلقوا سجدًا ، والذى ألقاهم هو قوة الحق ؛ لمفاجئته الفطرة فانكبوا على الأرض ساجدين دون اختيار أو شعور ، وبعد أن سجدوا بدءوا يعلنون رأيهم ، حدث هذا منهم

جميعًا مرة واحدة ، فلم يتباطأ منهم أحد ، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين على هذا العمل ومسخَّرين لأدائه ، ودليل ذلك أنهم فى آية أخرى قالوا لفرعون : ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء : ٤١] فكأنهم كانوا مسخرين لأداء هذا العمل لفرعون ؛ لتخويف أتباعه أو لإضفاء القوة والمهابة على نفسه ، وادّعائه الألوهية أمام رعيته ، فكانوا يقومون بهذا العمل لفرعون دون أجر ، ولكن هذه المرة سألوا فرعون أن يعطيهم أجرًا ؛ لأن هذه المعركة ليست هيِّنة مثل غيرها ، فلما سألوا فرعون هل سيعطيهم أجرًا إن استطاعوا أن يغلبوا موسى ؟ قال لهم : ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء : ٤٢] ؛ أى أنه سيعطيهم الأجر ويقرّبهم منه وسيكونون هم سَدَنة الفرعونية ، ففرعون أراد بذلك أن يشحذ هممهم ، فلا يدخرون وسعًا فى فنِّهم ؛ أملًا فى أن يستطيعوا هزيمة موسى ، ومع أن موسى هو المرسل وهارون هو العَضُد ، إلا أنهم حينما سجدوا قالوا : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ . بعض الناس قد يتساءل ، ماذا قال السحرة ؟ هل قالوا : آمنا بـ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء : ٤٨] ، أم قالوا : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء : ٤٧، ٤٨] ؟ ونحن نقول : إذا كان رؤساء السحرة سبعين فلابد أن الأتباع يصل عددهم إلى سبعمائة أو يزيد ، فهل من المعقول أن يتحدوا جميعًا فى الحركة وفى القول ، أم أن كل واحد انفعل بحسب مداركه الإيمانية الجديدة ، فبعضهم قال : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ، وبعضهم قال : ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ؟ فقيلت هذه وهذه ، والقرآن عدّد كل هذه اللقطات مجتمعة ؛ لأنه ليس من المعقول أن يتفق هذا العدد الضخم فى الحركة وفى اللفظ . ولذلك نجد الواحد من خصوم الإسلام يقول : القرآن يقول عن السحرة مرة أنهم قالوا كذا ، ومرة يقول : إنهم قالوا كذا .. فأيهما قالوا ؟ نقول له : هذه جمهرة لا تستطيع أن تحكم أقوالهم ، فكل واحد انفعل بما يقول ؛ **فنحن نستطيع أن نردّ على من يقول** : إن القرآن يحكى أقوالًا متعددة عن كلام السحرة بعد إيمانهم ، فأىّ قول قيل؟ فنقول له : هذه لقطات لمجتمع جماهيرى لا تضبط حركاته ، ولا تضبط كلماته ، بل كل واحد ينفعل حسب مداركه الإيمانية . فالقرآن عدّد اللقطات ؛ ليقصّ كل ما حدث فى القصة .

وقال تعالى : ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ٥٠، ٥١] أى نحن لا نخشى الضرر ؛ لأننا مهما طال العمر

سنموت ونلقى الله ، فسواء قتلتنا أو تركتنا لابد من الموت ، وإذا متنا على يدك فسنلقى ربنا وتشقى أنت بجزاء ربك ؛ ولذلك أحد الطغاة المستبدين هدد خصمًا له بالقتل ، فضحك الخصم ، فقال له : أتسخر مني وتضحك ؟ قال له : وكيف لا أضحك لأمر تفعله بي يسعدنى الله به ، وتشقى به أنت ؟ ! فالسحرة لما آمنوا لم يخافوا من تهديد فرعون لهم بالقتل ؛ لأنهم إن قتلوا سيرجعون إلى الله وسيخرجون من ألوهية باطلة رلى لقاء ألوهية حقة ، فأنت ستعجل لنا بلقاء الله ، فالذى تظنه تعذيبًا لنا هو غاية ما نرجوه ؛ ولذلك المسلم الذى فهم هذا المعنى قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا على أى شق كان فى الله مصرعي

هم أرادوا أن يقولوا : إن الذى سيفعله بهم فرعون لن يضرهم ولكن سينفعهم ؛ لأن هناك شيئًا يمنع الضرر ، ولكن لا يجلب نفعًا ، مع أن النفع هو نفى الضرر أولًا ؛ لأن درء المفْسَدة مقدم على جلب المصلحة ؛ فإن قتلهم فلن يضرهم ذلك بل سيجلب لهم نفعًا ، وهو لقاء ربهم الذى آمنوا به ، عسى أن يغفر لهم خطاياهم لذلك قالوا : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ لأن فرعون أكرههم على السحر والكذب على الناس وتضليلهم ، وكانوا فى خدمته وطاعته بعد أن أجبرهم على أنه ربهم الأعلى ، فحينما ثبتت المعجزة لموسى وآمنوا به ، فعسى الله أن يغفر لهم ؛ لأنهم كانوا أول المؤمنين بالله رب العالمين وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون ، فاغتاظ فرعون منهم ؛ لأنهم خذلوه ولم ينصروه كما كان يظن ، فأقسم على الانتقام منهم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه : ٧١] .

فرعون جمع السحرة لينصروه على موسى ، ولكن الله جعل خذلانه وهزيمته على يد من توسم فيهم عزته ونصره ، ولكنه أراد أن يتماسك أمام الناس ، فأعلن سخطه عليهم ؛ لأنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، وزعم أنهم لو فعلوا ذلك لأذن لهم ! وزعم أن موسى هو كبير السحرة الذى علمهم السحر ؛ ولذلك آمنوا به .

هنا نجد التعبير القرآني يفرق بين الأمر والإذن ، فإذا أمر إنسان إنسانًا يعمل شيء ، فهو يحب أن يتم عمل هذا الشيء ، ولكن إذا أذن لأحد بعمل شيء معين ، فليس من الضرورى أن يكون محبًا لهذا العمل ، ففرعون قال : ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ ، ولم يقل : قبل أن

آمركم ، فهو لم يأت منه أمر بهذا الشيء لأنه ليس على هواه ولا يحبه . أراد فرعون أن يشوّه إيمان السحرة أمام الناس ، فقال : أنتم آمنتم به ؛ لأنه كبيركم الذى علمكم السحر ، فهذا وفاء من تلاميذ لأستاذهم ، فلا يصح أن يتمردوا عليه وهو كبيرهم ومعلمهم . وكلمة ﴿ءَامَنتُم﴾ أخذت فى القرآن مجالات متعددة وهى من مادة « آمن » ، والأمن هو : الاطمئنان وعدم الخوف . وتأتى مرة ثلاثة أحرف - الهمزة والميم والنون ، ومرة تزاد الهمزة فتقول : آمن زيادة ألف على الهمزة ، والفرق بينهما أن « أمن » بمعنى اطمأن . ومعنى : ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أى صدقتموه مثل قوله تعالى : ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] إذن : « آمن » بمعنى صدق ، وآمن به : أى اعتقده ، وآمنه ، أعطاه الأمن ، إلا أن الصيغة فى اللازم والمتعدى فى الحرف مثل : أمن وآمن تأتى بمعنى واحد فى بعض الأساليب ، فمثلًا يعقوب عليه السلام طلب منه أولاده أن يعطيهم بنيامين ، فقال يعقوب عليه السلام : ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ؛ هنا فرعون قال : ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أى صدقتموه . وقوله : ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] ، سوء تعليل لواقع الإيمان ؛ لأنه يتهمهم أنهم جاملوا موسى لأنه كبيرهم ومعلمهم .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] . هذا تهديد ووعيد من فرعون للسحرة بعد إيمانهم بموسى عليه السلام فهدّد بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ومعنى ذلك أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى والعكس بالعكس ، وقد تكلمنا سابقًا عن بعض الحروف التى تأتى بمعنى بعضها ، مثل قوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ والتصليب يأتى بوضع شىء على شىء وربطه ربطًا محكمًا . فهنا جاء حرف الجر ﴿فِى﴾ بدلًا من « على » ، فلم يقل : « لأصلبنكم على جذوع النخل » ، ولكن قال : ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ .. لماذا ؟ بعض العلماء قالوا : لأن الحروف تأتى بمعنى بعضها ، ولكن هذا لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان .

إذن .. فالتصليب : أن تأتى بمصلوب عليه وهو الخشبة أو الحديد ، وتأتى بمصلوب وتربط المصلوب على المصلوب عليه ، وتشد الرباط ، ويمكن أن تجرّب هذا بنفسك ، بأن تأتى بعود كبريت وتربطه على إصبعك بخيط وتشدد الربط ، فشدّة الربط تجعل عود الكبريت يغوص فى لحم إصبعك ، **فيصبح كأنك لم تصلبه على إصبعك ولكن فى إصبعك** ، وهذا مبالغة فى

التصليب .. إذن حين يأتى بعض العلماء فى التفسير ويقول : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أى : على جذوع النخل ، ثم يعلّ ذلك بأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . **نقول له :** لا ؛ لأن المعنى : لأصلبنكم فى جذوع النخل تصليبًا قويًّا ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه ، فكأنه ليس عليه ، بل هو داخل فى حيزه .. فالمعنى لا يتم إلا بهذا .

وقوله : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه : ٧١] ، يقصد به العذاب الذى سينزل بهم ، فهو سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسيصلبهم فى جذوع النخل ويتركهم على هذا الحال ، فسيجمع فى العذاب بين أمرين هما الشدة ودوام الزمن .

إيثار السحرة للإيمان على العقاب

قال السحرة لفرعون : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه : ٧٢] الإيثار هو ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر ، قولهم : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ، تعبير فى منتهى الدقة وهو تعبير واعٍ وحكيم ؛ لأنه كان من الممكن أن يقولوا : لن نؤثرك على موسى ، ولكنهم لم يذكروا موسى ، وذكروا البيّنة التى جاء بها ؛ ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة : ١- ٣] ؛ فالإرتقاء من الرسول إلى البينة التى جاء بها إلى من أعطى له هذه البينة ثلاث مراحل .

والبينات : هى الأمور الواضحة التى تحسم كل جدل حولها ، وتجعل الأمر واضحًا غير محتاج إلى جدل ، فكأنهم قالوا لفرعون : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على يد موسى ، ولن نؤثرك على أعلى من ذلك وهو الذى فطرنا . وربما كان قولهم : ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قسَم ، مثلما نقول : لن أفعل كذا وكذا والذى خلقك . كأنك تقسم على هذا الأمر ألا يحدث ، وهذه حيثية عدم الرجوع فيما أعلنوه من إيمان برب هارون وموسى ، بعد ذلك انتقلوا إلى ما هدّدهم به فرعون ؛ من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم فى جذوع النخل ، فقالوا له : ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أى : نفِّذ ما أنت حاكم به من تقطيع الأيدى والأرجل والتصليب فى جذوع النخل .

أو أن المعنى : ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ أي : افعل ما بدا لك ، حتى لو كان أشد مما قلت .. لماذا ؟ لأنك تقضى هذه الحياة الدنيا ، فأنت يا فرعون إنسان من الممكن أن تموت الآن ، فتكون قد قضيتَ مدة حياتك ، وقد يأتى من بعدك من لا يفعل ذلك ، وهب أن من جاء بعدك فعل هذا الشيء فهو أيضًا حياته منتهية ، حتى ولو اتصلت الحياة حتى تقوم الساعة ، فالحياة الدنيا كلها منتهية ، وما دام الشيء منتهيًا ومتروكًا فلا يحزن عليه ، ثم قالوا بعد ذلك : ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه : ٧٣] ؛ فنحن آمنا بربنا وما دمنا رجعنا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بخالق البشر ، فهذا رشد التفكير ، ولا يصح أن تلومنا على رشد تفكيرنا ؛ لأن رشد هذا التفكير سيغيّر فينا أشياء كثيرة ، فنحن أخطأنا كثيرًا ، فآمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر ، فكأن المسألة كلها كانت عبارة عن جماعة مكرهين على عمل من الأعمال ، قد لا يوافق طبيعتهم ولا ميولهم ، وما أكثر ما يكون هذا ، فتجد واحدًا ينفذ أوامر الطغاة وهو غير مقتنع بها .

إذن .. يستفاد من ذلك أن هناك طغاة يحبون أن يحملوا الناس على ما يكرهون من الأعمال .

ومعنى : ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ : أى إنك يا فرعون ستزول ، وملكك سينتهى ، والطغاة الذين سيأتون بعدك سيزولون وتنتهى حياتهم ، ولا يبقى إلا اللّٰه وحده رب كل شيء ومليكه ، فهو سبحانه يُعيش كل خلقه فى أسبابه التى خلقها ، ولكن فى الآخرة لا يعيشون بالأسباب ، بل يعيشون بالمسبب .

وأن اللّٰه خير من كل شيء ، ولذلك قالوا : إن الذى يجعل اللّٰه دائمًا فى باله ، يوقن أن فى اللّٰه عِوضًا عن كل فائت . لأنك ساعة تجعل اللّٰه فى بالك دائمًا تستحى أن تعمل معصية وهو يراك ؛ ولذلك فالرسول ﷺ يقول : « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

استكبار فرعون بغير الحق

قال تعالى : ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص : ٣٨] كأن فرعون بعد أن سمع كلام موسى ، أراد أن يبين لقومه أن هذا

الكلام لم يؤثر فيه ، وخشى أن يكون كلام موسى وهارون قد أثَّر فى عقول قومه ، فأراد أن يلبِّس على هذه العقول مرة أخرى ، فقال : إن هذا الكلام غير صحيح ، وأنه ما زال إلهًا ، وما زال هامان هو الآخر يمالئوه ، حتى إنه يقول له : ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ فيأمر هامان بأن يبنى له صرحًا عاليًا ؛ ليصعد عليه حتى ينظر إلى الإله الذى يدعيه موسى ، وحتى نعرف أن هذا الكلام من فرعون كله عبث ، ومحاولة لكسب الوقت .

ومع أن فرعون تظاهر أمام الناس بأنه سيبنى صرحًا ليصعد عليه ، وينظر إلى إله موسى .. حتى يتحقق من مدى صدق كلامه ، فكان عليه أن ينتظر حتى يستجلى الأمر ، ولا يصدر حكمه مقدمًا ، ولكنه لم يلتزم بذلك ، واتهم موسى بالكذب ، فقال : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ وذلك حتى يخدِّر مشاعر الملأ ، والقوم الذين شهدوا هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يفيد أن الاستكبار حين يكون بحق ؛ يكون لحماية ضعيف من بطش قوىٍّ أو مجرم ، فهذا أمر محمود ، وحين يصف الله تعالى نفسه بالكبرياء والعظمة فهذا الأمر لصالحنا جميعًا ؛ لأنه حماية لنا جميعًا ، ففرعون استكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، أى بغير أن يكون عندهم رصيد ذاتى لهذا الاستكبار . فالاستكبار من الإنسان يعنى أن هذا الإنسان يظن أنه لن يرجع إلى الله الذى خلقه ورزقه .

وقد خاب من افترى

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه : ٦٠، ٦١] إن فرعون ترك موسى وبدأ يدبر أموره ويعد العدة لمواجهته يوم الزينة ، ومعنى : ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ الكيد : هو التدبير الخفى للخصم ، وإذا دبرت فى الخفاء للخصم فهذه ليست شهادة لك بالقوة ، ولكنها شهادة بالضعف ؛ لأنك ما دمت تدبر تدبيرًا خفيًا فكأنك لا قوة لك على المجابهة الواضحة ، فمن يدس السم لواحد ليتخلص منه ، أو يسلط عليه من يضربه ، أو يقتله ، هذا معناه أنه يضعف عن مواجهته ، إذن .. الكيد ليس دليل القوة ولكنه دليل الضعف ؛

لذلك بعض الناس حينما يقرأ قول الله تعالى عن النساء : ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يظن أن المرأة أقوى من الرجل ، فى هذا نقول له : لا .. لأنها ما دامت تكيد كيدًا عظيمًا ؛ فهذا دليل على أن ضعفها أعظم ؛ لأنه لا يكيد إلا الضعيف ، أما القوى فيواجه ولا يخاف .

وقال الله تعالى : ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم﴾ يعنى أن موسى كلم السحرة الذين أتى بهم فرعون وقال لهم : لاحظوا أن لكم ربًّا وإن فعلتم أى شىء مخالف لمنهجه فيا ويلكم من عذابه ، فهو يحذرهم من عاقبةِ فِعلهم ومحاولتهم نصرة فرعون ، ومعنى : ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أى يستأصلكم بعذاب الدنيا ، علاوة على عذاب الآخرة ، وكلمة ﴿افْتَرَىٰ﴾ أى جاء بالفِرية ، والفِرية هى تعمد الكذب .

إعذار الله تعالى لآل فرعون

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٠] ، لم يأتِ الهلاك لفرعون وقومه فورًا ، بل جاء على مراحل ، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه يأخذ الكافرين بالشِّدة ، ليذكرهم بقوته وقدرته لعلهم يتوبون إلى الله ويرجعون إليه ، والسَّنة هى العام ، ولكنها تطلق على الجَدْبِ والقَحْطِ ، وكان رسول الله ﷺ حينما يدعو على الكفار من قومه يقول : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف » . أى أعطهم شيئًا من القحط ؛ لعلهم يفيقون ويتأدبون ويرجعون إلى الله .

إذن .. فالسَّنة : المراد بها القحط والجدب ، ولكن لماذا سميت كذلك ؟ لأن نعم الله على خلقه كثيرة ومتوالية وابتلاءاته لهم فى الكون قليلة ، إذن فمدة النعمة طويلة ، ومدة الشدة قصيرة ، حتى إنه من قلتها يؤرخ لها فيقال : هذه . سنة الجراد أو سنة الجدب . أو سنة الفيضان المغرق . لماذا يؤرخ لهذه الأحداث المفجعة ؟ لأن الأحداث السارة مدتها طويلة جدًّا ، ولكن أحداث البلاء عادة لا تحدث إلا على فترات متباعدة ؛ ولذلك إذا أحصى أى واحد منا أيام البلاء فى عمره ، لوجدها قليلة بالنسبة لأيام الرخاء .

وقوله : ﴿وَنَقْصٍ﴾ ، فإذا كانت السنون هى الجدب والقحط ، فما هو النقص من الثمرات ؟ نقول : إن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ؛ يدل على أنه من رحمته أنه ترك لهم بعض الثمرات لتحفظ لهم حياتهم ، ولكن هذه الثمرات لم تعطيهم عادةً ما

كانوا يأخذونه منها ، فيطرح النخل على سبيل المثال قليلًا بدلًا من أن يطرح الكثير من البلح ، وهكذا كل أنواع الثمرات . لماذا ؟ لأن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يبقى أسباب رحمته لخلقه .

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فى هذه الآية ؟ القضية هنا تكمن فى أن الإنسان إذا أحس أنه قد استغنى بعلمه أو بقوته عن اللّه فإنه يطغى ، فقوم فرعون تعودوا أن يزرعوا وتعطيهم الأرض من خيراتها الكثير ، وظنوا أن ذلك بعلمهم ، فجاء موسى ليلفتهم إلى أن ذلك من عطاء الله ، وحدث منهم ما حدث فعندما زرعوا هلك معظم المحصول وما بقى أعطاهم ثمرًا قليلًا ، إذن تخلت عنهم الأسباب ، وفى هذه الحالة لا يوجد أمامهم إلا المسبب ؛ أى إلا أن يقولوا : يا رب .

آل فرعون عندما رفع اللّه عنهم الجدب لفترة وأعطتهم الأرض من خيراتها قالوا : ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ ؛ أى أننا نستحق هذا الخير ؛ لأننا قد حرثنا الأرض ووضعنا البذرة وسقينا .. إلى آخر هذا ، تمامًا كما قال قارون : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص : ٧٨] ، أى نسب الأسباب إلى نفسه ، فخسف اللّه به الأرض ؛ لتعرف الدنيا كلها أنه لا حول ولا قوة فى هذا الكون إلا لله ، وأن الإنسان مستخلَف فى الكون ، وأن الأسباب خاضعة للإنسان بأمر اللّه وليس بقدرة البشر .

آل فرعون أخذوا نفس أسلوب قارون ، فإذا جاءت الأرض بمحصولٍ حسَن قالوا : هذا جهدنا وعلمنا . ولكن ماذا يحدث إذا أجدبت الأرض مرة أخرى ؟ هل يرجعون إلى اللّه ويعترفون بالحق ؟ لا ؛ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ١٣١] .

إذا جاءت آل فرعون الحسنة نسبوها لأنفسهم ، وإذا جاءت السيئة تشاءموا بموسى ومن آمن معه ، فالطِّيَرة هى التشاؤم ، وهو ضد التفاؤل ويقال : فلان طائره نحس ، وفلان طائره يُمن . وكانوا فى الماضى إذا شغلهم أمر ، يأتى الواحد منهم بطائر يضعه على يده ثم يطلقه ، فإذا طار يمينًا فهذا فأل حسن ، وإذا طار يسارًا تشاءم الرجل ، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أن هذا الجدب ليس من فعل موسى عليه السلام ، لأن موسى لا يملك فى كون اللّه شيئًا ، إنما مالك الكون هو رب موسى ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى لا يريد لأحد أن يُفتن فى

موسى عليه السلام فيقول : إنه قادر على أن يأتي بالزرع والخير ، وقادر على أن يذهب بهذا الخير ويجعل الأرض جدبًا .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناها : أنه توجد قلة تعلم وكثرة لا تعلم ؛ فلماذا لم تتحدث القلة التي تعلم بما تعلمه ؟ نقول : إن هذه القلة سكتت خوفًا من طغيان فرعون ، فكثير من الناس يرى أمامه الفساد ولا يفتح فمه ولا يتكلم ، على أن آل فرعون رغم هذه الآيات الصغرى التي أخذهم الله بها ، مضوا في تحدّيهم ، وهذه الآيات كان من المفترض أن تلفتهم إلى قدرة الحق سبحانه وتعالى ، ولكنهم أخذوها بالتحدي ، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تصرُّف منهم يبرر حدوث الهلاك لهم ، فهم أولًا : أخذوا آيات الله التي أراد سبحانه أن يلفتهم بها لقدراته على أساس أنها سحر ، مع أن السحرة الذين هم سادة فن السحر ، خرّوا ساجدين وآمنوا بالله ، وإذا كانت هذه الآيات سحرًا ، فلماذا لم يبطل السحرة هذا السحر ؟ و﴿مَهْمَا﴾ هنا تدل على استمرارية العِناد وتصميم على عدم الاستماع إلى منهج الله ؛ أي أنهم أغلقوا الباب نهائيًا ، فهم لم يؤمنوا مهما جاءهم من آيات . وفي وصفهم الآيات بأنها سحر غفلة منهم ؛ لأن المسحور لا إرادة له مع الساحر ، ولذلك عندما قالوا عن رسول الله ﷺ بهتانًا وزورًا إنه ساحر ، وإنه يسحر الناس ليؤمنوا . قول مردود عليهم ؛ لأنه ما دام قد سحر الناس ليؤمنوا ، فلماذا لا يسحركم أنتم ؟ ولكن كونكم لم تسحروا وتصرون على العناد وعدم الإيمان ، فالمسألة إذن ليس فيها سحر ، ولكن فيها مكابرة ، وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرطًا وجوابًا ، ويقول العلماء : إن أصلها « مه » بمعنى كف ، أي أنهم يقولون لموسى : كف عن هذا الأمر فما تأتنا به من آيات لا نصدقك . وأمام إصرارهم وعنادهم أرسل الحق سبحانه وتعالى عليهم مزيدًا من الآيات التي تلفتهم إلى ضعفهم وقدرة الله ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٣٣] ، و﴿الطُّوفَانَ﴾ هو : طغيان الماء ، يجعله الله سببًا للدمار ، ولكن الماء هو سبب الحياة فكيف يكون سببًا للدمار ؟ نقول : لا تأخذوا نعم الدنيا بذاتيتها ، ولكن خذوها بأوامر الخالق لها ، فالماء سر الحياة ، فإذا أراده الله أن يكون سر الهلاك ، جعله طوفانًا يقضي على الحياة ، والطوفان الذي حدث في عهد نوح نجا منه المؤمنون

مع نوح فى السفينة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا هنا وجود سفينة لجأ إليها أتباع موسى ، إذن .. فلابد أن الطوفان الذى أصاب آل فرعون لم يصب بنى إسرائيل .

ولكن آل فرعون بعد أن ذهب عنهم هذا البلاء رجعوا إلى كفرهم ، فجاءهم الجراد ليهلك الزرع ثم جاءهم القمل ، وهو غير القمل الذى يصيب الإنسان فى بدنه وثيابه ، وهو حشرة تصيب النبات ، معروفة باسم « القراض » ، ثم جاءت آية الضفادع كلما وضع إنسان من آل فرعون - رجلًا أو امرأة - يده فى مكان وجد فيه ضفدعة ؛ فى الطعام ضفادع ، فى الماء ضفادع ، فى الثياب ضفادع ، ثم جاءت آية الدم : كل شىء يمسكه أحد من آل فرعون يتحول إلى دم ، حتى قيل : إن المرأة من آل فرعون كانت إذا أرادت أن تشرب ماء ذهبت إلى امرأة من بنى إسرائيل وقالت لها : خذى الماء فى فمك وضعيه فى فمى ، وكأنما تريد أن تحتال على الله ، ولكن الماء فى فم قوم موسى يكون ماء ، فإذا ما دخل فم قوم فرعون انقلب دمًا .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ ؛ معناها : أن الله لم يرسل كل هذه الآيات دَفْعة واحدة ؛ بل كانت الآية تأتى لتنبه ؛ فيستغيثوا ويعِدوا بالإيمان وعندما ترفع عنهم يعودون إلى كفرهم ، فتأتى الآية الثانية فيعدون فترفع فيكفرون وتأتى الآية الثالثة ، وهكذا ، وكانت هذه الآيات التسع هى الآيات التى أُرسل بها موسى إلى آل فرعون ، وهى : العصا التى تحولت إلى ثعبان ، واليد التى خرجت بيضاء ، والسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . لقد وصفها الحق سبحانه وتعالى بأنها آيات ؛ لأن كل منها تخرق نواميس الكون ، فتصيب من يريد الله إذلاله ، وتبتعد عن المؤمنين بموسى ، وعلى الرغم أنه فى كثير من الأحيان كان المؤمن والكافر يقفان فى بقعة واحدة ، هذه هى المعجزات .

ولكنهم رغم كل هذه الآيات كانوا يعدون بالإيمان ، ويعودون إلى الكفر وكانوا قومًا مجرمين ، والحق سبحانه وتعالى يكمل لنا ما حدث : ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف : ١٣٤] ؛ والرجز هنا : العذاب الذى ساقه الله عليهم بالطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم ، ولم يجدوا نجاة من هذا كله فى آخر الأمر إلا أن يلجئوا لموسى ، ويطلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يكشف عنهم العذاب ، وفى هذا قد اعترفوا بأن موسى مرسل من الله ، وأن العذاب الذى هم فيه لا يستطيع أن يصرفه عنهم إلا الله . إذن فهم أولًا قد اعترفوا

بيطلان ألوهية فرعون ؛ لأنه لو كان فرعون إلهًا ما لجئوا إلى موسى ليدعو الله تعالى ، وهم اعترفوا بأن موسى عليه السلام مرسل من الله ، مقبول الدعاء عند ربه ، وهم اعترفوا أنه لا يمكن أن يرفع عنهم هذا العذاب إلا الله . وقولهم : ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ؛ أى بما أعطاك من العهد بأن ينصرك لأنك رسوله ، وألا يتخلى عنك . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٥] أى ينقضون العهد ، وكان لهم مع كل آية من آيات العذاب عهد بالإيمان ، ومع كل رفع للعذاب نقضٌ لهذا العهد ، ورجوع عنه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كشف ، والكشف جاء استجابة لدعوة موسى عليه السلام ، عندما قال له قوم فرعون : ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ؛ فالله هو الذى جاء بالعذاب ، وهو الذى كشف هذا العذاب ، والله يعلم أنهم سينقضون العهد ، ولكنه أراد أن يكونوا شهداء على أنفسهم ؛ حتى لا يجادلوا يوم القيامة ويقولوا : يا رب ، لو كشفت عنا العذاب لآمنا . ووصلت المسألة إلى نهايتها عندما نقضوا العهد مرات ومرات ، وكأن فى هذا تحديًا وإصرارًا على الكفر فجاءهم الهلاك ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ١٣٦] .

دعاء موسى على فرعون وملئه

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس : ٨٨] ؛ ما الزينة ؟ هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ، والإنسان محتاج لكى يعيش أن يأكل أى نوع من الطعام ولو لقمة خبز جافة ، أما كونى أتناول من أصناف الطعام كالسمك والدجاج والديك الرومى والحمام ، إلى غير ذلك من أطايب الطعام ، فهذا اسمه ترف الحياة .

مقومات ستر العورة أن أستر عورتى بجلباب ، ولكن كونى أرتدى الملابس الفاخرة فهذه زينة ، والإنسان حين ينام ليس محتاجًا إلى فاخر الفراش ، بل يكفيه - حصير - أو حتى سرير وعليه « مرتبة » من القطن . أما أن أجعل - المرتبة - من ريش النعام ، والفراش من الديباج أو ما

شابه ذلك ؛ فكل هذا زينة .

إذن .. فالزينة هي ما خرج عن ضروريات الحياة ، ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿زِينَةً وَأَمْوَالًا﴾ . مع أن أصل الزينة يأتى من الأموال ؟ **نقول** : هذا صحيح ، ولكن الزينة فرع من الأموال ، وهناك الرصيد الأصيل للأموال وهو الذهب ، وهناك معادن وأحجار نفيسة كثيرة ، وأحيانًا تكون أثمن من الذهب وأثمن من الفضة ، ولكن يظل الذهب هو مقياس الغنى فى العالم كله .. لماذا ؟ لأن الأحجار الكريمة لو كسرت - كالماس مثلًا - تقل قيمتها لدرجة كبيرة ، ولكن الذهب إذا كُسر يُجمع ويصهر وتعاد صياغته مرة أخرى ، وتبقى قيمته كما هى ؛ ولذلك فإن الرصيد المالى لكل دولة يقدر بقيمة الذهب الذى تملكه ، والفراعنة ؛ كانوا يسيطرون على الجبال من مصر إلى الحبشة ، وكانوا يرسلون البعثات لاستخراج الذهب من هذه الجبال ، وما زالت حفريات قدماء المصريين لمناجم الذهب موجودة حتى الآن فى سلسلة جبال البحر الأحمر ، ولقد برع المصريون القدماء فى استخراج الذهب من المناجم وصياغة الحلى ، والذهب أحيانًا يكون موجودًا فى أماكن كثيرة ، ولكن استخراجه يتكلف مبالغ كبيرة ؛ ولذلك لا يستخرج ؛ لأن تكاليف استخراجه تزيد عن قيمته ، ويعتبر استخراجه غير اقتصادى .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى أعطى لهم الأموال والزِّينةَ ، ولذلك ملئوا معابدهم بالنقوش المرسومة بألوان لم تفسد رغم هذه القرون الطويلة ، كل هذا زينة أو ترف ومعناها أن حركة الإنسان المترف أكثر من ضروريات حياته ؛ ولذلك ينفق ماله فى الكماليات والترف والزينة .

وقول الحق تبارك وتعالى : ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس : ٨٨] معناها : أنهم لم يكتفوا بالكفر لأنفسهم فيكونون ضالين ، ولكنهم مضِلُّون أيضًا يدفعون الناس إلى الكفر ، فكان عليهم وزرين : وزر لأنهم ضلوا وكفروا ، ووزر فى أنهم أضلوا غيرهم ، ودفعوهم إلى عبادتهم من دون الله . ولكن هل الحق سبحانه وتعالى أعطى فرعون المال والزينة ليضل عن سبيله هل هذه هى علة العطاء؟ لا .. ولكن هناك « لام » اسمها لام العاقبة .

دعاء موسى : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٨٨] .

قوله : ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أى : امحها أو امسخها ، فلقد قال بعض العلماء : إن أموال فرعون مُسِخت بعد هذا الدعاء ؛ فما كان عنده من ذهب أصبح حجارة ، والذى كان عنده من مال أصبح زجاجًا . وقوله : ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ ، الأموال التى كانت عند فرعون كانت وسيلته للإضلال ونشر الكفر لذا قال موسى : يا رب ، أسألك أمرين :

الأمر الأول : أن تطمس على أموالهم فتجعلها بلا قيمة .

والأمر الثانى : أن تشدد على قلوبهم ، أى : اطبع عليها واشدد الرباط على القلوب ؛ حتى لا يؤمنوا لأنهم افتروا باتباعهم فرعون ورفضهم الدعوة وصدهم عنها ؛ لذلك فهم لا يستحقون رحمتك ولا يستحقون هدايتك .

ولكن كيف يدعو موسى على فرعون وقومه بهذا الدعاء ولا يطلب من اللَّه أن يهديهم ، كما فعل رسولنا عليه الصلاة والسلام ، حين قال : « اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون » ؟ نقول : إنه لابد أن اللَّه سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن فرعون وقومه لن يهتدوا ، وأنه لا فائدة منهم ، مثلما أطلع نوحًا عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود : ٣٦] . إن هؤلاء الذين يعلم اللَّه أنهم لن يؤمنوا بعلمه الشامل لكل هذا الوجود ، لا تكون هناك فائدة من هدايتهم .

وقوله : ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ . تلفتنا [الآية] إلى أن هناك فرقًا بين إيمان الاختيار وإيمان القصر ، فالكافر والمشرك ساعة الاحتضار يُكشف عنهما حجاب الغيب ؛ ليريا كل ما كان خافيًا عنهما ، وعندما يريان العذاب يُعلنان الإيمان ، ولكنه لا يُتقبل منهما ؛ مصداقًا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر : ٨٥] ، ولذلك فإنه ساعة يأتى العذاب يكون قد انتهى الاختيار البشرى ، ولا تقبل توبة ولا إيمان .

فرعون عندما أدركه الغرق قال كما يقصُّ علينا القرآن الكريم : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس : ٩٠] . وعندما توجه موسى وهارون بالدعاء إلى الله ، قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ [يونس : ٨٩] . يلاحظ أن الذى دعا هو موسى ، وأن اللَّه جل جلاله قال : ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ ، مما يدلنا على أن هارون دعا مع موسى ، مع أن موسى هو أصل الرسالة ،

وهارون جاء ليشد عضده ، وإذا نظرت إلى طبيعة الاثنين تجد أن هذا رسول وهذا رسول والمهمة واحدة . فإن اعتبرت الذات قلت : رسولان ، وإن اعتبرت وِحْدَةَ المهمة قلت : رسول .

خروج بنى إسرائيل من مصر

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه : ٧٧] ، بعد أن انتهت المعركة بانتصار الحق وآمن السحرة بموسى ، انهدم بذلك جزء من سطوة فرعون وجبروته ، فجمع موسى بنى إسرائيل ، وهم بقايا ذرية يعقوب عليه السلام وسار بهم شرقًا إلى الأرض المقدسة فى فلسطين ، فتبعهم فرعون وجنوده ، فأصبحوا فى خوف شديد ؛ لأن البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ، فلا مفر من القتل على يد فرعون وجنوده أو الموت غرقًا فى البحر .

وهذا حكم القضايا البشرية المعزولة عن منهج الله ، لكن القضايا البشرية عند المؤمن قائمة على الإيمان بمنهج الله تعالى ؛ ولذلك فالمؤمن حين تصيبه مصيبة فى الدنيا يذكر الله ويقول : لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ فما دام الله ربنا فإنه يهوِّن كل كرب يقع لنا فى الدنيا ؛ لأنه سبحانه لن يتركنا أبدًا . ونحن ضربنا مثلاً - ولله المثل الأعلى - قلنا : هب أن إنسانًا معه « جنيه » ثم فقده ، فى هذه الحالة يغضب هذا الإنسان إذا لم يكن معه غيره ، لكن إن كان معه غيره أو له رصيد فى البنك أو فى الخزانة ، فإنه لا يغضب ولا يحزن ، فكذلك المؤمن إذا ضاع منه شىء لا يحزن ؛ لأن عنده رصيدًا ، ورصيد المؤمن هو إيمانه بربه الذى لا تنفد عطاياه ، ولا يتخلى عن عباده أبدًا ، الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب لقومه طريقًا فى البحر ، و« الضرب » هو : إيقاع شىء من ضارب بآلة على مضروبٍ ؛ ليصبح صالحًا للاستعمال ؛ ولذلك كانوا يكتبون على النقود الفضة أو الذهب « ضُرب فى مصر » فمعنى ضرب النقد : أى أنه تم سكّه وختمه وصار عُمْلَة ، فبعد أن كان معدنا أصبح عملة نقدية متداولة . ولكن أن يضرب موسى لقومه طريقًا يبسًا فى البحر ، فهذه مسألة غريبة فى قوانين البشر ؛ لأن « اليبس » أرض صلبة يابسة ، والبحر ماء .. فكيف يحدث ذلك فى عرف البشر ؟ ربنا سبحانه أوحى إلى موسى وقومه بأنه هو المتكفل بهذا الأمر ، وقال له : اضرب البحر بعصاك ولا تخشَ أن يدركك فرعون أو أن يغرقك البحر ، أى لا تخف دركًا من فرعون ولا تخش غرقًا من البحر ؛ لأن الطريق مضروب ، ولذلك

تجد المعجزة مع موسى غريبة جدًّا : عصا يضرب بها ماء فيصير ما تحت العصا يَبَسًا وما حولها جبالًا ، ويضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء ، ويلقيها على الأرض فتصير حيَّة تسعى .

ومعنى « أَسْرِ » أى امش بالليل ؛ لأنه أستر عليك من عيون فرعون ، ثم يقول تعالى : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه : ٧٨، ٧٩] ، هنا الحق سبحانه فى هذه اللقطة لم يذكر لنا ماذا قال قوم موسى له ، ولكنه ذكر ما قالوه فى لقطة أخرى ، فقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء : ٦١] . إذا تكررت القصة فافهم أن فى كل تكرير لقطة جديدة ، فإذا جمعت كل اللقطات تعطيك القصة كاملة ، فلما قالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ طمأنهم موسى بقوله : ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] ، قال لهم : ﴿كَلَّآ﴾ ، وهذه ليست من عندى ولكنها من عند الله ؛ لأنه ربى الذى سيهدينى إلى طريق النجاة ، فالقرآن يعطينا لقطات متعددة تخرج القصة كاملة .

وكلمة ﴿غَشِيَهُم﴾ معناها غطَّاهم من البحر ما غطاهم ، وأنت حين تبالغ فى شىء تقول : لقد حدث ما حدث ، وحصل ما حصل . فأنت تبهم الشىء ؛ لأنك لا تقدر على الإحاطة به بالتفصيل . كذلك قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ؛ أى أنه أمر مَهُول لا يمكن حصره ، وهذه لقطة غير موجودة فى القصة هنا ، فموسى حينما مشى فى الطريق « اليبس » ونجا بقومه – بنى إسرائيل – وتبعه فرعون بجنوده ، أراد أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود كما كان حتى لا يسلكه فرعون وراءهم ، وكان هذا اجتهادًا منه ، ولكن الوحى الإلهى أمره أن يترك البحر كما هو ، قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان : ٢٤] . وكانت الحكمة من ترك البحر على حاله إغراء فرعون وجنوده بالسير فى الطريق اليبس ، حتى إذا كان الجنود داخله أرجع الله الماء إلى استطراق سيولته ؛ فيغرق فرعون وجنوده ، فيكون الله تعالى قد أنجى وأهلك بالشىء الواحد .

ومعنى : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه : ٧٩] أى أنه قادهم إلى طريق الضلال والهلاك ؛ لأنه كان دائمًا يدَّعى أنه يقود قومه ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر : ٢٩] . ففرعون كذب فى هذا الزعم ؛ لأنه قادهم إلى الهلاك والغرق ، ولم يهدهم إلى سبيل الرشاد .

نجاة موسى وقومه ... وغرق فرعون ومن معه

ها هم قوم موسى أمام البحر يخشون الغرق ، وتتجلى معجزة اللَّه تعالى لموسى عليه السلام فى أن قوم فرعون خلفه والبحر أمامه فيوحي اللَّه له : أن يضرب بعصاه البحر ؛ فينفلق البحر كل فِرق كالطود العظيم . انتقل الماء من قانون السيولة المسخر به ، إلى قانون التجمد الذى أراده الله ، وصار البحر طريقًا ؛ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه : ٧٧] ، طُرق البحر التى تفرقت بعصا موسى صارت جافَّة يابسة ، تصلح للمرور والسير عليها ، لقد أرسل اللَّه الريح لتجفف أرض الطرق التى انشقت بعصا موسى ، لقد أصبح البحر سراديب ، فسارت فيه الاثنتا عشرة جماعة التى خرجت مع موسى عليه السلام ، وبينما هم سائرون مع موسى ؛ لينجوا جميعهم خوفًا من أن يلحق بهم فرعون وجنوده ، قال بعضهم : أين إخواننا الذين كانوا معنا ؟ أجابهم موسى عليه السلام بما معناه : إنهم يسيرون فى الطرق الأخرى التى انشقت بالعصا ، كما أراد الحق أن ينجيكم ، لكنهم شكّوا فى ذلك ، ورفع موسى يده إلى السماء يدعو الخالق الأكرم أن يعينه على سوء خلق من لم يؤمن بقدرة الحق ، ورغب فقط فى التمتع بمعجزات الإيمان .

وأوحى اللَّه لموسى أن يضرب بالعصا على الفِرق العظيم ، فانشقت فى كل فرق كُوَّة يمكن لكل جماعة أن ترى الأخرى منها ، ويقال : إن جبريل كان قد ركب فرسًا أنثى آتاه الشَّبق ، وهى تمخر فى البحر . وكانت الفرس – التى لفرعون – قد شمّت ريحها فملأها الهياج ، فاقتحمت البحر وراءها ، فغرق فرعون ومن معه أجمعون ، ونجا موسى ومن معه . هكذا شاءت إرادة الحق أن تهلك وأن تنجى بالسبب الواحد ، انشقاق البحر ثم عودته مرة أخرى إلى حالته ، وعندما جاء الغرق إلى فرعون أعلن الإيمان ، لكن لا قبول للإيمان فى اللحظة الأخيرة ؛ وإنما بقى جسد فرعون آية لإثبات قدرة الله ، وفى ذلك يقول الحق : ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس : ٩٠- ٩٣] ، لقد شاءت إرادة الحق أن يبقى جسد فرعون

بعد الغرق محفوظًا ؛ ليراه الناس من بعد ذلك ؛ ليعتبروا بالعظة التى أرادها الله ، لقد غرق آل فرعون ولم ينجُ فرعون من الغرق ، إنما الذى نجا هو جسده ، حدث ذلك أمام عيون من خرج مع موسى عليه السلام ، هربًا من ظلم فرعون ، وبعد أن تأكدوا من نجاتهم جميعًا .

ولما بدأ موسى الفِرار بقومه من بطش فرعون وجبروته ، تبعه فرعون وقومه ، وأصبحت كل فئة على مرمى البصر من الأخرى ؛ أى أن قوم موسى يرون فرعون وجنوده مقبلين ، وقوم فرعون يرون موسى وأتباعه وهم يفرون ، قال قوم موسى لنبيّهم : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦١، ٦٢] ، كان كلام قوم موسى منطقيًا مع الأحداث ؛ لأن قوم فرعون وراءهم يسارعون إليهم ، وأمامهم البحر لا يستطيعون أن يهربوا ، فلابد أن يدركهم قوم فرعون .

ولكن موسى قال : ﴿كَلَّآ﴾ ، لماذا ؟ لأنه رسول رب العالمين ، وربه الذى أرسله لن يتركه ، وإذا كانت الأسباب قد عجزت ، فرُبُّ الأسباب سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء ؛ ولذلك فعندما تخلت الأسباب عن موسى وقومه ، التجأ إلى ربِّ الأسباب ، ولم يلجأ إلى قدرات البشر ، وقال : ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ أى : إن اللَّه تعالى معى وسيهدينى إلى طريق النجاة ؛ حينئذ جاءه المدد الإلهى من اللَّه تبارك وتعالى ، يقول رب العالمين : ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء : ٦٣] .

وهكذا أنجى اللَّه جل جلاله موسى وقومه بأن خرق لهم قانون سيولة واستطراق الماء فرعون وقومه حين تبعوا موسى وقو ساعة فروا من مصر ماذا حدث ؟ يقول الحق عز وجل : ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ ، كان قول قوم موسى يتفق مع العقل والمنطق فالبحر أمامهم وفرعون وقومه أصبحوا على مدى الرؤية منهم ، فإذا وصل قوم موسى إلى البحر فلن يستطيعوا السير ، وسيدركهم قوم فرعون ، ولقد تصور قوم موسى أن البحر خارج عن قدرة اللَّه سبحانه وتعالى ، وأنهم ما داموا قد وصلوا إلى البحر فقد انعدمت سبل النجاة أمامهم ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن البحر لم ينفلِت عن قدرة الله ؛ لأن للَّه ما فى السماوات وما فى الأرض ، والبحر منها ، وموسى بشفافية النبوة أدرك هذه الحقيقة فقال بثقة المؤمن فى ربه : ﴿كَلَّآ﴾ ماذا يعنى موسى بقوله : ﴿كَلَّآ﴾ وفرعون وجنوده على مرمى البصر منهم ، والبحر من أمامهم ؟ موسى كان يعلم أن اللَّه لن يتركه ، ولن يترك

المؤمنين معه ، وأنه سيفتح لهم سبل النجاة ؛ لذلك كان وحي الله تعالى إلى موسى : ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ، وغرق فرعون وقومه ، وهكذا نجد أن موسى رفع الأمر إلى الله ، وبضربة واحدة من العصا ، أوجد الله سبحانه وتعالى لموسى وقومه طريق النجاة في البحر ، فأوجد لهم وسط هذه الأمواج - التي فقدت قانون استطراقها ؛ وتوقفت لتفتح طريقًا يابسًا ؛ تكون فيه النجاة لموسى وقومه - طريقًا ، ولكن هذا الطريق وهذه المعجزة التي كانت سبيلًا لنجاة موسى وقومه كانت هي نفسها الطريق لهلاك فرعون وقومه ؛ فبعد أن عبر موسى وقومه البحر ، جاء قوم فرعون وراءهم ، وأبقى الله سبحانه وتعالى الطريق مفتوحًا ميسرًا لهم ليسروا فيه ، وعندما نزل قوم فرعون وأصبحوا في وسط البحر ، أمر الله الماء أن يرجع كما كان ، فرجع كما كان ، وغرق فرعون وقومه . يقول تعالى : ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء : ٦٤- ٦٦] معنى : ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي قربنا ، فقوم فرعون قربناهم من وسط البحر ؛ أي قربنا هناك قوم فرعون إلى وسط الطريق ، وأنجى الله تعالى موسى ومن معه أجمعين ؛ فكسب موسى ومن معه المعركة دون أن يخسروا شيئًا ، ثم أغرق الله فرعون وجنوده في البحر ، فالله تعالى أنجى وأغرق بالشيء الواحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨، ٩]، والمعنى : أن في هذا الذي حدث لآية ، و« الآية » هي الأمر العجيب الذي يخرج على العادة ، ويثير إعجاب الناس واندهاشهم ، وهذا مثل قولك : فلان آية في الذكاء أو الخلق . ومع هذه الآية الواضحة المعجزة ما كان أكثرهم مؤمنين ، مع أنه كان من المفترض أن يؤمن كل من رأى هذا الأمر العجيب ولكن هذا لم يحدث ؛ لأنه حتى الذين تبعوا موسى ، وأنجاهم الله وجاوز بهم البحر وعمل لهم كل هذه المعجزات ، لما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، طلبوا من نبي الله موسى أن يجعل لهم إلهًا كآلهة هؤلاء الناس .

وقال تعالى : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [يونس : ٩٠] ؛ ولم يقل : اجتاز بنو إسرائيل البحر ؛ لأن الاجتياز لم يتم بأسباب بشرية ، وإنما تم بقدرة الله سبحانه وتعالى التي هي فوق الأسباب ، فلو كان بنو إسرائيل قد حفروا خندقًا ، أو بنو حائطًا ، أو أعدّوا بعض السفن ؛ ليعبروا بها البحر . إذن هم قد اجتازوا البحر بأسباب البشر ، ولكن قوله تعالى : ﴿وَجَاوَزْنَا﴾

تدل على أن العملية تمت بقدرة الله ، وليس بأسباب البشر ، ولكن الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه ، وكما نعرف فإن قانون الماء هو السيولة والاستطراق ، والله تبارك وتعالى طلب من موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق وتجمد .

موسى عليه السلام بمجرد أن ضرب بعصاه البحر ، تحول الماء من السيولة إلى جبلين بينهما وادٍ ، لماذا تمت المعجزة بهذه الكيفية ؟ لأنه لو انفلق البحر وأوجد لهم طريقًا يمرون فيه وحوله الماء من الناحيتين ، لخاف بنو إسرائيل أن يعبروا ، وقالوا : ربما أغرقنا الماء ونحن لم نتم العبور ، والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يطمئنوا ويعبروا بسرعة وبلا تردد ، فجعل الماء على الناحيتين يجمد ؛ حتى يطمئنوا إلى أن عبورهم سيتم بسلام .

بعد أن عبر موسى وقومه البحر ، أراد أن يضرب البحر بعصاه ؛ فيعود مرة أخرى إلى السيولة ؛ حتى لا يمر جنود فرعون ويلحقوا بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى طلب منه ألا يفعل ذلك ، وقال له : ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ، أى اترك البحر كما هو ، وفيه الممر اليابس الذى مر فيه موسى وقومه ؛ لأنهم سينخدعون وينزلون إلى الممر الموجود فى البحر ليتبعوكم ، وبمجرد أن يكون أولهم قد اقترب من الشاطئ الآخر من البحر ، وآخرهم فى أول البحر ، فيعيد الله سبحانه وتعالى للماء قانونه فيعود البحر مرة أخرى إلى السيولة ؛ فيغرق كل من هو موجود فى الممر ، فينجو موسى وقومه ، ويغرق فرعون وجنوده بنفس الشيء .

قوله تبارك وتعالى : ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ . فى هذه الحالة الاتباع لا يتم بفكر بشرى مرتب ، بل يتم بانفعال الشر ؛ لأن فرعون وجنوده حين رأوا موسى وأتباعه قد بعدوا عنهم ، كان العقل يقول : لقد خلصنا من موسى وأتباعه ، وذهبوا بعيدًا ، ولكن نوازع الشر فى نفس فرعون ، وفى أنه يريد أن يقتل موسى وقومه هى التى جعلته يتبعهم ؛ ذلك أن موسى ومن معه ما داموا قد بعدوا عن فرعون ومن معه ، يكون خطرهم على ملكه قد زال ، وانتهت المسألة ، هذا إذا كان فرعون يريد ذلك ، ولكن فرعون يريد أن يثبت أنه إله ، وأنه لا يفلت من قبضته عدو ، وأنه لابد أن يقتل موسى وقومه ليكونوا عِبرةً ؛ حتى لا تقوم دعوة إصلاح بعد ذلك .

الشر داخل فرعون هو الذى دفعه أن يعبر بجيشه البحر ، وإحساسه بقوة جيشه وضعف

موسى وقومه ، هو الذى جعله يصمّم على أن ينكّل بهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ؛ والبغى هى تجاوز الحد ، والعدوان هو الإصرار على الباطل . وحينما نقرأ قول اللّه سبحانه : ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ . نعرف أن اللّه سبحانه وتعالى كان قد أعد لفرعون وجيشه هذه النهاية ؛ ليكونوا عبرة لكل طاغية يدّعى الألوهية ؛ ذلك لأن فرعون أخذ بأسباب الأرض ، ونسى قدرة اللّه المسبب ، ولو أن البغى والعدوان لم يكن بداخله ، لعرف بمجرد أن رأى معجزة انشقاق البحر ، أن إله موسى سينجيه ولن يتركه يهلك ، ولوقف أمام هذه المعجزة ليفيق من كفره ، بل إن انشقاق البحر كان معجزة مرئية ، تكفى لكى يؤمن فرعون برسالة موسى ؛ لأنه لا يقدر على هذه المعجزة إلا الخالق سبحانه وتعالى ، فليس من قدرة البشر ، ولا غير البشر ، أن يشقوا البحر ويتحول الماء إلى جبلين بينهما ممر ، ولكن غرور فرعون وعدوانه لم يجعله يلتفت إلى هذه المعجزة التى وضعها اللّه أمامه ؛ علّه يفيق ، لقد كان مشغولًا بألوهيته وجبروته ، وكان الكفر يملأ قلبه ، فلم تؤثر هذه المعجزة الكبرى فيه .

ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ . والإدراك : أن يقصد المدرك أن يلحق بالشىء الذى يريد أن يدركه ، ويبذل كل جهده فى ذلك والغرق هو أن يغطى الماء الإنسان فلا يستطيع أن يتنفس ، فيدخل إلى جسده بدلًا من الهواء ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ ، كأن الغرق جندى من جنود اللّه وله عقل ، وقد تلقى الأوامر من الله ؛ ليحيط بفرعون وجيشه ويغرقهم . ماذا قال فرعون عندما أدركه الغرق ؟ قال : ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس : ٩٠] . الإيمان إذا أطلق يكون دائمًا إيمانًا بالله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك تقول : آمنت ، فيعرف كل من يستمع إليك أنك آمنت بالله ، ولكن فرعون لم يقل : آمنت فقط ، بل قال : ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ، كل هذا يأتى لتأكيد المعنى ؛ لأن فرعون كافر ومدّعٍ للألوهية ، ولا يتوقع منه أن يعلن إيمانه بالله ، وخصوصًا أنه دُعِى أكثر من مرة إلى الإيمان ، ورأى أكثر من معجزة ولم يؤمن ، فلابد هنا من تأكيد المعنى ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ ، أى أتقول الآن : إنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وقد كنت تملأ الدنيا كفرًا ؟ ! المردود هنا ليس الإيمان نفسه ، ولكن

زمن الإيمان ؛ لأن هناك فرقًا بين إيمان الإجبار وإيمان الاختيار .

فرعون وهو يغرق كان فى إيمان الإجبار ؛ لأنه يواجه الموت ويرى نهايته ، وإيمان الإجبار لا ينفع ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس : ٩١] ؛ أى أنك يا فرعون وأنت تواجه الموت تقول : آمنت ، بينما كان عندك زمن طويل ؛ لتعلن إيمانك بعد أن أراك اللَّه معجزات كثيرة على يد رسوله موسى ، ولكنك عصيت وأصررت على الكفر ، ولذلك فإن الإيمان لا يتقبل إذا بلغت الروح الحلقوم ، وعرف الإنسان أنه سيموت يقينًا ؛ لأن هذا إيمان إجبار .

والله سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر ، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار ، لقهر اللَّه سبحانه وتعالى عباده على الإيمان ، وما استطاع واحد أن يكفر بالله ؛ لأن كل ما فى الكون خاضع لأمر اللَّه سبحانه وتعالى ، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء ، ولكن الحق جل جلاله يريد بإعطاء الإنسان الاختيار ، أن يأتيه عن محبوبيَّة ، ولا يتم إيمان المحبوبية إلا إذا كان الإنسان مختارًا أن يؤمن أو لا يؤمن ، فالذى يأتى عن طريق الاختيار ، تكون له منزلة كبيرة عند الله ، إذن فالمردود ليس القول ، ولكنه زمن القول ، يقول بعض الناس : إن اللَّه ردّ إيمان فرعون ولم يقبله مع أنه قالها ثلاث مرات ؟ نقول : إن إيمان الإجبار لا يقبل ممن له اختيار ، وفرعون حينما قال : ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ كان بنو إسرائيل فى ذلك الوقت يجسمون اللَّه سبحانه وتعالى ، أنه جالس على صخرة من المرمر وقدماه فى الماء ، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى حتى ساعة إعلان إيمان فرعون ، أن يكون هذا الإعلان باطلًا ، الحق يقول : ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس : ٩٢] ، ونحن نعرف أن الإنسان مكون من بدن وروح ، فالبدن أو الجسد هو الهيكل المادى ، والروح هى التى تعطى هذا الهيكل الحياة والحركة ؛ إذن فقوله تعالى : ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أى بجسدك مجرّدًا من الروح .

الحق سبحانه وتعالى يقول لفرعون : ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ . أى بجسدك المجرد عن الروح ، ولذلك جعل اللَّه سبحانه وتعالى البحر يلقى بجسد فرعون قبل أن يصبح جيفة ؛ حتى يراه الذين عبدوه جسدًا بلا روح ؛ ليعرفوا أنهم قد عبدوا إلهًا غير قادر على أن يعطى الحياة لنفسه ، فكيف يعطى الآخرين الحياة ؟ ! ولو أن فرعون غاص إلى أعماق البحر بعد غرقه ، ربما

قال أتباعه : إنه قد اختفى وسيعود ، ولكن ظهوره كجسد بلا روح يجعلهم يرون نهايته ؛ علّها تكون عبرة لهم حتى لا يعبدوا بشرًا بعد ذلك ؛ ولذلك يقال : إن سبب حفظ أبدان الفراعنة أن اللّٰه سبحانه وتعالى أعطاهم أسرار تحنيط الجسد البشرى ؛ لكى تكون أجسادهم عبرة لمن يجىء بعدهم ، ويرى الناس أولئك الذين ادّعوا الألوهية وهم أجساد لا حركة فيها ولا قدرة ، وأراد اللّٰه أن يُرى قوم فرعون جسد فرعون ، ذلك الطاغية الذى كان يدّعى الألوهية ويقول : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ .

وقوله تعالى : ﴿نُنَجِّيكَ﴾ [يونس : ٩٢] ؛ أى نجعلك بنجوى ؛ أى : مكان عالٍ ؛ حتى يراك الناس جميعًا وتكون ظاهرًا لهم ، لا يُخفى جسدَك رمالٌ أو تلٌّ أو أية عوامل طبيعية ، بل تكون عاليًا أمامهم ؛ ليروك جميعًا ، لماذا ؟ لتكون لمن خلفكَ آية ، والآية هى الشىء العجيب الذى يلفتنا إلى طلاقة قدرة اللّٰه وعظمتها .

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص : ٤٠] ، أى أن اللّٰه تعالى عجّل لهم العقاب فى الدنيا قبل الآخرة . والأَخذ معناه : أن الآخذ عنده قدرة على أخذ المأخوذين جميعًا فى قبضته مرة واحدة ، ويلقيهم أينما شاء ، وهذا ليس فى قدرة البشر ، وإنما فى قدرة اللّٰه تعالى وحده . لذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود : ١٠٢] . أما فى أخذ المناهج فيريد منا اللّٰه أن نأخذ كل منهج من مناهج الخير بقوة ؛ قال تعالى : ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ٦٣] . فمنهج الخير والنعمة الذى جاءك من عند اللّٰه تعالى ، عليك أن تأخذه بقوة وتلتزم به . واليم : هو البحر ، فالله تعالى أخذ فرعون وجنوده ونبذهم فى البحر .

ويلفتنا هنا الحق سبحانه إلى أن نتعظ ونعتبر من هذه الحادثة ، فيقول تعالى : ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ؛ لأن هذه العاقبة كانت عجيبة ، ولأن الماء والبحر جندان من جنود اللّٰه التى تنصر الحق ، وتهزم الباطل .

فرعون يقدم قومه يوم القيامة إلى النار

يعطينا اللّٰه سبحانه وتعالى الصورة المقابلة يوم القيامة ؛ أى أن اللّٰه تعالى أتى بصورة فرعون

وقومه فى الدنيا ، وصورة فرعون وقومه فى الآخرة ؛ ففى الدنيا هم يتبعون فرعون بلا فهم ويعبدونه بلا فكر ، وما داموا قد اتبعوه فى الأولى فلابد أن يتبعوه فى الآخرة ولابد أن يكون هو قائدهم ؛ لذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود : ٩٨] ؛ فكما كان قائدهم فى الدنيا ، فهو قائدهم فى الآخرة ، فى الدنيا كان قائدهم ومتقدمهم إلى المتعة والنعيم الدنيوى ، وهم سائرون كلهم وراءه ، لا أحد منهم يحاول أن يسأل نفسه : كيف يكون هذا إلهًا وهو مخلوق ؟

قوله : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ ، أى يسير أمامهم ويتبعونه يوم القيامة ، وفى القرآن آيات فى شرح هذا الموقف .

وقوله تعالى : ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ﴾ ؛ فيها تهكُّم عليهم ؛ لأنهم حين يذهبون إلى النار تأتيهم حرارة شديدة ، فيريدون أن يذهبوا إلى الماء .

الله تعالى قال : ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ ؛ فعندما يسمع الإنسان كلمة « ورد » يأتى فى باله ما يذهب الظمأ ويرد الحرارة ، ويستبشر أنه سيشرب الماء ، وبعد ذلك قوم فرعون حين يسمعون كلمة « ورد » يعتقدون أن فيه نجاة ، ثم بعد ذلك يعرفون أنه ورد فى النار ، وأنه عذاب ، وليس رحمة .

والحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى يقول : ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية : ٦، ٧] ، ساعة يسمع ليس لهم طعام أى منع عنهم الطعام يحسون بالخزى ، فإذا قال : « إلا » ، فكأنه سيعطيهم بعض الطعام فيفرحون ، فإذا قال : ﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ ، تكون الحسرة حسرتين .

موسى فى حضرة ربه

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف : ١٤٢] الأعداد فى القرآن لها أسلوبان : أسلوب إجمالى ، وأسلوب تفصيلى ، فالله سبحانه وتعالى يقول فى سورة « البقرة » : ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة : ٥١] . أتى بها إجمالًا ، وفى هذه الآية أتى بها ثلاثين ثم أتمّ الثلاثين بعشر . إذن .. فالميقات أربعون ليلة ، وبذلك يكون العدد فى القرآن مجملًا مرة ومفصَّلًا مرة ،

واتفق الإجمال مع التفصيل فليس هناك خلاف ، ولكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فأيهما يُحمل على الآخر ؟

وقال بعض العلماء : إن سبب امتداد الثلاثين يومًا إلى أربعين هو أن قوم موسى عبدوا العجل ثلاثين يومًا ، فكان لابد أن تكون هناك فترة ؛ حتى لا يعود موسى إلى قومه وهم يعبدون العجل ، فيحدث ما لا تحمد عقباه ، وعندما غادر موسى مكان قومه استخلف أخاه مصداقًا لقوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف : ١٤٢] . وموسى وهارون نبيان ، وموسى هو الذى طلب من اللَّه أن يشدّ أزره بهارون ، ولكن قوله : ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ . معناه أن ميقات اللَّه ولقاءه كان مهمة موسى وحده ، وكان لابد أن يوجد خليفة يبقى على القوم فكان هارون ، وبعض الناس قد يتساءل كيف يكون الشريك فى رسالة خليفة لشريكه ؟ نقول : إن الاثنين كانا رسولى رب العالمين ، ولكن لكل منهما حظ من الرسالة ، وحظ هارون أن يبقى ، وحظ موسى أن يذهب للقاء الله ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٢] فيها أمر ونهى فـ : ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمر ، و : « لا تتبع » نهى ، وتكاليف الحق سبحانه وتعالى لعباده لا تخرج عن ذلك افعل ولا تفعل لا ، ولا يقول الحق لعباده : افعلوا . إلا إذا كانوا صالحين للفعل وعدم الفعل ، ولا يقول لهم : لا تفعلوا إلا إذا كانوا صالحين أيضًا للفعل وعدم الفعل ، وهكذا كان التكليف الأول لآدم وحواء فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف : ١٩] .

كلمة أصلح تستلزم على الأقل أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده أحد ، ولكن يزيده صلاحًا ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولم يقل « ولا تفسد » وهذا يلفتنا إلى أن هارون نبى لا يأتى منه إفساد ، ولكن اللَّه يعلم أنه ستقوم فتنة بعد رحيل موسى ، وسيعبد قومه العجل ؛ لذلك ألهم موسى لكى يقول لهارون : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ . أى لا تطع القوم إذا أفسدوا فى الأرض ؛ ولذلك عندما حدث الإفساد وأمسك موسى برأس أخيه ولحيته اعتذر هارون بقوله : « إن القوم كادوا يقتلوننى » . أى أنه فعل ما فى استطاعته لإبعاد القوم عن طريق الفساد ولكنه فشل .

الحق سبحانه وتعالى يكمل قصة موسى عليه السلام فيقول : ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف : ١٤٣] والميقات هو : الوقت المحدد لعمل من الأعمال .

وقوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ تدل على أن كلامًا حدث من الله لموسى ، ولكن الكلام يحدث بين البشر والبشر ، وكلام الله للبشر محدد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى : ٥١] .

إذن .. فهناك نفى صريح بأن لا يكلّم الله بشرًا إلا **بثلاث طرق** : إما بالوحى ، وإما من وراء حجاب ، وإما بواسطة رسول . **والوحى** : هو الشىء الذى يأتى إلى العقل والقلب فيفهمه الإنسان ، ويطمئن له وينفذه على الفور .

ويقول تعالى : ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف : ١٥٥] كلمة اختار تدل على أن ما فعله موسى هو فعل اختيارى يستخدم فيه العقل ؛ لترجيح رأى على رأى ؛ ولذلك يقال اختار أى : طلب الخير ، واختار ما يؤدى به إلى هذا الخير . وهذا لا يحدث إلا فى الأمور الاختيارية التى هى مناط التكليف ، فاللسان خاضع لإرادة صاحبه ، يخضع للمؤمن حين يقول لا إله إلا الله ، وللكافر حين يستخدمه فى ما ينقض الإيمان ، لم يعص فى هذه ولا فى هذه ، ولكن المؤمن اختار الإيمان فقال : لا إله إلا الله ، والكافر اختار ما يناقض ذلك .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ معناه أن موسى فاعل للحدث ، وموسى لم يختر قومه كلهم ، ولكنه اختار منهم ، وقالوا فى علّة أنهم سبعون رجلًا ؛ أنها عدد أسباط اليهود ، فقد أخذ من كل سبط رجلًا ؛ لتكون كل فرق اليهود ممثلة .

وقول الحق : ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ معناه الموعد المضروب أو المحدد للقاء الله ، ولقد جاءت كلمة « ميقاتنا » قبل ذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا « الميقات » غير « الميقات » الخاص بالأسباط ؛ لأن « الميقات » الأول كان ليكلم الله موسى ؛ أما « الميقات » الثانى فهو لطلب العفو من الله عن عبادة العجل ، وإظهار الخضوع لله والندم على ما حدث ، وتجديد الإيمان .

قال الله تعالى : ﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف : ١٤٤] . إذن .. فكلام الحق سبحانه وتعالى ليس ككلام البشر ، ولكنه شىء اختص الله به موسى عليه السلام فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يكلم الله سبحانه وتعالى خلقه ويحاسبهم . وينتهى الإشكال عند

هذا الحد ، فلا نخوض فيه .

عندما خص اللَّه موسى بميزة الكلام حدث عند موسى استشراق ، وقال : ما دام اللَّه قد كلمني فلأطلب منه فضلًا آخر ، هو أن أراه . وعادة فإن الأُنس والاستشراق بالله محبب إلى النفس المؤمنة ، أراد موسى أن يزداد أُنسًا بربه ، فقال : ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف : ١٤٣] . ولكن موسى لم يقل : رب أرنى ذاتك ؛ لأنه يعرف أنه بطبيعة تكوينه البشرى لا يستطيع أن يرى الله ، ولكنه يعلم أيضًا أن اللَّه تعالى الذى خلق القوانين يستطيع أن يغيرها ويبدلها متى أراد ، وما دام موسى ببشريته ليس معدًا لهذه الرؤية ، فقد طلب من اللَّه سبحانه وتعالى أن يراه ، أى يغير طبيعة خلق موسى كإنسان لكى يرى ، والمهم أن اللَّه تعالى هو الذى سيفعل ، ولكن المخلوق فى الدنيا لا يحتمل فى تكوينه أن يرى الخالق ؛ ولذلك كان لابد أن يصطفى اللَّه من الملائكة رسلًا ؛ ليبلِّغوا منهجه إلى رسله المصطفين من البشر ؛ لأن رؤية اللَّه تعالى فى الدنيا لا يتحملها بشر .

فكيف يمكن لخلق اللَّه أن يتلقوا عن اللَّه بلا واسطة ؟ ! والواسطة هنا لابد أن تكون منتقاة ومعدة لمهمتها ؛ ولذلك لا يستطيع أى مَلك أن يتلقى من اللَّه سبحانه وتعالى ، ولكن لابد أن يكون ملكًا مختارًا معدًّا إعدادًا خاصًّا . وكذلك لا يستطيع كل البشر أن يتلقى الوحى من الملائكة ، ولكن لابد أن يكون بشرًا مختارًا ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج : ٧٥] فالمختار من الملائكة يبلغ المختار من البشر ، والمختار من البشر يبلغ البشر كلهم .

كذلك رؤية الحق سبحانه وتعالى فى الدنيا ، وهذه ستظهر عندما يعطينا اللَّه الدليل أنه لم يخلقنا فى الحياة الدنيا على هيئة صالحة لأن نراه ، ولكن فى الآخرة عندما نُعَد إعدادًا آخر ، عند ذلك يحدث هذا ؛ رؤية نظر وليس رؤية إحاطة ، يقول الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين فى الآخرة : ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] ويقول سبحانه وتعالى عن الكافرين فى الآخرة : ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين : ١٥] ولا يمكن أن يستوى المؤمن والكافر فى هذه المسألة ؛ فالكافر محجوب ، والمؤمن غير محجوب .

ولذلك حينما قال موسى عليه السلام : ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ فماذا كان قول الحق سبحانه

وتعالى ؟ ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ بعض الناس يقول : إن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَن﴾ معناه أنها تأبيدية ؛ أى لن ترانى الآن ولا فى المستقبل ، ولا فى الآخرة ، وفى ذلك يكون معنى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أى أن موسى لن يرى الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

نقول لهم : من قال لكم إن زمن الدنيا كزمن الآخرة ، وقوانين الدنيا كقوانين الآخرة ، وأرض الدنيا كأرض الآخرة ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ، إذن فى الآخرة هناك قوانين أخرى وطبيعة خلق أخرى ، تجعل الإنسان مثلًا يأكل ولا تخرج منه فضلات .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ معناه أنك يا موسى ما دمت على هيئتك البشرية فى الدنيا ، فإنك لن ترانى ، ثم يعطيه اللّٰه سبحانه وتعالى الدليل على أن طبيعة موسى البشرية لا تتحمل رؤية الحق سبحانه وتعالى ، فيقول الله : ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف : ١٤٣] . لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ ؟ لأن الجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك ، والجبل بحكم الواقع وبحكم العقل ، أقوى من الإنسان وأصلب منه ملايين المرات ، والله سبحانه وتعالى يقول لموسى : انظر إلى الجبل الصلب القوى المنيع ، فإن بقى مكانه فإنك سترانى ، وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لموسى استحالة أن يتحمل من هو أقوى منه ملايين المرات رؤية الحق سبحانه وتعالى : فكيف يتحملها موسى ؟

ماذا حدث عندما تجلى اللّٰه للجبل ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ ، و« الدّك » هو الضغط على الشىء من أعلى ؛ ليستوى بشىء أسفل منه ، كأن يكون هناك منزل عالٍ مثلًا وتدكه أى تسويه بالأرض ، ومن علامات يوم القيامة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر : ٢١] . أى أصبح كل ما عليها مساويًا لسطحها ، فلم يعد عليها شىء قائم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ نعرف منه أن اللّٰه تعالى قد تجلى على خلق من خلقه وهو الجبل ، إذن فثبت أن اللّٰه يتجلى على خلقه ، ولكن هل المتجلَّى عليه يقدر على تحمل هذا التجلى أم لا يقدر ؟ من الممكن أن يتجلى اللّٰه على بعض خلقه ، ولكن المهم أن يقوى المستقبل للتجلى على

تحمل ذلك ، ولكن الجبل الذى هو أصلب من الإنسان ملايين المرات ، لما تجلى الله عليه ؟ لم يقوَ على استقبال تجلى الله ، وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا لفتةً تصاعدية ، فلما اندك الجبل : ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ يقال : خرَّ الشيء : إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿صَعِقًا﴾ . يراد بها الوفاة . وكل من فى السماوات والأرض سيصعق عندما تقوم الساعة ؛ مصداقًا لقوله تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر : ٦٨] . أى سيهلك كل من فى السماوات والأرض ، ثم يبعثون ليحاسبوا ، وبعد أن أصابت موسى الصعقة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ أى من الصعقة ، فكأنها أصابت موسى بإغماء فقط ، والإفاقة هنا أعطت موسى إفاقة ثانية ، من شغفه بالله الذى جعله يطلب ما ليس له به علم .

إذن .. فهو أفاق من الصعقة ، وفى نفس الوقت أفاق لنفسه ، وأحس بأن حبه للّه قد جعله يسأل شيئًا ما كان يصح أن يسأله ؛ ولذلك قال : ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وإذا سمعت كلمة سبحانك ، فاعلم أن المراد بها التنزيه عما وقع ؛ أى تنزيهًا للّه من أن يراه مخلوق له .. لماذا ؟ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئى ، فمتى رأيت الشيء ، فإنك تستطيع أن تدركه بقدرتك البشرية التى أنت مخلوق عليها الآن .

والقانون الذى يعمل به الضوء فى أعيننا فى الحياة الدنيا ، لا يجعلنا قادرين على أن نرى الله ، والمقدور عليه لا ينقلب قادرًا ، والقادر لا ينقلب مقدورًا عليه ، ولكن موسى لم ينزه اللّه فقط عن أن يراه بشر ، بل قال : ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أى أن المسألة اقتضت توبته وموسى تاب إلى الله ؛ لأنه سأل اللّه ما ليس له به علم ، ولم يقف عند الحدود البشرية ، بل أراد أن يتجاوزها إلى التجليات المخالفة لقوانين الكون ، وكان الموقف بين يدى اللّه يقتضى ألا يسأل موسى ، وأن ينتظر عطاء الله ، والله كلم موسى دون أن يطلب موسى ذلك ، ولكن موسى عليه السلام حبًا فى اللّه أراد أكثر وأكثر ، ونسى قدراته البشرية ، ولما أحس بما حدث اتجه إلى اللّه يطلب التوبة ، وقال : يا ربى ، أنا لم أصنع ذلك عن قلة إيمان ، فإن ذاتك العلية لا يقدر مخلوق أن يراها أو يدركها ، ولكنى فعلت ذلك لفرط حبِّى لك ، وشغفى بك ، أنا أول المؤمنين ، إنك لا تدركك الأبصار .

السامرى .. وصناعة العجل

سأل موسى عليه السلام السامرى عن صناعة العجل فقال له : ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه : ٩٥، ٩٦] .

كلمة : ما خطبك ، تقال فى الحدث المهم ، وهو الحدث الجلل الذى يصلح لأن تقال فيه : خطب ، ولذلك وردت هذه الكلمة فى قول اللّه تعالى فى سورة « يوسف » : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف : ٥١] .

إذن .. الخطب : هو الأمر الجلل المهم الذى لا يصح أن نمرّ عليه مرورًا عابرًا ، بل يقال فيه كلام يصل إلى درجة الخطب .

لما سأل موسى السامرى ردّ عليه بقوله : ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ . يقول لموسى : أنا رأيت بعلمى ، وأن هذا شيء لم يعرفه القوم . فاجتهاده قاده إلى جمع الحلى ، وعمل العجل والعكوف عليه ؛ لأنه رأى قومه طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا مثل القوم الذين مروا عليهم ، وهم عاكفون على أصنام لهم .

ومعنى : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ قبض على الشيء : أى أخذه بجُمع يده ، قوله : ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ روى عنه العلماء روايات متعددة ، فقالوا : إن السامرى لما كان جبريل يتعهده ، وكان يأتيه على جواد ، فلاحظ أن الجواد كلما مر بحافره على شيء اخضر مكان الحافر ، أى دبت الحياة فى مكان الحافر ، وهذا قول الذين قالوا : إن العجل كان عجلًا حقيقيًا له صوت طبيعى ، وليس بمرور الهواء يحدث منه صوت الخوار . ولكن العلماء الآخرين قالوا كلامًا غير هذا فقالوا : إن معنى : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ . الرسول كما نعلم هو المبلِّغ لشرع الله ، وهو حامل المنهج المكلف به . فالرسول هنا هو موسى ؛ لأن بنى إسرائيل لم يروا جبريل ، بل ولم يسمعوا منه ، ولكنهم سمعوا من موسى ، فهو الذى بلغهم أمر اللّه ومنهجه .

ومعنى : ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أبعدتها عن مخيلتى ، وتركت لنفسى العنان فى أن تفكر أى تفكير ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ ومعنى سوَّلت له نفسه ، أى أنها

دفعته إلى معصية ؛ بأن يأخذ شيئًا من آثار الرسول ووحيه الذى جاء به من الله ، وينبذها عن منهجه ، وبعد ذلك يسير بمحض فكره ومحض اختياره ، ولذلك لا يقال : سوّلت لى نفسى الطاعة . ولكن دائمًا يقال : سوّلت لى نفسى المعصية .

بعد ذلك ماذا فعل موسى مع السامرى ؟ قال تعالى : ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه : ٩٧] .

موسى عليه السلام قال للسامرى : جزاؤك أن تذهب ، وأن يكون قولك الذى يجرى على لسانك دائمًا : ﴿لَا مِسَاسَ﴾ ، والمساس هو المس . ولكن السؤال هو : لماذا فعل السامرى ذلك ؟ فعل ذلك حتى يكون له سلطة زمنية وأتباع ؛ لأنك دائمًا تجد الذين يفترون الكذب ، ويدّعون أن لهم مهمة ورسالة ، والذين يدّعون النبوة ؛ هدفهم من ذلك هو السلطة الزمنية ، وهذه تجعل الواحد منهم يتحلل دائمًا من منهج الحق ، ويسهل التكاليف على الناس ؛ لأنه لو جاء بتشديد على الناس سينصرفون عنه ، ولكن إذا سهل لهم الأمور ، وأسقط عنهم بعض التكاليف ، يتبعه كثير من الناس ضعاف النفوس .

إذن .. فمعنى : ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أى أن تنعزل فى حياتك عن الناس وتتبعد عنهم ، ولا تحتمل أن يمسك أحد أو يقترب منك . قالوا : فانعزل السامرى عن المجتمع ، وهام على وجهه فى البرارى لا يمس أحدًا ولا يمسه أحد ، وذلك لأن الضال عندما يرى جزاء ضلاله يكره من أعانه على هذا الضلال .

موسى قال للسامرى : عقوبتك أن تنفى من المجتمع الذى كنت تريد فيه عزًّا وسيطرة ومركزًا وأتباعًا . ثم إنك ستتبرأ من هذه المجتمع ، وتقول : إياكم أن يتقرب أحدكم إلى ؛ لأنكم سبب البلاء الذى حل بى .

ومعنى : ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ [طه : ٩٧] أى أن عذاب الآخرة قادم أيضًا ، فلن يغنى هذا النفى والبعد من المجتمع عن عذاب الآخرة الذى هو أشد وأبقى .

وقوله تعالى : ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه : ٩٧] أى انظر إلى هذا العجل الذى ظللت على عبادته عاكفًا - أى مقيمًا

- ومعنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ : الذهب لا يمكن حرقه ؛ لأنه إذا وضع فى النار لا يخرج منه إلا الخبث ، ولكنه لا يحترق ، ولذلك قالوا : إن معنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ : أى لنصيرنّه كالمحروق ، بأن نبرده برادة تجعله مثل الذّر ، بحيث يذروه الهواء ؛ ولذلك قال بعدها : ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ ننسفه أى نطيّره ، ونزروه فى الهواء ، فحرقوا عجل الذهب ، بأن جعلوه مبرودًا على هيئة ذرات وطيروه فى الهواء على البحر ، وبعد أن بينّ الحق سبحانه وجه البطلان فيما فعله السامرى ، وفيما فعله القوم الذين اتبعوه فى عبادة العجل ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه : ٩٨] . حينما يقول اللّه تعالى : ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ من الذى علمنا كلمة التوحيد ؟ الرسول ﷺ نقلها لنا بعد أن سمعها من ربه عن طريق الوحى .

فالله تعالى قال : ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ ؛ أنا خلقت السماء والأرض والبشر والحيوان ، وخلقت الكون كله بما فيه ومن فيه ، فتظل الدعوى له إلى أن يوجد من يعارض هذه الدعوى ، فنقول له أين دليلك ؟ ومع ذلك فلم يوجد حتى الآن من يدّعى هذا الشىء ، حتى الذين كفروا باللّه لم يستطع أحد منهم أن يدعى أنه خلق شيئًا من هذا الكون .

إذن .. تثبت الدعوى للّه سبحانه وتعالى فى أنه وحده الإله الخالق .

غضب اللّه على عبّدة العجل

قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف : ١٥٢] ، حين يقال : ﴿ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ أى أخرجوه عن مهمته فى الحياة ، واتخذوه لشىء آخر اخترعوه هم ؛ اتخذوا العجل إلهًا معبودًا ؛ لأن كل المهام التى هى دون ذلك ، والتى يصلح لها العجل ؛ هى مهام العجل مخلوق لها .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ ، وغضب اللّه لا ينزل على الذين اتخذوا العجل لما خُلق له ، ولكن على الذين اتخذوه لغير ما خُلق له . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ ؛ دليل على أن الغضب والذلة لم تنزل بهم بعد ، ولكنها ستأتى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ ولم يقل : فى الآخرة ، هذا دليل على أن الحق يعلم أنهم سيتوبون إليه

بعد أن تُوقع عليهم العقوبة ، والحق تعالى يقول فى آية أخرى : ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة : ٥٤] ؛ أى أن الحق سبحانه وتعالى من غضبه عليهم ، جعل طريق توبتهم إليه أن يقتلوا أنفسهم ، وهذا منتهى الذلة ومنتهى الإهانة ، ثم بعد غضب اللَّه جاءت رحمته فقَبِل توبتهم .

إذن .. فقول الحق : ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ دليل على أن غضب اللَّه نزل عليهم فأصابتهم ذلة ؛ لأن اللَّه طلب منهم أن يقتلوا أنفسهم فأصبحوا أذلاء ، فالإنسان الذى يُكتب عليه أن يقتل نفسه ، يحس بالذلة والهوان ، ولا تكون له عزة .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ دليل على أن هذا العقاب لا ينزل على بنى إسرائيل خاصة ، ولكن كل من يفترى على الله ، يناله غضب وذِلة فى الحياة الدنيا ، وهنا علينا أن نتنبَّه إلى العِبرة من هذه الآيات ، فالمسألة ليست رواية لتاريخ بنى إسرائيل ، ولكن ليعتبر السامع من سرد القصة ، ولا يمكن للسامع أن يعتبر إلا إذا وعَى قول الحق سبحانه وتعالى : إن الغضب والذلة سينزلان على كل مفترٍ ، فإن هذا تحذير لأى إنسان يفكر فى الكذب على اللَّه وعصيانه . ثم تأتى بعد ذلك الآية التى تنبأ بغفران اللَّه لهم بعد أن تابوا ، فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف : ١٥٣] ، وهذا ما حدث فعلًا ؛ لأنهم حين تابوا غفر اللَّه لهم . ومعنى : ﴿تَابُواْ﴾ أنهم ندموا على ما فعلوا ، وصمموا على ألَّا يعودوا إليه أبدًا .

وفعل التوبة فيه عودة إلى الإيمان ، وقبول اللَّه للتوبة هو قِمة عودة العبد المذنب إلى ربه ، على أننا لابد أن نلاحظ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ﴾ ، فكأن السيئات التى فعلوها نقصت من إيمانهم ؛ ولذلك لابد أن يجددوا إيمانهم ؛ لأن السيئة غفلة عن اللَّه سبحانه وتعالى ، فلا تحدث السيئة ولا المعصية إلا إذا غفل الإنسان عن ربه ؛ ولذلك عندما يأتى الإنسان ليتوب لابد أن يجدِّد إيمانه ، ويتعهَّد بأنه لن يغفل عن هذا الإيمان أبدًا .

فالمعصية : هى مخالفة العبد لمنهج الله ، **والتوبة** : هى العودة إلى هذا المنهج وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . لفتة لنا ألا نُذكِّر المذنب التائب بذنبه ؛ لأنه إذا كان اللَّه عزَّ وجلَّ قد غفر له ؛ فكيف نتجاهل نحن غفران الله ، ونقول له : يا

زانى أو يا سارق ؟ ما دام الإنسان قد تاب ، فعلينا أن نبتعد عن تذكيره بذنبه من جديد ؛ لأن هذا يؤلمه ، وقد يجعله يعود للذنب .

إخبار الله تعالى موسى بفتنة قومه

أخبر الحق سبحانه موسى بما حدث في قومه بعد أن تركهم ، لميقاته إذ قال سبحانه : ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه : ٨٥] . أى اختبرنا قومك لكن السامرى أضلهم ، ومعنى أضلهم ، أى : سلك بهم طريقًا غير طريق الحق ، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة ، فإن سلك هو يكون قد ضل وحده ، ولكن إن أضل غيره يكون عليه وزرهم ، فعليه وزر ضلاله ووزر إضلاله للغير ، ولذلك الحق سبحانه يقول : ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل : ٢٥] بعض المستشرقين يعترضون على القرآن ، ويقولون : كيف يقول القرآن : ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ مع أنه يقول فى آية أخرى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام : ١٦٤] . نقول لهم : أنتم لا تفهمون اللغة العربية ؛ لأنكم تأخذون اللغة كصناعة ، وليس كملكة فطرية ، وإلا كنتم فرقتم بين أن يضلّ فى ذاته ، فهذا عليه وزر ، وأن يتسبب فى إضلال غيره ، فهذا وزر آخر .

والسامرى اسمه موسى السامرى ، وموسى لما سمع بهذه الفتنة فى قومه ، رجع إليهم غاضبًا قال تعالى : ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه : ٨٦] .

ومعنى أسفا : أى عنده حزن شديد على ما حدث من قومه ، وسألهم : ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يعطيكم التوراة فيها أصول حركة الحياة ، وفيها المنهج الذى يحسن حياتكم فى دنياكم ، ويحسن ثوابكم فى الآخرة .

ومعنى : ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ هل عهدى طال بكم لدرجة أن تنسوا تعاليم ربكم ؟ فأنا لم أغب عنكم إلا بضعة وثلاثين يومًا ، فأنا لم أغب عنكم كثيرًا .. أم أنكم تريدون أن ينزل عليكم غضب الله ، وإذا كنت بينكم ولم أغب عنكم إلا مدة قصيرة فماذا ستفعلون

من بعدى ؟ فموسى يستنكر على قومه أن يضلوا ، وهو يعيش معهم ولم يغب عنهم إلا أقل من أربعين يومًا ذهب فيها لميقات ربه .

ومعنى : ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِى﴾ يشير إلى أن موسى كان له موعد مع قومه ، حيث أوصاهم قبل أن يذهب لميقات ربه ، وقال لهم : اسلكوا طريق هارون ، واستمعوا لأوامره حتى أرجع ، فهو الذى سيخلفنى فيكم . فكأن موسى عليه السلام يقول لهم : حتى وإن طال عليكم العهد منى فمعكم هارون ، وهو ليس فردًا عاديًّا ، ولكن اللَّه أشركه فى الرسالة معى ، فكان يجب أن يكون له مهابة الرسالة ، وأن تسمعوا له وتطيعوا .

فمعنى : ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ . أى نحن لم نخلف موعدك بإرادتنا ، لكن حدثت أشياء أقوى منا ، والأوزار : جمع وزر ، والوزر : هو الشىء الثقيل الحمل على النفس ، كما يطلق الوزر على الإثم ؛ لأنه يثقل على النفس ثقلًا يتعهدها فى الآخرة أيضًا .

ولكن ما هى الأوزار التى حملوها؟ هذه الأوزار كانت من زينة القوم ، وهم قوم فرعون ، **وقصتها** : أنهم كانوا فى أعيادهم يستعير كل واحد من بنى إسرائيل شيئًا من حلى القبط ؛ يتزين به فى أيام الأعياد ، وقد أخذوا هذه الحلى ولم يستطيعوا أن يردّوها إلى أصحابها ؛ لأنهم أرادوا أن يُسِرّوا ساعة خروجهم ؛ حتى لا يستعد أحد لصدهم ومنعهم من الخروج .

ومعنى « قذفناها » : القذف : هو الرمى بشدة ، وكأن الرامى يتأفف من حمل هذا الشىء ، فبنو إسرائيل قذفوا هذه الحلى ، وهذا دليل على أن عندهم ساعتها إيمانًا ؛ لأنهم غضبوا لأخذهم هذه الأمانات وعدم استطاعتهم ردَّها لأصحابها ، ولذلك نجد أن موسى السامرى دخل عليهم من هذه الناحية ، فقال لهم : لن تبرءوا من هذا الذنب إلا بأن تلقوا هذه الحلى فى النار ، مع أنه كان يقصد إلى شىء آخر ، وهو أن الذهب سينصهر ، ويخرج منه الخبث .

وإذا أمعنَّا النظر فى السياق القرآنى نجد ، قول الحق سبحانه : ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فعندما تحدث عن بنى إسرائيل قال : ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ وعند الحديث عن السامرى قال : ﴿أَلۡقَى﴾ ، والإلقاء فيه لطف عن القذف . ثم يقول تعالى : ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه : ٨٨] فالقوم حينما ألقوا الحلى فى النار لابد أنها انصهرت ، ولكنها لا يمكن أن تتشكل على هيئة عجل ، إلا إذا كان للسامرى عمل

فيها ، فصنعها على هيئة عجل ولكن لماذا العجل بالذات ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل بعد أن جاوزوا البحر ، وجدوا قومًا يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف : ١٣٨] . إذن .. تشوقهم إلى الوثنية والصنمية موجود ، فالسامرى استغل هذا التشوق ولم يصنع لهم صنمًا من حجر ، ولكنه صنع [لهم صنمًا من ذهب] ، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ والخوار : صوت البقر . وقيل : إنه صنعه بطريقة خاصة ، بحيث إذا دخل الهواء من جهة يخرج من الأخرى ، ويعطى صوتًا مثل خوار البقر ، كما يحدث الآن فى بعض المزامير ، فهذا فن وصنعة ، وقوله : ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ كلمة جسد ذكرها الحق سبحانه وتعالى فى حالتين اثنتين ؛ فى الآية السابقة ، وفى قصة سليمان عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص : ٣٤] ، ومعنى : ﴿فَتَنَّا﴾ أى : اختبرنا .

فالسامرى أخرج لبنى إسرائيل عجلا جسدًا له خُوار ، وقالوا عن هذا الجسد ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه : ٨٨] ؛ لأنهم طلبوا صنمًا فصنع لهم عجلًا له صوت ، فهذا ارتقاء فى الصنعة ، ومعنى : ﴿فَنَسِىَ﴾ أى نسى خميرة الإيمان الموجودة فيه ، وأن هذا خروج عن الإيمان إلى الكفر ، وليته يكفر وحده ، ولكنه يريد أن يكفر القوم معه ، فلابد أنه نسى ؛ لأنه لو كان على ذكر من خَيبة هذا الفعل ما فعله ، ثم يقول الحق سبحانه : ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه : ٨٩] . أى : كيف يعبدون هذا العجل مع أنه لا يرد عليهم جوابًا ، ولا يملك لهم أى ضر أو نفع ؟ فلو كان عندهم ذرة عقل ما فعلوا ذلك ! ! ولذلك حين يتحدث القرآن عن الكفر فى سورة « البقرة » يقول : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة : ٢٨] . فكأن الكفر بالله جريمة شنيعة وعجيبة لا يمكن لأى عقل أن يُقرّها ؛ فهنا استغراب لما فعله بنو إسرائيل من عبادة العجل ؛ لأنهم لو فكروا قليلًا لوجدوا أنهم لو كلموا هذا العجل فلن يرد عليهم ، ولوجدوا أنه لا يضرهم ولا ينفعهم ، ومعنى لا يرجع إليهم قولًا : أى لا يردّ عليهم إن سألوه ، ولا يملك لهم ضرًا إن كفروا به ولم يؤمنوا ، ولا يملك لهم نفعًا إن آمنوا به وعبدوه ، ثم يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه : ٩٠] . ومعنى ﴿فُتِنتُم﴾ . أى : اختبرتم بهذا العمل

الذى جاء به السامرى .

والسامرى كانت أمه قد وضعته فى الصحراء ، وبعد أن وضعته ماتت فى النفاس وتركته وحيدًا فى الصحراء لا يجد من يقوم برعايته ، قالوا : فكان جبريل عليه السلام ، يتعهده بالرعاية والتربية حتى كبر ، فالذى ربَّى السامرى هو جبريل عليه السلام والذى ربَّى نبى اللَّه موسى هو فرعون ؛ ولذلك الشاعر تحدث عن هذه اللقطة العجيبة فقال :

إذا لم تصادف فى بنيك عنايةً فقد كذب الراجى وخاب المؤمل
فموسى الذى رباه جبريل كافر وموسى الذى ربّاه فرعون مرسل

موسى عليه السلام حينما ترك القوم وذهب لميقات ربه ، استخلف عليهم أخاه هارون ، وأوصاه أن يصلح أمور القوم ويمنعهم من أى فساد . قال تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ . ومعنى أصلح أى : اعمل الصالح ، وبذلك أباح موسى لهارون أن يقدر المسائل التى يراها ، ويعمل على إصلاحها قدر استطاعته ، وهذه ستكون الشفاعة التى تشفع لهارون عند أخيه موسى ، بعد عودته غاضبًا ؛ لما رأى من ضلال القوم وفسادهم ؛ لأنه وعظهم ولم يستجيبوا .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ [طه : ٩٠] . قال العلماء : إن عدد بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى كان ستمائة ألف ، عبدوا العجل جميعهم إلا اثنى عشر رجلًا ، ظلوا على عهدهم مع موسى وهارون ، فلو أن هارون دخل معركة مع القوم بهؤلاء المؤمنين القليلين ، لقضى عليهم أتباع السامرى ، فهو رأى أنه من الأصلح أن يعظهم فقط ، دون أن يدخل فى مواجهة معهم ، وهارون بيَّن لهم أنهم فُتنوا بهذا العجل الذى صنعه السامرى ، وأن ربهم هو اللَّه صاحب الرحمة الواسعة ، وذكَّرهم بأن موسى أمرهم باتباعه وإطاعة أمره ، ولكنهم لم يستجيبوا ، وكان ردّهم كما قال تعالى : ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه : ٩١] أى : أنهم لن يتركوا عبادة العجل ، بل سيظلون عاكفين على عبادته ، حتى يرجع إليهم موسى . وكلمة : ﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ معناها : أنهم سيظلون فى مكانهم ، أو على حالهم الذى هم عليه من عبادة العجل ، ولن يفارقوا الحالُ الذى هم عليه ، حتى يعود إليهم موسى .

عتاب موسى لأخيه هارون

قال موسى لأخيه هارون عليهما السلام : ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه : ٩٢، ٩٣] .

موسى يسأل هارون عن الذى منعه من اتباعه ، حين رأى القوم قد ضلوا ؟ والسائل حين يستفهم عن شيء ، قد يخاطب إنسانًا وهو لا يعلم ذنبه ، ولكنه يذكر له صورة الذنب حتى يسمع الردّ منه ، وحتى يكون الرد على من يعترض عليه ، فعمر بن الخطاب ﷺ مثلًا وقف عند الحجر الأسود وقال : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك .

إذن .. هو يقبّله اقتداء برسول الله ﷺ ، ولذلك جاء بهذا الكلام ؛ ليعطينا الجواب الذى سيظل ناطقًا فى التاريخ ، بأن النبى ﷺ هو الذى فعل ذلك ، فعمر ﷺ أثارها شبهة حتى نسمع منه الردّ ، وحين نسمع هذا الردّ يظل سائرًا طول الأزمان .

بعد ذلك ردّ هارون على أخيه موسى موضحًا موقفه ، ومدافعًا عن نفسه ، قال تعالى : ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه : ٩٤] ؛ الحوار بين موسى وهارون لم يقتصر على الكلام فقط ، ولكن يبدو أنه صاحبه حركة فعل ، أخذناها من كلام هارون : ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓۖ﴾ . وعلّة ذلك أن هارون خشى أن يظن موسى أنه فرّق بين بنى إسرائيل ، ولم يراعِ نصيحة موسى له ، بأن يصلح بين القوم ، والإصلاح : أن يحافظ على سلامة القوم ، ويعمل الصالح لهم ، فلو دخل معهم فى معركة ، لقضَى العدد الأكبر من عبدة العجل ، على العدد القليل من المؤمنين الموحدين مع هارون ، الذين ظلّوا على عهدهم مع موسى عليه السلام ، ولو حدث ذلك لانتهت خليّة الإيمان فى بنى إسرائيل ، فهارون اجتهد وعمل على الحفاظ على القوم ، فى إطار نصيحة موسى له ، فكأن موسى سأل هارون ؛ ليسمع منه الإجابة ودفاعه عن نفسه ؛ ليحفظها التاريخ وتسمعها الدنيا كلها .

وقوله : ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ ، فكأن الذين كفروا من قوم موسى كانت بينهم وبين هارون عداوة ، وقاومهم على قدر طاقته البشرية .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥٠] ؛ أى لا يظن أحد أن هارون انضم إلى هؤلاء الناس الذين عبدوا العجل ، أو على الأقل أنه وافقهم .

إذن .. فهناك موقفان ، موقف موسى الذى يملؤه الغضب تجاه ما حدث ، وموقف هارون الذى يبين العلة فى أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه .

حينما قال هارون ذلك ، تنبّه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : كيف يلقى الألواح وفيها المنهج ؟

والأمر الثانى : كيف يأخذ أخاه بهذا الغضب الشديد قبل أن يتبيّن الحقيقة ؟ حين أحسّ موسى أن الغضب قد أخذه ، فمنعه من أن يتريّث قبل أن يتصرف ، فاتجه إلى السماء ، وقال : ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥١] .

وطلب موسى الغفران من الله ، كان عن إلقائه الألواح وظلمه لأخيه ، ولكن لماذا يطلب موسى الغفران لأخيه ؟ لأن هارون كان يجب أن يقاتل هؤلاء القوم الذين كفروا بعد إيمانهم وعبدوا العجل ، بعد أن غمَرهم الله سبحانه وتعالى بمعجزاته وآياته .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ، إذا سمعنا أرحم الراحمين ، تذكرنا خير الرازقين ، وخير الوارثين ، وأحسن الخالقين ، نعرف أن كل صفةٍ لله تتعدى إلى خلقه ، لابد من استخدام صيغة التفضيل ، فالله سبحانه وتعالى قد وضع فى خلقه الرحمة ، وطلب منهم أن يكونوا رُحماء بمن هم أضعف منهم ؛ لذلك يوجد « رحيم » ويوجد « راحم » ، ولكن المخلوق حينما يتخلق بالرحمة ، فإنه يرحم واحدًا أو اثنين أو جماعة ، كل حسب قدراته وقوته ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحيم بخلقه كلهم ، قوته لا نهاية لها ؛ ولذلك فإن رحمته لا نهاية لها ، ولذلك فهو ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

سكوت الغضب عن موسى

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف : ١٥٤] ؛ فهل الغضب له سكوت وله كلام ؟ نقول : نعم ؛ لأن الغضب يهيّج النفس ويلحّ عليها أن تتحرك وتفعل ، والله صوّر الغضب فى صورة إنسان يلح على موسى أن يفعل كذا وكذا ، ولكن عندما أحس موسى وأفاق ، وتذكّر أن الله غفور رحيم ، سكت عنه الغضب ، كأن الغضب هو الذى أهاج موسى

حين دخل إلى نفسه وأخذ يأمره بكذا وكذا ، فلما سكت عنه الغضب عاد موسى إلى هدوئه ، فكأن سكوت الغضب معناه : أنه زال وانتهى .

عندما زال عن موسى الغضب ، ماذا فعل ؟ أول شيء فعله أنه أخذ الألواح ، فالغضب جعله يلقى الألواح ويأخذ برأس أخيه قال تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ، ونحن نسمع كثيرًا عن النسخة من الكتاب ، والنسخة هى الشىء المنسوخ ، أى المنقول من مكان إلى مكانٍ ، عندما يوجد كتاب مخطوط ثم نطبعه ، نكون قد نقلناه من الأصل إلى الصورة ، فيصبح منسوخًا .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ . الهدى هو الطريق الموصل إلى الغاية ، ومنهج الله هو هداه للناس ؛ ليهتدوا إلى الطريق الذى يوصلهم إلى رضا الله ، ومن اتبع الطريق استحق رحمة الله .

إذن .. فما هو مكتوب فى الألواح يهدينا إلى طريق الله ، ويجعلنا نستحق رحمته ، ولكن لمن ؟ يبيّن الحق سبحانه لنا الصورة فيقول : ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٤] ، حتى نعرف أن الألواح فيها هدى ورحمة لمن خاف ربه ، وليس لمن سمعها وغفل عنها ولم يعمل بها ، وصفات الجبار سبحانه وتعالى تهدى إلى طريقه ؛ لأنك إذا استحضرت صفات الجبار خفته ، وإذا خفته مَلأت رهبته قلبك ، إذن فلابد أن ترهب الله ، فتتبع منهجه ، فتنال الهدى والرحمة ، ولكن الرهبة قد تكون مظهرية ، أى أنه من الجائز أن تتظاهر برهبة الله ليقال عنك : عابد ، أو رجل صالح ؛ أى أن تفعل ذلك طلبًا للسمعة ورياء للناس ، ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ، أى لا يخافون أحدًا إلا الله ، ولا يفعلون شيئًا رياءً أو نفاقًا أو سُمعة ، وذلك هم أصحاب الإيمان الصادق .

اختلاف بنى إسرائيل على موسى

الحق سبحانه يقول : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [هود : ١١٠] ، إذن .. فقد تقدم أمران على ضمير الغائب : « موسى ، والكتاب » ، قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ اختلف فى من ؟ فى موسى أم فى الكتاب ؟ نقول : فى الاثنين . لأن الخلاف فى واحد منهما يؤدى إلى الخلاف فى الآخر ، فلا يوجد انفصال بين

موسى والكتاب ؛ لأنه لا تكون مهمة موسى لولا الكتاب الذى أنزل عليه ؟ وماذا يكون موسى لو أن اللَّه لم يرسله رسولًا ؟

إذن فهناك أمران يلتقيان ، أمر الرسالة والرسول فى الاصطفاء ، إذن فهما أمر واحد ، وليسا أمرين ؛ لأنه لا يوجد رسول منفصل عن رسالته ، فالمنهج والرسول واحد . وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى﴾ هذا هو المذكور الأول : ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾ عاد الضمير على الأول ، ولذلك لو اختلف فى موسى أهو رسول أم غير رسول ؟ وقيل : إنه غير رسول انهدم الكتاب ؟ ولو اختلف فى الكتاب هل هو صدق أم كذب ؟ وقيل : كذب ، انهدم الرسول .. إذن فهما ملتقيان .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ . وكان يمكن أن يقول : « ولقد آتيتُ موسى الكتاب » . لأن الذى آتى موسى الكتاب هو الله ، ولكنه تعالى قال : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ . لأن الفعل يحتاج إلى صفات الكمال فى اللَّه وهى متعددة ، والكتاب محتاج إلى حكمة وإلى علم ، وإلى قدرة وإلى عفو ، وإلى جبروت وإلى قهر ، وغير ذلك من صفات الكمال فى اللَّه سبحانه .

الحق سبحانه وتعالى قد آتى قوم موسى الكتاب فاختلفوا فيه ، فلماذا لم يأخذهم اللَّه كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم مدين وقوم عاد ؟ لماذا لم يأخذهم بالعذاب ؟ لأنه أجّل لهم العذاب إلى يوم القيامة ، فكأنهم ما نجوا من عذاب اللَّه بقدرتهم ، وإنما نجوا من عذاب الله ؛ لأن اللَّه جعل للعذاب أجلًا هو يوم القيامة ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود : ١١٠] . إذن .. فالله جل جلاله حكم حكمًا بأن يؤجّل لهم العذاب ، وكان حكمه فى الأمم السابقة أن يعجل لهم بالعذاب ، فالذين خالفوا دعوة نوح ولوط وصالح وغيرهم ، عجل لهم العذاب لكن بدءًا من رسالة موسى عليه السلام حكم اللَّه تعالى بأنه سيؤجلهم إلى يوم القيامة ، هذه هى الكلمة التى سبقت ، والتى قال اللَّه تبارك وتعالى عنها : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود : ١١٠] . فى شك من ماذا ؟ من دينهم ؟ أم من لقاء ربهم ؟

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

[هود : ١١١] ، إذن .. فقد كانت الرسل قبل موسى إذا كُذِّبتْ ، [فنجد أن] الأمة التى تكذب رسولها يأخذها اللَّه بعذاب من السماء ، فأجّل اللَّه العذاب إلى يوم القيامة ، ولا تعتقد أن تأجيل العذاب إلى يوم القيامة بأنهم نجوا منه ، أو أن اللَّه سينساهم بل إن كل واحد منهم سيوفى جزاءه ؛ الثواب لمن أطاع ، والعقاب لمن عصى وأذنب ، ولكنه أمرٌ آتٍ لا محالة ؛ إن كل واحد من هؤلاء الذين اختلفوا فى الكتاب وعصوا موسى ، سيلقى جزاءه على قدر الأعمال والذنوب التى ارتكبها ، فإن تاب وعمل صالحًا ، فسيُجزى أجره يوم القيامة .

هل كل قوم موسى نقضوا العهود ؟

قال تعالى : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة : ١٣٦] . ولقد قلنا : إنه عندما أخذ موسى الألواح وجد فيها رحمة من اللَّه وفضل لأمة من الأمم ، فقال : يا ربى اجعلها لأمتى ، فقال الله : هذه لأمة محمد .

وقال موسى لربه : إنى لأجد فى الألواح من يؤمنون بالكتاب الأول ، ويؤمنون بالكتاب الآخر ، فاجعلهم أمتى ، قال : تلك أمة محمد .

فكأن أمة محمد ﷺ وحدها التى تؤمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر ، وغيرها من الأمم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعضها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٩] عندما قال اللَّه عن قوم موسى : إنهم ينقضون العهود لم يكن هذا الكلام حكمًا عامًّا ؛ لأن الحكم لو كان عامًّا لما وجد فى أمة موسى من يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن هناك مثلًا ابن صوريا وعبد اللَّه بن سلام وغيرهما من قوم موسى آمنوا برسول اللَّه ﷺ .

إذن .. فهناك دائمًا شىء اسمه ضمان الاحتمال ، فإن منهم من لم ينضموا إلى عامة اليهود فى المعصية والبعد عن طريق الله ، هؤلاء الذين يقول اللَّه عنهم : ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ . أى يدلّون الناس على طريق الخير ، ويعدلون فى حكمهم بين

الناس ، وهم هؤلاء الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ؛ ولذلك فإن الحكم لم يعمهم ؛ لأن خبر الإيمان برسالة محمد ﷺ كان موجودًا فى أصلاب عدد ولو قليل من أمة موسى عليه السلام .

ذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام

قصة موسى والخضر هى قصة العجائب الغيبية التى يقف أمامها العقل البشرى خاشعًا ومسلِّمًا ، فهى قصة رسول مُوحى إليه ومعه منهج حياة ممثلًا فى التوراة ، فيه افعل ولا تفعل ، وقصة عبدٍ صالح آتاه اللَّه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا ، ولكل خصوصيته .

روى التاريخ أن موسى عليه السلام قام خطيبًا فى بنى إسرائيل فلما انتهى من خطبته سأله رجل هل تعلم أحد أعلم منك ؟

قال : لا . فأوحى اللَّه إليه : إن لى عبدًا بمجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك . قال موسى لربه : فكيف لى به ؟

قال : تأخذ معك حوتًا فتجعله فى مكتل فحيثما فقدت الحوت تجده هناك ، فأخذ موسى حوتًا فى مكتل ، واصطحب فتاه يوشع بن نون ، وقال له : إذا فقدت الحوت فأخبرنى . ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه ، حتى وصلا إلى الصخرة وغشاهما النعاس ، فناما ، ومسَّ الحوت بعض الماء فاضطرب فى المكتل ، وأخذ سبيله فى البحر سربًا ؛ فرآه يوشع وهو بين النوم واليقظة ، فلما استيقظ موسى نسى أن يسأل يوشع عن أمر الحوت ، ونسى يوشع أن يخبره بما حدث ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغداة وقد أجهدهم السير ، قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا تعبًا لم نعهده من قبل . ذلك أن موسى لم يجد من التعب مثل ما لاقاه منذ جاوزا الصخرة ، ولما همَّ يوشع لإعداد الطعام تذكر الحوت الذى تسرب إلى البحر ، فقال لموسى : أرأيت إن أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ، وقد اتخذ سبيله فى البحر بحالة تدعو إلى العجب .

فقال موسى : إن فقدان الحوت هو ما كنا نبتغيه ؛ لأنه أمارة على الفوز بما نطلبه ، فعادا إلى الطريق التى جاءا منها ؛ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف : ٦٥، ٦٦] ومع

أن موسى رسول ، إلا أنه لم يتأبى أن يعلّمه عبدٌ من عباد الله ، تقرب إلى الله بالمنهج الذى جاء به موسى ، وله اصطفائية مخصوصة فموسى عليه السلام مرسل لتبليغ الرسالة - افعل ولا تفعل - والخضر عليه السلام له تحقيق المعلوم للّه الذى قد تغيب نتائجه على سُلّم العقل ، فإذا ظهرت حكمة الغيب فيه ، آمن به العقل ، وهذه الاصطفائية للخضر ليس معناها أن يفهم البعض أنه فوق موسى عليه السلام ، لا . إنما لكلٍّ وجهة هو موليها ، [وهى الوصول إلى الله عزَّ وجلَّ فى النهاية] .

إن قول موسى للعبد الصالح : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ . يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أنه مهما رُفعتْ درجة الإنسان ، فإنه يجب ألا يتكبر ، بل لابد أن نتواضع جميعًا ؛ فالكبرياء للّه وحده ، ويجب ألا يغتر إنسان بعلمه ، أو بما آتاه اللّه من فضله فيتكبر فى الأرض .

العبد الصالح حين طلب منه موسى أن يتبعه ليتعلم منه ، قال له : ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف : ٦٧، ٦٨] وهكذا قدم العبد الصالح عذرًا لموسى ، بأنه لن يستطيع أن يصبر ، وليس هذا لنقص فى موسى عليه السلام ، ولكن لأن اللّه أخبر العبد الصالح بأمور لم يخبر بها موسى .

فيقول موسى وهو من أولى العزم من الرسل : ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف : ٦٩] .

المشهد الأول من مشاهد قصة موسى مع الخضر عليهما السلام :

رغم أن موسى وعد العبد الصالح بعدم السؤال ، أو عصيان الأمر ، وأن يكون صابرًا ، رغم ذلك لم يطق الصبر على حادث خرق السفينة ؛ لأن خرق السفينة فى البحر مؤداه غرق السفينة بمن فيها ، فلم يصبر موسى عليه السلام أمام هذا ولم يلتزم الصمت ؛ لهذا قال للعبد الصالح : ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف : ٧١] . لقد شك موسى فى ظاهر الأمر ، ولكن عندما أدرك الحكمة ، وجدها عين الخير ، فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة ، لأخذها ملك ظالم يأخذ السفن غصبًا ؛ وذلك قول الحق تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف : ٧٩] . فلو لم يخرقها العبد الصالح ، لما احتفظ أصحاب السفينة بسفينتهم ، وإن كان بها عطب .

المشهد الثانى من مشاهد القصة :

وفى مشهد آخر أعطانا اللَّه المثل بشىء لا يوجد أعظم منه ، وهو القتل . لقد قتل العبد الصالح غلامًا ، ما الحكمة فى ذلك ؟

إن الإنسان ينجب ولدًا حتى يكون قُرة عين وسندًا له فى الدنيا ، فإذا ما كان هذا الولد سببًا فى فساد الدين فإنه يقوده إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد اللَّه هذا الولد من طريق أبيه ؛ لأنه سيكون وسيلة لاختلاله .

وقد يقول قائل : وما ذنب الولد ؟ نقول للقائل : أنت لا تعى الحكمة من ذلك ، فقد يكون الولد ذهب إلى ربه بدون تجربة فى أن يطيع أو يعصى ، إذن يكون قد ذهب إلى رحمة اللَّه مباشرة ، أو اقتضت حكمة العليم سبحانه أن يزيح هذا الولد من طريق أبويه ؛ لأنه طُبع كافرًا ، وسيشقى به والداه المؤمنان . لذلك كان القتل رحمة من اللَّه تعالى لوالديه .

المشهد الثالث من مشاهد القصة :

ومشهد آخر مع العبد الصالح وموسى ، تتجلى فيه حكمة الحكيم ، وإرادة العليم ، لقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها ، أى : طلبا من أهلها طعامًا ، لقد ورد التعبير فى القرآن عن ذلك بدقة : ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ . إن الواحد منهما لم يطلب نقودًا ؛ وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة ، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه ، لقد طلبا أولى الحاجات الضرورية للإنسان ؛ فقالوا لهما : لا ، لن نعطيكما ، لقد كانوا لئامًا .

ولما رأى العبد الصالح جدارًا يريد أن ينقض فأقامه ، فقال موسى عليه السلام متسائلًا : لماذا لا تأخذ منهم أجرًا خاصة وأنهم منعونا الطعام ؟

هنا يوضح العبد الصالح لموسى عليه السلام سبب قيامه بهذا العمل والحكمة منه فيقول : ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف : ٨٢] . إن أهل القرية لو علموا أو رأوا هذا الكنز لأخذوه ، فهم لئام ، ولضاع حق اليتيمين .

فائدة : إن الذى قص علينا قصة الخضر عليه السلام هو اللَّه تعالى ، وأنها حدثت مع نبى اللَّه

موسى عليه السلام ، فإذا جاء أحد الآن وادّعى أنه الخضر ، فهو كاذب . فإنه لا يوجد خضر لكل زمان لا باسمه ولا بصفته ، إنما هي مسألة ضربها اللَّه تعالى ؛ حتى تكون قضية عقدية يستقبل بها الناس أحداث الحياة في مالهم إن كان سفينة ، وفي ذواتهم إن كان ولدًا ، وفي جفوة الناس عنهم إن كانوا ظالمين .

إذن .. الغاية من القصة الرضا بالقضاء والقدر ، والتسليم لأمر اللَّه تعالى ، وأن كل ما يحدث في الكون هو بقدر الله ، وله سبحانه في ذلك حكمة ، فإن عرفتها حمدت اللَّه تعالى وشكرته على ذلك ، وإن جهلتها حمدت الله ، فسبحانه المحمود على كل حال ، وأمْرُ اللَّه كله خير .

كما أن الخضر عليه السلام قد انتقل إلى جوار ربه ، وهو ليس بحي الآن كما يزعم نفر من العلماء ، وكذلك لا يُنقل عنه شرع ولا علم .

وغاية القول فيه : إنه عبد صالح من عباد الله ، آتاه اللَّه رحمة من عنده ، وعلّمه من لدنه سبحانه علمًا ؛ للقيام بمهمة ، وقد أداها كما أرادها اللَّه تعالى .

والله يقص الحق وهو خير الحاكمين .

قصة موسى عليه السلام ، مع قارون

قال اللَّه تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] .

لقد أُبتلي موسى عليه السلام في حياته ومشوار دعوته بمجموعة من الصناديد ، ابتلي أولًا بفرعون الذي زعم أنه إله ، واستعبد الناس ، ثم ابتلي ثانيا بموسى السامري الذي صنع العجل ودعا بني إسرائيل إلى عبادته ، ثم ابتلي ثالثًا بقارون [الذي جحد بنعم اللَّه تعالى عليه] .

يقول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ . قوله : ﴿ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ يعني بني إسرائيل ، ويقول أكثر المؤرخين وأهل العلم : إنه كان ابن عم موسى ، فهو قارون بن يصهب بن قاهث بن لاوى ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ، وكان يسمى « النور » لحسن صوته بالتوراة .

ولما أمر اللَّه تعالى بالزكاة ، كان على قارون من كل ألف دينار ، دينارٌ .

فسولت له نفسه أن هذا المبلغ كثير ، فجمع نفرًا يثق بهم من بنى إسرائيل فقال : إن موسى أمركم بكل شيء فأطعتموه ، وهو الآن يريد أخذ أموالكم . فقالوا : أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت . فقال : آمركم أن تحضروا فلانة البغى فتجعلوا لها جُعلًا فتقذفه بنفسها ، ففعلوا ذلك ، فأجابتهم إليه .

ثم أتى عدو اللَّه إلى موسى عليه السلام وقال له : إنّ قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهاهم ، فخرج إليهم فقال : من سرق قطعناه ، ومن افترى جلدناه ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة ، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت .

فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟

فقال : نعم .

قال : فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة .

فقال : ادعها ، فإن قالت فهو كما قالت .

فلما جاءت قال لها موسى : أقسمت عليك بالذى أنزل التوراة إلا صدقت . أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء ؟

قالت : لا ، فقد كذبوا ولكن جعلوا لى جُعلًا على أن أقذفك .

فسجد ودعا عليهم فأوحى اللَّه إليه : « مر الأرض بما شئت تطعك » .

قال : يا أرض خذيهم .

فلم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره ، ولما حلَّ به ما حل من الخسف وذهاب الأموال ، وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ، ندم من كان تمنى مثل ما أُوتى ، وشكروا اللَّه تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حُسن التدبير المخزون ؛ ولهذا قالوا : ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص : ٨٢] .

وكان قد وعظه النصحاء من قومه قائلين : لا تبطر بما أعطيت ، ولتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب اللَّه فى الدار الآخرة ، وتناول من الدنيا بمالك ما أحل اللَّه لك ، وأحسن إلى خلق اللَّه كما أحسن اللَّه - خالقهم وبارئهم - إليك ؛ وذلك قول اللَّه سبحانه وتعالى :

﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [القصص: ٧٧].

فأجابهم قائلًا: أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم، فإن اللَّه أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه، وأنى أهل له، ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده لما أعطانى ما أعطانى.

فردَّ اللَّه تعالى عليه بأنه قد أهلك من الأمم الماضية بذنوبهم وخطاياهم من هو أشدُّ منه قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، فلو كان ما قال صحيحًا لم يعاقب اللَّه أحدًا ممن سبق، واقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ [القصص: ٧٨].

وكان عدو اللَّه قد خرج على قومه فى تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا، تمنّوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح، والزهاد الألباء حذروهم، وأرشدوهم إلى أن ما عند اللَّه فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجلّ وأعلى، لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، وذلك قول اللَّه تعالى: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد قص اللَّه تعالى تلك القصة؛ حتى يعلم الناس أن أحدًا لن يفلت من عذاب اللَّه تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وأنه: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]، وأن اللَّهَ غالبٌ على أمره، ولن تغنى عنهم أموالهم ولا قوتهم من اللَّه شيئًا.

وحتى يعلم كل ظالم أنه ليس له من اللَّه ناصر: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان، وهى دار القرار، وهى الدار التى يُغبط من أُعطيها، ويُعزَّى من حُرمها، وأنها معدة للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادًا، والعاقبة للمتقين.

* * *

ذكر قصة نبى الله يوشع عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

لقد اجتمع الملأ من بنى إسرائيل وقالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكًا نقاتل معه فى سبيل الله ، وتطلق كلمة الملأ على أشراف القوم ووجوههم ، الذين يملكون إدارة الجماعة الكبيرة ولا يزاحمهم فى ذلك أحد .

إن أشراف هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من بعد موسى قد اجتمعوا للتشاور ، ثم ذهبوا إلى نبيهم يسألونه أن يعين لهم ملكًا ؛ يقاتلون تحت إمْرته .

هؤلاء القوم من بنى إسرائيل المجتمعين عند نبيهم ، جاءوا بالعلة الموجبة للقتال ، لقد أُخرجوا من ديارهم ، أى بلغ بهم الهوان أنه لم تعد لهم ديار ، وبلغ بهم الهوان أن تركوا أبنائهم أسرى أو عبيدًا ، لقد أخرجوا من أبنائهم وديارهم فماذا قال نبيهم لهم : ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ إن نبيهم يعرفهم ؛ لذلك يحذرهم ويخشى إن كتب الله عليهم القتال ، قد يتولى الكثير منهم ولا يقاتلون ، فماذا كان جوابهم : ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ . ولنا أن نلحظ الدقة فى اللفظ القرآنى ؛ لنتعلم سعة عطاء الله ، لقد قالوا : ﴿نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ . وهم خلطوا هذا القتال فى سبيل الله بالأسباب الموجبة للقتال ، وهى أنهم أُخرجوا من ديارهم وتركوا أبناءهم ، وهم إما أسرى فى أيدى الذين أخرجوهم ، وإما عبيد .

إذن .. فالمسئولية الكاملة تقع على هؤلاء القوم الذين أُخرجوا من الديار وتركوا الأبناء ، وعندما طلبوا الإذن من نبيهم بالقتال وأن يولى عليهم ملكًا يقاتلون تحت رايته ، تشكك النبى فى قدرتهم ، ومع ذلك أصروا فكُتب القتالُ عليهم .

ولنا أن نلحظ أن الحق سبحانه لم يقل : من الذى طلب القتال . ذلك أنهم قد سألوه القتال فأصبحوا شركاء فى التعاقد حين كُتب عليهم القتال ، لكن ماذا حدث ؟ ﴿تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا

﴿مِّنْهُمْ﴾ . أى أعرضوا عن القتال إلا نفرًا قليلًا منهم ثبتوا على الأمر الذى طلبوه ، وهو القتال فى سبيل الله .

ولماذا أراد الحق أن يورد لنا الأمر بهذه الدقة ؟ لماذا قال عن هؤلاء القوم إنهم ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ؟ لقد قص الله علينا خبر هذه القلة ؛ لنعرف قيمة الثبات على التعاقد الإيمانى ، إنه الاستثناء المطلوب للتنبيه ؛ وذلك حتى يعلم المؤمن أنه حينما تنحسر الجمهرة عنه ، فلا يقل : إنى قليل .. لماذا ؟ لأن المؤمن حينما يدخل قتالًا فى سبيل الله ، فإن له رصيدًا ضخمًا من القوة متمثلًا فى إيمانه بالإله القوى القادر ، وذلك عكس عدوه الذى لا يملك أى رصيد من هذا الإيمان ، فحتى هذا العدو لو كان كثير العدة والعدد فالمؤمن قادر بإيمانه بربه أن يهزمه بإذن الله .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٦] . يعنى أن التولى والإعراض ظلم للنفس ، ومعنى الظلم أنك تنقل حقًّا لغير صاحبه ، أنهم أُخرجوا من ديارهم وظلوا على هذه الحال ، فظلموا أنفسهم ، وظلموا أولادهم ، وظلموا مجتمعهم ، وظلموا القضية العقدية .

لقد طلب هؤلاء القوم - من بنى إسرائيل - من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا ، وكان يكفى النبى أن يختار لهم الملك ؛ ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم كعادتهم فى التلكؤ واللجاجة يريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين .. كيف ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .
إنهم يريدون الوجاهة والحسب والأصل والمال ، إنهم يسألون النبى المرسل إليهم أن يسأل الله أن يبعث لهم ملكًا ، فيقول لهم نبيهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ، إن النبى المرسل يريد أن يطمئنهم إلى أن أمر اختيار هذا الملك ليس مصدره بشريته هو ، إنما أمر الاختيار جاء من عند الله ، لكنهم يدخلون فى اللجاجة والتلكؤ ؛ فيقولون : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لقد دخلوا فى مثل هذه اللجاجة ؛ **لأنهم قسموا أنفسهم إلى قسمين :**

القسم الأول : هو نسل يأخذ النبوة ، وهذا القسم الذى يأتى من نسل بنيامين .

والقسم الآخر : يأخذ الملوكية ، وهو الذى يأتى من نسل لاوى بن يعقوب .

لما عرفوا أن اللّه قد بعث طالوت ملكًا عليهم ، بدءوا فى النظر فى صحيفة نسبه ، فلم يجدوه من نسل الملك أو نسل الأنبياء ، فبدءوا فى اللجاجة والتلكؤ ومحاولة رد الأمر على الآمر ، إذن فقد أخذوا المسألة على أن طالوت ملك جاء ليسطر عليهم ، رغم أن النبى أخبرهم أن طالوت جاء ليعمل لصالحهم ، وليقودهم فى الحرب والمعركة ، وهكذا يصبح اختيار طالوت أمرًا يُحسب لهم وليس عليهم .

وهذا يدل على أن طالوت لم يكن من الشخصيات المشار إليها بالثراء والجاه ، ونحن نعرف أن من عادة أى جماعة من الجماعات حين تفكر فى اختيار من يقودها ، فإن العين تختار شخصية من الشخصيات اللامعة فى الجماعة ثراءًا وجاهًا ، وهذا الاعتراف من هؤلاء القوم ، إنما يدلنا على أن طالوت كان من خيار القوم ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا من هذا السياق القرآنى كيف نختار الإنسان المناسب للمكان المناسب ، إن الناس حينما يريدون اختيار إنسان ليقودهم من حال إلى حال ، فعليهم أن يختاروا الشخص المناسب للمهمة لا أن يختاروا الرجل المناسب لهواهم ؛ لذلك نجد هؤلاء القوم قد اعترضوا على اختيار طالوت ملكًا لهم ؛ لأنهم طلبوا الملك غطرسة وكبرياء ، بينما طالوت وإن كان غير مشهور فى الناس ، فالذى بعثه ملكًا هو الله ، وهو أدرى بمن يناسب الموقف ، وهذا يدلنا على أن اللّه يعلمنا أنه حين نريد الاختيار لرجل فى مهمة ، فإياك أن يغريك حسَبَ الرجل أو نسبه أو جاهه ، ولكن اختر الرجل على قدر المهمة والرجل اللائق بها ، وكأن الحق يحسم هنا قضية أهل الثقة وأهل الخبرة .

إن الحق يعلمنا أن أهل الخبرة هم الذين يجب أن يكونوا أهل الثقة ؛ لأن أهل الثقة قد تنقصهم الخبرة ، فلا يصلون للمهمة بل يفسدونها ، والقضية التى نحن بصددها الآن تثير سؤالًا : ألستم أيها القوم تطلبون مَلِكًا لكم ؛ حتى يسوس أموركم أو يقودكم فى الحرب إلى النصر ؟ **إن هذه المهمة تحتاج صفتين :**

الصفة الأولى : أن يكون الرجل جسيمًا .

والصفة الثانية : أن يكون الرجل عليمًا . والذى اختاره اللّه ملكًا لهؤلاء القوم ، إنما كان

يتمتع بالصفتين فى آن واحد ، ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ . ولنا أن نتأمل دقة القرآن الكريم ، تلك الدقة المتناهية فى أداء الكلمة للمعنى وفى تصوير الموقف الذى أراد الحق إبلاغه للخلق ، لقد قال النبى المرسل لهؤلاء القوم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ، وكلمة ﴿بَعَثَ﴾ لا تجرح مشاعر هؤلاء القوم ، ولا تفيد أن طالوت أفضل من أى واحد منهم ، لكن بعد أن ردوا بلجاج وغطرسة وقالوا : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ . كان الرد : ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ .

إذن .. جاء القول الحكيم ليحدد مكانة طالوت بينهم ، لقد اصطفاه الله ، واصطفاء اللّٰه لطالوت يعنى أنه لا يوجد بين هؤلاء القوم من يماثله للمهمة التى يجب أن يقوم بها .

❋ ❋ ❋

الآية الربانية لاختيار طالوت

قال اللّٰه تعالى : ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٨] . الحق يأتى بالمعجزة التى تؤكد اختيار اللّٰه لطالوت ملكًا . ولقد كان من المفترض أن يستقبل هؤلاء القوم نبأ اختيار طالوت بأدب ودون لجاج ؛ لأن الذى يحمل لهم نبأ الاختيار هو نبيهم الذى وثقوا به ولجئوا إليه ، لكنهم لم يستقبلوا الأمر بأدب . ورغم ذلك فأدب النبوة يرد على لجاجتهم بآية مرسلة من الحق سبحانه وتعالى ، إنها الآية الربانية التى تدل على صلاحية طالوت للمُلك باختيار من الله ، وتلك الآية هى : ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ . ونأخذ من هذا **القول الحكيم ثلاث مسائل :**

المسألة الأولى : إن التابوت كان غائبًا مفقودًا .

المسألة الثانية : إن التابوت كان أمره معروفًا لكل هؤلاء القوم .

المسألة الثالثة : إنهم كانوا فى شغف للحصول على هذا التابوت .

فما هو التابوت ؟ إنه التابوت الذى جاء فيه قول الرحمن : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه : ٣٨- ٣٩] .

فالتابوت الذى جاء آية لملك طالوت ، هو التابوت الذى أوحى اللّٰه إلى أم موسى أن تضع فيه ابنها وتلقيه فى اليم ؛ ليلقيه اليم إلى الساحل ، وهو الصندوق الذى كانت به التوراة . وما الذى كان فى هذا التابوت ؟ يقول تعالى : ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ . وكيف يأتى ؟ يقول تعالى : ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ .

إذن .. ما دام التابوت يحمل تلك الآثار ، وفيه السكينة لهؤلاء القوم بما يحمله من آثار آل موسى وآل هارون ، وما دام هذا التابوت يأتى وتحمله الملائكة ، فلابد أن أمره جليل وله مساس بأمور العقيدة ، إذن فهذا التابوت إنما جاء ذكره هنا ؛ ليدلنا على أنه كان مفقودًا من بنى إسرائيل ، وكان افتقاده إما بسبب عدو قد غلبهم ، وحاول اقتناص المقدسات التى كانت فى بلادهم ، وإما أن هذا التابوت قد فُقد لتخاذلهم فى أمر العناية به .

وصورة مجئ التابوت تُحرك المواجيد الدينية ، وعندما يأتى التابوت محمولًا بواسطة الملائكة ، نعرف أن التابوت قد جاء بصورة تنخلع لها القلوب ، والتابوت يحمل آثارًا مما ترك آل موسى وآل هارون ، فقد يكون بالتابوت بعض من صحف التوراة ، وقد يكون بالتابوت جزء من عصا موسى عليه السلام .

وتقبل هؤلاء القوم طالوت ملكًا لهم ، وبدأ يمارس المهمة التى جاء من أجلها . لقد جاء لينظم القوم ليخوضوا حربًا ضد عدو أخرجهم من الديار وأسر الأبناء ؛ لذلك كان لابد أن يَفْصِل طالوت الجنود عن القوم ، وذلك قول اللّٰه تعالى : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ ماذا يعنى بالفصل ؟ إنه يعنى عزل شىء عن شىء آخر .

والمقصود بقول اللّٰه تعالى : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ هو خروج طالوت بالمجموعة المقاتلة التى فصلها عن بقية القوم ، والموجودة بمكان إقامة الجيش .

بعد أن فصل طالوت بالجند ، بدأ أول مباشرة لمهمته ، فقرر ألا يدخل المعركة بدون تجربة القوم الذين اعترضوا على أمر تعيينه ملكًا ، إنه يريد أن يدخل بجند مستعدين للقتال الفعلى .

وكأن الحق قد وضع لطالوت منهج الاختبار .

ذكر الله تعالى أن طالوت قال لجنوده : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

والابتلاء الذى أراده الله للجنود – التى تقاتل تحت راية طالوت الملك – كان يتلخص فى المرور على نهر ، من يشرب من هذا النهر لا يكون من جيش طالوت ، ومن لا يشرب منه سيكون من الجيش المقاتل ، وقد أذن اللهُ لهم أن يشرب الجندى بمقدار غُرفة من يد ، ولنا أن نلحظ الدقة في تصوير هذا الزمن ، إنه يوحي في النفس معاني كثيرة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ إنه قول يوحى بمعانٍ جمة وعميقة ، إنهم سوف يمرون بعد عطش على نهر ، والمأمون على القتال هو من يمر على النهر وهو عطشان ؛ لأنه يلتزم أمر الله بعدم الشرب من النهر ، إنه إنسان يؤثر مطلوب الله على مطلوب بدنه ، لذلك هو مؤتمن على القتال ، لم يقس الله فى الابتلاء ، بل أَذن سبحانه بما يهدئ الإحساس بالعطش ، وهو أن يشرب الإنسان ملء غُرفة من يده .

لقد سمح الله بقليل من الماء على قدر الضرورة ، فلماذا كان الابتلاء هكذا ، وما صلة ذلك بالعملية الحربية المقبلين عليها ؟ إننا نعرف أن المقاتل أثناء العملية قد ينفد منه الزاد ، وهو عرضة لأنه يحاصر بواسطة العدو ، فإن امتلك المقاتل الشيء الضرورى الذى يسمح له بالحياة ، واستطاع أن ينتصر على شهوته فهو قادر على الانتصار ، وهو صالح للمهمة الحربية .

إذن .. فالاختبار الذى وضعه الله كان مناسبًا للمهمة التى هم مقبلون عليها ؛ لذلك نجد منهم من شرب من الماء ونسى المهمة ، ومنهم من خضع لأمر الله ولم يشرب إلا بالقدر الذى سَمح به ، ومنهم من لم يشرب .

لقد مروا على أكثر من نقطة اختبار :

أولاً : بأن كتب الله عليهم القتال فتولوا إلا قليلًا منهم .

ثانيًا : بمسألة تعيين طالوت ملكًا عليهم ، جادلوا واعترضوا حتى جاءهم التابوت دليلًا

على أن طالوت قد تم اصطفاؤه ملكًا لهم بأمر من الله .

ثالثًا : باختبار المرور على نهر وهم عطشى ، فلم يثبت إلا القليل منهم ، وهم الصالحون للقتال .

إن التصفية المتكررة تتيح للمؤمن أن يعرف كيفية ميثاق الابتلاء ؛ ليكون مستعدًا للجهاد في سبيل الله ، فلا يجاهد في سبيل الله إلا المأمون على هذا الجهاد .

وتحين التصفية الأخيرة ؛ لقد جاوز طالوت النهر والذين آمنوا معه ويظهر لهؤلاء موقف جديد ، لقد نجحوا في أكثر من اختبار ، لكن بعضهم عند الاختبار الأخير قال : ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة : ٢٤٩] وقال البعض الآخر : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

وهكذا نرى اختلاف الشعور عند الفريقين لحظة رؤية جيش الخصم وقوته ، إن إدراك ووجدان ونزوع القوم الذين خافوا عند رؤية الجيش المقاتل ، يختلف عن إدراك ووجدان ونزوع القوم الذين لم يهابوا الجيش الخصم ، رغم أنهم رأوه ، لقد اتحدت الرؤية واختلف النزوع باختلاف المواجيد .

وقد يقول قائل : ولماذا قال الحق هنا : ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ؟ نقول : لأن المدد يأتي على قدر الصبر .

يقول الحق سبحانه : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٥٠] . لقد طلبت القلة المؤمنة المقاتلة أن يُفرغ عليهم ربهم وخالقهم : الصبرَ ، وأن يثبت أقدامهم في القتال ؛ وغاية الصبر وتثبيت الأقدام أن يتحقق النصر على القوم الكافرين ، وهذا بعض عطاء الله لمن يقاتل في سبيله : ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة : ٢٥١] . وتحقق أمر الله ، وانتصر المؤمنون .

* * *

ذكر قصة نبي الله إلياس عليه السلام

[قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون فى سورة « الصافات » : ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات : ١٢٣ - ١٣٢] .

قال علماء النسب هو : إلياس النشبى ، ويقال : ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار ابن هارون . وقيل : إلياس بن العازر بن هارون بن عمران .

وقالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه : « بعلا » ، وقيل : كانت امرأة اسمها : « بعل » . فالله أعلم .

والأول أصح ولهذا قال لهم : ﴿أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله . فيقال : إنه هرب منهم واختفى عنهم . قال أبو يعقوب الأذرعى ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن إلياس اختفى من ملِكِ قومه فى الغار الذى تحت الدم عشر سنين ، حتى أهلك الله الملك وولى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام ، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم ، فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقى ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هاربًا من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة - أو قال : أربعين ليلة - تأتيه الغربان برزقه .

وقال مكحول عن كعب : أربعة أنبياء أحياء : اثنان فى الأرض ؛ إلياس والخضر ، واثنان فى السماء ، إدريس وعيسى عليهم السلام .

وقوله تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات : ١٢٧] أى للعذاب ، إما فى الدنيا

والآخرة ، أو فى الآخرة . والأول أظهر ما ذكره المفسرون والمؤرخون .

وقوله : ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات : ١٢٨] أى إلا من آمن منهم .

وقوله : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ [الصافات : ١٢٩] أى : أبقينا بعده ذكرًا حسنًا له فى العالمين ، فلا يذكر إلا بخير ، ولهذا قال : ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ أى : سلام على إلياس ، والعرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين وإسرائيل وإسرائين ، وإلياس وإلياسين وقد قرئ : (سلام على آل ياسين) ، أى على آل محمد ، وقرأ ابن مسعود وغيره : (سلام على إدريسين) ، ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : إلياس هو إدريس . وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم ، وحكاه قتادة ومحمد ابن إسحاق والصحيح أنه غيره][1] .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » لابن كثير (٢١٥ - ٦١٥) .

ذكر قصة نبى الله حزقيل عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة : ٢٤٣] إنهم بعض من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، وكانوا ألوفًا فهربوا وخافوا من الموت ، فأماتهم الله عدة أيام ثم أحياهم .

وقال بعض المفسرين : إنهم بعض من بنى إسرائيل ، جاءهم نبأ وباء شديد الفتك بالناس ، فهربوا وتركوا ديارهم حذرَ الموت ، أو خوفًا من الموت ، فأماتهم الله ثم أحياهم .. لماذا ؟ لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحدًا لا يفر من قدَرِ الله إلا لقدَر الله ؛ لذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد للناس أن تهرب من الطاعون ، قالوا له : أنفِرُّ من قدر الله ؟ قال عمر : إنما نحن نفر من قدر الله إلى قدر الله . إن ذلك يجعل الإنسان فى تسليم مطلق بملء جوارحه لله ، صحيح أن على الإنسان أن يحتاط ، ولكن القدر الذى يريده الله سوف ينفذ ، والمؤمن يأخذ بالأسباب ويسلِّم أمره لله ، وفى هذه الآية الكريمة : الحق أراد أن يوضح لنا أن كثرتهم وهم ألوف إنما هى جمهرة ، لكنهم غثاء كغثاء السيل ، فلم يكن بينهم ناصح لله ، ولا آمرٌ بمعروف وناهٍ عن منكر ، لقد اجتمعوا على الضلال ؛ لذلك ساروا إلى الضلال ، ولقد ذكر الحق أنهم كانوا ألوفًا ؛ ليبين لنا أنهم كثرة ، والحق جل جلاله حينما يلفت فى بعض الأشياء إلى القيود إنما يريد بها مغزًى ، ويذكرها لسبب .

ونريد الآن أن نتعرف على موقف لغوى دقيق عند قول الحق فى كثير من الأشياء التى يريد بها إبلاغنا بعلم ما ، يقول سبحانه وتعالى مخاطبًا رسوله ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ، وعندما يقول إنسان لإنسان : « ألم تر ؟ » فمعنى ذلك أنه يسأله ، هل شاهد هذا الأمر بنفسه أم لا ؟ لكن عندما يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ . فالمقصود بها سماع لخبر قادم من عند الله ، وأنه ساعة يخبرك الله بشىء سابق عن وجودك ، أو بشىء متأخر عن وجودك فاستقبله استقبالك لما رأيته بالفعل . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الخلق وخلق لهم الحواس .

إن الحق سبحانه وتعالى لم يقل : ألم تسمع . أو : ألم نخبرك . لأن الحق حينما يخبرنا

بشيء سابق عن وجودنا ، أو بشيء متأخر عن وجودنا ، فعلينا - نحن المؤمنين - أن نستقبل ما يخبرنا به الله سبحانه استقبال ما رأيناه بالفعل ، وذلك كقوله سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل : ١] . فالرسول ﷺ لم ير ما حدث لأصحاب الفيل ؛ لأنه ﷺ لم يكن ولد بعد ، ولكن ما دام القائل هو الله ، فعلى المؤمن أن يأخذ قوله سبحانه مصدقًا مسلمًا ، به وكأنه رؤية عين .

إذن .. قوله سبحانه وتعالى : ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ . علة الخروج من الديار ؛ إنما كانت مخافة أن يموتوا ، ولم تتعرض الآية الكريمة إلى السبب الذى جعلهم يخافون الموت ، وقد تعرض المفسرون لهذه الآية ، وحاولوا أن يجدوا الأسباب التى دفعت هؤلاء القوم إلى الخروج من الديار هربًا من الموت ، وتكلم المفسرون كلامًا طويلًا منقولًا من الإسرائيليات .. ولم يلتفت هؤلاء المفسرون إلى أن القرآن الكريم عالج هذا الأمر من الزاوية التى يريد الحق أن يبلغها إلى أمة الإسلام لأهميتها ، وهى أن الخروج كان بسبب الخوف من الموت ، هذه هى الزاوية التى أراد الحق أن يبرزها علاجًا لهذه القضية ، ولم يعط القرآن الكريم للخارجين من الديار ألوفًا إلا سببًا واحدًا وهو الحذر من الموت ، ولم يحدد القرآن فى أى زمان كان هذا الخروج لعدم أهميته ؟ ولا على يد من كان هذا الخروج ؟ ولم يحدد القرآن من هم الأشخاص الذين خرجوا ، وعدم تحديد الحق سبحانه وتعالى للزمان أو المكان إنما هو لهدف ، إن هذا التجاهل للزمان أو المكان إنما المقصود به أن تظل العِبرة والعظة بيِّنة ومحددة فى أنهم خرجوا من الديار ألوفًا حذر الموت ، فأماتهم الله ثم أحياهم ، ولو أراد إيضاح الزمان المخصوص والمكان المخصوص والأشخاص المحددة لأوضحه ؛ فالحق سبحانه حين يبهم فى قصة قرآنية الزمان والمكان والأشخاص ؛ إنما يريد عمومية الزمان وعمومية الأشخاص هى حياة فى كل زمان ، وحياة فى كل مكان ، وحياة مع كل شخْص .

ونستخلص من ذلك ومما تقدم أن محاولة بعض المفسرين للبحث عن زمان ومكان خروج الألوف المؤلفة من بنى إسرائيل من ديارهم حذرَ الموت لا يحقق هدفهم منه ، فهذا البحث رغم نُبْل مقصده إنما يتم بهدف إثراء القصة ، لكنه فى الواقع ينقلب إلى إضعاف القصة ؛ لأن الحق أراد أن يُبهم الأمر ؛ ليبين أن الخروج حذر الموت لا يمنع الموت فى أى زمان أو مكان . لقد

خرجتم حذر الموت فما الذى حدث ؟ أماتهم الله ؛ كما فى قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ . لماذا ؟ ليبين الحق للناس أن أمر الحياة والموت بيده وحده سبحانه ، سواء كان ذلك الخروج للحذر من الموت ، أو خوفًا من وباءٍ ، أو هربًا من لقاء الأعداء . ولو كانت القصة على لون واحد محدد من الحذر كالخوف من العدو ، فهل كانت تعطى اللون الآخر من الحذر وهو الخوف من الطاعون ؟ لا .

لذلك فحين يصدر الأمر من الحق سبحانه بقوله : ﴿مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ ، فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم أو أمر عودتهم إلى الحياة ، لكنه أمر قهرى ؛ يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة فى قوله : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ . ويعودون للحياة بتمام طلاقة قدرته المتمثلة فى : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ . فليس لهم أمر فى مسألة الموت أو العودة للحياة ، إنه أمرٌ قهرى .

فعندما قال الحق سبحانه لهم : ﴿مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ . فهذا أمر قهرى بالموت وبعودتهم إلى الحياة .. أليس الموت هو ما خافوه وفروا منه ، واحتاطوا بالهرب منه ؟ ولكن لا أحد يقدر على أن يحتاط من قدر الله . وقد يقول قائل : لماذا لم يتركهم اللّٰه ليموتوا إلى أن يأتى البعث يوم القيامة ليحاسبوا ؟ نقول لمثل هذا القائل : لقد أراد الحق بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلةً أمام أعين الخلق ومحفوظة فى أكرم كتاب حفظه اللّٰه منهجًا للناس ، وهو القرآن الكريم ، إن الحق أراد بالأمر عظة واعتبارًا وتجربة ، يموتون بأمر ويعودون إلى الحياة بأمر آخر ، ثم يعيشون إلى الحياة المقدرة لهم ويموتون بعد ذلك حتف أنفهم ، ولتظل العبرة ماثلة أمام كل مؤمن حقًّا ، فلا يخاف أحد الموت فى سبيل الله .

لقد أراد اللّٰه بهذه التجربة أن يعلم المجاهدون فى سبيله أن القتال لا يقدم أجلًا ، ولا يؤخر أجلًا ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة .

وقوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر : ٦١] إن الفضل أن تتلقى عطاء يزيد على حاجتك ، والحق سبحانه وتعالى لا يعطى الناس فقط على قدر حاجاتهم ، إنما يعطيهم ما هو أكثر من حاجاتهم ، بمعنى لو مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم بوباء أو بعدو ، لكان هذا الموت فضلًا من عند الله ؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء وهذا فضل من الله ، ولو ماتوا فى لقاء عدو وحاربوا فى سبيل اللّٰه لنالوا الشهادة أيضًا ، وذلك فضل من الله .

ذكر قصة نبى الله اليسع عليه السلام

[ذكره الله تعالى من الأنبياء في قوله : ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٨٦] .

وقال تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص : ٤٨] .

ذكر ابن إسحاق عن الحسن قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكًا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ، ثم خلف فيهم الخلوف ، وعظمت فيهم الأحداث والخطايا ، وكثر الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغٍ ، ويقال : إنه الذى تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة ، فسمى : ذا الكفل .

قال محمد بن إسحاق : هو اليسع بن أخطوب . وقال ابن عساكر : هو الأسباط ابن عدى ابن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال : هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام ، ويقال : كان مستخفيًا معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع إلياس ، خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده][1]

* * *

---

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » لابن كثير (ص ٥٢١) .

ذكر قصة نبى الله شمويل عليه السلام

[هو شمويل ويقال : أشمويل بن بالى بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون . وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا ، ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا .. فالله أعلم .

حكى السدى بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم : أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا وسبوا من أبنائهم جمعًا كثيرًا ، وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى ، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولدًا ذكرًا ، فولدت غلامًا فسمته أشمويل ومعناه بالعبرانية إسماعيل أى سمع الله دعائى .

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته فكان ، فلما بلغ أشده ، بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجة ، فانتبه مذعورًا ، فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتنى ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم نم . فنام .

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك فكان من أمره معهم ما قص الله فى كتابه .

قال أكثر المفسرين : كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل .

وقيل : شمعون . وقيل : هما واحد . وقيل : يوشع . وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر ابن جرير فى « تاريخه » : أن بين موت يوشع وبعثه شمويل أربعمائة سنة وستين سنة . فالله أعلم][1] .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » لابن كثير (٣٢٥ - ٤٢٥) .

ذكر قصة نبى الله داود عليه السلام

لقد كان داود أخًا لعشرة من الأخوة هو أصغرهم . وقال النبى المرسل إليهم : إن الذى سوف يدخل المعركة لابد أن يكون درع موسى عليه السلام على مقاسه ، وقد حاول كل واحد من إخوته أن يرتدى درع موسى عليه السلام ، فلم يناسب الدرع إلا داود ، ودخل داود المعركة ضد جالوت بهذه الدرع ، فقتل داودُ جالوتَ ، لقد كانت هذه هى بداية فتح الحق سبحانه على داود ، وآتاه الملك والحكمة ، لقد أحب داود صناعة الدروع ؛ لأنها كانت بداية فتح ، فقال الحق فى عطائه لداود عليه السلام : ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ : ١٠، ١١] ، وهب اللَّه داود عليه السلام فضل الحكمة والكتاب ، وأمر الجبال بأن تردد التسبيح معه عليه السلام ، وسخَّر له الطير ، ووهبه اللَّه القدرة على تشكيل الحديد كيفما شاء ، يصنع منها دروعًا ذات نسيج معين ، تتيح لمن يرتديها الحماية وهو يقاتل ، وهى صنعة علَّمه اللَّه تعالى إياها .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٩] . والتسخير هو قهر المسخَّر على فعل لا يستطيع أن ينفك عنه ، فهو مقهور على هذا الشيء وليس مختارًا فيه .

وإذا كانت الطيور لها أصوات يمكن أن تسبح بها ، فكيف تسبح الجمادات كالجبال وغيرها ؟ العلماء حينما يستقبلون هذه الآية يأخذونها بظواهر التكليف ، وليس بعقل ولب الأشياء ، فقالوا : هو لا ير الجبال والجمادات تتكلم ، بينما يرى الطير لها أصوات تعبر بها عن مراداتها ، ولكن لا يسمعها تتكلم .

ونحن نقول : وما هو العجب فى ذلك ؟ إن العجب يزول حينما نُجرى مسحًا للكرة الأرضية فمثلًا أجناس البشر على اختلافهم فيهم أشياء تختلف فى السمات ، والأشكال ، والألوان ، حسب البيئات التى يعيشون فيها ، لكن الغرائز يشترك فيها الجميع .

كذلك يمكن للإنسان أن يتعلم – بإذن اللَّه – لغة الطير ، أو الحيوان ، بدليل أن اللَّه تعالى أخبرنا أنه علَّم سليمان منطق الطير ، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]. ومن الممكن أن يمن الله على أحد من خلقه ويعلمه منطق الجماد، فلماذا تستبعد ذلك ؟!

وكان الهدهدُ يتكلم مع سليمان ويفهم كلامه، ليس هذا فقط بل إن القرآن أخبرنا أن الهدهد كان يفهم قضية التوحيد وعبادة الله وحده؛ لذلك استغرب حينما رأى بلقيس وقومها يسجدون للشمس من دون الله.

بعض العلماء حينما سمعوا لقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾. قالوا: إن المقصود هنا ليس التسبيح الحقيقى، ولكنه تسبيح دلالة أى أنها بحالها تدل على الخالق، فكأنهم فهموا تسبيح هذه المخلوقات مع أن الله الذى خلقنا قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وهذا يفيد أن هذه الأشياء كلها تسبح لله، ولكن نحن لا نفهم لغتها التى تسبح بها.

إذن .. ربنا سبحانه وتعالى أعطى لداود مزية أن الجبال تسبِّح معه. ومع ذلك فالجبال لا تسبِّح مع داود وحده، ولكنها تسبِّح مع غيره أيضًا، ولكن الميزة أن داود كان تسبيحه يوافق تسبيحها.

ولذلك الناس يقولون: إن من معجزات النبى ﷺ أن الحصى سبح فى يده.

ونحن نقول لهم: هذه العبارة غير دقيقة؛ لأن الحصى يسبح حتى فى يد الكافر. فقولوا: إن رسول الله سَمِع تسبيح الحصى فى يده.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

تعليم الله لداود عليه السلام صنعة اللبوس، إن قلنا: بالوحى يصح، أو بالتجربة والخاطر يصح، وكل شىء فيه صنعة لابد فيه من عمل وحركة، فلا يؤخذ خامًا. ومعنى: ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾: اللبوس من مادة «لبس» ولكن هناك لباسًا ولبوسًا، اللباس نعمله لنستر به عورتنا، ونحفظ أنفسنا من الحر والبرد. لكن فى حالة الحرب التى يتعرض فيها الإنسان للإصابة فى أجزاء قاتلة من جسمه، اهتدى الناس إلى حماية مواقع الخطر فى أجسامهم، ومعروف أن رأس الإنسان وقلبه ما دام بعيدين عن الخطر، فإن حياته يمكن أن تستمر حتى لو تعرضت أجزاء

أخرى من جسمه للخطر؛ ولذلك فإن المحارب يحاول أن يحمى رأسه بِوَاقٍ للرأس يسمى بـ« الخوذة » . ويحمى منطقة الصدر والوجه باستخدام « الدرع الواقى » .

وهذا ما كان يصنعه داود عليه السلام ؛ دروع بحلقات تقى الجسم من الضربات ، فاللبوس أبلغ من اللباس ؛ لأن مهمته أبلغ من مهمة اللباس ؛ لأنه يقى الإنسان البأس ، والحرب ، وضربة العدو فى مَقاتِل ، ولذلك قال ربنا : ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ . ومعنى تحصنكم : أى تمنعكم وتحوطكم وتحفظكم . ومعنى : ﴿ مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ أى من الحرب مع عدوكم .

زَبُور داود عليه السلام

يقول تعالى : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣] ؛ هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر الوحى عامًا ، ولكنه حينما جاء على داود ذكر اسم كتابه الزبور ، ولم يأت فى هذه الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين ، مثال ذلك : نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، لماذا ؟ لأن ما جاء به داود فى الزبور أمر تُجمع عليه كل الشرائع ، وهو تمجيد اللّٰه والثناء عليه ، فلم يأت الزبور بأحكام . قد يقول قائل : إن عيسى أيضًا لم يأت بأحكام فى الإنجيل . ونقول لمثل هذا القائل : لا ، إن الإنجيل ملتحم بالتوراة ، فالإنجيل جاء بالوجدانيات الدينية ، والتوراة التى كانت موجودة قبله جاءت بالأحكام ؛ ولذلك فمن عجيب أمر اليهود والنصارى : أنهم رغم اختلافهم فى قمة الأمور وهى مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا أو يسموا الكتابين العهد القديم والعهد الجديد ، ويعتبرونه كتابًا واحدًا يسمونه الكتاب المقدس .

وقد يقول قائل : ما معنى الزبور ؟ تقول : المادة مأخوذة من زبر البئر ، فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء ، فإنهم يخافون أن ينهال التراب من جوانبه عليه فيطم البئر ؛ لذلك يصنعون لجدران البئر بطانة من الحجارة . ونحن فى الريف المصرى نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

إذن .. فكلمة زبر البئر تؤدى معنى كل عملية لإصلاح البئر ، ثم أخذ الناس هذه الكلمة

فى معانٍ مختلفة فسموا العقل زبرًا ؛ لأنه يعقل الأمور ، فإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البئر .. فكذلك العقل يحمى الإنسان من الشطط .

إذن .. فالعقل لم يخلقه اللّٰه ليتشتت الإنسان فى الأفكار ، ولكن ليضبط الإنسان حريته في إطار مسئوليته ليفكر ، إنه يعقل الغرائز عن الفِكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال .

* * *

ذكر قصة نبى الله سليمان عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل : ١٥] .

الله سبحانه وتعالى آتى داود وسليمان عليهما السلام العلمَ ، وهو منهج الدين ، وعلَّم سليمان منطِقَ الطير ، وألان لداود الحديد ، وآتى سليمان ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ، ورغم كل هذه النعم لم يذكر الله إلا النعمة التى يجب أن يفرح بها المؤمن وهى العلم .

وانظروا إلى داود وسليمان حينما حمدا الله على فضله عليهما بالعلم حيث قالا : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ أى أن هناك من الناس من هو أفضل منا ، وهذا تواضع الأنبياء والعلماء .

ثم يقول تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل : ١٦] . ومعنى كلمة : ﴿وَوَرِثَ﴾ أى بقيت النبوة فيه بعد أبيه ، و﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ هو لغة التفاهم بينها ؛ لأن لكل خلق من خلق الله لغة يتفاهم بها ؛ قال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام : ٣٨] . والعلماء يعكفون فى العصر الحاضر على معرفة لغات الحيوانات ، مثل : لغة النمل ، والنحل ، والسمك ، فهذه الحيوانات تتفاهم فيما بينها تفاهمًا غريزيًّا .

قوله تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ . الأنبياء لا تُورثَ ، ولكنه ورِثه فى النبوة والدعوة إلى الله وتطبيق منهجه .

ومعنى : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ ، أى أننا ببشريتنا لو لم يعلمنا الله لما فهمنا منطق الطير كسائر الناس ، فالناس لا يفهمون منطق الطير ، مع أن الطير له منطق . وعلماء اللغة يقولون : النطق خاص بالإنسان ، وأما فى الطير والحيوانات الأخرى فيسمونه صوتًا ، فهذا مواء القطة ، ونباح الكلب ، وخوار البقرة ، ونقيق الضفادع ، وزئير الأسد .. إلخ .

تسخير الريح لسليمان عليه السلام

قال تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ

شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨١] سليمان قد استفاد من تعليم الله لأبيه داود ، فأخذ هذه النعمة ، وزوده الله بنعم أخرى خاصة به ، فأعطى له الريح العاصفة تسير بأمره ، وينتقل بها من مكان إلى آخر فى الأرض - التى بارك الله فيها من صحراء فلسطين حتى العراق - فكانت الريح تمثل مواصلات داخلية له فى مملكته .

وفى آية أخرى قال سبحانه وتعالى : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص : ٣٦] هنا الريح رخاء ولينة ، وهناك الريح عاصفة ، فالريح العاصفة تعطى سرعة ، والريح اللينة تعطى راحة ، فكأنها جمعت بين السرعة فى ﴿عَاصِفَةً﴾ وبين اللين والنعومة فى ﴿رُخَآءً﴾ .

إذن .. جمع له الحق سبحانه وتعالى بين ما يعطيه السرعة إلى مراده ، وبين ما يجعلها مريحة ناعمة هادئة لا تؤثر فى جسمه ؛ لأن هذه السرعة قد تصيب الجسم بأضرار ، ومعنى : ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أى أنها أرض فيها زروع وثمار وخصب ونماء ، كما أن فيها النبوة وآثار النبوة ، فتسخير الريح لسليمان فى أنه يأمرها أن تهبَّ فى الاتجاه الذى يريده ، فهى لا تهب إلا على مراده هو وبأمره هو ، والريح مسخرة له كمواصلات داخلية وخارجية ، فالداخلية هى التى تحمله داخل مملكته ، أما الخارجية فتتمثل فى قول الله تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ : ١٢] . فهذه الريح للرحلات الخارجية خارج مملكته . وقوله تعالى : ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ٨١] ، أى عندنا العلم الكافى لترتيب الأمور وفق ما نشاء ، بل ونجعلها تخرق القانون وتخالف طبيعتها .. هذا بالنسبة لتسخير الريح .

وهناك تسخير الشياطين أيضًا ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٢] الغوص : هو النزول إلى أعماق البحر ، فالشياطين كانوا يغوصون فى البحر ؛ ليخرجوا له كنوز البحر ونفائسه ، ويعملون أعمالًا أخرى شاقة لا يستطيع الإنسان أن يؤديها .

ولذلك يقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٣] . وهذه الآية بينت قوله تعالى : ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأنبياء : ٨٢] فهذا

العمل فى صناعة المحاريب والتماثيل والجفان - أى القصعة التى يأكل الناس فيها - وكلمة : ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ تدل على أن هذه الجفان واسعة وكبيرة ، تتسع لإطعام عشرات الرجال ، والقدور الراسيات هي القدر الضخمة التى لا يمكن نقلها من مكانها ؛ لأنها قَدْرٌ ضخمة تكفى لإطعام المئات من الناس .

وقوله : ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ﴾ ؛ لأن الناس دائمًا يخافون من الشياطين ويصيبهم الرعب منها ؛ لذلك أخفى الله هذه الشياطين بحيث إن الناس لا يرونهم وهم يعملون هذه الأعمال ، ولا يحسون بهم ، وقد بيَّنَ القرآن الكريم أن الجن المُسخرين لسليمان ، كان هو وحده الذى يراهم ولا يراهم أحدٌ غيره ، ولذلك لم يشعروا بموته وهو يجلس متكئًا على عصاه ، وظلوا يعملون بجد ظانين أنه يراقبهم فلما أكل السوس العصا ، وانكسرت وسقط سليمان على الأرض ؛ علمت الجن بموته ، وهذا يدل على أن الجن لا يعلمون الغيب ، قال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ : ١٤] .

جنود سليمان عليه السلام

يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل : ١٧] ، ما داموا حُشروا فمعنى ذلك أنهم جُمعوا من كل مكان .

معنى قوله : ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى يمنعون ، ويروى : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . أى أن السلطان يمكنه أن يمنع الفساد بسلطته وقوته أكثر مما يمنعه الدعاة بخطبهم ومواعظهم ؛ لأنهم يستبطئون عذاب الله وعقابه لأنه آجل فى الآخرة ، ويخشون عقاب السلطان ؛ لأنه عاجل فى الدنيا ولذلك الأنبياء الملوك مثل داود وسليمان لم يعارضهم أحد ؛ لأن السلطان والقوة كان فى أيديهم .

إذن .. ﴿يُوزَعُونَ﴾ هنا أى يمنع من يذهب منهم للقاء سليمان حتى يأتى الباقون ، ويحضر المتخلفون فلا يفوز أحد بلقائه دون غيره حتى يحدث توازن بين الرعية . ولذلك كان من صفاته ﷺ أنه كان إذا جلس فى مجلس توزعت نظراته وعيناه على كل الجالسين ؛ حتى لا يعلم أحد أنه ينظر لأحد أكثر منه ، فلا يتميز أحد على أحد ، حتى فى نظرة النبى ﷺ ، كما

كان لا يُقرِّب منه إلا أهلَ الفضل ، الذين يعلم أن تقربه لهم لا يعطيهم بسط سلطة على الناس .

فكلمة ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى يمنعون ، فيمتنع السابق أن يسبق حتى يأتى اللاحق ؛ ليكونوا سواسية فى الدخول على سليمان عليه السلام .

وفى آية أخرى يقول سليمان عليه السلام : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل : ١٩] .

فهذا معنى ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أى أعِنِّى على شكر نعمتك ، ولما كان ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ معناها : امنعنى ، فمعنى الآية إذن يكون : رب امنعنى عن الغفلة عن نعمتك لأظل شاكرًا لك .

ما الذى حدث فى وادى النمل ؟

قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل : ١٨] .

قول اللَّه تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ ؛ يدل على أنهم جاءوا لهذا الوادى من أعلى الجبل ، وهذا ما تفيده كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ .

والمعنى أنه لما مر سليمان بالوادى سمع تحذير النملة لقومها بأن يدخلوا مساكنهم ؛ خشية أن يحطمهم سليمان وجنوده دون أن يشعروا بهم ، وهذا يفيد أن هناك نملة كانت موكلة بمراقبة حركة المرور من وإلى وادى النمل وهذه مهمتها ؛ لأن النمل أمة منظمة وكل فرد له مهمة .

وهذه المخلوقات أمم مثلنا لها نظام حياة ، ولغة ، ومعيشة ، وتخطيط . إلخ ، وصدق الحق سبحانه إذ يقول : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام : ٣٨] .

الحق سبحانه سمى لغة النملة قولًا ؛ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ؛ النملة التى قالت وحذرت النمل ، أين رأت سليمان وجنوده ومتى اكتشفتهم ؟ ! لا بد أنها رأته قبل أن يأتى إلى وادى النمل ؛ حتى تستطيع أن تحذرهم وتنبههم قبل وصوله إليهم ؛ حتى لا يحطمهم هو وجنوده دون أن يشعر بهم لضآلة أجسامهم .

وقول اللَّه تعالى : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]. يدل على أنه سمعها، فالنملة رأت قبل أن يوجد المرئى، وسليمان سمع قبل أن يصل إلى وادى النمل؛ سليمان عليه السلام تبسم ضاحكًا، أى بدأ بالبسمة التى قد تصل إلى الضحك، وشعر بفضل الله الذى أنعم عليه هذه النعمة، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]؛ أى يا رب لا تجعلنى أنسى فضلك علىَّ؛ حتى أظل شاكرًا حامدًا لك؛ لأن هذا نعمة فوق ما أنعمت به على عامة الخلق، ونعمة فوق ما أنعمت به على من سبقنى من الأنبياء.

سليمان سمع قول النملة قبل أن يصل إلى وادى النمل، فكيف حدث ذلك؟ بعض العلماء يقولون: إن الريح نقلت له الصوت. ونحن نقول: إن هذا تفسير ميكانيكى، والمسألة ليست ميكانيكية، ولكنها عمل رب قادر على كل شىء؛ النملة لما قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾. هذا يفيد أن لهم مجال معيشة يبحثون فيه عن رزقهم، ولهم مساكن يأوون إليها ويريحون فيها بعد جمع قوتهم - من فضلات الحلوى والطعام التى تقع على الأرض من الإنسان - فهذا المكان الذى فيه رزقهم يتجمع فيه النمل.

ومعنى ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾: الحطم هو الكسر؛ ولذلك يقول ربنا عز وجل: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: ٤، ٥].

فسليمان عليه السلام ضحك بسبب ثلاثة أشياء:

أولًا: لأنه سمعها عن بعد، والنملة عرفت أنه سليمان قبل أن تراه.

ثانيًا: لعدالة حكمها؛ لأنها قالت لقومها: إن سليمان ليس متجبرًا حتى يحطمكم هو وجنوده، ولكنهم لن يروكم لدقة أجسامكم.

ثالثًا: لأنها شهدت بحق.

فهذه النملة رأت عن بُعد، ونطقت بحق، وحكمت بعدل، وعلى ذلك فأى إنسان يرى نعمة من نعم الله تطرأ عليه، يجب عليه أولًا أن يحمد الله عليها.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ فكأن الفضل والرحمة من الله هما اللذان يفرح بهما الإنسان؛ لأنهما اللذان سيدخلانه فى عباد الله الصالحين؛ ولذلك قال

رسول الله ﷺ : « لن يُدخِل أحدًا منكم عملُه الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضلٍ ورحمة » . وذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس : ٥٨] ، فإياك أن تغتر أو تفرح بعملك ولكن افرح بفضل الله وارج رحمته .

لمحة عن هدهد سليمان عليه السلام

يقول الله تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل : ٢٠] ؛ مادة فقد ، الفاء ، والقاف ، والدال ؛ إما أن تكون : فقد بمعنى ضاع ، فتقول : فقدت الشيء ؛ أى : ضاع منى ، وإما تفقدته ، فمعناه : أنه لم يضِع ولكنك تبحث عنه فى مظانِّه ، فالتفقد هو : بحث عن شيء فى الأماكن التى تتوقعه فيها .

وقول الله تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ . يدل على أن الرئيس ، أو المهيمن على شيء لابد له من المتابعة ، فساعة أن يجلس فى مجلس القضاء أو مجلس العلم أو أى مجلس كان ؛ لابد وأن ينظر ليتفقد المجلس ، والتفقد من سليمان عليه السلام يدل على المتابعة ، وكان محتاجًا للهدهد ، فبحث عنه فلم يجده ؛ لأن سليمان كان يريد أن يقوم برحلة فى الصحراء ، والهدهد خبير فى منابع المياه في الأرض ، فهو يرى الماء فى الأرض ؛ ولذلك جعل الله له منقارًا طويلاً ؛ لأن ميزته أنه يأكل أى شيء على سطح الأرض ، بل يأكل مما اختبأ تحت سطح الأرض .

لذلك لما تكلم عنه بَلقيس وقومها الذين كانوا يعبدون الشمس ، استعجب من أمرهم وقال : ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . لأن رزقه من هذا الشيء المخبوء فى الأرض .

وقول سليمان : ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ ساعة يستفهم واحد عن شيء جوابه عند نفسه لا يكون هذا استفهامًا ؛ لأنه يقول : ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ . كأنه قد استبعد أولاً أن أحدًا يتخلف عن مجلسه ، فهو استفهم أولاً ثم تيقَّن أنه غائب ، فقال : ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ وما دام كان من الغائبين ، لابد له من الجزاء ؛ لأن أى مخالفة لا تقابل بجزاء تثمر مخالفات متعددة .

والهدهد لما كان غيابه بدون إذن من سليمان ، قال سليمان : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا

أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] . هذا ليس جبروتًا من سليمان ولكنه حزمٌ ، ومع ذلك علق أمر العقوبة على حجة الهدهد ، مما يستخلص منه أن المرءوس إن رأى خيرًا يخدم فكرة رئيسه ويخدم الفكر العام ، وكان الوقت ضيقًا لا ينتظر حتى يأخذ الإذن أو الأمر ، بل ينصرف ثم يخبر رئيسه بها .

العلماء بحثوا فى العذاب الشديد الذى توعد سليمان به الهدهد ، فقالوا : إن الهدهد يتميز ويتفاخر على باقى الطيور بأن شكله جميل : ألوانه المخططة ، وعرفه ، ومنقاره الطويل ، والتاج الذى فوق رأسه ، فقال سليمان : هذا الريش الذى يتخايل به الهدهد سأنتفه ، وألقيه إلى النمل والحشرات . أو أن العذاب الشديد للهدهد أن يرميه سليمان ؛ ليعيش مع غير بنى جنسه من الطيور الأخرى ، وهذا عذاب شديد له ؛ لأنه لن يكون له إلف بحركتهم أو نظامهم أو التعامل معهم ، فيكون غريبًا طريدًا بينهم ، ومن العذاب أيضًا أن يجعله يخدم أقرانه من الهداهد الأخرى ، أو يجمعه مع أضداده ؛ لأن هناك بعض الطيور يضاد بعضها بعضًا ، فساعة يرى طائر طائرًا ، من أضداده يتشاجر معه ، وتقوم بينهم معركة ، ولذلك يقولون : « أضيق من السجن عِشرة الأضداد » . ومعنى : ﴿فَقَالَ﴾ أى أنه كلَّم سليمان قبل أن ينهره ، وقال له بكل ثقة : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ . انظروا سليمان الذى كان عنده كل هذا الملك الذى لم يؤته أحد ، وحوله كل هذا الصولجان يقول له هدهد ضعيف : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ . فكيف يجرؤ على أن يقول ذلك لسليمان النبى الملك ؟ ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ . تعبير قرآنى جميل يسمونه فى اللغة الجناس ، والجناس أن تأتى بلفظين متشابهين فى المبنى ومختلفين فى المعنى ، والنبأ هو الخبر العجيب وليس الخبر العادى ؛ يقول تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢] .

فلا يقال : نبأ ، إلا إذا كان الخبر هامًّا وعجيبًا . ومسألة بلقيس وعرشها وقومها الذين يسجدون للشمس خبر هام جدًّا ، فلو قال : وجئتك من سبأ بخبر ؛ لا يعنى بالمعنى المطلوب ولا يناسب أهمية الحدث .

ومعنى : ﴿أَحَطتُ﴾ الإحاطة معناها إدراك المعلوم من كل جوانبه ، فالمحيط يحيط بالمركز إحاطة مستوية من كل نقطة بأنصاف الأقطار ، وهى إحاطة تامة .

ولكن هل قول الهدهد لسليمان : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ . هل هذا نقص فى سليمان لأنه لا يعرفها ؟ لا ، بل هذا تكريم لسليمان ؛ لأن اللّٰه سخر له ناسًا يخدمونه فى كل ناحية ، وفرق بين أن تفعل أنت الشيء لذاتك ، وبين أن يُفعل لك . فمعنى أن يُفعل لك فهذه سيادة أخرى وتكريم كبير ، ولأجل أن يُعلِّمنا اللّٰه سبحانه وتعالى أننا لا نكتم مواهب التَّابعين - ونعطى لهم مجالاً أن يقولوا رأيهم ويأخذوا فرصتهم ويبرزوا مواهبهم لأن هذه خدمة لك أنت أيها الرئيس أو المسئول ؛ ولمصلحتك ، ولأن سليمان لم يسأل الهدهد عن سبأ ، فمعنى هذا أنها كانت معروفة أو سمعوا عنها ، ولكنه لا يعرف التفاصيل التى عرفها الهدهد . ولكن ما هذا النبأ الخطير الذى عرفه الهدهد عن سبأ ؟

نبأ عظيم جاء به الهدهد

قال تعالى موضحًا : ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] .

﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ أى : تحكمهم ، ومعنى : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أى مما يؤتاه أقرانها من الملوك ، وليس مثل الذى أوتيه سليمان عليه السلام ؛ لأن هذا شيء آخر . والعرش هو مكان جلوس الملك وكان عادة يتمشى مع عظمة المَلِك .

والهدهد أخبر سليمان عليه السلام بقوله : ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ هذا فيما يتعلق بالملك ؛ لأن نبى اللّٰه سليمان كان ملكًا نبيًّا ، فذكر له الأشياء التى رآها وتتعلق بالملك ؛ وفيما يتعلق بالعقيدة التى تهم سليمان - لأنه نبى - أخبره بقوله عن ملكة سبأ : ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] .

فكأن الهدهد يعرف قضية العقيدة وقضية الإيمان ، وأن الخلق لا يجب ولا يصح أن يعبدوا إلا الله ! ولذلك يقول إنه وجدها وقومها يعبدون الشمس من دون الله ، ولماذا لا يعبدون اللّٰه الذى يخرج الخبء فى الأرض ؟ كيف لا يعبدون المنعم عليهم بكل النعم ؟ !

إذن .. هنا نعلم سر الحق فى قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

انظروا إلى كلام الهدهد وعقيدته ووعظه الجميل فى قوله تعالى : ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا

يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل : ٢٤] .

والذى أحزن الهدهد أنهم يسجدون للشمس من دون الله ؛ ولذلك قال مستنكرًا فِعلهم : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

والهدهد خلال طيرانه فى قصر بلقيس رأى كُوة أو طاقة تدخل منها الشمس ، وهى مبنية بشكل هندسى بحيث تدخل منها الشمس كل يوم بعد شروقها ، فتتنبه بلقيس وتستقبلها بالسجود ؛ ولذلك حينما ذهب الهدهد بكتاب سليمان إليهم ، وقف فى الطاقة وسدها بجناحيه ، فانتظرت بلقيس دخول شعاع الشمس وارتفاعها ، فصعدت إلى الطاقة لترى ما بها ، فطار الهدهد وألقى كتاب سليمان عليه السلام ، فأخذته بلقيس .

إذن .. الهدهد يستغرب أن يسجد هؤلاء القوم للشمس ، ولا يسجدون لله الخالق الرازق الذى يخرج لهم رزقهم ، ويعلم سرهم وجهرهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل : ٢٦] .

فالله هو المستحق للعبادة وحده ، وهو رب العرش العظيم ، وقلنا : إن عظمة عرش بلقيس ، وعروش ملوك الدنيا كلها هى على قدر عظمة البشر وقدرتهم ، ولكن عظمة عرش الله على قدر عظمته وقدرته سبحانه .

سليمان لم يأخذ كلام الهدهد حجة مسلمة ، ولكنه أراد أن يتأكد فقال : ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل : ٢٧] .

النظر محل العين ، والصدق والكذب لا يعرفان بالعين ، ولكن كلمة النظر هنا انتقلت من العين إلى معنى العلم بالحجة ؛ ولذلك فى التوقيع على كثير من الأوراق يقول « نُظر » والناس يقولون : هذه مسألة فيها نظر . أى أنها لا تمر مرور الكرام ، بل لابد من بحثها والتأكد منها .

ولذلك قال سليمان : ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ . مع أن المقابل لكلمة صدقت هو كذبت ، ولكن سليمان لم يقل للهدهد سننظر أصدقت أم كذبت ، ولكن قال : ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ . وهذا لطف وترفق من الحاكم برعيته ؛ لأن معنى : ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ . أى حتى إن كذبت فأنت لم تكذب وحدك ، ولكنك ستكون

ضمن كثير من الكاذبين ؛ لأن كثيرًا من الناس يكذبون ، أو أنه من الكاذبين ميلًا لهم أو قريبًا لهم ، وهذا يدل على أن إلهامات سليمان كنبى جعلته يعرف أنه صادق ، ولكنه أراد أن يتأكد ؛ حتى لا يجامل جنديًا من جنوده .

ثم يقول بعد ذلك : ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل : ٢٨] هذا معناه أن سليمان فكر فى الأمر ، وقال : نكتب لها كتابًا ونرسله مع الهدهد ؛ حتى يتأكد من الرد ويعرف أبعاد الموقف .

ومعنى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى أبعُد عنهم قليلًا وانظر ماذا يفعلون ؛ لأنهم سيراجعون بعضهم البعض ؛ لأن معنى : « يَرْجِعُونَ » أى يراجع بعضهم بعضًا .

رسالة سليمان إلى بلقيس ملكة سبأ

يقول تعالى : ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل : ٢٩] ، الهدهد أخذ الكتاب وطار إلى سبأ ، وذهب إلى بلقيس ، وألقى إليها الكتاب ، فلما قرأته ؛ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ ولكن القرآن لم يذكر هذا كله ؛ للدلالة على أن أوامر سليمان عليه السلام أوامر محوطة بالتنفيذ العاجل ؛ ولذلك وصلت إجابة بلقيس فى الكلام الذى أمر به الهدهد مباشرة ، دون ذكر لما حدث من الهدهد بعد صدور الأمر إليه ، وكأن الهدهد بعد صدور الأمر إليه نفَّذ الأمر بمنتهى السرعة ، فوجدنا كلام بلقيس إلى قومها بعد أن تلقت كتاب سليمان عليه السلام . والملأ هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون عند الملكة - بلقيس - ووصفت كتاب سليمان بأنه : ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ فهل كانت تسمع عن سليمان ؟ أم لأن الخطاب بهرها بخطه الجميل وورقه الراقى وختمه الغريب .

وبعد ذلك قالت : ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل : ٣٠، ٣١] .

وهذا يدل على أنها كانت تعرف حكاية سليمان وأنه ملك ونبى .. إلخ ، وانظروا إلى كتاب سليمان وإيجازه الشديد حيث يقول : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ . فنصّ الخطاب عبارة عن برقية موجزة كلمة ﴿تَعْلُوا۟﴾ أى : تتغطرسون وتظنون أنفسكم ملوكًا ، وتزهون بما عندكم من ملك ولا تستجيبون لدعوتى ،

فإياكم وهذا التعالى والتكبر ؛ مثلما نقول : « هى كلمة واحدة » . بلقيس حينما ألقى إليها الخطاب وقرأته ، جمعت الملأ وقالت لهم : لقد وصلنى كتاب من سليمان ونصه كذا وكذا ، وبعد ذلك طلبت مشورتهم وأن يشيروا عليها بما تفعل فقالت : ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢] .

معنى : ﴿أَفْتُونِى﴾ أى : أعطونى قوة فى الحكم الذى تصدرونه ، فهى سألتهم أن يفتوها فى أمرها ، مع أن الأمر ليس أمرها وحدها ، ولكنه أمرهم جميعًا ؛ ولكن المقصود بقولها أن هذا الأمر قبل أن يخدش الرعية سيخدشها هى أولًا .

وقولها : ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ . أى لا أبتُّ فى أمر ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أى تحضرون عندى ، وهذا يدل على أنها رغم مالها من سيطرة وهيمنة وسلطان ، إلا أنها شاورت الملأ وأرادت أن تسمع رأيهم فى هذا الأمر .

قال تعالى : ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] .

أى نحن أصحاب قوة وعندنا شجاعة وعندنا بأس ، وعددنا كبير وعندنا عدد وآلات وجيش قوى ، وهذه كلها مظاهر قوة ، فإن كنت تريدين الدخول مع سليمان فى حرب فنحن جاهزون ، ونحن لا نقول هذا لندفعك إلى الحرب ، ولكن الأمر والرأى الأخير لك .

ولكن المرأة كانت عاقلة فلم تغتر بالقوة ، وحذرت قومها من دمار الحرب وآثارها ، فردت عليهم بقول اللّه تعالى : ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] .

لأن الذى جاء ليأخذ الملك يريد أن يأخذ المالكين ، وينهب كل ما عندهم ؛ لأنه ساعة يصل إلى مكان القوم لا يضمن أن ينتصر عليهم ، فيخرب ما يستطيع تخريبه من ممتلكاتهم ، ولا يحافظ على شىء إلا بعد أن يضمن استقرار الأمور له .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ . كلام صحيح ؛ لأنك إذا نظرت إلى أى حاكم يستولى على الحكم بعد حاكم آخر ، أو أى نظام يخلف نظامًا فى الحكم ، تجد الانتقام يكون من الحكام السابقين ، وإلصاق شتى التهم بهم من فساد وغيره ؛ لأن الحكم الجديد قام

على أنقاضهم ، وبين النظامين لَدَد وخصومة .

وقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ . وهذا الكلام من الله تعالى تأييدًا لكلام بلقيس ، فهى قالت رأيها والحق سبحانه وتعالى أيدها فيه ، أى أنها صادقة فى هذا ، مما يدل على أن الحق سبحانه وتعالى - رب الخلق أجمعين - إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، كما ترك الملأ القرار الأخير للملكة ؛ لتفعل ما تراه مناسبًا ، بدأ عقلها وفطنتها يعملان ، فقالت : إن كان ملكًا سيطمع فى خيرنا ، وإن كان نبيًا فلن يأبه بهذا الخير ، فأنا سأرسل إليه بهدية .

هذه الهدية تناسب سليمان وبلقيس معًا ، فهو ملك وهى ملكة ، فلابد أن تكون الهدية ثمينة جدًا ؛ حتى تأخذ بلب سليمان ، وحتى تثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى والترف ، فقالت لقومها : أنا سأرسل إليه بهدية ، فإن كان من أهل الملك والدنيا سيقبل الهدية ، فنعرف أنه يريد بعض الخراج والمال ، وإن رد الهدية فهو نبى لا يطمع فى شىء مما فى أيدينا ؛ قال تعالى على لسانها : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل : ٣٥] .

أى سنرى كيف يقابلهم وماذا سيقول لهم ؟ وهذا رأى جميل منها ، ودليل على حصافتها وذكائها ، مما جعل القوم يفوضونها فى تسيير أمور مملكتهم . و﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هم الذين أرسلتهم بالهدية إلى سليمان عليه السلام .

الله أعطى سليمان سرًا من علم الكتاب

ثم يقول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل : ٣٦] .

أى : لما جاء الرسول سليمان بالهدية ، قال له سليمان : لست بحاجة إلى مالكم ؛ لأن الله أعطانى خيرًا مما عندكم ، وقوله لهم : ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ . يصح أن يكون معنى قوله : إنكم أناس تفرحون بأنكم قدمتم هدية لى لتأسرونى بها . أو أن معناه : إنهم يفرحون حين تأتيهم هدية من أحد ، فكلاهما صحيح ، أو : أنا رددت الهدية وسترجع لكم وستفرحون برجوعها . هذه ثلاث معان ، فأنتم بهدية منكم لى تفرحون حين تأتيكم هدية ، أو أننى حين أرد الهدية لكم ستفرحون برجوعها إليكم .

ثم قال لرسول بلقيس فى لهجة حاسمة : ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

كلامه هنا يكشف كلامها الذى قالته لقومها ؛ فهى قد قالت : ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ . فكأنه من منطلق النبوة يرد عليها وعلى كلامها بالحرف .

ومعنى : ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ القبل : هو المقابل ، أى لا يستطيع مقابلة هذا الأمر أو مواجهته ، أو أنهم أضعف من أن يواجهوا هذا الأمر .

ومعنى : ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أى يخرجهم من الملك « أَذِلَّةً » لأنهم كانوا ملوكًا ، وسلب منهم الملك فصاروا أذلة ، والصغار يكون بالأسر أو القتل .

ثم التفت سليمان حوله وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

هذه أيضًا من إلهامات النبوة ، فكأن اللَّه أعلمه أن القوم بعد أن رد إليهم هديتهم ، سيأتونه مسلمين طائعين ولن يحاربوه ، فكأنه قد علم أنهم سيأتون إليه ، فأراد أن يرسل من يذهب إلى سبأ ، ويأتيه بعرش بلقيس قبل أن يصل القوم إليه ، ولأن هذا الأمر صعب التحقيق ويتطلب قدرات خاصة .

وقيل إن الذى تكلم عفريت من الجن ، قال : ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩].

وقوله : ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ . هذه كلمة مجملة ؛ لأن مقام سليمان فى مجلسه بينهم للحكم والعلم ومدارسة الأمور ، مقام طويل قد يستمر ساعات ، والذى يحدد هذا المقام مدة الإقامة التى كان يجلسها معهم ، من أجل هذه الأمور ، ومعنى هذا أن العفريت سيأتيه بعرش بلقيس قبل أن يترك مجلسه هذا ، أى أنه لن يتأخر به جلسة أخرى .

هنا القرآن لم يخبرنا أن أحدًا آخر تكلم فى هذا الموضوع إلا بالوصف حيث قال تعالى : ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

أنت لو حسبت المدة التى يستغرقها هذا الكلام : ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرْفُكَ﴾ تجد أن طرفك ارتد خلالها مرتين أو ثلاثًا ، فالعفريت من الجن طلب إعطاءه مدة من الوقت ، هى مدة بقاء سليمان فى مجلسه ، وليكن ساعة أو ساعتين أو أكثر ، لكن أن يأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه ، فهذه سرعة خارقة ! ! ! لأن الطرف يرتد بسرعة ، ولذلك لم يقل القرآن : فذهب الذى عنده علم من الكتاب فجاء بالعرش ، ولكن جاء بالخبر مباشرة فى قول الله تعالى : ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ . وهذا دليل على السرعة الفائقة .

بعض العلماء قالوا : إن هذا الرجل هو آصف بن برخيا ، وكان رجلًا صالحًا أعطاه الله من أسرار قوته .

وقال آخرون : الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، فكأن العفريت لما قال له : ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال له هو : ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ .

فهو إذن سليمان ، لماذا ؟ قالوا : لأنه لو كان هذا الرجل واحدًا غير سليمان ، فمعنى هذا أن له تفوقًا فى معرفة الكتاب قبل سليمان .

ورد بعض العلماء على ذلك بقولهم : إن هذه عظمة لسليمان ؛ لأنه فوق من يعرف هذا العلم ، والمزايا لا تقتضى إلا فضيلة ؛ لأن هذا الرجل مع ما عنده من علم بأسرار الكون سخره الله لخدمة سليمان .

وليس بالضرورة أن يكون الرجل العظيم عارفًا بكل شىء ، فلا يمكن أن نطلب من الملك أن يكون ماهرًا فى بعض ما يجيده الصبية فى الصناعات اليدوية مثلًا .

فمن عظمة سليمان أن الله سخر له كل هؤلاء .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل : ٤٠] .

وما دام سليمان قال : ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ . **فهذا يدل على شيئين لا ثالث لهما** : إما أن الله سخر له أحدًا فجاءه بالعرش ، أو أن الله أعطاه علمًا من الكتاب فجاء به ، وإن كانت هذه أو تلك ففضل من الله عليه بإعطائه هذا العلم له أو لأحد من أتباعه .

ومعنى ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ : الابتلاء هو الاختبار ، والاختبار ليس مذمومًا لذاته ، ولكنه يذم

لنتيجته فالذى ينجح فيه يكون سعيدًا ، وإن فشل يكون حزينًا ، ولذلك سليمان ذكر النتيجتين معًا فقال : ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ . فالشكر معناه : أنه ذكر المنعم ولم يلهه جمال النعمة عن جلال الواهب ، وأما كفر النعمة ، أن يقول الإنسان . هذا من ذكائى وجهدى . وقوله تعالى : ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أى أن الله لا يحتاج إلى شكرنا ، فشكرك لا يزيد فى صفات الله صفة كمال .

كذلك الذى يكفر النعمة ولا يشكر الله عليها فإن الله ﴿غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أى غنى عن الشكر ، وكريم يعطى بغير حساب .

سليمان عليه السلام يختبر ذكاء بلقيس

ولما جاء العرش واستقر عند سليمان أمر بنصبه وتجهيزه ؛ لأن بلقيس قادمة إليه فى الطريق ، وهو يريد أن يختبرها اختبارًا عقليًا واختبارًا إيمانيًا ، فأمر بأن ينكِّروا عرشها ، فقال لهم : ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل : ٤١] .

كلمة : ﴿نَكِّرُواْ﴾ عكس عرِّفوا ، فعرشها جاء على هيئته كما كان فى سبأ ، فلو أنها جاءت ورأته كما هو ستعرفه بسهولة ، ولا يعرف سليمان ذكاءها فى الجواب ، فأمرهم أن ينكِّروا لها العرش ، بأن يغيروا بعض معالمه .

وقوله : ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ . إن كان المقصود به الهداية الإيمانية فهو أن تهتدى إلى الإسلام ، وإن كان عقليًا بأن تهتدى إلى الجواب الصحيح . وحينما سألها حاول أن يعمِّى عليها فى السؤال فقال لها : ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل : ٤٢] . فكأنه يقول لها : إن هذا ليس عرشك ، ولكنه قال : هل عرشك مثل هذا ؟ فهو يريد أن يختبرها فصعب عليها السؤال فماذا قالت ؟ نظرت إلى العرش فوجدته مثل عرشها ، ولكن التنكير الذى حدث له يدل على أنه ليس عرشها ، فجاءت بجواب يحتمل الحالتين معًا فماذا قالت ؟

قالت : ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ . فعرف سليمان من هذه الإجابة أنها ذكية وحصيفة وعاقلة . هذا بالنسبة لهداية الإيمان ، فهى لكى تعلم أنها تركت عرشها هناك فى بلادها وجاءت إلى سليمان ، فكيف جاء سليمان بالعرش بهذه السرعة مع أنها تركته خلفها ؟ ! فلابد أن هذه قدرة فوق مستوى البشر .

وقول سليمان : ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ أى أتهتدى إلى جواب يجمع الأمرين فى المُنكَّر - وهو عرشها - أو تهتدى إلى أن الذى صنع ذلك إنما يكون مؤيدًا من الله بأسرار الكتاب ؛ فنقل العرش بهذه السرعة فتؤمن .

وقول الله تعالى : ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ . إن كان هذا الكلام تكملة كلام بلقيس ، فمعناه أنها أوتيت العلم قبل هذه الحادثة ، وعلمت أنه نبى خاصة بعد أن رد الهدية الثمينة ، وقال لهم : ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ . إلى آخر هذه المواقف ، فكأنها تقول له : نحن عرفنا قبل هذه الحادثة أنك نبى وأسلمنا . أو أن الكلام كلام سليمان عليه السلام .

إسلام بلقيس مع سليمان لله رب العالمين

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ [النمل : ٤٣] . أى أن سليمان بما صنع من أحداث صدها عما كانت تعبد من دون الله ؛ لأنها كانت من قوم كافرين .

وقوله تعالى : ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾ [النمل : ٤٤] . الصَّرح إما أن يكون القصر المشيد ، وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملك ، وإما أن يكون مثل إيوان الأكاسرة مثلًا ، لما جاءت لتدخل الصرح وجدت أمامها ماء فيه سمك ، فظنت ذلك ماء يريد سليمان أن يغرقها فيه ، فرفعت ثيابها وكشفت عن ساقيها ، فمعنى ذلك أنها فهمت أن هذا ماء ؛ لأن سليمان كان قد بناه من زجاج مثل الكريستال ، ووضع تحته ماءً وأسماكًا فهى ظنته ماء فشمَّرت ثوبها ؛ حتى لا يبتل فقال سليمان : ادخلى فهذا صرح ممهد من الزجاج ، فماذا كان ردها ؟ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل : ٤٤] ظلمت نفسها فى ماذا ؟ الكفر أولًا .

إذن .. فليست هى التى قالت : ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أو أنها لم تنطق بالكلمة نطقًا صريحًا ، إلا بعد أن دخلت الصرح ، أو أنها ظلمت نفسها فى أنها اتهمت سليمان بأنه يريد أن يغرقها فى الماء ، حينما قال لها : ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ . ومعنى : ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أى ظنته لجة ماءٍ ، وكونها كشفت عن ساقيها ، هذه عملية قسرية لكل إنسان قد

يُعَرِّضُ نفسه للسير فى الماء ، فأنت حين تسير فى الطريق ، وتجد فيه ماء ترفع طرف ثوبك ؛ حتى لا يصيبه بلل ، وبعض الإسرائيليات الداخلة فى كتب التفسير تزعم أن سليمان عمل هذه العملية ؛ حتى تكشف بلقيس عن ساقيها ليراها ؛ لأنه بلغه أنها مشعرة الساقين، وهذا كذب فلا يليق أن يقال هذا عن نبى من أنبياء اللَّه صلوات اللَّه عليهم أجمعين .

حكم داود وسليمان عليهما السلام فى قضية الحرث

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] .

كلمة : ﴿يَحْكُمَانِ﴾ تدل على أن هناك خصومة فى قضية الحرث ، والحرث هو إثارة تربة الأرض مثلما يحرث الفلاح الأرض، سمَّى ربُّنا الزرع والثمر والحدائق بالحرث ، فقال تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] .

فمعنى : ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ﴾ . أى يهلك ما نشأ من الحرث من زروع وثمار وفواكه ، فيسمى الزروع حرثًا مع أن الحرث هو إعداد الأرض للزرع ، وهذا يوضح لنا أنه لا يمكن زرع إلا بحرث .

وقصة الحرث التى حكم فيها داود وسليمان عليهما السلام ، أن رجلًا عنده زرع ورجل عنده غنم ، فراعى الغنم غفل عن غنمه فهربت إلى الزرع وأكلته ، قام صاحب الزرع فاشتكى لنبى اللَّه داود ، وداود لأول وهلة قال لصاحب الغنم : أعط الغنم لصاحب الأرض وانصرف ، فى هذا الوقت كان عمر سليمان أحد عشر عامًا ، فلما خرج الراعى وصاحب الأرض من عند داود قال لهما : ماذا قضى أبى ؟ قالا له : قضى بأن يأخذ صاحب الأرض الغنم .

وتأويل ذلك : ربما وجد داود أن قيمة الزرع الذى أكلته الغنم ، يساوى قيمة الغنم ، فحكم هذا الحكم .

لما قص الرجلان قصتهما على سليمان لم يقل : هذا ظلم أو جور . ولكن قال : هناك حل أرفق .. فلما قال هذا الكلام وبلغ داود أرسل إليه ، وقال له : ما هو الأرفق الذى تراه فى هذه

القضية ؟ قال له : نعطى الغنم لصاحب الزرع ، فيستفيد بلبنها وأصوافها ، ونترك صاحب الغنم يزرع الأرض حتى تثمر ، وتصبح كما كانت قبل اعتداء الغنم عليها ، وعندئذ يأخذ صاحب الغنم غنمه ، ويأخذ صاحب الأرض أرضه .

فربُّنا هو الذى فهَّم حل هذه المسألة لسليمان ، وهذا ليس طعنًا فى داود ؛ لأن اللّه آتى كل واحدٍ منهما حُكمًا وعلمًا .

السحر ومملكة سليمان

قال تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

ولنا أن نلحظ أن هذه الآية قد نزلت بعد قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٠١] .

وهكذا يتضح لنا أن بعضًا من بنى إسرائيل قد ترك كتاب اللّه المصدق لما معهم من التوراة ، ولم يقفوا عند الترك لآيات الحق ، بل اتبعوا ما جاء به الباطل .

إذن .. فالكتاب الذى كان يجب أن يتبعوه تركوه وخالفوه ، والبُهتان الذى كان يجب أن يجتنبوه اتبعوه ، وهذا سلوك مخالف لقضية الحق بين الخير والشر .

وقلنا : إن الآية الكريمة تعرضت لأمر قد شاع عند بعضٍ من بنى إسرائيل ، لقد قالوا : إن سليمان إنما صار ملكًا وثريًا بفضل ما تعلمه من سحر . وهذا قول باطل ، برأ اللّه سليمان منه فى قوله : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ . إن سليمان لم يكفر ، إنما تلقى نعمة اللّه بالعِرفان والشكر ، وسخر اللّه له ما شاء من خلقه تكريمًا له ، وإرادة الحق فى ذلك لها حكمة بالغة ، ومن حِكمته تعالى أن يعطيه ملكًا لا ينبغى لأحد من

العالمين ، لقد شاءت إرادة الحق ذلك ؛ ليكون سليمان رسولًا له مكانة فى قومه ، [أعنى] مكانة تليق بالزمن الذى جاء فيه سليمان .

إن المتأمل للموكب الرسالى يجد أن كل رسول قد صادف فى قومه المكابرين والمعاندين والكافرين والمتربصين به الدوائر لماذا ؟

لأن الرسول لا يجئ إلا وقد استشرى الشر ، وما دام الشر قد استشرى ، فلابد أن للشر قومًا ينتفعون به ، وحين يأتى رسول لينهى سيادة الشر فى الأرض ، فهو يواجه أول ما يواجه المنتفعين بالشر ، ولا يتبع النبى غالبًا إلا الضعفاء ؛ ليخلصهم الرسول برسالته من شر الأقوياء ، وقد أراد اللّه برسالة سليمان أن يبين لنا طبيعة الإنسان .. حين يؤيد رسولًا بملك لا يمكن لأحد أن يخالفه ، إنه رسول ومَلِك من نوع خاص .

فالملوك يملكون ما يدخل تحت قدرتهم بالإمكانات المادية ، لكن اللّه أعطى سليمان ملكًا لا ينبغى لأحد من العالمين ؛ لأنه سخر له القوى التى لا يمكن أن تسخر لبشر عادى ، فكأن اللّه يريد أن ينبه الإنسان أنه لو أراد حكمًا من السماء مسنودًا بحكم ملكى ، فلن يستطيع إنسان أن يرفع رأسه ؛ لأن الخالق جل وعلا قادر على أن يسخِّر لمثل ذلك الحكم ما يجعله يقهر الجميع على أن يذعنوا له لكن الحق لا يريد ذلك ، إنما يريد سبحانه طواعية الإيمان واختيارية اليقين .

لذلك يترك الرسل ضعفاء ؛ ليعلم من يقبل عليهم بنداء الإيمان لا بمجرد القهر .

ولذلك خُيِّر رسول اللّه ﷺ أن يكون نبيًا ملكًا ، فرفض رسول الله . لماذا ؟ لأنه إذا كان ملكًا نبيًا ستكون له من أسباب القوة ما لا يستطيع أحد أن يخالف دعوته ، قهرًا وعَنوةً ؛ لذلك اختار رسول اللّه ﷺ الرسالة والنبوة دون الملك .. اختار أن يدعو الناس إلى الله ، فيأتونه رغَبًا فى منهج اللّه لا رهبًا من ملكه هو .

ولقد اتهم بعض من بنى إسرائيل سليمان بأنه كفر ، ويقرر الحق [عدمَ كُفره فى قوله تعالى] : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ . ويدلنا الحق أن الكفر كان من الشياطين الذين يعلِّمون الناس السحر ، ونكتشف من ذلك أن نبى اللّه سليمان لم يكن يعلم السحر ، وأن ملكه واستتباب الأمر له لم تكن قضية سحر ، إنما هى مشيئة الحق سبحانه وتعالى .

❋ ❋ ❋

ذكر قصة نبى الله إشعيا بن أمصيا

[قال ابن كثير : قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان فى زمانه ملك اسمه حزقيا على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعًا مطيعًا لإشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل ، فمرض الملك وخرجت فى رِجْله قرحة وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : فى ستمائة ألف راية ، وفزع الناس فزعًا شديدًا . وقال الملك للنبى إشعيا : ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يوح إلىَّ فيهم شىء بعد . ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على مُلكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله . فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكى ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سِنة ولا نوم ، اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل ، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى ، وسرى وإعلانى لك .

قال : فاستجاب الله له ورحمه ، وأوحى الله إلى إشعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر فى أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب . فلما قال إشعيا له ذلك ؛ ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجدًا وقال فى سجوده : اللهم أنت تعطى الملك من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين . فلما رفع رأسه أوحى الله إلى إشعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قُرحته فيشفى ويصبح قد برئ . ففعل ذلك فشفى .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بُختنَصَّر أرسل ملك بنى إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يومًا ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن ، وأوحى الله تعالى إلى إشعيا أن يأمر الملك بإرسالهم

إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم ، فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر سنحاريب مما خوفهم اللَّه به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحى اللَّه تعالى إلى إشعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن اللَّه بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه فلما فرغ من مقالته عدُوا عليه وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاءوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها ، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون][1] .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » (٥٧١ - ٥٧٣) .

ذكر طرف عن أرميا بن حلقيا
من سبط لاوى بن يعقوب

[قال ابن كثير : وقد قيل : إنه الخضر . رواه الضحاك عن ابن عباس . وهو غريب وليس بصحيح .

وقال ابن عساكر : جاء فى بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال : أيها الدم .. فتنت الناس فاسكُن . فسكن ورسب حتى غاب . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : عن عبد اللَّه بن عبد الرحمن قال : قال أرميا : أىْ رب ، أىّ عباد أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لى ذكرًا ؛ الذين يشتغلون بذكرى عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قَلوه وإذا زوى عنهم سروا بذلك ، أولئك أنحلهم محبتى أعطيهم فوق غاياتهم][1] .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » (٥٧٣) .

ذكر خبر عن دانيال عليه السلام

[قال ابن كثير : روى بسنده عن عبد اللّٰه بن أبى الهذيل : قال ابن أبى الدنيا : أحضر بختنصر أسدين فألقاهما فى جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه ، فمكث ما شاء الله ، ثم اشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب ؛ فأوحى اللّٰه إلى أرميا وهو بالشام أن أعدد طعامًا وشرابًا لدانيال . فقال : يا رب ، أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى اللّٰه إليه : أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت . ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلنى إليك ربك . قال : وَقَدْ ذَكَرنى ربى ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد للّٰه الذى لا ينسى من ذكره . والحمد للّٰه الذى يجيب من رجاه ، والحمد للّٰه الذى مَن وثق به لم يكله إلى غيره ، والحمد للّٰه الذى يجزى بالإحسان إحسانًا ، والحمد للّٰه الذى يجزى بالصبر نجاة ، والحمد للّٰه الذى هو يكشف ضرّنا بعد كربنا ، والحمد للّٰه الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد للّٰه الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا .

وقال أبو العالية قال : لما افتتحنا تَسْتُرَ وجدنا فى مال بيت الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا . فقلت لأبى العالية ، ما كان فيه ؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ؛ وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيُمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال .

قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة . قلت : ما تغير منه شىء ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع . وهذا إسناد صحيح إلى أبى العالية ، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من ثلاثمائة سنة فليس بنبى بل هو رجل صالح ؛ لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول اللّٰه ﷺ نبى بنصِّ الحديث الذى فى

« البخارى » ، والفترة التى كانت بينهما أربعمائة سنة ، وقيل : ستمائة . وقيل : ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة وهو قريب من وقت دانيال ، وإن كان كونه دانيال هو المطابق لما فى نفس الأمر ، فإنه قد يكون رجلًا آخر إما من الأنبياء أو الصالحين ، ولكن قربت الظنون أنه دانيال ؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس فأقام عنده مسجونًا كما تقدم .

وقد روى بإسناد صحيح إلى أبى العالية أن طول أنفه شبر . وعن أنس بن مالك بإسناد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على أن يكون رجلًا من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد .. والله تعالى أعلم .

وروى أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب « أحكام القبور » : عن أبى الأشعث الأحمرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن دانيال دعا ربه عز وجل أن تدفنه أمة محمد » . فلما افتتح أبو موسى الأشعرى « تُستَر » وجده فى تابوت تضرب عروقه ووريده ، وقد كان رسول الله ﷺ قال : « من دل على دانيال فبشروه بالجنة » . فكان الذى دل عليه رجل يقال له : حرقوص فكتب أبو موسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر : أن ادفنه وابعث إلى حرقوص ، فإن النبى ﷺ بشره بالجنة . وهذا مرسل من هذا الوجه وفى كونه محفوظًا نظر .. والله أعلم .

ثم قال ابن أبى الدنيا : حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد - وكان عالمًا - قال : وجد أبو موسى مع دانيال مصحفًا وجَرَّة فيها ودك ودراهم وخاتمه ، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : أما المصحف فابعث به إلينا ، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به ، واقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفلناكه .

وروى ابن أبى الدنيا من غير وجه : أن أبا موسى لما وجده ، وذكروا له أنه دانيال التزمه وعانقه وقبله ، وكتب إلى عمر يذكر له أمره ، وأنه وجد عنده مالًا موضوعًا قريبًا من عشرة آلاف درهم ، وكان من جاء اقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده ربعة ، فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد ، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال وبالربعة فتحمل إليه ونفله خاتمه .

وروى عن أبى موسى أنه أمر أربعة من الأُسراء فسكَّروا نهرًا وحفروا فى وسطه قبرًا

فدفنه فيه ، ثم قدم الأربعة الأُسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه .

وروى ابن أبى الدنيا : عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه قال : رأيت فى يد ابن أبى بردة ابن أبى موسى الأشعرى خاتمًا نقْش فصِّه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال ، أخذه أبو موسى يوم دفنه ، قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم ، فقالوا : إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه جاءه المُنجمُّون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يولد كذا وكذا غلام يعور ملكك ويفسده . فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه فى أَجَمةِ الأسد فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه ، فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه اللَّه بذلك حتى بلغ ما بلغ ، قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتم ؛ لئلا ينسى نعمة اللَّه عليه فى ذلك . [هذا] إسناد حسن][1] .

* * *

(١) ما بين المعكوفين من « قصص الأنبياء » (٥٨٣ - ٥٨٦) .

ذكر قصة نبى الله العُزير عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٥٩] عندما ننظر إلى الآية .. نجدها تبدأ بـ « أو » ، وما بعد أو لا يكون معطوفًا على ما قبلها ، فكأن الحق يريد أن يقول لنا : ألم ترَ إلى مثل الذى مرَّ على قرية ، ونحن أيضًا عندما تسمع كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ فإنها تفيد مجمع جماعة من الناس ، ونفهم أن الذى مر على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مر عليها سياحة فى رحلة ، ونلحظ كذلك أن الحق لم يشأ أن يأتى لنا باسم القرية ، أو باسم الذى مر عليها . قال البعض : إنه أرميا ، وقال بعض آخر : إنه الخضر ، وقال بعض ثالث : إنه عزير ، ونحن نقول : إن التشخيص لا يعنينا ؛ لأن الحق حين يبهم التشخيص ، فذلك لأمر يريده هو سبحانه ، والآية هنا فى مجال عرض قدرة الخالق .

ونلحظ أن الحق قد وصف القرية بأنها : ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ، والقرية الخاوية على عروشها ، الخالية من السكان ، وقد تكون أبنيتها موجودة ومهدمة ، إنها أبنية بلا عروش والعروش السقوف ، أى أبنية خربة ، والعرش حين يكون على البيت فالمقصود به الفُسطاط المصنوع مما تصنع منه السقوف ، فكأن العرش قد سقط أولًا على الأرض وتراكمت الجدران مهدمة من فوقه ، ويقول الذى مر على هذه القرية : ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ . والذى مر على القرية عندما يتكلم عن إحياء القرية بعد الموت ، فكأنه يسأل عن حياة الناس الذين هم أهل القرية . فالقرية لا حياة لها بدون أهلٍ ، إن القرية تكون خربة بدون أناس يسكنونها ، فالقرآن الكريم حين يذكر القرية فى بعض الأحيان فهو يريد الحديث عن أهلها .

إذن .. فسؤال الذى مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال أهلها عن أنها قرية خربة .. وهكذا نفهم أن عِمارة المكان من لوازم الكائن الحى وهو الإنسان ، والقرية الخاوية على عروشها هى : قرية بلا سكان .

وعندما يقول الذى مر على هذه القرية : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى كيف يحيى اللّٰه هذه القرية بعد موتها ؟ إن إحياء هذه القرية يتطلب أن يوجد فيها بشر لإقامة الجدران والعروش ؛ وذلك حتى يتحقق العمران ، إن الإنسان لازم لملزوم هو العمران وهو دليل الحياة ، عندما يسأل واحد مثل هذا السؤال : كيف يحيى اللّٰه هذه القرية بعد موتها ؟ التساؤل لا يدل على أنه مؤمن ويشك فى أن قضية الحياة أو الموت من عند الله ، إنما هو يريد أن يتعرف الكيفية التى يتم بها الإحياء .

إذن .. فتساؤل العبد المؤمن عن كيفية عمارة اللّٰه لهذه القرية ، وتساؤل إبراهيم عليه السلام عن كيفية الإحياء بعد الموت هو التعجب . والتعجب فرع الإيمان بالحدث ، والسؤال عن الكيفية معناه تيقن للحدث وإيمان بصانع الحدث ، فعندما يسأل السائل أنى يحيى اللّٰه هذه القرية بعد موتها ؟ فهذا السائل لا يشك فى قدرة اللّٰه على الإحياء ، ولكنه يريد أن يعرف الكيفية ، والكيفية ليست مناطَ اعتقادٍ أو مناط إيمان . إن اللّٰه لم يتعبّدنا بأن نعرف الكيفية ، وإنما تعبّدنا بأن نؤمن بأنه قادر على الإيجاد لهذا الحدث ؛ لأنه القادر على كل شىء .

إذن .. فقول السائل : كيف يحيى اللّٰه هذه القرية بعد موتها ؟ وقول إبراهيم خليل الرحمن : ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ؟ هذان القولان لا ينفيان الإيمان عن السائل عن عمارة القرية بالحياة ، ولا عن إبراهيم عليه السلام ، ولكن كليهما مشتاقٌ إلى معرفة الكيفية ؛ ليعيش فى جو الإبداع لمن أنشأ هذه الصنعة ؛ وعندما يسأل الرجل المؤمن : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ؟ فنحن نجد لازمًا وملزومًا ، والمراد الاثنان ، إنه يتكلم عن قرية خاوية على عروشها ، ويتساءل عن الإحياء . والإحياء كما نعرف يكون للبشر الذين سيقومون بالحركة التى تعمّر وجود تلك القرية ، فكأن الناس لهم حياة ولهم موت ، والقرية بأنقاضها لها حياة ولها موت . وسؤال العبد المؤمن : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ؟ جاءت الإجابة لسؤاله إجابة عملية .

لقد كان سؤال العبد المؤمن عن الكيفية . وهناك شىء نقتنع به بالدليل ، وشىء تقتنع به بالمشاهدة ، وقد أراد اللّٰه أن يجعل الدليل إيمان مُشاهد ؛ ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ ، لم يجعل اللّٰه الدليل المشهدى فى القرية ، إنما جعل اللّٰه الدليل المشهدى فى ذات السائل ، قال تعالى : ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ . ويخبرنا الحق

سبحانه بحوار دار بينه وبين هذا العبد . فإما أن يكون الحق سبحانه قد كلمه كما كلَّم موسى عليه السلام ، أو سمع العبد المؤمن صوتًا أو مَلَكًا ، المهم أن سؤالًا قد حدث : ﴿كَمۡ لَبِثۡتَۖ﴾ ؟

فأجابه الرجل : ﴿لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ . إن إجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك ، وقد قال المفسرون : إنه وَجَدَ اليوم قد قارب على الانتهاء ، أو انتهى ، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة ، قال ذلك لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى تقدير الزمن ، فهل هو صادق فى قوله أم كاذب ؟ إنه صادق . لماذا ؟ لأنه لم ير شيئًا قد تغير فيه ؛ ليحكم بمقدار التغيير .

لو كان قد نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب ، لو حدثت آيةَ تغييرات فيه لكان قد لمسها ، لكنه لم يجد تغييرًا فماذا كان جواب الحق ؟ قال تعالى : ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ ، إننا هنا أمام قولين ؛ ويكاد الأمر يصبح لغزًا ، قول الرجل الذى يقول : ﴿لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ ، وقول ربنا تعالى : ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ . الحق سبحانه صادق ومنزه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله . ونريد دليلًا على هذا ودليلًا على ذلك ، نريد دليلًا على صدق العبد فى قوله : ﴿لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾ . ونريد من الحق سبحانه وتعالى دليلًا على أن الرجل قد مات مائة عام وعاد إلى الحياة .

ونحن نقول : إن فى القصة ما يؤيد صدق الرجل فى أنه تصور الزمن الذى مَرّ عليه يومًا أو بعض يوم ، وما يؤيد صدق قول الحق سبحانه : ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ . لماذا ؟ لأن الرجل كان معه حماره ، وكان معه طعامه وشرابه من عصير وعنب وتين ، وأراد الحق سبحانه أن يدلل على الصدق فى القضيتين معًا فقال الحق : ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ . ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغير منهما شىء . ومعنى عدم التغير أنه لم يمكث إلا يومًا أو بعض يوم . هذا دليل صدق الرجل .

وبقيت مسألة موت الرجل مائة عام ، قال الحق سبحانه للرجل : ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ . وحين يقول الحق : ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ . فهذا يدل على أن شيئًا عجيبًا قد حدث .. إنه آية ، والآية تعنى : شيئًا عجيبًا ؛ وأراد اللَّه له أن يبين بطلب النظر إلى الحمار ، أن يجد الرجل عظام الحمار مبعثرة ، ولا يمكن أن يحدث ذلك فى

يوم وليلة ، لا يمكن أن يموت الحمار ويرم جسمه ثم ينتهى لحمه إلى رماد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ! إن حدوث ذلك للحمار يتطلب زمانًا طويلًا ، لا يتسع له إلا مائة عام ، فكأن نظرة الرجل إلى الحمار تجعله يصدق أنه لبث مائة عام ، ونظرة الرجل إلى الطعام تجعله يصدق أنه لبث يومًا أو بعض يوم .

فالقضية هى قضية عجيبة ، إذن .. كيف طُوِىَ الزمن فى مسألة الطعام ؟ وكيف بُسِطَ الزمن فى مسألة الحمار ؟

إن اللّٰه يريد أن يثبت أنه هو القابض والباسط للأشياء ، إنه اللّٰه الذى يقبض الزمن فى حق شىء ويبسط الزمن فى شىء آخر ، والشيئان متعاصران معًا ، وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة اللّٰه الخالق سبحانه .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ . من هم الناس الذين سيجعل اللّٰه من قضية الذى مر على تلك القرية « آيةً » لهم ؟ كان لابد أن يوجد أُناس فى القصة ، لكن القرية كانت خاوية على عروشها ، فلا إنسان ولا بنيان . فهل هم الناس الذين كانوا فى القرية أم سواهم ؟ قال البعض من المفسرين هذا ، وقال البعض من المفسرين ذاك . وأصدق شىء يتصل بصدق اللّٰه فى قوله : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ . كدليل على قبض اللّٰه الزمن فى حق شىء وبسطه فى حق شىء آخر ، هو ما يلى : إن عزيرًا هو الذى مر على تلك القرية كما قال جمهرة العلماء ، وعزير كان من الأربعة الذين يحفظون التوراة ، إن أربعةً فقط هم الذين حفظوا التوراة ؛ موسى ، وعيسى ابن مريم ، وعزير ، ويوشع عليهم السلام .

أراد اللّٰه أن يرى عزيرًا العظام كيف ينشزها بقدرته جل وعلا ، ثم يكسوها لحمًا ؛ فإن عزيرًا قد رأى رأْى العين عملية الإحياء . لقد قال عزير من قبل : كيف يحيى اللّٰه هذه القرية بعد موتها ؟ والحق سبحانه أراه التجربة عمليًا ؛ قال له : انظر إلى عظام حمارك ننشزها : أى نرفعها ، أى نرفع كل عظمة من الأرض ، ونركّب كل عظمة فى مكانها وبعد ذلك تأتى الحياة لتدب فى الحمار ، لقد وجد عزير الحياة فى نفسه ، ورآها فى الحمار .

وبعد ذلك تذكر عزير قرية قد خرج منها وأراد أن يعود إليها ، ولما عاد إلى تلك القرية وجد أمرها قد تغير تغيرًا يتناسب مع مرور مائة عام . وكان فى هذه القرية مولاة لأسرة العزير – أى

أَمَة أو جارية – وكانت هذه الأَمة قد عميت ، فلما دخل العزير عليها وقال : أنا العزير ، قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ولا ندرى أين ذهب ولم يعد ، فكرر عليها القول : أنا العزير ، قالت الأَمة : إن للعزير علامة ، وهذه العلامة أنه كان مجاب الدعوة ، فإن كنت حقًّا العزير فادع اللّٰه أن يرد عليَّ بصرى ، وأن يخرجنى من قعودى هذا . إن الأَمة لا تنسى نفسها والعزير أراد أن يؤكد لها أنه هو . فدعا اللّٰه لها برد البصر والقيام من القعود فبرئت الأَمة ، ولما برئت الأمة نظرت إليه فوجدته هو العزير ، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد .

بعد ذلك ذهب العزير ليرى ابنه ، فوجده رجلًا طاعنًا فى السن قد بلغ من العمر مائة عام ، وكان العزير لا يزال شابًّا ، ولنقل : إنه كان فى الخمسين من عمره ؛ ولذلك نرى الشاعر يقول مُلغِزًا : وما ابن رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟ !

لأن العزير قد مات فى عمر الخمسين ، وقد بعثه اللّٰه على نفس عمره أما ابنه فقد بلغ من العمر مائة عام لأنه لم يمت ولم يبعث ، بل عاش حياة متواصلة ، وهكذا أصبح الولد فى عمر المائة ، وأصبح الوالد فى عمر الخمسين ، فقال ابن العزير : إننى كنت أعرف لأبى علامة إنها شامة بين كتفيه ، فلما كشف له العزير كتفيه وجد الابن العَلامة التى يعرفها فى أبيه .

وقال بعض المفسرين شيئًا آخر : إن بختنصر حينما جاء إلى مدينة بيت المقدس وخرَّبها حرق التوراة ، إلا أن رجلًا قال : إن أباه قد دفن فى مكان من كرم [ومعه] نسخة من التوراة ، فجاءوا بالنسخة فقال العزير : وأنا أحفظها وقرأ عزير التوراة كما وجدت فى النسخة ، فصدق الناس أنه العزير . تلك هى الآية ، وتعجب الناس أن الابن فى سن مائة والأب فى سن الخمسين ، وهذه هى الآية للناس . ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . هذا القول يأتى على لسان العزير ، فهل معنى ذلك أنه لم يكن يعلم من قبل أن اللّٰه على كل شىء قدير ؟ لا . لقد كان يعلم علم الاستدلال ، ولأنه قد أصبح يعلم علم الشهادة ، علم الضرورة وليس مع العَيْنْ أَيْن .

إذن .. قول العزير : ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . ما الذى تبين له ؟ لقد تبين له قدرة اللّٰه على بسط الزمن وقبضه ، لقد كان يعلم من قبل علم اليقين والآن أصبح يعلم حق اليقين .

دعوى باطلة

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة : ٣٠] .

نقول : إن هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله ، فالإنسان يتخذ ولدًا لعدة أسباب ، إما لأنه يريد أن يبقى ذكره فى الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه وتعالى هو الحى الذى لا يموت ، وإما لكى يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف ، والله سبحانه وتعالى هو القوى ، وإما ليرث ماله وما يملك ، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها ، وإما ليكون عزوة له والله جل جلاله العزيز دائمًا ، وهكذا تنتفى كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى هذا الادعاء ، ولا يعقل أن يرسل اللَّه سبحانه وتعالى رسولًا ليبين للناس منهج الحق فيقول : إنه ابن الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣١] ؛ الحق سبحانه وتعالى استهل هذه الآية بقوله : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ وهذا منافٍ لما أمروا به ؛ لأنهم أمروا بأن يعبدوا اللَّه الواحد الأحد ؛ والأرباب هنا منافية للألوهية الواحدة ؛ وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ . فالمسيح رسول الله ، ولا يمكن أن يأتى بأوامر ونواه من عنده ؛ لأنه جاء ليعدل ميزان إيمان الناس بربهم ، ومعنى أنهم قالوا : إن المسيح ابن الله . أنهم ألَّهوه لأن يعبد ؛ وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف : ٨١] . وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ . أعطت الوحدانية للَّه من جانب إثبات الألوهية ، وقوله تعالى : ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ نفت وجود إله إلا اللَّه سبحانه وتعالى ، فكأن اللَّه جاء بها من جانبى الإثبات والنفى .

وقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، تنزيه للَّه سبحانه وتعالى عن أى شىء يوجد فى البشر ، فكلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ولفظ الجلالة « الله » لا تقال إلا للَّه سبحانه وتعالى ؛ لذلك يقول اللَّه

سبحانه وتعالى : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٦٥] .

إذن .. فالله سبحانه وتعالى بالقدرة والقهر حجز ألسنة البشر جميعًا أن يقول أحدهم لأحد : « سبحانك » ، أو أن يسمى أحد ابنه « الله » .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، وموقف المشركين وأهل الكتاب واقع تحت هذه الآية ، لماذا ؟ لأن منهج اللّه لا يأتى إلا إذا عم الفساد ، والله يريد من الإنسان أن يكون مصلحًا ، وأقل درجات الصلاح أن تترك الصالح فلا تفسده ، فإن استطعت أن ترتقى به يكون ذلك أحسن ؛ فإذا كانت هناك بئر يشرب منها الناس ، فالصلاح أن تترك هذه البئر ولا تردمها ، والأصلح منه أن تحمى جدرانها بالطوب ؛ حتى لا تنهار الأتربة وتسدها ، وأن تحاول أن تسهل حصول الناس على الماء من البئر ، والأصلح منه أن تصنع خزانًا عاليًا ، ومن هذا الخزان تمد المواسير ؛ ليصل الماء إلى الناس فى منازلهم بدون تعب ، هذا إصلاح .

إذن .. فالله جل جلاله يريد من الإنسان أن يصلح فى الأرض ، والمجتمع كله يسعد بأى إصلاح فى الأرض ؛ ولذلك فإن اللّه سبحانه وتعالى يعطى اختيارات فى أشياء ولا يعطيها فى أشياء أخرى ، فالإنسان له اختيار فى أن يصلى أو لا يصلى ، يتصدق أو لا يتصدق ، يعمل أو لا يعمل إلى آخر ما نعلمه ، ولكن الكون الأعلى محكوم بالقهر .

* * *

ذكر طرف من قصة نبى الله زكريا عليه السلام

زكريا هو الذى كفل مريم وقام على خدمتها ؛ وكأن اللّٰه تعالى اختاره لهذه المهمة ؛ لأن القوم حينما تسابقوا إلى كفالة مريم واستهموا على ذلك ، كان هذا الشرف من نصيب زكريا عليه السلام .

انظروا .. الناس كانت تتسابق فى الخير ، وكانوا يفهمون أن كفالة مريم شرف كبير ، فضربوا قرعة على هذا الأمر ، فجاءوا بالأقلام وألقوها فى البحر ، والقلم الذى يطفو هو الذى يكفل صاحبه مريم . وذلك قول اللّٰه سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران : ٤٤] . مما يدل على أنهم فهموا أن كفالة مريم شرف كبير يسعى إليه كل إنسان ، ولا يصح لأحد أن يناله دون اقتراع ، والقرعة هي وزنٌ للمسائل حتى لا يغضب أحد .

وكان زكرياد كلما دخل على مريم يجد عندها رزقًا لم يأت به هو ؛ فيستغرب ، ويسألها : من أين أتاها هذا الرزق ؟ فتخبره أنه من عند الله ، وذلك قول اللّٰه تعالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وهذا يعلمنا أن الإنسان المسئول عن الإنفاق عن أهل بيته إذا وجد شيئًا فى البيت لم يحضره هو ، عليه أن يسأل : من أين جاء هذا الشيء ؟ لأنه ربما يكون أتى من طريق غير شرعى ؛ لأنه هو المسئول عن أهل بيته ، والله سبحانه سائله عنهم وعليه ألَّا يغض بصره عن هذه الأشياء ؛ لأنها مداخل للشر .

فلما دخل زكريا ووجد الرزق المنوَّع عند مريم ، وقالت له عنه مصدره : ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] هنا تساءل زكريا : كيف فاتنى هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [مريم : ٣٨] ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وإنه الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، وأيقظت فيه القضية الإيمانية ، قال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا . وكونه قال ذلك ، فمعنى هذا أن زكريا صدَّق مريم فى

قولها : بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله . ودليل آخر فى التصديق هو أنه لابد وقد رأى أن الأشياء التى توجد عند مريم ليست فى بيئته وليست فى زمانه ، إنها أشياء متعددة ، إنه يدخل عليها المحراب وكلما دخل وجد عندها رزقًا .

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة ، والمحراب هو مكان الإمام فى المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم كالمبلغات التى تقام فى بعض المساجد ، وما دامت مريم قد أخبرت زكريا وهى فى المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت تلك القضية الإيمانية لديه ؛ فقد دعا زكريا فى أثناء وجوده فى المحراب : ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ؛ إنه هنا يطلب الولد ، ولكن لابد لنا أن نلاحظ ، هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عزوة أو ذكرًا ؟ لا ؛ إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذِكر زكريا للذرية الطيبة تفيد معرفته أن هناك ذرية غير طيبة .

وفى قول زكريا : ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ . أى : أن يكون وعاءً لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد ، لقد طلبه لمهام كثيرة وكبيرة ، وقول زكريا : ﴿هَبْ لِى﴾ تعنى أنه استعطاء شىء بلا مقابل ، إنه يعترف ويقول : أنا ليس لى المؤهلات التى تجعل لى ولدًا ؛ لأنى كبير السن وامرأتى عاقر ، إذن فعطاؤك يا رب هو هبة ليس حقًّا لى ، كأن الذى عنده استعداد لأن يكون هذا الأمر حقًّا ، فعليه أن يعرف أن عطاء اللّه له يظل هبة ، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هى التى تعطى الأبناء ، إن الحق سبحانه ينبهنا ألا نقع فى خديعة غش أنفسنا بالأسباب ؛ يقول سبحانه وتعالى : ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى : ٤٩، ٥٠] إن فى ذلك لَفتًا واضحًا وتحذيرًا محددًا ألا نفتن بالأسباب .

إن دعاء زكريا ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ ؛ كلمة هب توضح ما جاء فى سورة « مريم » من قول زكريا : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم : ٨] ، إن ﴿هَبْ﴾ هى التى توضح لنا هذه المعانى ، هكذا كان دعاء زكريا : ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ . هل المراد أن يسمع اللّه الدعاء أم أن يجيب اللّه الدعاء؟ إنه يضع كل أمله فى الله ، كأنه يقول : إنك يا رب فور أن

تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك ، لماذا ؟ لأنك يا رب تعلم صدق نيتى فى أننى أريد الغلام ، لا لشىء من أمور قرة العين والذكر والعز وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثًا لى فى حمل منهجك فى الأرض .

بشارة الملائكة لزكريا عليه السلام

يقول الحق : ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران : ٣٩] ؛ هل صنعت الملائكة جوقة لتنادى زكريا ؟ لا ؛ لأن جبريل عليه السلام هو الذى ناداه ، ولماذا جاء قول الحق سبحانه على هذا النحو ؟ الجواب : لنفطن إلى أن الصوت له جهة يأتى منها ، فالصوت القادم من الملأ الأعلى لا يعرف الإنسان من أين يأتيه ؛ وكأنه يأتى من كل الجهات .

إذن .. فقول الحق : ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ . فهذا يعنى أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ . لقد نادته الملائكة حال صلاته لله ؛ أو هو حينما دعا أخذ ما علَّمه اللّه الأنبياء إذا حزَبهم أمر قاموا إلى الصلاة ، وعلى كل واحد منَّا عندما يصعب عليه شىء وتتأزم الأمور وتمتنع الأسباب ، أن يقوم فيتوضأ ويقف بين يدى اللّه ويسأله من فضله ورحمته ، ويطلب منه سبحانه أن ييسر له أمره ويعينه على قضاء حاجته .

ومعنى حزبه أمر أى : أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة بخشوع إلى اللّه خالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى المسبب ، وبدلًا من أن تتشعَّب نفسك وتتحيَّر ، اذهب إلى اللّه من أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تتعب نفسك ولك رب حكيم ؟ ! إن من له أب لا يحمل همًّا والذى له رب أليس أولى بالاطمئنان ؟ إن زكريا قد دعا اللّه فى حاجة له ، دعاء الواثق من ربه فما كان إلا أن نادته الملائكة وهو يصلى ، إنها لم تنتظر إلى أن ينتهى من الصلاة ؛ لأنه لابد لها من الإسراع فى إبلاغ أمر الله ، لا تأخير ولا انتظار ، دعا اللّه فاستجاب له ونادته الملائكة وهو واقف بين يدى ربه يناجيه : ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت .

قوله تعالى : ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ . لقد قال اللّه له : سأعطيك ، وزيادة على العطاء سماه اللّه بـ : يحيى ، وفوق كل ذلك : ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ، ولننظر إلى دقة البلاغ فى

قوله تعالى : ﴿بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا﴾ هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله ، ودليل على أنه سيعمل الطاعات وهو مصدق ، وهو سيأتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله فهو عليه السلام أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام .

وقد وصفه الحق سبحانه بقوله : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أى ممنوعًا من كل ما حرم عليه ، وهو نبى أى قدوة فى الاتباع .

لما دعا زكريا ، وتلقى البشارة بيحيى عندئذ قال زكريا ببشريته : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران : ٤٠] . إن زكريا وهو الطالب تعجّب من الاستجابة ؛ فيتساءل : كيف يكون ذلك ؟

يقول زكريا : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ ؛ إن بلوغ الكبر ليس نصًّا فى أنه غير قادر على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة للرجل ليس أمرًا يتحكم فيه تقدُّم العمر ، إن لم يكن عاقرًا ، ولكن المرأة هى الطرف المهم فى ذلك ، فإن كانت عاقرًا فذلك قمة العجز فى الأسباب ، ولو أن زكريا قال فقط : وامرأتى عاقر ، لكان أمرًا غير مستحب بالنسبة لزوجته ؛ لذلك أوردها من أولها : ﴿وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ . تأمل دقة القول فى « بلغنى الكبر » ، إنه لم يقل : بلغت الكبر ، إنه يقول : إن الكبر هو الذى جاءنى ، ولم أجئ أنا إلى الكبر ؛ لأن بلوغ الشىء يعنى أن هناك إحساس ورغبة بأن تذهب إليه .

وقال زكريا : ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ ، وذلك تعميم لطلاقة القدرة عند من يستمع القصة ، لقد أورد كل القوالب البشرية ، وبعد ذلك يأتى القول الفصل : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ . إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب ؛ لأنها قدرة خالق الأسباب .

تعلم زكريا أن الله يعطى ، وإن عزت الأسباب

لم يصدق البُشرى من فرط سعادته ، فأراد أن يتأكد منها ؛ لذلك قال : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم : ٨] . فأُوحى إليه أن يطرح الأسباب التى عرفها ؛ لأن الذى يكلمه هو الخالق عز وجل ، الذى قال له : ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم : ٩] . ولكن من أين تعلَّم

زكريا أن الله يعطي وإن عزت الأسباب ؟ عرف هذا لأنه كان موصولًا بالله عز وجل .

واستجاب الله سبحانه وتعالى دعاء زكريا ووهبه يحيى قال تعالى : ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء : ٩٠] . فالله سبحانه وهب لزكريا غلامًا رغم تعطل الأسباب ، وفوق ذلك هو الذي سماه : « يحيى » ، إن لله سرًا في هذه التسمية ؛ لأن الناس يضعون الأسماء بمسمياتها ، وكل واحد حر في أن يضع اسمًا لأي مسمى ، فلو أن امرأة زنجية أنجبت بنتًا واختارت لها اسم « قمر » لا يستطيع أحد أن يمنعها من ذلك ، فالناس أحرار في تسمية ما يريدون ، فالاسم يخرج من معناه الأصلي إلى أن يصير علمًا على هذا المسمى ، وإن حاد عنه المعنى ؛ فتسمي واحدًا « سعيد » وهو شقي ، وتسميه « فاضل » وليس عنده شيء من الفضل ؛ لأن الناس يسمونه هذه الأسماء تفاؤلًا أن يكون المولود كذلك ، فأنت إذا سميت ابنك « يحيى » لا تملك له أن يحيا أو يعيش ، ولكن إذا سماه من يملك الموت والحياة فلابد أن يحيا والذي يقوله الله فيه لابد أن يظل ذكره حتى بعد موته ؛ ولذلك شاء الله ليحيى أن يموت شهيدًا ؛ حتى يظل حيًا ، وكلمة : ﴿وَوَهَبْنَا﴾ : معناها أن هذا المولود لم يجئ عن طريق القانون التكويني للناس ، ولكن جاء هبة من الله رغم كبر والده وعقم أمه .

فلابد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، بل إنه لا يموت أيضًا [لأنه شهيد] ، لكن الكل من البشر يموت ، الحق سبحانه يهيئ ليحيى من خصومه ومن أعدائه من يقتله ؛ ليكون شهيدًا وهو بالشهادة يصير حيًا ، فكأنه يحيا دائمًا .

ومعنى : ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ . أي جعلناها صالحة للإنجاب بعد أن كانت عاقرًا .

إذن .. « يحيى » جاء بقدرة الله وحده بغير الأسباب الكونية للميلاد ؛ لأن الله تعالى أراد ذلك ، فربنا سبحانه أصلح الزوجة التي كانت غير صالحة للإنجاب .

وعملية الإنجاب هذه ليست عملية ميكانيكية ، ولكنها متعلقة بإرادة الخالق ومشيئته ، فأحيانًا تجد زوجين صالحين للإنجاب ومع ذلك يتأخر الحمل شهورًا أو سنوات ، لأن الله تعالى لم يأذن بالذرية ، وأحيانًا تجد زوجين استمرت حياتهم الزوجية سنوات طويلة دون إنجاب ،

وربما يحدث طلاق بينهما وتتزوج الزوجة فتنجب ، ويتزوج الرجل فينجب فهذه أشياء ليست ميكانيكية ، ولكنها تخضع لمشيئة الخالق ؛ ولذلك فعلى المسلم الذى يبتلى بالعقم ويستنفد الأسباب أن يكثر من فعل الخيرات ويدعو اللّٰه سبحانه وتعالى ويلح عليه فى الدعاء . ومعنى : ﴿خَٰشِعِينَ﴾ أى راضين بقدرهم فى وجود العقم ، ولا يرفع قضاء حتى يرضى صاحبه به ، فإذا كنت عقيمًا فلا تبخل بمالك وتضن به على المحتاجين ، وانظر إلى أولاد الناس على أنهم أولادك ، وانزع من نفسك الحقدَ والكراهية التى قد يسببها لك عدم الإنجاب ، وسارع فى الخيرات ، وادع اللّٰه سبحانه أن يعطيك من فضله ؛ لأنه هو سبحانه ولى ذلك والقادر عليه ، وبعد ذلك اخشع لله ، ومعنى الخشوع : هو الاطمئنان لمقادير الخالق فى الخلق ، فترضى بقدر اللّٰه فيك بأنك عقيم ، وبعد هذا الرضا تدعوه أن يهبك من فضله ذرية صالحة مع رضائك التام وتسليمك بقدر الله ، مع يقينك الكامل فى قدرته على كل شىء ، وحكمته البالغة فى كل ما كتبه على الناس من أقدار .

لماذا طلب زكريا آية على حمل زوجه ؟!

قال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران : ٤١] ؛ إن زكريا يطلب علامة على أن القول انتقل إلى فعل ، لماذا يطلب علامة إذا كان اللّٰه قد : ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم : ٩] . لقد كان هذا القول تأكيدًا لا شك فيه ، فبمجرد أن قال الرب انتهى الأمر ، فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب « آيةً » أى علامة على أن « يحيى » قد تم إيجاده فى رحم أمه ، فكانت استغاثة زكريا : يا رب لا تتركنى أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة ؛ لأننى أريد أن أعيش فى إطار الشكر لك عليه ، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد تأتى وأنا غير شاكر ، إنه يطلب « آيةً » ليعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب « آيةً » عن شكٍّ فى قدرة الله ، معاذ الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوِّت على نفسه شكر النعمة من أول وجودها .

والذى يعطينا هذا المعنى هو قول الحق سبحانه : ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ . فهل معنى ذلك أن يمتنع هو

عن الكلام ؟ أو أن معناه أن يرغب فى الكلام فلا يستطيع ؛ إن هناك فارقًا بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألَّا يقدر على الكلام ، وما دامت الآية هبة من الله ، فالحق هو الذى قال له سأمنعك من أن تتكلم مع الناس إلا رمزًا . أى : بالإشارة ، كفاقد القدرة على الكلام ، وحتى نعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن زكريا لا يريد أن تمر عليه لحظة من نعم اللَّه بدون شكر للَّه عليها ، فإننا نعلم أن اللَّه سينطقه .

وقوله تعالى : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ تفيد أن زكريا قادر على الذكر ، وغير قادر على كلام الناس ؛ لذلك لا يريد اللَّه أن يشغله بكلام الناس ، وكأن اللَّه يريد أن يقول : ما دمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرًا ، أجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر . والذكر مطلقًا هو : ذكر اللَّه بآلائه .

لذلك كانت الآية قوله تعالى : ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ . الحق جعل الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام فى نظر الناس مرضًا . لا ، إنه ليس كذلك ؛ لأن الحق يقول له : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ . إن الحق يجعل زكريا قادرًا على التسبيح وغير قادر على الكلام ، إنها قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إن اللسان الواحد غير قادر على الكلام إلا بالرمز ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه أيضًا يصبح قادرًا فقط على التسبيح بالعشى والإبكار ، وذِكر الله ؛ إنه ذَكَرَ اللَّه باللسان وسمعه الناس ، إنها بيان لطلاقة القدرة .

اصطفاء اللَّه تعالى لآل عمران على العالمين

قال تعالى : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران : ٣٣] . نحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام هو : « أبو الأنبياء » ومن آل إبراهيم ، اصطفى اللَّه تعالى من ضمن ما اصطفى آل عمران ؛ وكلمة : « عمران » ترد فى القرآن اسم لشخصين : الأول : « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام .

والثانى : « عمران » والد السيدة مريم عليها السلام . « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام كان اسم أبيه « يصهر » واسم جده « قاهت » ومن بعده « لاوى » ومن بعده

« يعقوب » ومن بعده « إسحاق » وبعده « إبراهيم » . وقد حصل إشكال عند عدد من الدارسين وهو أىّ العمرانين ذكره الله تعالى هنا ؟

ولما اختلفوا لم يفطنوا إلى أن القرآن قد أعطى الهوية والمعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون ، بل عمران والد مريم أُمِّ عيسى عليهم جميعًا السلام .

وعمران والد مريم هو ابن ماثان وهو من نسل سليمان ، وسليمان بن داود ، وداود من إيشا ، وإيشا من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحاق ؛ وهو ابن أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام .

لذلك كان على المختلفين أن يفطنوا إلى ذكر اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك ، فيعلمون أنه عمران والد مريم .

وزكريا عليه السلام كان اسم والده : دان - ويقال : لدن - وكان معاصرًا لماثان . إذن .. يكون المراد هنا هو عمران والد مريم ، والذى زاد من حيرة المختلفين هو وجود أخت لموسى وهارون كان اسمها مريم ، وكانوا فى هذا الزمن يتفاءلون باسم مريم ؛ لأن معناه العابدة فى لغتهم .

وعندما تقول : اصطفيت كذا على كذا . فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن يصطفى واحدًا على الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بقوله تعالى : « على العالمين » . أى : على عالمى زمانهم ، إنهم قوم كانوا موجودين وقد اصطفى منهم واحدًا ، أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ؛ إننا نتكلم عن عالمهم الموجود فى زمانهم .

وقوله تعالى : ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران : ٣٤] يجب أن نعلم : هل المقصود بذلك الأنساب ، أم الدين والقيم ؟ خاصة أن الحق سبحانه قد علّمنا فى مسألة إبراهيم أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنساب القيم والدين .

إذن .. فنحن نفهم قول الحق سبحانه : ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ . على أنها ذرية فى توارثها للقيم .

***

دافع مناجاة امرأة عمران للَّه تعالى

قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران : ٣٥] . عندما نقرأ « إِذْ » فلنعلم أنها ظرف ، ويقدر لها فى اللغة : « اذكر » ، ويقال : إذ جئتك ، أى : اذكر أنى جئتك : وعندما يقول الحق تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ فبعض الناس يفهم أن الحق سبحانه سمع قول امرأة عمران ، وعلم سبحانه دافعها وقت أن قالت امرأة عمران : ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى﴾ ؛ إنهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها من أن اللَّه تعالى سميع وعليم ؛ لأن الحق قال قبلها : ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وقولها : ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ ؛ فالدافع إلى هذه المناجاة للَّه سبحانه : أنها كانت موجودة فى بيئة ترى الناس يعتزون بأولادهم ، وأولاد الناس يحكمون حركة الناس ، والناس يحكمون حركة أولادهم ، ويكِد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة وقرة عين ، ولم تعجب امرأة عمران بذلك ؛ لقد أرادت ما فى بطنها محررًا من كل ذلك ، إنها تريده محررًا منها وهى محررة منه ، وهذا يعنى أنه غير مرتبط بشيء أو بحب أو برعاية ؛ فلماذا ؟

إنّ الإنسان مهما كان مجاهدًا لنفسه فى طاعة الله ، فإن المسائل التى تتصل بالناس وبه تمر عليه وتشغله ؛ لذلك أرادت امرأة عمران ما فى بطنها محررًا من كل ذلك .

وقد يقال : إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر فى ذات إنسانية كذاتها .

ونرد على ذلك بما يلى : لقد كانوا قديمًا عندما ينذرون ابنًا للبيت المقدس – ما دامت لهم الولاية عليه – يظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد ، وعند بلوغ سن الرشد فإن الابن له أن يختار بين أن يظل كما أراد والده ، أو يحيا حياته كما يريد . وبلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته .

إن امرأة عمران لا تريد ما فى بطنها أن يكون قرة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريده محررًا لخدمة البيت المقدس ، وطلب امرأة عمران هذا يقتضى – فى التصور البشرى – أن يكون المولود ذكرًا ؛ لأن الذين كانوا يقومون بخدمة البيت هم الذكران .

إذن .. فمعنى طلب امرأة عمران : ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ ؛ أى أنها

تطلب ولدًا ذكرًا ، ونحن نعرف أن كلمة الولد تطلق على الذكر والأنثى ، ولكن الاستعمال الشائع هو أن يطلق الناس كلمة ولد لا على الذكر فقط ، ولكن « الولد » كلمة معناها المولود سواء أكان ذكرًا أم أنثى . وكلمة « نذر » عندما نسمعها نفهم أنها أمر أُريد به طاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كُلِّف .

إن النذر هو زيادة عما كُلِّف المكلّف من جنس ما كلف . وكلمة : ﴿نَذَرْتُ﴾ إن امرأة عمران كانت تقية وورعة ، ولكنها ليست مجبرة على النذر ، وفعلت ذلك - وهو أمر زائد - من أجل خدمة بيت الله ؛ لأنه إن قام البعض بخدمة البيت فأمْرَ خدمة البيت يسقط عن الباقين ، وإن لم يقم أحد بخدمة البيت فإن ذلك معناه وقوع الجميع في الإثم ، وما دامت امرأة عمران قد نذرت ما في بطنها محررًا ، فهذا يدل على حبها لربها جل وعلا ؛ لأن النذر كما نعلم يُظهر حب العبد لربه ولأوامره ؛ فإنك لو لم تحب ربك لما زدت فوق ما كلفك من جنس ما كلفك .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ القبول هو أخذ الشيء برضا ؛ لأنك قد تأخذ بكرهٍ أو تأخذ على مضضٍ أما ﴿فَتَقَبَّلْ﴾ فذلك يعني أن الأخذ بقبول ورضًى . واستجاب اللَّه لهذا الدعاء ؛ قال تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ .

و« الرَّب » هو المتولى للتربية ؛ لذلك قالت امرأة عمران : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ . هكذا كان الدعاء ، وهكذا كانت الاستجابة : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ : الحسن هنا هو زيادة في الرضا ؛ لأن كلمة : ﴿بِقَبُولٍ﴾ تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة : ﴿حَسَنٍ﴾ توضح أن هناك زيادة في الرضا ، وذلك مما يدل [على] أن اللَّه قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضًى وبشيءٍ حسن ، وهذا دليل أن الناس ستلمح في تربيتها شيئًا من الرضا ؛ إنه ليس قبولًا عاديًا ، لكنه قبول حسن .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ . يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما في بطنها ألا تربي ما في بطنها إلى العمر الذي يستطيع فيه المولود أن يخدم في بيت الله ، ولكنها نذرت ما في بطنها منذ اللحظة الأولى لميلاده ، إنها لن تنعم به ، ولذلك قال

الحق : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ، وزكريا هو زوج خالة السيدة مريم عليهما السلام .

أمنية امرأة عمران

قال تعالى : ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ . هذا القول من امرأة عمران ؛ لأنها كانت قد قالت : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ لخدمة البيت . وقولها : ﴿مُحَرَّرًا﴾ ؛ تعنى أنها أرادت ذكرًا لخدمة البيت ، فلما جاء المولود أنثى ففهمت أن ذلك لا يؤدى إلى الغرض المطلوب الذى أرادته ؛ وهو خدمة البيت فقالت : ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ فكأنها قد قالت : إن لم أمكن من الوفاء بالنذر فلأن قدرك سبق فى أنه غير منذور . ولكن الحق يقول بعض ذلك : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران : ٣٦] ؛ إن هذا القول يعنى أنها لا تعترض على قدر الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحسر ؛ لأن الغاية من نذرها لم تتحقق ، لقد كانت تتحسر لأنها كانت تحب أن يكون المولد ذكرًا لخدمة البيت ، فإن لم تقدر على الوفاء فلأن اللَّه قدَّر أن يكون المولود أنثى .

الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ . فهل هذا كلامها أم من كلام اللَّه تعالى ؟ إما أنه كلام اللَّه تعالى ؛ فكأنها لما قالت : ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ . قال اللَّه تعالى : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ . كأن الحق يقول - ما معناه - لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنّينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى ؛ إن هذه الأنثى لها شأنٌ عظيم .

أو أنه من تمام كلامها : ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ ويكون قول الحق سبحانه : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هو جملة اعتراضية ، ويكون تمام كلامها : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ . أى أنها قالت : يا رب إن الذكر ليس كالأنثى ؛ إنها لا تصلح لخدمة البيت ؛ وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه ، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر .

فلا يقولن أحد ذكرًا أو أنثى لأن نية امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكرًا ، وشاء قدَّر اللَّه أن تكون أنثى ، وتكون هذه الأنثى أسمى من تقدير امرأة عمران فى الطاعة لذلك قال : ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ . أى أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى .

وقالت امرأة عمران : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران : ٣٦] .

إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة أن تكون فى الخدمة لبيت اللَّه تعالى ؛ لأنها جاءت أنثى ، تمنت امرأة عمران وتفاءلت أن تكون المولودة طائعة عابدة ، فسمَّتها مريم لأن مريم فى لغتهم معناها العابدة ، فما فات المولودة فى خدمة البيت ، فليكن فى خدمة عقائدها وخدمة منهجها فى ذاتها ، وأول ما يقدح العبودية هو الشيطان ؛ فإنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية .

إن الإنسان يريد أن يصير عابدًا فيجيء الشيطان ليزين له المعصية ؛ لأجل ذلك أرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغات الشيطان ؛ لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزغات الشيطان ، وقد تمنت لمريم أن تكون عابدة ؛ لقد كانت امرأة عمران تمتلك عقلية إيمانية حاضرة تحمل المنهج التعبدى كله ، فقالت : ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ .

وعلمنا الرسول ﷺ حين يأتى الرجل أهله أن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان ؛ لأن إتيان الأهل مظنة لمولود قد يجيء ، فعلى العبد أن يقول : « اللهم جَنِّبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا » ، ومن يقول هذا الدعاء قبل إتيانه أهله فلا يكون للشيطان ولاية أو سبيلًا على المولود إن قدِّر أن يكون ، ولذلك قالت امرأة عمران : ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ .

والذرية قد يفهمها الناس على أنها النَّسل المتكاثر ، ولكن كلمة ذرية تطلق على الواحد وعلى الاثنين وعلى الثلاثة ، والذرية هنا بالنسبة لمريم هى : عيسى عليهما السلام .

كفالة زكريا لمريم

يقول تعالى : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] . قد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن ، أما قوله تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ . فهذا يعنى أن المسألة جاءت من أعلى ، إنه الرب الذى تقبلها بقبول حسن وهو سبحانه الذى أنبتها نباتًا حسنًا .

إذن .. فرعاية زكريا لها بأمر من الله ، والدليل على ذلك أنك ساعة تجد قرعة أو سهامًا

فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله ، فعندما نختلف على شيء ، فإننا نُجرى قرعة ويُخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج ، ذلك لنمنع هوى البشر ؛ وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم .

ولذلك فالحق سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

إذن .. فالكفالة جرى فيها تنازع ، دليل ذلك أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالة مريم ، ولا يمكن أن يلجئوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم عن : ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ؟ ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجًا من أشياع أخت حنة التى هى أم مريم ، فهو زوج خالتها .

وقوله : ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ قيل : إنها القداح التى كانوا يصنعونها قديمًا ، أو : الأقلام التى كتبوا بها التوراة ؛ فرموها فى البحر ، فمن طفا قلمه فاز بكفالة مريم ، ومن غرق قلمه فى البحر لم يفز بكفالة مريم .

إذن .. فهم قد خرجوا عن مراداتهم إلى مراد الله سبحانه ، والخروج عن المرادات والخروج عن الأهواء كالقرعة مثلًا لا يُوجِد فى النفس غضاضة ، لكن لو كان سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغصب ، لكانت نفوس الآخرين ممتلئة بالمرارة أو الغضب ؛ ولذلك فقد كان سائدًا فى ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يُساء الظن بأحد .

وقول الحق سبحانه : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ : يرشدنا إلى أن زكريا عليه السلام هو الذى كان يقوم برعاية شئون مريم .

اصطفاء مريم على نساء العالمين

يقول تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

« الملائكةُ » ، قيل : إن المراد بالملائكة جبريل عليه السلام . وعلّة أن الحق سبحانه يورد ذلك بقوله : ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ؛ لأن كلام المتكلم له زاوية انطلاق يأتى من جهتها الصوت ،

وتستطيع أن تتأكد من ذلك إذا سمعت صوتًا ، فإنك تجد ميلَ أذنِك لجهة مصدر الصوت ، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمنى فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال ، لكن المتكلم هنا هو الملائكة يتكلمون بنفَسٍ واحد ؛ لذلك فالصوت قد جاء مريم من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبًا .

ماذا قالت الملائكة ؟ قالت : ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

فى هذه الآية نجد أن الحق سبحانه لم يورد ﴿عَلَىٰ﴾ فى الاصطفاء الأول ، وأورد بعده أنه طهّرها ، ثم أورد فى الاصطفاء الثانى : ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

إذن .. لابد لنا أن نعلم ما هو الاصطفاء ؟ الاصطفاء : اختيار واجتباء مأخوذ من الصفو ، والصفو أو الصافى : هو الشىء الخالص من الكدر ؛ لذلك يكون قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ . أى : اختارك واجتباك .. بماذا ؟ بالإيمان والصلاح والخلق الطيب ، كل ذلك بالمعانى ، ولم يورد فى الاصطفاء الأول على من يكون الاصطفاء ، ولكن فى الاصطفاء الثانى قال الحق : ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

إذن .. فهذا خروج للرجال عن دائرة الاصطفاء ، إنه ليس موضوع رجال ، وإنما هى مصطفاة على نساء العالمين ؛ إذ لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها فى هذا . لماذا ؟ لأنها هى الوحيدة التى ستلد من دون ذكر ، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد .

ولنا أن نسأل ما نتيجة الاصطفاء ؟ لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار . « المصطفَى » بفتح الفاء يقتضى « المصطفِى » بكسر الفاء . والمصطفِى هو اللّٰه تعالى ، ومن الذى اصطُفى ؟ إنها من وقع عليها الاصطفاء ، ولكن ما علة الاصطفاء ؟ لنر هذا الأمر . إن الذى يصطفيه اللّٰه يصطفيه لمهمة ، وتكون مهمة صعبة .

إذن .. فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى أم لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ؛ لأنه جاء لمصلحتهم . وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا : ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِى وَٱرۡكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

فكأن ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول والاصطفاء الثانى ، يستحق منها القنوت ،

أى : العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة .

ومعنى قوله تعالى : ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ . إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها ، وكلمة : ﴿لِرَبِّكِ﴾ أى : لخالقك الذى رباك ؛ فكأن الاصطفاءات نِعَمٌ على مريم ، تستحق منها القنوت . وقوله تعالى : ﴿وَٱسْجُدِى﴾ أى : بالغى فى الخشوع والخضوع بوضع الجبهة التى هى أشرف شىء فى الإنسان على الأرض ؛ لأن السجود هو أعلى مرتبة فى الخضوع ، لكن هل هذا اللون من الخضوع يعفيها مما يكون مع الناس ؟ لا .. إنه الأمر الحق يصدر لمريم : ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ .

فليس فى فعلك السجود وهو القمة فى الخضوع إعفاءٌ من فعل الركوع ، بل عليك أن تركعى مع الراكعين ، أى : كونى معهم راكعة ، فلا يحق لك يا مريم أن تقولى : لقد أمرنى الله بالسجود الذى هو قمة الخضوع والخشوع . إن الحق يأمرها أن تكون أيضًا ضمن ركب الراكعين ، ولم يقل الحق مع « الراكعات » [لماذا] ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال نحب أن نمهّد تمهيدًا بسيطًا على فلسفة الأسماء فى وضعها على مسمَّياتها ، والأسماء ألفاظ فى اللغة تعيّن مسمّاها ، والمسمَّيات مختلفة ؛ فمنها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التى تدل على عالم الغيب كالجن والملائكة .. إلخ . هذه الأسماء تدل على معانيها ، وهدى اللهُ سبحانه البشرَ إليها بما علم آدم من الأسماء ؛ لأن الحق لو لم يعلّم آدم الأسماء فكيف كان باستطاعة آدم معرفة الأسماء ، وكيف كان باستطاعته التعبير عن معطيات الأسماء بمسياتها ؟

قول الحق سبحانه وتعالى لمريم : ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ؛ الركوع ليس خاصًا بالمرأة حتى يقول : « مع الراكعات » ، ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، ولو افترضنا أن الحق قد قال : « اركعى مع الراكعات » ، فهل كان ذلك منعًا للرجال من الصلاة أو منعها هى من الصلاة ؟ لا .. لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين ، ومجىء الأمر عامًّا يدخل الراكعات مع الراكعين ، ولو قال الحق : « اركعى مع الراكعات » لم يدخل الراكعين فى الراكعات ؛ إن المعنى هنا عام يشمل الجميع .

مريم من ذرية إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ

وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأنعام : ٨٤] .

حينما نسمع قول الحق : ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ نعرف أن العطاء لم يأت بالأسباب ، وإنما جاء بلا أسباب ، فإذا عملت عملًا وأخذت أجرًا عليه ، فهذا ليس هبة ، والله سبحانه وتعالى قد جعل التكاثر البشرى هبة من عنده .. فالذرية هى هبة من الله لخلقه ، ومجرد الزواج الذى هو التقاء الرجل بالمرأة لا يأتى بالذرية ، ولكنها هبة من الله ؛ لأنها ليس فيها مشقة العمل ، وهكذا تخرج من منطق الأجر إلى منطق الهبة ، كذلك فإن العقم الذى يُبتلى به أىّ من الزوجين هو أيضًا هبة ؛ ذلك لأنك إذا استقبلت العقم بالحمد ولم تنظر إلى أبناء الغير بالحقد والحسد ، يجعل اللّٰه كل من تراه ابنًا لك ؛ هذا يخدمك ، وهذا يخدمك ، هذه هى هبة العقم . أما هبة الإناث فإنك لو رضيت بها ، تجد أن اللّٰه يبعث إليك رجالًا يتزوجون بناتك ، ويصبح هؤلاء الرجال أفضل لك وأكثر طاعة من أبنائك .

إبراهيم عليه السلام وزوجته لم يكونا ينجبان ، وتزوج إبراهيم هاجر وأنجب منها إسماعيل عليهما السلام ، ربما كان ذلك أخذًا بالأسباب ؛ لأن إبراهيم لم يكن فى هذا الوقت قد أصبح شيخًا ، ولكن عندما كبر إبراهيم وكانت زوجته سارة عقيمًا لا تلد وهبه اللّٰه إسحاق عليهما السلام ؛ لتكون هذه الهبة مع عجز الأسباب دليلًا على طلاقةِ القدرة ، وإسحاق تزوج وأنجب يعقوب .

الإنسان منا يعلم بواقع قوانين الكون أنه ميت ، وعندما يكبر الإنسان يريد أن يكون له ابن ليرث اسمه فى الحياة ، فإذا جاءه ولد فكأنه ضمن استمرار حياته جيلًا ، فإذا جاء له حفيد ضمن استمرار حياته جيلين ، فإذا كان الولد تقيًا صالحًا كان ذلك قرة عين الأب ؛ ولذلك فعلينا أن نطلب دائمًا النسل الصالح اقتداءً بالأنبياء ؛ فهذا زكريا حينما دعا ربه قال : ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ [مريم : ٥، ٦] .

أى أنه يجب ألا نطلب الولد فقط ، ولكننا نطلب الولد الصالح الذى يحمل الخير للناس ، وهنا نلحظ أن قول الحق سبحانه : ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا

هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]؛ هما هبة من الله تعالى، ومكافأة لخليل الرحمن عليه السلام.

إذن .. فمكافأة إبراهيم عليه السلام على طاعته لله سبحانه لما ابتلاه بكلمات فأتمهن، جاءت هدية صالحة؛ فلم يُعطَ الولد والحفيد فقط، ولكنه أعطيهما مهديين نبيين، ونِعْمَ الهبةُ الولد الصالح، ولم تكن هبة الله لإبراهيم مقصورة على ذلك؛ بل جعل فى ذرية إبراهيم الأنبياء: داود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وكذلك إسماعيل ونبينا محمَّد صلوات الله عليهم وسلامه.

عندما نلتفت إلى أسماء الأنبياء التى ذكرت فى هذه الآيات، نجد أن القرآن الكريم قد بين لنا أن هبة الله لإبراهيم لم تقتصر على هؤلاء، بل قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٥- ٨٧].

المذكورون فى هذه الآيات من الرسل ثمانية عشر، وهناك سبعة من الأنبياء لم يذكروا فى هذه الآيات، وذكروا فى آيات أخرى من القرآن الكريم، وهم: إدريس، وهود، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم، ثم خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ. وأطول آية قسم فيها الرسل هى هذه الآية من سورة «الأنعام».

ولننظر إلى حكمة التقسيم. فمن هؤلاء الأنبياء المذكورين: اثنان كانا ملكين هما سليمان، وداود عليهما السلام.

إن الله أعطى سليمان وداود عليهما السلام سعة الملك والسلطان، فماذا أُعطى أيوب عليه السلام؟ ابتلاه وأعطاه الصبر على البلاء، وموسى وهارون وعيسى عليهم السلام أعطاهم شهرة الاتباع؛ ولذلك لا نكاد نعرف شيئًا من الأديان إلا اليهودية والمسيحية، وزكريا ويحيى وإلياس عليهم السلام أعطاهم الزهد، فهؤلاء أخذوا ملكة الزهد، وإسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام أعطاهم زهرة الحياة؛ ولذلك لا نعرف لهم أتباعًا، ونأتى بعد ذلك إلى نبينا محمد ﷺ فقد أعطاه الله تعالى الهدى الذى يقتدى به خلق الله كلهم فهم بهداه مهتدون.

وحين ذكر اللّٰه تعالى عيسى عليه السلام وقف العلماء عند قول اللّٰه سبحانه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ ، أي : من ذرية إبراهيم ، وهل عيسى من ذرية أحد؟ نعم ، العنصر البشرى فى عيسى وهو الأم مريم عليها السلام من ذرية إبراهيم ، وهذا ما احتج به أبو جعفر محمد الباقر ، حين قال له الناس فى موسم الحج : أنتم تدَّعون أنكم من نسل رسول اللّٰه ﷺ مع أن رسول اللّٰه ﷺ لم ينجب ذكورًا ؟ قال لهم : كأنكم لم تقرءوا القرآن فى قول الحق : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ . إلى أن تصل إلى نبى اللّٰه عيسى ، وعيسى عليه السلام ولد من غير أب ، من أنثى فقط ، إذن فنحن من ذرية محمد ﷺ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ٨٨] .

وهنا استعمال ذلك إشارة إلى ما تقدم وهم : إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسليمان . لماذا قال الحق : ﴿ذَٰلِكَ﴾ ولم يقل : « أولئك » مع تعددهم ؟ لأن الإشارة هنا إلى شىء جامع ، وهم المهديون من الله ؛ لذلك فهو شىء واحد ، أما « الكاف » فإن اللّٰه يخاطب بها مفردا ، وهو رسول اللّٰه ﷺ وخطاب الرسول ﷺ هو خطاب لكل أمته .

شمول المعجزة مريم وعيسى ، عليهما السلام

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٠] . حين يوجد لفظ مفرد ولكنه خبر عن اثنين فلابد أن يعم الخبر الطرفين ، فقول اللّٰه سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ . يفيد أن الآية ليست من واحد منهما ، ولكنها من مجموع الاثنين معًا ؛ لأن الآية هنا أن عيسى عليه السلام ولد من غير أب ، ومريم أنجبت ولم يمسسها بشر لا بزواج ولا زنًى ، فالمسألة متعلقة بكل منهما ، فالآية لا تكون فى واحد منهما دون الآخر .

ونظرًا لأن الآية متعلقة بهما على حد سواء ، تجد الحق سبحانه مرة يذكر ابن مريم أولًا ، فيقول تعالى كما فى هذه الآية : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ .

وفى آية أخرى يذكر مريم أولًا حيث يقول سبحانه : ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

فالاثنان سواء فى خبرية الآية ، وليس لأحد منهما تميُّز على الآخر ، وهذا يدل على أنهما شريكان فى الآية ، أى : المعجزة ، فلا يمكن أن تتحقق الآية بواحد منهما .

فالآية فى مريم أنها ولدت بدون رجل ، وما دام حدث منها هذا لابد أن تتعرض للمطاردة والاضطهاد ، كما تخجل هى من نفسها ؛ لأن هذه طبيعة فى الأنثى ، فإذا كانت بنت شعيب ذهبت إلى موسى وهى تمشى على استحياء ، فما بالك بمريم حين تأتى قومها وهى تحمل وليدها على كتفها دون أن يكون لها رجل ! ! .

وقد حفظ اللَّه مريم وابنها من كل سوء حتى أن خطيبها يوسف النجار الذى كان يجب أن يغار ويغضب لِما حدَث ، أنزل اللَّه على قلبه السكينة والقبول ، وظل فى خدمتها ورعايتها ؛ لأن اللَّه يَحُولُ بين المرء وقلبه ، فقلبه كان يجب أن يتغير من ناحيتها ؛ لأن هذه طبائع البشر ؛ ولكن اللَّه أنزل هذا الأمر عليه بردًا وسلامًا ، فلم يفعل شيئًا إلا أنه سألها سؤالًا واحدًا فقال لها : يا مريم ، أريد منك أن تقولى لى : هل رأيت فى حياتك شجرة تنبت بدون بذرة ؟ فضحكت وقالت له : الشجرة التى أنبتت أول بذرة .

ومعنى قوله تعالى : ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .

آويناهما : من الإيواء ، ومعناها أن إنسانًا اضطرته الظروف واحتاج إلى مكان يعيش فيه فدبر مكانًا أوى إليه .. ومريم فى هذه الحالة مضطرة ومضطهدة ، وكل الناس ينظرون إليها نظرات الاستغراب والشك ، فلابد أن يهيئ اللَّه لها مكانًا تأوى إليه ، وهذا المكان لابد أن تكون فيه مقومات الحياة ، وأولها الهواء ثم الماء ثم الطعام ، ونحن نعرف أن سطح الأرض يكون حارًّا ، ولكن إذا ارتفعت على جبل مثلًا تجد الحرارة أقل ، فكلما ارتفعت عن سطح الأرض انخفضت درجة الحرارة .. فالجو المعتدل لا يكون إلا فى ربوة ؛ لأنها تعلو عن سطح الأرض ، وهى فى ارتفاعها أقل من الجبل فتكون مقبولة فى الحر وفى البرد ؛ لأنها مكان متوسط الحرارة ، هذا من ناحية الهواء . ومعنى ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ من أسباب القرار والاستقرار : الطعام ، فلابد أن فى هذه الربوة زرعًا .

والمُعين هو الماء - فالربوة فيها ماء أيضًا - حينما أراد ربنا سبحانه وتعالى أن يضرب المثل بالأرض التى تؤتى أكلها مرتين قال : ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٦٥] .

بشارة الملائكة لمريم

يقول تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران : ٤٥] .

لقد كانت **المرحلة الأولى** بالنسبة لإعداد مريم : هى قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] . وفيها عرفت طلاقة قدرة اللّه تعالى .

و**المرحلة الثانية** : هى معرفتها بحكاية زكريا ويحيى عليهما السلام ، وتأكيد الحق سبحانه أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وكان ذلك إيناسًا لها .

ثم تدخل مريم إلى مرحلة جديدة ، وهى قول الحق تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ . والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل واحد : ماذا يقصد الحق بقوله : ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ ؟

والإجابة : هى أن الحق سبحانه علَّمنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

وهذا القول هو مجرد إيضاح وتقريب ؛ لأنه لا يوجد عندنا أقصر من الأمر بكلمة ﴿كُن﴾ ؛ لأن طلاقة قدرته سبحانه تسبق نطقنا بالكاف وهى الحرف الأول ﴿كُن﴾ . ولكن الحق سبحانه يوضح بشيء قريب لعقولنا نستطيع أن نستوعبه .

إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرًا فإنه يقول له : كن فيكون . وهنا قد يسأل سائل : لمن يقول الحق ﴿كُن﴾ ؟ إنه يقول للأمر ، أى أن الأمر يكون موجودًا قبل نطق الحق به ، لقد وجد الأمر بمجرد إرادة اللّه تعالى ، إن الحق يقول للأمر : ﴿كُن﴾ فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما فإن هذا الأمر ينشأ ، ﴿كُن﴾ هى مجرد إظهار الأمر للخلق .

إذن .. فكلمة : ﴿كُن﴾ جاءت لتدل على أن الحق يأمر بإظهار الأمر الذى أراده سبحانه ، هكذا نفهم معنى بشارة الحق سبحانه لمريم بكلمة منه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ .

ثلاثة أسماء : المسيح ، عيسى ، ابن مريم ، ما معنى المسيح ؟ قد يكون الممسوح من

الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المسيح : المبارك . وعيسى هو الاسم ، والمسيح هو اللقب ، وابن مريم هو الكنية .

وجاءت الثلاثة أنواع فى عيسى عليه السلام : ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ . نحن فى حياتنا اليومية كثيرًا ما نسمع كلمة وجيه ، والوجيه هو : ذو الجاه والشرف . وقيل : الكريم على من يسأله .

وكانت وجاهة عيسى عليه السلام فى الدنيا بنبوته وما أنزله الله عليه ، وما أعطاه من آيات ومعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وإذا كانت تلك وجاهة عيسى فى الدنيا ، فلماذا نصَّ الحق على وجاهته فى الآخرة ووصفه بأنه من المقربين ؟ !

الحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن فتنة بعض الناس فى عيسى عليه السلام ، واعتقادهم فيه وفى أمِّه الطاهرة البتول أنهما إلهان من دون الله تعالى ؛ فإن هذا الاعتقاد الباطل والقول الزور لا يؤثر فى مكانة عيسى عليه السلام عند ربه وخالقه ؛ فإن للمغالى جزاءه ، والمغالى فيه تنجيه رحمة العزيز الغفار ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ١١٦] .

وقول الحق تعالى : ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ، و﴿ٱلْمَهْدِ﴾ هو ما أعد كفراش للوليد أى أنه يتحدث وهو طفل .

و﴿وَكَهْلًا﴾ أى : فى حالة تقدم العمر به ، ولقد أورد الحق سبحانه ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ و﴿وَكَهْلًا﴾ رمزين لشىء : هو أن عيسى ابن مريم من الأغيار ؛ يطرأ عليه مرة أن يكون فى مهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلًا ، وما دام فى عالم الأغيار فلا يجب أن تفتنوا فيه ، وعلى ذلك لا يصح أن تقولوا : إنه إله أو ابن إله .

* * *

ميلاد عيسى عليه السلام حدثٌ عظيم

اعتقد كثير من الناس أن مريم هي ابنة عمران ، وأخت هارون كما وصفها القرآن ؛ قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٨] . ولذلك لما ذهب صحابة رسول الله ﷺ إلى اليمن قال لهم أهل اليمن : إنكم تقولون : إن مريم بنت عمران ، وتقولون : إنها أخت هارون ، مع أن بين موسى وعيسى مدة تبلغ أحد عشر جيلًا ، فكيف يتأتى هذا ؟ ! وعجز الصحابة عن الإجابة ، ولما عادوا قصوا القصة على رسول الله ﷺ ، فقال لهم النبي ﷺ : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم » .

أى : إنهم كانوا يتفاءلون بأسماء الأنبياء ، فالمسألة تشابه في الأسماء فقط ، إنها بنت عمران ولكنه ليس عمران أبا موسى ، وأخت هارون وليس هارون أخا موسى عليهما السلام .

فلما نذرتها أمها للخدمة ببيت المقدس ، شاء الحق سبحانه وتعالى بعد أن كانت تفرغ للبيت المقدس مكانا ، أفرغت نفسها لخدمة البيت المقدس قيما ، فتفرغت للقيم الدينية التى أنشئ من أجلها البيت المقدس ، حتى إنها هجرت أهلها وذهبت إلى مكان بعيد تخلو فيه بعيدًا عن الناس ؛ قال تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم : ١٦] .

وقوله تعالى : ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ أى : ابتعدت ، نبذت نفسها عن الناس وعن أهلها ، والإنسان يأنس بأهله ، ولكنها ابتعدت عن أهلها ، واتخذت من دونهم حجابًا أيضًا ؛ لكن بُعدها هذا لا يمنع أن يمر عليها أحد ، فاتخذت حجابًا تستتر به عمن يمر عليها فى هذا المكان ؛ أى : أرادت أن تعزل نفسها عن دنيا الناس وعن أُنسها بهم ؛ لأنها اكتفت بأنسها بالحق سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى شرقى بيتها ، أو شرقى البيت المقدس ، واختارت جهة المشرق ؛ لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس ؛ لأن سمة النور المادى أن يجعل الإنسان لا يتعثر فى الأشياء ويستطيع أن يسير فيه على هدى .

وقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم : ١٧] . الحجاب هو ما يجعله الإنسان حاجبًا له عن غيره ، وحاجبًا لغيره عنه .

وقوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم : ١٧] .

كلمة الروح لها إطلاقات متعددة فى القرآن ، أول هذه الإطلاقات التى نفهمها : أنها قوام حياتنا المادية ، فإذا نفخ فى الإنسان الروح يصير فى هذه المادة حس وحركة ونشاط وكل أجهزته تعمل ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص : ٧٢] .

فهذه هى الروح التى تجعل المادة تحس وتتحرك ، اللَّه تعالى يقول : ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم : ١٧] . وهو جبريل ، وكلمة : ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ تعنى أن هذه ليست صورته وليست حقيقته ، ولكن حقيقته شيء مختلف من نورانية وشفافية ، وغير ذلك من الأجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وحقائق أخرى ، ولكنه لم يظهر لها على حقيقته وتمثل لها فى صورة بشر ؛ لأنه لا يمكن أن يلتقى الملك بملكيته مع البشر ببشريته ؛ ولأن هذا له قانون وهذا له قانون ، فإما أن يتمثل الملك فى صورة بشر ، وإما أن الإنسان نفسه يرقيه الله ؛ ليأخذ صفة الملائكية ، كما رقى النبى محمدًا ﷺ فى المعراج .

فليس من الممكن أن يتفاهم معهم الملك ، إلا إذا تمثل فى صورة بشر وذلك من أجل الإيناس ؛ لأن الناس لم يروا الملائكة ، فربما لو رأوا الملك على صورته الحقيقية يحدث لهم رعبٌ وفزع ، فلابد أن يتمثل فى صورة بشر .

إذن .. تمثل جبريل لمريم فى صورة بشر من جنسها ؛ لأنها لم تكن لتطيق النظر إليه وهو فى صورته الحقيقية .

ومعنى : ﴿سَوِيًّا﴾ يقال : فلان سوى التكوين إذا كانت أبعاض جسمه منسجمة مع بعضها ؛ فليست جبهته عريضة أو أنفه مفلطحًا أو ظهره مقوسًا أو فيه عيب ظاهر ؛ ولكنه بشر سوى أى : مستوى الأعضاء والأبعاض ، وذلك للإيناس ، وأيضًا ليثبت أن مريم عفيفة شريفة ، بدليل أنها لما رأت هذا الإنسان السوى الوسيم الجميل قالتْ : ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم : ١٨] . ومعنى : ﴿أَعُوذُ﴾ أى : ألتجئ إلى اللَّه سبحانه ؛ لأنى أخاف أن تعتدى عليَّ وأنا امرأة ضعيفة . وإذا استعذت بالله تعالى ، فافهم أن الذى يحترم استعاذة إنسان بربه هو الإنسان المؤمن ؛ فإن استعاذ أحد بالله تعالى أمامه يعفو عنه ؛ لأنه لا يستطيع أن يجترئ

على من استعاذ بربه .

وكلمة : ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ تعنى أن عندها أملًا ؛ فحتى إن لم يكن هذا الرجل تقيًا فرحمة ربها تقيها منه .

فماذا قال لها الملك ؟ ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ؛

أى أنا لست قادمًا من تلقاء نفسى ، ولكنى رسول من عند ربك إليك . لم يقل : رسول اللَّه تعالى . لأن الرب هو المتولى التربية ، والذى تولى تربية شىء يصونه عن أى إفساد ؛ ولأن الربوبية عطاء مادى ، أما الألوهية فعطاء معنوى للقيم والعبادة . وكلمة : ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ كان المفروض أن يفهم منها أنها هبة ، فليست مسألة أسباب ، ولكن الأمر هبة من عند الله . كما كان يحيى عليه السلام هبة من اللَّه للنبى زكريا ؛لأن زكريا كان قد بلغ من الكبر عتيًا وامرأته كانت عاقرا لا تلد ، لكن فى مسألة مريم هناك أنوثة فقط بدون ذكورة .

وقوله تعالى : ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ : هناك ذكى من الذكاء ، وزكى أى مطهر وصافٍ ونقى ، وحين قال لها الملك : ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ، كانت الفطنة تقتضى معرفة أنه هبة ، وما دام هبة ، فلا تسألى عن الأسباب .

فماذا كان رد فعل السيدة مريم عليها السلام ؟ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم : ١٩] نحن نعرف أن التقاء الرجل بالمرأة له وسائل : **الأولى** : شرعها الخالق سبحانه وهى الزواج الشرعى بأركانه المعروفة ، وهنا يكون مس الذكر للأنثى حلالًا ؛ لأنها زوجته .

الثانية : الاتصال المحرم بين الرجل والمرأة ، وهو الزنى ، فإذا تم هذا الأمر بموافقة الأنثى فهو زنى ، وفيه حكم شرعى ، وإذا تم رغمًا فهو اغتصاب .

كلمة : « مسنى بشر » إذا جاءت فى القرآن فمعناها النكاح ، واقرأ قول اللَّه تعالى : ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

فالمس بمعنى النكاح . والإمام أبو حنيفة رضى اللَّه تعالى عنه لما وقف عند قول اللَّه تعالى : ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء : ٣٤] . قال : ليس المراد اللمس أو الملامسة ، ولكن المقصود هنا

الجماع . فكلمة : ﴿لَمَسْتُمُ﴾ ؛ أى جامعتم . وكلمة : ﴿أَنَّىٰ﴾ يستفهم بها عن الكيفية ، ومريم حين تحدثت منعت الكيفيات التى تعرفها من الزواج الحلال أو الالتقاء الحرام .

والبغِيُّ : هى التى تبغِى الرجال ، وتتخذ مكانًا معروفًا لممارسة هذا الإثم ، وهناك معنىً آخر للكلمة : « بغيًا » أى : مبالغة فى البغى ؛ وهو الظلم .

وبعد ذلك رد عليها الملك بقول الله تعالى : ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ كما قال فى الرد على زكريا أيضًا ؛ وكلمة هين وأهون بالنسبة للّه تعالى لا تأتى على حقيقتها ؛ لأن كلمة : هين معناها أن هناك أهون ، وهذا بالنسبة للفعل حين يعالجه الإنسان ؛ فهناك فعل صعب بالنسبة له وغيره أصعب ، وأقل منه هين أو أهون ؛ لأن الإنسان يفعل على قدر طاقته ، ولكن ربنا لا يعالج ، وإنما يقول للشىء : كن فيكون ، ولكنه يكلمنا بالأسلوب الذى نفهمه ، فيعرفنا أنه إن كان قد خلقنا من غير شىء ، فإعادة خلقنا من أشياء أهون ، وهذا بمنطقنا نحن ، فهو سبحانه يخاطبنا على قدر عقولنا .

فخَلْق عيسى عليه السلام من أم بدون أب ، شىء هين على الخالق سبحانه . والحق سبحانه يريد أن يجعل خَلْقَ عيسى عليه السلام آية للناس ، والآية تعنى الأمر العجيب الذى يخرج عن مألوف العادة والأسباب .

ونريد أن نقف وقفةَ تأمل وتدبر عند قول مريم عليها السلام : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ . فلو أنها سكتت عند قولها : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ ؛ لكان تساؤلها أمرًا معقولاً ، ولكن إضافتها ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ . تثير سؤالاً : من أين أتت بهذا القول ؟ هل قال لها أحد : إنك ستلدين ولدًا من غير أب ؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك ، لكن ذهنها انصرف إلى مسألة المس مباشرة .. لماذا ؟ إنها فطرة وفطنة المعرفة فى التلقى عن اللّه تعالى ، عندما قيل لها : ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران : ٤٥] . قالت لنفسها : ما دامت نسبته إلىَّ فلا أب له ؛ لذلك جاء قولها : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ؛ إذ لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب .

هكذا نرى فطنةَ التلقى عن اللّه فى مريم البتول ؛ لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى

منسوب إليها ؛ قالت لنفسها : إن الحمل بعيسى لن يكون بواسطة أب ، وكيف يكون الحمل دون أن يمسسني بشر . فقال الخالق القادر جل وعلا : ﴿ كَذَٰلِكِ﴾ أي لن يمسك بشر ، وكان من الممكن أن يقول لها : لقد نسبناه لك ؛ لأنك منذورة لخدمة البيت ، لكن الحق قال : ﴿ كَذَٰلِكِ﴾ تأكيدًا لما فهمته من أنها ستنجب عيسى دون أن يمسها بشر ، وتتجلى طلاقة القدرة فى قوله سبحانه : ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا﴾ أى : منتهيًا لا مناقشة فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم : ٢٢، ٢٣] .

﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾ أى حملت به ، ﴿فَٱنتَبَذَتۡ﴾ : بعدت ، ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ : أى بعيدًا ؛ لأنها شعرت بالحمل وخافت أن يطَّلع على سرها أحد . وكلمة : ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ أى جعلها تجيء ؛ لأن جاء معناها جاء من نفسه بمحض إرادته ، ولكن السيدة مريم دفعها المخاض إلى المجيء إلى جذع النخلة ، أى أتى بها المخاض إلي جذع النخلة ، والمخاض : هو الوجع الذى يصيب المرأة عند الولادة المباشرة ويسمونه « الطلق » ، فحين جاءها المخاض أتت إلى جذع النخلة ؛ لأن ألم الوضع يجعل صاحبته تمسك بأى شيء حولها تستند إليه من شدة الألم ، فربما جاءت إلى جذع النخلة تستند إليه ، وفى الآية قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ . ولم يقل : جذع نخلة . مما يدل على أنها كانت نخلة معروفة ، وجذع النخلة يطلق على الساق الذى يمتد من جذرها حتى الجَريد .

لما حدث هذا الأمر لمريم ؟ وأصبحت المسألة حقيقة واقعة من حمل ومخاض وولادة ، حدث لها نوع من النزوع الانفعالى ؛ لأنها فى البداية استغربت الأمر ، وقالت كيف يكون لى غلام وأنا لم يمسسني بشر ولم أَكُ بغيًا ؟ ! وبعد ذلك حملت ، والحمل في بطنها مستور ، ولكن عند الوضع سينكشف الأمر ، ويرى الناس الغلام وتواجهها المشاكل ، فهذا شيء صعب على النفس فى مثل هذا الموقف .

ولذلك تجد النزوعَ الانفعالى فى هذه الحالة فى قولها : ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم : ٣٢] . ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ هذا تمنٍّ ، إنها تتمنى أن تكون قد ماتت قبل أن

يحدث هذا الأمر ، مع أن المشرّع الحكيم نهانا أن نتمنى الموت ، لماذا ؟ قالوا : لأن تمنى الموت ورد حينما ادعى اليهود أنهم أبناء اللَّه وأحباؤه ، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة ، وأن الدار الآخرة لهم خالصة عند الله ، حينئذ نزل قول اللَّه تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ٩٤، ٩٥] .

أى : إن كان ما تقولونه حقًّا فى الآخرة لكم وحدكم ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين فى ادّعائكم . وفى نفس الآية أكد الحق سبحانه أنهم لن يتمنوه أبدًا ؛ لأنهم أحرص الناس على حياة ؛ ولذلك فلن يتمنوا الموت أبدًا .

وقلنا : إن السيدة مريم هنا تمنت الموت ، مع أن الرسول ﷺ قال : « لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلًا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى ، وتوفَّنِى إذا كانت الوفاة خيرًا لى لا » . إن تمنى الموت المنهى عنه يسبب حدوث ما تكره ، فكأنك كرهت الحياة وتمردت على القدَر فتمنيت الموت لكن أن تتمنى الموت ؛ لأنك تريد لقاء اللَّه وتخشى الفتنة فى دينك وأنك ستصير إلى خير مما تركت ، فهذا موضوع آخر .

ثم يقول تعالى : ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم : ٢٤- ٢٦] .

﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم ، وهناك قراءة : (فناداها مَن تحتها) بفتح الميم ، وكلمة من تحتها : دلت على أن الذى ناداها هو الوليد الذى وضعته وهو عيسى عليه السلام ، فقال لها : لا تحزنى . والحزن هنا ينشأ من أمرين : انقطاعها عن الناس ، وانها فى حالة ولادة ولم تجد أحدًا يساعدها أو يرعاها أو يقدم لها شيئًا . فقال لها : إن ربك جعل تحتك سريًّا . والسَّرى هو النهر الذى يجرى ماؤه زلالا .

وبالنسبة للطعام قال : ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فأعطاها سبحانه الطعام والشراب ، وهذه منطقية مع احتياج الإنسان .

ومن المعلوم أن عناصر استبقاء الحياة ثلاث مرات حسب أهميتها : منها الطعام ، ونحن

فى العادة نأكل ثلاث مرات فى اليوم ، ونستطيع أن نصبر على الطعام شهرًا ؛ والماء أعلى من الطعام فى المرتبة ، ولا نستطيع أن نصبر على شرب الماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة على قدر ما فى الجسم من ماء ، وأهم هذه المقومات الثلاثة هو الهواء حيث لا يستطيع الإنسان أن يستغنى عنه لحظة .

إذن .. فالمسألة مرتبة حسب الأهمية ، فمريم عندها عناصر استبقاء الحياة الثلاثة : الهواء موجود ، والماء موجود ؛ فقد جعل اللّٰه تحتها سريًا أى ماء زلالا متدفقًا ، والطعام من رطب النخلة التى أمرها بهز جذعها ؛ ليتساقط عليها الرطب .

وهنا نقف وقفة : إن هز جذع النخلة شيء صعب ؛ لأنك لو أتيت بأقوى رجل فى العالم ليمسك بنخلة من جذعها ويهزها فلن تسقط عليه واحدة من رطبها ؛ لأنه جذع ثابت ، **ولكن الحق سبحانه أراد أن يجمع بين شيئين هما** : طلب الأسباب مع الاعتماد على المسبب هو : هز النخلة مع أنها فى حالة مخاض ومتعبة ومتألمة ، وجاءت إلى النخلة ؛ لتستتر إليها ، فكيف تهزها وهى فى هذه الحالة من الضعف والألم ، مع أن أقوى الرجال لا يقدر على ذلك ؟ !

قالوا : لأن اللّٰه تعالى يريد أن يبقى اتخاذ الأسباب مهما كان الإنسان ضعيفًا ، فعليه أن يبذل جهده فى الأخذ بالأسباب ، ثم يعتمد على رب الأسباب . والرطب هو التمر الناضج ، وكلمة : ﴿جَنِيًّا﴾ تعنى أنه استحق أن يجنى ، أى إنه نضج واستوى . إذن .. لا بد من التوكل على رب الأسباب .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ ، ذكر الأكل قبل الشرب ، بينما فى الرزق ذكر الشراب أولًا ، ثم جاء بالطعام بعد ذلك فى قوله تعالى : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ ؛ فذكر الشراب أولًا ، ثم الطعام الذى سينزل من النخلة بعد ذلك ؛ لأن هذا رزق ، لكن فى الأمر بالانتفاع قال : ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ . فذكر الطعام قبل الشراب ؛ وذلك لأن الإنسان فى العادة لا يشرب إلا بعد تناول الطعام .

الحق سبحانه أعطى لمريم قِوام الحياة المادية من طعام وشراب ، ولكن بقيت الناحية المعنوية ؛ لأنها حزنت وتمنت الموت من صعوبة هذا الموقف فكيف ستواجه قومها بهذه الفضيحة فى نظرهم ؟ !

وهنا قال الحق سبحانه لها : ﴿وَقَرِّى عَيۡنٗاۖ﴾ ؛ وهذا معناه السرور ، وكلمة قرّى أى : اسكنى ، وسكون العين على مرأى واحد عند العرب ، دليل على أن العين صادفت مرأى جميلًا جدًّا لا يغنى عنه أى مرأى آخر ؛ ولذلك تظل ناظرة إليه ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم : لا تحزنى ، ولتقر عينك بما أنت فيه ، فليس هناك أجمل ولا أفضل من أن يصطفيك اللَّه ويجعلك سيدة نساء العالمين ، فأى سعادة وأى مكانة وأى شرف أنت فيه ؟ !

الحق سبحانه وتعالى يقول لمريم : ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم : ٢٦] . أى : إنك إذا رأيت أحدًا ستدخلين معه فى جدل ؛ لأن المسألة التى أنت عليها لن تستطيعى أن تأتى بمبررات لها ؛ لأن امرأة تحمل وتلد دون أن يمسها رجل ؛ كلام غير مقبول عند الناس ولن يصدقوه ، وسيتكلمون معك بسفاهة وجهل ، فعليك بالصمت ، ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ وإن رأيت أحدًا من البشر وسألك عما أنت فيه فقولى : إنى نذرت للَّه صومًا عن الكلام فلن أكلم أحدًا . فالصوم عند زكريا عليه السلام كان عن الكلام ، وهنا أيضًا الصوم عن الكلام [عند مريم] ؛ لأن المعجزات كانت قريبة من بعضها .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ بعض المشككين فى القرآن يقولون : كيف يستقيم الأمر بالصوم عن الكلام مع أن القرآن يقول لها : ﴿فَقُولِيٓ﴾ . أى يأمرها بالكلام وأن تقول لهم كذا وكذا ؟

ونحن نقول لهم : يجوز أن هذه الكلمة هى التى تقطع بها مريم الكلام مع القوم ، أو يجوز أن تكون الدلالة بالإشارة ، والدلالة بالإشارات أوقوى الدلالات وأعمها ؛ ولذلك فالأخرس حين يكون فى بيئة تفهمه يستطيع أن يتفاهم مع الناس ، ويفهم الناس منه ما يريد قوله عن طريق الإشارات ، ويكون مثار حديثهم ونوادرهم .

ومريم يمكنها أن تشير إلى من يسألها بما يُفهم منه أنها صائمة عن الكلام .

وكلمة : ﴿إِنسِيّٗا﴾ أى من الإنس ؛ أمرها الحق سبحانه ألا تتكلم مع أحد من البشر ؛ لأنها قد تتكلم مع جبريل ؛ حتى تجد مخرجًا من هذا الموقف المحرج الذى هى فيه .

هنا نعود إلى الحديث عن المخاض ، ونتساءل مَن الذى كلمها هذا الكلام من تحتها ؟

قيل : إنه جبريل ، وقيل : إنه عيسى عليه السلام . ولذلك حين رآها قومها وقد أتتهم بوليدها تحمله ، وأنكروا عليها ذلك الأمر ، أشارت إلى الوليد ! ! فكيف تشير إليه ؟ لابدَّ أنها علمت أنه سيتكلم ، وعرفت هذا الأمر من كلامه لها حين ناداها من تحتها ، وقال لها ألا تحزن وتأكل وتشرب وتقر عينًا ، فحين تكلم الوليد تأكد لها أنها فى معجزة عظيمة ؛ ولذلك وثقت تمام الثقة بأنها حين تشير إليه سيتكلم هو ويدافع عنها ؛ لأن كلامها لن يقنع الناس ببراءتها مما حدث لها ؛ لكن حين يتكلم عيسى عليه السلام وهو لم يزل فى المَهْدِ ، فمعنى ذلك أن هذه معجزة ، ومادام الذى تكلم [وهو] وليد معجزة كائنة ، [فإن] أمه [تكون معجزة هى الأخرى] من باب أَوْلى .

إذن .. قوله تعالى : ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ ليس المقصود بها جبريل ، ولكن المقصود وليدها عيسى عليه السلام .

ثم يقول تعالى : ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم : ٢٧، ٢٨] ، فهى التى ذهبت به إليهم ، فلم تتوار عن عيون القوم أو تهرب بوليدها إلى مكان بعيدٍ ، ولكنها ذهبت إليهم بنفسها ؛ وذلك لأن معها الحجة والبرهان ، ولأن موقفها سليم ، وهى واثقة من تأييد اللَّه تعالى لها ، فجاءت إلى قومها تحمل وليدها على صدرها ، فلما رآها القوم على هذه الحالة قالوا : ﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ . لأنهم يعلمون أنها غير متزوجة ! !

يُحكى : أن بعض المستشرقين سألوا الشيخ محمد عبده فى « باريس » عن حديث الإفك الذى تقوَّله المنافقون على السيدة عائشة فقالوا له : بأى وجه قابلت عائشةُ قومها بعد حديث الإفك ؟ فقال لهم : بالوجه الذى قابلت به مريمُ قومَها حين جاءتهم تحمله ! ! أى بوجه الواثقِ من البراءة ، وأن اللَّه لا يمكن أن يسلمها ، أو يخذلها ؛ ولذلك فالسيدة عائشة رضى اللَّه تعالى عنها لما ظهرت براءتها وأنزل اللَّه قرآنًا ، قالوا لها : قومى إلى النبى ﷺ فقالت : لا ، وإنما أَحْمَدُ اللَّه الذى بَرَّأنى .

فكون مريم تأتى بوليدها إلى قومها فهذه دلالة على أنها واثقة أن الحجة ستوافيها بالوليد ،

وإلا فكان [من] المفروض أن تخجل وأن تتوارى من القوم حتى لا يروها ومعها الوليد ؛ لأنها واثقة من نصر الله ومعونته .

وكلمة : ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ ؛ أى : لم يحدث مثله ، أو أنه من الفرية وهى تعمُّد كذب ، وقولهم ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ : مبالغة فى التعبير ؛ لأنهم عرفوها عابدة قانتة فكيف يحدث منها ذلك ؟ ! فهذا تَقْرِيعٌ لها ؛ لأن أباها لم يكن رجلًا سيئًا ولا أمها أيضًا ، فكأن القوم استغربوا أن يحدث هذا من مريم وهى العابدة القانتة التى جاءت من أبوين كريمين مستقيمين ، فكيف يحدث منها ذلك ؟ !

لما كثرت الأسئلة على السيدة مريم ، وكثر الاستنكار من القوم ، ماذا فعلت قال تعالى : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم : ٢٩] . أى أشارت إلى وليدها ، فكأنها تقول لهم : اسألوه ! وهذا دليل على أنها عرفت أنه سيتكلم ؛ لأنه سبق أن كلَّمها قبل ذلك ، فاطمأنت على أن تحمله إلى القوم ، ليس على أنه جسم الجريمة ودليل إدانتها ، ولكنها تحمله على أنه دليل براءتها .

فلما أشارت إليه استغرب القوم وقالوا : ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ .

فهم لم يستبعدوا أن يتكلم الرضيع فقط ، ولكنهم أنكروا الحديث معه ، وقالوا هل نحن مجانين حتى نكلم طفلًا رضيعًا ! !

لقد انبهروا انبهارًا فتَّتَ فيهم القوى ، وحتى قوى اللَّدد والخصومة حين ترى هذا لا تجد إلا الانبهار ؛ فالحق أبلج والباطل لجلج . لقد كان الأمر بيدهم ففى توراتهم أن من يزنى يجب أن يُرجم ، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن ؟ لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين عقولهم وحقدهم تختل ، هذه القوة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد : ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ الآية .

هذه المفأجاة جعلت الجبار فيهم ينهار وتخور قواه ، هذا من ناحية اليهود ، فماذا عن النصارى ؟ إن رضيعًا يتكلم فى المهد ، هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تخلو كل الأناجيل التى بين أيدينا الآن من هذه الواقعة ؟ !

إنه طفل تكلم فى المهد ، وكان لابد أن تكون الكلمة التى قالها مدروسة بعناية ، ولا يمكن

أن تنسى . لابد أن تكون كلمة رائعة ، من طفل يتكلم ، فكيف لا تأتى هذه الكلمة فى الأناجيل ؟ ! إن جنود اللّٰه سبحانه وتعالى هم الذين حفظوا الكلمة مُذ قالها عيسى عليه السلام وحتى تقوم الساعة . إن الأناجيل لم تذكر ذلك ؛ لأنها لو ذكرت ذلك لسألناهم ماذا قال ؟ سيكون الرَّد دون مواربة : لقد قال : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ؛ وهذا ينفى أنه إله .

وبينما القوم على هذه الحال ، من مفاجأتهم بما تحمل مريم ، ثم من استنكارهم الكلام مع طفل رضيع ، نطق عيسى عليه السلام قائلًا لهم : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم : ٣٠ - ٣٢] .

فكأنه يقول لهم : لا تتكلموا أنتم ولكن أنا الذى سأتكلم . وأول شيء قاله : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ؛ واستهلاله كلامه بعبوديته للّٰه تعالى ، دليل على أنه قد يقال : إنه ليس عبدًا وإنه إله أو شريك للّٰه سبحانه ، فأول كلمة نطق بها أنه عبد للّٰه تعالى ؛ ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه : إنه تكلم فى المهد . فإذا سألتهم ماذا قال حين تكلم ؟ تجدهم يصمتون ولا ينطقون بما قاله أبدًا ؛ لأن كلامه ينفى معتقدهم .

لم يقل : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ؛ فقط ، ولكنه أضاف شيئًا آخر فقال : ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ؛ ولكن كيف يؤتيه الكتاب وهو مازال طفلًا فى مهده ؟ قالوا : كأن هذا أمرًا ثابتًا ومفروغًا منه . ومعنى ذلك أن هذا الوليد أهلٌ لأن يتحمل أمانة السماء والأرض ، وجعله نبيا ذا سلوك قويم ولا يمكن أن يكون كذلك وفيه أى مطعن ، وفوق ذلك : جعله مباركًا أينما كان ، فهذه الصفات هى أنه عبد الله ، آتاه الكتاب والكتاب ، لم يأت بعدُ ولكنه سينزل فى المستقبل ؛ وذلك لأن هذا الوليد يتكلم عن الحق سبحانه فلابد أنه ملقَّن ، والذى يلقنه هو الذى سيؤتيه هذه الأشياء وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك قال أيضًا : ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم : ٣١] .

ومعنى : أوصانى بالصلاة والزكاة . أى أن الحق سبحانه وتعالى شرع له هذه العبادات والشرائع . ثم يقول تعالى : ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم : ٣٢، ٣٣] .

والبر بالوالدين معروف فهو بار بوالدته ، بمعنى أنه حين يكبر ويعرف القصة أنه وُلِدَ ولدٌ من غير أب دون أن يمس أمَّه بشرٌ ، فهذه الأحداث لن تسبب له أى ضيق ، أو غرابة ؛ لأنه هو نفسه الدليل على صدق هذه المعجزة ، والدليل لا يشكك فى المدلول ، أى إياكم أن تظنوا أنى سأكون عاقًّا لوالدتى ؛ بل سأكون بارًّا بها عطوفًا عليها ، ومعنى ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ . إن الحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولاً لابد أن يجعله ليِّن الجانب ؛ لأنه سيأتى ليخرج الناس مما ألفوه من الفساد ، ومعنى : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ . أى : يوم ميلادى كان سلامًا ؛ لأن هذا الحَدَث لو وقع لبنت فى أسرة أخرى كان من الممكن أن يقتلوها ، ويقتلوا وليدها ، ولكنها مرت بسلام ، والسلام عليه أيضًا يوم يموت ، وهنا خصّ يوم مولده ويوم موته بالسلام ؛ لأن الميلاد مقابله الموت ، والسلام عليه يوم موته ؛ لأنهم سيأتون ؛ ليأخذوه بغية صلبه وقتله ، وبعد ذلك يُشَبَّه لهم أنهم صلبوه وقتلوه ، ولكن اللَّه تعالى نجَّاه منهم ومن كيدهم ورفعه اللَّه سالماً من كل سوء .

وذكر السلام على نفسه يوم يبعث حيًا ؛ لأنه ليس هناك رسول سيسأله اللَّه هذه الأسئلة إلا عيسى عليه السلام ، وهى قول اللَّه تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٦، ١١٧] . والحق سبحانه يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمره اللَّه عز وجل به ، ولكن هذا تقريع لمن يزعمون أنهم أتباعه ، وقد حرفوا رسالته وجعلوه إلها من دون الله .

ثم يقول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم : ٣٤، ٣٥] .

كلمة : ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى : الذى تقدم ، وهو قصة عيسى ابن مريم ، ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ : أى يقولها اللَّه قول حق ، أى هذه قصة عيسى ابن مريم يخبرنا بها الحق سبحانه وتعالى ، أو أن معنى ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أى أنه ضد الباطل ، فالمعنيان متفقان : ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أى أنه قول اللَّه

الحق سبحانه ، أو أنه الحق الذى ضد الباطل ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ : أى يشكون ، فكأنه يخبرنا أنهم سيشكون فى هذا الكلام ويتقوَّلون فيه الأقاويل ، والمعنى : اتركوا هذه الأقاويل الباطلة ، وخذوا الكلام من الحق سبحانه ؛ لأن قول الحق هو الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكما قلنا كلمة : ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى : الذى تقدم أمره من أول قوله تعالى : ﴿وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ إلى هنا . ثم ذكر قضية هامة جدًّا فقال سبحانه : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ ۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ . ولكن لماذا بدأ بموضوع الولد ؟ قالوا : لأن قضية الشريك تنفى بأولية العقل ؛ لأن الشريك للّه ماذا يفعل معه ؟ !

فاتخاذ الولد قضية منفية بالنسبة للّه سبحانه وتعالى ؛ لأنه إن كان لاستدامة الحياة والذكر فى الدنيا ، فالله تعالى لن تذهب حياته حتى يكون موصولًا فى ولده ؛ لأنه هو الحى الذى لا يموت ، وإن كان من أجل العزوة والاستعانة ، فالله تعالى لا يحتاج إلى معونة أحد لأنه المعين سبحانه ، وهو الصمد الذى يحتاج إليه كل أحد ولا يحتاج هو إلى أحد .. لذلك قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۢ ۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .

ومعنى قوله تعالى : ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ؛ لأن هذه الأشياء كلها مخالفة للنواميس ، فإياك أن تعجب أن يفعل اللّه سبحانه ذلك مع زكريا ويحيى عليهما السلام لعطب الآلة ، وإياك أن تتعجب من أن الطفل الذى كان فى المهد صبيًّا قد تكلم .

كل هذه نواميس خارقة للعادة نأخذها كلها فى إطار : ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ أى : تنزيهًا له ؛ لأنه إذا أراد شيئًا لا يعالجه بعلاج وعمل وإنما يعالجه بقوله : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والفعل كن مكوَّن من حرفين فقط ، فحين يقول الحق لشىءٍ : كن ؛ يكون فى الحال .

معجزة كلام عيسى عليه السلام فى المهد

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران : ٤٦] . والكلام معناه : اللفظ الذى ينقل قول الناطق إلى السامع ، وقول الحق : ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلۡمَهۡدِ﴾ معناه : أن المواجه بكلام عيسى عليه السلام فى المهد هم الناس ونفهم من قوله تعالى : ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلۡمَهۡدِ﴾ سر وجود آية معجزة وهبها اللّه تعالى لعيسى عليه السلام ، وهو أن يكلم الناس وهو طفلٌ فى المهد ؛ لأن المسألة تعلقت بعرض أمِّه وبكرامتها

وعفتها ، فكان لابد من آية لتمحو عجب الناس حين يرونها وقد ولدت بدون زوج ، وهذه المسألة لم نجد لها وجودًا فى الأناجيل الموجودة بأيدى النصارى ، مع أنها مسألة كانت يجب أن تذكر من كتبة الإنجيل ؛ لأنهم يمجدون نبيهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذا الشىء العجيب ؛ ذلك أن كلام طفل فى المهد أمر عجيب وكان لابد أن يكون محل حفظ وتداول بين الناس . إن الطفل عندما يتكلم فى المهد فلن يقوم الناس برواية واقعة كلامه فى المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ويرددون قوله ؛ لأن العجيب أن يتكلم وهو فى المهد ، ويحرص الناس على أن يعرفوا ماذا قال : والكلمة التى قالها عيسى عليه السلام فى المهد لا تسعف زاعمى التبعية لعيسى عليه السلام فيما يدعون ؛ لأن الكلمة الوحيدة التى نطق بها أول ما نطق قال : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ، فأخفوا هذه المسألة كلها لماذا ؟ رغم أن كلام طفل فى المهد يكون أمرًا عجيبًا ، وما دام أمرًا عجيبًا ولافتًا للأذهان ؛ فلابد أن يكونوا قد سمعوا ما قاله ووعوه . ومادام قد سمعه القوم ووعوه فلابد أنهم تناقلوا ما قاله . وهو قد قال فى أول ما نطق : ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ . وبهذه الكلمة ينتفى ادعاء ألوهية عيسى عليه السلام .

إن الحق سبحانه يقول : ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ . ونحن نعرف أن الكلام فى المهد ، أى : وهو طفل . وكهل : أى بعد الثلاثين من العمر ؛ أى فى العقد الرابع ، والبعض قد قال : إن الكهولة بعد الأربعين من العمر . وقد حدثت له فى رواياتهم ما أسموه حكاية الصلب قبل أن يكون كهلًا ، فإذا كان قد تكلم فى المهد فينبغى أن يتكلم وهو كهل ، ولما كانت حادثة الصلب أو عدم الصلب أو الاختفاء عن حس البشر ليسمونها كيف شاءوا المهم أنها تمت قبل أن يكون كهلًا .

إذن .. فلابد أن يأتى وقت يتكلم فيه عيسى ابن مريم عندما يصير كهلًا . وأيضًا قول الحق سبحانه : ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ . إلا أنه كان فى المهد طفلًا ، وكهلًا أى ناضج التكوين ، وبذلك نعرف أن عيسى ابن مريم فيه أغيار وفيه أحوال ، فإذا كنتم تقولون : إنه إله فهل الألوهية وهو فى المهد ، هى نفسها الألوهية وهو فى الكهولة ؟ !

لو كانت الألوهية فى المهد فهى ناقصة ؛ لأنه لم يستمر فى المهد وحدثت له أغيار . وما دام قد حدثت له أغيار فهو محدث ، وما دام محدثًا فلا يكون إلهًا .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى عيسى ابن مريم : ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ؛ مقصود بها

عمله أى الحركة السلوكية لماذا؟ لأنه لا يكفى أن يكون مبلغًا ولا يكفى أن يكون حامل آية ؛ بل لابد أن يكون على السلوك الإيمانى .

افتراء اليهود فى دعواهم على مريم عليها السلام

قال الحق سبحانه : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ١٥٦] . أى : أن اللَّه قد أخذهم بذنوبهم ؛ بداية من نقضهم الميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وادعائهم أن قلوبهم ﴿غُلْفٌ﴾ [النساء : ١٥٥] لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الضلال ، ثم كفرهم وقولهم على مريم البُهتان العظيم ؛ فكأن قول البهتان على مريم لم ينشأ إلا من منطلق الكفر .

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ ؛ علمنا مما سبق ما قالوه عن أم عيسى الصديقة مريم ، وهم بقولهم البهتان يناقضون أفهامهم ، ويناقضون عقولهم ، ويناقضون واقعًا شاهدوه . لقد كانت مسألة ميلاد عيسى عليه السلام من « أم » دون « أب » شيئًا معجزًا يناقض ناموس الكون فى أن كل تكاثر إنسانى ينشأ من لقاء رجل بامرأة ، أو ذكر بأنثى . ولكن الحق سبحانه شاء أن يرد على مادية اليهود ، الذين أرادوا أن يروا اللَّه جَهرةً ولم يؤمنوا به غيبًا مطلقًا ، وظن اليهود بسخافة عقولهم أن اللَّه إن رئى بأعينهم جهرة كان إلهًا يستحق أن يُعبد ، وما علموا أنه لو كان مرئيًا جهرة لخلقه لما استحق أن يُعبد ؛ لأن المرئى تقدر عليه عين الرائى لتميزه ، فيصبح المرئى مقدورًا عليه ، والله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام : ١٠٣] .

إذن .. فمن غباء اليهود أنهم جعلوا المقتضى للإيمان مانعًا من الإيمان ، إن المقتضى للإيمان أن الحق سبحانه لا يقدر أن يحيط به أحد من خلقه أبدًا ، وهم طلبوا إدارك حاسة من حواس الإنسان له ، ومعنى ذلك أنهم طلبوا أن يكون اللَّه مقدورًا لعيونهم ، حينما قال اليهود ذلك البهتان ناقضوا عقولهم فى الفَهم ، وناقضوا الواقع الذى شهدوه .

تعلم عيسى عليه السلام الكتاب والحكمة

يقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران : ٤٨] .

حين نسمع قوله : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ نفهم أن المقصود بها : الكتاب المنزل والحق سبحانه قد أتبع ذلك بقوله : ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ . فلابد لنا أن نسأل إذن : ما المقصود بالكتاب ؟ فهل كان المقصود بذلك الكتاب : الكتب المتقدمة ؛ كالزبور والصحف الأولى كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ؟ قد يكون ذلك صحيحًا . ومعنى : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أن الحق قد علمه ما نزل قبله من زبور داود ، ومن صحف إبراهيم ، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى ناسخًا لها . وبعض العلماء قد قال : أُثر عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده . وبذلك يمكن أن نفهم ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أى : القدرة على الكتابة . وما المقصود بقوله تعالى : ﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بعد قوله : ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ .

كملة « الحكمة » عادة تأتى بعد كتاب منزَّل ، مثال ذلك قول الحق : ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٤] .

أيات اللَّه المقصودة هنا : هى القرآن الكريم ، والحكمة هى كلام الرسول ﷺ ؛ فالرسول له كلام يتلقاه ويبلغه ، ويعطيه الحق أيضًا الحكمة وهى سنته ﷺ .

أما التوراة التى علمها اللَّه لعيسى عليه السلام ، فكما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام أنه جاء ليكمل التوراة ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة ، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع المبعوث إليه ، فهو كما قال اللَّه تعالى فى القرآن الكريم : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

إن كلمة « رسول » تحتاج إلى دليل ، فليس لأى أحد أنْ يقول : أنا رسول من عند الله ، إلا إذا قدم بين يدى دعواه معجزة ثبت أنه رسول من الله .

إذن .. فالمعجزة تُلزم المنكر الذى يتحدى وتفحمه ؛ لأنه لا يستطيع أن يأتى بمثلها ؛ ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدى أن يجعل اللَّه تعالى معجزة الرسول من جنس ما نبغ فيه القوم ؛ لأن الحق لو جاء لهم بشىء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالرد منهم يكون للرسول بقولهم :

إن هذا أمر لم نروض أنفسنا عليه ، ولو روضنا أنفسنا لاستطعنا أن نفعل مثله . لذلك يرسل الحقُّ الرسولَ - أيَّ رسولٍ - بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسل إليهم . وقوم عيسى كانوا مشهورين بالحكمة والطب . لذلك كانت الآيات من جنس ما نبغوا فيه ، ثم تتسامى لأن الذى يطبِّب جسمًا ليس له علاقة بموت إنسانٍ ، فإذا ما مات إنسان فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب ، ولذلك رقَّى اللَّه آية عيسى أنه يشفى المرضى ويحيى الموتى أيضًا ، وهذا تَرَقٍّ فى الإعجاز ، وقد أخبر اللَّه سبحانه وتعالى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه قال لقومه : ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ﴾ .

إن كلمة : ﴿أَخْلُقُ﴾ تحتاج إلى وقفة ، وكذلك ﴿الطِّينِ﴾ و« الهيئة » و﴿الطَّيْرِ﴾ . فأخلق مأخوذة من الخلق . والخلق هو إيجاد شيء - على تقدير أنه شيء - قبل أن يوجد ، فأنت فى ذهنك أن تأتى به على هذه الحالة ، فإن كان يأتى على غيرتقديرك ، فليس خلقًا إنما هو شيء جزافى . فإن كان سيأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أى شيء ، فهذا ليس خلقًا ؛ الخلق هو المطلوب على تقدير ، والخلق على تقدير فيه إيجادٌ من عدم ، إنه شيء كان معدومًا فوجد .

إن أول فرق بين خلق اللَّه وخلق الإنسان أن خلق اللَّه سبحانه وتعالى يكون من عدم ، وخلق الإنسان من موجود ، وإن كان الاثنان على تقدير . وأيضًا خلق اللَّه سبحانه وتعالى يعطيه سرًّا لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعته ؛ فالله عز وجل يعطيه سر الحياة ، والحياة فيها نمو وفيها تكاثر .

إذن .. فالخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد من معدوم ، والمعدوم موجودة مادته ، هذا فى خلق الإنسان . أما فى خلق الله ، فالله يخلق من معدوم لا توجد له مادة ، البشر حين يوجدون شيئًا يوجدونه جامدًا على ما هو عليه لاحياة فيه ، ولا يمكن أن يتأتى منه التكاثر لإيجاد مثله . لكن اللَّهَ يخلق من الشيء ذكرًا وأنثى ، ويعطيهما القدرةَ على التناسل .

بعضٌ من معجزات عيسى عليه السلام

قال تعالى : ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران : ٤٩] .

إن كل إنسان يستطيع أن يصنع من الطين تماثيل كهيئة الطير لكن اللّه خص عيسى بمعجزة أنه يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه ، وقد نسأل فيم ينفخ ؟ أينفخ فى الطير أم فى الطين ؟ أم فى الهيئة ؟ إن قلنا :إن النفخ فى الطين بعدها صار طيرًا ، فيكون النفخ فى الطين كالنفخ فى الطير ، وجاء فى آية أخرى أنها نفخ فى الهيْئة وذلك فى قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ﴾ [المائدة : ١١٠] .

إن النفخ ﴿فِيهَآ﴾ تكون للطين أو للطير ، والنفخ ﴿فِيهَآ﴾ تكون للهيئة ، وهناك أية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول : ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم : ١٢] . إن النفخ هنا فى الفرج . فى الآية الآخرى قال : ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٩١] ، أى فى مريم عليها السلام . فمرّةً يقول : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ أى فى الفرج ، ومرةً يقول : ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أى فيها هى ، والقولان متساويان .

وهنا فى هذه الآية نجد أن الإعجاز ليس فى أن عيسى صنع من الطين كهيئة الطير ؛ لأن أى إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكأنه حينما قال : ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾ كأنه صار طيرًا من الطين فأى إنسان يمكن أن يفعلها ؛ ولكنك : ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تجمع بين الشكل وصناعة الطين كهيئة الطير ، فيكون طيرًا بإذن الله . نعم إن عيسى لم يكن ليجترئ ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله . لقد جاءت كلمة : ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ من قول عيسى وعلى لسانه . فهذا اعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته .

وكأنه عليه السلام يقول لقومه : إن كنتم فُتنتُم بهذا فكان يجب أن تفْتنوا بإبراهيم من باب أولى ، حينما قطَّع الطير وجعل على كل جبل جزءًا منهن ثم دعاه .

ومن معجزاته أيضًا ماورد فى قول اللّه تعالى : ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران : ٤٩] . لماذا هذين المرضين بالذات ؟ لأنهما كانا من الأمراض

المستعصية فى ذلك العصر . والأكمه هو الذى ولد أعمى ، أى لم يحدث له العمى بعد ميلاده . والبرص هو أن تبيض بقعة من الجلد وإن كان صاحبه أسود . ثم تظهر بعد ذلك بقع متناثرة فى جميع الجسم بيضاء اللون ، مما يدل على أن الجلد صار أبرص . وهو مرض صعب لم يكن باستطاعتهم أن يداووه .فلما أرسل اللّه تعالى عيسى ابن مريم إلى قومه أعطاه اللّه سبحانه وتعالى الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب ، وجاء لهم بآية فيه هى إبراء ما كانوا عاجزين عنه .

وبعض من الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس يقولون : إن هذه المعجزات إنما هى سبق زمن ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجًا لهذه الأمراض ، ولهؤلاء نقول : لا . لنأخذ كل أمر بأدواته ، إن عيسى ابن مريم عليهما السلام كان يبرئ بالكلمة والدعوة ، فمهما تقدم العلم فلن يستطيع أن يبرئ المرض بالكلمة والدعوة ، إنما سيأخذون أشياء ويقومون بتحليل هذه الأشياء ، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات ؛ لذلك تظل المعجزة التى جاء بها عيسى ابن مريم عليهما السلام معجزة ؛ لأنه كان يبرئ بالكلمة والدعوة ! !

ما هى شريعة عيسى عليه السلام ؟

وقوله : ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

وقد قلنا : إن ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ تعنى أن ما جاء به عيسى ابن مريم مطابقًا لما جاء فى التواة .

وقلنا : إن ما بين يدى الإنسان هو الذى سبقه ، أى : الذى جاء من قبله وصار أمامه ، ومادام عيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة فى زمانه ، وكانت التوراة موجودة فلماذا جاء إذن ؟ جاء بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة « آل عمران » قول عيسى عليه السلام لقومه : ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ .

إذن .. فليس الأمر هو التصديق فقط ؛ ذلك أن عيسى عليه السلام جاء ليحلّ بعضًا من الذى حرمته التوراة .

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتى مصدقة بعضها بعضًا ، فما فائدة توالى

نزول الكتب السماوية ؟ **إن الإجابة هي** : إن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكِّر من غفل عن الكتب السابقة ، هذا فى المرتبة الأولى . وثانيًا تأتى الكتب السماوية بأحكام تناسب التوقيتات الزمنية التى تنزل فيها هذه الكتب ، هذه هى فوائد الكتب السماوية التى توالى نزولها من الحق سبحانه على رسله ؛ إنها تذكِّر مَن غفل ، وتعدل فى بعض الأحكام . ومن المسلمات أننا جميعًا نفهم أن العقائد لا تبديل فيها وكذلك الأخبار والقصص ، لكن التبديل يشمل بعضًا من الأحكام التى تناسب عصر الرسالة وما بعدها لحين إرسال رسول آخر وهكذا .. إلى أن ختمت الرسالات برسالة المصطفى ﷺ ؛ ولهذا كان مما أرسل به عيسى ابن مريم عليهما السلام ما جاء فى قوله : ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ . ونحن نعرف أن القوم الذين أرسل اللَّه عيسى ابن مريم إليهم هم بنو إسرائيل ، والتحريم والتحليل يكون لحكمة من الله .

إن للَّهِ حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم ، وليس بالضرورة أن كل شىء يحرمه اللَّه يكون ضارًا ، قد يحرم اللَّه لسبب آخر ،وهو تأديب الخلق ؛ فيأمر بالتحريم ؛ ولذلك لا يجب أن نسأل عن الضرر فيما حرم الله ، فقد يعيش المؤمن دنياه ولم يثبت له ضرر بعض ما حرم الله ، فإن تساءل أحدٌ لماذا حرم اللَّه ذلك ؟نقول له : من الذى قال لك إن اللَّه حين يحرم يحرم الشىء الضار فقط . إن الحق سبحانه يحرم الضار ويحرم بعض ما هو غير ضار ؛ دليل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء : ١٦٠] .

دعوة عيسى إلى وحدانية الله

وجماع دعوة عيسى والأنبياء كلهم : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران : ٥١] . إذا اجتمع الرسول والمرسل إليهم فى أنهم جميعًا مربوبون لإله واحد ؛ فهذا يعنى الوحدانية المطلقة لهذا الإله ؛ ذلك أن هذا الإله هو الذى تولى تربيتهم ، والتربية تقتضى رعاية قيُّومية ، وعيسى ابن مريم يقرّ بعبوديته لله ، وكأنه يقول وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيدًا عليكم ، ولكننا جميعًا مشتركون فى العبودية لله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

ومعنى : ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى أنه صراط غير ملتو ؛ لأن الطريق إذا التوى انحرف عن الهدف ، والطريق المستقيم الذى يجمع الناس هو عبادة الله وحده .

فإذا ما كان الخلق جميعًا يتوجهون فى عبادتهم إلى إله واحد ، فهذا يعنى الاتفاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز ؛ ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا تجدهم شيعًا إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم ، والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، وما دامت عبودية لإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق .

إن قضية عبوديته عليه السلام لله تعالى قد حُسمت من البداية ، وهى قضية القمة : إنه عبدُ الله ، والقضية الثانية هى قضية الرسالة ونقْل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله ؛ حتى يؤسسوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم ، ومن الطبيعى أنه عندما يأتى الرسول بمنهج من عند الله ؛ ليدعو الناس جميعًا إلى اتباع هذا المنهج ، ويحدد حركة حياتهم بـ« افعل كذا » ، و« لا تفعل كذا » ؛ فقد يجد فى التكليف مشقة . لماذا ؟ لأن الأمر بـ« افعل كذا » يُلزمه بعمل قد يشق عليه ، والنهى بـ« لا تفعل كذا » يبعده عن عمل كان يحبه ، **والمرءُ فى الأحداث بين أمرين** : عمل يشق عليه ، فيجب عليه أن يجتنبه ، وعمل يستهويه ، فيجب عليه أن يقترب منه ، والمنهج قد جاء من الله ليقول للإنسان : « افعل ولا تفعل » .

وآفة الناس أنهم لا يحددون هدفَهم ؛ لذلك يعتبرون غير الهدف هدفًا ، وما دام هناك من يعتبر غير الهدف هدفًا ، فلابد من حدوث فوضى وضلال ، فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها ، أما الذى يعرف أن الهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، فنسأله ما الهدف إذن ؟ فيقول : إنه لقاء الله فى الآخرة . هذا الإنسان المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف . لكن الضالَّ الذى يرى الدنيا وحدها هدفه ، ولا يؤمن بالجنة أو النار ، فهو مغرور بضلاله ، إنه يقبل على ما تشتهيه نفسه ويبتعد عما يتعبه ، ولكن إذا كان يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وإنما الهدف فى السعادة التى سوف يحصُل عليها فى الآخرة ، فإنه سيسعى من أجل بلوغ هذا الهدف .

إذن .. ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف ؛ فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذى يقربه من الهدف فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذى يبعد عن

الهدف ويفعل عكس الموصل إليه ، فهذا هو الشر . وإذا كان الأمر كذلك ، فالمسألة هى فى تحديد الهدف .

قصة الحواريين مع عيسى عليه السلام

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح للمؤمنين قدر الخلاف بينهم وبين أهل الكتاب ؛ ليعرف كل مؤمن أن إيمانه برسالة النبى الخاتم تعطيه منزلة الإيمان الرفيعة ، وذلك على قدر صدق نيته ، وأداء واجباته الدينية بما فيها من عبادات ، ومعاملات ، وينزه الحقُّ عز وجل المؤمنين برسالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام عن أن يكونوا فى مستوى قوم موسى عليه السلام ؛ هؤلاء القوم الذين تعنتوا مع موسى عليه السلام ، وسألوه أسئلة تدل على مدى إغراقهم فى المادية ، وضعف إيمانهم بالغيب ، لقد خاطب اللَّه عز وجل المؤمنين بقوله : ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة : ١٠٨] .

إن الحق ،جلّ وعلا ، لم يضع المسلمين موضع التشبيه المباشر بقوم موسى ، فالحق جل وعلا ينزه المسلم أن يكون متشبهًا بواحد من القوم الذين ظنوا أن التمايز بالسلالة ؛ ذلك أن بعضًا من قوم موسى قد ظنوا خطأ ووهمًا ، وتحريفًا للتوراة أنهم متميزون عن بقية خلق الله ؛ لمجرد أنهم أبناء ليعقوب عليه السلام .

إن دين الإسلام الذى جاء به محمد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه سلم لا يضع تمايزًا لأحد فوق أحد إلا بالإيمان ، والعمل الصالح .

إن الذين طالبوا رسول اللَّه أن يأتيهم بالآيات والمعجزات ، هم الذين لم يقنعوا بما آتاهم اللَّه من قرآن مجيد يقنع ذوى الألباب ، وقد أجرى اللَّه عز وجل سنة فى الخلق مع الرسل ؛ فإذا طالب قوم الرسول المبعوث إليهم بآية معجزة ، فإن الحق يرسل هذه الآية ، فإن لم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب ؛ مثلما حدث مع قوم ثمود ؛ فإنه أرسل إليهم فطلبوا [منه] آية ، فأعطاهم اللَّه معجزة واضحة وهى الناقة فكفروا بها ، فكان ما كان من العذاب الذى أنزل اللَّه عليهم .
وقد طلب الحواريون من عيسى ابن مريم عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء فأنزلها الحق ، وحذرهم من الكفر بعد ذلك حتى لا يعذبهم عذابًا لا يعذبه لأحد من العالمين واقرأ قول اللَّه تعالى : ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ

ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢- ١١٥]. إن محمدًا ﷺ يتلقى الأمر من ربه بأن يذكر للناس قصة الحواريين أتباع عيسى ابن مريم عليه السلام عندما صاروا أصفياء، فسألوا عيسى ابن مريم عليه السلام أن ينزل عليهم طعامًا من السماء فقال عيسى عليه السلام لهم: إن كنتم مؤمنين بالله فخافوه وأطيعوا أوامره ونواهيه، ولا تطلبوا حججًا أو آيات غير التي بعثني الله بها.

لكنهم قالوا: إننا نريد أن نأكل من هذه المائدة؛ لتطمئن قلوبنا بما نؤمن به من قدرة الله، ونعلم عن رؤية مادية صدق ما أخبرتنا به عن الحق سبحانه، ونشهد لك بهذه المعجزة. ولبَّى عيسى ابن مريم طلبهم ودعا الله قائلًا: يا مالك كل أمر، أنزل علينا مائدة من السماء يكون يوم نزولها عيدًا للمؤمنين برسلك المتقدمين والمتأخرين، معجزة تؤيد بها الدعوة لمنهجك. واستجاب الحق وأنزل مائدة من السماء وتوعد الحق بالعذاب أيَّ جاحد بهذه النعمة، بعد أن أنزلها. إن من يطلب آية للإيمان بعد أن نزل القرآن الكريم فهذا دليل على عدم تمكن الإيمان من قلبه.

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب أمة محمد رسول الله ﷺ ما دام رسول الله فيهم وما داموا يستغفرون الله كلَّما ألمُّوا بذنب، وفي ذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

إن الحق تبارك وتعالى قد فضل أمة محمد عليه الصلاة والسلام على الأمم، ووعد ألا يعذبها ورسول الله ﷺ فيها، ذلك أن منهم من سوف يؤمن، ويستغفر الحق تبارك وتعالى، ولذلك لم يشأ أن ينزل الآيات التي طلبها بعض المتعنتين؛ لأن الحق عندما ينزل آية ثم يكذبها أحد بعد ذلك، فإن الحق يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لأمثال هؤلاء المتعنتين: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

إذن .. فأى سؤال عن آية غير الذى أنزله الحق على رسوله الكريم محمد ﷺ فذلك كُفْر ؛ لأن الذى يسأل عن آيات غير القرآن الكريم يستبدل بذلك الكفر بالإيمان ، وكأنه يريد أن يترك الإيمان إلى الكفر ، ومن يفعل ذلك فقد ضلَّ سواء السبيل . فسواء السبيل أى : فى وسط طريق الإيمان يتخللهم الإيمان بالابتعاد عن المعاصى ؛ لأن السير فى وسط الإيمان يتيح لهم الحماية والوقاية والأمان من كل الجهات ، فكأن مراد اللَّه عز وجل من منهج الإيمان أن يتمكن الإيمان من نفس الإنسان فيكون قويًّا بالإيمان . وبعد تلك الآيات الكريمة التى تحدث فيها الحق سبحانه وتعالى عن مريم وعيسى عليهما السلام ، قال الحق سبحانه : ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

لقد ذكر نبى اللَّه عيسى ابن مريم عليهما السلام القضية الإيمانية الجامعة المانعة أولًا ، حين قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ .

إن نبى اللَّه عيسى أوضح لهم بما لا يقبل الجدل ، أنا وأنتم سواء فى عبوديتنا للَّه الواحد وأنا لم آت لأتميز عنكم بشىء فيما يتعلق بالعبادة ؛ فالله رب لى ورب لكم ، والصراط المستقيم هو منهج عبادة اللَّه الحق ، إننا حين نسمع لفظ : الصراط المستقيم ، فإننا نتخيل على الفور الطريق الموصلة إلى الغاية وهى أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية ، إننا نعرف أن الطرق تُصنع لتُوصل إلى الغاية . وحين نسمع كلمة : ﴿صِرَٰطَ﴾ فلنا أن نفهم على الفور الغاية التى نريد أن نصل إليها ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

أى اتبعوا طريقى فهو أقصر شىء يوصل إلى أى غاية مطلوبة ، ومادام هناك طريق لغاية ما ،فلابد لنا أن نحدد الغاية أولا ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ؛ ليسلك الطريق الموصلة إلى الغاية ، وهكذا يقول لهم نبى اللَّه عيسى عليه السلام : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ .

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود . ولا تظن أن العبادة كما يريد خصوم الإسلام أن يضللوا الناس ، بأن الإسلام قد جاء فقط للصلاة والصوم والزكاة ، وأن يقتصر الإسلام على

أركانه ، وداخل جدران المسجد فقط ، فينفصل الإنسان عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية .

إن الأركان التعبدية لازمة ؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس ، حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ؛ فالإسلام منهج حياة متكامل وكل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون وفق منهج اللّه تعالى فهى عبادة ، والأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه ، فجعلوا بابًا للعبادات وبابًا للمعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شيء يأمر اللّه به فهو « عبادة » ، إلا أن العبادة أنواع فمنها ما يصل العابد بالمعبود جل جلاله ؛ ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون .

هكذا نعرف العبادة ، وهكذا نستوعب قول الحق سبحانه وتعالى الذى أرسل به نبيه عيسى عليه السلام : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ . لقد حسم نبى اللّه عيسى عليه السلام أمر العقيدة حينما قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ ؛ إن فى ذلك تحذيرًا من أن يقول أتباع عيسى أى شيء آخر عن عيسى ، غير أنه عبد لله ، مأمور بالطاعة والعبادة له سبحانه ؛ لأنه وضع أمامهم المنهج فقال : ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ .

وقول الحق : ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ . يدل على أن كل صاحب دعوة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف ؛ لابد أن يكون يقظ الإحساس ؛ لأن صاحب الدعوة الدينية يُخرج الناس من الظلمات إلى النور . وقد يقول قائل : ولماذا يعيش الناس فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك من يستفيدون من وجود جموع الناس فى الظلمات فالظالم الذى يأخذ حق الآخرين اغتصابًا ، يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ويدعوه إلى الهداية وإلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحبّ من ينطق هذه الكلمة ؛ لأنه يكره الكلمة وقائلها .

لذلك فالداعية مأمور من اللّه بأن يكون يقظًا .. لماذا ؟ لأنه إن اهتدى بكلماته أناس وسعدوا بها ، فإنه يُغضب أناسًا آخرين ؛ ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد .

إن نبى اللّه عيسى عليه السلام عندما أعلن منهج الحق وجد أنصار الظلم ، وأنصار البغى ، غير

مستعدين للإيمان بالله ؛ لذلك أحس منهم الكفر . لقد كان مليئًا باليقظة والانتباه ؛ فحينما بعثه اللَّه تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أحس منهم الكفر ؛ ولذلك أراد أن ينتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة فقال : ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية ، والتضحية تكون بالنفس والنفيس ؛ لذلك لابد أن يستشير من يجد فى نفسه العون على هذه المسألة . إنه لم يناد أفرادًا محددين ، إنما طرح الدعوة ؛ ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال النفس استجابة لدعوته عليه السلام [وهى] قوله : ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ .

كلمة : « أنصار » هى جمع « نصير » . والنصير : هو المعين لك على بغيتك ، وعندما قال عيسى عليه السلام : ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ؟ كانت ﴿إِلَى﴾ فى السؤال تفيد الغاية وهو اللَّه تعالى ، أى من ينصرنى نصرًا تصير غايته إلى اللَّه وحده لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن واحد يدخل تحت لواء الدعوة من أجل الغنيمة ، أو يدخل آخر من أجل الجاه أو غير ذلك . إنه يسأل عن أهل العزم ؛ ليكون كل منهم متجهًا بطاقته إلى نصرة اللَّه وحده .

إذن .. فعندما قال عيسى عليه السلام : ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ؟ فكأنه كان يسأل : من يعيننى معونة غايتها الله ؟ وعندما نأخذ هذا المعنى تكون الإجابة : لقد أخذت المعنى على قدر ذهنى ؛ لأن مرادات اللَّه فى كلماته لا تتناهى ، فقد يأتى واحد آخر يفهم أن معنى النصير هو من ينصر ، وسوف نرى النصر فى الإيمان وكيف يأتى .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧] .

إذن .. فالنصر منّا للَّه بأن نعبده حق عبادته بالتزام أمره واجتناب نهيه ، وهذا مراد الله ؛ ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرّب لمربوبه لذلك فمعنى سؤال عيسى عليه السلام : من ينصرنى مظلومًا فنصره إلى الله . إذن فهناك معسكران : معسكر الإيمان ومعسكر الكفر . لقد سأل : عيسى من يكون نصيرى إلى الله ؟ وحينما سأل وقال : من أنصارى إلى الله ؟ أى أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية الله ، وهكذا نعرف هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق سبحانه : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

إذن .. هناك نصر من المؤمن لربه ، وهناك نصر من اللّه للمؤمن ، وهكذا يكون سؤال عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قد أفاد المعنيين .

وكانت الإجابة : ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٥٢] . و﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ مأخوذة من الحور وهو شدة البياض فى العين ، وهم جماعة أشرقت فى وجوههم سيم الإيمان ، فكأن وجوهم مشرقة بالنور . ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس ؛ ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول اللّه محمد ﷺ فيقول : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه .. كيف ؟ ولماذا ؟ لأن الإنسان مكوّن من أجهزة ومكون من ذرّات ، والأجهزة لكلٍّ منها مطلوبات ؛ وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد ، وحين تتجه كل الأجهزة إلى اللّه تعالى ، ملتزمة أمره ونهيه ، فإن الذى يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، وما دامت الأجهزة منسجمة ، فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة تكون الملامح مكفهرة .

إذن .. فعندما قال عيسى عليه السلام : ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

إذن .. فالحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان ، أو هم قوم بيض القلوب ، معانيهم بيضاء ومشرقة . ومنه كلمة « الحور » وهو شدة البياض فى العين . والنبى ﷺ سمّى بعضًا من صحابته حوارى رسول الله . إنهم الذين جعلهم رسول اللّه معه طوال الوقت . وحين قال الحواريون : ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ؛ إن الواحد منهم يريد نصرة اللّه فينضم إلى كل ناصر للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج ، ونحن نعرف مقومات النصرة للّه وهى الإيمان .

ولذلك قال الحواريون : ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . ولماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض فى الرسول أن يبلغ القوم بلاغًا عن اللّه فيشهد عليهم ، كما

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٨] .

ولنا أن نلحظ أن الحواريين آمنوا أولًا ؛ لأنه أمرٌ غيبي عقدي في القلب ، ثم من بعد ذلك أسلموا ؛ لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه ؛ ولذلك فقولهم : ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ . هو طلب منهم للرسول عيسى عليه السلام : أَنْ بلِّغنا كل مطلوبات الإسلام ، وقل لنا قواعد المنهج افعل ولا تفعل ، لا إنهم قالوا : « آمنا » ، وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنو بمن بلَّغهم من الله ، والمطلوب من نبى الله عيسى عليه السلام أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام .

وقالوا من بعد ذلك : ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٥٣] . وقد يكون إعلانهم الإيمان إيمانًا برسالةٍ سابقة ، ولكن لنا أن نعرف أن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء برسالة من الله . ومعنى أن رسولًا يجيء ، أن هناك أمرًا أراد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها وكذلك الأخبار والقصص ، ولكنّ الأحكام هى التى تتغير . فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيما بما جاء سابقًا على رسالة عيسى وبما جاء به عيسى عليه السلام ، فهو إيمان كامل .

فضل الله ونعمَه على عيسى وأمه عليهما السلام

قال تعالى : ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وفى هذه الآية الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيدًا ؛ لأنها

جرت عليه ، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها . إن النعمة أجراها الله على عيسى وأيّده الله بما يزكى رسالته إلى قومه ، فكأنها كانت نعمة أولًا عليه ؛ لأنه مصطفى مختار مُؤَيَّدٌ ، وهذا الذكر للنعمة تقريع لمن رآها وعرف أنها كفيلة بأنها تثبت صدق عيسى فى بلاغه عن ربه ولم يؤمن .

ونلاحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين :

الأول : قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية .

الثانى : قسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله فى غيب الله .

والقسم الأول : الذى يقنع أصحاب العقول والألباب : هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . **والقسم الثانى الذى يقنع الماديين :** هو الأمور المادية الحسية التى يعلم من يراها أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ؛ كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيها فتكون طيرًا ، وإحياؤه عليه السلام الموتى بعد موتهم ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ إن هذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة ﴿بِإِذْنِي﴾ أى : أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله ، ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى ؛ لأنها أمر ظاهر ومعروف ، وقد فعل الحق ذلك حتى يكون الأمر واضحًا أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويؤمنون به وبمن أرسله .

فعل الحق ذلك حتى لا يخدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق عيسى عليه السلام .

إن الحق يفعل ذلك لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، **وهذا الإثبات مشروط بشروط : أولها :** أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة ، ومثال ذلك خرق الحق لناموس العصا - وهى فرع من الشجرة - وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى ؛ إن ما أجراه الله على عصا موسى عليه السلام لم يكن سحرا ولكنه نقلها من جنس إلى جنس ، وكان قوم عيسى عليه السلام قد نبغوا فى الطب ، ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفى بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة ، وعلى الرغم من تقدمهم فى الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك ، وإن قال قائل : لقد تقدم الطب وصرنا

ترقّع قرنية عين الأعمى فيبصر ، أو أننا بسبيل اكتشاف الدواء الذى يعيد لون البشرة إلى الأبرص . فإننا نقول : إن ما نراه فى زماننا هو سبق ابتكار ، لاخرق اقتدار كما فعل عيسى بإذن من الله ، لقد فعل عيسى عليه السلام ذلك بكلمة لا بإجراء عمليات جراحية ولا بتحضير أدوية وكيماويات .

والحق يُسرّى عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام بذكر هذه الآيات ، لكن الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا : إنها سحر . إن المبلغ عن اللّه لا يخشى إلا الله ، وهو يحبُّ أن يؤمن معه كل الناس ، إلا أنهم جحدوا بها وكفروا ، وقالوا كما قص الحق سبحانه فى القرآن الكريم : ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

إن الحق سبحانه خلق الخلق ، وجعل الإيمان أمرًا فطريا فيهم ، ثم تأتى الغفلة فتبهت جزئية ، وتأتى غفلة ثانية فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى بهتان .

وفى الحديث الذى رواه حذيفة بن اليمان رضى اللّه تعالى عنه قال : حدثنا رسول اللّه ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ؛ حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل المجْل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس فيه شيء - ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلًا أمينًا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ! ما أظرفه ! ما أعقلهَ وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى عَلَيَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت ، لئن كان مسلمًا ليردنه علىَّ دينُه ، ولئن كان نصرانيًا أو يهوديًا ليردنّه علىَّ ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا » .

وفى حديث آخر عن رفع الأمانة والفتنة ، قال حذيفة : كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول اللّه ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره ؟ قالوا : أجل قال : « تلك تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة » . ولكن أيكم سمع النبى ﷺ يذكر الفتن التى تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم . فقلت : أنا . قال :

أنت ، للَّه أبوك ! قال حذيفة : « سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا ، فأىّ قلب أُشربها نُكتَ فيه نكتة سوداء ، وأىّ قلب أنكرها نُكِتَ فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفاء فلا تضرّه فتنة ما دامت السماوات والأرض . والآخر أسود مربادًا كالكوز مُجَخِّيا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشرب من هواه » . قال حذيفة : وحدثته : أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يكسر . قال عمر : أَكَسْرًا ، لا أبا لك ! فلو أنه فُتِحَ لعله كان يعاد . قلت : لا . بل يكسر . وحدثته : أن ذلك الباب رجل يُقتل أو يموت حديثًا ليس بالأغاليط .

هكذا كان حديث الرسول ﷺ عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية . والحق أراد للمناعة الإيمانية أن تبقى فى عباده ؛ لذلك أرسل الرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد تحدث له الفتنة . لذلك عندما كان يظهر فساد فى الأرض يُرسل الرسول حتى يعيد البريق إلى النفس اللوامة . ويحيى فى المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله ، ولذلك نجد أن المقاومة التى تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد .

إن منهج الهداية حينما يأتى فهو يأخذ بأيدى المظلومين ، ويغضب منه الظالمون والأقوياء الجبابرة ، ولذلك يهاجمون الرسل ويحاربون منهج الله ، ذلك أن منهج اللَّه سيقطع عليهم سُبل الفساد الذى يُدِرُّ عليهم عائدًا هو فى نظرهم كبير ؛ ولذلك رأينا صناديد قريش وقد تصدَّوا للدعوة ، فمحمد ﷺ جاء بالمساواة بين كل البشر ؛ لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بالشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله . يعنى فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل ، فلو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ويبقى الأمر على ما هو عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ، ولا يبقى من جبروت لأحد ؛ فكل الناس سواسية .

لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام ، ولذلك نجد أن كل رسول يأتى فإن له من يعاديه من الجبابرة ومن أصحاب الفساد فى الأرض مصداقًا لقول الحق : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

ولذلك أراد الحق أن يجعل صيحة الإيمان فى الجاهلية تأتى أولًا إلى آذان سادة العرب جميعًا ، وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد من العرب على التعرض لهم ، ولم يجعل الحق النصر يأتى لمحمد وهو فى مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو كان قد حدث ومحمد ﷺ يحيا بين قومه فى مكة ؛ لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله ، لا الجزيرة العربية وحدها ؛ لذلك جعل الحق مقام النصر ينبع من المدينة المنورة ، لقد جاءت الصرخة أولًا فى آذان السادة ، ثم التف حولها المستضعفون فى الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ثم هاجروا ونصرهم اللّٰه من بعد ذلك على الأقوياء .

لذلك فنحن نجد أن كل داعٍ إلى اللّٰه يأتى إنما يريد إقامة منهج اللّٰه فى الأرض ؛ حتى لا يأتى الران على القلوب ، بسبب الغفلة التى حدثت بالبعد عن منهج الله . وذلك ما يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . ونجد أن الداعى إلى اللّٰه الذى ليس له عدو يصيبه بالسوء هو داع حظه من منهج النبوة ضعيف ، وميراثه من النبوة ليس بكثير ! ! والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام .. ماذا قالوا ؟ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات : ١٥] .

ومعنى ذلك أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحنقتهم ، وملأت مشاعرهم بالخيبة ، لقد جاء مثل هذا القول من قوم يكرهون منهج الحق ، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمة ، يدعم بها الحقُّ الداعىَ إليه ؛ لأن مقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التى يؤمن بها .

إذن .. فكلما رأينا داعيًا إلى اللّٰه يقاومه الناس ويقذفونه بالسِّباب ؛ فهذا دليل على صدق الداعى ، ما دام متمسكًا بما يؤمن به .

والحق جل وعلا يقول : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة : ١١١] .

والوحى بمعناه العام هو : الإعلام بخفاء ، أى : أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلِّغ عن الله . والحق أوحى إليهم أى : أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أم موسى أن تلقى ابنها فى اليم وهو غير الوحى للرسول ؛ فالوحى إلى الرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلغ عن الله ، إن وحى اللّٰه إلى أم موسى أو إلى الحواريين هو استمرار خاطر إيمانى ، يلتفت

بعده الموحى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك ، وعندما لا يصادم إلهام القلب الواقع ، ولا يجد الإلهام ما يصادمه من نفس الإنسان ، فهذا لون من الوحي ، أي هو إعلام بخفاء ، كأن يتوقع الرجل مقدم صديق من سفر ، أو لونًا من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة ؛ إذن .. فالإلهام وارد من اللَّه لخلق اللَّه ما دام لا يتصادم بشيء مع النفس أو الواقع ؛ لأن الإلهام الذي يقابل صدامًا ليس من الله . كذلك أوحى اللَّه للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام ، وبمجرد مجيء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله ، أعلنوا الإيمان به وصاروا من خُلَصائه . ولنذكر بما قلناه مرارًا : حين ترى « إذ » فلتفهم أن معناها : « اذكر إذ » ، أي تذكر وقت الحدث الذي قال فيه الحواريون : نحن آمنا بعيسى نبيًّا من عند الله . وأشهدوه على إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ . فلنا أن نلاحظة جيدًا أن الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائمًا في الكلام عن نبيه عيسى عليه السلام أن عيسى ابن مريم ، ذلك ما يقرره الله ، أما عن تأييد الحق سبحانه لعيسى ابن مريم بروح القدس ؛ فذلك لأن المسائل التي تعرض لها المسيح عيسى ابن مريم هي مسائل تستدعي أن تظل روح القدس تسانده ؛ ففي ميلاده تعرض لإشكالات ، وفي دعوته تعرض لإشكالات ، وكل هذه الأمور تحتاج إلى مساندة من روح القدس ؛ لذلك يقول : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم : ٣٣] .

إذن .. كل المشاكل التي تعرض لها عيسى ابن مريم كانت مشاكل كبرى ففي الميلاد تعرض لمشكلة ؛ لأنه وُلِدَ على غير طريقة ميلاد الناس ، وتلك مشكلة اتُّهمت فيها أمه ، وجاء القرآن ونزهما وبرأها ووضع الأمر في نِصابه الحق . وفي رفعه ، كان الأمر مشكلًا ؛ فلقد أرادوا أن يقتلوه ولكن رفعه اللَّه إليه . إذن .. هو عليه سلام يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا .

ماذا عن مائدة السماء ؟!

قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ١١٢] .

كأن عيسى عليه السلام قد قال للحواريين : عليكم بتقوى اللَّه عز وجل ، فلا تسألوه هذه الآية ؛ لأنكم ما دمتم أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على اللَّه آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم ما

أعطاه اللَّه لى من آيات لصدق رسالتى ؛ إذ عليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم إيمانكم به ولكنَّ الحواريين أجابوا : ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة : ١١٣] .

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بإبراهيم - خليل الرحمن - ﷺ عندما سأل اللَّه عزَّ وجل عن كيفية إحياء الموتى ؛ ليطمئن قلبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التى صارت من بعد ذلك حقيقة واضحة . وهكذا نعرف أن هناك فارقًا بين أن يؤمن الإنسان لذاته ، وبين أن يشهد بالإيمان عند غيره . ويقول الحق عن استجابة عيسى لطلب الحواريين : ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة : ١١٤] .

وقول الحق : ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يعنى أن هناك موائد منصوبة فى الأرض ؛ ذلك أن الكون كله مائدة فيها من الخير الكثير ، والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأض الزرع ويرعى أنعامه ، فإنه يأتى إلى زوجه وأولاده بمخزون قد يكفيهم لمدة عامٍ من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت . وقد تأتى الزوجة بشىء من الطير فتذبحه وتطهو معه الخضروات .

إذن .. فالكون كله مائدة اللَّه المنصوبة التى يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله . وكلمة ﴿مَآئِدَةً﴾ لا تطلق إلا على الخوان وعليه طعام ، أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها : خوانا ؛ لأن المائدة مأخوذة من مادة الميم والألف والدال لا والمائدة تميد أى تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء ، أو هى تعطى مما عليها من أشياء ، وصارت هذه المائدة عيدًا أى يوما يحب الناس أن يعود عليهم مثله ؛ لأنهم يسرون به ، فالعيد هو ما يعود علينا بالخير وبما يسر ، وقد توقف العلماء عند قول الحق سبحانه : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ . وتساءلوا : كيف كان هذا القول ، وخصوصًا أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون ؟ ! .

وقال العلماء أيضًا : إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصرًا باشتقاقات الألفاظ ، واستعمالات الألفاظ ، وسمات الألفاظ ، وكلمة ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ تطلق ويراد منها الاستجابة وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب اللَّه لإرسال مائدة لنا من السماء ؟ « واستطاع » تقابل

« استجاب » . إن الحق سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء وهو الذى يخضع لحكمه كل شيء ، والحق لا يطلب إنما يأمر : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

فكأن الحق عندما يقول : ﴿كُن﴾ فهو قد طلب من الشيء طوعًا أن يكون . وعلى هذا فإن سؤالهم يكون كالآتى : هل يطلب ربك طوع الكون له ؟ ! فيستجيب لنا بإرسال مائدة تكون [لنا] عيدًا . ولنا أن نعلم أن قول الله : ﴿كُن﴾ لا يمكن أن يصدر إلا والحق يعلم أن المطلوب منه يجب أن يطيع اللّه سبحانه وتعالى ، وأن يكون استعداده الانفعالى أن يطيع على الفور أمر الخالق ؛ وحتى نعلم ذلك فلنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق : ١، ٢] إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط ، وحين تسمع الأمر فهى تنفعل ، ومعنى تنفعل أى : تطيع ، وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى . وقول الحق : ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ . لقد طلبوا مائدة من السماء وقدموا الرغبة فى الأكل والطعام على ضرورة التصديق الإيمانى الجازم ، ولنا أن نرى اختلاف قولهم فى هذه المائدة عن قول عيسى ابن مريم عليه السلام لمَّا سأل ربه هذه الآية ، فيقول تعالى فى ذلك : ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة : ١١٤] .

إن قول عيسى عليه السلام هو قول ممتلىء بكل المعانى القَيِّمَة . إنه يطلب أن تكون المائدة عيدًا يفرح به الأولون والآخرون ، وآية من الحق سبحانه وتعالى . ويعترف بفضل ربوبية الرازق ، ويعترف بامتنانٍ أن الحق سبحانه خير الرازقين ،والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى عليه السلام تدلنا على الفارق بين إيمان المُبَلِّغ عن اللّه وهو عيسى عليه السلام ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عنه وهم الحواريون ، إن إيمان عيسى عليه السلام هو الإيمان القوى الناضج ، وإيمان الحواريين إيمان لا يرقى لإيمان عيسى عليه السلام ، ولقد كانت قوة إيمان عيسى عليه السلام نابعة من أنّه يتلقى عن اللّه سبحانه وتعالى مباشرة . صحيح أن الحوراين آمنوا بالبلاغ عن اللّه عز وجل ، وتم ذلك بواسطة عبده ورسوله عيسى عليه السلام ؛ ولذلك يعلو الرسول عن المؤمنين ببلاغه ؛ ولذلك صحح عيسى عليه السلام طلبهم من اللّه سبحانه وتعالى وهو يدعو ربه . إنه رسول مصطفى مجتَبَى ؛ لذلك يضع الأمور

في نِصابها فيقول : ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ وكلمة : ﴿اللَّهُمَّ﴾ . في الأصل هي « يا الله » ، وعندما كثر النداء ، بها حذفنا منها حرف النداء وعوضنا عنه بميم في آخرها فصارت « اللهم » ، وكأن هذا اللفظ تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة اللَّه عز وجل في تقديس وثقة في أن الحق يستجيب لعبده ، وهو نداء يقوم على حب العبد لمولاه ، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أي واسطة حتى وإن كانت هذه الواسطة حرفًا من حروف النداء ولنا أن نلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلام اللَّه بصفة الألوهية ، إنه كنبيّ مرسل يعلم تجليات صفة اللَّه عز وجل ، وهي تجليات عبادة من عابد إلى معبود ، أما تجليات كلمة « ربنْا » فهي تجليات مربوب وربّ ، إنه يعلم الفارق بين عطاء الألوهية للخلق وعطاء الربوبية ، إن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه . أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولي للتربية ؛ التربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب والأقوات . والرب هو ربُّ كل شيء ، ربٌّ للمؤمن والكافر ، والربّ يتولى تربية الكافر رغم إنكاره للألوهية ، إنه يربّي الماديات التي تقيم حياته ؛ ولذلك نجد الحق يقول عن هؤلاء الكافرين : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان : ٢٥] .

إن الحق سبحانه يبلغ نبيه محمدًا ﷺ أن يسأل الكافر عن خلق السماوات والأرض ، ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم : إن اللَّه عز وجل هو الخالق . إن هذه هي إجابة الفطرة الأولى ، ونحن نرى في حياتنا أكثر من مثلَ على ذلك – ولله المثل الأعلى – عندما يسأل الأطفال عن شيء ومن الذي أحضره ؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطي كل شيء هو الله . فإن سأل طفلٌ أمه ماذا سنأكل ؟ فستجيب الأم على – سبيل المثال – سنأكل بامية . .، ويسأل الطفل : ومن أين ؟ تجيب الأم : اشتراها والدك من بائع الخضر . ويسأل الطفل : من أين جاء بها بائع الخضر ؟ تقول الأم : من تاجر الجملة في السوق . يسأل الطفل : من أين جاء بها تاجر الجملة ؟ تجيب الأم : من الفلاح الذي حرث الأرض وَبَذَرَ فيها بذور البامية ؟ يقول الطفل : من الذي خلق الأرض ، وأنبت النبات ؟ تقول الأم : إنه اللَّه سبحانه وتعالى ربنا خالق كل شيء . لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذي يستوى فيه المؤمن والكافر . والمؤمن هو الذي يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضًا ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطي المؤمن عطاء الربوبية مضافًا إليه العطاء الذي لا

ينفد . إنه يعطى المؤمن زمانًا لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه . يأخذ به المؤمن يقين الإشراق ، والإقبال على العمل فى ضوء منهج الله ؛ ولذلك قال عيسى ابن مريم داعيا اللّه جلّت صفاته وأسماؤه : ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ .

لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بنداء الألوهية أولًا ؛ معترفًا بالعبودية للّه جلَّ وعلا ملتزمًا بالتكليف القادم منه ، ثم جاء نداء الربوبية ؛ فيا مَنْ أنزلت علينا التكليف ، ويا مَنْ تتولى تربيتنا ، نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء . لقد ألزم عيسى عليه السلام نفسه بالعبودية ، وأخذ نداءه من زاوية القيم ثم [من] الزواية المادية وهى الرزق . لقد قدم الحواريون بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام ، وقدَّم عيسى ابن مريم عليه السلام بصفائية اختياره رسولًا ، القيم على الطعام . صحيح أن الرزق يمس الأكل ولكن الرزق ليس كلُّه أكلًا ، هو كل شىء يُحتاج إليه وينتفع به : فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والهداية رزق ، وكل شىء يُنتفع به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره .

ويجيب الحق دعاء عيسى ابن مريم : ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة : ١١٥] . وحين يقول الحق : « إِنِّي » فهو يستخدم نون الإفراد . ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه ، فحين يتحدث سبحانه عن وحدانيته يأتى بنون الإفراد فيقول : ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه : ١٤] .

وحين يتحدث سبحانه وتعالى عن سياق القدرة الشاملة العامة لكل صفات القدرة الشاملة يأتى بنون التعظيم ، فيقول : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

وهو سبحانه وتعالى أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ؛ ذلك أن المائدة ستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا اللّه سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة : ١١٥] .

إن الحق سبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول : إن فلانًا من الرسل أفضل من فلان . لأن الحق هو الأعلم برسله ، ولنا فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] الأمر باتباع الرسل . وعندما حاول بعض من أهل الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذى نزل على محمد ﷺ ، فرد اللَّه سبحانه وتعالى عليهم بقوله : ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف : ٣١، ٣٢] .

إن أهل الجاهلية قالوا : لماذا لم يُنزَّل القرآن على رجل عظيم من مكة أو الطائف ؟ ! لقد قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد ﷺ ، وقال الحق سبحانه وتعالى فى ذلك القول الفصل ؛ فليس لأحد أن يختار الرسول ؛ لأن الرسول مصطفى من الله ، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولًا من أصحاب السلطان أو الجاه ، إنه سبحانه وتعالى يعد كل رسول الإعداد اللائق بمهمته ، ومقام الرسالة والنبوة هو المقام الأعلى فى الدنيا والآخرة ، والحق سبحانه هو المنظم لأمور خلقه ، وقسم المواهب رحمة منه فيما بين العباد ؛ ليتساندوا ويتآزروا ويحتاج كل منهم لعمل الآخر . والحق سبحانه وتعالى حين يرسل رسولًا فهو يختار الآية المناسبة له ، وللعصر الذى جاء فيه ، فإذا ما اقترح قوم آية فإن الحق يضع هذا الاقتراح شرطًا للتسليم برسالة الرسول . فإن لم يؤمن الذين اقترحوا الآية فإن الحق ينزل بهم العذاب الأليم . إن طلب الآيات من أتباع الرسول يحمل فى طيانه بعض التفلُّت كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول رغم طلبهم للآية ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء : ٥٩] .

لقد اقترح الكفار والمشركون على رسول اللَّه ﷺ أن يأتيهم بالآيات والمعجزات الدالة على صدقه ؛ حتى يصدقوا أنه نبى مرسل من اللَّه إليهم ، وسنة اللَّه سبحانه وتعالى مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهى العذاب الشديد ؛ ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة تكون معجزة ، وبرغم ذلك كفروا بها ، فعاقبهم اللَّه شر عقاب ، إن بعضًا من الكافرين غالوا فى طلب آيات غريبة : ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ

ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

إن محمدًا ﷺ كان رحيما بقومه، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها الله عليه. وعيسى عليه السلام دعا الله بأدب الرسل أن ينزل المائدة. واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها؟ فهناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا﴾.

وهناك من قالوا: إن الحق سبحانه وضع شرطا لنزول المائدة وهو إنزال العذاب إن لم يؤمنوا، فتراجعوا عن طلب إنزال المائدة، ولذلك لم ينزل الحق تلك المائدة. ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا فى مواصفاتها؛ فقيل: إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس ولا شوك فيها؛ ذلك أنها مائدة من السماء، ومعها خمسة أرغفة وعلى كل رغيف شىء مما يعرفون، رغيف عليه عسل، وآخر عليه زيتون، وثالث عليه سمن، ورابع عليه جبن، وخامس عليه قديد.

كان ميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام ووفاته آية

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧]. نلاحظ أن الآية: تبدأ بواو العطف على ما قبلها، وهو قول الحق: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٥، ١٥٦]. إن الحق سبحانه وتعالى يعطف على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وأكثر ما يدهش فى هذا القول هو كلمة: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، فهل كلمة ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هنا من قولهم؟.

إن كانوا قد قالوها، فهذا دليل اللجاجة المطلقة، فلو أنهم قالوا: إنهم قتلوه فقط، لكان الجرم أقل وطأةً، ولكن إذا كانوا قد عرفوا أنه رسول الله ومع ذلك قتلوه فهذا جرم عظيم للغاية، أو أن كلمة «رسول الله» فى هذه الآية ليست من قولهم الحقيقى، إنما من قولهم

التهكمى ؟ ! وأضرب المثل ؛ لأوضح هذا الأمر : قد يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ، ثم يأتى شخص آخر يضربه ويهزمه ، فيقول لأتباع ذلك القوى المهزوم : لقد ضربت الفتى القوى فيكم !

إذن .. قد يكون قولهم : ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ . هو من قبيل التهكم ، أو أن تكون كلمة ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هنا هى من قول الحق سبحانه وتعالى مضمومًا إلى قولهم : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطًا أو موصوفًا بقوله : ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ذلك ؛ لنعلم بشاعة ما قالوه فيه وفى أمّه عليهما السلام ، فأراد الحق أن يبين أن عيسى ابن مريم رسول اللّه رغم أنوفهم ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان اللّه ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ، ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدى مهمته ، إنه سبحانه وتعالى قد جاء بكلمة ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هنا كمقدمة يلفت بها الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب .

بعد ذلك يقول لنا سبحانه : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ومجىء كلمة ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ ؛ لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس . فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، إنهم قتلوا شخصًا شبّهه اللّه لهم ، لم يكن هو المسيح . ثم صلبوه من بعد ذلك ، ولكنهم بمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن يقوموا بالصلب ويقطع اللّه عليهم هذا الأمر فقال : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ إن الحق القادر سبحانه وتعالى لفتنا من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح قوبلت من بنى إسرائيل بضجة رغم علمهم بالخبر . خبر مجىء المسيح بالميلاد من غير أب ، ورغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف إلى أن يكون لواحدة منهن شرف حمل المسيح رغم ذلك قالوا فى مريم البهتان العظيم .

إن ميلاد المسيح كان له ضجة ، وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة . واقتران الضّجّتين معًا فى رسالة المسيح يدلنا على أن العقل يجب أن يكون له وحدة تفسيرية ، فحين يسمع العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لابد أن يستشعر أنها جاءت على غير سنّة موجودة . وحين يبلّغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم عليه السلام وأن اللّه عز وجل رفعه إليه ، هنا تكون المسألة قد جاءت أيضًا بقضية مخالفة ، ولابد أن نصدق ما بلّغنا اللّه عز وجل به كما

صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لابد أن نصدق أن الحق رفعه فى النهاية إليه .

إن الميلاد لم يكن فى حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق سبحانه وتعالى لنا . وكذلك الوفاة لابد أن تكون مقبولة في حدود بلاغ الحق لنا . إن الميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم عليهما السلام كل منهما عجيبة ، ولابد أن نفهم أن العجيبة الأولى فى الميلاد يجب أن تكون تمهيدًا إلى أن عيسى ابن مريم عليهما السلام دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حكم وقال : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وكلمة ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ هى دليل على الفوضى التى أوقعهم اللَّه - تَجَلَّتْ حكمته - فيها ، فقد ألقى شَبَهُهُ على واحد آخر ، وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ؛ ليس فيها حزم التبين من المتربصين القتلة ، ونحن نعلم أن الحواريين وأتباع عيسى عليه السلام كانوا يلفون رءوسهم ؛ ويدارون سماتهم ؛ ولذلك قال الحق لنا : ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى أنه قد شبه لهم أنهم قتلوه .. كيف حدث هذا ؟ وما الحكاية ؟ إن كلمة ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ اختلفت فيها الروايات ، فقيل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هى فتحة فى باب ؛ ففى البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفى سقف البيت توجد فتحة اسمها : روزنة فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ولما دخل الخوخة دخل خلفه رجل اسمه تطيانوس ، وعندما رأى عيسى عليه السلام هذا الأمر ألهمه اللَّه سبحانه وتعالى أن ينظر إلى أعلى ، فنظر ، فوجد شيئًا يرفعه ، فلما استبطأ القوم تطيانوس خرج عليهم فتساءلوا إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإذا كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟ إذن .. فقد اختلط عليهم الشبه بين تطيانوس وعيسى ، لما ألقى اللَّه شبه عيسى على تطيانوس . إذن .. عيسى باقٍ ، ولم يأت الحق بخبر موت عيسى عليه السلام ، وعلى ذلك بقى الأمر على أصل ما وردت به الأحاديث من أن اللَّه رفع عيسى ابن مريم ، وما دمنا مسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ، لماذا ؟

لأن المبدأ مبدأ وجود بشر فى السماء قد ثبت لرسولنا ﷺ ، ولقد علمنا أن رسولنا محمد ﷺ قد عُرِجَ به إلى السماء وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى . إذن .. فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض ، لا يزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء هو أمر

وارد ، والخلاف يكون من المدة الزمنية . والمدة الزمنية لا تنقض مبدأ . سواء صعد وبقى فى السماء دقائق ، أو ساعات ، أو شهورًا .

إذن .. فقد ظن اليهود وقالوا : إنهم قتلوه وصلبوه .

وقد قال المسيح عليه السلام : أيكم يلقى شبهى عليه وله الجنة ؟ فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ، لقد قدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لمن يدفع الثمن من أتباعه ، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ويقال له : سرجس لأ ، فألقى شبه المسيح عيسى عليه فقتله اليهود . وقيل : إنه حينما عرف بعض من الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رفع ، خافوا أن تنتشر هذه الحكاية بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله ؛ لذلك جاء القتلة بواحد وقتلوه ، وألقى على هذا القتيل شبه عيسى ابن مريم ، أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود ، ولكن لما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى ؟ سأل المتربصون الحواريين : أيكم عيسى ؟ فاستيقظت ملكة التوبة فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن قال : أنا عيسى . ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم : أيكم عيسى ، إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشهد المتربصين يوحى بأنهم سيقتلون عيسى . فقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبُّت . إن هذا الذى باع عيسى باعه مقابل ثلاثين دينارًا ، واختلط الأمر على القوم ، فقتلوا الواشى ولم يظفروا بعيسى ابن مريم عليه السلام .

ونحن كمسلمين لا نهتم اهتمامًا كبيرًا بهذه الروايات ، ولكن المهم أنهم قالوا : قتلنا عيسى وصلبناه . فقال اللَّه تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ، كيف حدث ذلك ؟ بأن رفعه اللَّه إليه وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولًا . نحن نؤمن أولًا بمُنَزِّل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء من الحق سبحانه وتعالى . والبحث فى هذه المسألة لا يعنينا فى شىء ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ .

إن قول الحق عز وجل : ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ . يدلنا على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل ، وهذا أمر متوقع فى مسألة مثل هذه ؛ حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا فى حياتنا اليومية نرى أن حادثة ما يمكن أن تحدث فى وجود أعداد كبيرة من البشر وهم ينظرون إليها ، ومع ذلك تقع الحادثة ، وتختلف فيها الروايات ، وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ، ورغم ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه ، فى زمن قديم لا توجد كل الاحتياطات التى نراها فى زماننا ؟ ! كان لابد أن تضطرب الآراء ، والروايات فى تلك الحادثة ، ولكن يكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ . إن الحق سبحانه وتعالى يخاطب العقل كثيرًا لأنه ميَّزنا به ، إن اللَّه سبحانه وتعالى خالق رحيم لا يورد نصًّا إلا وهو يتوافق مع العقل السليم ، وإن لم يتفق ، فالأمر يرجع إلى قصور فى فهم العقل ؛ ذلك لأن الأمر من الله ، ومادام الأمر من اللَّه فلا بد من التسليم المطلق . إن الأمر الذى قد تقف فيه العقول يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولا موسعا رحمه بالمكلَّفين .

وقول الحق : ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [آل عمران : ٥٥] .

إن علينا أن ننتبه إلى واو العطف بين « متوفيك » « ورافعك » ، فمن قال : إن واو العطف تقتضى الترتيب . ومن قال : إن واو العطف تقتضى الجمع فقط ، كقولنا : جاء زيد وعمرو ، وهذا يعنى أن زيدًا جاء مع عمرو أو أن زيدًا جاء أولا أو أن عَمرًا جاء أولًا ، وتبعه زيد . إن واو العطف لا تقتضى الترتيب وإنما مقتضاها هو الجمع فقط . لكن لو قلنا : جاء زيد فعمرو ، فزيد هو الذى جاء أولا وتبعه عمرو ؛ لأن الفاء تقتضى الترتيب والتعقيب ، إن الواو تأتى لمطلق الجمع ، ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ . هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن الوفاة قد تمت قبل الرفع ، ودليلنا على ذلك أن الحق سبحانه أنزل فى القرآن آيات تدل على هذا ، كقوله سبحانه : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأحزاب : ٧] .

إن الحق قد أخذ الميثاق من محمد ﷺ ، وجمع معه نوحًا وإبراهيم فهل هذا الجمع يقوم على الترتيب ؟ لا عليهم السلام ؛ لأن نوحًا كان متقدمًا جدًّا فى موكب الرسالات وسبق رسول اللَّه ﷺ بقرون طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .

إذن .. فالواو لا تقتضى الترتيب فى الجمع . إذن .. لماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر

الرفع ؟ إن ذلك يُعلم منه أن الوفاة أمر مقطوع به ؛ لكن الرفع مجرد عملية مرحلية فجاء قول الحق تبارك وتعالى : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ .

والإنسان منا خلقه اللَّه سبحانه وتعالى مادةً وفى داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن يُنهى حياة إنسان ما ، فهو يقبضه بدون سبب فى البنية ويموت حتفَ أنفِه ، إما إذا ما ضرب إنسان إنسانًا ضربةً عنيفة على رأسه ، فالمضروب أيضا يموت ؛ لأن الروح لا تحل فى جسم به عطب شديد .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى قال لعيسى : أنا آخُذك إلىَّ ورافعك مستوفيًا ليس بجسدك أى نقض لبنيتك أو هدم لها أو بعضها ؛ إنى آخذك كاملا فقوله : ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ يعنى الأخذ كاملًا دون نقض فى البنيان ؛ ولذلك فنحن نفرق بين القتل والموت . فالموت هو أن تقبض الروح حتف الأنف ، أما القتل فهو هدم البنية فتزهق الروح ، والدليل على ذلك أن الحق قال فى كتابه الكريم : ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

إذن .. فحين قال بنو إسرائيل : إنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام كذبهم الحق تبارك وتعالى وقال : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ . ورفعه اللَّه عز وجل إليه كاملًا . إنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ . إن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : إن القوم تيقنوا أنهم لم يقتلوه ، لكنهم شكوا فى مسألة القتل . لم يعرف المتربصون لقتل عيسى هل قتلوا عيسى أم تطيانوس أم سرجس ؟

نحن قد عرفنا من قبل معنى النسب فحينما ينسب الإنسان شىء إلى شىء فهو يتبع إحدى النسب المعينة ، فإن قال قائل : ذاكر محمد ، فإن ذاكرلاً حدث نسبه القائل إلى محمد . **والنسبة تأتى على خمسة أوجه :**

نسبة علم : وهى النسبة المتيقنة المقطوع بها ، وتقدر على إقامة الدليل عليها .

ونسبة جهل : وهى أن يقول قائل بقضية : كأنها وقعت وهى لم تقع قط والقائل يعلم أن قوله مخالف للواقع .

ونسبة شك : وهى التى يتساوى فيها الأمران ؛ حدوث الحدث ، أو عدم حدوثه ،

والشك نسبة متأرجحة .

ونسبة ظن : وهى التى يترجح فيها أمر على أمر فالظن نسبة راجحة .

ونسبة وهم : وهى التى يقلّد فيها قائل ما سمعه ويردده ، دون أن يستطيع إقامة الدليل عليه ، كقول الطفل مُقَلّدًا أباه : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ . إن الطفل لا يستطيع أن يدلل على أن اللّه أحد ، ولكنه يقلد أباه أو أمه أو أستاذه ، فإن تعلم الطفل من بعد ذلك أن يقيم عليها الدليل صارت نسبة علم .

إذن .. فالعلم يطلب واقعة يقوم عليها الدليل . أما الجهل فهو أن يعلم القائل أن ما يقوله مخالف للواقع . والفرق بين الجهل والأمية : أن الجاهل يقول ما يخالف الواقع وهو يعلم ذلك ، أما الأمى فهو لا يعلم . إذن ، فالجاهل يحتاج إلى نزع الباطل منه وإعطائه الحق المتيقن ؛ ولذلك نجد أن الجهلاء هو الذين يرهقون أهل العلم ؛ لأن الجاهل يعرف قضية مخالفة للواقع ، فيحاول العلماء أن يصححوا له معلوماته .

والحق سبحانه وتعالى جاء بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه تعالى نبأ مقتل عيسى ابن مريم عليه السلام قال : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء : ١٥٧] . والنسبة الأولى المذكورة هنا هى الشك ، والشك كما قلنا : نسبة يتساوى فيها الأمران ، والنسبة الثانية هى إتباعهم للظن ، والظن نسبة راجحة لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكّا ، ثم انقلب ظنًا . وقد تنتهى من بعد ذلك إلى علم يقين .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ . إن اللّه سبحانه وتعالى ينفى أنهم قتلوه يقينًا . واليقين هو الأمر الثابت الذى لا يتغير ، فهو أمر معقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد .

واليقين كما علمنا له مراحل :

مرحلة العلم : واسمها علم اليقين. **ومرحلة العين :** واسمها عين اليقن. **ومرحلة الحقيقة :** واسمها حق اليقين .

فعندما يخبرنا أحدٌ أن جزءًا من « نيويورك » اسمه مانهاتن وأن « مانهاتن » هذه هى جزيزة عدد سكانها عشرة ملايين نسمة ، وفيها ناطحات سحاب . فهذا الخبر جاء من إنسان لا نعرف

عنه الكذب فيسمعه من لم ير « نيويورك » فيصبح هذا الخبر عنده علمًا متيقنًا . هذا علم يقين لأن الذى أخبر به موثوق به ، وإذا جاء آخر ووجه للسامع من « نيويورك » دعوة لزيارتها ، ولبى السامع الدعوة وذهب إلى « نيويورك » هنا نقول : انتقل الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين ، وإذا جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به فى كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو حق اليقين . وأسمى أنواع اليقين هو حق اليقين ، وقبلها عين اليقين ، وقبل عين اليقين هناك علم اليقين . والحق سبحانه وتعالى حينما عرض لهذه المسألة قال : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر : ٣- ٧] إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا علم اليقين ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ؛ وسيرى المؤمنون النار وهم على الصراط ؛ وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ؛ فهناك من يدخل الجنة ولا يدخل النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة وهناك من يدخل النار ثم يدخل الجنة ، إن الكافرين بالله هم الذين سيرون الجحيم ، حق اليقين . ويأتى حق اليقين فى موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة : ٩٢- ٩٥] . إن كل مكذب ضال سينزل إلى الجحيم ويَصْلَى الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين .

إذن .. فقول الحق سبحانه وتعالى عن مسألة قتل عيسى ابن مريم عليه السلام قال : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ . هذا القول يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث تصديق علم يقين ؛ لأن الله هو القائل ، والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ، ولكنهم شكُّوا فى ذلك ، أما الذى باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين .

وخلاصة القول أن الذى حدث هو أَنْ : ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ، لقد رفعه الله وهو الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، فالله غالب على أمره ، وهو العزيز الحكيم ؛ عزيزٌ فى حكمة ، حكيمٌ فى تدبير مُلْكه .

عيسى عليه السلام لم يُصلب ولم يُقتل بل رفعه اللهُ إليه

وقول الله تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء : ١٥٧] .

الذين ادعوا ألوهية عيسى أو أنه ابن الإله الخالق ، كان الواجب عليهم أن يعترضوا على مسألة الصلب هذه ، فكيف يقولون بألوهية أو بنوّة ألوهية ثم يجيء أعداؤه فيقدرون عليه ويقتلونه ويصلبونه ؟ إنه بذلك يكون قد انقلب من قادر إلى مقدور عليه ، إنه بذلك يكون بشرًا يَقدِر عليه غيره من البشر .

إذن .. فعندما يأتي الإسلام ويبرئ عيسى عليه السلام من هذه المسألة . فهو يعين أتباع عيسى على تبرئته من القتل والصلب ، وكان يجب أن يتلقف أتباع عيسى عليه السلام قول اللَّه عز وجل فى هذه القضية : ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ليؤمنوا به ويعملوا به .

ويقول ربنا وهو أصدق القائلين : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] ، فالنصارى زاعمو التبعية لعيسى عليه السلام يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب ، ونحن - المسلمين - نقول بالرفع ولا صلب ؛ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ .

والذين يقفون عند هذه المسألة يجب عليهم ألا يقفوا ؛ لأن قصة عيسى عليه السلام بدأها اللَّه بمعجزة ، وهى أنه ولد من أم دون أب ، فإن كنتم قد صدقتم بالمعجزة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدقون بها فى مسألة الرفع ؟ ! .

وإذا كان فينا نحن المسلمين من يقول : إن عيسى عليه السلام مات ولن ينزل . نقول لهؤلاء : ماذا تقولون فى نبيكم محمد ﷺ ؟ أعُرج به إلى السماء ؟ سيقول المسلمون : نعم . ونقول لهم : ألم يكن رسول اللَّه ﷺ حيًا بقانون الأحياء ؟ سيقولون : نعم كان حيا بقانون الأحياء . ونقول : وظل رسول اللَّه ﷺ مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا . إذن .. فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق اللَّه بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حى وما يزال حيًا ثم ينزل إلى الأرض .. هذه المسألة ليست عجيبة ، والخلاف بين رفْع عيسى عليه السلام وصعود محمد ﷺ بالمعراج ، هو خلاف فى المدة ، ولنا أن نعرف أن الخلاف فى المدة لا يقتضى خلافًا ؛ المهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته وظل فترة من الزمن بحياته .

إذن .. مسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد فى شريعتنا الإسلامية .

ويقول الحق فى هذه المسألة تأكيدًا لهذه القضية : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] .

قد يقول السامع لهذه الآية : إنهم أهل كتاب ولابد أن يكونوا قد آمنوا به . ونقول : لا .. لقد آمنوا به إيمانًا مرادًا لأنفسهم وليس الإيمان المراد لله ، لقد أمنوا به إلهًا أو جزاءًا من إله أو ابن إله ، ولكن اللَّه يريد أن يؤمنوا به على أنه بشر وأنه رسول وأنه عبد ، فإذا قال الحق : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ .

إن هذا القول معناه : ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولًا وعبدًا وبشرًا قبل أن يموت .

وقلنا في اختلاف الضمائر : إن الهاء الموجودة في قوله : ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ **يرجع هذا الضمير إلى عيسى** .. فسوف يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب بمراد اللَّه كعبدٍ بشرٍ ورسول ، والضمير الآخر الموجود في ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ ؛ يرجع إما إلى عيسى أى قبل موت عيسى ، أى إن عيسى لم يمتْ الميتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبدًا ورسولًا وبشرًا ، ولا يؤمنون به إلا إذا جاء بلَحمِه ودمه ، ويقول لهم : أنتم مخطئون فيما اعتقدتم ، وأنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمدٍ النبى الخاتم ﷺ .وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمِّى ، والدليل على خطئكم هو أننى جئت لأدعوكم للإيمان يا رسول الخاتم محمد ﷺ ، وهأنذا أصلِّى خلف واحد من أمة ذلك الرسول .

وذلك يدل على أن عيسى عليه السلام لن يأتى بتشريع جديد ؛ بل إنه ساعة نزوله ، سيجد الصلاة قائمة فيصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبد اللَّه ﷺ . حين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ماذا سيقول إذن الذين فتنوا فيه ؟ لا شك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد ﷺ ، أو أن كل كتابيّ من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسولٍ وعبدٍ ، قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية . إن الآية يصح أن تكون عامة ؛ فالحق قال فيها : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ .

إن الضمير فى الآية قد يعود إلى كل كتابيّ قبل أن يموت ؛ لأن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويحجب اليقين ، وغرور الحياة يدفع إلى ذلك ؛ فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق انتهى كل شيء يبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين .. ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها ، وتستيقظ النفس البشرية على لحظة تظن أنها ستلقى اللَّه فيها ،

ويسقط غرور الحياة ويراجع الإنسان نفسه فى هذه اللحظة . ويقول الكتابىّ فى تلك اللحظة لنفسه : أنا اتبعت هوى نفسى فى أننى جعلت عيسى إلهًا ، ولكن هل ينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبه ؟ ! لا ، لا ينفع إيمان الإنسان حال موته ، فإنه فى تلك الساعة عاين كل شىء وكشف عنه الحجاب وعرف مقعده فى الجنة أو فى النار ، وحينئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا .

إن إيمان فرعون لحظة الغرق لم ينفعه وكذلك إيمان أىٍّ من أهل الكتاب قبل الموت . لقد قال عز وجل : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

إن قول الله : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ لا أحد من أهل الكتاب إلا وهو سيؤمن بعيسى قبل أن يموت عيسى أو قبل أن يموت الكتابىّ . وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ .

إن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصر نزوله فى الدنيا ، وسيرونه يصلى خلف واحد من أمة محمد ﷺ ، وبعد ذلك يكسر الصليب ويقتل الخنزير كما يشهد يوم القيامة على السابقين من أهل الكتاب الذين قالوا : إنه إله أو ابن إله ، يحدث ذلك فى موقف مَهيب يومَ يجمعُ اللَّه الناس للحساب ويُستدعى عيسى عليه السلام للشهادة على قومة فيسأله : ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة : ١١٦] .

سؤال واضح صريح محدد وعلى رءوس كل الخلائق ، وفى حضور أنبياء اللَّه وملائكته .. فماذا يكون جواب نبى اللَّه عيسى عليه السلام : ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ١١٦] .

هكذا ستكون شهادة عيسى ابن مريم على من اتخذوه وأمه إلهين مع الله .

وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا

قال تعالى : ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي

لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم : ٨٨- ٩٢] .

الذين قالوا هذا الكلام قالوه بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح عليه السلام ؛ لأنه قبل ذلك لم يقل أحد هذا الكلام ، فما الذى زاد فى ملك اللّٰه بعد أن جاء الولد ؟ ! الشمس هى الشمس ، والنجوم هى النجوم ، والأرض هى الأرض ، والهواء هو الهواء . فالذى نظم هذا الكون منذ بدء الخليقة لا يحتاج إلى ولدٍ يساعده فى هذا الأمر . إذن .. فموضوعية اتخاذ الولد عبَثٌ ؛ لأنه لم يزد شىء فى الملك على يد هذا الولد ، فلم تكن هناك صفة معطلة عند الحق سبحانه وتعالى .. ولما جاء الولد كمل الكون بهذه الصفة ؟ ! ! تعالى اللّٰه عن ذلك علوًّا كبيرًا ؛ لأن الصفات الكمالية للّٰه قبل أن يخلق أى شىء ؛ فهو خالق قبل أن يخلق ورازق قبل أن يرزق ، ومُحْى قبل أن يحيى ، ومميت قبل أن يُوجَد مَن يموت ، فكل صفات الكمال موجودة قبل متعلقاتها ؛ فصفات اللّٰه أزلية .

قال تعالى فى سورة « الكهف » ردًّا على افترائهم : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف : ٥] .

وهنا قال : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم : ٨٩، ٩٠] .

الإدّ : هو المتناهى فى النُّكر والفظاعة ، من أَدَّه الأمر إذا أثقله ولم يقوَ عليه ؛ ولذلك يقول سبحانه فى آيه الكرسى : ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ . أى : لا يثقله حفظهما . فكأنهم جاءوا بكذبة لا تتحملها الجبال .

واتخاذ الولد له مقاصد : منها أن يكون لكَ عزوة وتزداد به قوة ، **وربنا سبحانه لا يحتاج لشىء من ذلك** فهو العزيز القوى عن كل شىء ، كذلك أنت تتخذ الولد ؛ ليكون لك ذكر بعد موتك ، وربنا لا يحتاج هذا ؛ لأنه حى لا يموت وبقاؤه لا يتناهى ، كذلك أنت تتخذ الولد ليرث تركتك بعد مماتك ، والله لا يحتاج هذا ، فهو سبحانه يرث الأرض ومن عليها . إذن .. اتخاذ الولد ليس له علّة عند الحق سبحانه ، كما أن اتخاذ الولد ينفى سواسية العبودية لله ؛ لأن اللّٰه يريد أن يكون خلقه سواسية ، فإذا صار له ولد تنتفى السواسية .

ومعنى قول تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ . أى : فظيعًا ومنكرًا ومستبشعًا ، ومادام

شيئًا منكرًا فلا ينكره المكلفون من الإنس والجن فقط ، ولكن تنكره الأشياء التى لم تكلف من الجبل والسماوات وغيرها ؛ ولذلك يقولون : هذا أمر تهتز له السماوات السبع .

ومعنى قوله : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ﴾ . أى : تتشقق وتنفطر ، ولكنها لم تنفطر ؛ لأن اللَّه تعالى يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، فالحيثية فى انفطار السماء وانشقاق الأرض وخر الجبال : أنهم دعوا للرحمن ولدا ، وردّ الحق سبحانه وتعالى على هذا الزعم بقوله : ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ .

هناك شيء اسمه نفى الحدث وشيء اسمه نفى ابتغاء الحدث ، فمعنى : ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ . أى : أنه سبحانه لو أراد اتخاذ الولد فلن يمنعه أحد ، ولكنه لم يفعل ولم يُرد ، وأنكر ذلك على من زعموه كذبًا وزورًا ، فنفى الابتغاء يدل على أن الحدث إن أراده اللَّه كان ، ولكن لا ينبغى له أن يتخذ ولدًا ، لماذا لأن الولد حتى ولو كان ولدًا بارًّا وطائعًا ، فالله تعالى غير محتاج له ؛ لأن الكل عبيده ولا يستطيع أحد أن يتمرد عليه ؛ لأنه قادر عليهم جميعًا ، فهم فى قبضته ورهن مشيئته .

ثم قال تعالى تأكيدًا لذلك : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ [مريم : ٩٣] .

فكل المخلوقات عابدة لله ، وحتى الذين كفروا لم يخرجوا عن أنهم عبيد لله ؛ لأن الإنسان فيه منطقة اختيار ، هذه المنطقة هى أن يفعل أو لا يفعل ، ولكن أيضًا هناك منطقة قَسرٍ ، فالكافر بما أعطاه اللَّه من صفة الاختيار أن يكون طائعًا أو عاصيًا ، مؤمنًا أو كافرًا ، هذا الكافر اعتاد أن يخالف أوامر اللَّه فى الأمور التى وضع له فيها اختيارًا ، فهذا الكافر الذى اعتاد على المخالفة والتمرد على الإيمان ، لماذا لا يتمرد على المرض فلا يمرض ؟ ! ! ولماذا لا يتمرد على الموت فلا يموت ؟ ! وإذا افتقر لماذا لا يتمرد على الفقر ويرفضه ؟ ! .

إذن .. أنت لك حرية الاختيار فى أشياء ؛ ومجبر على أشياء أخرى ، وهذا فى الدنيا فقط ، أما فى الآخرة فإن هذا الاختيار يسلب منك ، فالمؤمنون حقًّا هم الذين آثروا طاعة الله ، واختاروا رضاه واتباع نبيه ﷺ ؛ ولذلك فكل تصرفاتهم موافقة لما يريده الله ؛ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]. قلنا: إن الإحصاء هو العدّ، وكلمة الإحصاء مأخوذة من العدّ بالحصى الذى كان متبعًا قديمًا؛ فربنا أحصى الناس وعدّهم عدًّا، وكل إنسان يأتيه يوم القيامة بمفرده؛ لا حاشية ولا حرّاس ولا عزوة ولا أولاد ولا جاه ولا سلطان ولا أى شىء!!

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]. هذا تنزيه للّه عن أن يكون له ولد، فالحق سبحانه يقول: ليس للّه ولدٌ بل عباد مكرمون، ومع أنهم مكرمون إلا أنهم لا يسبقونه بالقول ويطيعون أمر ربهم؛ فلا يعملون شيئًا لم يأمرهم به، فهم طوع أمره.

إذن .. آفة المجتمعات أن عظماءها يسبقون بالقول، ويعملون بأوامرهم لا بأمر الله!! وهم على خطر عظيم.

لقد خلق اللّه الليل مكملًا للنهار، والذّكر مكملًا للأنثى، فإذا كان اللّه قد خلق التكامل فى المخلوقات، فكيف يحاول بعض الناس أن ينفوا الكمال عن اللّه سبحانه وتعالى؟!! قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ﴾ [يونس: ٦٨].

الادعاء بأن للّه سبحانه وتعالى ولدًا نقصان فى كمال اللّه جل جلاله؛ ذلك أن الإنسان يتخذ الولد لعدة أشياء: إما ليكمل نقص الوجود؛ لأن عمره فى الدنيا محدود، ولذلك يريد أن تبقى ذِكراه فى الدنيا، والله سبحانه وتعالى له كمال الوجود؛ فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، فَلِمَ يتخذ ولدًا، وهو أصل الوجود، وله كمال الوجود سبحانه وتعالى؟! وإما أن يتخذ الإنسان ولدًا؛ ليرثه فهو لا يريد أن يذهب ماله للآخرين، إنما يريد امتداد ما يملك إلى ابنه.

والله سبحانه وتعالى هو مالك الملك دائمًا وأبدًا، وهو جل جلاله الذى يرث الأرض ومن عليها ومن فيها، له الملك وحده، وعندما يصعق من فى السماوات ومن فى الأرض يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

لذلك فهو تبارك وتعالى ليس محتاجًا لأنْ يمتد ملكه؛ لأنه هو المالك الحقيقى لمن فى

الأرض ومن عليها، ولكنا نملك مجازًا ولفترة محدودة، ولكن الحق سبحانه هو وحده الذى يملك حقيقة، واقرأ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

إذن .. فالملك لله وحده لا يزول عنه أبدًا، وهو ليس محتاجًا إلى ولد ليرث ملكه، أو لأى غرض آخر.

والإنسان يحتاج إلى ولد ليعطيه العزة والقوة، وهو فى شبابه قوى بذاته، وفى شيخوخته ضعيف بذاته قوى بأولاده، ولذلك فهو يريد الولد؛ ليكون له قوة عندما يضعف. والله سبحانه وتعالى هو القوى دائمًا الذى لا يضعف أبدًا، وهو جل جلاله دائمُ القوة، ولذلك فهو لا يحتاج إلى ولد.

إذن .. فكل الأسباب التى تجعل الإنسان يريد ولدًا هى لاستكمال نقص: نقص فى العمر؛ لأن الإنسان عمره محدود، ونقص فى الملك؛ لأن الإنسان يترك ما يملك عندما يموت، ونقص فى القوة؛ لأن الإنسان عندما يبلغ الكبر يضعف ويصبح محتاجًا إلى من يعينه ويدافع عنه. والله سبحانه وتعالى له الكمال كله منزه عن هذا النقص.

ثم كيف يتخذ اللّه ولدًا؟ إذا كان قد خلقه فهو من خلق الله، وإذا كان لم يخلقه ولكن الابن خلق نفسه فإنه لا يصبح ابنًا ولكنه يصبح إلهًا؛ لأنه خلق نفسه وأوجد نفسه، ومن هنا يصبح هناك إلهان وليس إله واحد، وأما أن يأتى الولد عن طريق أنثى، فالله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك؛ لأنه خلق آدم بدون ذكر أو أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى. إذن فهو ليس محتاجًا إلى أنثى ليخلق ولدًا؛ لأن طلاقة قدرته جل جلاله أوجدت آدم بدون ذكر أوأنثى، وأوجدت حوء بدون أنثى. والأسباب مخلوقة للّه سبحانه وتعالى، ولذلك فإن طلاقة قدرة الخالق هى التى تحكمها، فكيف نأتى ونجعل الأسباب تحكم خالقها؟! وكيف نأتى إلى طلاقة قدرة اللّه سبحانه وتعالى فى أنه يفعل ما يشاء، وأنه يقول للشىء كن فيكون، ثم نقيِّدُ طلاقة القُدرة بأنه يجب أن تكون هناك أنثى ليأتى الولد، فكأننا ننقص من طلاقة قدرة اللّه سبحانه وتعالى فى كونه.

ثم من أين جاءت هذه الأنثى ؟ إذا كان اللّٰه سبحانه وتعالى قد خلقها فهى من خلق اللّٰه وعباده ، وإذا كانت قد خلقت نفسها فكأنها إله ، وبذلك يكون عندنا ثلاثة آلهة بدلًا من إله واحد ؛ وهنا يفسد الكون ؛ لأن كل إله له أمر ، وكل إله له خلق ، وكل إله يريد أن يعلو على الآخر فتكون النتيجة كارثة .

وإذا نظرنا إلى الآية الكريمة : ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس : ٦٨] . فإن القرآن نفسه يكذبهم ؛ لأننا عندما نقول : اتخذ فلانٌ بيتًا . فلابد أن فلانًا كانت له ذاتية قبل أن يوجد البيت ، فقولهم : ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ . فقبل أن يتخذ اللّٰه الولد أكانت له ذاتية مكتملة أم لا ؟ كانت له سبحانه وتعالى ذاتية مكتملة . وحتى هذا الولد اختلفواْ فيه ، فقال الكفار : الملائكة بنات الله ، فردَّ الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ . أى : عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يتخذ ولدًا أيتخذ الجنس الأقوى أم الجنس الأضعف ؟ !

ومرّة قالوا : إن اللّٰه قد اتخذ ولدًا من الأنبياء ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة : ٣٠] .

والآية الكريمة : ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ترد عليهم ؛ لأنهم عندما قالوا ذلك فمعناه أن الولد قد جاء بعد أن وجدت ألوهية مستقلة للّٰه سبحانه وتعالى ، وبهذه الألوهية أخذ الولد ، وأول أسباب الاتخاذ : الحاجة ، فعندما تقول : فلانٌ اتخذ بيتًا . لأنه محتاج له ليكمل نقصًا فيه ، فما هى حاجة اللّٰه سبحانه وتعالى إلى الولد ؟ ! وله الكمال المطلق فى الكون كله ؟ ! !

ولذلك يأتى قول الحق جل جلاله : ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ . أى أن اللّٰه سبحانه وتعالى مستغنٍ عن الكون كله ، فكيف يحتاج إلى ولد ؟ ! ولقد تحدَّثنا عن أسباب الاحتياج إلى الولد ، والله تعالى منزه عنها كلها ، وهم يقولون : من لا ولد له ؛ لا ذِكْر له . لأن الإنسان سيموت لا محالة ويريد أن تستمر حياته فى ولده ، والله سبحانه وتعالى حيٌّ لا يموت ، قوى قادر لا يضعف ، غنى له ملك السماوات والأرض . إذن .. فكل أسباب احتياج الولد اللّٰهُ منَزّه عنها ؛ ولذلك يقول تعالى : ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ ؛ سبحانه : تقطع كل شك أى أنه منزه عن هذا

كلّه ، وهى تنزيه للحق سبحانه وتعالى عن مشاركة أى شيءٍ له ؛ لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال . ولذلك إذا ورد شيء هو للّه وصف ، ولخلقه وصفٌ ، إياك أن تأخذ هذه الصفة كتلك ، فالله غنى ، وفلان غنى ، فهل غنى اللّه كغنى خلقه ؟ ! اللّه سبحانه وتعالى غنى بذاته والخلق أغنياء غنًى زائلًا ، إما أن يزول عنهم فى حياتهم ، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت . فغنى اللّه سبحانه وتعالى باقٍ ، وهو جل جلاله غنى بذاته ، غنى دائمًا عن كل خلقه ؛ **إذن .. لا تشبيه** . اللّه سبحانه وتعالى حىّ وأنت الآن حىّ ، ولكن حياتك سبقها عدم ، وحياة اللّه تبارك وتعالى لم يسبقها عدم ؛ لأنه دائم الوجود ، وحياتك يلحقها العدم ، وحياته جل جلاله لا يلحقها العدم .

إذن .. فعندما يأتى وصفٌ للّه ووصف لخلق الله ، فلابد أن تقول : سبحان الله ؛ لأن اللّه تعالى ليس كمثله شيء ، ولا تدخل فى التفاصيل ؛ لأنك وأنت المخلوق لا يمكن أن تحيط بخالقك ، ولكن كل ما خطر بعقلك فالله بخلاف ذلك . ونضرب لذلك مثلًا ، ولله المثل الأعلى ، عندما تأتى لطفل فى الحضانة وتعطيه تمرينًا هندسيًا مقررًا على السنة النهائية بكلية الهندسة أيقدر عليه ؟ طبعًا مستحيل ، فإذا كان هذا فى عُرف البشر فى عالمهم ، فكيف بالنسبة للّه جل جلاله ؟ ! . إذن .. كل شيء يخطر ببالك فنزِّه اللّهَ عنه .

والتنزيه صفة ذاتية فى اللّهِ سبحانه وتعالى ؛ ولذلك فهو جل جلاله منزه قبل أن يخلق من ينزهه ومنزه بعد أن خلق من ينزهه ؛ منزه منذ الأزل وإلى الأبد ؛ ولذلك نجد هذا التنزيه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٢] . وقوله تعالى : ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم : ١٧] . وقوله تعالى : ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس : ٨٣] . وقوله تعالى : ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات : ١٥٩] .

والله سبحانه وتعالى قبل أن يُشهِد أحدًا على ألوهيته أشهد نفسَه ، وهذه شهادة الذات للذات ولذلك قال جل جلاله : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران : ١٨] .

ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يطلب منا أن نشهد أنه إله واحد أحد ، شهد هو

سبحانه وتعالى ، ثم شهدت الملائكة وشهد النبيّون . وكما قلنا : اللّه مُسَبَّح قبل أن يوجد مسبِّح ، ثم خلق اللّه المسبِّح فسبح بمجرد الوجود ، وجاء بعده خلق فسبحوا ، فالوجود كله مسبِّح لله ، ولذلك يقول الحق جل جلاله فى سورة « الحديد » : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد : ١] .

ولكن هل سبَّح وانتهى ؟ هل قالها مرة وسكت ؟ نقول : لا ، ولذلك يأتى فى سورة « الجمعة » قوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة : ١] .

وقال تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن : ١] . وقال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وهكذا حتى لا يظن أحد أن الكون سبّح للّه مرة واحدة وسكت . نقول : إن الكون سبَّح للّه ومازال مسبحًا وسيظل مسبحا . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ .

وهكذا يعطينا الحق جل جلاله الردَّ الحاسم : لماذا يكون سبحانه له ولد ؟ وله ما فى السماوات وما فى الأرض ، فما حاجته إلى الولد وكل ما فى الكون ملكه ؟ ! ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ﴾ [يونس : ٦٨] .

يعنى هل عندكم دليل على ما تقولون ؟ « إِنْ » تأتى للنفى ، وسلطان يعنى : حجة . فما هى حجتكم على أن للّه سبحانه وتعالى ولدًا ؟ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

وهل يعلم أحد عن اللّه جل جلاله إلا ما أخبرنا به الله ؟ ! عِلْمُنا عن اللّه لابد أن يأتى من الله ، ومادام اللّه لم يخبركم بذلك ، فمن أين جاءكم هذا الكلام ؟ ! .

ثم يقول الحق لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس : ٦٩] . وما داموا يقولون على اللّه مالا يعلمون فهم يكذبون ؛ لأن العلم هو إدراك قضيّة مجزومٌ بها وواقعة وعليها دليلٌ ، فإذا اختل واحد من هذه الأركان فهذا ليس علمًا ، ولكنه إما

أن يكون جهلًا أو افتراءً أو كذبًا ، والحق تبارك وتعالى حينما يتكلم عن المؤمنين يصفهم دائمًا بالفلاح ؛ واقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون : ١- ٣] .

ومادة الفَلاح مع أنها تستخدم فى الأمور المعنوية ، لكنها مأخوذة من الأمور المادية المتصلة بحياة الإنسان ؛ لأن الإنسان محتاج لكى تستمر حياته إلى الهواء والماء والطعام ؛ والهواء متوافر للجميع ، والماء ينزل من السماء ، والطعام أصله من الأرض ، والفلاحة هى أحد الأسباب الثلاثة لاستبقاء الحياة ؛ لأنك حين تفلح الأرض تشقها وتضع فيها البذور وترويها بالماء فتخرج لك الثمرة . ويقال : أفلح يعنى : أنتجت زراعته . إن الحق تبارك وتعالى أتى بالحصيلة الإيمانية وسمّاها : فَلاحًا ، ولذلك قالوا : الدنيا مزرعة الآخرة ، فإذا كنت تريد الثمرة فلابد أن تعمل العمل الذى يعطيك فى الآخرة ، والله حين يطلب منك ذلك لا ينقص مما عندك ؛ بل يزيده تمامًا ، مثل الفلاح حين يحصد القمح ، ثم يأخذ عدة أرادب إلى المخزن ؛ لتكون تقاوى للعام التالى ، فإذا فرضنا أن امرأته حمقاء وأخذت هذه الأرادب وأطعمتها لأولادها ، تكون بذلك قد منعت محصولًا وفيرًا سيأتى فى العام التالى ؛ ولذلك حينما يأخذ الفلّاح عدة أرادب من المحصول كتقاوى للعام التالى ، فإنه لا ينقص المحصول بل يزيده ؛ لأن هذه الأرادب ستأتيه بأضعاف أضعافها عندما تزرع فى العام التالى وهكذا الدين لا يأخذ منك إلا ليعطيك أضعاف أضعافه ، وكما أن الأرض تعطيك على قدر حظِّك من العمل والتعب ، كذلك أمر الآخرة جزاؤك فيها على قدر تعبك وعملك فى الدنيا ؛ فإذا حرثت الأرض جيدًا ، ووضعت فيها البذرة والسّماد ، وحرصت على أن ترويها فى مواعيدها ، فعلى قدر عملك وتعبك يأتى المحصول الوفير . وإذا جلست على المقهى مرتاحًا لا تفعل شيئًا ؛ فلن تأخذ شيئًا .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس : ٦٩] .

والافتراء : هو الكذب المتعمد ؛ بأن تعرف الحقيقة وتقول كذبًا ، وهؤلاء يعلمون أن كل ما يتعلق بالله لا نعلمه إلا بإخبار اللّٰه لنا به ، ومع علمهم بهذه الحقيقة فإنهم يكذبون ، فالذى يريد أن يحققَ لنفسه نفعًا بأن يصبح له مستقبل مرموق فى المجتمع ، وأخذ بالأسباب فى ذلك يصل إلى ما يريده بتوفيق اللّٰه ، والذى لا يصحو من النوم ولا يذهب إلى المدرسة يريد أن يحقق

لنفسه نفعًا أيضًا ؛ بألاّ يتعب نفسه في شيء . إذن .. فكلاهما يريد نفعًا والذى تعب واستيقظ مبكرًا لم ينظر إلى النفع السريع ، ولكنه نظر إلى النفع المستقبلى بعد خمس أو ست سنوات يصبح إنسانًا له كيان فى المجتمع ، والذى نام كما يشتهى فلم يستيقظ مبكرًا ، وأمضى يومه يتسكع ؛ نظر إلى النفع العاجل فلم يتعب ، ولكنه أصبح صعلوكًا فى المجتمع .

إذن .. فقيمة العمل ليست على قدر النفع العاجل ؛ ولكن على قدر امتداد النَّفعِ وضخامته ؛ فالجبان الذى يهرب من المعركة حقق نفعًا بأنْ هرب من الموت ، والشجاع الذى ألقى بنفسه فى المعركة حقق نفعًا باستشهاده ، ولكن الأول نظر إلى نفع وقتىٍّ فى الدنيا ، والثانى نظر إلى نفع أبدىٍّ فى الآخرة .

نعود إلى السؤال : ما الذى يجعلهم يفترون على اللَّه الكذب ؟ إنها عملية تسمى : انهيار الذات . ما معنى انهيار الذات ؟ لنضرب لذلك مثلًا يقرب ذلك إلى الأذهان : هب أن حلاّقًا فى القرية يقوم بعلاج الناس ، ثم جاء أحد أبناء القرية وقد درس فى كلية الطب وفتح عيادة ، حينئذ ماذا يصيب حلاق القرية ؟ يصيبه شيء اسمه انهيار الذات ، أى أنه تضاءل وانهار أمام ما لا يقدر على دفعه ، فماذا يفعل ؟ إن كان عاقلًا يحاول أن يبحث عن مهنة أخرى ، وإن كان غير متَّزن العقل فسيحاول أن يحارب هذا الطبيب بالأكاذيب ؛ كى يستعيد نفوذه الذى انهار .

وهكذا عصابة الكفر والضلال فهى مستفيدة من المجتمع الذى تعيش فيه ، يأخذون الأموال والقرابين ويعطون للناس الجهل ، تمامًا كحلاق القرية ، وهم بذلك مستفيدون ولهم ذاتية وسيادة . ولكن عندما يأتى رسول فإنه سيأخذ السيادة منهم ، ليس لنفسه ، ولكن لدين اللَّه الحق هذه السيادة كانت مكانتهم ووجاهتهم وثروتهم واستغلالهم للناس ؛ حينئذ يصابون بانهيار النفس ، ويطلقون الأكاذيب على منهج الله ، ويقولون على اللَّه سبحانه وتعالى ما لا يعلمون ؛ ليحتفظوا بنفوذهم ويحاربوا ذلك الذى جاء بالدين الجديد ؛ ليسلبهم سلطتهم . فمثلًا عندما هاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة ، وفى اليوم الذى وصل فيه رسول اللَّه ﷺ كانوا سيضعون التاج فوق رأس عبد اللَّه بن أُبيّ ؛ ليصبح ملكًا على المدينة ، وعندما وصل رسول اللَّه ﷺ بطل هذا كله فانهار عبد اللَّه بن أبى وبدأ بالعداء . ثم آمن نفاقًا وظل كافرًا ، وكان يحارب الإسلام ويطلق الإشاعات ضد رسول اللَّه ﷺ والمؤمنين .

والحق سبحانه وتعالى يبين لنا لماذا اختاروا الكذب فيقول : ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ .

إذن .. فالذى حملهم على هذا الافتراء ، أنهم يريدون أن يحتفظوا بسلطتهم وبسيادتهم فى الحياة الدنيا ، ولذلك لم يقل الحق تبارك وتعالى : متاع . فقط ، بل قال : ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس : ٧٠] وحدها ، وما دام المتاع فى الدنيا محدود القدرات ، فهم قد اختاروا عدم الفلاح ؛ لأنهم اشتروا الدنيا بمتاعها المحدود القليل ، وباعوا الآخرة بمتاعها الأبدى ، التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والحق تبارك وتعالى قال : ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ فما معنى كلمة فى الدنيا ؟ إن الأسماء هى سمات المسميات تنسب إليها ، فإذا قلت : فلان طويل . نسبت إليه الطول ، وإذا قلت : قصير . نسبت إليه القصر ، وإذا قلت : أبيض أو أسمر أو أشقر نسبت إليه صفات معينة . فإذا قلت : الدنيا . فما معناها ؟ معناها : الدنو أو الدناءة ، وهنا يختلف المعنى فلا يمكن أن توصف الدنيا بالدنو المطلق ؛ لأنك إذا أخذتها على أنها الطريق الموصل لنعيم الآخرة فهى أول درجة فى هذا الطريق ، إذن فهى الدرجة الأدنى التى تصعد منها إلى ما هو أعلى .

إذن .. فالذى يريد أن يجعل الدنيا بمعنى الدنو والدناءة على إطلاقها نقول له : لا ، فهى درجة دنيا للدرجات العالية فى الآخرة ، وهى دنيا لأن هناك حياة عليا فيها الخلود ، إذن .. فما دامت هناك دُنيا فهناك عُليا ، فلابد لكى تصعد إلى العليا أن تصعد السلّم من أوله ، فلا يمكن أن تصل إلى أعلى الدرجات دون أن تبدأ بالدرجة الدنيا .

عمرك لا يقين فيه ، والحياة الدنيا هى موضوع الدين ، فمنهج اللّه جاء ليحكم حركتك فى الحياة الدنيا بـ : افعل لْ ولا تفعل لاْ ، وأنت مطالب بأن تتبع منهج افعل لْ و لا تفعل لْ فى الدنيا ، أما الآخرة فهى جزاء ، والجزاء على الشيء ليس هو نفس الشيء ، وأنت فى الدنيا إما أن تجعلها مزرعة للآخرة فتكون قد أخذت منها المعنى بأنها الدرجة الأولى المؤدية إلى الحياة الأعلى ، وإما أن تتمسك بها فتكون قد جعلت كل حظك هو الدرجة الدنيا من الحياة ، التى خلقها اللّه سبحانه وتعالى للإنسان ، فهى دنيا فى عدد السنين ؛ لأن عمرك فيها قليل قصير ، ولا تقل : إن الدنيا عمرها ملايين السنين ؛ فدنياك أنت على قدر عمرك فى الدنيا ، وعمرك فيها مظنون ليس فيه يقين ، فأنت لا تعرف ولا تستطيع أن تعرف الزمن الذى ستقضيه فى الدنيا

لأنك قد تعيش فيها شهرًا أو شهرين أو سنة أو بضع سنين ، يقينًا لا تعرف . فمفارقتك للدنيا ليست فى يدك ، ولكنها فى يد اللّه تبارك وتعالى وهو لم يجعل لعمرك فيها زمنًا معروفًا لك ، ولم يجعل لمفارقتك لها سببًا معروفًا لك وذلك على عكس الآخرة فحياتك فيها يقين لأن اللّه سبحانه وتعالى أخبرك أنك ستخلد فيها لا تموت أبدًا ، وهكذا تعلم يقينًا أن حياتك فى الآخر أبدية ، ونعيمك فيها أبدى ، ولذلك فإننا نعرف أن الآخرة دار يقين ، والذين يفترون على اللّه الكذب لا يظنون أنهم ملاقوه ولا أن هناك يومًا للبعث يحاسبون فيه ؛ ولذلك فكل تصرفاتهم هى أن يأخذوا كل ما يستطيعون من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبكل الوسائل ؛ ذلك لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك شىء بعد ذلك ، فيأتى الحق سبحانه وتعالى ويخبرهم بالحقيقة : ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ .

أى لن يتمتع أحد فى الدنيا ويظلم ويفعل كل ما يغضب الله ، ثم بعد ذلك يُترك ، بل سيرجع إلى اللّه ولن يفلت منه .

ولكن لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقيقة ؟ لأن الإنسان قد يمتنع عن فعل أعمال كثيرة إذا تذكر عاقبة هذه الأعمال ، فإذا رأيت مثلًا ولدًا صغيرًا يلعب بالكرة وأنت تريد أن تضربه وتأخذها منه ، فإذا قيل لك : إن هذا الولد له أخ كبير قوى سيأتى إليك ويضربك ويستعيد الكرة . فإنك ستتراجع عن أخذ الكرة من الولد الصغير . والله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يذكر هؤلاء الذين يريدون متاع الدنيا بأى ثمن ويفترون على اللّه الكذب يريد أن يذكرهم بأنهم سيعودون إلى اللّه سبحانه وتعالى لعلّهم يتراجعون عما هم فيه ؛ خوفًا مما سيحدث فى المستقبل ، ثم يكمل اللّه تبارك وتعالى لهم الصورة فيقول : ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس : ٧٠] .

عيسى عليه السلام ابن اللّه أم عبد الله !

قال تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة : ١١٦] .

إن من ضعف البصيرة أن نتخيل أن الخالق له ابنٌ ، وقد بيَّن الحق هذه القضية فى سورة الكهف حين قال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا

لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف : ١- ٥] .

إن الحق سبحانه تَعَالَى أَنْ يكونَ له ولدٌ ، إنه منزّه عن ذلك ، وكانت البداية هي أن المشركين من كفار مكة قد توهموا أن الملائكة بنات الله ، ومضوا يتصورون ذلك ، وكان ذلك قمة الشرك بالله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتخذ من الخلق أبناء أو بنات .

ثم جاء بعد ذلك مثل هذا الضلال في التصور من بعض اليهود فقالوا ما بيّنه لنا الحق تبارك وتعالى حيث قال : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة : ٣٠] .

وعزير هو كاهن من نسل هارون ، وكان يكتب التوراة ، وعندما تصور اليهود أنه ابنٌ للَّه خرجوا عن الوحدانية للَّه جل وعلا ، وابتدع البعض من أتباع المسيح أيضًا تصورا بأن المسيح ابن لله ، وهذا قول لم يأت به كتاب أو رسول ولا حجة عليه ولا برهان ، فكيف يقع في ذلك أهل الكتاب الذين أنزلت إليهم كتب من السماء وجاءت إليهم رسل من الحق جل وعلا ؟ ! إن قول الحق عن ذاته : ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تعني التنزيه المطلق عن ذلك ، فقال جل وعلا في كتابه الكريم : ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم : ٨٨- ٩٠] .

إن المشركين واليهود والنصارى قد وقعوا في ضلال التصور أن للهِ أبناء من الملائكة أو البشر ، وذلك قول شديدٌ منكرٌ تكاد الجبال تسقط قطعًا مفتتة منه ، وتكاد الأرض تنخسف ، وتكاد السماوات يتشققن منه ، كأن المخلوقات التي لا تملك قدرة التفكير كالإنسان تكاد تنهار من فرط الإنكار لمثل ذلك القول ، إن ضلال ذلك التصور تسلل من عجز الفهم عن طلاقة قدرة الحق عندما يقول للشيء : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ . إن المسيح كلمة من اللَّه هي ﴿كُن﴾ فكان مثلما خلق آدم عليه السلام ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

إن شأن عيسى عليه السلام واضحٌ مثلما أوضح الحق كيف خلق آدم ، وكان الأجدر أن يفتن الناس بخلق آدم عليه السلام ؛ لأن عنصر الأبوة والأمومة في إيجاده ممتنع ، أما عيسى عليه السلام فعنصر الأبوة وحده الممتنع ، وبعد ذلك يعلم الحق جلّ وعَلاَ رسوله محمدًا ﷺ لو كان للَّه ولد لكان الرسول أول العابدين له فيقول تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف : ٨١] .

إن الحق يعلم رسوله أن يبلغ المشركين أن لو صحّ بالبرهان أن للرحمن ولدًا لكان الرسول أول العابدين لهذا الولد ، لكن البرهان لا يستقيم ؛ فكيف يكون للَّه - الذي ليس كمثله شيء ، القديم الذي لا نهاية لوجوده - ولد من البشر ؟ ! .

إن كل كائن بشريّ إنّما هو حدث عارض بالميلاد والموت ، ثم البعث بين يدي الحق ؛ لينال الثواب أو العقاب ولكن اللَّه حيّ لا يموت .

إن الخالق هو مالك الملك ، له ما في السماوات وما في الأرض ، والكون كله خاشع خاضع له ، وملكية الكون تنفي الوالدية عن الحق سبحانه .

إن الكون مفعول من قِبَل الله ، والكون بكل مَنْ فيه وما فيه أقل مِن فاعله . وإذا كان الإنسان يحتاج للأولاد خلفًا له بعد مماته ، فخالق الحياة منزه عن ذلك . إن الأبناء في الحياة مظهر قوى للآباء ، لكن خالق الحياة قوته منزهة عن أن تتم طلاقتها من وجود أبناء .

إن الأبناء يوجدون في الحياة معونة للآباء . والحق لا يستمد معونة من أحد ؛ إنه حي بلا نهاية ، إنه القاهر فوق كل عباده ومخلوقاته ، تنفعل الأشياء كلها بإرادته إنه يريد الشيء فيبرزه إلى الوجود : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨٢] .

إن الحق جل وعلا سبحانه وتعالى له كل صفات القدرة . إن كل الخلق متعلق بقدرة الله ، وقدرة اللَّه موجودة قبل خلق الكون .

الله سبحانه وتعالى لم يتخذ ولدًا

قال تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء : ١١١] .

فكأن عدم اتخاذ اللَّه سبحانه وتعالى ولدًا نعمة كبيرة يجب أن يحمد عليها ؛ لأنه سبحانه

لو كان له ولد – وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا – لخصَّه بالرعاية وترك بقية الخلق ، فكأن الحق يقول : أنا ليس لى ولد حتى تكونوا كلكم سواء . فالخلق كلهم سواسية عند الله ، وهذه نعمة للخلق جميعًا ؛ لأن رحمة الله وحنانه سيكونان لنا جميعًا ؛ كما أن اتخاذ الولد يجعل الوالد مذكورًا بعد موته ، والله تعالى منزه عن الموت ، فلا حاجة له فى ذلك تعالى عما يقولون عُلوًّا كبيرًا ، بينما الإنسان عكس ذلك فهو يحب الذرية ، حتى يمتد ذكره بعد موته ويفرح بولده ؛ لأنه سيخلفه ويحمل اسمه كما يفرح بحفيده لهذا السبب أيضًا ، ولأن الأبناء عزوة وقوة وزينة الحياة الدنيا لكن الله هو القهار ، وهو الجبار ، وهو القوى ، فهو سبحانه منزه عن الصاحبة والولد .

وأنت إذا نظرت فى الكون وجدت أن الفساد يأتى إما من الصاحبة ، وإما من الولد ، كذلك لو كان لله شريك فى الملك فمن فيهما الذى ترضيه ؟ ومن الذى تعبده وكيف يسير الكون ؟ إنها عملية غير مقبولة .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر : ٢٩] .

فهذا عبد مملوك لعددٍ من الأسياد المختلفين ، لهذا يأمره أحدهم بشىء والآخر يأمره بعكسه فلابد أنه سيتعب جدًّا ، ولكن العبد الآخر له سيّد واحد ، فهذا لا شك أنه سيكون مستريحًا عن الآخر ، فكذلك الإنسان الذى يعبد الله وحده والذى يعبد آلهة متعددة ، فما دام الله ليس له شريك فى الملك فأوامره نافذة بدون معقّب ، وتطمئن إن أمرت بشىء منه أنه ليس هناك قوة أخرى تمنعك من تنفيذه . والولىّ هو الذى يليك ، وأنت لا تجعله يليك إلا إذا كان نافعًا لك فهو قوى وأنت ضعيف ؛ فينصرك لأن لك أعداء ، فلأنك ذليل وليس عندك ذاتية تذهب إلى من عنده ذاتية وتحتمى به وتأخذ ولاءه ، فالحق سبحانه وتعالى ليس له ولىّ من الذل لأنه هو العزيز المعز .

وقول الحق سبحانه : ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ يشير إلى تكبير الله تعالى جعله شعار الأذان والصلاة ، فكل ما دون الله من الأغيار فالله أكبر منه ، فإن ناداك وأنت فى أى عمل فقل : الله أكبر من عملى ، إن ناداك وأنت مع عظيم فقل : الله أكبر من أى عظيم فمعنى ﴿وَكَبِّرْهُ

تَكۡبِيرَۢا﴾ : أن تقدم أوامره ونواهيه على كل أمر أو كل نهى ؛ لأنك إن كَبَّرت الحق سبحانه وتعالى أعززت نفسك ، ولذلك فعزّة اللّه لخلقه تأتى لمن يخلص العبودية . وكلمة العبودية مكروهة إلا إذا كانت لله ؛ لأن العبودية للّه عزة ، ولكن عبودية الإنسان للإنسان هى المكروهة والمذمومة ، وتقوم بسببها معارك وحروب فى العالم كله ؛ وذلك لأن فى هذه العبودية السيدُ يأخذ خيرَ العبد ، ولكن عبوديتنا للّه نأخذ نحن العبيد خير السيد وهو الله ، فهذه عزة وليست ذلة ؛ فأن يكون الإنسان عبدًا ذليلا للّه ففى ذلك كمال عزته ، كما يقول أحد الصالحين :

حسب نفسى عِزًا بأنّى عبدٌ يحتفى بى بلا مواعيدَ رَبٌّ
هو فى قدسه الأعزُّ لكن أنا ألقى متى وأين أحبُّ

ونحن قلنا سابقًا : إذا أردنا مقابلة عظيم من العظماء ، نكتب له طلبًا للمقابلة ، ونوضح له فيه أننا نريد مقابلته من أجل كذا وكذا ، فإن كان عنده وقت رد عليك وحدد لك زمان ومكان ومدة المقابلة ، وهو الذى ينهى اللقاء ، لكن ربنا سبحانه أخبرنا أن الزمام فى يدك بمجرد أن آمنت به خالقًا ، فى أى وقت شئت كَلِّمْهُ فى أى شىءٍ تريد ، وأنت الذى تنهى اللقاء ؛ لأن اللّه لا يمل حتى تملوا ، كما قد أخبرنا رسول اللّه ﷺ : « عليكم من العمل ما تطيقون ، فواللّه لا يمل اللّه حتى تملوا » . فهل هناك عز أكبر من هذا ! ! .

ولذلك كانت حيثية الرفعة لرسول اللّه ﷺ فى الاسراء والمعراج أنه عبد الله ؛ قال تعالى : ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء : ١] .

إذن .. العبودية له سبحانه عزة فكبره تكبيرًا ، واعلم أنك إن التجأت إليه وكنت فى معيته كنت أكبر من غيرك ، ولا يستطيع أحد أن ينالك بسوء ؛ لأنك فى معية اللّه ، ومن كان اللّه معه فلا يحزن ، ولكن الذى يشرد من معيّة اللّه هو الذى يتعب ، إن الذى يظل فى معية ربه لا يستطيع أحد أن يناله بسوء أبدًا .

ولذلك فالإنسان الصحيح القوى يعيش فى معية نعمة الله ، فإذا مَرِضَ أصبح فى معية اللّه ذاته ، ويوضح ذلك الحديث القدسى الذى يقول فيه الحق سبحانه : « يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى . قال : ياربِّ ، كيف أعودك وأنت رب العالمين قال : أما علمت أن عبدى فلانًا مَرِضَ

فلم تعده ، أما علمت أنك لو عُدْتَه لوجدتنى عنده . . » . فأى مريض يشعر بأن اللّٰه معه ماذا يكون موقفه ؟ لا يشعر بألم المرض أبدًا ، ويستحى أن يتأوّه ، وكيف يتأوّه وهو فى معيّة الله ؟ !

ولذلك يقولون : الصحيح مع نعمة الله ، والمريض مع اللّٰه ذاته ، والشّرع حضّنا على عيادة المريض لنخفف عنه ونؤنسه وننسيه آلامه ، ثم إذا عرف أنه فى معية اللّٰه واستحضر هذه المعية لا يشعر بألم أبدًا .

بهذه الآية ختمت سورة « الإسراء » : ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِىّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١] وأعظم نعم اللّٰه علينا هذه النعم الثلاث وهى ليست كل النعم التى أنعم اللّٰه بها علينا ، بل للّٰه نعم كثيرة ، لكنها قمة النعم التى نحمد اللّٰه عليها .

فالحمد للّٰه الذى لم يتخذ ولدًا ؛ لأنه لم يلد ولم يولد ، وهو الواحد الأحد ، والحمد للّٰه الذى لم يتخذ شريكًا لأنه واحد ، والحمد للّٰه الذى لم يكن له ولىٌّ من الذل ؛ لأنه قاهر عزيز قوى ، ولهذا يجب أن نكبّر هذا الإله تكبيرًا فى كل نعمة نستقبلها منه .

إيمان أهل الكتاب بعيسى عليه السلام

يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ١٥٩] .

وإن لا هنا هى إنْ لا النافية وهى غير إن لا الشرطية وإليكم هذا المثال عن إن النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق : ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ [المجادلة : ٢] .

إن الحق هنا يقول لهؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته : أنت محرمة علىَّ كظهر أمى لأ . هؤلاء يقول الحق لهم مصححًا هذا الخطأ الذى وقعوا فيه : ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ [المجادلة : ٢] . أى أن الحق يوضح ما يلى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، « وإنْ لاْ » فى هذه الآية التى نحن بصددها هى « إنْ لاْ » النافية ؛ كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا يؤمن به قبل موته . هذا معنى « إن لاْ » النافية .

وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر فى آية سورة « النساء » ؟ لأن الآية بها أكثر من ضمير ، مثال ذلك قول الحق فى نفس الآية : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ على من تعود ﴿بِهِۦ﴾ ؟ وعلى من تعود « الهاء » فى آخر قوله : ﴿مَوْتِهِۦ﴾ ؟ هل موت عيسى أم موت واحد من أهل الكتاب ؟ فالمذكور عيسى ومذكور أيضًا أهل الكتاب فى ﴿بِهِۦ﴾ الأولى فيها « هاء » قد يصح أن يكون القول كالآتى : « لن يموت واحدمن أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى » ، يصح أيضًا : « لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب » . لماذا ؟ لأن الضمير لا يُعرف إلا بمرجعه ، والمرجع هو الذى يبين الضمير ، فالواحد منا يقول : جاءنى رجل فأكرمته . الضمير هنا يرجع إلى إكرام الرجل . وحين نُرجع الضمير على مرجعه ، فالمرجع هو الذى يحدد معناه ؛ فإن كانت هناك ألفاظ كل منها يصح أن يكون مرجعًا ؛ إنها تحتاج إلى عملية عقلية ، فعندما يقول قائل : « تصدقت بدرهم ونصفه » فمعنى ذلك أن الرجل تصدق بالدرهم وبنصف مثيل له .

إذن .. فالضمير إما أن يعود على كل المرجع ، كأن يقول واحد : « جاءنى رجل فأكرمته » . وإما أن يعود الضمير على مثل المرجع كأن يقول واحد : « أكلت رغيفًا ونصفه » . أى أن هذا القائل قد أكل رغيفًا ونصف رغيف آخر ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه ؛ كقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر : ١١] .

إن المعمر هو الإنسان الذى طعن فى السن ولا ينقص من عمر هذا المعمر ، إلا كما أراد الله . إن الهاء فى ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ تعود إلى بعض من المعمر ، فالمعمر ، ذاتٌ ثبت أن لها التعمير ، ذلك أن كلمة ﴿مُّعَمَّرٍ﴾ مكونة من عنصرين هما : ذات الرجل لْا وعمر الرجل لْا فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير ؛ لكن ماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ .

مثال ذلك ، كما فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ إننا هنا أمام مرجعين : « السماء والعمد » فعلى أى منهما تعود الهاء الموجودة بكلمة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السماوات ، أم للمرجع الثانى وهو العمَد ؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السماوات ويصح أيضًا أن تعود إلى العمَد ، وهى عمد بنظام آخر غير العمد

المعروفة لنا . إنها عمد وضعها الحق سبحانه بقوانين الجاذبية . نحن نرى السماء بدون عمد وقد رفعها الله ، أو هو رفع السماوات بغير عمد ، أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر ؛ لأن الرفع قد تم بقوانين الجاذبية ، هكذا يصح أن ينسب الضمير إلى أحد المرجعين .

وهكذا عرفنا أن الضمير من المعارف ، إلا أنه فيهم لا يبين معناه إلا بمرجعه ، فإن رجع فإما أن يكون معناه للمرجع كله أو مثل مرجعه أو من بعض مرجعه ، فإن رجع إلى أمرين قد سبقا ، فالعملية العقلية تسمح لنا أن نعرف أن الضمير يرجع إلى كل منهما أو أى منهما .

الآية التى نحن بصددها نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما : المسيح ، وأهل الكتاب ؟ وفيها ضميران اثنان ؛ فهل يعود الضميران على عيسى ، أم يعود الضميران على أهل الكتاب ؟ أم هل يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ، وأى منهما الذى يرجع على عيسى ، وأى منهما الذى يرجع على أهل الكتاب ، أم أن هناك مرجعًا ثالثًا لم يذكر ويُعلم من السياق وهو محمد ﷺ ؟ .

نقول : إن الضميرين يرجعان إلى المرجع الثالث الذى لم يذكر ونعلمه من السياق ، إن الضميرين يرجعان إلى محمد ﷺ الذى بشَّر بمجيئه عيسى ابن مريم ، وتواترت الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ولسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول اللّه ﷺ .

إقرار عيسى بعبوديته للّه تعالى

يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ١١٦]

وعلينا أن نعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق سبحانه وتعالى وعيسى ابن مريم يوم يجمع الحق سبحانه الرسل : ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة : ١٠٩] .

قد يقول قائل : لماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟ للإجابة عن ذلك علينا أن نتأمل قول الحقِّ سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ

لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ .

فيجب أن نعرف أن لكل حدث زمانًا ومكانًا ؛ وزمان هذا الحدث يوم القيامة ، ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر . والحق سبحانه وتعالى خالق كل زمان وكل مكان ، وله أن يتحدث فى أى أمر بأى صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضى أم الحاضر أم المستقبل ؛ فالحق قد أوجد كل شيء من ماضٍ وحاضر ومستقبل ، وبيده أمر كل ما خلق ومن خلق . وذلك أمر مختلف عن حالة الحادث العارض وهو الإنسان ؛ فالحق تَقَدستْ أسماؤه وصفاته أزلى قيوم ، أما بالنسبة للإنسان فالأمر مختلف . إن الزمن بالنسبة لأفعالنا واحد من ثلاثة : ماضٍ ، أى أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم مثل قولى : قابلنى زيد . ومعنى ذلك : أن الفعل قد تم وصار مُحَقَّقًا .

وحاضر : أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعة الآن ، مثل قولى : يقابلنى زيد . ومعنى ذلك أن العين ترى زيدًا الآن .

ومستقبل : أى أن الحادث سوف يقع ، كقولى : سيقابلنى زيد . وهذا الزمن المستقبل لا يملك الإنسان فيه أن يحدث منه الحدث ، ولا يملك ألا يقع أمر على الإنسان الذى سوف يقابله قد يمنعه من إتمام الحدث ، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب قائمًا .

إذن .. فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشيء ؛ لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث . إن الذى يملك ذلك كله هو الله سبحانه وتعالى وحده ؛ ولذلك يأمرنا الله عندما نعزم على فعل أمر أن نقول : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ . إن على الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وأن يتذكر دائمًا قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه ، وليس معنى ذلك أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل أو الأخذ بالأسباب . لا ، إنه يطلب منا أن نخطط ، وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : إن شاء الله قبل وبعد هذا التخطيط ؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة من يملك كل أمر ، والذى لا مُعَقِّبَ لحكمه ولا رادَّ لقضائه .

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفثوا سمومهم فى عقول المسلمين ، بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها فى بعض من آيات القرآن ، فقال قائل

منهم : كيف يقول الحق تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل : ١] .

إن هذا خبر عن يوم القيامة ، فكيف يأتى به الله سبحانه وتعالى على صيغة الماضى ، وكيف يقول : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وكيف يكون الاستعجال على شيء لم يحدث بعد ؟ !

نقول لمن قال ذلك : إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى ، وليس إنسانًا مثلك محكومًا بأزمانه . إن المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها ، فعندما يقول سبحانه : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ . فمعنى ذلك أن الأمر آتٍ لا محالة ؛ لأنه لا قدرة تخرج عن مراده ؛ لأنَّ أى فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان . فإن كنا نقرأ على سبيل المثال : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١٠٠] . فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته هى فعل ماض ، ولكن لنقل : كان الله غفورًا رحيما ولا يزال غفورًا رحيما ؛ إنه سبحانه وتعالى غفور رحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أولى أن يكون غفورًا رحيمًا بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . إن الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن تعتريه الأحداث فيتغير . إن الزمن مخلوق من مخلوقات الله ، فلا تقل : متى أو أين ؟ لأنهما به وجدا ، والحق يأتى بالماضى ؛ لأنه متحقق الوقوع ، وإذا قال الله عن شيء : إنه سيحدث ؛ فلابد أن يحدث .

والحق سبحانه عندما يذكر عيسى عليه السلام فى أى موضع ؛ فإنه ينسبه لأمه ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ . ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائما على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله ، فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلان أمس ؟ وإما ليقر المسئول بما يعلمه السائل . ومثال ذلك أن يسأل الأستاذ التلميذ ، إن الأستاذ يسأل التلميذ ليقر بما تعلمه . وحاول بعض المستشرقين أن يقولوا : إن هناك تناقضًا فى القرآن - والعياذ بالله - واستندوا فى ذلك إلى قول الحق : ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات : ٢٤] . أى أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ، ويعتقد . ولكنه سبحانه يقول فى موضع آخر : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن : ٣٩] فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا ؟ لا ، سوف يُسألون ؛ ليقرروا ما فعلوه ، لا ليعلم الله منهم ما فعلوه ؛ فهو سبحانه عليم بكل شيء . وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين : وجه ليعلم السائل ، ووجه ليقرر المسئول . وسؤال الحق

للناس يوم القيامة ؛ ليقرروا ما فعلوه وما كان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال الحق سبحانه وتعالى سؤال من يرغب فى أن يعلم ؛ لأنه سبحانه وتعالى عليم بكل شيء والإنسان عليه أن يحتفظ بالمقام الذى وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم عليه السلام . وكذلك يكون سؤال اللَّه لعيسى عليه السلام ، إنه لتقريع من قالوا عن عيسى عليه السلام ما لم يبلّغهم إياه ، إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم عليه السلام إنما بلّغ ما أوحى له به ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى عليه السلام ردًّا على هذه الافتراءات من الاتباع : ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة : ١١٦] . وحين نسمع ﴿سُبْحَانَكَ﴾ لنعرف أنها إجمال التنزيه للَّه عز وجل ، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله ، فلله - تقَدَّس اسمه - وجود وللإنسان وجود ، ولكن إياك أن تقول أيها الإنسان : إن وجودك كوجود اللَّه سبحانه وتعالى ؛ لأن وجود اللَّه عزَّ وجلَّ ذاتى ، ووجودك غير ذاتى . وكل ما فيك موهوب لك من اللَّه سبحانه وتعالى ، وكذلك فليس غناك كغنى اللَّه سبحانه وتعالى ، ولا قدرتك كقدرة اللَّه سبحانه وتعالى ، ولا أى صفة من صفاتك كصفات الله ؛ لأنه سبحانه له مطلق القدرة والقوة ، إن كل شيء يتعلق بالله فى نطاق سبحانه لأ ، وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه : ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إنه عليه السلام يعلم أن الرسول المصطفى من اللَّه سبحانه ، ليس له أن يقول : إنه إله ، وفى هذا القول تقريع لمن ادعى على عيسى عليه السلام مثل هذا القول ، ورد عيسى عليه السلام على ذلك بقضية متفق عليها فقال لربه : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ . إن الكل متفق على أن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم كل ما بَدَر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال ، والكل يعلم تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن أن يخفى عليه شيء ، والكل يعلم أن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم خفايا الصدور ؛ يخبرنا عيسى عليه السلام بذلك : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ إن عيسى عليه السلام يقرر أن الحق سبحانه وتعالى العليم بكل شيء يعرف أن ذلك لم يخطر له على بال . وهذه هى العله فى إيراد ثلاث صور فى هذه الآية :

الصورة الأولى : تنزيه عيسى عليه السلام لربه عز وجل بقوله : ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ .

والصورة الثانية : هى قول عيسى لربه : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ .

والصورة الثالثة : هى قوله لربه : ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ .

إذن .. فلا شيء من جانب عيسى عليه السلام ولم يقل ذلك ، وإنما هو تقريع من الله عز وجل لمن قالوا فى عيسى عليه السلام وأمه غير الحق ، ويختم عيسى ابن مريم عليه السلام بقوله : ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ وكلمة « عَلَّام » هى مبالغة فى ذات الحدث ، ومبالغة فى تكرار الحدث ؛ فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما فى كونه يعلم كل ما كان وما يكون سبحانه ؛ لأن الكون كله ملك له .

عيسى عليه السلام شهيد على بنى إسرائيل

يقول الحق تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المائدة : ١١٧] .

إن عيسى عليه السلام يقرر أنه لم يبلغ قومه إلا ما أمره الله ببلاغه ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله كربٍّ له ورب لهم جميعًا ، وعيسى شاهد عليهم فى كل تصرفاتهم وهو موجود بينهم ، والشهيد كما نعلم هو الذى يشهد السلوك ولا يقدر أن يمنع الناس المشهود عليهم عن فعل ما يفعلونه . وبعد أن يتوفاه الله يكون الحق سبحانه وتعالى هو الرقيب عليهم ، والرقيب هو الشاهد الذى يقدر أن يمنع الحدث ، والحق رقيب ويقدر أن يمنع الناس عما ارتكبوا من المخالفات ؛ كأن يبعث لهم من يذكرهم ، ليهديهم أو يكف أيديهم ، وهكذا نعرف أن هناك فرقًا بين مشهدية الخلق ورقابة الحق ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ .

إنه لا يترك المسألة لشهادة الخلق فقط ، ولكن لرقابته أيضًا ، ويؤكد ذلك بتذييل الآية : ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ .

إن الحق الذى يشهد ويقدر أن يفعل ما يريد ، ومسألة الرفع كما نعلم هى الأخذ كاملا دون نقض فى البنية بالقتل أو الموت . ونحن المسلمين نعرف أن الحق رفع محمدًا ﷺ بالإسراء

والمعراج إلى السماوات وعاد إلينا مرة أخرى ؛ ليكمل رسالته ، فنحن نصدق أمر رفع عيسى وأنه سوف يعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله ﷺ .

إن أمر الرفع فى الإسلام مقبول ؛ فقد رفع الله رسوله محمد ﷺ ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار الحوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين فى تلك الرحلة . وهكذا تعرف أن مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء أمر وارد ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ . إن الحق سبحانه أراد بالقرآن رحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام . فإن الله يأتى به فى أسلوب لا يسبب الفتنة ، فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكمًا ولن ينقض حكمًا . ولذلك جاء الحق بمسألة الإسراء بنص قطعى ، أما مسألة المعراج فلم تأت نصًّا إنما التزامًا ؛ لأن الحق سبحانه قال : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم : ١٣- ١٥] وهكذا فالإسراء آية أرضية والمعراج آية سماوية . وقد وصف رسول الله ﷺ بيت المقدس لمشركى قريش ؛ قال تعالى : ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء : ١] .

إذن .. جاء الإسراء نصًّا ؛ لأنه آية أرضية . أما الآية السماوية وهى المعراج فجاءت التزامًا ، وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام فمن يرى أن القدرة المطلقة لله فهو يصدق ذلك ، ومن يقف عقله نقول له : إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة : ﴿تَوَفَّيْتَنِى﴾ فنجد أن الوفاة تعنى إماتة لا والحق يقول : ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام : ٦١] .

أى : أماتته . والحقُّ تعالى يقول : ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة : ١١] .

والله سبحانه وتعالى يقول أيضا : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

﴿لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

إنه يسمى النوم: وفاة، وسماه موتًا، وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض، ومعنى الموت فى بعض مظاهره: غياب حس الحياة، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة.

إذن .. فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم، ويقال أيضًا عن الدَّين: توفيت دَينى عند فلان: أى أخذت دَينى كاملًا غير منقوص، وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق تعالى القول الفصل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضًا، فقد قال الحق: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾. إن الموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى البنية فتذهب الروح، وقد قال المسيح ابن مريم كما بين لنا ربنا: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾. أى أخذتنى كاملًا غير منقوص. وهذه مسألة لا تنقض الرفع، ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالًا للحوار بين عيسى ابن مريم وبين الحق سبحانه يوم المشهد الأعظم. وعيسى عليه السلام يقول عن نفسه: إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فإن الرقابة على القوم تكون لله. لقد قسم المسألة بينه وبين ربه، فالحق سبحانه شهيد دائمًا ورقيب دائمًا، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير فسبحان الذى يُغَيِّر ولا يتغيَّر.

تفويض عيسى عليه السلام أمر قومه لمشيئة الله تعالى

جاء على لسان عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

ولقائل أن يقول: أليس فى ذلك الأمر إشكال واضح لقد فتن بعض أتباع عيسى، فاتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله، فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة فى هذه الآية؟!

ونقول: إن عيسى عليه السلام لم يقل: يارب اغفر لهم، ولكن؛ قال مجيبا ربَّه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لقد فوَّض عيسى الأمر لربه عز وجل، وهو كرسول من عند الله تعالى يعلم أن رحمة الله سبحانه وتعالى سبقت غضبه، وأنَّ له طلاقة القدرة.

ونحن نعرف أن كل خلق اللَّه هم عبيد لله ، لكنَّ المطيعين للَّه عز وجل والمؤمنين به خاصة .، هم عباد اللَّه سبحانه وتعالى . **فالخلق نوعان :** عباد للَّه ذهبوا إليه إيمانًا ومحبة وطاعة ، والنوع الثانى هم العبيد الذين يُقهَرون لقاهرية سيدهم ، وحتى الكافر لم يكفر رغما عن الله ؛ بل كفر بما آتاه اللَّه من قدرة اختيار فى أن يفعل أو لا يفعل ، وكان الحق قادرا على أن يخلق خلقا لا يعصون اللَّه سبحانه وتعالى ما أمرهم ويفعلون ما يأمرهم به صاحب الأمر والنهى ، وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة ، لكن قدرة اللَّه تثبت صفة من صفات اللَّه وهى القهر ، ولا تثبت صفة المحبة ؛ فالمحبة تأتى من أن يكون المخلوق مختارًا أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان ، إنّه بذلك آمن محبة واختيارًا ، وهكذا يريد اللَّه عز وجل بخلقه المؤمنين به ، فكل الوجود ما عدا الإنس والجن مقهور ولا يقدر على المعصية فالشمس والقمر والمطر والهواء والسحاب وكل ما فى الكون مقهور للَّه القهار .

إذن .. فهو أراد اللَّه – جلَّت قدرته – خلقًا مقهورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به ، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيما دون الإنس والجن ، أما الإنس والجن فقد خلقهم اللَّه مختارين بين الكفر والإيمان ، حتى يأتى بعض من العباد ؛ ليصنعوا ما يحبه اللَّه ويرضاه ويتّبعوا منهج الله ، فيجازيهم اللَّه الجزاء الحسن ، ويأتى فريق آخر فيكفرون بالله ويرفضون منهجه – بمحض اختيارهم – فأولئك لهم الجزاء السيء حسب عملهم . وهناك فريق آخر ليس عليه تكليف ؛ **إذ إن التكليف للعباد لا يتم إلا بوجود ثلاثة شروط :**

الشرط الأول : أن يوجد العقل .

والشرط الثانى : أن يكون العقل فى تمام النضج وهو الرشد .

والشرط الثالث : ألا تكون هناك قوة أعلى من الإنسان تهدد حياته وتقهره على فعلٍ ما .

وهكذا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف ؛ وهم : المجنون ، ومن لم يبلغ الحلم ، والمكره . والحق قد أعطى مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وبذلك ليس لك عند اللَّه سبحانه وتعالى حجة أيها الإنسان ، ومن دخل التكليف طائعًا فهو من عباد اللَّه سبحانه وتعالى ، ومن عصى اللَّه وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين فى كل شيء فيما عدا الاختيار . إذن .. فالعباد هم الذين دخلوا العبودية بأن وازنوا بين الإيمان

ونقيضه الكفر . أى بين المراد للّه عز وجل وغير المراد للّه سبحانه وتعالى .

فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم عليه السلام ، رغم علمه بكفرهم : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ؟ نقول : إن معنى العباد والعبيد – الذى شرحناه سابقا – هو وضع الإنسان فى الدنيا ، لكن لنا أن نعرف أن هذا الحوار الذى نقرؤه بين عيسى عليه السلام وبين الحق سبحانه وتعالى يكون فى الآخرة ، وكلنا فى الآخرة عباد مقهورون ، وعندما نستقرئ كلمة عباد لا فى القرآن ، نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التى اختارت مراد اللّه فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تمامًا . ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ .

إنه يأتى هنا بالخصال الجميلة لهذه الصفوة من العباد ، والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المخلصين : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ .

أما فى الآخرة فكلنا عباد فها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يخاطب الذين أضلوا غيرهم : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان : ١٧] . إن الكل عباد للّه عز وجل يوم القيامة ، والكل ينفذ مراد اللّه سبحانه وتعالى ولا ولاية لأحد على أى شىء حتى أبعاضه ، فالعين التى كانت مسخرة للعبد فى الدنيا تأتمر بأمر العبد فيختار أن يرى بها الحلال أو يرى بها الحرام ؛ هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها فى اليوم الآخر ، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم وكل الأبعاض . إن النفس الإنسانية تكون كالقائد لكل الأبعاض والجوارح فى الدنيا تنفذ أوامره سواء بالخير أو بالشر ، سواء للطاعة أو للمعصية لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على الإنسان فى كل ما فعل ، فليس لأحد مراد غير مراد الله : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] . لقد انتهت مرادات البشر وبقى مراد اللّه فصار الكل عبادًا للّه عز وجل ، وعلى هذا فليس هناك إشكال فى قول اللّه سبحانه : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ .

ونعلم أيضًا أن كلمة عبيد لا بشملنا كلنا فيما نحن غير مخيّرين فى مثل إدارة التنفس ، أو ميعاد الميلاد ، أو ميعاد الموت ، ولكن المؤمنين يرتقون ، بعبوديتهم للّه بتنفيذ منهجه وطاعته . أما الكافرون فهم يعصون اللّه بما لهم من اختيار ويسيرون فى درب العصيان على معاندة منهج اللّه سبحانه وتعالى ، وحتى يثبت الحق سبحانه وتعالى لنا جميعًا أنهم فى قبضته وإن كفروا ، فإنه

يصيبهم بالمرض والفاقة والآلام النفسية العميقة ؛ ولا يجرؤ واحدٌ منهم أن يعارض مراد الله فى هذه الأحداث التى يجريها عليهم ، وقد يستدرجهم بالغنى والجاه والسلطان ويكون ذلك عذابًا لهم ؛ ولذلك يقول الله : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] ولذلك فالمؤمن يشكر الحق عز وجل باختياره ؛ لأن الله عز وجل حماه بأدوات الاختيار وجودًا ونضجًا وعدم إكراه .

وكما قلنا : عندما يسأل الله عيسى فى الموقف العظيم ، يوم القيامة ، عن الذين فتنوا فيه وفى أمه ، سيجيب قائلا : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] . وهذا التّذليل لكلمات عيسى ابن مريم عليه السلام لم يأت باعتذار أو طلب الحنان من الله على الذين كفروا بالله ، وأشركوا به . فالعزيز الحكيم هو الذى لا يغلب على أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمى هؤلاء الناس قوة من دون الله . إنه القادر العزيز إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم بمقتضى عزته وحكمته سبحانه وتعالى . وبعض السطحيين قالوا تلمّزًا فى القرآن : ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى : إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم . ونرد على هؤلاء السطحيين فنقول : إن كل كلمة فى القرآن تأتى فى مكانهم بالضبط ولا تحل مكانها كلمة أخرى ؛ لأنه كلام الله وإلا اختلف المعنى المراد ، ولذلك جاء التذييل فى هذه الآية دالاً على إعجاز القرآن الكريم .

والموقف عصيب يوم القيامة فلا ينفع المال ولا الجاه إنما الذى ينفع هو الصدق ، والعمل الصالح ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ [المائدة: ١١٩] . فالصدق ينفع أصحابه يوم القيامة ولما كان عيسى عليه السلام صادقًا مع ربه فيما أمر .، فإنه سيجيب على سؤال ربه قائلا : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦] ، ولذلك يقول الله : ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وكيف ينفعهم ذلك الصدق ؟ إنهم ينعمون ويفوزون برضا الله عنهم ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ .

وإن تساءل إنسان كيف يرضى العبد عن ربه ؟ نقول : إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم فى الآخرة يمتلئون بالحبور والسرور والفرحة ويقولون : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ .

ويذيّل الحق الآية التى تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ؛ **والفوز فوزان** : فوز عظيم وفوز سطحى ، والفوز السطحى هو ما يعطيه الإنسان لنفسه فى دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجل ، فيبدو ظاهريا كأنه قد فاز لكنه فى الحقيقة لم يفز ؛ لأن الندم سيعقبة ، وأى لذةٍ يعقبها الندم ليست فوزًا . إنّ الدنيا بكل ما فيها من نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره وهو نعيم مهدّد بشيئين :

الشىء الأول : أن يزول النعيم عن الإنسان ، وكثيرًا ما رأينا منعَّمين زال عنهم النعيم .

والشىء الثانى : أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ونحن نرى ذلك كثيرًا .

أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ ، ولا يقطعه شىء . كما قال تعالى : ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [التوبة : ٢١، ٢٢] .

ويختم الحق سبحانه سورة « المائدة » بقوله : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة : ١٢٠] . والسماء والأرض هما ظرف للوجود فلله ملك السماوات وما فيهن وملك الأرض وما فيها .

إذن .. فقول الحق : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإجابة عيسى يوم القيامة عن سؤال ربه : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ نفهم منهما : أنه ليس شىء من خلق اللّٰه يستطيع أن يخرج عن مرادات الله . أما فى الدنيا فقد جعل اللّٰه سبحانه وتعالى أسبابها فى أيدى الناس فإن لكل إنسان من هو أعلى منه ، فهناك المسئول عن الطعام ، والمسئول عن البيت ، والمسئول عن الثوب ، ولكن ليس كل مسئول ملِكًا ؛ لأن الملك هو الذى يملك كل شىء ، وهذه سنة اللّٰه عز وجل فى كونه ، لكن فى الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء : ١٥٥] .

لقد نقضوا كل المواثيق ، ونقض الميثاق هو حله ؛ لقد كفروا بآيات اللَّه وقتلوا أنبياء اللَّه بغير حق ، وادَّعوا أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية .

إذن .. قدم الحق سبحانه وتعالى حيثيات ، **وهذه الحيثيات هى :**

أولًا : نقضوا الميثاق ، وذلك يستوجب ما يتوعدهم اللَّه به .

وثانيًا : كفروا بآيات اللَّه التى أنزلها ؛ لتؤيد موسى .

وثالثًا : قتلوا الأنبياء بغير حق .

وقالوا تعليلًا لذلك : ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ ؛ أى قلوبهم مغلفة ، معنى ذلك أنها قلوب مختوم عليها ختم كالغلاف بحيث لا يخرج منها ما فيها ، ولا يدخل فيها ما هو خارج منها ، إنهم بذلك يريدون الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ، ولا يدخل فيها إيمان ، وقد تقدم مثل لهذا حين قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة : ٦، ٧] .

نقول لهم : هل القلوب خلقت غلفًا ، أم خلقت مختومًا عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ؟ إن الحق سبحانه الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ؛ فالختم على القلب حتى لايتعرف على الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد والختم على السمع والبصر هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق سبحانه ، فمقر العقائد مختوم عليه ، وهو القلب ، ضربت غشاوة على الآذان وعلى البصر ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين ، فلماذا خَصَّهم اللَّه بذلك التكوين دون غيرهم ؟ والذين اهتدوا لم يكن مختومًا لا على قلوبهم ، ولا على أسماعهم ؛ ولا على أبصارهم . لماذا ؟ .

وللرد على هولاء نقول : إن الواحد منهم يريد أن يبرِّر انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول بأن اللَّه خلقه هكذا ؛ ولكنّ هذا قول مزيف وكاذب ؛ لأن الواحد منهم إنما يكفر أولًا ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه اللَّه على حاله ، لماذا ؟ لأن اللَّه أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع اللَّه شريكًا تركه اللَّه وشركه .

إذن . . . الختم جاء كنتيجة للكفر والآيتان قدمتا الحيثية ، وهى أن الكفر يحدث أولًا ، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وكذلك قول اللَّه سبحانه وتعالى : ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

إذن .. فالكفر هو الذى يأتى أولًا ، ولذلك فالرد على أى إنسان يقول : إن اللَّه لا يهدينى . هو أن اللَّه لا يهدى من كفر به ، فإن كفر الإنسان مانع لهدايته .

وقوله تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ . يدفع إلى سؤال هو : لماذا جاءت مالْهنا ؟ بعضهم قال : إن ما لْا هنا زائدة . ونقول : ليس فى كلام اللَّه حرفٌ زائدٌ ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى كان يتم بغير وجوده .

إن القرآن هو الكلام المعجز ، وجاء محمد ﷺ ليبلغهم أنه جاء بالقرآن معجزة يعجزون عن محاكاته ، مع أنهم عرب وفصحاء ؛ وبما أن المتحدَى دائمًا يحاول أن يتصيدَ خطأ ما ، وبما أن العرب لم يقل واحد منهم : إن فى القرآن لحنًا . فهذا دليل على أن الأسلوب يتفق مع الملكة العربية .

إن قول الحق : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ . معناه : بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه . قيل : إن « ما » هنا زائدة ، وهى زائدة للتأكيد ، ونكرر هنا : إياك أن تقول إن فى كلام اللَّه حرفًا زائدًا . لقد جاءت ما لْا هنا بمعنى واضح ؛ فقوله : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ ، أى بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم ذلك .

لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ إن ما بعد « الباء » هو السبب فى هذه الضجة ، ونحن نعلم أنه يوجد فعل ومصدر للفعل كقولنا : « أعجبنى ضرب السيف » وضَرْب مصدر للفعل « ضَرَبَ » فالذى يعجب هو الضرب ، والضرب لا ينبئنا إلا من حدث ، فكأنه يقول : « أعجبنى أن يضرب زيد » ، أى أن المصدر قد انحل إلى فعل ، وقد يقول قائل : « أعجبنى علم زيد بالمسألة » ومعناها : »أعجبنى أن يعلم زيد بالمسألة » ومعناها أيضًا « أعجبنى ما علم زيد من المسألة » و « ما » هنا مصدرية أيضًا .

إذن .. فقول الحق : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ هذا النقض هو مصدر ، والمصدر حدث ، والحدث لا يأتى إلا من فعل ، والنقض معناه أنهم نقضوا الميثاق ، وتحللوا منه ، فكأن الحق

يقول : فبِما نَقَضُوا مِن حَدَث فَعَلْنَا بهم كذا وكذا . لذلك دخلت مالًا بعد الباء وقبل المصدر ؛ لأن المصدر فيه أصل الاشتقاق الفعلى ، ويكون المعنى : بسبب نقضهم الميثاق وبكذا وكذا طبع اللّٰه تعالى على قلوبهم .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، نجد أن الحق لم يقل : فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير الحق وقولهم قلوبنا غلف طبع اللّٰه على قلوبهم لا إن وجود « بل » يدلنا على أن هناك أمرًا أَضْرَبْنا عنه ، فنحن نقول : جاءنا زيد بل عمرو أى إن المتكلمين قد أخطئوا فقالوا : جادنا زيد لا واستدركوا أنفسهم : فقالوا : « بل عمرو » إنهم قد نفوا مجىء زيد ، وأكدوا مجىء عمرو . والحق سبحانه قال : ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

كان المقتضى أن يقول الحق بكفرهم وبقتلهم الأنبياء طبع اللّٰه على قلوبهم ؛ لكن اللّٰه لم يقل ذلك لحكمة بالغة ، وحتى نعرف هذه الحكمة فلنبحث عن المقابل لطبع اللّٰه على قلوبهم . إن المقابل هو فتح اللّٰه على قلوبهم بالهدى .

وجاء قول الحق معبرًا تمام التعبير عن موقفهم : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ .

إن عظمة القرآن أنه يأتى بالمعنى الذى يجب أن تفكر فيه ، وأن تتدبَّر كل كلمة فيه ، فكأن اللّٰه قد قال : فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف لم يفتح اللّٰه بالهدى عليهم ؛ بل طبع على قلوبم بالكفر ، فلا يؤمنون إلا قليلا .

إذن .. فالله يقدم الأسباب لما صَنَعَه بهم فقدمها هنا بالحيثيات من نقضهم للميثاق وكفرهم بآيات الله ، وبقتلهم للأنبياء بغير حق ، لذلك لم يفتح اللّٰه عليهم بالهدى ؛ بل طبع اللّٰه على قلوبهم بالكفر . إن وجود « بل » دليل على أن هناك أمرًا قد نفى وأمرٌ قد تأكَّد ونجد أن الأمر الذى نفاه اللّٰه عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر الذى تأكَّد هو أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر .

وفى آية أخرى قال عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ

بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. إن قلوبهم ليست غُلفًا، ولكنْ لعنة اللَّه عليهم وإبعاده لهم وطرده إيّاهم واستغناؤه عنهم، لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات.

وقد يقول قائل: لماذا ذَيَّلَ الحق الآية بقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ ونقول: إن هناك سامعًا للقرآن أو قارئًا له تغلبه الآيات ومن بعد ذلك تستيقظ نفسه وتصحو، ولا تستيقظ النفس وتصحو إلا إذا نُبِّهت بشيء- إن الحق بقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو قول مقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس- إنه صيانة الاحتمال وصيانة الاحتمال أن يعلن واحد من هؤلاء إيمانه رغم أن اللَّه قال عنهم: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ إن إيمانه إذن لن يكون أمرًا مفاجئًا؛ لأحد؛ لأن الحق قال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

قد يقول قائل: ألم يقل الحق من قبل أن «كفرهم» هو سبب من أسباب طبع اللَّه على قلوبهم؟ **وأقول:** إياك أن تقول: إن هناك كلمة فى القرآن مكررة؛ لأن الذى يتكلم هو اللَّه سبحانه وتعالى، فهو لا ينسى شيئًا، ولا يكرر من غير داعٍ. فالكفر أيضًا على درجات مرة: يكون الكفر بالله، ومرة يكون الكفر بآيات الله، ومرة ثالثة يكون الكفر بالرسل، ومرة يكون الكفر ببعض النبيين، ومرة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية. إن الكفر أشياء شتى، فالكفر فى الآية السابقة كفر بآيات الله، وكفرهم فى هذه الآية يشرحه قول الحق: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾. لقد كفر هؤلاء بعيسى عليه السلام وقالوا البُهتان على مريم، لقد كفروا إذن بآيات الله، وبرسولٍ من رسل الله، وهكذا تتعدد أشكال الكفر.

وقول الحق: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ هو عطف على ﴿نَقْضِهِم﴾، وعلى ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، وعلى ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، وعلى ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾؛ ونلاحظ أن الحق لم يكرر الباء التى جاءت فى أول الآية السابقة حين قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾، ولم تتكرر «الباء» فى بقية المعطوفات فى الآية؛ وهذا يدل على أننا أمام مناط الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى، فقد كان يكفى ارتكابهم لأى عمل من هذه الأعمال أن يطبع على قلوبهم، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال المذكورة مجتمعة، ولم يرتكبوا فعلًا واحدًا منها وهذا يدل على أنَّ اللَّه لا

يترصَّد لعبيده ؛ ولكن يستميل العباد إلى الإيمان ؛ **لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة :** نقضهم للميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم طبع اللَّه على قلوبنا . ومن رحمة اللَّه أن جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة .

وبعد ذلك يذكر الحق جريمة أخرى من جرائمهم ، يقول تعالى : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ١٥٦] .

إن الحق قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة . لماذا ؟ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة نبيٍّ من أولى العزم من الرسل إنه نبى خصَّه اللَّه بأشياء ، وهذه الأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه ، إنه عيسى ابن مريم عليه السلام الذى خلقة اللَّه خلقًا خاصًّا ، فالله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه من روحه ، فجاء من غير أصول ، لا أب ، ولا أم ، وخلق حواء من أصل واحد هو آدم عليه السلام ، بدون أم ، وخلق البشر وجعل نسلهم من سلالة من ماء مَهِينٍ ، أما عيسى عليه السلام ، فقد خلقه الله ، فجاء من أمٍّ بدون أبٍ ، فكيف تكفرون به ؟ ! ! .

وأيضًا أمُّه مريم البتول عليها السلام ، التى عاشت فى كفالة نبيِّ اللَّه زكريا عليه السلام ، وكانت خادمة بيت المقدس ، وتربت تربية دينية عظيمة ، كيف تتهمونها بالفاحشة ؟ ! ! إن هذا الاتهام الباطل من أعظم البهتان . **إن الحق سبحانه هنا يحدد سبيلين لكفرهم :**

الأول : قولهم البهتان على مريم ، وهو كفر بالله .

الثانى : كفرهم بعيسى عليه السلام ، الذى ولد بغير طريقة الميلاد العادية ؛ رغم أن هذا تكريم له ، وتقريع لليهود الذين غرقوا فى المادية ، حتى إنهم قالوا : ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء : ١٥٣] .

وعندما رزقهم اللَّه برزق غيبى لا يعرفون أسبابَه ، كما رزقهم بالمَنِّ والسلوى ، قالوا لهذا الرزق : لا ، نحن نريد أن نزرع نباتًا لينمو من الأرض ولا ننتظر الغيب ؛ لأن الغيب قد يضنّ علينا ، وذلك قوله تعالى : ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ﴾ [البقرة : ٦١] . إنهم لا يثقون بما فى يد اللَّه ويريدون الأمر المادى .

لذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى بلفتة قسرية ، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه ، وهو ميلاد عيسى عليه السلام ؛ إن البشر فى مجيئهم المادى إلى الدنيا يأتى الواحد منهم من أب وأم ، ولكن الحق سبحانه وتعالى فى خلق عيسى عليه السلام جاء به من أمٍّ دون أب ، وبذلك انتقضت المادية ، ذلك أنهم مادّيون ، وغفلوا عن الخلق الأول .

إذن .. فلماذا الفتنة فى عيسى عليه السلام ؟ لقد صنع ميلاد عيسى ابن مريم هزّةً لليهود الماديين ، ونقض أمامهم الأساس التقليدى لمجىء الإنسان إلى الدنيا بأصل واحد وهو الأم ، فالله سبحانه يثبت بذلك طلاقة القدرة ، والحق سبحانه وتعالى إنما جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر شيئًا فعليهم أن يأخذوا بالأسباب ، ولكنه سبحانه وتعالى حين يريد شيئًا فإنه يكون بلا أسباب ، فهو سبحانه الذى خلق كل الأسباب .

ولذلك قلنا قديمًا : إن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء .

إما أن ينشأ الشىء من وجود الشيئين . هذه هى الصورة الأُولى .

وإما أن ينشأ الشىء من غير وجود الشيئين . وهذه الصورة الثانية .

وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الأول ، وعدم وجود الشىء الثانى . وهذه هى الصورة الثالثة .

وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الثانى وعدم وجود الشىء الأول . وهذه هى الصورة الرابعة .

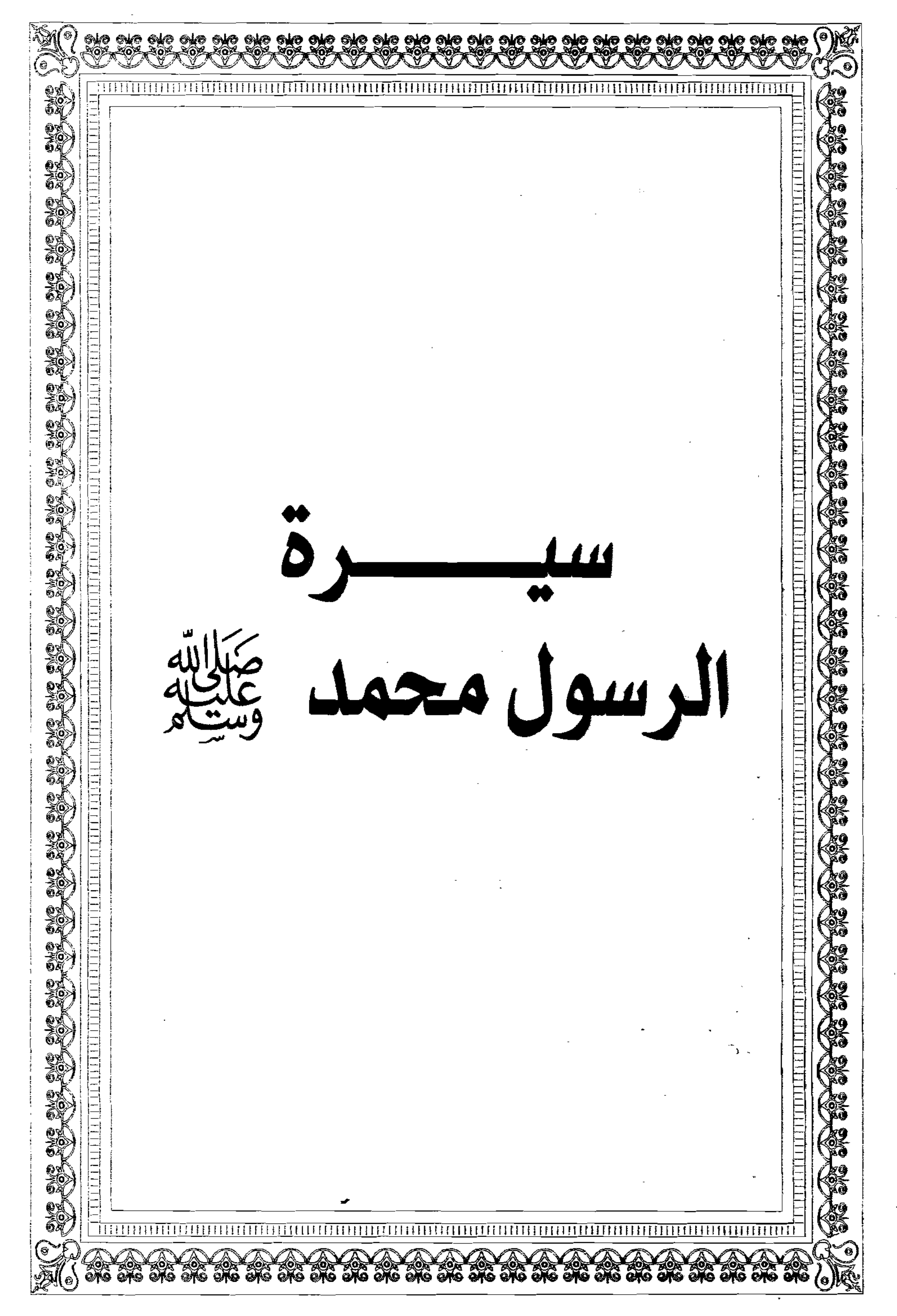
تلك هى الصور الأربع لوجود شىء ما ، ولم يشأ اللَّه أن يجعل الخلق وهو الإنسان المكرم الذى سخّر له الحقُّ كلَّ الكون على نحو واحد (أى فى قضية الخلق) ، لماذا ؟ حتى لا يقولنَّ أحد : إن السببية مشروطة الوجود ، ولكن لنعرف أن إرادة اللَّه هى الشرط فى الوجود ، بدليل أنه سبحانه قد خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم ، هذه هى القسمة العقلية الواضحة ، فليست المسألة توفُّر الأسباب للوجود ولكن المسألة إرادة الخالق جل وعلا .

ونحن نرى أيضًا قدرة الحق حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم ، ولكن يشاء الحق أن يكون الاثنان عقيمين ، وذلك قول الحق سبحانه : ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

إذن .. فليست المسألة مدار أسباب توجد ؛ بل مسبِّب يريد أن يوجد ، ولقد أراد الحق أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ؛ ليلفت بنى إسرائيل لعلهم يخرجون من ماديتهم ، ويثبت لهم طلاقة قدرته . ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير ما كان يجب عليهم .

* * *



سيـــــرة

الرسول محمد ﷺ

بعثة الرسول محمد ﷺ وأحوال المشركين فى ذلك الوقت

الله سبحانه وتعالى حين تفضل على خلقه فى الأرض فأرسل إليهم رسوله محمدًا ﷺ ، كان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرساله من سبقوه من الرسل . ومعنى ذلك أن منهج اللَّه كان قد نسيه الناس وحرفوه ، والله خلق ضميرًا إيمانيًا فى كل نفس بشرية ، وحين تسرف نفس على نفسها وترتكب المعاصى يهيج الضمير الإيمانى من داخلها ، فهناك من يتوب ويرجع إلى اللَّه من ذات نفسه بضميره الإيمانى ، وتلك هى النفس اللوَّامة ، ومعنى وجود اللوم فى النفس هو أن الإيمان ما زال موجودًا فيها ، وهذا الإيمان هو الذى يوقف المعصية ويرد صاحبه إلى الطريق الصحيح .

ولكنَّ هناك نفسًا عندما يهيج فيها الضمير الإيمانى لا ترتدع ، بل تحاول إسكات هذا الضمير بتبريرات زائفة ، وتظل ترتكب المعاصى حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيمانى ، فتجدها قد ألفت - والعياذ بالله - مخالفة منهج الله ، ولم تعد نفسًا لوامة ، بل أصبحت نفسًا أمَّارة بالسوء ، وحين تصبح النفس أمارة بالسوء ينقل اللَّه المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصى يردعونه عن المعصية ، ويقفون منه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجفوة حتى يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان .

فإذا ما فسد المجتمع كله ، ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فلابد من رسالة جديدة ورسول جديد مؤيَّدٍ بمعجزة ؛ لينقذ الناس من هذا الفساد ، وينبههم إلى ذلك الفساد الذى لم يشمل الأفراد فحسب ، بل شمل المجتمع كله ، وعندما جاء رسول اللَّه ﷺ ، وواجه هذا المجتمع الذى انتشر فيه الكفر أفرادًا وجماعات كان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان وهذا المجتمع . ذلك أن العداوة الشرسة التى واجهت رسول اللَّه ﷺ ، واجهته من المنتفعين بالفساد فى الأرض ، والمنتفعون بالفساد هم السادة الذين استفادوا من ضياع الحق وانتشار الباطل ؛ فأخذوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، وجعلوا دماءهم من عرق غيرهم ، واستأثروا هم بالخير ومنعوه عن باقى عباد الله ، والمنتفعون بالفساد يكرهون أىَّ مُصْلِح جاء ؛ ليعدل ميزان حركة الحياة فى الكون ، فلا بد أن يقفوا فى وجهه ؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن

أموالهم التى حصلوا عليها بالباطل والظلم ومن استعبادهم للناس .

والجزيرة العربية فى ذلك الوقت كانت مكونة من قبائل متعددة ، كان لكل قبيلة قانونُها الذى يضعه شيخها ؛ ليستأثر لنفسه بكل شىء .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة بين هذه القبائل ، ولا قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عزوتها ولها شوكتها ولها حروبها ، وكل فرد فى قبيلة لابد أن يكون مقاتلًا يحمل سلاحه مستعدًّا للحرب فى أى وقت ؛ لأنه مهدد فى أى لحظة أن تُغِيرَ عليه قبيلة أخرى ؛ إلا قبيلة واحدة هى قريش أخذت السيادة فلا يُعتدى عليها ولا تُهاجم قوافلها ، ولا تستطيع قبيلة فى الشمال أو فى الجنوب أن تهاجم تجارتها ، لأن هذه القبائل كلها ستأتى فى يوم من الأيام وتحج إلى بيت اللّٰه الحرام فى مكةَ .

وخلال الحج فإن هذه القبائل محتاجة إلى الأمان من قريش ؛ لذلك حرصت كل قبائل العرب أن تحافظ على علاقاتها مع قريش ؛ لأن السيادة على بيت اللّٰه الحرام جعلها اللّٰه لقريش ، وقد تكفل اللّٰه بحماية البيت من أى عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفياله ، ليهدم الكعبة[1] . .. جعله اللّٰه هو وجيشه كعصف مأكول ، فإذا قرأت السورة التى بعد سورة « الفيل » مباشرة التى تروى قصة أبرهة وما حدث له ، تجد أنها ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ [قريش : ١ - ٤] ، فكأن حفظ الكعبة من الهدم كان حفظًا من اللّٰه سبحانه وتعالى لسيادة قريش . ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول اللّٰه ﷺ بالإيمان والشكر وفهم النعمة ، بدلًا من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المتعنت وتحاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلًا من ذلك فإن العكس قد حدث ، وظنت قريش - كذبًا - أن الإسلام جاء ؛ ليهدِّدَ سيادتها فقامت تحاربه .

❋ ❋ ❋

(١) القصة كما تروى : أن أبرهة بن الصباح ملك اليمن من قِبَل أصحُمة النجاشي ، بنى كنيسة في صنعاء وسمَّاها القُلَّيس ، وأراد أن يصرف إليها الحج ، فخرج رجل من بني كنانة فقعد فيها ليلًا ، ويقال : إنه قضى بها حاجته أو أنه أحرقها ، فأغضب الملك ذلك ، فحلف ليهدمن الكعبة ، فخرج بالأحباش ومعه فيل عظيم قوي يسمى « محمود » وفيلة كثيرة لإرهاب العرب قاصدًا مكة متغلبًا على كل من وقف في طريقه ، حتى وصل إلى =

فجر الدعوة ومراحلها

لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون صيحة الحق فى مواجهة جبروت الباطل ، وأن يواجهَ الإسلام فى أول أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية ، حتى يمحص الله قلوب المسلمين الأوائل ، الذين سيحملون دعوة الإسلام إلى العالم ، فلا يعتنق الإسلام منافق أو منتفع أو ضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين فى قلوبهم إيمان حقيقى ، يتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم ، ويهرب من الحلقة ضعاف الإيمان والمنافقون ؛ لأن هؤلاء لو كانوا ضمن المسلمين الأوائل ، لضاعت قضية الدين تمامًا . ولكن الإسلام الذى شاء الله له أن يبدأ فى مكة ، لم يجعل الله له النصر من مكة .. ولكنه جعل له النصر من المدينة .. لماذا ؟ لأن قريشًا لو وجدت واحدًا منها انتصرت دعوته ، فإنهم سيحتضنونه ويحتوونه ليسودوا به الدنيا ، وحينئذ يكونون قومًا قد تعصبوا لواحد منهم ؛ لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقًا وليس إيمانًا حقيقيًا ؛ ولذلك جعل الله انتصار الإسلام من المدينة ؛ ليعلم الناس جميعًا أن العصبية لمحمد ﷺ لم تخلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ولكن الإيمان برسالة محمد ﷺ هو الذى خلق النُّصْرةَ لمحمد ﷺ ، وفى هذه الحالة كان لابد أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان ، وبين رءوس الكفر ، **وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :**

المرحلة الأولى : كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة إلى المؤاخاة ، والدعوة إلى المساواة ،

= المغمش قرب مكة ، ثم أرسل أبرهة رجلًا من الحبشة ، ليغير على الأمكنة القريبة ، فساق إليه أموال قريش ومنها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، ثم بعث حناطة الحميري إلى مكة ، ليأتي له بسيد هذا البلد وشريفهم ، ليخبره أنه لم يأت لحربهم وإنما أتى لهدم البيت .

ويقال : إن عبد المطلب أقبل على أبرهة ، فلما رآه نزل من سريره وقال : ما حاجتك ؟ فطلب إبله ؛ فلما طلب عبد المطلب الجمال سقط من عين أبرهة وقال له : جئت لأهدم البيت الذي هو دين آبائك وشرفك ، فألهتكَ إبلُك عنه ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وللبيت رب يحميه .

ثم رجع عبد المطلب وأخبر قومه بضرورة الخروج من مكة والتحصن والتحرز في الجبال ، وذهب هو إلى البيت يدعو ويلحّ في الدعاء ، وعبأ أبرهة جيشه وقدم الفيل « محمود » ، فكانوا كلما وجهوه إلى جهة البيت برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه وجهة أخرى أسرع وهرول .

وفي اليوم الثاني أرسل الله عز وجل جنده بحجارة من سجيل على جند أعدائه ، فتناثر لحمهم وتساقط ، وهلكوا في كل طريق ودرب ؛ وحفظ الله بيته وحمى حرمه . والله أعلم . « تيسير التفسير » : (سورة الفيل) .

وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف ، وهذه البداية جعلت قريشًا تستهين بالمؤمنين ، وظنوا أنهم قادرون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش ، ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، وبدأ المؤمنون يبحثون عمن يحميهم ويستجيرون به ، ولم يبق في الإسلام إلا من ملأ قلبه حب الله ورسوله ، فاستهان بالاضطهاد والقتل والتشريد ، وهؤلاء هم المؤمنون حقًّا الذين حملوا الدعوة بعد ذلك إلى الدنيا كلها .

ثم بدأت المرحلة الثانية : حين حاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة ، بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ، فقالوا : نعبد إلهكم فترة وتعبدون آلهتنا فترة ، وهنا أنزل الحق سبحانه وتعالى قوله الحق : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون : ١-٦] ، وكان هذا إعلانًا بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، وكان النهى هنا فى هذه الآيات الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل ، وهكذا فشلت المرحلة الثانية من المواجهة بين الكفر والإيمان .

موقف قريش من الدعوة

أول ما أعلن رسول الله ﷺ دعوته كانت فى مكة .. أعلنها فى وجه الجبابرة ، وأقوياء الجزيرة العربية كلها . ولو أن رسول الله ﷺ بدأ دعوته فى قبيلة ضعيفة خارج مكة ، لقالوا : استضعفهم . أو لقالوا : يريدون به السيادة ، أى أنهم كقبيلة مستضعفة لم يأخذوا رسالة رسول الله ﷺ إيمانًا ، ولكنهم أخذوها نفاقا ، ليسودوا بها الجزيرة العربية . ولكن الرسالة جاءت فى مكة ، وأول من سمعها هم سادة قريش ؛ لتأتى فى مركز السيادة ويكون المراد بها هو الحق ، وإعلاؤها فى وجه سادة الجزيرة العربية ، وكانت المعركة بين سادة قريش والإسلام ، ولكن هل امتد الإسلام وانتشر من مكة ؟ لا ، بل كانت الهجرة إلى المدينة ، ومن هناك امتد الإسلام .

إذن .. فالإسلام بدأ من مكان السيادة فى الجزيرة العربية ، ولكنه انتشر فى مكان لا سيادة فيه .. لماذا؟ لأن الإسلام لو انتشر من مكة ، لقالوا : قوم ألفوا السيادة على الناس ، وتعصبوا لواحد منهم ؛ ليمدوا سيادتهم من الجزيرة العربية إلى أماكن أخرى فى العالم ، ولكن النصر جاء من المدينة لتعلم الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق النصرة لمحمد ﷺ ، ولم يخلق العصبية لرسول الله أنه من قريش ، أو أنه من قبيلة اعتادت سيادة الجزيرة العربية .

العصبية للحق

في عصر الرسالة كان العالم معسكرين ؛ معسكر في الشرق وهو فارس ، ومعسكر في الغرب وهو الروم ، فارس ينكرون وجود اللَّه ويعبدون النار ، والروم أهل كتاب يعبدون الله ، فلما وقعت المعركة بين فارس والروم ، أتدرون لمن انحاز المؤمنون ؟ انحازوا للروم ؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وإن كانوا كافرين بالنبي ﷺ ؛ لذلك حزن المؤمنون حينما تغلب الفرس على الروم وهزموهم ، فأنزل اللَّه تعالى على رسوله ﷺ أن الروم سينتصرون في المعركة القادمة وسيهزمون الفرس.

فقال تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ١ - ٥] . مع أنهم لم يكونوا مؤمنين بمحمد ﷺ ولكنهم مؤمنون برب محمد ﷺ .

وانظر إلى حكمة الحق سبحانه وهو يُخبر رسوله بنتيجة معركة لم تبدأ بعد ، ويحسم نتيجتها مع أنها ستقع بعد بضع سنين ، فهذا شيء لا يقدر عليه إلا رب يعلم ما هو قاضٍ وما قدّر على عباده ؛ وما هو كائن وما سيكون في الكون .

وهذه الأحجار التي عبدها الكفار من دون الله ، هي معبودات لا أوامر لها ولا تكاليف . ومع ذلك ادعوا أنهم يعبدونها مع أن العبادة تكليف ؛ فبأي شيء كلفتهم هذه الأحجار ؟ لم تكلفهم بشيء ؛ ولذلك عبدوا هذه الآلهة المزعومة التي بدون تكاليف وليس عندها ثواب أو عقاب .

هذه الأحجار التي عبدوها تكرههم وتلعنهم ، وفي الآخرة ستكون وقود النار الذي يحرق به الكافرون ؛ ولذلك غار حراء لما كان النبي ﷺ يخلو فيه إلى نفسه يعبد اللَّه على دين إبراهيم عليه السلام ، فكل أحجار الأرض حسدت غار حراء على هذا الشرف العظيم أن يأوي إليه نبي آخر الزمان ﷺ ، فلما كانت الهجرة اختبأ النبي في غار ثور ، فشعر هذا الغار بالفَخار .

* * *

ما لاقاه النبى ﷺ من أذى فى سبيل الدعوة

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٦] . هذا كلام لرسول اللّه ﷺ عن واقع حدث له مع الكفار ، وحرف ﴿إِنْ﴾ هنا بمعنى النفى ، وهى تأتى أحيانا شرطية وأحيانا للنفى ، والمعنى هنا : حين يراك الكفار يا محمد ما يتخذونك إلا هزوا ، أى ساعة يرونك يسخرون منك ويهزءون بك ، ويقولون : أهذا هو الرجل الذى يعيب آلهتكم ، ويقول إنها باطلة ولا تنفع ولا تضر . فهم غاضبون من الرسول ﷺ ؛ لأنه يسب آلهتهم الباطلة ، مع أنهم يسبون الإله الحق ويكفرون به .

اللّه سبحانه وتعالى يخبر رسوله أنه ليس أول رسول يتعرض للاستهزاء من قومه ، يقول تعالى : ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد : ٣٢] استهزئ : أى طلب من الغير أن يستهزئ به ، فهدى إلى الضلالة . إذن فسيبوء بإثمه وإثم غيره .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يعنى لست بِدْعًا أن يقف الناس منك هذا الموقف ، واحد مثلا ينظر كيف يمشى النبى ﷺ ، والنبى كان يمشى كأنما ينحدر من صبب .. يعنى مثلما يكون نازلا من مكان عالٍ ، وبصره فى الأرض دائما ، فالناس تعودت على مشى النبى ﷺ والنبى مطمئن لنعمة .به فيسير هكذا .

فيأتى الحسن بن مروان يقلد النبى فى مشيه ، ولمَّا رآه النبى ﷺ يفعل ذلك . قال ما معناه : « كن على هذا » . فبقيت مشيته على هذا ، ثم نفاه إلى الطائف ، فلما نفاه إلى الطائف رعى الغنم . وبعد ذلك لم يعف عنه النبى ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ، حتى جاء عثمان ، فشهد وقال : واللّه لقد استأذنت رسول اللّه ﷺ فيه ، فقال لى : « إن قدرت أن تفعل فافعل » . فلما فوضت أى أخذت تفويضا من النبى ، وأنا لا أغش نفسى ، وقد قدر رضى اللّه تعالى عنه بتوليه الخلافة فأعاد الحسن بن مروان .

وتروى كتب التاريخ أن ابن الوليد بن عبد الملك وولد من أبناء يزيد بن معاوية - أخو خالد - وكان اسمه عبد اللّه ، كان لهما خيل تتسابق وكادت خيل عبد اللّه تسبق خيل الوليد ، فقام

أنصار الوليد بوضع عراقيل فى طريق خيل عبد اللّٰه لتتعثر ، ولما فهم عبد اللّٰه الخدعة اتهم الوليد وأنصاره بالغش والخداع واشتد الخلاف بينهما ، وسب الوليد عبد اللّٰه أخا خالد ، فذهب خالد أخو عبد اللّٰه إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، وقال له يا أمير المؤمنين ، إن الوليد سب أخى وفعل معه كذا وكذا .

فقال له الأمير : أتكلمنى فى عبد الله .

قال : نعم .

قال : لقد دخل على آنفا فما أقام لسانه من اللحن ، يعنى : لا يعرف أن يتكلم .

فرد عليه وقال : والله لقد أعجبتنى فصاحة الوليد - الوليد ابنه - وكان أيضا لا يعرف أن يتكلم .

فقال له : إن يكن الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان لا يلحن ، قال : وإن كان عبد اللّٰه يلحن فإن أخاه خالدا لا يلحن ، فرد عليه وقال : اسكت يا هذا ، فلست فى العير ولا فى النفير .

هذا مثل نقوله الآن ، لأنَّ قريشًا كانت لها العير الآتية بالبضاعة من الشام وعليها أبو سفيان ، والنفير[1] الذى نفر لينقذ البضاعة من النبى فى معركة بدر فسيد جاء مع النفير وسيد جاء مع أبى سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة صاحب النفير يعنى السيادة لى من الأب والأم . ولكن لو قلت : شويهات وغنيمات وذكرت الطائف ، ورحم اللّٰه عثمان لكان أولى ، يعنى لو تذكرت الشويهات التى كان يرعاها جدك فى الطائف ، التى نفى فيها ولم يقدر له أن يعود ، وذكرت عثمان الذى فك أسره وأتى به ، لكان أولى من هذا الكلام .

فالشاهد أن المستهزئين كان كل منهما يخاف أن يستهزئ بآخر ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[2] [الحجر : ٩٥] سيتولى اللّٰه عنك عقابهم .. ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الرعد : ٣٢] فلك أسوة فيمَن سبقوك من الأنبياء فلقد استهزأت أممهم بهم ، ولكن العاقبة لك كما كانت لهم .

---

(١) النفير : الجماعةُ من الناس كالنفر ، ، والجمع من كل ذلك أنفار . ونفير قريش الذين كانوا نفروا إلى بدر ليمنعوا عير أبي سفيان . «لسان العرب» (٥/٢٢٥) .

(٢) سبب نزول الآية أن الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث الزهري ، والأسود بن المطلب أبو زمعة - من =

أعداء الرسل والرسالات

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]. الحق سبحانه وتعالى يعطى الرسول الأسوة بالرسل السابقين له فى موكب الرسالات. ويقول له: إنك لست بدعا[(١)] فى أن تواجه بأعداء، فكل رسول من الرسل ووجه بهؤلاء الأعداء. ولكن هل استطاع هؤلاء الأعداء منع الرسل من الدعوة؟ هل أثروا فيهم فتركوا الدعوة؟ أم أنهم ظلوا صامدين فى دعوتهم حتى أتاهم نصر الله؟ فإذا كنت أنت خاتم الرسل وسيد المرسلين والمعقب على رسالات من قبلك، ولا معقب على رسالتك، فلابد أن يكون أعداؤك مناسبين لمهمتك فى شدتهم وفى ضراوتهم وفى عدائهم للدعوة. ولكن هذه العداوة لن تؤثر فى دعوتك ولن توقفها، بل إنَّ هذه العداوة لصالح الدعوة، وهى لصالح رسالتك. كيف يكون ذلك؟ لأن الإنسان لا يهيج فى نفسه منهج الخير إلا إذا أهاجه شر؛ ولذلك لا تجد الصحوات الإيمانية إلا حينما يصادف المؤمنون تحديا من خصومهم، حينئذ تحدث الصحوة الإيمانية. فالدين طالما ترك يؤدى مهمته، تم ذلك بهدوء ويسر. فإذا جاء خصوم الدين ليطعنوا الدين، وجدت حتى ضعاف الإيمان يشتعل الإيمان فى قلوبهم ويهبون للدفاع عن دينهم. فالدعوة تمضى هادئة مادام ليس هناك تحد، فإذا حدث التحدى من خصوم الإسلام لأى قضية دينية، تجد حتى غير الملتزم بالمنهج يقوم ويهيج ويتحمس، إذن فالعداوة لها فائدة فى أنها تهيج الإيمان، والشر له رسالة؛ لأنه لولا الشر وما يصيب الإنسان من أذاه ما كان الناس يتحمسون للخير.

= بني أسد بن عبد العزى، والحارث بن عيطل السهمي، والعاص بن وائل، كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ فشكاهم إلى جبريل، فعاقبهم الله في أبدانهم عقوبات شديدة، لكن الرواية لم تثبت من طريق صحيحة. «السيرة النبوية الصحيحة» (١/٢٥١).

(١) بدع الشيء يبدعه بدعًا وابتدعه: أنشأه وبدأه. والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولاً، وفي التنزيل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] أي: ما كنت أول من أُرسل، قد أرسل قبلي رسل كثيرة. «لسان العرب» (٨/٦).

إذن .. فقول الحق : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١١٢] الحق سبحانه وتعالى جعل للأنبياء أعداء حتى يستيقظ الدين فى نفوس المؤمنين ؛ لأن التعرض للإيمان والعقيدة أكثر ما يهيج الإيمان فى نفوس المؤمنين ؛ إن الدين يظل هادئًا فى النفوس حتى يتعرض له الأعداء ، فتجد الإيمان قد استيقظ حتى فى نفوس ضعاف الإيمان الذين لا يؤدون حق منهج الله على التمام .. تجدهم قد تحمسوا وانطلقوا لنصرة الدين ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ ، أى أن هذه المسألة لم تحدث خارج قدر الله ، ولكنها حدثت بما أودع الله فى الناس وأعطاهم حث الاختيار ؛ وماداموا مختارين ، فالذى اختار الهدى يكون نصيرًا للأنبياء . والذى اختار الضلال يكون عدوًّا للأنبياء .

وكلمة « عدوا » فى ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها مفرد يطلق على الواحد وعلى الاثنين ، وعلى الجماعة ، وعلى المؤنث وعلى المذكر ، فتقول : هذا عدو لى ، وتقول : هذه عدو لى . ولا تقل : عدوة لى . وتقول : هذا عدو لى . ولا تقل عدوان . وتقول : هاتان عدو لى . ولا تقل : عدوتين ، وتقول : هؤلاء عدو لى . ولا تقل : أعداء ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ٧٧] .

ويقول جل جلاله : ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة : ٢٦] . هنا ذكر الله سبحانه وتعالى كلمة « عدو » ؛ لأن أعداء الرسول كلهم يجمعهم هدف واحد أو سبب واحد هو العداوة لدين الله .

* * *

تعنت الكافرين والمشركين وطلبهم للآيات

قال اللّه سبحانه وتعالى : ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١١٩] أقسموا بالله .. إذن هناك قسم، وهناك مُقسم به ، وهناك مُقسم عليه . المُقسِم به هو اللّه سبحانه وتعالى . ومعنى : ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي قالوا : « والله » ، والمُقسم هو الجماعة المخالفون لرسول اللّه ﷺ ، لماذا يقسمون ؟ الإنسان عادة يقسم فيما يكون غير مصدق ، أو حين يُغْلَب في الجدل ، فيقسم حتى يصدقه الناس . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ تستحق وقفه .. فما دمتم قد أقسمتم بالله الذى ندعوكم للإيمان به ، تكونون قد اقتربتم منا ؛ لأنك لا تقسم إلا بعظيم . ومادمت قد أقسمت بالله يكون اللّه عظيما في نفسك وقلبك . ولكن القول لم يتوقف عند القسم فقط ، بل جهد أيمانهم ، والجَهْدُ هو المشقة ، والجُهْد هو الطاقة .

إذن .. فقد بالغوا فى القسم مبالغة تجهدهم . والإجهاد فى القسم هو أن تعلن أنك حريص على أن تبر بالقسم وتوفيه ، وتؤكد هذا تمامًا حتى يشعر الجميعُ أنك مخلص فى قسمك . وإفراغ الجهد والمشقة فى القسم معناه أنك تقسم قسمًا محبوبًا لك ، وأن تنفيذ هذا القسم محبوب لك أكثر .

على ماذا أقسموا ؟ ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ، ألم تكفهم آيات القرآن الكريم التى جاءت ؟ وصِدق رسول اللّه فى التبليغ عن الله ؟ ولكنهم لا يريدون هذا ، إن الآيات أمامهم إذا أرادوا أن يؤمنوا ، ولكنهم يريدون أن يقترحوا الآيات على الله . ألم يقولوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ ؟ [الإسراء : ٩٠- ٩٢] والزعم هو مطية الكذب . وهذا أول خلل فى القسم . **وكأنهم قد قالوا : نحن لن نؤمن بالآية الأصلية وهى القرآن** ، ولكننا نتحداك فى أن تنزل علينا هذه الآيات التى نطلبها . والله سبحانه وتعالى الذى يعلم سرهم وجهرهم ، يعرف أن كل هذا من المجادلة والكبر ، وأنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام : ٧] . ويقول الحق جل جلاله : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر : ١٤، ١٥] ونسوا أن المسحور لا يملك حيلة مع الساحر ، وإنما تكون إرادته ورؤيته تبعا لإرادة ورؤية من سحره .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام : ١٠٩] . إن الحق سبحانه وتعالى ذكر لنا كل ما قالوه عن مطالبتهم لرسول الله ﷺ بأن يأتيهم بآية ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى أعظم الآيات التى نزلت على رسول الله ﷺ ، وهى القرآن الكريم ، والمعجزات التى تضمنها القرآن ، وقد جاء القرآن ليتحداهم فيما نبغوا فيه ، لقد كانوا أمة نحو وصرف وبلاغة وبيان وأدب ، فجاء القرآن إعجازا فى هذا ، وتحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بآية من مثله فعجزوا .

والله سبحانه وتعالى حين يرسل الرسل ويؤيدهم بالمعجزات ، تأتى المعجزات من جنس ما تفوق فيه قوم الرسول .

ذلك أن التحدى لا يأتى إلا فيما ينبغ فيه الناس ، فإذا أردت أن تتحدى فى العلم مثلا ، فإنك لا تتحدى جاهلا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنك تتحدى أكبر العلماء وأبرعهم .

وإذا أردت أن تتحدى فى قوانين الفضاء فإنك لا تأتى إلى أمة لم تطلق صاروخا واحدا ، ولكنك تتحدى أمة وصلت بأبحاثها إلى القمر أو تجاوزت هذا .

هكذا يكون التحدى بمعجزة نبغ فيها القوم ، بحيث لا يكون ذلك مسألة سهلة ، بل يكون تحديا معجزا فعلا .

والمعجزة تأتى خرقا لنواميس الكون .. لماذا ؟ لأن نواميس الكون ألفها الناس وهى تحكمهم ولا يحكمونها ، ومن هنا فإنهم لا يستطيعون السيطرة عليها أو تغييرها أو إبطالها ، فالنار مثلا ناموسها الكونى الإحراق فلا يستطيع أحد أن يجلس وسط النار ولا يحترق ، والماء مثلا ناموسه الاستطراق فلا يستطيع أحد أن يأتى ويشق البحر . وقوانين الأسباب أن الذى يموت لا يعود إلى الدنيا إلا عند قيام الساعة ، ولا أحد يستطيع أن يحيى الموتى إلا أن يبعثهم

الله ، هذه القوانين هى أكبر من قدرة الإنسان ، فلا يستطيع إنسان مهما بلغ من العلم أن يُخضِعها لما يريد ، فإذا تحداها الإنسان أهلكته .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت الناس إلى صدق بلاغ الرسول عن الله ؛ فلذلك فهو يخرق له نواميس الحياة ، وهو شيء لا يقدر عليه إلا خالق هذه النواميس ، حتى نصدق بعد أن نرى هذه المعجزات أن هذا الرسول يبلغ عن اللّه صدقًا وحقًّا ، وأن الذى خلق نواميس الكون قد خرقها لرسوله ، ولم يخرقها لأحد غيره .

وقد جاءت معجزات الرسل كلها خرقا للنواميس فيما نبغ فيه أقوام هؤلاء الرسل ؛ فكان قوم عيسى متفوقين فى الطب ، لذلك كانت معجزاته إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله .

ونبغ قوم موسى فى السحر ، فجاء لهم موسى بما يبطل سحرهم .

وكان العرب متفوقين فى البلاغة والأداء والبيان فجاءتهم معجزة القرآن الكريم من جنس ما تفوقوا فيه .

ولكنهم لم يقتنعوا بالمعجزة ، بل اقترحوا .. قالوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] . ونسوا أنه بقليل من العلم يمكن أن يكتشف الإنسان أماكن الينابيع فى الأرض ويحفر فتتفجر المياه ، وقالوا : ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: ٩١] . ونسوا أن هناك بشرًا يملكون جنات فيها النخيل والأعناب .

وقالوا : ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] . ونسوا أن أى إنسانٍ لديه المال وسعة الرزق ، يستطيع أن يملك بيتا من زخرف .

وقالوا : ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: ٩٣] . وكان هذا تحديا لا يملكونه ، فهم لم ينبغوا فى الرقى فى السماء ، حتى يأتى اللّه لهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه .

والله لا يتحدى بالمعجزة إلا فيما نبغ فيه القوم ؛ ليكون هذا التحدى مؤثرًا وقويًّا ودامغا ؛ لأن ما نبغوا فيه هم أقدر الناس على فهمه ؛ ولذلك فعندما تأتى المعجزة يكونون أكثر الناس فهما لمدلولها فتهزهم بقوة .

ولكن إذا أتت المعجزة فيما لا ينبغ القوم فيه ، ربما تكون نوعا من الخداع استغلالا لجهلهم

بالعلم ، وفى هذه الحالة لا يستطيعون أن يكشفوا هذا الخداع ، وهم إما أن يسقطوا فيه ، فيعتقدوا أنه معجزة وهو ليس بمعجزة ، أو لا يفهمونه فلا تؤثر المعجزة فيهم .

وقالوا أيضا : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام : ٨] . وهذا دليل على جهلهم ، ذلك أنه لو أنزل الله ملكا فلن يراه البشر ؛ لأن طبيعة تكوين الملك أنه يرى البشر وهم لا يرونه .

إذن .. فلو أنزل الله ملكا لما رأوه ، وفى هذه الحالة لن يعرفوا أنه ملك ، وسيقولون : هذا بشر . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام : ٩] .

إذن .. فهذه المعجزة لو حدثت فلن يتنبه أحد إليها ، ولقد نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ عدة مرات ، وتكلم معه أمام القوم ، فهل نزل بطبيعة تكوينه ؟ لا .. بل نزل بطبيعة البشر ، فكان على هيئة رجل جاء من السفر . فلو تشكل الملك بطبيعة البشر ما عرفه أحد .

والملائكة والجن قادرون على التشكل ، ونحن بقوانيننا لا نستطيع أن نرى الجن وهو يرانا ، ولكن عندما يريد أن يرينا نفسه يتشكل بشكل مادى على صورة رجل أو حيوان ، ولو أن هذه المسألة غير مقيدة بقوانين تحفظ التوازن بين الإنس والجن ؛ لاستطاع الجن بتشكله أن يوجد فزعًا رهيبًا فى حياة البشر ؛ ولذلك فإن الجِنَّة تخاف أن تتشكل بشكل مادى أكثر مما نخاف نحن منهم ، وهم على هذه الصورة المادية .. لماذا ؟ لأن الجن يعرف أنه إذا تشكل حكمته القوانين المادية ، فإذا تشكل جنى فى صورة إنسان وأطلقت أنت عليه النار قتلته ، فالجن يخاف أن يتشكل فى صورة مادية حتى لا يصيبه الأذى ؛ ولذلك فهو إذا ظهر فى أى صورة مادية كان ذلك كومضة البرق ، ثم يختفى قبل أن تتنبه أنت له وتتعامل معه فى صورته المادية ، وهذا بقاء للتوازن فى الكون . فلو أن الجنة تستطيع أن تبقى فى شكلها المادى ولا تخضع لقوانين المادة ؛ لأثارت الفزع فى الدنيا كلها ، ولأتت بأعمال رهيبة ، ونحن لا نستطيع أن نفعل لها شيئًا ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ ما معناه : « إن الجن تشكل لى ، وقد هممت أن أربطه بسارية المسجد » . أى بعمود المسجد ، حتى يشاهده صبيان المدينة . والجن عندما يتشكل يترك قانونه ويصبح خاضعًا لقانون البشر .

إذن .. فقولهم : ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام : ٨] فيه جهل بالطلب ؛ لأنه لو نزل

الملك على طبيعته فلن يروه ، ولو جاء على هيئة بشر لقالوا : إنه رجل مثلنا . **والذى لابد أن نتنبه إليه أنه إذا اقترح قوم آية على الله** ، وجاء الله لهم بهذه الآية فكذبوا بها ، فإن الله يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ولا يؤجل عذابهم إلى الآخرة ، بل يعذبهم فى الدنيا . ولما كان الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال : ٣٣] . فلم يحقق لهم هذا الطلب ، وكان من الممكن أن ينزل عليهم الملك فى صورة بشر فيكذبوا به فيصيبهم العذاب فى التوّ واللحظة ، ولكن رسول الله ﷺ أرسل رحمة للعالمين ؛ ولأن هذه الرحمة تصيب المؤمن والكافر ، فإن الله سبحانه وتعالى لم يحقق لهم ما طلبوه .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتهم إلى رحمته بهم - رغم مجادلتهم فى الإيمان - فيقول : ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ . أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى ينزل الآيات ، وكان من الممكن أن ينزلها بقدرته فهو سبحانه القادر على ذلك ، أما قانون قدرة رسول الله ﷺ فإنه مساوٍ لقانون قدرات البشر ، إلا فيما ميزه الله سبحانه وتعالى به بالوحى فى أمر الرسالة ، إذن فالتحدى بينهم وبين رسول الله ﷺ لا ينفع ؛ لأن الآيات عند الله وهو الذى ينزلها ، والله سبحانه وتعالى يعلم أن فى الاستجابة لهذا التحدى عذابا وإهلاكا لأولئك الذين يسألونه .. لماذا ؟ لأننا لو تأملنا الدروس المستفادة من الرسالات السابقة لوجدنا فيها الإجابة .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء : ٥٩] أى أن الكفار فى الرسالات السابقة طلبوا آيات فاستجاب الله لهم . ولكن عندما رأوا الآية كذبوا بها ، أى أن الآيات لم تثبت الإيمان فى قلوبهم ، بل عجلت بعذاب الله لهم ؛ إذن فالتكذيب هو الأصل بالنسبة لهم ، سواء جاءت الآيات أم لم تأت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الخطاب هنا ليس للكفار ، بل لابد أن يكون للمؤمنين فكأن المؤمنين حينما أقسم الكفار أنه إذا جاءتهم آية يؤمنون بها .. أراد المؤمنون أن يدخلوا الكفار إلى الإيمان ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم آية ، وهنا يرد الحق سبحانه وتعالى على سؤال المؤمنين ، وكأنه يقول لهم : أنتم مؤمنون ، وقلوبكم طيبة ، وظنكم حسن .. تريدون أن يهتدى هؤلاء الناس إلى الإيمان . ولكن .. ﴿وَمَا

﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ . أى ما يعلمكم أنه ﴿إِذَا جَآءَتْ﴾ الآيات التى اقترحوها فإنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وهذا حدث من الوليد بن المغيرة ، الوليد كان أكبر سنا من رسول الله ، وكان أكثر مالا وأكثر ولدا ؛ ولذلك عندما جاءت الرسالة قال : إذا كانت هناك رسالة من الله فأنا أولى بها ؛ لأننى أكبر سنا ، وأكثر مالا وولدا . قاسها بمقاييس البشر التى لا وزن لها عند الحق سبحانه وتعالى .

فليس القرب من الله بالمال ولا بالولد ولا بالجاه والسلطان ، ولكن الناس جميعا متساوون عند الله وأقربهم هو أتقاهم ، ومنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة ، ويعرض القرآن الكريم هذه القضية فيقول : ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : ٣١] واسمع إلى العليم الحكيم إذ يقول : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف : ٣٢] أى : أن هؤلاء الكفار يريدون أن يقولوا لله : أين ينزل رحمته ؟ مع أن الله سبحانه وتعالى هو الذى قسّم بينهم حياتهم ومعايشهم ، فأعطى المال لهذا ، وأعطى الولد لهذا ، وأعطى العلم لهذا . قال أبو جهل عندما جاءوا ليكلموه فى أمر الرسالة : زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرفِ ، أطعموا فأطعمنا ، كسوا فكسونا ، ذبحوا فذبحنا ، حتى صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه ، والله لا نتبعه ولا نؤمن به ، حتى نؤتى مثل ما أوتى من الوحى .

وهكذا نقل أبو جهل أمر الرسالة إلى سباق الدنيا ، وأخذه بنزوع الكبر ، وليس بفكر العقل . والله سبحانهَ وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن كل هذا الصراع هو من أجل جاه الدنيا ، وليس له علاقة بالحق أو بمنهج الله أو بالوصول إلى رضا الله .

ولذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فكأن الآية بلغ من وضوحها ، ومن كمالها ، ومن ذاتيتها ومن خصوصيتها . أنها عندما تأتى يعرف الجميع أنها آية من الله لشدة وضوحها ، ولكنهم بدل أن يؤمنوا ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم أنتم لا تعلّمون الله ، ولكن الله هو

الذى يعلمكم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام : ١٢٤] لماذا ؟ لأن الرسالة جاءت لتعطى الخير للجميع ، ولكنها تعف نفسها عن آثار ذلك الخير ، فمنهج الله يعطى الخير لكل من اتبعه ؛ لأن الله غنى عن العالمين ، بينما المناهج البشرية تأتى لتأخذ الخير لصاحبها أولا ، فالذى يضع قانونا أو منهجا بشريًا يريد الفائدة الكبرى له أو لصالحه ، والباقى يذهب للناس ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين لا يريد من خلقه شيئا ، فهو وحده الذى لا هوى له ولا غرض له .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ ، وهو النبى والقائد والحاكم يموت ودرعه مرهونة عند يهودى ، أى أنه لا يريد من الدنيا شيئًا ، ولم يأخذ من الدنيا شيئًا . وأهل رسول الله ﷺ لا يأخذون من الزكاة ولو كانوا فقراء ، وإذا ترك الرسول شيئا فهو صدقة لا يورث .

وهكذا لا ينتفع الرسول ولا أهله من الرسالة بجاه دنيوى ، وبذلك لا يكون له فائدة شخصية أو منفعة ذاتية من الرسالة ، أما الذى يريد الدنيا فإن هوى النفس يملأ صدره ، ويبتعد به عن الحق إلى الظلم حتى يأخذ ويأخذ ويأخذ .

إذن .. فالحق سبحانه وتعالى أعلم بمن يحمل رسالته ؛ لأن اختيار الله إنما يكون عن حكمة وعلم وليس عن هوى .

ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ فى بيعة العقبة وقال له الأنصار : اشترط لنفسك .. قال عليه الصلاة والسلام : « تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم . . . » وتفعلون كذا وكذا وكذا . فقال له الأنصار : أنت اشترطت لنفسك . فما لنا إن نحن وفينا ، أى ماذا سنأخذ إن نحن وفينا وأدينا ما اشترطته علينا ؟

ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ هل قال لهم ستملكون الدنيا ، أو سيكون عند كل واحد منكم مال وفير أو ضيعة كبيرة ؟ ، لم يقل ﷺ هذا ، ولكنه قال : « لكم الجنة » . هذا هو الثمن الذى ستأخذونه للإيمان ، أما الذى يريد غير الجنة فنحن لا نملك شيئا .

ولكن لماذا لم يبشرهم رسول الله ﷺ بالخير القادم لهم فى الدنيا ؟ لأن من هؤلاء الذين بايعوه من قد لا يدرك خيرًا فى الدنيا ، فمنهم من سيموت والإسلام مازال ضعيفًا ، والإسلام مازال محاصرًا ، والإسلام مازال مضطهدا ، ومنهم من سيموت شهيدًا ولن يدرك شيئا فى

الدنيا ، ولكن المضمون لهم جميعا هو الجنة . **هذه واحدة .**

والثانية : أن الدنيا أهون من أن تكون جزاء على العمل الصالح ، فالعمل الصالح لا يكون جزاؤه وقتيًا ، ولا يكون بهذه القيم المتواضعة فى النعم ، ولكن لابد أن يكون جزاءً خالدا لا يذهب ولا يفنى ، وأن يكون بقدرة اللّه سبحانه وتعالى ، فتكون فيه من النعم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء : ٩٠] « لن » لتأبيد النفى . ومعنى تأبيد النفى أن النفى ثابت فى الماضى وثابت فى الحاضر ويريد أن يجعله ثابتا فى المستقبل ، وهذه كلمة لا يقدر عليها إلا من يملك الأحداث ، إنما صاحب التغييرات لا يستطيع أن يضمن تحقيقها ؛ ولذلك نجد أن كثيرا ممن أعلنوا هذا الكلام آمنوا بعد ذلك ودخلوا فى الإسلام ؛ دون أن يفجر الرسول لهم ينبوعًا من الأرض كما اشترطوا قبل ذلك ؛ لأن الإنسان لا يقدر أن يجزم بشىء سيقع فى المستقبل ، ولكن الذى يقدر هو من يملك الأحداث والتغييرات .

فمثلا عكرمة بن أبى جهل كان من ألد أعداء الإسلام حتى بعد « فتح مكة » ، رجع وآمن وحسن إسلامه واعتذر للنبى ﷺ عما حدث منه ، ولما كانت موقعة « اليرموك » وأصيب فى المعركة إصابة قاتلة بعد أن أبلى بلاء حسنا ، جاء ووضع رأسه على رجل خالد بن الوليد قبل أن تفيض روحه ، وقال له : أهذه ميتة ترضى عنى رسول اللّه ﷺ ؟ ومات شهيدا . فهذا واحد من الذين قالوا : لن نؤمن . فقد آمن ولم يفجر له من الأرض ينبوعًا .

إذن الذى يقول كلمة لابد أن يكون قادرًا على إنفاذها ، والإنسان لا يملك ذلك ؛ لأنه ابن أغيار .

وقريش طلبت هذا الطلب من النبى ﷺ ؛ لأن هذا شىء هم محرومون منه ، وطلبوا منه مطلبا آخر وهو قولهم : ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء : ٩١] مرة يطلبون لهم ومرة يطلبون له ، فطلبوا أن يكون له جنة من نخيل وعنب ، وحتى تستمر هذه الثمار طلبوا أن يفجر خلالها الأنهار لترويها وتحفظها من الجفاف ، كما طلبوا منه ﷺ إن أراد أن يؤمنوا به أن يسقط السماء عليهم كسفا فقالوا : ﴿أَوْ تُسْقِطَ

﴿ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] والزعم مطية الكذب، والرسول لم يزعم ولكنه بلغ كلام الله، والآية التى يقصدونها بقولهم هذا هى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبۡدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩] فقالوا: أنت هددتنا بخسف الأرض أو إسقاط السماء علينا كسفا فافعل ذلك - وكسف جمع كسفة مثل قطع وقطعة - أو تأتى بالله والملائكة مقابلين، أى نراهم بأعيننا، ولذلك قالوا فى آية أخرى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١] والمسألة ليست مسألة معجزات؛ لأن القرآن تحداهم وأعجزهم، ومع ذلك لم يؤمنوا، ولكن لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا فهم يطلبون المستحيل حتى لا يؤمنوا، وقد قال الحق سبحانه عنهم: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]. فالمسألة مسألة تعنت وعناد، ولذلك قالوا أيضا: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقالوا أيضًا كما جاء في القرآن: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: ١٢] يدلنا على أن الكفار يطلبون آيات تفسد منهج الله، فتجعل المادة هى قيمة الحياة، ومنهج الله قيِّم وليس مادة، ولذلك يطلبون أن يأتى مع رسول الله ﷺ ملك، وهذا لن يفيد قضية الإيمان؛ لأنه لو جاء الملك على صورته الملائكية، فهم لن يستطيعوا رؤيته، ولو جاء على صورة بشر أو رجل، فإنهم سيحسبونه رجلا أقبل عليهم، **إذن فهذه القضية لا تفيد منهج الله سبحانه وتعالى**، واقرأ قوله جل جلاله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

إذن .. فهم لا يريدون بشرًا، بل يريدون من يملك قوة فوق البشر.

الحق سبحانه وتعالى يأمر نبيه أن يقول لهم: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٥] إذن .. فالرسول لابد أن يكون بشرًا، والملك إذا كان على هيئة بشر، فلن يكون الناس على يقين أنه ملك .. فسيكذبونه، ولو نزل على صورته الملائكية، فكيف يكلمهم ويعطيهم المنهج وهم لا يرونه، وفى الوقت نفسه فإن التكليف الذى سيأتيهم به لن يطيقوه، لأنه سيكون على قدر قدرات

الملك ، فيقولون : يا رب ، كلفتنا فوق طاقتنا ، فنحن بشر وقدرتنا محدودة ، وهذا ملك له قدرات كبيرة ، ونحن لا نستطيع أن نطبق المنهج بقدرات الملك .

إذن فلابد أن يكون الرسول بشرًا ، لأنه قدوة لقومه فى تطبيق المنهج ، وفى هذه الحالة تسقط حجتهم ؛ لأن الذى يطبق المنهج أمامهم ويعلمهم بشر مثلهم ، فلا يستطيعون أن يقولوا هذا فوق قدرة البشر .

الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود : ١٢] . لأن مهمة كل رسول هى إبلاغ منهج الله إلى قومه ، وإنذارهم بالعذاب الذى ينتظرهم إن لم يؤمنوا ، وبالنعيم الذى ينتظرهم إن آمنوا ، والله سبحانه وتعالى هو الوكيل على كل شىء ، هو الذى يعلم يقينًا إن كان هؤلاء الكفار يطلبون هذه الآيات ليؤمنوا ، أم للمعاندة فقط ، فكم طلب الكفار آيات ونزلت الآيات فازدادوا كفرا وعنادًا .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء : ٥٩] . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الوكيل ، ومعنى وكيل أنه يتصرف كما يشاء ، ووكالة الله سبحانه وتعالى على الخلق باقية أرادوا أم لم يريدوا ، وهو يعلم حقيقة ما فى صدورهم ، ويعلم أنهم طلبوا هذه الآيات للعناد والإصرار على الكفر .

ومن تغفيل أهل الكفر أنهم طالبوا بإنزال ملك رسول ، وذلك ما يرد الله عليه فى موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ۝٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء : ٩٤، ٩٥] لقد طالبوا جهلا منهم أن ينزل إليهم ملك رسول بالهدى ، والحق يأمر رسوله أن يرد عليهم : بأنه لو كان بين البشر ملائكة ، أو إن كان هناك ملائكة يمشون فى الأرض لنزل إليهم ملك رسول .

لقد أرسل الحق لهم رسولا من البشر ؛ لأن المفروض أن يكون الرسول أسوة سلوكية للمنهج ، وأن يطبق المنهج على نفسه ، فلو كان الرسول من الملائكة لقال البشر : إنك ملك تقدر على ما لا نقدر عليه ، وأنت لا تصلح أسوة لنا . لذلك كان لابد أن يكون الرسول من نفس جنس المرسَل إليهم حتى يكون أسوة لهم وقدوة . وهذا ما يبطل الادعاء بألوهية عيسى ،

أو بنوّته لله ؛ لأن عيسى عليه السلام طالبهم أن يفعلوا مثله .

إن الحق أراد ببشرية الرسل أن يؤكد القدوة والأسوة فى الرسل ؛ ولذلك قال : ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام : ٨] . إن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات الملك ؛ لأنهم غير معدين لاستقبال تلك الإشعاعات والإشراقات .

ولذلك يقول الحق : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام : ٩] إذن فلو أراد اللّٰه أن يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر ، يلبس ما يلبسون ، وذلك ما فعله الحق من قبل : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر : ٥١-٥٣] لقد أنزل اللّٰه الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فخاف منهم ، فقالوا له ما يطمئنه وبشروه ببشارة من اللّٰه هو إسحاق من زوجته سارة بعد أن رزقه اللّٰه من قبل إسماعيل من زوجته هاجر .

وكذلك أنزل الحق إلى مريم البتول ملكًا ، وتمثل لها بشرًا سويًا لينبئها بحمل عيسى عليه السلام .

إذن فالملك يتجسد فى صورة بشرية عندما يرسله اللّٰه فى مهمة إلى البشر ولا يأتى الملك إلى البشر على حقيقته .

ومن امتنان اللّٰه على رسوله أنه أعطى له الفرصة ليرى جبريل على حقيقته مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة حين تجسد له على هيئة دحية الكلبى فى صفة رجل مسافر جاء يسأل الرسول ﷺ عن الإسلام والإيمان ، وهو حديث عمر بن الخطاب الذى قال فيه : بينما نحن عند رسول اللّٰه ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه .

وقال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ؟

فقال رسول اللّٰه ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » .

قال : صدقت .

قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟

قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟

قال : « أن تعبد اللّه كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » .

قال : فأخبرنى عن أمارتها قال : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان » .

قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لى : « **يا عمر أتدرى من السائل؟** » قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال : « **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** »[1] .

إذن .. فنحن ببشريتنا لا نستطيع رؤية الملك إلا بعد أن يجعله اللّه بشرا ، ولذلك قال الحق : ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام : ٩] إذن فاللبس موجود بدليل أن اللّه أرسل الملائكة فى صورة بشر لإبراهيم عليه السلام ، ومريم ابنة عمران ، ومحمد ﷺ وهو جالس بين قومه .

الرسول ﷺ مبلغ عن الله

أمر اللّه تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، و « قل » كما نعلم هى أمر من اللّه لرسول اللّه ﷺ ، والرسول يبلغ ما أُمر به الله ، وكان يكفى أن يقول الرسول ﷺ : لا أقول لكم عندى خزائن الله . ولكن دقة البلاغ عن الله ؛ ولأن القرآن توقيفى ؛ بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من اللّه كما هى ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (١/٨) واللفظ له .

وبلّغها الروح الأمين لرسول الله ﷺ ، وبلغها لنا رسول الله ﷺ كما هى ، وذلك يدل على أن أحدا لا يملك التصرف حتى فى اللفظ ، وأن أمانة النقل مطلقة . والرسول ﷺ أرسله الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وأبلغنا أنه رسول من الله لنا ، بآية دالة على صدق البلاغ عنه ، وهى القرآن .

وكان يجب على من يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله ﷺ ، أن يستقبله بحق فلا يطلب منه إلا ما يتمشى مع الوصف الذى ادّعاه لنفسه ﷺ ، فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات غير التى أنزلها الله .

إن الرسول ﷺ لم يقل إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له فى إطار هذا القول ، أما أن يطلب منه شىء لم يدخل فى إطار القول ، فذلك تعنت ، وقد تعنت الكافرون فطلبوا من رسول الله ﷺ آيات أخرى ، كتفجير الأرض بينابيع المياه ، وأن يكون له بيت من زخرف ؛ ولذلك يقول له الحق سبحانه : أن يبلغهم أنه لا يملك مع الله خزائن السماوات والأرض ، فكيف تطلبون بيوتًا وقصورًا ؟ وكيف تطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على النافع وتتجنبوا الضار ؟ ألا يكفيكم المنهج الإلهى الذى يهديكم إلى صناعة كل نافع لكم ، ويجنبكم كل أمر ضار بكم ؟ ثم إن الرسول ﷺ لم يقل لهم : إنه يعلم الغيب .

وهو بشهادتهم هم يقولون عنه كما قص علينا القرآن الكريم : ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨] .

لقد سخروا من رسول الله ﷺ وطالبوا بأن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا : كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويغشى الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ؟ ولو كان رسولًا لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه ملكا يساعده فى البلاغ عن الله ، أو يلقى إليه الله من السماء بكنز ينفق منه ، أو تكون له حديقة غنّاء يأكل من ثمارها . هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن الإيمان بدعوة رسول الله ﷺ ، فتارة يتهمونه بأنه مسحور ، وتارة أخرى بأنه مجنون ، وثالثة بأنه يهذى ، ورابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن من أعاجم ، ويدحض الحق كل هذه

الأكاذيب وكل تلك الافتراءات التي ضلوا وأضلوا بها كثيرًا .

إن الرسول ﷺ كبقية الرسل ، قال الله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان : ٢٠] أى : أن الرسل من قبل رسول الله محمد ﷺ كانت تأكل الطعام ، وتكسب العيش من العمل ، ويترددون على الأسواق ، فإذا كان المشركون يعيبون عليك ذلك ، ويحاولون إضلال الناس بكل الأساليب ، فأنت ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويجزى كل بما عمل .

إن الآيات التي يطلبها المشركون من رسول الله كانت كلها تعنتًا ، وهو لم يقل لهم : إنه ملك . لقد قال لهم : إنه رسول مبلغ عن الله ، وأساس مهمته هو صدق البلاغ عن الله ، فكيف يطلبون منه أشياء تتعلق بملكية الله لخزائن الأرض ؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب ؟ وكيف ينتقدون أنه رسول بشر يأكل ويتزوج ويمشى فى الأسواق ؟

إن هذه الأقوال هى دليل التعنت ؛ لأنهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما قاله رسول الله ﷺ من أنه رسول مبلِّغ عن الله . إنهم طلبوا الخير النافع بزعمهم ، والينابيع التى تجرى ، والجنات والقصور ، وأشياء كثيرة كلها ليست فى مقدور رسول مبلغ عن الله ؛ لأن الذى يهبها هو الله سبحانه وتعالى .

وكلمة : ﴿خَزَآئِنُ﴾ هذه مفردها « خِزانة » وهى الشىء الذى يكتز فيه كل نفيس ليخرج منه وقت الحاجة . ولا تقال « خزانة » إلا لشىء جعلته ظرفا لشىء نفيس تخاف عليه من أن يخرجه مخرج فى غير أوان إخراجه .

وقوله : ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٞ﴾ ، إن الرسول ﷺ نفى عن نفسه ثلاثة أشياء : شيئان منهما ينفيان الألوهية عن الرسول ﷺ ، وهما : ملكية خزائن الكون ، وعلم الغيب . والشىء الثالث : أنه ليس مَلَكًا . فهل يعنى ذلك أن الملك أرفع من النبى ؟ لا . . . ولكنهم قالوا له : إنه يمشى فى الأسواق ويتكسب العيش بالعمل ، والملك لا يفعل ذلك ، ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من الملك ؛ لأنه يتبع ما يوحيه إليه ملك الملوك ، سبحانه وتعالى ، كما فى قوله : ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ .

إنه من فرط ارتفاعه فى الصدق المبلغ عن الله يعلن حقيقته ﷺ فهو بشر ، والبشر ابن الأغيار ، يعلم شيئا ، ويجهل أشياء ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعا لا مبتدعا ، ذلك أنه ينقل لهم كلام الخالق بلفظه ، لا أفكار البشر التى قد تتغير أو تتبدل . إنه لو ابتدع لابتدع فى إطار بشريته ، وفى ذلك نزول بالمستوى « المنهج » ، لكنه فى الاتباع يأتى بالارتقاء للبشر ؛ لأنه يتبع منهج الإله الذى اصطفاه رسولا .

تكذيبهم بالحق

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام : ٦٦] عندما نتأمل فى هذه الآية نجد أن كلمة « كذب » تنطبق على الكافر والمشرك ومن يكذب بالقرآن ومن يكذب برسول الله ﷺ ، ومن يكذب بأحكام هذا الدين ، فالمُكَذَّبُ به هنا هو الحق ، والحق هو الشىء الذى لا يتغير ، الشىء الثابت ، ولعلنا إذا أردنا أن نقرب المعنى نقول : إنه إذا وقعت مشاجرة مثلا أو أية حادثة وجاء وكيل النيابة بشهود ، ماذا نجد ؟ نجد أن الذين شهدوا الواقعة فعلا أقوالهم ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ؛ لأنهم يقولون الحق ، ولكن الذين لم يروا تضطرب أقوالهم وتتغير وتتبدل ؛ لأنهم يشهدون بالباطل ، ولكن سُرعان ما ينكشف الحق ويختفى الباطل ، وفى ذلك يقول الله : ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد : ١٧] .

والله يريد أن يخبرنا أن الماء ينزل بأمره من السماء فيعطى الحياة للنبات والحيوان والإنسان ، ويأخذ كل وادٍ من هذا الماء على قدر حاجته ، ولكن الماء عند نزوله من سفوح الجبال إلى الوديان يصحب معه بعض الشوائب التى تطفو على الماء ، وأنت حين تنظر إليها تراها طافية تماما ، وعندما نصهر الذهب أو أى معدن ثمين ؛ فإن المعادن الخبيثة تطفو على السطح ويبقى المعدن الثمين منصهرا ، وهكذا يكون الباطل مثل هذا الزبد ، أو الخبث ، يطفو على السطح ولكنه سُرعان ما يختفى ويبقى الحق وحده ، وتكذيب القوم لمنهج الله وتكذيبهم بالقرآن هو بهتان لن يبقى ولن يستمر ، إنه مثل الخبث سرعان ما يتحير ويبقى الحق وحده .

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾ وكلمة : ﴿قَوۡمُكَ﴾ هى تقريع للكافرين ؛ لأن رسول الله ﷺ جاء منهم ، وهم عرفوه صادقًا أمينًا لمدة أربعين سنة ، وما جربوا عليه كذِبًا قط .

وكان الأجدر بهم فور إبلاغهم الرسالةَ أن يقولوا : إن محمدا لم يكذب علينا أبدا ونحن من خلق الله ، فهل يكذب على الخالق ؟

ولذلك يقول الله تعالى : ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] .

ثم يُثنى اللَّه تعالى على رسوله فيقول تعالى : ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

إذن .. فكون القوم الذين شهدوا لرسول اللَّه ﷺ بالأمانة والصدق يأتون ويكذبونه فى الرسالة فإن ذلك يدل على تكبرهم وعِنادهم .

ذلك أن رسول اللَّه ﷺ حتى بعد الرسالة كان الناس لا يجدون من هو أشرف منه ليسلموه أماناتهم ، وعندما هاجر من مكة إلى المدينة كلَّف على بن أبى طالب أن يُسلِّم الأمانات إلى أصحابها .

الجهر بالدعوة .. وحماية اللَّه لرسوله ﷺ

قال اللَّه سبحانه وتعالى مخاطبًا رسوله ﷺ : ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥] الحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أن يتفرغ لمهمته ، وهى الصدع بما أمره ربه ، والصَّدْع : هو أن تصنع شَقًّا فى شىء متماسك ، فتأتى للوح من الزجاج فتكسره مثلا ، أو حائط فتهدمه ؛ وذلك لأن الرسول ﷺ جاء ليشق الكفرَ والفسادَ الموجودَ ويصدعهما ، وهذا بنيان قوى له صناديد وسادة لهم قوة وجبروت ، فهذه تحتاج إلى صدع ، وإن كان الصدع شاع استعماله فى الزجاج خاصة ؛ لأن كل صدع من الممكن أن يلتئم إلا صدع الزجاج ، والإيمان جاء ليصدع بنيانًا من الكفر والفساد قويًّا ومتماسكًا ، فيقول له : افزع إلى هذه المهمة ، أى اصدع بما تؤمر .

وقوله : ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] أى : لا تبال بهم ولا تسأل عنهم ؛ لأنك لا تتصور أنهم سيهادنونك ؛ لأنهم يحاربون لأجل بقاء الفساد الذى يعيشون عليه . فلا

تأمل فى أنهم سيكونون معك لكنهم سيأتون تباعًا ؛ ولذلك قال خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص : استقام الأمر لمحمد ، ولم يعد هناك فائدة من معاداته ، فمعارضتنا له لم تعد تفيد ، فلندخل فى الصف ، فدخلوا فى الإسلام لسبب من الأسباب ، ثم ذاقوا حلاوة الإيمان .

فخالد بن الوليد كان فى معسكر الكفر وهو صنديد أصبح بعد ذلك كما سماه الرسول : « سيفُ اللَّهِ المسلول » ؛ ولكن كيف يعرض عن المشركين وهم يتعبونه ، ويضعون أمامه العراقيل ويستهزئون به وبأصحابه ؟ لذلك قال له سبحانه : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر : ٩٥] **وقد صدق الله ، فما من مستهزئ منهم إلا وناله اللَّه بعقاب على رءوس الأشهاد ، فهذا الوليد بن المغيرة** ، يمشى متبخترا فى ثيابه فيمر على قَيْنٍ « أى : حداد » فتتعلق شظية من الحديد فى ثوبه ؛ فيتكبر أن ينحنى ليزيلها ، ويمشى دون أن يُعيرها اهتمامًا ، فتجرحه الشظية فى رجله وتحدث له « غرغرينا » فتقطع رجله وتكون هذه نهايته ، **والأسود بن عبد يغوث** ، يأتيه عمى فى عينيه فيكف بصره ، وكذلك **الحارث بن قيس ، والعاصى بن وائل** ، كلٌّ منهم أصابه اللَّه بشىء وجعله عِبْرةً . إنه ما من أحد استهزأ برسول اللَّه ﷺ إلا عاقبه اللَّه على رءوس الأشهاد وجعله عِبْرةً لمن يعتبر .

أما الذين لم تصبهم هذه العاهات والآفات فيموتون بسببها ، وجدوا مصارِعهم فى « بدر » على أيدى القلة المؤمنة المؤيَّدة من عند الله ، فأغلب صناديد قريش وسادتها سقطوا صرعى فى غزوة بدر ، ورسول اللَّه ﷺ - بما آتاه اللَّه من علم - يَخُطُّ فى الأرض ويقول : هذا مصرع فلان ، ويحدد المكان الذى سيقتل فيه هؤلاء المشركين قبل أن تقوم المعركة ، فهل هناك قائد فى الدنيا يواجه جيشا قويا من أعدائه ، يستطيع أن يحدد الموقع الذى سيصرع فيه كل محارب من أعدائه ؟ لا أحد يستطيع ذلك .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر : ٩٥، ٩٦] أى : أنهم لم يستهزئوا بك ؛ إلا لأنهم يعبدون آلهة أخرى . وكلمة : ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ [القمر : ٢٦] ، و ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ، كلها استيعاب للأزمنة . [أى] يعلمون الآن ، سيعلمون بعد قليل ، سوف يعلمون بعد زمن . **والمقصود بذلك توسعة المراحل** ؛ لأن المشركين لم يؤخذوا كلهم مرة واحدة ؛ ولذلك حِكمة ؛ لأنه عندما يؤخذ المتطرف فى الإيذاء قد يهدأ الأقل تطرفًا ، ولكن استبقاء بعض هؤلاء الأشداء من

المشركين ، وهداية بعضهم للإسلام بعد ذلك ستجعل هذه الشدة والقوة فى جانب الحق ؛ ولذلك قلنا : إن عكرمة بن أبى جهل ، حين أصيب فى معركة اليرموك ، وذهب إلى خالد بن الوليد واستلقى على فخذه وهو يقول له : يا خالد ، أهذه ميتة ترضى عنى رسول الله ﷺ ؟ هذا دليل على أنه يريد أن يفعل شيئًا كبيرًا ليرضى الرسول ﷺ .

إذن . . . فقوله تعالى : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ . وما دمنا كفيناك ، فقد انتقمنا منهم ، فاتخاذهم مع الله إلها آخر لم يفدهم بشيء ؛ لأن آلهتهم هذه لو كان لها نفع أو قوة لوقفت معهم ومنعتهم من عقابنا .

وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أى : إن كانت الآلهة ستمنعهم عند وقوع عقابنا بهم ، فيكون كلامهم صدقًا ، وإن لم تمنعهم ، فيكفيهم أنهم خابوا فى اتخاذ الآلهة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر : ٩٧] انظر إلى احترام مشاعر النبوة ، فكأن الله سبحانه يقول لرسوله : نحن نطلب منك أن تعمل كذا وكذا ، فى حالتين : فى قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣] فيسليه ويخفف عنه بقوله : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فأنت عندهم أكرم من أن تكذَّب ؛ لأنهم يشهدون لك بأنك صادق ، ولكن المسألة تتعلق بكفرهم بالله وجحدهم لآياته فالله يُسرِّى عن رسوله ﷺ ويخبره بأنهم لا يكذبونه هو ، وإنما يكذبون بآيات الله .

وهنا يقول سبحانه : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ومعنى ضيق الصدر : نحن نعرف أن الصدر وعاء ، فيه أهم جهازين فى الجسم « القلب والرئة » . فالقلب يختص بالدم الذى يسير فى أعضاء الجسم ، ويعطيها الطاقة والحرارة وغيرها . لكن الدم لا يعطى هذه الطاقة إلا إذا نقى من أضرار الغذاء وما يتعلق به من « ميكروبات » ، فالغذاء الذى يحمله الدم إلى الخلايا لابد أن يصفَّى ويأخذ « الأكسجين » عن طريق الرئتين ، فالدم لا يؤدى وظيفته إلا عن طريق الأكسجين الذى يأخذه من الرئة . فالرئة تستقبل الدم فتعطيه « الأكسجين » ، وتأخذ منه « ثانى أكسيد الكربون » لتخرجه خارج الجسم ، مثل عادم السيارة ، فهذا عادم الحركة فى جسم الإنسان ؛ إذن فهو يحتاج إلى « أكسجين » يدخل الجسم ، ثم يخرج زفير فيه الهواء

الفاسد مثل « ثانى أكسيد الكربون » ؛ لكى يكون الدم صالحاً لإيجاد الطاقة .

هذه العملية وردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فكأنه ﷺ حين يتعرض لموقف فيه سخرية أو استهزاء من المشركين ، [ومن ثمَّ] تتحرك أجهزة الجسم وتنفعل ، فتحتاج إلى دم أكثر وطاقة أكثر ، والدم يحتاج إلى هواء أكثر ، فيضيق الصدر عن استيعاب الهواء المطلوب للحركة ، وحين يأتيك إنسان متضايق أو غضبان ، تقول له : وسع صدرك . فكأن مجهود أجهزة الجسم والطاقة التى يحتاج إليها تتطلب كمية هواء يتسع لها الصدر .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] فمن يرد اللّٰه هدايته يوسع صدره للإسلام . وكلمة ﴿يَصَّعَّدُ﴾ لم يقل : يصعد فقط ، لأن « يصَّعَّد » تعنى أنه يكابد الصعود ، فتكون المشقة أكبر والمجهود أصعب ، مع أن هذا بخلاف القضية المعروفة ، أنك كلما صَعدت إلى أعلى وجدت هواء أنقى ، فكلما صعدت قل « الأكسجين » فى الهواء ، وبعد ذلك تصل إلى منطقة ليس فيها هواء ، ومن هنا تأتى صعوبة التنفس إذا ارتفعت كثيرا فى الجو ، فكأن اللّٰه سبحانه وتعالى يقول لنبيه : نحن نعلم أن صدرك يضيق بما يقوله هؤلاء المشركون ، فلكى تتغلب على هذا الكيد الجأ إلى ربك .

لذلك يقول سبحانه له بعد ذلك : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر : ٩٨] . إذن .. فهذا التسبيح هو الذى تلجأ إليه ، فكلما جافاك البشر ، سبِّح بحمد الله ؛ ولذلك يقول العارفون : إذا أوحشك اللّٰه من خلقه أى : ضاق صدرك منهم ومن تصرفاتهم فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به . فاجعلهم يقطبون فى وجهك لكى تقول : لا يوجد إلا ربى أعتمد عليه ، ولا أعتمد على أحد غيره . كذلك إذا ضاق صدرك فعليك بتسبيح اللّٰه وتنزيهه وحمده ، فحين تحمد ربك تعش فى كنف رحمته سبحانه ؛ إذن .. إذا ضاق صدر امرئ من أى شيء نقول له : إنما ضاق صدرك من الأسباب ، فالجأ إلى المسبب وأرح نفسك .

الهجرة إلى الحبشة

نحن نعلم أن رسول اللّٰه ﷺ حينما جهر بدعوته اتبعه بعض الناس ، وهؤلاء الذين اتبعوه

عانوا من اضطهاد أهليهم وذويهم حتى أن البيت الواحد انقسم [إلى أقسام] . مثال ذلك : تجد أم حبيبة وهى بنت أبى سفيان تؤمن ، بينما والدها هو شيخ الكفرة . وتذهب أم حبيبة مع زوجها إلى الحبشة ، حرصًا من رسول الله ﷺ على هذه الخلايا الإيمانية . لقد أراد الرسول ﷺ أن يحمى براعم الإيمان هذه ؛ لتكون هى مركز انتشار الإيمان من بعد ذلك ؛ ولهذا نصح بالهجرة الأولى إلى الحبشة ؛ حتى يأمنوا على أنفسهم فى مكان بعيد عن أيدى المشركين ؛ لأنهم سيؤدون من بعد ذلك مهمة إيمانية .

إن **الشجاعة تقتضى الحرص** ، وشاعرنا أحمد شوقى رحمة الله عليه قال فى إحدى مقطوعاته النثرية التى سماها « أسواق الذهب » : « ربما تقتضيك الشجاعة ، أن تجبُنَ ساعة » . هذه الشجاعة لا تكون على العدو فقط ، ولكنها تكون شجاعة فى مواجهة النفس ؛ مثال ذلك : لو أن جماعة من الأقوياء كانوا فى جلسة سمر ، ثم دخل عليهم صعلوك يحمل مسدسًا ، وقام بتوجيه السباب لكل منهم ، هنا يتحايل عليه هؤلاء إلى أن يتمكنوا منه ليعاقبوه .

إذن . . . فالشجاعة تقتضى أن يجبن الإنسان لحظة إلى أن يتمكن من الخصم ، وعلى ذلك فلابد لنا أن نعرف أن الإيمان ليس انتحارا ، ولكن الإيمان يقتضى ألا يدخل المؤمن معركة إلا وعنده حسبان من الكسب ، وها هو حبيبنا رسول الله ﷺ يسمى خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » فى معركة لم ينتصر فيها خالد ، ولكنه انتصر انتصارًا سلبيًا بأن عرف كيف يسحب الجيش ، فالأمر بسحب الجيش يحتاج إلى قوة أكثر مما يحتاج إليه النصر ، فالمنتصر تكون الريح معه ، أما المهزوم فتكون الريح ضده ، ولذلك نجد القرآن الكريم يقول : ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال : ١٦] .

إذن .. فالمناورة والكيد من المهارة القتالية ؛ لأنها تتيح بعدَ ذلك القدرةَ على مواجهة العدو . والوحى الإلهى ينير بصيرة رسول الله ﷺ ، فيستعرض الأرض كلها حتى يختار مكانا آمنا يذهب إليه هؤلاء المؤمنون .

إنه لم يرغب فى أن يأمرهم بالذهاب إلى أى قبيلة من القبائل ، فهو يعلم أن كل قبائل الجزيرة تخشَى قريشًا ، فموسم الحج موسم جامع للقبائل تحت سيادة قريش ، ومن يقف ضد

إرادة قريش يتعرض للمتاعب ، وعلى ذلك فلن يأمن رسول الله ﷺ على خلايا الإيمان أن يذهبوا إلى أي قبيلة . واستقرأ رسول الله ﷺ الأرض كلها ، واختار الحبشة .. لماذا ؟ ها هي كلمات رسول الله ﷺ باقية إلى زماننا : « إن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد ، فأقيموا ببلاده حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه » .

وتسللوا في جنح الليل إلى الطريق متجهين إلى الحبشة ، وعندما علمت قريش بالخبر ، حاولت أن تقطع عليهم الطريق ؛ لتعيدهم إلى مكة ولتواصل الحملة عليهم ، ولكن الحق أراد أمرا خلاف ذلك فقد كان الطريق سهلا ، ووصلوا إلى الحبشة وأنجاهم الله من كيد الكافرين .

إن رسول الله ﷺ يملك الخبرة الكاملة بالرقعة الأرضية ويعرف من يظلم من الحكام ومن لا يظلم ، وقد صدق رسول الله ﷺ في فراسته الإيمانية ، فحينما ذهب المؤمنون المهاجرون إلى الحبشة ، وجدوا أنهم دخلوا إلى دار أمن ؛ أمنوا فيها على دينهم .

وعندها جن جنون قريش ، وأرادوا استرداد هؤلاء القوم من النجاشي ملك الحبشة ، أرسلوا اثنين من صناديدهم ، ومعهم الهدايا والتحف لملك الحبشة . سافر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، وطلبا من النجاشي أن يسلمهم هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة . وحاولا الدس للمهاجرين عند النجاشي ، فاتهموا المسلمين المهاجرين بأنهم قوم تركوا دين الآباء واعتنقوا دينًا جديدًا يعادي الأديان كلها ، ويقولون في عيسى ابن مريم قولًا لا يليق به أو بأمه ، ورفض النجاشي أن يصدق حرفًا واحدًا .

لذلك طلب النجاشي أن يسمع من هؤلاء المهاجرين ، فتقدم جعفر بن أبي طالب وقال : أيها الملك ، كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ؛ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده ، لا نشرك به شيئًا ، وحرمنا ما

حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعادانا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا عليه من الخبائث ، فلما قهرونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، وآثرناك على سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك .

وثبت للنجاشى أن المسيح بشهادة القرآن نبى نقى طاهر العرض ؛ ولذلك لم يستمع إلى وِشاية وفد قريش ، وامتلأ النجاشى بالإيمان ولم يستكبر ، ووقف أمام محاولات قريش للنيل من أصحاب رسول الله ﷺ .

وعندما سمع ما نزل على رسول الله ﷺ من سورة « مريم » قال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وعرف رسول الله ﷺ أن الإيمان خامر قلب النجاشى ، بدليل أن أم حبيبة بنت أبى سفيان عندما هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، وتنصر الزوج لكنها بقيت على دينها ، وكانت تحبه خالص الحب وهنا انفصلت أم حبيبة عن زوجها ؛ وذلك حتى يثبت الحق أن الهجرة لله . وأراد الله أن يكرمها ، وأن يكرم النجاشى على موقفه من عدم تسليم المؤمنين إلى وفد قريش ، وموقفه من أنه شهد للإسلام بأنه يخرج من نفس المشكاة التى خرج منها إنجيل عيسى عليه السلام ؛ لذلك جعله ولى نكاح لأم حبيبة .

إنه مأمون على ما عرف من الإنجيل ، ومأمون على ما سمع من القرآن فى مريم ، ومأمون على أنه لم يسلم المهاجرين ؛ لذلك اختاره وكيلا عنه فى زواجه من أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها ، إنها حادثة واحدة أضاءت أكثر من موقف . أضاءت موقف أم حبيبة ، وأثبتت أنها لم تذهب إلى الهجرة تبعًا لزوجها ، فلو تبعت زوجها لتنصرت كما تنصر الزوج . وأضاءت أن رسول الله كان لا ينطق عن الهوى حين قال مسبقا فى النجاشى ما معناه : « إنه لا يظلم عنده أحد » . وعندما بلغ الرسول نبأ وفاة النجاشى صلى عليه صلاة الغائب .

* * *

الصبر . . . من أهم أسلحة الداعية

حين قام رسول اللَّه ﷺ بإبلاغ ما يُوحى إليه ، وقُوبل من مجتمع الشرك ، ومن المترفين فيه الذين اعتادوا على الفساد والظلم بمقاومة شديدة ، ولا بد من الصبر حتى يتغلب عليهم ؛ ولذلك أمره ربه سبحانه وتعالى كما جاء في سورة « يونس » : ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس : ١٠٩] . دليل على أن هناك عقبات وإيذاء ، ومقاومة يتغلب عليها بالصبر والعزم والإصرار ، فاللَّه سيحكم ، وسيكون هذا الحكم خير للمؤمنين .

الله تبارك وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه سبحانه العادل الذى لا يظلم أحد ، ولا يغيب عنه شيء يمكن أن يؤثر فى حكمه ، فهو جل جلاله محيط بكل فرد من خلقه .

واللَّه سبحانه وتعالى أمر رسوله بالصبر ؛ لأنه مقبل على معركة مع جبابرة العصاة وأئمة الكفر ، وقوله تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ﴾ [يونس : ١٠٩] دلت على أن الذى يتبع منهج الحق لابد أن يتعرض للمتاعب ؛ لأنه لولا أن الفساد يملأ الدنيا ، ما جاء منهج العدل ليعَدِلَ ميزان الحياة . ولقد كانت المعركة بينه - عليه الصلاة والسلام - وبين أئمة الكفار قوية لا هوادة فيها ؛ لعظم محاربته ﷺ للفساد والمفسدين ، ورسول اللَّه ﷺ استقبل الوحى منذ كُلف بالرسالة ، والله تبارك وتعالى خاطبه قائلًا : ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [يونس : ١٠٩] ، ولم يقل ما أوحى إليك ؛ لأنه جل جلاله لو قال : ما أوحى إليك . لكان الوحى قد جاء مرة واحدة ثم امتنع ، وكون اللَّه سبحانه وتعالى هو الذى سيحكم وهو خير الحاكمين الذى لا يخفى عنه شيء ، لذلك كانت عدالة الحكم وبُعده عن الهوى ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ . لأنه لا شيء يغيب عليه سبحانه وتعالى ، ولا يميز إنسانًا على إنسان ، فالكل خلقه .

* * *

هجاؤهم للرسول وكراهيتهم للحق

قال الله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٦، ٦٧] ، والمستكبر هو الذى يطلب مؤهلات كبر وليس لذاتيته شىء ، والإنسان لا يتكبر إلا إن ملك ذاتيات كبره ، وأى مخلوق لا يملك ذاتيات الكبر .

إذن .. الكبر يجب أن يكون صفة لله تعالى وحده ، ومن رحمة الله تعالى بخلقه أن من صفاته المتكبر ؛ ليحمى خلقه من خلقه ، فإن تكبر عليك وأجرى عليك قدرًا وأنت واحد لأنك فعلت شيئًا ، فاعلم أنه يتكبر على الآخرين جميعًا إن فعلوا فيك شيئًا ، فأنت صاحب المصلحة فى ذلك .

وكلمة ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ بأى شىء يستكبرون ؟ المسألة ليس فيها إلا الرسول الذى أرسل ، والقرآن الذى أنزل عليه معجزة ومنهجًا ، ونحن نعلم أن قريشًا كان لها وضع سيادة وشرف ومكانة فى الجزيرة العربية كلها ، ولا أحد يجرؤ أن يتعرض لقوافلهم فى رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، مع أن القبائل كانت تُغير على بعضها ، وتسطو على قوافل غيرها ، ويحدث السلب والنهب ، إلا قوافل قريش ، لم يكن أحد ليجرؤ على التعرض لها ، لا فى طريق الشام أو طريق اليمن ؛ لأنهم أخذوا السيادة من البيت الحرام ، فهم سدنة البيت وخدمه والقائمون على أمرهم .

ومع أن السيادة تأتيهم من بيت الله إلا أنهم كانوا يستكبرون بهذه المكانة ، ويقيمون السامر فى بيت الله ؛ ليتطاولوا على محمد ﷺ ويسبوه ، ويشككوا فى القرآن الذى جاء به .

والسامر : هم الجماعة الذين يجلسون بالليل للسمر واللهو ، ويذكرون الناس بسوء ، فهم يستكبرون بالبيت على غيره من القبائل ، ومع ذلك يسمرون فيه بهجر ، والهجر هو الفحش من الكلام ، وذلك فى القرآن وفى الرسول ﷺ .

فالبيت الحرام الذى أخذوا السيادة بسببه اتخذوه مكانًا للسمر واللهو ، ومهاجمة الرسول الذى جاء ليطهر البيت من الأصنام ، مع أن رب البيت هو الله سبحانه الذى أرسله إليهم .

فأنتم استكبرتم على الأمة كلها بالبيت الحرام ، ومع ذلك جعلتم البيت مكانًا تسمرون

فيه ، ولا تسمرون فيه بخير ، بل بهجر وسفهٍ وطيشٍ ، فتصفون الرسول بشتى الأوصاف الباطلة التى لا تليق به ﷺ ، وتشككون فى القرآن وتقولون : إنه أساطير الأولين . مع أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن ينبهكم ، ويبين لكم أنه ضروريات حياتكم ، فهذا تفضل منه سبحانه ، فحينما جاء أبرهة وأراد أن يهدم البيت وينقل هذه العظمة عنده ، رده اللَّه مقهورًا ، ودحر جيشه وقضى عليهم ، حتى الفيل قيد اللَّه خُطاه فلم يتقدم خطوة واحدة ليقترب من البيت ، فكلما وجهوه نحو البيت برك ، فحمى اللَّه بيته من عدوان أبرهة ، فلو أن اللَّه تعالى مكّن هؤلاء من أن يهدموا البيت ، ويحولوا القداسة عندهم ، لانتهت مهابة قريش وسقطت سيادتها ، ولاجترأ عليها العرب كما يجترئون على بعضهم ، ولأصبح لها فى كل يوم مشكلة ومعركة مع غيرها من القبائل .

فالله حفظ البيت لكم وحفظ لكم السيادة على العرب ، وبعد ذلك حين يرسل إليكم رسولًا منكم بكتاب مبين ، تكذبونه وتعاندونه ؟ ! هذا شىء غريب وعجيب !

يقول تعالى فى سورة « الفيل » : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل : ١ - ٥] ، والعصف المأكول مثل التبن أو قشرة الشىء الذى يؤكل .

وفى سورة « قريش » التى تلى سورة « الفيل » مباشرة فى ترتيب المصحف يقول فيها : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش : ١، ٢] ، أى أن اللَّه سبحانه دمر أبرهة وجيشه ، وجعلهم كعصف مأكول ، وحفظ البيت من شرهم لتألف قريش السيادة كعهدها فى السابق ، وذلك رحمة بكم حتى لا تمتنعوا عن رحلتى الشتاء والصيف وتألفوهما كما تعودتم ، فكان الواجب عليكم أن هذا الإله الذى حماكم وحفِظكم وأدام لكم هذه السيادة والمكانة ، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، لذلك يقول تعالى فى نهاية سورة « قريش » : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش : ٣، ٤] .

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أن يوبخهم ببعض الأشياء فذكر بين أنهم أحوال أربعة ، قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون : ٦٨] ، أى ما الذى

حدث لهم حتى يقفوا هذه المواقف ؟ ألم يتدبروا القول الذى نزل فى القرآن مع أنهم أمة البلاغة والفصاحة والبيان ، وكانوا يقيمون المواسم والمعارض للكلام والخطابة والشعر ؟ ! فهم أمة لها بصر بالأساليب وبالكلام ، فالقرآن الذى نزل على أعلى مستوى من البلاغة ، هل يمكن القول أنكم لم تفهموا ما فيه ؟ ! هذا غير معقول لابد أنكم فهمتموه ووعيتم ما فيه ، فأنتم أمة البيان والبلاغة والكلام والأسواق فى عكاظ والمجنة والمربد ، لا شك أنهم فهموا وعرفوا ما فى القرآن من بيان وبلاغة عجزوا عنها ، ولكنهم لم يؤمنوا بدليل أنهم قالوا كما قال عنهم القرآن الكريم : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف : ٣١] .

إذن ... الاعتراض ليس على القرآن ، ولكن على من نزل عليه القرآن ﷺ ؛ لأنهم ظنوا أن محمدًا جاء ليسلب منهم السلطة الزمنية التى يتمتعون بها ، مع أنه ﷺ جاء لمصلحتهم ، وهو لم يأخذ الحكم شرفًا ، ولكن أخذه تكليفًا بدليل أنه كان يعش فى مستوى معيشة أقل منهم ، فلا ترى رسول الله ﷺ إلا أقل قومه طعامًا ، وأقلهم ثيابًا ، وأقلهم أثاثًا ، حتى أقاربه حرم عليهم ما أباحه لعامة المسلمين ، فإنهم كانوا فقراء لا يأخذون زكاة ، كما أنهم لا يرثون فى رسول الله ﷺ ؛ لأنه يقول ما معناه : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث ما تركناه صدقة » . فهل تريدون حكم الجبابرة لأنكم ألفتم العبودية لغير الله ، فعز عليكم أن يحرركم الله منها ؟ ! وتريدون أن تظلوا فى عبودية المخلوق ، فتأبيتم على عبوديتكم للخالق .

والدليل أيضًا على أنهم فهموا عظمة القرآن وعرفوا قدره ، هو قول الوليد بن المغيرة حينما سمع القرآن من رسول الله ﷺ حيث قال : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، وما هو من قول البشر ، فهم فهموا القرآن وعرفوا أنه من عند الله ، ولكنهم حسدوا محمدًا على هذه النعمة ، والمكانة .

ومعنى ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون : ٦٨] أى هل حدث لهم ما لم يحدث لآبائهم من قبل ؟ وهل مجىء الرسول شىء جديد لم يسمعوا عنه من قبل ؟ هذا شىء طبيعى ، ولابد أنهم سمعوا من أهل الكتاب عن الرسل السابقة خاصة سيدنا إبراهيم ، فهم أبناء إسماعيل ، ويعرفون قصته مع أبيه إبراهيم عليهما السلام ، فكون أن يأتى لهم رسول فهذا ليس شيئًا عجيبًا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى فى معرض توبيخه لهم : ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٩] أم هل جاءهم رسول غريب عنهم لم يعرفوا سيرته أو خلقه ، ولم يعايشوه ويعرفوا مسلكه قبل أن يبعث ؛ فأنكروه وأنكروا رسالته ؟ ! هذا لم يحدث ؛ لأن الرسول معروف لهم ، وهم عايشوه وعرفوا خُلقه وسلوكه ، وكانوا يسمونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عنده أماناتهم وودائعهم ، ولذلك الحق سبحانه يقول : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، ومعنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من جنسكم ، ومن نوعكم ، ومن قبيلتكم صاحبة السيادة والزعامة ، حتى يكون معروفًا لكم بأخلاقه وسلوكه وصدقه وأمانته ، فلو كانوا عقلاء لقالوا : إذا كنا لم نجرب عليه كذبًا على الخَلْق ، فهل يعقل أن يكذب على الخالق ؟ !

ولذلك أبو بكر ﷺ سمى الصديق ؛ لأنه صدق رسول الله ﷺ فى أشد الأوقات التى كذبه فيها المشركون ، وحينما عاد الرسول ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج ، وحدث الناس بما رأى وسمع كذبه الناس ، حتى بعض من أسلموا ، فلما جاء الكفار إلى أبى بكر وقالوا له : صاحبك يقول كذا وكذا . ما كان منه إلا أن قال لهم : إن كان قال فقد صدق . والنبى ﷺ يحملها تقديرًا لأبى بكر فيقول : « كنت أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسَى رهان - أى فى الخلق الطيب والسلوك المستقيم - فسبقته للنبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى هو لاتبعته » . فهم يعرفون الرسول حق المعرفة ، وهم الذين لقبوه بالأمين ، ولم يجربوا عليه كذبًا أو خيانة ، كما لم يجربوا عليه ما كان يفعله أقرانه من الشبان ؛ من الجلوس فى أماكن السمر واللهو والشراب ، فإذا كان هو كذلك وأنتم تعرفونه ؛ فلماذا كذبتموه ؟

ولذلك السيدة خديجة رضى الله عنها اعتبرت أول مجتهدة فى الإسلام ؛ لأنها اجتهدت من مقدمات رسول الله ﷺ قبل البعثة على صدقه بعد البعثة ، وذلك حينما نزل الوحى على الرسول ﷺ فى الغار ، وضمه بشدة ثلاث مرات حتى بلغ منه الجهد ، فلما عاد إلى السيدة خديجة وهو يرتجف ويرتعش ، واسَتْهُ وطمأنته وقالت له : « والله يا ابن عم لن يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر وتقرى الضيف ، فوالله لن يخذلك الله أبدًا » .

إذن . . . الحق سبحانه وتعالى أعد رسوله إعدادًا دقيقًا ، وصنعه على عينه وهو معروف لكم ، فمن ناحية تدبر القرآن وتدبرهم لمعانيه ؛ لأنهم أمة كلام وبيان ، كما أن إرسال الرسل ليس شيئًا غريبًا عنهم ، فهم يعرفون قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبناء الكعبة وغير ذلك . كما أن الرسول منهم وهم يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون خلقه وصدقه وأمانته ، ومعنى ﴿رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون : ٦٩] أى : رسول لهم ؛ لأنه مرسل إليهم ، كما أنه رسول منهم ، وقوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون : ٧٠] ، ينعى القرآن عليهم وصفهم للرسول ﷺ بالجنون ، والجنون معناه خلل الآلة العقلية ، التى تزن الحركات على وفق النفع والضر ، وتلجأ إلى النافع وتترك الضار ، وتأتى بالخير وتدفع الشر ، فإذا نظرنا إلى محمد ﷺ لا نجد فيه خصلة واحدة من خصال الجنون ، فهو الصادق الأمين صاحب الخلق العظيم ، الذى تمثلت فيه كل خصال الخير .

ونحن نعرف فى حياتنا أن الكذاب يحب الصادق ويحترمه ، والغضوب يحترم الحليم فى أخلاقه ، والخائن يحترم الأمين .

إذن .. الأخلاق مقاييسها واحدة ، فعليكم أن تقيسوا محمدًا لا بالرسالة التى جاء بها ولكن بخلقه فيكم ! ! لن يستطيع واحد أن يتهم محمدًا فى خلقه ، وما دام لا يستطيع واحد أن يتهمه فى خلقه ، فلن يستطيع أن يتهمه فى علقه ؛ لأن الذى يوجد الأخلاق هو العقل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ١ ـ ٤] ، فالرسول ﷺ ليس مجنونًا كما زعموا ، ويشهد له بذلك خلقه العظيم ، ولكن العلة أنه جاءهم بالحق وهم يكرهون الحق ؛ لأنه جاء على يد غيرهم ، ولذلك إن أردت أن تعرف الحق فلا تأخذ المسائل على أنها لك دائمًا ، بل خذها مرة لك ومرة عليك .

ولذلك أمر اللَّه سبحانه للإنسان منا بأن يغض بصره عن محارم الغير ، هذا الأمر فى ظاهره أنه قيد على حرية الحركة لعينيك ، ومنعهما من التمتع بالنظر إلى محارم الله ، ولكن الحقيقة أنه سبحانه قيد عينيك فى أن تنظر إلى محارم غيرك ، وقيد عيون الناس أجمعين أن ينظروا إلى محارمك ، فأنت المستفيد ، فعليك أن تأخذ الأمر على أنه لك وليس عليك ؛ لأنه لصالحك

ولصالح الناس أيضًا ، فالرسول ﷺ حينما جاءهم بالحق ، غضب أهل الباطل ؛ لأنهم مستفيدون من وجود الباطل وسطوته ، فهم يظلمون الناس ويستعبدونهم ، ويسلبون حقوقهم دون أن يردعهم أحد ، فإذا جاء من يعدل الميزان ويساوى بين الناس ، ويجعل معيار المفاضلة بينهم لا بسبب لون أو جنس ، ولكن بالتقوى والعمل الصالح ، فهذا لا شك سيغضب أهل الباطل ، ويحفزهم على محاربة الحق ، إذن غضب هؤلاء وعنادهم كان يجب أن يكون معيار تصديق لرسول الله ﷺ .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون : ٧١] ، فلو أن الحق سبحانه اتبع أهواء هؤلاء المفسدين ، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ؛ لأن الأمور لا تسير على هوى المخلوق ، ولكنها تسير على مرادات الخالق ؛ لأنه صانع هذا الخلق كله والكون بما فيه ، وكل صانع يغار على صنعته ، لكن الذى لم يصنعها لا يعرف قيمتها ولا يغار عليها ، فعدالة الصنعة أن تسير على وفق الصانع لا على مرادات المصنوع ؛ لأن مرادات المصنوع تملكها التغييرات ، فالشيطان قد يزين للإنسان الرشوة أو الكذب ، أو يزين له الظلم والسرقة ؛ لأنه ينظر إلى المكسب العاجل ، ولا ينظر إلى العاقبة الوخيمة ! ! لو أن الحق اتبع أهواء هؤلاء لفسدت السماوات والأرض . بعض الناس قد يقول : إذا فسدت الأرض باتباع أهواء أهل الباطل ، فكيف تفسد السماء ؟ وهل يستطيع أحد أن يصل إلى السماء ليفسدها ؟

ونحن نقول لهم : انظروا إلى مطالب هؤلاء المكذبين ، ألم يقولوا للرسول : إنهم لن يؤمنوا به حتى يسقط السماء عليهم كسفًا ، أو يرقى فى السماء ، ولن يؤمنوا لرقيه حتى ينزل عليهم كتابًا يقرءونه .

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

إذن . .. هم يطلبون أن تخر السماء على الأرض ، ولو سقطت السماء على الأرض لفسدت كلتاهما فأهواؤهم لو اتبعها الحق لفسدت السماوات والأرض ؛ ولذلك الرسول ﷺ يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »[1] لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وكل ما يتحدث به فهو وحي من الله تعالى .

هنا نجد المستشرقين يمسكون بالآية التي تقول : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ ويقولون : إذا كان الرسول لا ينطق عن الهوى ، فمعنى ذلك أن كل كلامه وحي من عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا ينزل القرآن ليعدل له بعض الأحكام والمواقف التي حدثت منه ؟ فهذا دليل على أنه ساعة حَكَمَ هذا الحكم كان ينطق عن الهوى ! ! نقول لهم : أنتم لم تفهموا المقصود ؛ لأن الهوى معناه أن تعرف الحق لكن هواك يجعلك تبتعد عنه ، ورسول الله ﷺ لم يعرف لهذه الأشياء حكمًا حتى يولي نفسه عنه ؛ لأنها أشياء لم يكن قد نزل فيها حكم الله بعد ، فالرسول حكم فيها بمقتضى ما فهم ، فالله تعالى عدل له هذه الأحكام ، فلم يكن له فيها هوى ؛ لأن الهوى أن تعرف المسألة لكن هواك يجنح بك بعيدًا عنها ، كما أن الله تعالى يريد بذلك تصديق الرسول ﷺ ؛ لأنه إذا كان الله قد عدل له بعض الأحكام دون أن يراه أحد أو يسمعه ، وبعد ذلك جاء ليخبر قومه أن الله عدل له هذا الحكم ، فهذا معناه أنه أمين وصادق ؛ لأنه لم يتعصب لنفسه ، ولم يخف على الناس ما عدله الله له ، فهو يقول ما له وما عليه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون : ٧١] دليل على ضلالهم ، وأنهم لا يفكرون في مصلحتهم ؛ لأن أمة العرب لم يكن لها مكانة تذكر بين أمم الأرض ، بل عبارة عن قبائل متفرقة متناحرة يحارب بعضها بعضًا لأتفه الأسباب ، وهذه القبائل متنقلة لا تستقر في مكان ، فلم يكن لهم أي قيمة حضارية بين الأمم قبل الإسلام ، ومع أن العرب كانت فيهم بعض الصفات الذميمة ، فقد كان فيهم من الصفات الحميدة الشيء الكثير ، مثل الكرم والجود والشجاعة والنجدة ، حتى إنَّ الواحد منهم كان يستحي أن يأتيه ضيف دون أن يقدِّم له أقصى ما يستطيع تقديمه من طعام ، حتى إن بعضهم هم

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) عن عبد الله بن عمرو . وقال : إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه .

أن يذبح ابنه للضيف حينما لم يجد شيئًا فى بيته ، مع أنه كان طاويًا بالجوع هو وأولاده منذ ثلاثة أيام ، ولكن اللَّه أكرمه فرأى على البعد قطيعًا من الحُمر الوحشية فى طريقها إلى الماء لتشرب ، فأصاب أحدها وأطعم منه ضيفه وأولاده وعدل عن ذبح ابنه ، فالعرب كانوا أناسًا عندهم خصال متناقضة ، فقد يسرق الواحد منهم ناقة ليذبحها لضيفه .

والحق سبحانه وتعالى جعل أمة العرب هكذا حتى يأتى الإسلام ، وهى أمة أمية ليس لها دراية بالحضارة ، فحين تأتى بهذه الأساليب العالية التى تحكم العالم ، وهى بهذا الشكل لا يقال : إن هذه قفزة حضارية ، ويعلم الناس أن هذا منهج من عند الله ؛ لأن أمة العرب لم تكن مؤهلة لأن تأتى بهذا الأسلوب المعجز ، إذن الأمية فى العرب شرف لهم ، والأمية فى رسول اللَّه ﷺ شرف له ؛ لأنه لو كان متعلمًا لقالوا : إنه قرأ لفلان ودرس كتب كذا وكذا . فالرسول ﷺ لو لم يكن أميًا لكانت ثقافته جاءت من عند البشر ، ولكن لأنه أمى فثقافته كلها جاءت من عند اللَّه وحده ، فالعرب عارضوا القرآن وحاربوه مع أنه كتاب نزل لهدايتهم وفيه ذكرهم وقوتهم وهو مصدر عزهم ومجدهم وفخارهم ، ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، فهو شرف كبير للعرب والمسلمين وسيظل حتى تقوم الساعة ؛ لأن القرآن محفوظ من اللَّه ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠] ، فكان يجب عليهم أن يتبعوا هذا القرآن ويدافعوا عنه ؛ لأن فيه شرفهم وتاريخهم وأمجادهم وذكرهم حتى تقوم الساعة .

ثم يقول سبحانه وتعالى : ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المؤمنون : ٧٢] الخرج هو ما يخرج منك ، والخرج أنت تخرجه ، لكن الخراج تقدمه رغم أنفك ، والمعنى : إنْ أردت خرجًا فلا تأخذ من هؤلاء ، ولكن اطلب من ربك الذى يرزق جميع الخلائق وخزائنه لا تنفد ، فلا تأخذ الرزق إلا ممن بيده الخير ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يمن على خلقه برزق يرزقهم به ؛ لأنه هو الذى استدعاهم إلى الكون ، وما دام هو الذى استدعاهم إلى الكون فلابد أن يقيم لهم مائدة تسعهم طول حياتهم ؛ لأنك أنت أيها المخلوق حين تدعو ضيفًا لتناول الطعام عندك ، تصنع له طعامًا يكفى عدة أشخاص ، فما بالك بخالق الأرض والسماء ، فالرزق عند اللَّه مضمون وما على الإنسان إلا أن يسعى لتحصيل هذا الرزق ، الذى ضمنه اللَّه له حين استدعاه إلى الحياة الدنيا .

ومعنى ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون : ٧٢] لأنه سبحانه يرزق أصول الأشياء التى يرزق منها الرازقون من الخلق ، فأنت تعطى للفقير طعامًا ، فمن أين جئت بهذا الطعام ؟ لقد أخذت الحب الذى خلقه اللّٰه ووضعته فى الأرض التى خلقها الله ، ورويته بالماء الذى أنزله الله ، واجتهدت بطاقتك التى منحها اللّٰه لك . . . إلخ . فإذا نظرت إلى الأشياء التى تنفق منها تجدها من عند الله ، وهذا مثل الرجل الذى يشترى لوازم بيته ، من دقيق وسكر وأرز ، وخبز ولحم وخضراوات ، وفواكه وسمن ومكرونة . . . إلخ . فحين تقوم زوجته بإعداد الطعام من هذه المواد التى اشتراها زوجها ، هل تكون هى التى جاءت بالطعام ، أم أن زوجها هو الذى أحضره فى البيت ؟ ! إذن لو نسبت كل رزق إلى مصدره لوجدت اللّٰه هو الرزاق الواحد ؛ ولذلك كثير من العلماء قالوا : نزهوا ألسنتكم عن أن تقولوا فلان رازق ، واجعلوا هذه للّٰه وحده ؛ لأنه الذى خلق الرزق وأوجد أصوله التى تعطى منها وأنت مناول للغير فقط .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون : ٧٣] أى : أنك يا محمد تدعو هؤلاء الناس إلى طريق الخير والفلاح والاستقامة والصراط المستقيم ، حتى إن ضرًّا واحدًا يستفيد بالطريق المعوج ، إلا أنه سيفيد الملايين ، كما أنه سينتفع بالصراط المستقيم فى شيء آخر ؛ لأننا قلنا : إنَّ الإنسان يجب أن ينظر لا إلى ما أخذه التشريع منه ، ولكن إلى ما وهبه التشريع له ، فالغنى نقول له : لا تغضب حين نقول لك : أَخْرِجْ مِنْ مالك للفقير ؛ لأنك تريد أن تستقبل الحياة بشجاعة الاستقبال ولا تخش الفقر ؛ لأنك لو أصبحت فقيرًا سيعطيك الأغنياء من أموالهم ، فالإسلام أمّن لك حياتك وحياة أولادك بعدك ، فإن أخذنا منك اليوم وأنت غنى ، سنعطيك غدًا وأنت فقير ، وحتى إن مت وتركت وراءك أطفالًا صغارًا لا ثروة لهم ، فاطمئن على مستقبلهم ؛ لأن المجتمع الإيمانى لن ينساهم بل سيعطيهم ما يكفيهم من مال الأغنياء والقادرين .

فالمجتمع الإيمانى هو الذى يرى الناس فيه يؤمنون بالقدر إيمانًا حقيقيًا ؛ لأن الناس لو رأوا يتيمًا مضيعًا ربما سخطوا ، لكن حين يُرى فى المجتمع الإيمانى أن كل مسلم أب ليتيم ، فسيشعر أن أبا واحدًا قد مات ، فقام بدلًا منه عشرات الآباء لهؤلاء الأيتام ، فيصبح الإنسان لا يخشى على أولاده من الضياع أو التشرد بعد موته ؛ لأنه علم أن المجتمع المسلم سيكفلهم ويربيهم أحسن تربية ، وحينئذٍ يستقبل الإنسان قدر اللّٰه بالرضا ، والصراط المستقيم هو الطريق المعتدل

الذى لا عوج فيه ، فلا هو منحرف يمينًا أو شمالاً ، ولا هو مرتفع ومنحدر فى مساره .

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ ومعنى « ناكبون » أى أنهم منحرفون عن الطريق الذى كان سيوصلهم إلى الغاية فى أقل وقت ، بأقل مجهود لأحسن غاية ؛ فالطريق المستقيم يوصلك إلى المطلوب فى زمن أقل ، وبأقل مجهود ، ولأحسن غاية ؛ لأن الطريق لا يمهد ويذلل إلا إذا كان موصلًا إلى منطقة هامة وجميلة ؛ ولذلك الطرق تأخذ اتساعها ورصفها والعناية بها بمقدار الغاية التى تؤدى إليها ، والأماكن التى توصل إليها ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة منحرفون عن الصراط المستقيم ؛ لأن لهم حظًّا فى هذا الاعوجاج ، فهم لا يحبون الاستقامة ويعشقون العوج والانحراف .

وفاة أبى طالب وخديجة
وما عناه رسول اللَّه ﷺ بعدهما

« قال ابن إسحاق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول اللَّه ﷺ المصائب بهُلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو إليها ، ويُهلك عمه أبى طالب ، وكان له عضدًا وحرزًا فى أمره ، ومنعه وناصرا على قومه وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما أهلك أبو طالب نالت قريش من رسول اللَّه ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفاء قريش ، فنثر على رأسه ترابًا ودخل رسول اللَّه ﷺ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ورسول اللَّه ﷺ يقول لها : لا تبكى يا بنية ، فإن اللَّه مانع أباك »[1] .

***

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٣، ٢٦٤) .

تسرية اللّه عن رسوله برحلة الإسراء والمعراج

يقول ربنا جل فى علاه : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] ، فالإسراء حدث لرسول اللّه ﷺ ؛ تسلية له عما لقيه من الإيذاء من القوم الذين صدوا عنه ، وكلفوا السفهاء أن يؤذوه بالقول والفعل ، وحين ضاقت عليه الأرض بما رحبت توجّه إلى الطائف ، فلقى ما لقى من العَنَتِ والإيذاء ، ثم رجع إلى مكة فلم يجد من يجيره إلا المُطعم بن عدى ، وهو رجل كافر ، ولكن رقّ قلبه للرسول ﷺ .

كانت قسوة من أهل الأرض ما أبشعها ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلِّى رسوله ﷺ ؛ بأنه إن كان هذا جفاء أهل الأرض ، فانظر حفاوة أهل السماء ، فجاء حدث الإسراء والمعراج .

إن حدث الإسراء جاء أولًا ، ثم جاءه بعده بنص الحديث الجامع لهما ؛ حدث المعراج ، والإسراء آية أرضية من المسجد الحرام ، وهو معلوم للقوم ، إلى المسجد الأقصى وهو معلوم أيضًا للقوم ، والمسافة بينهما أربعون يومًا بسير الإبل ، فكون الرسول ﷺ يُحدّث أنه أتاه فى ليلة ، فتلك معجزة فى قطع المسافات ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقربها لأذهان الخلق ، فقال لا تقيسوا فعل اللّه بفعلكم ؛ لأن فعلكم يقتضى علاجًا ويقتضى دوابَّ ، ويقتضى مسافة ، وقطع المسافة حسب الجهد والقوة ، ولكن نزّهوا اللّه فى فعله أن يحتاج إلى زمن ، فصدّرها بقوله : ﴿سُبْحَٰنَ﴾ أى تنزيهًا لذاته ، وتنزيهًا لصفاته ، وتنزيهًا لفعله ، والنص القرآنى هو عمدتنا فى توثيق هذا الحدث ، وحين يجىء النص القرآن بحدث فليس لنا إلا أن نؤمن به ؛ لأنه ورد من اللّه سبحانه وتعالى ، وليس لعقولنا القاصرة أن تبحث البحث الجارى فى قوانين الأرض ، وقوانين البشر ، لنحاول أن نفهم قوانين اللّه سبحانه وتعالى ، ولكن ما دام اللّه سبحانه هو لذى قال ؛ فالأمر الذى يجب على المؤمن هو أن يُسلّم به ، وبعد ذلك على عقله أن يبحث فى قياسات هذا التسليم ، أو فى مبررات هذا التسليم ، فيجد المبرر الأول للتسليم أنه آمن أولًا باللّه سبحانه وتعالى .

إن الإنسان أول ما يدخل فى الدين يؤمن بالله سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك يتلقى عن اللّه سبحانه وتعالى .

إذن . . فتلقيه عن اللّه سبحانه وتعالى ، مشروط بأنه آمن به سبحانه وتعالى ، فما عليه بعد ذلك إلا أن يُوثِّق الكلام ، أصَدَرَ مِنَ اللّهِ ، أَمْ لَم يَصْدُر ؟ فَعِلّه إيمان المؤمن بأى حُكم ، أو بأى حدث صادر عن اللّه سبحانه وتعالى هو توثيق صدوره من اللّه سبحانه وتعالى ، وبعد أن يوثّق صدوره عن اللّه سبحانه وتعالى ما عليه إلا أن يؤمن به وبأنه حدث ، وبعد ذلك لعقله أن يجول بطاقاته ؛ حتى يمكن أن يؤنس عقله بأن ذلك الحدث يكون وليس مُحالاً .

إن هذا الحدث استهلّه اللّه سبحانه وتعالى بكلمة : ﴿سُبْحَٰنَ﴾ ، ومعنى كلمة : ﴿سُبْحَٰنَ﴾ أول ما تقع على الذهن تعطى الإنسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبهة مقارنة ، والتى تأتى بين قانون المادة الأرضية الإنسانية ، وبين قانون اللّه سبحانه وتعالى ، وإن معنى « سبحان اللّه » : أن اللّه سبحانه منزه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، فإذا صدَر فعل ، وقال اللّه سبحانه وتعالى أنه صدر منه ، فيجب أن أنزّهه أنا عن قوانين البشرية ، ولا أُخْضِع فعل اللّه سبحانه وتعالى إلى قانون فعلى .

من أسباب الهجرة

يقول اللّه سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٦] يستفز أى يخف ، فهو من الخفة ، مثلما تقول لابنك المتثاقل عن القيام : فز ، أى انهض بسرعة وخفة . والأرض : المقصود بها مكة ، والنبى ﷺ كان يحب مكة ولكن الكافرين بالغوا فى إيذائه ومحاربته حتى يكره الإقامة بها ، ويخرج منها ؛ لأنهم يظنون أنه إذا خرج من مكة ستنتهى دعوته ؛ لأنهم كانوا يرون أن أنصاره وأتباعه فى مكة ، فإذا تركها خسر الأتباع والمناصرين . ولذلك يطمئن الحق سبحانه رسوله ﷺ أنه حتى لو خرج من مكة فلن يلبثوا بعده إلا قليلاً . فهم يؤذون الرسول ﷺ ليخرج ، ولكن الخروج لا يكون إلا بأمر اللّه تعالى ، فالله سيتركهم حتى يمكروا ويبيتوا لقتل الرسول ﷺ ، ثم يبطل سبحانه مكيدتهم وتآمرهم وينجيه بقدرته وعظمته ﷺ من مكرهم .

وذلك لأن الحق سبحانه وتعالى أخبر القوم المعادين لرسول اللّه ﷺ أنهم لن يظفروا به بأى شكل من الأشكال ، فلن يقدروا عليه لا بالمواجهة ولا بالتَّبييت والمكر ، حتى لو استعانوا بالجن فى الكيد للرسول ﷺ أو محاولة النيل منه ، فإن اللّه تعالى سينجيه .

فكأنه سبحانه يقول لهم : لا سبيل لمحاربة هذا الدين ؛ لأنكم لن تستطيعوا أن تتغلبوا عليه لا جهارًا ولا تبييتًا ، وحتى لو استعنتم بالجن الأقوى منكم ، فلن تقفوا فى وجه هذه الدعوة ؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣٣] .

إذن .. قوله تعالى : ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالمراد هنا : وإن كادوا ليجعلونك تخف إلى الخروج من مكة ليخرجوك منها ، ولو حدث لذلك فلن يلبثوا خلافك إلا قليلاً ، وصدق الحق سبحانه فيما أخبر به رسوله ﷺ ، فبعد عام من الهجرة حدثت موقعة « بدر » وانتصر المسلمون انتصارًا كبيرًا ، وقتلوا سبعين من صناديد قريش ، وأسروا سبعين آخرين ، فلم يتمتع المشركون بمكة بعد خروج الرسول وأصحابه منها ، لم يتمتعوا بالأرض ولا بالنعيم ولا بالسيادة التى كانوا فيها .

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٧] أى لماذا لم يعتبر هؤلاء القوم بما حدث للأمم السابقة الذين كذبوا رسل اللَّه وآذوهم ، فكانت عاقبتهم البوار والخسران . والسُنَّةُ هى العادة التى لا تتغير ، وسُنَّةُ اللَّه لا يستطيع أن يحولها أحد .

هجرة النبى ﷺ والصديق رضي الله عنه

ما دام الإنسان قد آمن بأن العبادة لا تجوز إلا للَّه وحده ، والاستعانة به جل شأنه . ما دام هذا الإيمان قد استقر فى القلب وظهر فى السلوك ، فلابد أن ينصر الخالق سبحانه عبده المؤمن على خصوم الإيمان ، وهنا نحب أن نذكر حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان ، أن على المؤمن ألا يعتقد أن هناك مخلوقًا من مخلوقات اللَّه قادر على أن يقف معاندًا للَّه تعالى ، إنما يقف الخلق المعاندون بعضهم لبعض فى صراع بينهم ؛ لذلك فإننا نجد فى العادة أن القوى يهزم الضعيف ، لكن إذا التحم الضعيف المؤمن بمنهج اللَّه ضد خصم معاندٍ فإن خصمه لن يقدر عليه حتى ولو كان الخصم قويًّا ، ولسوف يكون الانتصار للضعيف المؤمن الملتزم بمنهج اللَّه على الذى تخيلنا أنه قوى ، لكن قوته مجردة من الإيمان .

ولنأخذ من هجرة الرسول الكريم ﷺ درسًا ؛ لقد هاجر الرسول ﷺ من مكة ومعه أبو

بكر الصديق إلى المدينة ؛ ليَقِى المؤمنين هذا العذاب الذى كانوايتعرضون له من قِبَل كفار قريش .

ودخل الرسول ﷺ ومعه أبو بكر إلى غار ثورٍ ؛ يختميان فيه من الكفار الذين خرجوا للبحث عن محمد ﷺ ، هذا الذى حطَّم آلهتهم وسفَّه أحلامهم ، وكلنا نعرف قول أبى بكر الصديق لرسول اللَّه ﷺ فى هذه اللحظة : « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا » ، وكان رد الرسول الكريم ﷺ على صاحبه أبى بكر واضحًا جليًا يبعث على الاطمئنان ؛ لقد قال الرسول الكريم ﷺ : « ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما »[1] .

والقرآن الكريم يؤكد هذا القول الواضح بهذه الآية الكريمة : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠] . إن هذا القول الفصل يوضح لنا أن الإيمان المطلق بالله تعالى ، وبأنه مالك كل الأسباب قادر أن يبعث الطمأنينة والسكينية فى قلب الرسول ﷺ وصاحبه أبى بكر ، والله القوى القادر قد صرف بقدرته نظر الكفار عن الرسول ﷺ وصحبه وهما فى الغار .

ومن هذه الحكاية نستفيد ما يلى :

أن أى صراع يحدث بين إنسان وآخر قد يكون أحدهما قويًا أو يكونان متساويين فى القوة ، فإن الغلبة والانتصار سيكونان للأقوى ، أما إذا قام صراع بين إنسان مؤمن وآخر غير مؤمن ، فإن الغلبة ستكون للإنسان المؤمن ما دام قد آمن بالله ، ولن ينتصر عليه أحد إلا إذا شَرَد بعيدًا عن منهج اللَّه ، نضرب مثلاً على ذلك لتقريب المسألة العقائدية - ولله من قبل ومن بعد المثل الأعلى - لنفترض أن رجلاً له غلامٌ صغير ، ووقف الرجل ؛ ليتحدث إلى صديق له ، وذهب الغلام الصغير بعيدًا عن أبيه ليلعب فى الشارع ، وتصدى لهذا الغلام الصغير أطفال أكبر منه فى القوة والعمر ، فلمن يلجأ الغلام ؟ لابد أنه سيلجأ إلى أبيه ، وفى اللحظة التى يلجأ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١/١) .

الغلام لأبيه يصاب الأولاد الأكبر منه بالخوف لأن للطفل أبًا قويًا وأن الوالد قادر على حماية ابنه .

يحدث ذلك من أبٍ وابنٍ ، كليهما مخلوق من مخلوقات الله ، فما بالنا بالخالق لكل الوجود ، ماذا يحدث عندما يحتمى صاحب حق ضعيف بالخالق سبحانه وتعالى ؟ ! ما بالنا بإنسان بذل كل ما فى طاقته ؛ لتحقيق هدف فى حدود منهج الله ، فتكاثر عليه المكذبون بمنهج الله ، فاستنجد هذا الإنسان المؤمن بالحى القيوم .

إن الحماية هنا لن تكون حماية أب لابنه ، ولكنها حماية خالق لمخلوق ؛ لذلك فعندما يقف عبد مؤمن ملتزم بمنهج الله ، فلابد أن يهمزم العبد المكذب بمنهج اللّه ، واقرأ قول اللّه تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦] .

بهذا المنطق الإيمانى كان الرسول الكريم ﷺ يواجه قريشًا بكفرها وجهلها وجاهليتها ، لقد اختاروا الضلال وأبَوْا أن يُسلموا مع الرسول ﷺ للّه الواحد الأحد ، فكانت النتيجة الحتمية أن انتصر الرسول ومن معه ، واندحر الشرك وحزبه ، وهكذا الإنسان المؤمن بالله تعالى .

* * *

الرسول ﷺ وصاحبه فى غار ثور

فى طريق هجرة رسول اللّه ﷺ إلى المدينة ، التجأ هو وأبو بكر ﷺ إلى غار ثور واختبأا داخله ، وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار ، وسيطر الخوف على قلب أبى بكر خشية أن يقع رسول اللّه ﷺ فى أيدى الكفار ، وقال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعًا ، فالكفار واقفون على باب الغار ، والنبى ﷺ وأبو بكر فى داخله ، ونظرة واحدة من الكفار إلى داخل الغار تكشف الأمر كله .

فماذا قال رسول اللّه ﷺ ؟

رفع الأمر إلى اللّه وقال : « ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما » . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿لَا تَحْــزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة : ٤٠] .

إذن .. فالرسول ﷺ رفع الأمر إلى الله ، فهو وأبو بكر فى معية الله ، قول أبى بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا .. هو قول الإنسان الخائف ، ولكن قول الرسول ﷺ : ﴿لَا تَحْــزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ . معناه أنه بقدرة البشر لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا ، ولكننا ما دمنا فى حماية اللّه تعالى وعنايته فإنهم لن يرونا ؛ ذلك لأن قدرة اللّه ستزيغ أبصارهم فلن يرونا ، وحتى إذا نظروا تحت أقدامهم فلن يرونا ؛ وذلك لأن اللّه سبحانه وتعالى هو الذى يحفظنا ، فنحن لا نحفظ أنفسنا ، وهكذا جاءت هذه الآية ؛ لتبين لنا كيف أن اللّه سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة ، وأننا يجب أن نستعين بالله فى جميع الأمور .

* * *

اثنان .. اللّه ثالثهما

يقول تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

القول الثابت معناه أنه حق لا يعتريه تغيير ، فالناس تتغير من حوله وهو يظل ثابتًا . **والتثبيت يختلف فى أعراف الناس باختلاف المثبت** ؛ افترض أن عندك عمودًا مخلخلاً فى البيت وجئت له بمهندسين ليثبتوه ، فماذا يفعلون ؟ يعملون له دعائم أرضية من أسفل . وتقول : أنا أحضرت له مهندسًا كبيرًا ثبته ، إذا كان هذا فى البشر ، فما بالك إذا كان اللّه هو الذى سيثبت ؟ فهذا يردك إلى أن المثبت لن يطرأ على تثبيته خلل .

إذن .. فكلمة تثبيت دلتنا على أن الإنسان ابن أغيار ، وقد تقابله مصاعب ومتاعب فى حياته ، فنقول له : إياك أن تخور .. لماذا ؟ لأن لك ربًا .

ورسول اللّه ﷺ حينما كان فى الغار وجاء القوم يبحثون عنه ، ومروا أمام الغار ، قال أبو بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . فماذا قال له الرسول ﷺ المنطق كان يقتضى أن يقول له : لا .. حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه فلن يرانا ، ولكنه لم يقل له ذلك ، وإنما قاله له : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ . أبو بكر يتكلم عن القانون الكونى ، ورسول اللّه ﷺ يتكلم عن قانون خالق الكون سبحانه ، أبو بكر يقول بقوانين الكونيات : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، ورسول اللّه ﷺ يتحدث وكله ثقة بأن اللّه لن يسلمهما فيقول : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما » .

إذن .. فوجه الرد على عبارة أبى بكر وهو يقول له : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . كيف عدل عن قوله : لا ، لن يرانا أحد حتى لو نظر تحت قدميه . إلى عبارة أخرى هى : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ؛ هنا النبى ﷺ أراد أن يلفت أبا بكر إلى قضية إيمانية ، ليس لأن نظرهم سكون ضعيفًا فلن يرونا ، ولكن لأننا فى معية اللّه سبحانه وما دمنا فى معية الله ، فالله تعالى حافظنا منهم ومن شرهم ، والله تعالى بالغ أمره قد جعل لكل شىء قدرًا .

* * *

دليل النبى ﷺ فى الهجرة

كانت معرفة الطريق من مكة إلى المدينة على زمن رسول اللّه ﷺ تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمتاهات وحينما قام الرسول ﷺ بالهجرة اتخذ دليلاً للطريق ، وكان دليله كافرًا ، فلا يتأتى السير فى مثل هذه الأرض بلا دليل .

سراقة بن مالك يتتبع أثر رسول اللّه ﷺ

كان سراقة بن مالك يتتبع أثر الرسول ﷺ ليفوز بالجائزة التى جعلها الكفار لمن يدلهم على مكان الرسول ﷺ ، وكان على فرس له ، فساخت قوائم الفرس فى الرمل ، وهذه من المعجزات التى قال اللّه عنها : ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٤٠] ففهم سراقة من ذلك أنه منع من متابعتهم ، وأن النبى ﷺ ظاهر على قومه فناداهم وقال لهم : أنظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شيء تكرهونه ، فأمر رسول اللّه ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول له : وما تبتغى منا ، فقال سراقة : تكتب لى كتابًا يكون آية بينى وبينك ، فأمر النبى ﷺ أبا بكر أن يكتب له فكتب له ، فأخذه ورجع ولم يذكر شيئًا مما كان ، حتى أسلم بعد فتح مكة .

غزوة بدر الكبرى

خرج رسول اللّه ﷺ إلى بدر هو والمؤمنون للاستيلاء على قافلة لقريش كانت مع أبى سفيان ، وهو فى قِلةٍ من العدد ، فلما بلغ أبا سفيان خبر خروج النبى ﷺ ، بعث إلى مكة ضمضم بن عمرو يستنفر قريشًا لأجل أموالهم ، ونجا أبو سفيان بالعير ثم بعث إلى قريش إن اللّه نجى أموالكم فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا ، فنقيم هناك ثلاثًا ، وننحر الجزُر ، ونطعم الطعام ونشرب الخمور ، وتضرب علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا .

وهكذا وجد الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين أنفسهم مدفوعين إلى حرب لم يستعدوا لها مع كفار قريش فاستشار ﷺ أصحابه . فقال أبو بكر فأحسن . وقال عمر فأحسن . وقال المقداد : يا رسول الله ، امض لما أمرك اللّه فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل

لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . والذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد ، لجالدنا مَنْ دونه .

فقال له رسول الله ﷺ خيرًا .

ثم قال : أشيروا عَلَىَّ . – وإنما يريد الأنصار – .

فقال سعد بن معاذ : امض لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فَخُضّته ، لَخُضناه معك ، إنا لصُبُر عند الحرب ، فسِرْ بنا على بركة الله .

فقال : سيروا على بركة اللّه وأبشروا ، فإن اللّه قد وعدنى إحدى الطائفتين والله لكأنى أنظرإلى مصارع القوم .

ثم سار حتى نزل قريبًا من « بدر » ؛ فلما رأى ﷺ قريشًا استقبل القبلة ومدَّ يديه وقال : « اللَّهُمَّ إن تَهلِك هذه العصابة ، لا تعبد فى الأرض »[1] .

فما زال يستغيث حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءَه فردّاه ، ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبى الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال : ٥] ؛ ذلك أنه حين أفلتت قافلة قريش ووجد المؤمنون أنفسهم يواجهون حربًا لم يستعدوا لها ، كره بعضهم ذلك .

وقوله تعالى : ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ ليست طعنًا فى المؤمنين ؛ لأنهم خرجوا ولا خيل معهم إلا ثلاثة ، فكأن حيثية الكراهية ليست تأبيًا على أوامر الله ، ولكن لأننا إذا أخذناها بالأسباب .. نرى أن المقاييس البشرية للحرب مختلة بين المؤمنين والكفار ، فالكفار مستعدون استعدادًا جيدًا للحرب ؛ معهم السلاح والفرسان ، وهم يزيد عددهم على تسعمائة .. بينما المؤمنون يتجاوزون الثلاثمائة بقليل .

ولكن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يُعلمَ المؤمنين أن النصر ليس بالعدد ولا بالعُدة ، وإنما هو من عند اللّه سبحانه ، فأراد اللّه تعالى أن ينصر هذه القِلة من المؤمنين على كفار مكة بعددهم الضخم وعدتهم الكثيرة القوية وكل ما استعدوا به ، فكأن اللّه يريد أن يؤكد هنا حقًا يجب أن

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر رضي الله عنه .

يلتفت إليه المؤمنين جيدًا ، وهو أن النصر من عند الله .

والرسول ﷺ خرج فى قضية حق ، وطالبًا لحق ، ولكن فريقًا من المؤمنين الذين كانوا معه كرهوا أن تُنقل العملية من مجرد استيلاء على قافلة عوضًا عما أخذته قريشًا منهم إلى قتال لم يستعدوا له .

والفرقة هى : الجماعة ، والجيش عادة يتكون من عدة فرق ، والذين قال عنهم اللّه تعالى : إنهم كارهون . لم يخرجهم من صفة الإيمان .

فالحق تعالى يقول : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة : ٢١٦] ثم يفهمنا القضية فيقول : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ .

أى أن القتال ولو أنكم تكرهونه إلا أن فيه خير لكم ، فلو لم تقاتلوا لاستهان بكم الناس واستعبدوكم وأخذوا كل ما تملكون .

أيكون القتال فى هذه الحالة هو الخير ، أم عدم القتال والاستسلام للناس هو الخير ؟ بالطبع القتال هو الخير .

ولما خطب النبى ﷺ الناس ، وشاورهم ، وكأنه ﷺ يستطلع رأى الأنصار فقام سعد بن معاذ رضى اللّه تعالى عنه فقال : يا رسول الله ، إنك خرجت لأمر ، وأحدث اللّه غيره ، فانظر الذى أحدث اللّه إليك فامض له .

فنزل قول الحق تعالى : ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال : ٥] والبيت هنا مقصود به المدينة المنورة ؛ لأنها هى بيت رسول اللّه ﷺ والمؤمنين وذلك بعد أن هاجروا إليها واستقر بهم المقام فيها .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال : ٦] .

ومعنى قوله تعالى : ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ أى : يجادلونك فى القتال بدعوى أن القوتين غير متكافئتين .

وقوله تعالى : ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ ؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى قد وعد رسوله ﷺ إما القافلة وإما النصر فى المعركة .

وكان فريق من المؤمنين يريدون الغنيمةَ السهلة ، بأن يستولوا على القافلة ويأخذوا أموالها ، وبذلك يكونوا قد استردوا جزءًا من أموالهم التى استولت عليها قريش حينما هاجروا إلى المدينة فرارًا بدينهم ، ولكنهم لم يتنبهوا إلى أنه ما دام اللَّه قد اختار لهم القتال ، فهو أنفع لهم فى دينهم وأنفسِهم من القافلة وما فيها ؛ لأن الاستيلاء على القافلة لا يعطى لقضية الحق شيئًا اللهم إلا غنائم دنيوية ينتفع بها فريق من الناس لوقتٍ ثم تنتهى ، ولكن الانتصار فى المعركة يعطى المسلمين القوة والهيبة ، ويُعلى شأنهم فى الجزيرة كلها ، ويلقن كفار قريش درسًا بأن هؤلاء المسلمين الضعفاء قليلى العدد ، هم بدينهم وإيمانهم أقوى من الدنيا كلها ، ولذلك كان قَدَرُ اللَّه سبحانه وتعالى هو القتال وليست القافلة .

ولكن فريقًا من المؤمنبن لم ينتبه إلى قدر اللَّه فى اختياره ، وهم الذين وصف اللَّه تعالى حالهم فى قوله تعالى : ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ والسوق لا يكون من الأمام ، ولكن القيادة هى التى تكون من الأمام ؛ لتدل الناس على الطريق ، أما السوق فيكون من خلف تمامًا كما يسوق الراعى الغنم ؛ فهو يمشى خلفها ، حتى يتأكد أنه لا تشرد واحدة من الغنم ، ولا يكون السوق بغاية من يساق ، فلا يتبع الراعى الغنم حيثما تريد ، وإنما يتبعها إلى طريق مرسوم .

وقول اللَّه تعالى : ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ معناه : أنهم ليسوا ذاهبين باختيارهم ، وإنما مدفوعون دفعًا ، فكأن بشاعة صورة الموت فى لقائهم مع ما يقرب من ألف مقاتل من قريش مسلحين تسليحًا جيدًا وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أى : أن كل واحد منهم سيقاتل ثلاثة من الكفار مجهزين تجهيزًا كاملاً للقتال . هذه الصورة جعلتهم يعتقدون أنهم بلا شك فى هذا القتال سيقابلون الموت ولن ينجو منهم أحد .

ولذلك لم يكن ذهابهم للقتال ذهاب إنسان واثق من النصر ، ولكن ذهاب إنسان واثق من الموت ، ولم يتنبهوا إلى قدرةِ اللَّه سبحانه الذى يستطيع أن ينصرهم حتى ولو أنهم قلة فى العدد والعدة .

الحق سبحانه وتعالى حينئذ يُذكرهم بوعده لهم بالانتصار فيقول سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال : ٧] أى : أنه بالرغم من أن اللَّه وعدكم بالنصر ، إلا أنكم تريدون نصرًا مريحًا ليس فيه

شوكة ، والشوكة هي الشيء المدبب الطرف ينفذ بسهولة في غيره ؛ لأنها تكون سميكة من أحد طرفيها رفيعة من الطرف الآخر ؛ حتى تكون قاعدتها غليظة تستوعب قوة الضربة ، ومقدمتها دقيقة تنفذ في الجسد بسهولة ، وتكون حادة تمامًا مثل رأس الحربة .

الله سبحانه وتعالى وعدهم بالنصر ، وما دام الوعيد من الله ، فهو لابد واقع لا محالة ؛ لأن وعد إنسان لإنسان قد لا يتحقق ، فالإنسان يعيش عالم أغيار ، قد يموت قبل تنفيذ وعده ، وقد يضعف فلا يملك القدرة على التنفيذ ، وقد يأتي من هو أقوى منه ويمنعه ، وقد يغير الإنسان رأيه عندما يحين تنفيذ الوعد فيحنث بوعده .

ولكن إذا وعد الله سبحانه وتعالى فوعده الحق ، لأنه رب كل شيء ومَلِيكه القادر القاهر فوق عباده لا يُعجزه سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء .

إذن .. المؤمنون يريدون غير ذات الشوكة ، أي القافلة التي يستولون عليها بسهولة ، وبدون مشقة ، ولا تعرض في ذلك لقتل ؛ لأن حراس القافلة قليل ، قيل : إنهم أربعون فارسًا ، بينما المؤمنون ثلاثمائة ويزيد .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أمرًا آخر ، أراد سبحانه : ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وذلك بأن يعلم الجميع أن النصر من عند الله سبحانه ، وأن الله الذي اصطفى محمدًا وأرسله للناس ، لا يمكن أن يتخلى عنه حتى ولو كان في جيش ضعيف قوامه ما يزيد عن الثلاثمائة بقليلٍ في مقابل جيش قوي يقارب عدده الألف جندي .

وقوله تعالى : ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الدبر : هو الخلف ، ويقطع دابرهم ، أي : يجعلهم يشعرون بالهوان والذلة ؛ لأنك في أي قتال أو حرب لا تشعر بالأمان إلا إذا كان وراءك من يؤَمِّنونك ، فإذا ذهب هؤلاء وانكشف ظهرك عرفت أن الهزيمة بلا شك قادمة ، فترتبك وتفر من القتال .

والله يريد بهذا أن يُعْلمَ الكافرون أن ظهرهم مكشوف ، وأنهم لا يستندون إلى شيء ، وإنما ظهورهم مكشوفة ؛ كما أن الله سبحانه وتعالى يُرِي هؤلاء الكافرون أن كثرتهم وقوتهم مع اعتمادهم على الباطل لا يعطيهم نصرًا ، بل يستأصلهم من جذورهم ، فلا تقوم لهم قائمة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال : ٨] : لأن المجرمين يكرهون إحقاق الحق

وإظهاره ولا أن تكون له دولة ؛ لأنهم يريدون أن تدوم دولة الباطل ؛ لأنها هى سلطانهم وهى قوتهم ، فإن زالت زالوا .

الملائكة تشهد بدر

يقول اللَّه تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال : ٩] الاستغاثة هى : طلب الغوث ، ولا يُطلب الغوث إلا من قادرٍ عليه ، وأصلها : من الغيث وهو المطر . فعندما تجدب الأرض يتجه الناس إلى طلب الغوث ؛ لأنهم يحسون أن حياتهم مهددة ، فالماء هو أصل الحياة ، وطلبهم الغيث هو طلبٌ لإبقاء حياتهم .

والمؤمنون فى حرب ، وهى حرب قد يفنون فيها ؛ لأنهم يواجهون عدوًّا أقوى منهم فى العدد والعُدة ؛ لذلك هم يستغيثون بالله ، والذى استغاث هو رسول اللَّه ﷺ ؛ فقد رفع يديه إلى السماء وقال : « اللَّهُمَّ أنجز لى ما وعدتنى »[1] .

ولكن اللَّه يقول : ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ والمستغيث واحد هو رسول الله .

نقول : إن الناس غفلوا عن أن هناك داعيًا واحدًا ومعه مُؤمنون ، الداعى هو الذى يدعو ، والذين معه يقولون : آمين .

وهذا واضح فى قول الحق : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٨٨] مَن الذى دعا ؟ الذى دعا هو : موسى عليه السلام بنص القرآن .. ولكن لاحظ ماذا قال اللَّه سبحانه وتعالى بعد ذلك ، قال جل جلاله : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس : ٨٩] وهذا دليل على أن موسى دعا وهارون قال : آمين .

إذن .. فالمؤمِّن أحد الداعين .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال : ٩] أى أنه عندما حدثت الاستغاثة استجاب لها الله ، وأمر ملائكته بأن يقاتلوا مع المؤمنين .

ولكن مَنْ هم الملائكة ؟ إنهم عالم من خلق غيبى عنّا ، يجب علينا الإيمان بهم ، والذى

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) واللفظ له ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذي (٣٠٨١) .

أخبرنا بهم هو اللّه سبحانه وتعالى ، كما أخبرنا عن وجود الجن ونحن لا نراه .

الناس يقول : كيف يكون هناك موجود ولا يُرى ؟ وبعض الناس أنكروا وجود الجن والملائكة وقالوا : إن الملائكة هم الأسباب الميكانيكية فى الكون ! ! وهذا جهل منهم بدين اللّه تعالى ، وإنكار لمعلوم من الدين بالضرورة .

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن أمرٍ غيبيٍّ ، فمن رحمته بعباده أن يوجد فى كونه من المشهودات ما يُقرب هذا الغيب إلى عقولنا ، فيجعلنا نكتشف أشياء كانت غيبًا عنا ، لم تخلق وقت اكتشافها ؛ لنعرف أن هناك فرقًا بين وجود الشىء وإدراك وجوده .

فإذا تحدثنا عن الميكروبات مثلًا التى لم يتم اكتشافها إلا فى القرن السابع عشر ، هل خلقت الميكروبات فى هذا القرن ؟ أم كانت موجودة من قبل ؟ كانت موجودة ، وتخترق أجساد الناس وتدخل وتتكاثر وتسبب الأمراض ، كل هذا دون أن ندرى عن وجودها شيئًا ، فلما شاء اللّه سبحانه وتعالى لها الظهور دل على مَنْ اكتشفها ، فعرفناها بعد أن كنا لا ندرى عنها شيئًا .

إذن .. إذا جاء حديث من اللّه عن أن هناك خلق موجود وأنت لا تدركه ، فخذ مما أدركت وجوده ليلًا على تصديق أن هناك أشياء موجودة ، ولكنك لا تدرك وجودها .

غزوة أُحد

غزوة أُحد هى الغزوة الكبرى الثانية بعد غزوة بدر الكبرى ، وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلة فى العدد ، وفى العدة ، ومع أنهم لم يذهبوا إلى بدر ليشهدوا حربًا ، وإنما ليصادروا أموال قريش فى العير القادمة من الشام عوضًا عن بعض أموالهم التى أجبروا على تركها فى مكة .

وشاء اللّه تعالى ألا يواجهوا العير المحملة ، ولكن قدر لهم أن يواجهوا الفئة ذات الشوكة ، ونصرهم اللّه تعالى عليهم نصرًا مؤزرًا على ما فيهم من نقص فى العدد والعدة .

ولكن هذا النصر- نصر بدر- وإن يكن قد جعل للمسلمين مهابة فى قلوب خصومهم ، إلا أنه قد أجج نار الثأر والكره فى قلوب المشركين للنيل من المسلمين .

وروى أن أبا سفيان نذر ألا يمس النساء حتى يأخذ بثأر قتلى قريش فى بدر ؛ كما مُنعت

النساء أن يبكين على القتلى ؛ لأن البكاء يريح النفس المتعبة ، وهم يريدون أن يظل الحزن مكبوتًا فى نفوسهم ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء القتلى .

هذا من ناحية العاطفة التى يحبون أن تظل متأججه . أما من ناحية المال ؛ فقد احتفظوا بمال العير الذى نجا ؛ ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم ؛ فقد مشى عبد اللّٰه بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأرًا . ففعلوا . فاجتمعت قريش ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وخرجت بحدها وحديدها وجدّها وأحابيشها ومن تابعها وأطاعها لحرب النبى ﷺ والمؤمنين فى جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ومعهم مائتا فرس ، وخرجوا ومعهم النساء التماس الحفيظة ، ولئلا يفروا ، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة .

تمحيص المؤمنين

حينما خرج المؤمنون لقتال كفار قريش تخلف المنافقون عن القتال بقيادة عبد اللّٰه بن أبى ابن سلول زعمًا منه أن رسول اللّٰه ﷺ خالف أمره وخرج لملاقاة المشركين خارج المدينة ؛ وكانوا ثلث الجيش .

وفى هذا تمحيص للمؤمنين ، والتمحيص يأتى فى الشىء الواحد ، والفرق بين التمييز والتمحيص هو : أن التمييز يأتى فى شيئين ، كالتمييز بين الإيمان والكفر ، أما التمحيص فيأتى للمؤمن ويعركه عركًا يبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات واليقين .

إن التمحيص يكون للفئة الواحدة ، وكأن اللّٰه يمحص تلك الفئة المؤمنة ؛ لأنها ستكون مأمونة على حماية هذه العقيدة إلى أن تقوم الساعة . فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أُناس لهم قلوب ثابتة ورباطة جأش وهمه دونها زخارف الدنيا كلها .. هذا هو التمحيص .

وبعد ذلك يعالج الحق النفس البشرية على أوضاعها البشرية ، فليس لمجرد أنهم آمنوا قد انصبت فيهم كل عقائد الإيمان ؛ بل كل مناسبة تمر عليهم يعطى الحق فيها لفتة من العقيدة ، ليتكون من بعد ذلك الأمر العقدى كله .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٢] إن الطائفتين هما : بنو سلمة ، وبنو حارثة ، قيل : إنهما اختلفا فى الخروج فى الغد والمقام حتى همّا بالفشل ، والفشل الجبن .

وقيل : إن عبد الله بن أُبى ابن سلول حين انخزل ومن معه من قومه أهل الريب والنفاق حاول أن يغرى بنى سلمة وبنى حارثة بالرجوع معه وعدم لقاء المشركين ، فهمّا به ، ولم يفعلا ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ، أى : عاصمهما ، أو : أن الله ناصرهما .

مشاروة النبى ﷺ لأصحابه

قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

إن قول الحق : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أى : بأى رحمة أودعت فيك ، وساعة تقول : بأى رحمة . فأنت تبهم الأمر ، وعندها تُبهم الشىء فكأنه شىء عظيم ؛ لأن الشىء يُبهم إما لأنه صغير جدًّا ، وإما لأنه كبير جدًّا . **إن هذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت فى غزوة أحد منها :**

الحدث الأول : لما سمع الرسول ﷺ والمسلمون بقدوم قريش ومن معها ونزولهم بعينين على شَفِير الوادى مقابل المدينة شاور النبى ﷺ أصحابه ، فقال رجل من الأنصار متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شِعْبِنا ؟

وقال رجال : ماذا نمنع إذا لم نمنعْ الحرب بَروعٍ .

وقال رجال قولا صدقوا به ومضوا عليه منهم حمزةً بن عبد المطلب عم النبى ﷺ قال : والذى أنزل عليك الكتاب بالحق لنُجالدنهم .

وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ، لم يتناهوا إلى قول الرسول ﷺ ورأيه ، فلما صلى الرسول ﷺ الجمعة وعظ الناس وذكرهم وأمرهم بالجد والجهاد فى التأهب للقتال وإعداد الجيش ، دعا بلأمته فلبسها ثم أذَّن فى الناس بالخروج ، فلما رأى رجال من ذوى الرأى أنهم أشاروا على رسول الله ﷺ بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول

الله ، إن رأيت ألا تخرج ، فلا تخرج .

فقال ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . أي ما دام قد لبس أداته فلا ينبغي له أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه .

الحدث الثاني : ثم بعد ذلك انخزل عبد الله بن أُبي ابن سلول رأس المنافقين ومعه ثلاثمائة من قومه أهل النفاق والريب وقال : أطاعهم وعصاني ما ندرى علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ، وكان رأيه ألا يخرج من المدينة .

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى وفى الجبل وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال : لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال وتعبأ الرسول ﷺ للقتال وظاهر بين درعين - يعنى لبس درعًا فوق درع - وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير ، وقال له : انضح الخيل عنا بأن لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك وكان عددهم خمسون رجلاً ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير .

وذلك قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٢١] .

قوله : « تبوئ » أى : توطن . ومعنى « توطن تعينٌ لهم مكانا يلتزمون به » .

وكذلك كلمة : « مقاعد » فكأن الحق سبحانه وتعالى أعطى الإشارة فى الآيات لأن يكون المؤمنون عندما يوطنهم القائد فى أماكنهم عليهم ألا يتزحزحوا عنها .

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مئتا فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية ، وعلى الرماة وكانوا مائة عبد الله بن أبى ربيعة ، وكان لواؤهم مع عثمان بن طلحة .

ولما وصل النبى ﷺ أحد صف المسلمين بأصل أحد . أى سفحه . وصلى بهم الصبح صفوفًا عليهم سلاحهم وأعطى النبى ﷺ سيفه إلى أبى دجانه .. وصف المشركين بالسبخة .

فلما التقى الناس كان أول من أنشب الحرب أبو عامر الفاسق - وكان يسمى فى الجاهلية الراهب ، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق - فنادى يا معشر الأوس : أنا أبو عامر . قالوا : فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعدى شرًا ثم قاتلهم

قتالاً شديدًا ، ثم ترامو بالحجارة ، حتى ولى أبو عامر وأصحابه ، فأقبل الناس حتى حميت الحرب ، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن فى الناس ، وقاتل حمزة عم الرسول ﷺ فأثخن خصوصًا فى الرؤساء حتى قتل أرطأه بن شرحبيل وكان أحد حملة لواء المشركين من بنى عبد الدار ، والتقى حنظلة وأبو سفيان فعلاه حنظلة ، فضربه شداد بن أوس فقتله .

ولما قتل مصعب بن عمير رضى اللَّه تعالى عنه أعطى النبى ﷺ اللواء عليًا ، وهنا نادى طلحة بن أبى طلحة وكانوا يعدونه فى المعارك بألف ، من يبارز ، محرارًا فلم يجبه أحد من المسلمين ، فقال : يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم فى الجنة وأن قتلانا فى النار ، كذبتم واللات والعزى لو تعلمون ذلك حقًّا لخرج إلىّ بعضكم ، فخرج إليه علىّ رضى اللَّه تعالى عنه فقتله . ثم حمل لواءهم مانع بن طلحة فرماه عاصم فقتله ، ثم حمله الحارث بن طلحة فقتله عاصم ، ثم حمله كلابُ بن طلحة فقتله الزبير ، ثم حمله الجلاس بن طلحة فقتله طلحة بن عبيد اللَّه ثم حمله شريح بن قارظ فلا يدرى قاتله ، ثم حمله صواب غلامهم فقتله قزمان ، ثم أنزل اللَّه تعالى نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسوا الكفار ، أى : استأصلوهم قتلاً بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، فولى المشركون فارين هاربين ، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم ، ووقعوا ينتهبون العسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم وانشغلوا بها عن الحرب فلما رأى الرماة ذلك قالوا : الغنيمة الغنيمة ، لقد ظهر أصحابكم فما تنتظرون .

فقال لهم أميرهم عبد اللَّه بن جبير رضى اللَّه تعالى عنه : أنسيتم قول النبى ﷺ لكم : ألا تبرحوا . فأبوا ، وقالوا : والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فانطلقوا يتبعون العسكر وينتهبون معهم عندئذ نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكَرَّ بالخيل وتبعه عكرمة ابن أبى جهل فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد اللَّه بن جبير وتصور إبليس لعنة اللَّه تعالى عليه فى صورة رجل من الصحابة يقال له : جعال ، فصرخ ثلاث صرخات أن محمدًا قد قتل ، ثم قال عدو اللَّه عليه لعنة اللَّه تعالى : أى عباد اللَّه أُخراكم ؛ أى : اخترزوا من الذين فى أُخراكم ، يريد عدو اللَّه أن يغلطهم فيقتلوا بعضهم بعضا ، فعطفوا يقتتلون وهم لا يشعرون من الدهش وانكشف المسلمون وأصاب منهم العدو حتى خلص إلى رسول اللَّه ﷺ فكسرت رباعيته وشج وجهه وكُلِمت شفته ، فجعل ﷺ يمسح الدم ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نَبِيّهم ، وهو يدعوهم إلى الله .

وقاتلت دونه أم عمارة نسيبة بنت كعب رضى اللّه تعالى عنها ، وقتلت فارسًا من المشركين وقال عنها النبى ﷺ : « ما التفت يوم أُحد يمينًا ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دونى . . . وتترس دونه ﷺ أبو دجانه رضى اللّه تعالى عنه بنفسه يقع النبل فى ظهره وهو لا يتحرك ، ورمى سعد بن أبى وقاص رضى اللّه تعالى عنه دونه رسول اللّه ﷺ بألف سهم بعضها من سهام النبى ﷺ حين فرغت سهامه ، فكان النبى ﷺ يناوله النبل ويقول : ارم فداك أبى وأمى ، فكان ذلك هو :

الحدث الثالث : الذى فيه خالف الرماةُ أمرَ الرسول ﷺ وتركوا مواقعهم رغم أنه ﷺ حذرهم من ذلك وقال : « لا تبرحوا مكانكم ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » [أو كما قال] . ولكنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ .

الحدث الرابع : هى فرارهم حينما قيل : قُتل رسول اللّه ﷺ .

الحدث الخامس : أنه حين كان يدعوهم ، فروا لا يلوون على شيء .

كل هذه الأحداث كادت تترك فى نفسه ﷺ آثارًا ؛ ولذلك يقول اللّه تعالى له : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وكأن اللّه تعالى يقول لرسوله ﷺ : ما دامت الرحمة موهوبة من اللّه فلابد أن يجعل اللّه فيها طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك ومن أتباعك ، ولسائل أن يقول : ولماذا المخالفة ؟ نقول : إن الدين الجديد يخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية . والذى يخرج واحدا عما ألف لا يصح أن يجمع عليه الخشن الفظ .

ولذلك يقولون للذى ينصح إنسانًا : إن النصح ثقيل ؛ لأن النصح معناه تجريم الفعل فى المنصوح . فتقول للمنصوح وأنت فى موقف الناصح : « لا تفعل هذا الأمر » . وهذا معناه أن ذلك الفعل ردىء . وما دمت وأنت ناصح لآخر تجرم له فعلاً ، فلا تجمع عليه أمرين :

الأمر الأول : أنك تقبح فعله .

الأمر الثانى : أن تخرجه مما ألف بأسلوب يكرهه ؛ لأنه فى حاجة إلى المودة والتعاطف .

ونحن نستعمل هذا الأسلوب فى حياتنا ، إذ تقوم شركات الأدوية بتغليف الدواء المر بغلاف حلو الطعم ، بحيث يمر من الفم بلا ألم ، لأن الإحساس كله فى الفم بالنسبة للمواد المتناولة من خلاله ؛ لذلك نطلى الدواء بطبقة ناعمة الملمس وحلوة الطعم غالبا ، حتى تمر من

منطقة الفم والبلعوم التى فيها الإحساس بالتذوق إلى المعدة بحيث لا يشعر المريض بمرارة الدواء. فإذا كنا نفعل ذلك فى الأمور المادية، فمن باب أولى أن نفعل ذلك فى الأمور المعنوية... لماذا؟ لأن النصح ثقيل، فلا تجعله جدلاً، ولا ترسله جبلاً. إن الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان، إن خفة البيان هى التى تؤدى الغرض بدون استثارة وبدون إثارة وبلفظ يحمل على التقبل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾. «الفظُّ» هو: ماء الكَرِش، فالإبل عندما تجد الماء تخزنه فى كرِشها، إلى حين تحتاج إليه فتسترجعه مرة أخرى.

ومياه الكرِش هذه غير جيدة الطعم وآسنة قليلاً، وشُرب مثل هذا اللون من الماء يولد غضاضة فى النفس. لذلك سموا هذا الماء بالفظ. وأطلق العرب كلمة «فظاظة» على خشونة القول. وغلظ القلب هو الذى تنشأ منه خشونة الألفاظ.

وقوله سبحانه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ العفو هو: محو الذنب محوًا تامًّا، كما تمحو الريح آثار الأقدام من على الرمال.

والعفو يختلف عن كظم الغيظ، فكظم الغيظ يعنى: أن أثر الغضب موجود فى النفس. ولكن الإنسان يكتم هذا الغيظ، بمعنى أن الإنسان يكف جوارحه عن إظهار الانفعال. لكن العفو يعنى أن ينزع الإنسان أثر الألم والغيظ من أعماق نفسه.

وقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾: يعنى: إن كانوا قد أذنبوا، فعليك أن تعفو عنهم وتستغفر لهم، وقول الحق: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ هذا العفو مسألة خاصة برسول الله ﷺ، أما قول الحق: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فالاستغفار من الرسول ﷺ لله جل وعلا، وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ: إياك أن تكره التشاور بسبب ما أشاروا به، وترتب عليه ما ترتب فى أُحد. لقد أردت أن تبقى فى المدينة. لكنك شاورتهم فى الأمر، فأشاروا بالخروج للقاء كفار قريش. وما حدث يوم أُحد لا يجب أن يقفل باب المشاورة.

لقد كانت معركة أُحد معركة تهذيب وتأديب وتمحيص؛ لذلك فلا يجب أن يترتب عليها أن تلغى المشورة؛ وهذا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما ولى الخلافة وجاءت حروب الرِّدة شاور جماعة المسلمين، وعندما أشاروا بعدم قتال من ارتدُّوا عن الإسلام لم يأخذ مشورتهم.

والمشورة هي تلقيح الرأى بآراء متعددة الغرض منها إفادة المستشير والاستعانة بأهل الحلّ والعقد ، فإذا ما شرح الله صدره لرأى عزم عليه وتوكل على الله .

ويقول الشاعر :

شاور سواك إذا نابتك نائبة   يومًا وإن كنت من أهل المشورات

لقد اهتدى الشاعر إلى كيفية تقريب المعنى لنا ، فما دام الإنسان من أهل المشورة والناس تأخذ رأيه ، فلماذا لا يشاور غيره ؟

ويكمل الشاعر النصيحة :

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى   ولا ترى نفسها إلا بمرآة

إن العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد . لكن هذه العين تعجز عن رؤية نفسها إلا فى المرآة . هكذا ينصح الشاعر صاحب الرأى السديد .

إن رأيه فى أمور الغير قد يكون صحيحًا ومصيبًا ومقيدًا ؛ لأن عقل صاحب المشورة قد يكون مستوفيًا القدر الكامل من الاستيعاب ، وقد يكون هذا العقل لا هوى له فيما يقوله من رأى ، وأن الحق فقط هو الذى يجذبه ، أما فى المسائل الخاصة بالإنسان نفسه . فقد يدخل فيها الهوى ويلوى المشورة وقد يطغى الهوى فيفسد الرأى الصالح .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقد عزم رسول الله ﷺ ولبس أداته ليحارب . ولم يكن من المقبول أن يأخذ الرسول ﷺ بالعزم ، ثم يتراجع عنه ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وهذه هى فائدة الإيمان . إن فائدة الإيمان هى هذه المعادلة ، إن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، فالجوارح عليها أن تأخذ بأسباب الله ؛ فالفلاح إن أراد الزراعة ، لابد أن يختار أجود البذور وأحسن السماد ، وأن يقوم بحرث الأرض حراثة جيدة وأن ينتظم فى مواعيد الرى ، وأن يحافظ على الزرع ويعتنى به وهذا كله من عمل الجوارح ، وفى ذلك كله تكون القلوب متوكلة على الله فى إخراج المحصول وفق ما يشاء الله سبحانه ويقدر ؛ لذلك لا يجوز أبدًا أن يقول الفلاح المؤمن : المحصول آت ، آت ؛ لأنى أحسنت أسبابى .. لماذا ؟ لأن المؤمن يتذكر دائمًا الحقيقة الكاملة ، وهى أن فوق الأسباب مسببها وخالقها وهو الله العلى القدير .

صدق الله تعالى وعده

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

قول الحق سبحانه : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ كأنه قد حدث وعد ، والواقع جاء على وفق الوعد . فقال الحق سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧] .

وقال سبحانه : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات : ١٧٣] وبعد ذلك فى التطبيق العملى ، فإننا نجد أن الوعد قد تحقق ، لكن متى يتحقق وعد الله تعالى ؟

الله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ : ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ أى تُذهبون حِسَّهم بالقتل . وأصله من الحِسّ الذى هو الإدراك بالحاسة . ومعنى : أذهبت حسه ، أى : أفقدته الحس ، أو « الحس » هو الصوت الذى يخرج من الإنسان ، وما دام قد فقد الحس فإنه مات .

إن الحق يوضح للمؤمنين : أنكم حين صدقتم لقاءكم بعدوكم على منهج الله .. صدق الله وعده ، وهذا فى أُحد عندما انتصر المسلمون فى أول الأمر .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [آل عمران : ١٥٢] لقد بدأ الوهن فى أُحد من لحظة عصيان أمر الرسول ﷺ وترك الرماة للمواقع التى حددها لهم النبى ﷺ رغبة فى الغنائم ، خاصة وأن الجولة الأولى كانت للمسلمين وبدت فى الأفق تباشير الفوز والنصر .

إذن .. الله تعالى يعطينا العِظة والعبرة من معركتين ، معركة بدر وهى التى صدق الله وعده فيها وانتصر المؤمنون لما التزموا منهج الله ، وأيضًا صدق الله وعده فى أُحد ، فحينما تَخَلّى الرماة عن مواقعهم وخالفوا أمر الرسول ﷺ حدث للمؤمنين ما حدث .

إذن .. فالأمور بالتجربة الواقعية لا بالكلام النظرى ، إن اللَّه تعالى صدق وعده ، فحينما دخل المؤمنون القتال والتزموا بتوجيهات رسول اللَّه ﷺ أول الأمر انتصروا ، وقُتل ابن أبى طلحة الذى كان يحمل راية الكفار ومعه بضعة وعشرون كافرًا فى أول المعركة .

وعندما يُقتل حامل الراية ، فمعنى ذلك أن الراية انكسرت .

إذن .. ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ ولم تحدث الهزيمة إلا حينما خالفتم أمر الرسول يقول رب العزة سبحانه : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ .

إذن .. كان الفشل حين حدث التنازع والعصيان والطمع فى الغنائم ، فلو لم يحدث ما حدث ؛ لتشكك المؤمنين فى هذا الدين وصدقه ؛ وليعلموا أنهم عندما يتخلون عن أمر رسول اللَّه ﷺ ، فلابد أن يكون المآل هو الفشل والهزيمة .

وقوله تعالى : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ صار المعسكر الواحد فريقين فمن أراد الغنائم ، أراد الدنيا . ومن ثبت على أمر الرسول ﷺ أراد الآخرة .

قال عبد اللَّه بن مسعود رضى اللَّه تعالى عنه : ما كنت أرى أن أحدًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يريد الدنيا حتى نزلت فينا يوم أُحد : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[1] .

وذلك لا يقدح فيهم رضى اللَّه تعالى عنهم فالرماة ظنوا أن المعركة قد حسمت بعد أن رأو سقوط راية الشرك وقتل حاملها ومعه نفر من زعماء قريش وأشرافها الأمر الذى دفعهم للتخلى عن أماكنهم ؛ لم يتخلوا جُبنا ولا فِرارًا من لقاء العدو ، لذلك عفا اللَّه تعالى عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ؛ ليختبركم ويمتحنكم .

إذن .. الأمر كان ابتلاءً واختبارًا للجماعة المؤمنة بأن يلتزموا أمر اللَّه ورسوله دائمًا وألا تنصرف همتهم أبدًا إلى الدنيا وزخرفها ، وقد وعى المؤمنون الدرس جيدًا ، فبعد أحد لم تحدث

(١) رواه أحمد (١/٤٦٣) ، وصححه الشيخ شاكر (٤٤١٤) ، والطبراني في الأوسط (١٣٩٩) ، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٣٠، ٣٣١) ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط .

لهم هزيمة أبدًا طيلة عهد رسول اللّٰه ﷺ معهم .

ولذلك يقال : إن الدرس الذى يُعلم النصر لا يعتبر هزيمة فى الغالب . ومثال ذلك – فى حياتنا العادية – نجد أن ابنًا قد رسب سنة دراسية ورأى ذلة الرسوب وشماتة الناس فيه ، ورأى نظرة عدم التقدير من أسرته ومدرسيه وأهل الحى الذى يسكن فيه ؛ هنا يلتفت الطالب لنفسه ويبذل الجهد حتى يعوض ما فات ، إن درس الرسوب الأول هو خير للطالب فى مثل هذه الحالة .

وقوله تعالى : ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] وكلمة : « أذ » توحى باستحضار ما حدث ، وقوله : ﴿ تُصْعِدُونَ ﴾ أى فى الجبل هاربين من أعدائكم والمعنى : ساعة نزل الرماة من على الجبل مخالفين بذلك أمر رسول اللّٰه ﷺ ، ولاحظ خالد بن الوليد – وكان يومها فى صفوف المشركين – ذلك فالتف حول الجيش المؤمن وعلا الجبل فحدث هرج ومرج وتمكن الخوف والرعب من المؤمنين نتيجة لهذا التحول الخطير فى المعركة فكانوا لا يلتفتون إلى أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ . أى إلى ترك الفرار والعودة ، والرجعة ، والكرة على عدوهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ .

الغم الأول : ما أصاب المسلمين من الهزيمة ، وما أصابهم من القتل والجرح بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر والظفر بالغنيمة .

والغم الثانى : حين قيل أن النبى ﷺ قد قتل .

كأن الغم الذى حدث أراد به اللّٰه تعالى أن يخرج من القلب ما دخله من الحرص على الغنيمة ، قال تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ إن الحق سبحانه يقدر برحمته وفضله ما الذى استولى على مشاعر هؤلاء المؤمنين . فمن الجائز أنهم من هول المعركة لم يسمعوا نداء رسول اللّٰه ﷺ لهم ؛ لذلك فالله خبير بكل فعل وإحساس .

سيد الشهداء . . حمزة عم النبى ﷺ

الشهيد هو من قتل فى سبيل الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] فإذا كان هذا الذى قتل شهيدٌ حيٌّ ، فإن الاعتداء عليه بعد استشهاده هو اعتداء على حى ، فكل الذين استشهدوا يوم أُحد ومُثِّل بهم هم الذروة من الشهداء ، ويأتى فى طليعتهم رضى الله تعالى عنهم أسد الله تعالى ، وأسد رسوله ﷺ : حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ ، فحينما قتله وَحْشِى ، ونقل الخبر لهند زوجة أبى سفيان جاءته وبقرت بطنه وأكلت من كبده وجدعت أنفه وأُذنيه ، فكانت كل مضغة ، وكل جدعة هى بمثابة قتلة جديدة له ، لذا قال الشاعر :

أحمزة عم المصطفى أنت سيد ... على شهداء الأرض طرّة
وحسبك من تلك الشهادة عصمة ... من الموت فى وصل الحياتين بالأخرى

حزن الرسول ﷺ على حمزة

[خرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده ومُثل به ؛ فجدع أنفه وأذناه ، فقال رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى : « لولا أن تحزن صفية ويكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم » .

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل ، قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ، فأنزل الله تعالى ، فيما قاله من ذلك رسوله صلوات الله عليه وسلم : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل : ١٢٦، ١٢٧] ، فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة .

ويقال : إن رسول الله ﷺ لما وقف على حمزة قال : « لن أُصاب بمثلك أبدًا ! ما وقفت موقفًا قط أغيظ لى من هذا » . ثم قال : « جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهل

السماوات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسد اللّٰه وأسد رسوله » .

ثم أمر به رسول اللّٰه ﷺ فسُجِّى ببرده ، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ، ثم أُتى بالقتلى ، يوضعون إلى حمزة وصلى عليهم وعليه معهم ، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة ، وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه ، وكان أخوها لأبيها وأمها ، فقال رسول اللّٰه ﷺ لابنها الزبير بن العوام : « القها فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها » . فقال لها : « يا أَمة : إن رسول اللّٰه ﷺ يأمرك أن ترجعى » . قالت : ولِمَ ؟ وقد بلغنى أنه مُثل بأخى - وذلك فى اللّٰه - فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ، فلما أخبر الزبير بذلك رسول اللّٰه ﷺ قال له : خل سبيلها ، فأتته فنظرت إليه فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له ، ثم أمر به رسول اللّٰه ﷺ فدُفن .

وزعم آل عبد اللّٰه بن جحش أن رسول اللّٰه ﷺ دفن عبد اللّٰه بن جحش مع حمزة فى قبره ، وهو ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب ، وكان قد مُثِّل به كما مُثِّل بخاله حمزة ، إلا أنه لم يبقر عن كبده وجدع أنفه وأذنيه ، فلذلك يقال له : المجدع فى الله ، وكان أول النهار قد لقى سعد بن أبى وقاص فقال له عبد الله : هلم يا سعد فلندع اللّٰه وليذكر كل واحد منا حاجته فى دعائه وليؤمن الآخر ، فقال سعد : يا رب إذا لقيت العدو فلقنى رجلًا شديد بأسه شديدًا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ثم ارزقنى الظفر عليه حتى أقتله وأسلبه سلبه ، فأمن عبد اللّٰه بن جحش ثم قال : اللهم ارزقنى رجلًا شديدًا بأسه شديدًا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ثم يجدع أنفى وأذنى ، فإذا لقيتك غدًا قلت لى : يا عبد الله ، فيم جدع أنفك وأذناك ؟ فأقول : فيك يا رب وفى رسولك . فتقول لى : صدقت ، فأمن سعد على دعوته .

قال سعد : كانت دعوة عبد اللّٰه خيرًا من دعوتى ، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنيه وأنفه معلقتان فى خيط ، ولقيت أنا فلانًا من المشركين فقتلته وأخذت سلبه .

وذكر الزبير أن سيف عبد اللّٰه بن جحش انقطع يوم أُحد فأعطاه رسول اللّٰه ﷺ عرجونًا فعاد فى يده سيفًا قائمًا منه ، فقاتل به فكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل هذا يتوارث حتى بيع مَن بغا التركى بمائتى دينار][1] .

(١) ما بين المعكوفين من الاكتفاء في مغازي الرسول ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/١٠٨ - ١١٠) .

(فتح مكة) غزوةُ الفتحِ الأعْظمِ

[وكانت فى رمضانَ سنةَ ثمانٍ من الهجرة ، وقد ذكَرها اللَّهُ تعالى فى القرآنِ فى غيرِ موضعٍ ، فقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ الآيةَ [الحديد : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر : ١ - ٣] .

وكان سببَ الفتحِ بعدَ هُدْنةِ الحديبيةِ : كان فى صلحِ الحديبيةِ أنه مَن شاء أن يَدْخُلَ فى عقدِ محمدٍ وعهدِه دخَل ، ومَن شاء أن يَدْخُلَ فى عقدِ قريشٍ وعهدِهم دخَل ، فتَواثَبت خُزاعةُ وقالوا : نحن ندْخُلُ فى عقدِ محمدٍ وعهدِه . وتَواثَبت بنو بكرٍ وقالوا : نحن ندْخُلُ فى عقدِ قريشٍ وعهدِهم . فمكَثوا فى تلك الهُدْنةِ نحوَ السبعةَ أو الثمانيةَ عشَرَ شهرًا ، ثم إن بنى بكرٍ وثَبوا على خُزاعةَ ليلًا ، بماءٍ يقالُ له : الوَتِيرُ . وهو قريبٌ مِن مكةَ ، وقالت قريشٌ : ما يَعْلَمُ بنا محمدٌ ، وهذا الليلُ وما يَرانا أحدٌ . فأعانوهم عليهم بالكُراعِ والسلاحِ ، وقاتَلوهم معهم ؛ للضِّغْنِ على رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وإنَّ عمرَو بنَ سالمٍ رَكِب عندَما كان مِن أمرِ خُزاعةَ وبنى بكرٍ بالوَتِيرِ ، حتى قدِم على رسولِ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُه الخبرَ ، وقد قال أبياتَ شعرٍ ، فلما قدِم على رسولِ اللَّهِ ﷺ أنشَدَه إياها :

لاهُمَّ إنى ناشِدٌ محمدَا ... حِلْفَ أبيهِ وأبينا الأَتْلَدَا
قد كنتُمُ وُلْدًا وكنا والِدَا ... ثُمَّتَ أسلَمْنا فلم نَنْزِعْ يدَا
فانصُرْ رسولَ اللَّهِ نصْرًا أعْتَدَا ... وادْعُ عبادَ اللَّهِ يأتوا مَدَدَا
فيهم رسولُ اللَّهِ قد تجَرَّدا ... إنْ سِيمَ خَسْفًا وجهُه تربَّدَا
فى فَيْلَقٍ كالبحرِ يجرى مُزْبِدَا ... إنَّ قريشًا أخلَفوك المَوْعِدَا
ونقَضوا ميثاقَك المُؤَكَّدا ... وجعَلوا لى فى كَداءٍ رُصَّدَا
وزعَموا أن لستُ أدْعو أحدَا ... فهم أذَلُّ وأقَلُّ عدَدَا
هم بَيَّتونا بالوَتِيرِ هُجَّدا ... وقَتَّلونا رُكَّعًا وسُجَّدَا

فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « نُصِرتَ يا عمرَو بنَ سالمٍ » . فما بَرِح رسولُ اللَّهِ ﷺ حتى مرَّت

بنا عَنانةٌ في السماءِ ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ هذه السحابةَ لَتَستهِلُّ بنصرِ بنى كعبٍ » . وأمَر رسولُ اللَّهِ ﷺ الناسَ بالجَهازِ ، وكتَمَهم مَخْرَجَه ، وسأَل اللَّهَ أن يُعَمِّىَ على قريشٍ خبرَه ، حتى يَبْغَتَهم فى بلادِهم .

قال ابنُ إسحاقَ : وكان السببَ الذى هاجَهم ، أنَّ رجلًا مِن بنى الحَضْرَمِىِّ ، اسمُه مالكُ ابنُ عبَّادٍ ، مِن حُلفاءِ الأسودِ بنِ رَزْنٍ خرَج تاجرًا ، فلمَّا توسَّط أرضَ خُزاعةَ ، عدَوْا عليه ، فقتَلُوه وأخَذُوا مالَه ، فعَدَتْ بنو بكرٍ على رجلٍ مِن بَنى خُزاعةَ فقتَلُوه ، فعَدَت خُزاعةُ قُبَيلَ الإسلامِ على بنى الأسودِ بنِ رَزْنٍ الدُّئِلِىِّ - وهم مَنْخَرُ بَنى كِنانةَ وأشرافُهم ؛ سَلْمَى وكُلْثومٌ وذُؤَيْبٌ - فقتَلُوهم بعَرَفَةَ عندَ أَنْصابِ الحَرَمِ . قال ابنُ إسحاقَ : وحدَّثنى رجلٌ مِن الدُّئِلِ قال : كان بَنو الأسودِ بنِ رَزْنٍ يُودَوْن فى الجاهليةِ دِيَتَيْن دِيَتَيْن .

قال ابنُ إسحاقَ : فبينا بنو بكرٍ وخُزاعةُ على ذلك ، إذْ حجَز بينَهم الإسلامُ ، فلمَّا كان يومُ الحديبيةِ ، ودخَل بنو بكرٍ فى عقدِ قريشٍ ، ودخَلتْ خُزاعةُ فى عقدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وكانت الهُدنةُ ، اغتَنَمها بنو الدُّئِلِ مِن بَنى بكرٍ ، وأرادُوا أن يُصِيبُوا مِن خُزاعةَ ثأْرًا بأولئك النفرِ ، فخرَج نَوْفَلُ بنُ مُعاويةَ الدُّئِلِىُّ فى قومِه ، وهو يومَئذٍ سيدُهم وقائدُهم ، وليس كلُّ بنى بكرٍ تابَعَه ، فبَيَّتَ خُزاعةَ وهم على الوَتِيرِ - ماءٍ لهم - فأصابوا رجلًا منهم ، وتَحاوَزوا واقْتَتلوا ، ورفَدتْ قريشٌ بنى بكرٍ بالسلاحِ ، وقاتَل معهم مِن قريشٍ مَن قاتَل بالليلِ مستخفيًا ، حتى حازُوا خُزاعةَ إلى الحرمِ ، فلمَّا انتهَوْا إليه ، قالت بنو بكرٍ : يا نَوْفَلُ ، إنَّا قد دخَلْنا الحرمَ ! إلهَكَ إلهَكَ . فقال كلمةً عظيمةً : لا إلهَ اليومَ ، يَا بَنى بكرٍ أَصِيبوا ثأْرَكم ، فلَعَمْرِى إنَّكم لَتَسْرِقون فى الحرمِ ، أفلا تُصِيبون ثأْرَكم فيه ؟! ولجأَتْ خُزاعةُ إلى دارِ بُدَيْلِ بنِ وَرْقاءَ بمكةَ ، وإلى دارِ مَوْلًى لهم يقالُ له : رافعٌ .

وقد قال الأخْزَرُ بنُ لُعْطٍ الدُّئِلِىُّ فى ذلك :

أَلَا هل أَتَى قُصْوَى الأَحابيشِ أَنَّنا ... رَدَدْنا بنى كعبٍ بأفوقَ ناصِلِ
حبَسْناهمُ فى دارةِ العبدِ رافعٍ ... وعندَ بُدَيْلٍ مَحْبِسًا غيرَ طائِلِ
بدارِ الذَّليلِ الآخذِ الضَّيْمَ بعدَما ... شفَيْنا النُّفوسَ مِنهم بالمَناصِلِ
حبَسْناهمُ حتى إذا طالَ يومُهم ... نفَحْنا لهم مِن كلِّ شِعْبٍ بوابِلِ

نُذَبِّحُهم ذَبْحَ التُّيُوسِ كأنَّنا ... أُسُودٌ تَبارَى فيهمُ بالقَواصِلِ
همُ ظلَمونا واعتدَوْا فى مَسيرِهم ... وكانوا لَدَى الأنْصابِ أوَّلَ قاتلِ
كأنَّهمُ بالجِزْعِ إذ يَطرُدُونهم ... قَفَا ثَوْرَ حَفَّانُ النَّعامِ الجَوافلِ

قال : فأجابه بُدَيْلُ بنُ عبدِ مَناةَ بنِ سَلَمةَ بنِ عمرِو بنِ الأَجَبِّ ، وكان يقالُ له : بُديلُ بنُ أمِّ أصْرَمَ ، فقال :

تَعاقَد قومٌ يَفْخَرون ولم نَدَعْ ... لهم سيِّدًا يَنْدُوهمُ غيرَ نافلِ
أمِنْ خِيفَةِ القومِ الأُلَى تَزدَرِيهِمُ ... تُجِيزُ الوَتِيرَ خائِفًا غيرَ آيلِ
وفى كلِّ يومٍ نحن نَحْبُو حِباءَنا ... لِعَقْلٍ ولا يُحْبَى لنا فى المَعاقلِ
ونحن صبَحْنا بالتَّلاعةِ دارَكم ... بأسيافِنا يَسْبِقْنَ لَوْمَ العَواذلِ
ونحن منَعْنا بينَ بَيْضٍ وعَتْوَدٍ ... إلى خَيْفِ رَضْوَى مِن مَجَرِّ القَنابلِ
ويومَ الغَمِيمِ قد تكَفَّتَ ساعيًا ... عُبَيْسٌ فَجَعْناه بجَلْدٍ حُلاحِلِ
أأَنْ أجْمَرَتْ فى بيتِها أُمُّ بعضِكم ... بجُعْمُوسِها تَنْزُون إن لم نُقاتِلِ
كذَبْتُم وبيتِ اللَّهِ ما إنْ قتَلْتُمُ ... ولكنْ ترَكْنا أمرَكم فى بَلابِلِ

قال ابنُ إسحاقَ : فحدَّثنى عبدُ اللَّهِ بنُ أبى سَلَمةَ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « كأنكم بأبى سفيانَ قد جاءَكم يَشُدُّ فى العَقدِ ويَزيدُ فى المدةِ » .

قال ابنُ إسحاقَ : ثم خرَج بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ فى نفرٍ مِن خُزاعةَ ، حتى قدِموا على رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فأخبَروه بما أُصِيب منهم ، ومُظاهرةِ قريشٍ بنى بكرٍ عليهم ، ثم انصرَفوا راجِعِين ، حتى لَقُوا أبا سفيانَ بعُسْفانَ ، قد بعَثَتْه قريشٌ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ يَشُدُّ العقدَ ويَزيدُ فى المدةِ ، وقد رَهِبوا للذى صنَعوا ، فلمَّا لَقِى أبو سفيانَ بُدَيْلًا قال : مِن أين أقبلتَ يا بُدَيْلُ ؟ وظنَّ أنه قد أتَى رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فقال : سرتُ فى خُزاعةَ فى هذا الساحلِ وفى بطنِ هذا الوادِى . قال : فعمَد أبو سفيانَ إلى مَبْرَكِ راحلتِه فأخَذ مِن بَعَرِها ففتَّه ، فرأَى فيه النَّوَى ، فقال : أحلِفُ باللَّهِ لقد جاء بُدَيْلٌ محمدًا . ثم خرَج أبو سفيانَ حتى قدِم على رسولِ اللَّهِ ﷺ المدينةَ ، فدخَل على ابنتِه أمِّ حَبِيبةَ ، فلمَّا ذهَب ليَجْلِسَ على فراشِ رسولِ اللَّهِ ﷺ طوَته ، فقال : يا بُنَيَّةُ ، ما أدْرِى أرغِبْتِ بى عن هذا الفراشِ أو رَغِبْتِ به عنِّى ؟ فقالت : هو فِراشُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وأنت مُشركٌ نَجِسٌ ، فلم أُحِبَّ أن تَجْلِسَ على فِراشِه . فقال : يا بُنيةُ ، واللَّهِ لقد أصابَك بعدِى شرٌّ . ثم خرَج فأتَى

رسولَ اللَّهِ ﷺ فكلَّمه ، فلم يَرُدَّ عليه شيئًا ، ثم ذهَب إلى أبى بكرٍ فكلَّمه أن يُكَلِّمَ له رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعلٍ . ثم أتَى عمرَ بنَ الخطابِ فكلَّمه ، فقال عمرُ : أنا أَشْفَعُ لكم إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ؟! فواللَّهِ لو لم أجِدْ لكم إلَّا الذَّرَّ لجاهَدْتُكم به . ثم خرَج فدخَل على علىِّ بنِ أبى طالبٍ ، وعندَه فاطمةُ بنتُ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وعندَها حَسَنٌ ، غلامٌ يَدِبُّ بينَ يَدَيْهما ، فقال : يا علىُّ ، إنك أَمَسُّ القومِ بى رَحِمًا ، وأقرَبُهم منى قَرابةً ، وقد جئْتُ فى حاجةٍ ، فلا أَرْجِعَنَّ كما جئْتُ خائبًا ، فاشفَعْ لى إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ . فقال : وَيْحَك أبا سفيانَ ! واللَّهِ لقد عزَم رسولُ اللَّهِ ﷺ على أمرٍ ما نَسْتَطيعُ أن نُكَلِّمَه فيه . فالْتفَتَ إلى فاطمةَ فقال : يا بنتَ محمدٍ ، هل لكِ أن تَأْمُرِى بُنَيَّكِ هذا فيُجيرَ بينَ الناسِ ، فيكونَ سيِّدَ العربِ إلى آخرِ الدَّهرِ ؟ فقالت : واللَّهِ ما بلَغ بنِىَّ ذلك أن يُجيرَ بينَ الناسِ ، وما يُجيرُ أحدٌ على النبىِّ ﷺ . فقال : يا أبا الحسنِ ، إنِّى أرَى الأمورَ قد اشْتدَّت علىَّ ، فانصَحْنى ؟ قال : واللَّهِ ما أعلَمُ شيئًا يُغْنى عنك ، ولكنَّك سيِّدُ بنى كِنانةَ ، فقُمْ فأَجِرْ بينَ الناسِ ، ثم الْحَقْ بأرضِك . فقال : أوَ ترَى ذلك مُغْنِيًا عنِّى شيئًا ؟ قال : لا واللَّهِ ما أظنُّ ، ولكن لا أجِدُ لك غيرَ ذلك . فقامَ أبو سفيانَ فى المسجدِ ، فقال : أيُّها الناسُ ، إنِّى قد أجَرْتُ بينَ الناسِ . ثم رَكِب بعيرَه فانطَلَق ، فلمَّا قدِم على قريشٍ قالوا : ما وراءَك ؟ قال : جئتُ محمدًا فكلَّمتُه ، فواللَّهِ ما ردَّ علىَّ شيئًا ، ثم جئتُ ابنَ أبى قُحافةَ ، فواللَّهِ ما وجَدْتُ فيه خيرًا ، ثم جئتُ عمرَ فوجَدْتُه أعْدَى العدوِّ ، ثم جئتُ عليًّا فوجَدتُه أليَنَ القومِ ، وقد أشارَ علىَّ بأمرٍ صنَعْتُه ، فواللَّهِ ما أدرِى هل يُغْنِى عنَّا شيئًا أم لا ؟ قالوا : بماذا أمَرك ؟ قال : أمَرنى أن أُجيرَ بينَ الناسِ ففعَلْتُ . قالوا : هل أجازَ ذلك محمدٌ ؟ قال : لا . قالوا : وَيْحَك ! ما زادَك الرجلُ على أن لَعِب بك ، فما يُغْنِى عنَّا ما قلتَ . فقال : لا واللَّهِ ما وجَدْتُ غيرَ ذلك .

فائدةٌ ذكَرها السُّهيلىُّ ، تكلَّم على قولِ فاطمةَ فى هذا الحديثِ : وما يُجيرُ أحدٌ على رسولِ اللَّهِ ﷺ . على ما جاء فى الحديثِ : « ويُجيرُ على المسلمين أدْناهم » . قال : وَجْهُ الجمعِ بينَهما ، بأن المرادَ بالحديثِ مَن يُجيرُ واحدًا أو نفرًا يسيرًا ، وقولُ فاطمةَ فيمن يُجيرُ عدوًّا مِن غَزْوِ الإمامِ إيَّاهم ، فليس له ذلك . قال : كان سُحْنونُ وابنُ الماجِشُونَ يقولان : إن أمانَ المرأةِ مَوقوفٌ على إجازةِ الإمامِ ؛ لقولِه ﷺ لأمِّ هانئٍ : « قد أجَرْنا مَن أجَرْتِ يا أمَّ هانئٍ » . قال : ويُرْوَى هذا عن عمرِو بنِ العاصِ ، وخالدِ بنِ الوليدِ ، وقال أبو حنيفةَ : لا يجوزُ أمانُ العبدِ .

وفى قوله عليه الصلاةُ والسلامُ : « ويُجِيرُ عليهم أدناهم » . ما يَقْتَضِى دخولَ العبدِ والمرأةِ . واللَّهُ أعلمُ .

وقد رَوَى البيهقيُّ مِن طريقِ حمَّادِ بنِ سَلَمةَ ، عن محمدِ بنِ عمرٍو ، عن أبى سَلَمةَ ، عن أبى هريرةَ قال : قالت بنو كعبٍ :

لاهُمَّ إنِّى ناشدٌ محمدا حِلْفَ أبينا وأبيه الأَتْلَدا
فانصُرْ هَدَاك اللَّهُ نصرًا أَعْتَدا وادعُ عبادَ اللَّهِ يأْتُوا مَدَدَا

وقال موسى بنُ عقبةَ فى فتحِ مكَّةَ : ثم إن بَنى نُفاثةَ مِن بَنى الدُّئِلِ أغاروا على بنى كعبٍ ، وهم فى المُدَّةِ التى بينَ رسولِ اللَّهِ ﷺ وبينَ قريشٍ ، وكانت بنو كعبٍ فى صُلحِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وكانت بنو نُفاثةَ فى صُلحِ قريشٍ ، فأعانت بنو بكرٍ بنى نُفاثةَ ، وأعانتْهم قريشٌ بالسِّلاحِ والرَّقيقِ ، واعتزَلتْهم بنو مُدْلِجٍ ، ووفَوا بالعهدِ الذى كانوا عاهَدوا عليه رسولَ اللَّهِ ﷺ ، وفى بنى الدُّئِلِ رجلان هما سيِّداهم ؛ سَلْمُ بنُ الأسودِ ، وكُلثومُ بنُ الأسودِ ، ويذكُرون أن مِمَّن أعانَهم صفوانَ بنَ أميةَ ، وشيبةَ بنَ عثمانَ ، وسهيلَ بنَ عمرٍو ، فأغارَت بَنو الدُّئِلِ على بنى عمرٍو ، وعامَّتُهم - زعَموا - نساءٌ وصِبيانٌ وضعفاءُ الرجالِ ، فألجئوهم وقتَلوهم حتى أدخَلوهم إلى دارِ بُدَيلِ بنِ وَرْقاءَ بمكَّةَ ، فخرَج رَكْبٌ مِن بنى كعبٍ حتى أتَوْا رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فذكَروا له الذى أصابَهم ، وما كان مِن قريشٍ عليهم فى ذلك ، فقال لهم رسولُ اللَّهِ ﷺ : « ارجِعوا فتفرَّقوا فى البُلدانِ » . وخرَج أبو سفيانَ مِن مكَّةَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ، وتخوَّف الذى كان ، فقال : يا محمدُ ، اشْدُدِ العَقدَ ، وزِدْنا فى المدةِ . فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « ولذلك قدِمْتَ ؟ هل كان مِن حَدَثٍ قِبَلكم ؟ » فقال : معاذَ اللَّهِ ، نحن على عهدِنا وصُلحِنا يومَ الحديبيةِ ، لا نُغَيِّرُ ولا نُبَدِّلُ . فخرَج مِن عندِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فأتَى أبا بكرٍ فقال : جدِّدِ العقدَ ، وزِدْنا فى المدةِ . فقال أبو بكرٍ : جِوارِى فى جِوارِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، واللَّهِ لو وجَدْتُ الذَّرَّ تُقاتِلُكم لأعنْتُها عليكم . ثم خرَج فأتَى عمرَ بنَ الخطابِ فكلَّمه ، فقال عمرُ بنُ الخطابِ : ما كان مِن حِلْفِنا جديدًا فأخلَقه اللَّهُ ، وما كان منه مَتِينًا فقطعَه اللَّهُ ، وما كان منه مَقْطوعًا فلا وصَله اللَّهُ . فقال له أبو سفيانَ : جُزِيتَ مِن ذِى رَحِمٍ شرًّا . ثم دخَل على عثمانَ فكلَّمه ، فقال عثمانُ : جِوارِى فى جِوارِ رسولِ اللَّهِ ﷺ . ثم اتَّبع أشرافَ قريشٍ يُكلِّمُهم ، فكلُّهم يقولُ : عقدُنا فى عقدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ . فلمَّا يَئِس مِمَّا عندَهم ، دخَل على فاطمةَ بنتِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فكلَّمها ، فقالت : إنما أنا امرأةٌ ،

وإنَّما ذلك إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ . فقال لها : فأْمُرِى أحدَ ابْنَيْكِ . فقالت : إنَّهما صَبِيَّان ، وليس مثلُهما يُجِيرُ . قال : فكلِّمى عليًّا . فقالت : أنت فكلِّمْه . فكلَّم عليًّا ، فقال له : يا أبا سفيانَ ، إنَّه ليس أحدٌ مِن أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ يَفْتاتُ على رسولِ اللَّهِ ﷺ بجوارٍ ، وأنت سيِّدُ قريشٍ وأكبرُها وأمنعُها ، فأَجِرْ بينَ عَشيرتِك . قال : صدقتَ ، وأنا كذلك . فخرَج فصاحَ : ألا إنِّى قد أجَرْتُ بينَ الناسِ ، ولا واللَّهِ ما أظُنُّ أن يُخفِرَنى أحدٌ . ثم دخَل على النبىِّ ﷺ فقال : يا محمدُ ، إنِّى قد أجَرْتُ بينَ الناسِ ، ولا واللَّهِ ما أظنُّ أن يُخْفِرَنى أحدٌ ولا يَرُدَّ جِوارِى . فقال : « أنت تقولُ ذلك يا أبا حَنْظلةَ ؟! » فخرَج أبو سفيانَ على ذلك ، فزعَموا - واللَّهُ أعلمُ - أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال حينَ أدبَر أبو سفيانَ : « اللهمَّ خُذْ على أسماعِهم وأبصارِهم ، فلا يَرَوْنا إلَّا بَغْتةً ، ولا يَسْمَعُوا بنا إلَّا فَجْأةً » . وقدِم أبو سفيانَ مكةَ ، فقالتْ له قريشٌ : ما وراءَك ؟ هل جئتَ بكتابٍ مِن محمدٍ أو عهدٍ ؟ قال : لا واللَّهِ ، لقد أبَى علَىَّ ، وقد تتبَّعْتُ أصحابَه ، فما رأيتُ قومًا لملِكٍ عليهم أطوعَ منهم له ، غيرَ أنَّ علىَّ بنَ أبى طالبٍ قد قال لى : لِمَ تَلْتَمِسُ جِوارَ الناسِ على محمدٍ ، ولا تُجِيرُ أنت عليه وعلى قومِك ، وأنت سيِّدُ قريشٍ وأكبرُها وأحقُّها أن لا يُخْفَرَ جِوارُه ؟ فقُمْتُ بالجِوارِ ، ثم دخَلتُ على محمدٍ ، فذكَرتُ له أنِّى قد أجَرْتُ بينَ الناسِ ، وقلتُ : ما أظُنُّ أن تُخْفِرَنى . فقال : « أنت تقولُ ذلك يا أبا حنظلةَ ؟! » فقالوا مُجيبين له : رَضِيتَ بغيرِ رِضًا ، وجِئْتَنا بما لا يُغْنِى عنَّا ولا عنك شيئًا ، وإنما لَعِب بك علىٌّ ، لَعَمْرُ اللَّهِ ما جِوارُك بجائزٍ ، وإنَّ إخفارَك عليهم لهَيِّنٌ . ثم دخَل على امرأتِه فحدَّثها الحديثَ فقالت : قبَّحك اللَّهُ مِن وافدِ قومٍ ، فما جئتَ بخيرٍ . قال : ورأَى رسولُ اللَّهِ ﷺ سَحابًا فقال : « إنَّ هذه السَّحابَ لَتَبِضُّ بنصرِ بنى كعبٍ » . فمكُث رسولُ اللَّهِ ﷺ ما شاءَ اللَّهُ أن يمكُثَ بعدَما خرَج أبو سفيانَ ، ثم أخَذ فى الجَهازِ ، وأمَر عائشةَ أن تُجَهِّزَه وتُخْفِىَ ذلك ، ثم خرَج رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى المسجدِ أو إلى بعضِ حاجاتِه ، فدخَل أبو بكرٍ على عائشةَ ، فوجَد عندَها حِنطةً تُنْسَفُ وتُنقَّى ، فقال لها : يا بُنَيَّةُ ، لماذا تَصْنَعِين هذا الطعامَ ؟ فسكَتَت ، فقال : أيُريدُ رسولُ اللَّهِ ﷺ أن يَغْزوَ ؟ فصمَتَت ، فقال : يريدُ بنى الأصفرِ ؟ - وهم الرُّومُ - فصمَتت ، قال : فلعلَّه يريدُ أهلَ نجدٍ ؟ فصمَتت ، قال : فلعلَّه يريدُ قريشًا ؟ فصمَتت . قال : فدخَل رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فقال له : يا رسولَ اللَّهِ ، أتريدُ أن تَخرُجَ مخرجًا ؟ قال : « نعم » . قال : فلعلَّك تريدُ بنى الأصفرِ ؟ قال : « لا » . قال : أتريدُ أهلَ نجدٍ ؟ قال : « لا » . قال : فلعلَّك تريدُ قريشًا ؟ قال : « نعم » . قال أبو

بكرٍ : يا رسولَ اللَّهِ ، أليس بينَك وبينَهم مدَّةٌ ؟ قال : « ألم يَبْلُغْك ما صنَعوا ببَنى كعبٍ ؟ » قال : وأذَّن رسولُ اللَّهِ ﷺ فى الناسِ بالغزوِ ، وكتَب حاطبُ بنُ أبى بَلْتَعَةَ إلى قريشٍ ، وأطْلَع اللَّهُ رسولَه ﷺ على الكتابِ . وذكَر القصةَ كما سيأتى .

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ : حدَّثنى محمدُ بنُ جعفرٍ ، عن عُرْوةَ ، عن عائشةَ أن أبا بكرٍ دخَل على عائشةَ وهى تُغَرْبِلُ حِنْطةً ، فقال : ما هذا ؟ أمَرَكم رسولُ اللَّهِ ﷺ بالجَهازِ ؟ قالت : نعم فتَجَهَّزْ . قال : وإلى أين ؟ قالتْ : ما سَمَّى لنا شيئًا ، غيرَ أنَّه قد أمَرَنا بالجَهازِ .

قال ابنُ إسحاقَ : ثم إن رسولَ اللَّهِ ﷺ أعلَم الناسَ أنَّه سائرٌ إلى مكَّةَ ، وأمَر بالجِدِّ والتَّهَيُّؤِ ، وقال : « اللهم خُذِ العُيونَ والأخبارَ عن قريشٍ ، حتى نَبْغَتَها فى بلادِها » . فتجهَّز الناسُ ، فقال حسانُ يُحَرِّضُ الناسَ ، ويذكُرُ مُصابَ خُزاعةَ :

عَنانِى ولم أشهَدْ بِبَطْحاءِ مكَّةٍ ... رجالُ بنى كعبٍ تُحَزُّ رِقابُها
بأيدِى رجالٍ لم يَسُلُّوا سُيوفَهم ... وقَتْلى كَثيرٌ لم تُجَنَّ ثِيابُها
ألَا ليتَ شِعْرِى هل تَنالَنَّ نُصْرَتى ... سُهَيلَ بنَ عمرٍو حَرُّها وعِقابُها
وصَفْوانُ عَوْدٌ حُزَّ مِن شُفْرِ اسْتِهِ ... فهذا أوانُ الحربِ شُدَّ عِصابُها
فلا تَأْمَنَنَّا يا بنَ أمِّ مُجالِدٍ ... إذا احتُلِبَتْ صِرْفًا وأعْصَلَ نابُها
ولا تَجْزَعُوا منها فإنَّ سيوفَنا ... لها وَقْعَةٌ بالموتِ يُفْتَحُ بابُها][1]

* * *

غزوة حنين

قال تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ٢٥ - ٢٧] .

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند اللَّه وحده .

---

(١) ما بين المعكوفين من « البداية والنهاية » لابن كثير (جـ٥ - طبعة هجر) ، بتصرف .

وقوله : ﴿مَوَاطِنَ﴾ جمع « موطن » والموطن هو ما استوطنت فيه ، وكل الناس مستوطنون فى الأرض ، وكل جماعة منا تحيز مكانًا من الأرض ليكون وطنًا لها ، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن العام الذى هو الأرض ؛ التى هى موطن البشرية كلها ، والناس موزعون عليها .

والمعنى : أن الحق سبحانه قد نصركم فى مواطن الحرب : أى مواقعها ، مثل يوم بدر ، ويوم الحديبية ، ويوم بنى النضير ، ويوم الأحزاب ، ويوم فتح مكة ، وكل هذه كانت مواقع نصر من اللّه للمسلمين ، ولكنه فى هذه الآية يخص يومًا واحدًا بالذكر بعد الكلام عن الأيام الكثيرة ، فبعد أن تحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إذن : فكثرة عدد المؤمنين فى يوم حنين كان ظرفًا خاصًا ، أما المواطن الأخرى ، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة ، ويوم فتح مكة كانوا كثرة ، ولكنهم لم يُعجبوا بكثرتهم ؛ ولم يختالوا بذلك .

إذن .. ففى يوم حنين اجتمعت لهم الكثرة مع الإعجاب .

وهذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه ، وليس معطوفًا على ﴿مَوَاطِنَ﴾ ولكنه جملة مستقلة بنفسها ؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن فى بقية المواطن .

وكلمة : ﴿مَوَاطِنَ﴾ ظرف مكان ، و ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة : ٢٥] ظرف زمان ، فكيف جاز أن يعطف ظرف الزمان على ظرف المكان ؟ هذا هو ما يسميه العرب « احتباك » ؛ لأن كل حدث مثل « أكل » و « شرب » و « ضرب » و « ذاكر » ؛ لابد له من زمان ولابد له من مكان ، فإذا قلت : أكلت . نقول : متى ؟ فى الصباح ، أو فى الظهر ، أو فى العشاء ؟ وأين ؟ فى البيت ، أو فى الفندق ، أو عند أحد الأصدقاء ؟

إذن .. فلابد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان ، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة ؛ ظرفية مكان حدوث الفعل ، وظرفية زمان حدوث الفعل . فإذا قلت : أكلت الساعة الثالثة . ولم أسألك أين تم الأكل ؟ أو إذا قلت : أكلت فى البيت . ولم أسألك عن موعد الأكل صباحًا ، أو ظهرًا أو ليلًا ، يكون الحدث غير كامل الظرفية .

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان فى الظرفية ، ولكنهما يختلفان ، فالمكان ظرف ثابت

لا يتغير ، والزمان دائم التغير ، فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . والزمان يدور ، هناك ماض وحاضر ومستقبل ، وهكذا يشترك الزمان والمكان فى الظرفية ، ولكن الزمان ظرف متغير ، أما المكان فهو ظرف ثابت .

وجاءت الآية هنا بالاثنين ، ظرف المكان فى قوله تعالى : ﴿مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وظرف الزمان فى قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ فإذا قيل : لم يحضر ظرف الزمان والمكان فى كل واحدة ، نقول : لا ، لقد حضر ظرف المكان فى ناحية وظرف الزمان فى ناحية ثانية ، وقد حذف من الأول ما يدل عليه الثانى ، وحذف من الثانى ما يدل عليه الأول ، فكان المعنى : لقد نصركم الله يوم مواطن كذا وكذا وكذا . فإذا عطفت عليها يوم حنين يكون المعنى « ومواطن يوم حنين » ، أى : جاء بالاثنين هنا . وهذا يظهر واضحًا فى قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران : ١٣] فما دامت الأخرى ﴿كَافِرَةٌ﴾ تكون الأولى « مؤمنة » ، ولكن حذفت « مؤمنة » لأن ﴿كَافِرَةٌ﴾ تدل عليها ، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل في سبيل الله ، فالفئة الأخرى الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان ، وحذفت : تقاتل فى سبيل الشيطان ؛ لأن ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دلت عليها . ولذا على المؤمن الذى يستمع إلى كلام الله تعالى أو يقرأه لابد أن يكون له آذان صاغية وعقلٌ واعٍ حتى يعرف ويتنبه إلى أن ما حذف من الأولى تدل عليه الثانية .

إذن : فيكون ظرف الزمان موجودًا فى واحدة ، وظرف المكان موجودًا فى واحدة ، وكلاهما يدل على الآخر ، والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت غزوة الأحزاب ، وعاد المسلمون إلى المدينة مجهدين لم يخلعوا ملابس الحرب ، قال لهم رسول الله ﷺ : « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة »[1] .

فانطلق المسلمون دون أن يستريحوا إلى بنى قريظة ، وهم اليهود الذين خانوا عهد رسول الله ﷺ وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين ، وبينما الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة كادت الشمس تغيب ، فقال بعض الصحابة : إن الشمس ستغيب ولابد أن نصلى العصر ، فصلوا . وقال الآخرون منهم : إن رسول الله ﷺ طلب منا ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ولم

(١) أخرجه البخاري (٩٤٦) ، ومسلم (١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما .

يُصلُّوا حتى وصلوا إلى هناك . إن كلا الفريقين استخدم المنطق ؛ لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان ، فالذى نظر إلى ظرف الزمان قال : الشمس ستغيب ، وصلى ، والذى نظر إلى ظرف المكان الذى حدده رسول الله ﷺ ؛ لم يصل . وأَقرَّ رسول الله ﷺ الفريقين على اجتهادهما فى : ظرفية الزمان ، وظرفية المكان .

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ حنين هو موضع فى وادٍ بين مكة والطائف ، تجمع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة ، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تضيع قيمة هذا النصر . فاجتمعت قبائل هوازن وثقيف ، واختاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم فى هذه المعركة ، واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل ، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم ، ووضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثروات المشاركين فى الجيش من مال ، وبقر ، وإبل ، وأن يخرج مع الجيش النساء والأطفال ، وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرضه وماله فلا يفر من المعركة ، بل يستمر فى القتال بشجاعة وعنف ؛ لأنه يدافع عن نسائه وأمواله وأولاده ، وبذلك يكون قد وضع كل العوامل التى تضمن له النصر .

واجتمع الكفار ونزلوا بوادٍ اسمه « وادى أوطاس » ، وكان فيهم رجل كبير السن ضرير . اسمه « دريد بن الصِّمة » . وكان رئيسا لقبيلة « جشم » . فلما وصل إلى مكان المعركة سأل : بأى أرض نحن ؟ فقالوا : نحن بوادى أوطاس .. فابتسم وقال : لا حزنًا ضرس ولا سهلًا دهس ، أى أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مدببة ، تتعب الذى يسير عليها ، وليست أرضًا رخوة تغوص فيها أقدام من يسير عليها ، من « الحزن » فالحزن هو : الخشونة والغلظة ، و « ضرس » هو : التعب أثناء السير ، وأيضًا ليست أرضًا سهلة منبسطة وملية تغوص فيها الأقدام .

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثغاء الشاة ، قال : أسمع بكاء الصبيان وخوار البقر . فقالوا له : إن مالك بن عوف استصحب ذراريه واصطحب كل أمواله ، فقال : أما الأموال فلا بأس ، وأما النساء والذرارى فهذا هو الأرعن- أى : لا يفهم فى الحرب- أرسلوه لى ، فأحضروه له . فلما حضر قال : يا مالك ما حملك على هذا ؟ قال : وماذا تريد ؟ قالْ : ارجع بنسائك وذراريك إلى عُليًا دارك ، فإن كان الأمر لك ؛ لحقك من وراءك . وإن كان الأمر

عليك لم تفضح أهلك وذراريك . فقال له مالك : لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك . وأصر على رأيه ، ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش فى الشعاب وتحت الأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيئهم ، فيتقدمون غير منتبهين للخطر ، وحينئذ يتم الهجوم عليهم من كل جهة .

وعندما جاء جيش المسلمين لم ينتبهوا إلى وجود الكفار المختفين عن الأعين ، وحينئذ أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم ، فخرج الكفار من كل مكان ، وفاجئوا المسلمين بهجوم شديد ، قال الراوى : فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا زمن حلب شاة ، حتى إنه من قسوة المعركة وضراوتها وقوة المفاجأة انهزم جيش المسلمين فى الساعات الأولى للمعركة ، ووصل بعض الفارين من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله ﷺ فى ساحة المعركة إلا تسعة بينهم العباس عم رسول الله ﷺ ، وكان ممسكًا بالدابة التى يركبها رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبى طالب وكان يحمل الراية ، والفضل بن العباس ، وكان يقف على يمين رسول الله ﷺ ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ وكان يقف على يساره ، وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة .

وهنا نتساءل : لماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين فى بداية المعركة ؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا : نحن كثرة ولن نهزم من قلة . وبذلك ذهبوا إلى الأسباب وتناسوا المسبب ، فأراد الله تعالى أن يعاقبهم عقابًا يخزيهم ويُعلى من قدر رسول الله ﷺ ، ولما رأى رسول الله ﷺ ما حدث ، قال للعباس – وكان العباس صاحب صوت عال – : « أذِّنْ فى الناس » ، فقال العباس بصوت عال : يا معشر الأنصار ، يا أهل سورة « البقرة » ، يا أهل بيعة الشجرة . فلما سمع الناس نداء العباس ، قالوا : لبيك لبيك . وكان الذى يقول « لبيك » يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله ، حتى عاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال ، وحمى القتال واشتدت الحرب وصار لها أوار[1] ، وكان النبى ﷺ يدفع بغلته للأمام ويدعو المسلمين للثبات ويقول : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب[2] .

---

(١) الأوار : الدخان واللهب .

(٢) أخرجه البخاري (٤٣١٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

وانطلق جيش المسلمين إلى الطائف ليطارد الفارين . واختبأ مالك بن عوف قائد المشركين . ثم عاد رسول الله ﷺ بعد ذلك وقسم الغنائم ، وكاد تقسيم الغنائم أن يحدث فتنة بين المسلمين ؛ لأن الرسول ﷺ أعطى الغنائم للمؤلفة قلوبهم ، ولسائر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله ﷺ أن يقارن بين شيئين ، بين سبايا هى أيضًا من متاع الدنيا فيعطى منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار الذين آووه ﷺ فى رأيه يستغنون بحبهم لرسول الله وقوة إيمانهم بالله عن مثل هذا المتاع الدنيوى ، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالغُصَّة ، وتأثر هذا البعض بذلك .

لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كَثُرت فيهم القَالَة ، حتى قال قائلهم : لقى رسول الله ﷺ قومه .. فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت ، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شيء .

قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا امرؤ من قومى . قال : « فاجمع لى قومك فى هذا الحظيرة » قال : فخرج سعد فجمع الناس فى تلك الحظيرة ، قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار قال : فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو له أهل . ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما مقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلَّالًا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم » .

قالوا : بل الله ورسوله آمن وأفضل .

قال : « ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟ » .

قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ، ولله ولرسوله المنُّ والفضل ؟

قال : « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصُدِّقتم » ، أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك ، ومخذولًا فنصرناك ، وطريدًا فآويناك ، وعائلًا فأغنيناك[1] .

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/٧٦) وحسنه الأرناؤوط .

أى : أن رسول الله ﷺ ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم ، وهى : أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى الأُخوة والمحبة .

وعندما تحدث رسول الله ﷺ عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع فضائل وهى :

- أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول ﷺ فهاجر منها فآواه أهل المدينة .
- وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئًا ، فأعطاهم الأنصار من أموالهم .
- وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله ﷺ فأمّنه الأنصار .
- وكان رسول الله ﷺ قد خذله قومه من قريش فنصره الأنصار .

عندما سمع الأنصار قول رسول الله ﷺ فى ذكر مفاخرهم . قالوا : المنة لله ولرسوله ، أى : إننا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذى قلته أبدًا ؛ لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهذا لا يكونون هم الذين أعطوا ، بل الإيمان هو الذى أعطاكم .

وعندما قال الأنصار لرسول الله ﷺ : بل المنة لله ولرسوله ، قال لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا[1] تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ فى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » . فلما سمعوا هذا القول من رسول الله ﷺ بكوا حتى اخضلَّت لحاهم وقالوا : رضينا بالله وبرسوله قسمًا وحظًّا . وانتهت المسألة .

وهكذا نرى أنه حين تأتى مقارنة بين شيئين ، لابد أن نتفاخر بالشىء الدائم الباقى الذى حصلنا عليه ، أما الشىء الذى مآله إلى فناء فإن من ليس معه ، يعيش كمن عاش معه ، وهو متاع الدنيا ، تعيش معه وتعيش بدونه ، ولكن لا أحد يستغنى عن الإيمان ، [ولكن يمكن أن نستغنى عن الدنيا نعم ، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا .

وبعد أن قسم رسول الله ﷺ الغنائم ، جاءته وفود هوازن وهو بالجعرانة . فقالوا : يا محمد ،

---

(١) أي : بقية السيرة .

إنا أصل وعشيرة ، فمنَّ علينا ، منَّ الله عليك ، فإنه قد نزل بنا من البلاء ما لا يخفى عليك .

فقال : « اختاروا بين نسائكم وأموالكم وأبنائكم » . قالوا : خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا ، نختار أبناءنا .

فقال : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فإذا صليت الظهر فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ على المؤمنين ، وبالمؤمنين على رسول الله ﷺ ، فى نسائنا وأبنائنا » .

قال : ففعلوا . فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ، وقال المهاجرون : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . وقالت الأنصار مثل ذلك ، وقال عيينة بن بدر : أما ما كان لى ولبنى فزارة فلا ، وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، فقال الحيان : كذبت ! بل هو لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس ، ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، فمن تمسك بشيء من الفيء فله علينا ستة فرائض من أول شيء يفيئه الله علينا » . ثم ركب راحلته ، وتعلق به الناس ، يقولون : اقسم علينا فيئنا بيننا ، حتى ألجئوه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فقال : « يا أيها الناس ، ردوا على ردائى ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته بينكم ، ثم لا تلقوننى بخيلاً ولا جبانًا ولا كذوبًا » ، ثم دنا من بعيره ، فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصابعه السبابة والوسطى ، ثم رفعها ، فقال : « يا أيها الناس ، ليس لى من هذا الفيء ولا هذه ، إلا الخمسُ ، والخمس مردود عليكم ، فردوا الخياط والمخيط ، فإن الغلول يكون على أهله يوم القيامة عارًا ونارًا وشنارًا » . فقام رجل معه كبة من شعر ، فقال : إنى أخذت هذه أصلح بها بردعة بعير لى دبر ، قال : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لك » ، فقال الرجل : يا رسول الله ، أما إذْ بلغتُ ما أرى فلا أرب لى بها ، ونبذها[1] .

وقد وردت روايات من أن الملائكة نزلت وثبتت المؤمنين ، وألقت الرعب فى قلوب الكافرين وأنزلت العذاب بهم ، والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك ؛ لأنهم شاهدوا كائنات جياد بلق[2] ولم يكن عندهم مثلها .

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/١٨٤) ، وقال الشيخ شاكر (٦٧٢٩) : إسناده صحيح .

(٢) البلق : سواد وبياض . والجياد البلق : هي السواد التي ارتفع البياض إلى أفخاذها .

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم ، فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن ، وأن يثق فى القائل وهو صادق فليؤمن بما قال ولا يبحث عن الكيفية ، وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقفة الرافض لوجودها ، ولكن وقفة الجاهل لكيفيتها ؛ لأن وجود الشيء مختلف تمامًا عن إدراك كيفية وجوده .

وهناك أشياء كثيرة فى الكون ، موجودة وتزاول مهمتها ، ونحن لا تدرك كيفية هذا الوجود ، وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة . وكل الاكتشافات التى قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة . لكننا لم نكن ندرك وجودها ولا كيفية عملها .

فالكهرباء مثلاً كانت موجودة فى الكون منذ بداية الخلق ، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف اللَّه تعالى لنا وجودها فاستخدمناها .

والميكروبات أيضًا كانت موجودة فى الكون تؤدى مهمتها ولم نعرفها ، حتى كشف اللَّه لنا عنها فعرفنا وجودها وكيفية هذا الوجود ، فكل هذه الأشياء كانت موجودة فى كون اللَّه منذ خلقه اللَّه تعالى ، ولكننا لم نكن ندرك وجودها ، وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئًا ؛ ولذلك إذا حُدثت بشيء لا يستطيع عقلك أن يفهمه فلا تنكر وجوده ؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئًا ، ثم أعطانا اللَّه تعالى العلم فوجدنا أنها تعيش بقوانين مادية محددة .

إذن .. فوجود الشيء يختلف تمامًا عن إدراك هذا الوجود .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة : ٢٦] .

كلمة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ تعطى العذر لكل من لم ير ، ويكفى أن اللَّه تعالى قال هذا ليكون حقيقة واقعة ، والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] .

وحين كان يقال لنا : إن للَّه خلقًا هم الجن ، كما أن له خلقًا آخرين هم الملائكة ، والجن يروننا ونحن لا نراهم . كان البعض يقف موقف الاستنكار ، كذلك قال لنا رسول اللَّه ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[1] .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٣٥) ، ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ ، رضي الله تعالى عنها .

وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون : كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجرى منها مجرى الدم ؟! وعندما تقدمنا فى العلم التجريبى واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنها تخترق الجسم وتدخل إلى الدم فى العروق ، هل يحس أحد بالميكروب وهو يخترق جسمه ؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للجسم ؟ بالطبع لا ، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثيره يظهر على أجسامنا ونحس به ، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغًا لا تحس به شعيرات الإحساس الموجودة تحت الجلد . ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لا ندرى عنه شيئًا ، ويدخل إلى الدم ويجرى فى العروق ونحن لا نحس بشىء من ذلك ، والدم يجرى فى عروق يحكمها قانون هو : أن مربع نصف القطر يوزع على الكل ، ومثل ذلك ما يحدث فى توزيع المياه ، فنحن نأتى بماسورة رئيسية نصف قطرها ثمانى بوصات وندخلها إلى قرية ، تكون كمية الصب هى ٨ X ٨ . أى ٦٤ بوصة مربعة ، حينما نأتى لنوزعها على مواسير أخرى فرعية نأخذ منها ماسورة نصف قطرها أربع بوصات ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصتان ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصة أو نصف بوصة المهم أن مربع أنصاف أقطار المواسير الفرعية يساوى ما تصبه الماسورة الكبيرة .

وهكذا عروق الدم ، فالدم يجرى فى شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة .. ولكن دقة حجم الميكروب تجعله يخترق هذه الشعيرات فلا ينزل منها دم وعندما تضيق هذه الشرايين تحدث الأمراض التى نسمع عنها ، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات ، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين ؛ لأنها مواسير الدم . وهناك جراحات تجرى بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تخترق هذه الأشعة الجلد بين الشعيرات ؛ لأنها أشعة دقيقة جدًّا فلا تقطع أى شعيرة ولا تسيل أى دماء .

إذن .. فكل ما فى داخل الجسم محسوب بإرادة اللَّه تعالى ، ولكل ميكروب فترة حضانة يقضيها داخل الجسم دون أن نحس به ، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرض وتأخذ عمليات توالد الميكروب فى الدم ومقاومة كرات الدم البيضاء له فترة طويلة ، بينما نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث .

فإذا كان الميكروب وهو من مادتك ، أى : شىء له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب لتجد له شكلاً مخيفًا ، وهو يتوالد ويتناسل وله دورة حياة ، إذا كان هذا

الميكروب لا تحس به وهو فى داخل جسمك ؛ فما بالك بالشيطان الذى هو مخلوق من مادة أكثر شفافية من مادة الميكروب ، هل يمكن أن تحس به إذا دخل جسدك ؟ لا ، وإذا كان الشىء المادى قد دخل جسدك ولم تحس به ، فما بالك بالمخلوق الذى خلقه اللّٰه تعالى من مادة أشف وأخف من الطين ؟ ألا يستطيع أن يدخل ويجرى من ابن آدم مجرى الدم ؟ !

فإذا قال رسول اللّٰه ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » ، فلا تعجب ولا تُكذِّب لأنك لا تحس به . فالله أعطاك فى عالم المادية ما هو أكثر كثافة فى الخلق ويدخل فى جسدك ولا تحس به .

إذن .. فالعلم أثبت لنا أن هناك مخلوقات لا نراها . ولو أننا باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية الحديثة فحصنا كل خلية فى جسم الإنسان فإننا سنرى العجب ، سنرى فى جلد الإنسان الذى نحسبه أملس آبارًا يخرج منها العرق ، وغير ذلك من تفاصيل بالغة الدقة لا تدركها العين ، فإذا حدثنا اللّٰه سبحانه وتعالى بأن هناك ملائكة تنزل وتقاتل ، فنحن نصدق ، وقد جعل الحق تبارك وتعالى لنا ما يطمئن بشريتنا فقال : ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ، فإن قال واحد : إنه رآها ، وقال آخر : لم أر شيئًا ، نقول : إن قول الحق : ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أى : لم تروها مجتمعين ، فهناك من لمحها ، وهناك من لم يرها .

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم ، وقوله تعالى : ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أى : أن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاء لهم عل كفرهم . ولكن البعض يتساءل : لماذا لم يتنزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة فى القتال ؟ نقول : إن اللّٰه أراد أن يزيد عذابهم ، فلو أنه ألحق بهم الهزيمة فى أول لحظة ، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذابًا ، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتى الهزيمة أكثر قسوةً وأكثر بشاعةً ، ويقول الشاعر :

كما أبركت قومًا عطاشًا غمامةٌ فلما رأوها أقشعت وتجلت

فحين تمر سحابة على قوم يعانون من شدة العطش ، هم يحلمون أن تمطر عليهم ، لكن الحلم يتبدد تمامًا كالمسجون الذى يعانى من عطش شديد ، فيطلب من السجان شربة ماء فيقول له السجان : سأحضرها لك . وفعلاً يذهب السجان ويحضر له كوب ماء مثلج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده ونفسه تمتلىء فرحًا ، وإذا بالسجان يضربه بشدة على يده

فيسقط الكوب على الأرض ، فيصاب المسجون بصدمة شديدة .

وهذه أبشع طرق التعذيب ، ولو أن السجان رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلامًا للسجين ، لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه فى يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذابًا .

وهكذا أراد اللّه أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولًا ، ثم جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لتسلبهم كل شىء وبذلك تجتمع لهم فيجعتان : فيجعة الإيجاب ، وفجيعة السلب .

ثم تأتى لمحة الرحمة التى يغمر بها اللّه سبحانه وتعالى كونه كله ، فيفتح سبحانه الباب لكل عاصٍ ليعود إلى طريق الإيمان فيتقبله الله ، ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة : ٢٧] .

وهذه هى عظمة الخالق ، الرحمن الرحيم ، فهو يفتح الباب دائمًا لعباده ؛ لأنه هو خالق هذا الكون ، وكل من عصى يفتح اللّه أمامه باب التوبة ، وهذه مسألة منطقية ؛ لأن الذى يكفر والذى يعصى لا يضر اللّه شيئًا ، ولكنه يضر نفسه .

* * *

زوجات النبي ﷺ(١)

١- خديجة رضي الله تعالى عنها :

هي أول من تزوج النبي ﷺ ، زوجه إياها أبوها خُوَيلد بن أسد ، ويقال أبوها عمرو بن خُويلد ، وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بَكْرة ، فولدت لرسول الله ﷺ ولَدَه كلَّهم إلا إبراهيم ، وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك ، أحد بني أُسَيِّد بن عمرو بن تميم ، حليف بني عبد الدار ، فولدت له هند بن أبي هالة ، وزينب بنت أبي هالة ، وكانت قبل أبي هالة عند عُتَيِّق بن عابد بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم ، فولدت له عبد الله ، وجارية .

٢- عائشة رضي الله عنها :

تزوج رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما بمكة ، وهي بنت سبع سنين ، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكرًا غيرها ، زوجه إياها أبوها أبو بكر ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم .

٣- سَوْدة رضي الله تعالى عنها :

تزوج رسول الله ﷺ سَوْدة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لُؤي ، زوجه إياها سَليط بن عمرو ، ويقال أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم .

وكانت قبله عند السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر بن حِسْل .

٤- زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية ، زوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جَحْش ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند زَيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ ففيها أنزل الله تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

٥- أم سلمة رضي الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند ؛ زوجه إياها

---

(١) هذا الباب ليس من كلام الشيخ رحمه الله ، وقد أضفناه لزيادة الفائدة .

سَلمةُ بن أبى سلمة ابنُها ، وأصدقها رسول الله ﷺ فراشًا حشوه ليف ، وقدحًا ، وصَحفة ، ومجشَّة ؛ وكانت قبله عند أبى سلمة بن عبد الأسد ، واسمه عبد الله ، فولدت له سلمة وعُمر وزينب ورُقية .

٦- حفصة رضى الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب ، زوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند خُنَيْس بن حُذافة السَّهمى .

٧- أم حبيبة رضى الله تعالى عنها :

تزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة ، واسمها رَملة بنت أبى سفيان بن حرب ، زوَّجه إياها خالد بن سعيد بن العاص ، وهما بأرض الحبشة ، وأصدقها النجاشى عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار ، وهو الذى كان خطبها على رسول الله ﷺ ، وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش الأسدى .

٨- جويرة بنت الحارث رضى الله تعالى عنها :

وتزوج رسول الله ﷺ جُويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخُزاعية ، كانت فى سبايا بنى المصطلق من خُزاعة ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشَّماس الأنصارى ، فكاتبها على نفسها ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها ، فقال لها : هل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك ؟ فقالت : نعم . فتزوجها .

ويقال : لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بنى المصطلق ومعه جُويرية بن الحارث ، فكان بذات الجيش ، دفع جُويرية إلى رجل من الأنصار وديعة وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، فأقبل أبوها الحارث بن أبى ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء ، فرغب فى بعيرين منها ، فغيبهما فى شِعب من شِعاب العقيق ، ثم أتى النبى ﷺ ، فقال : يا محمد ، أصبتم ابنتى ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله ﷺ : فأين البعيران اللذان غيبت بالعقيق فى شِعب كذا وكذا ؟ فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله صلى الله عليك ، فوالله ما اطَّلع على ذلك إلا اللهُ تعالى ، فأسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له وناسٌ من قومه ، وأرسل إلى البعيرين ، فجاء بهما ، فدفع الإبل إلى

النبي ﷺ ، ودُفعت إليه ابنته جُويرية ، فأسلمت وحسن إسلامها ، فخطبها رسول اللَّه ﷺ إلى أبيها فزوجه إياها ، وأصدقها أربعمائة درهم ، وكانت قبل رسول اللَّه ﷺ عند ابن عم لها يقال له عبد الله .

ويقال اشتراها رسول اللَّه ﷺ من ثابت بن قَيس ، فأعتقها وتزوجها ، وأصدقها أربعمائة درهم .

٩- صفية بنت حُيَى رضى اللَّه تعالى عنها :

وتزوج رسول اللَّه ﷺ صفية بنت حُيَى بن أخطب ، سباها من خَيْبَرَ ، فاصطفاها لنفسه ، وأولم رسول اللَّه ﷺ وليمة ، ما فيها شحم ولا لَحم ، كان سوَيقًا وتمرًا ، وكانت قبله عند كِنانة ابن الربيع بن أبى الحُقَيْق .

١٠- ميمونة بنت الحارث رضى اللَّه تعالى عنها :

وتزوج رسول اللَّه ﷺ ميمونة بنت الحارث بن حَزن بن بَجِير بن هُزَم بن رُوَيبة بن عبد اللَّه ابن هلال بن عامر بن صعصعة ، زوجه إياها العباس بن عبد المطلب ، وأصدقها العباس عن رسول اللَّه ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند أبى رُهم بن عبد العُزَّى بن أبى قيس بن عبد وُدٍّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤى ؛ ويقال : إنها التى وهبت نفسها للنبى ﷺ ، وذلك أن خطبة النبى ﷺ انتهت إليها وهى على بعيرها ، فقالت : البعير وما عليه للَّه ولرسوله . فأنزل اللَّه تبارك وتعالى : ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب : ٥٠] .

ويقال : إن التى وهبت نفسها للنبى ﷺ زينب بنت جحش ، ويقال : أم شريك ، غزية بنت جابر بن وهب من بنى منقذ بن عمرو بن مَعِيص بن عامر بن لُؤى ، ويقال : بل هى امرأة من بنى سَامة بن لُؤى ، فأرجأها رسول اللَّه ﷺ .

١١- زينب بنت خُزيمة رضى اللَّه تعالى عنها :

وتزوج رسول اللَّه ﷺ زَينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد اللَّه بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تُسمى أم المساكين ؛ لرحمتها إياهم ، ورقتها عليهم ، زوجه إياها قَبيصة بن عمرو الهلالى ، وأصدقها رسول اللَّه ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عُبيدة عند جَهم بن عمرو ابن الحارث ، وهو ابن عمها .

فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسول الله ﷺ إحدى عشرة ، فمات قبله منهن ثنتان : خديجة بنت خُويلد ، وزينب بنت خُزَيمة ، وتوفى عن تسع . هذا الحديث ، وثنتان لم يدخل بهما : أسماء بنت النعمان الكندية ، تزوجها فوجد بها بياضًا فمتَّعها وردها إلى أهلها ، وعَمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بكفر ؛ فلما قدمت على رسول الله ﷺ ، استعاذت من رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : منيعٌ عائذ الله ، فردها إلى أهلها ، ويقال : إن التى استعاذت من رسول الله ﷺ كِندية بنت عم لأسماء بنت النعمان ، ويقال : إن رسول الله ﷺ دعاها ، فقالت : إنا قوم نُؤتَى ولا نأْتِى ؛ فردها رسول الله ﷺ إلى أهلها .

ابتداء شكوى رسول الله ﷺ

١- زيارته ﷺ لأهل البقيع :

روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن أبى مُوَيهبة ، مولى رسول الله ﷺ ، قال : بعثنى رسول الله ﷺ من جَوْف الليل ، فقال : يا أبا مُوَيهبة ، إنى قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معى ، فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم ، قال : السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقلبت الفتن كقِطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولَها ، الآخرة شَرٌّ من الأولى ، ثم أقبل علىَّ ، فقال : يا أبا مُوَيهبة ، إنى قد أُتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة . قال : فقلت : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخُلد فيها ، ثم الجنة ، قال : لا والله يا أبا مُوَيهبة ، لقد اخترت لقاء ربِّى والجنة . ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف ، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذى قبضَه الله فيه .

٢- تمريضه ﷺ فى بيت عائشة :

عن عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : رجع رسول الله ﷺ من البقيع ، فوجدنى وأنا أجد صُداعًا فى رأسى ، وأنا أقول : وارَأْساه ، فقال : بل أنا والله يا عائشة وَارأْساه .

قالت : ثم قال : وما ضَرَّكِ لو مُتِّ قبلى ، فقمتُ عليك وكفنتك ، وصليت عليك ودفنتك ؟ قال : قلت : والله لكأنى بك ، لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعت إلى بيتى ، فأعرستَ

فيه ببعض نسائك ، قالت : فتبسم رسول اللَّه ﷺ ، وتتامَّ به وجعُه ، وهو يدور على نسائه ، حتى استعزَّ به ، وهو في بيت ميمونة ، فدعا نساءَه ، فاستأذنهن في أن يُمرَّض في بيتي ، فأذِنَّ له .

خطبة النبي ﷺ وتفضيله أبا بكر رضي الله عنه

خرج رسول اللَّه ﷺ عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أُحد ، واستغفر لهم ، فأكثر الصلاة عليهم ، ثم قال : « إن عبدًا من عباد اللَّه خيَّره اللَّه بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » .

قال : ففهمها أبو بكر وعرف أن نفسه يريد ، فبكى وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

فقال : « على رِسْلِكَ يا أبا بكر » . ثم قال : « انظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد ، فسدوها إلا بيت أبي بكر ، فإني لا أعلم أحدًا كان أفضل في الصحبة عندي يدًا منه » .

ويروى أن رسول اللَّه ﷺ قال يومئذ في كلامه هذا : « فإني لو كنت مُتخذًا من العباد خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، ولكن صحبة وإخاء إيمان ، حتى يجمع اللَّه بيننا عندَه » .

أمره ﷺ بإنفاذ بعث أسامة

استبطأ رسول اللَّه ﷺ الناس في بعث أُسامة بن زيد ، وهو في وجعه ، فخرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر ، فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال : « أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة ، فلعَمْري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليقٌ للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقًا لها » .

ثم نزل رسول اللَّه ﷺ ، وانكمش الناس في جهازِهم ، واستعزَّ برسول اللَّه ﷺ وجعه ، فخرج أسامة ، وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجُرْفَ ، من المدينة على فَرْسخ ، فضربَ به عسكره ، وتتام إليه الناس ، وثَقُل رسول اللَّه ﷺ ، فأقام أسامة والناس لينظروا ما اللَّه قاضٍ في رسول اللَّه ﷺ .

* * *

وصيته ﷺ بالأنصار

قال رسول الله ﷺ يوم صلى واستغفر لأصحاب أحد ، وذكر من أمرهم ما ذكر مع مقالته يومئذ : « يا معشر المهاجرين ، استوصُوا بالأنصار خيرًا ، فإن الناس يزيدون ، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وأنهم كانوا عيبتى التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مُسيئهم » .

أبو بكر ؓ يصلى بالناس أثناء مرض النبى ﷺ

عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : لما استعزّ برسول الله ﷺ الوجع قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . قالت : قلت : يا نبى الله ، إن أبا بكر رجل رقيقٌ ، ضعيفُ الصوت ، كثير البكاء إذا قرأ القرآن . قال : « مروه فليصل بالناس » . قالت : فعُدت بمثآل قَولى . فقال : « إنكن صواحب يوسف ، فمروه فليصل بالناس » ، قالت : فوالله ما أقول ذلك إلا أنى كنت أحب أن يُصرف ذلك من أبى بكر وعرفت أن الناس لا يحبون رجلًا قام مقامه أبدًا ، وأن الناس سيتشاءمون به فى كل حدث كان ، فكنتُ أحب أن يُصرَف ذلك عن أبى بكر .

اليوم الذى قَبض الله فيه رسولَه ﷺ

لما كان يوم الاثنين الذى قَبض الله فيه رسول الله ﷺ ، خرَج الناس ، وهم يُصلون الصبح ، فرفع السِّتْر ، وفتح الباب ، فخرج رسول الله ﷺ ، فقام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه فرحًا به ، وتفرجوا ، فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم ؛ قال : فتبسم رسول الله ﷺ سرورًا لما رأى من هيئتهم فى صلاتهم ، وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة منه تلك الساعة ، قال : ثم رجع وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفرق من وجعه ، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت : رجع إلىّ رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع فى حجرى ، فدخل على رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر . قالت : فنظر رسول الله ﷺ إليه فى يده نظرًا عرفت أنه يريده ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، أتُحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال : نعم ، قالت : فأخذته فمضغته له حتى لينته ، ثم أعطيته إياه .

قالت : فاستن به كأشد ما رأيته يَسْتَنّ بسواك قط ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله ﷺ يثقُل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه ، فإذا بصره قد شَخَص ، وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة . قالت : فقلت : خُيرتَ فاخترتَ ، والذى بعثك بالحق . قالت : وقبض رسول الله ﷺ .

وعنها رضى الله عنها : مات رسول الله ﷺ بين سَحْرى ونحرى وفي دَوْلتى ، لم أظلم فيه أحدًا فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله ﷺ قُبض وهو في حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة ، وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى .

موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عقب وفاة النبى ﷺ

عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : لما تُوفى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب ، فقال : إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفى ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع بعد أن قيل : قد مات ، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات .

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، ورسول الله ﷺ مُسَجًّى في ناحية البيت ، عليه بُرد حَبِرة ، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم أقبل عليه فقبّله . ثم قال : بأبي أنت وأمى ، أما الموتةُ التى كتب الله عليك فقد ذُقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتةٌ أبدًا ، ثم رد البُرد على رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : على رِسْلك يا عمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناسُ كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حَيٌّ لا يموت . قال : ثم تلا هذه الآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

قال : فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ؛ قال : وأخذها الناس عن أبى بكر ، فإنما هى فى أفواههم ؛ وقال : فقال أبو هريرة : قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى ، فعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات .

جهاز رسول اللّٰه ﷺ ودفنه

١- من تولى غُسله ﷺ :

رُوى أن على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، وقُثَم بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشُقران مولى رسول اللّٰه ﷺ ، هم الذين وَلُوا غسلَه ، وأن أوس بن خَولى ، أحد بنى عَوف بن الخزرج ، قال لعلى بن أبى طالب : أنشُدُك اللّٰه يا على وحظَّنا من رسول اللّٰه ﷺ .

وكان أوس من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ وأهل بدر .

قال : ادخل ، فدخل فجلس ، وحضر غسل رسول اللّٰه ﷺ فأسنده علىٌّ بن أبى طالب إلى صدره ، وكان العباس والفضل وقُثَم يقلبونه معه ، وكان أسامة بن زيد وشُقران مولاه ، هما اللذان يصبان الماء عليه ، وعلىٌّ يغسله ، قد أسنده إلى صدره ، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه ، لا يفضى بيده إلى رسول اللّٰه ﷺ ، وعلىٌّ يقول : بأبى أنت وأمى ، ما أطيبك حيًا وميتًا ، ولم يُر من رسول اللّٰه ﷺ شىء مما يُرَى من الميت .

٢- كيفية غسله ﷺ :

رُوى عن عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها ، قالت : لما أرادوا غَسْل رسول اللّٰه ﷺ اختلفوا فيه . فقالوا : والله ما ندرى ، أنجرد رسول اللّٰه ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا ، أو نغسله وعليه ثيابه ؟ قالت : فلما اختلفوا ألقى اللّٰه عليهم النوم ، حتى ما منهم رجل إلا ذقنُه فى صدره ، ثم كلمهم مكلمٌ من ناحية البيت لا يدرون من هو : أن اغسلوا النبى وعليه ثيابه ، قالت : فقاموا إلى رسول اللّٰه ﷺ ، فغسلوه وعليه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ، ويدلكونه والقميص دون أيديهم .

٣- تكفينه ﷺ :

فلما فُرغ من غسل رسول اللّه ﷺ كُفِّنَ في ثلاث أثواب ، ثوبين صُحَاريين وبُرد حَبرة ، أُدرج فيها إدراجًا .

وعنها رضى اللّه تعالى عنها أن النبى ﷺ كُفِّن فى ثلاثة أثواب بيض يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة .

فقيل لعائشة : إنهم كانوا يزعمون أنه قد كان كُفن فى حبرة .

فقلت عائشة : قد جاؤوا ببرد برة ، فلم يكفنوه[1] .

وعنها رضى اللّه تعالى عنها قالت : كُفن رسول اللّه ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية ، من كُرسُف ، ليس فيها قميص ولا عِمَامة ، أما الحلة فإنما شُبه على الناس فيها ، أَنها اشتُريَت له ليُكَفَّن فيها ، فَتُرِكَت الحلة . وكُفن فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية . فأخذها عبد اللّه بن أبى بكر . فقال : لأحبِسَنَّها حتى أُكَفَّن فيها نفسى . ثم قال : لو رَضِيَهَا اللّه عز وجل لِنَبيه لكفنه فيها . فباعها وتصدق بثمنها[2] .

٤- موضع دفنه والصلاة عليه :

فلما فُرغ من جهاز رسول اللّه ﷺ يوم الثلاثاء ، وضع فى سريره فى بيته ، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه . فقا قائل : ندفنه في مسجده ، وقال قائل : ندفنه مع أصحابه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ما قُبض نبى إلا دُفن حيث يُقبض » .

فرُفع فراش رسول اللّه ﷺ الذى تُوفى عليه ، فحُفر له تحته ، ثم دخل الناس على رسول اللّه ﷺ يصلون عليه أرسالا ، دخل الرجال ، حتى إذا فرغوا أُدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء أُدخل الصبيان ، ولم يَؤم الناس على رسول اللّه ﷺ أحدٌ . ثم دُفن رسول اللّه ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء ؛ وروى عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها : جوف الليل من ليلة الأربعاء[3] .

---

(١) رواه ابن ماجه (١٤٦٩) ، وصححه الألباني (١١٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧١) ، ومسلم (٩٤١/٤٥) .

(٣) رواه ابن ماجه (١٦٢٨) ، وضعفه الألباني (٣٥٩) .

وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يقبر نبي إلا حيث يموت» ، فأَخروا فراشه واحفروا له تحت فراشه[1] .

٥- تعليل صلاتهم عليه ﷺ فرادى :

قال ابن ناصر الدين : قال الشافعي رحمة الله تعالى عليه في الصلاة على النبي ﷺ بغير إمام قال : وذلك لِعظمِ أمر رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي ، وتنافُسهم على ألَّا يتولى الإمامة في الصلاة عليه أحد . رواه البيهقي في السنن الكبرى .

وقيل : إنه كان آخر العهد برسول الله ﷺ ، فأراد كل واحد منهم أن يأخذ البركة بالصلاة عليه مختصًا به دون أن يكون فيها تابعًا لغيره .

٦- حفر قبره الشريف ﷺ :

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ، قال : لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ ، وكان أبو عُبيدة بن الجراح يَضْرَح كحفر أهل مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة ، يلحد ، فدعا العباس رجلين ، فقال لأحدهما : اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وللآخر اذهب إلى أبي طلحة ، اللهم خِرْ لرسول الله ﷺ ، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة ، فجاء ، فلحد لرسول الله ﷺ[2] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ أُلحد ونصب عليه اللبن نصبًا ، ورفع قبره من الأرض نحوًا من شبر[3] .

وعن سفيان النمار أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنمًا[4] .

٧- كيفة إدخاله ﷺ القبر :

عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال : أُدخل النبي ﷺ من قِبل القبلة وأُلحد له لحدًا ونصب عليه اللبن نصبًا[5] .

(١) رواه أحمد في المسند (١/٧) ، وقال الشيخ شاكر : حديث قوي بطرقه ، وإسناده ضعيف لانقطاعه .

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ٨، ٢٦٠) ، وقال الشيخ شاكر : إسناده ضعيف .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٦٣٥) ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم .

(٤) أخرجه البخاري (١٣٩٠) .

(٥) رواه البيهقي في السنن (٤/٥٥) ، والطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٢٩٤) .

٨- من تولى دفنه ﷺ :

رُوى أن الذين نزلوا فى قبر رسول اللَّه ﷺ على بن أبى طالب والفضل بن عباس ، وقثم ابن عباس ، وشُقران مولى رسول اللَّه ﷺ .

وقد قال أوس بن خَوْلى لعلى بن أبى طالب : يا على ، أُنشدك الله ، وحظنا من رسول اللَّه ﷺ . فقال له : انزل ، فنزل مع القوم .

وقد كان مولاه شُقران حين وضع رسول اللَّه ﷺ فى حفرته وبنى عليه قد أخذ قطيفة ، وقد كان رسول اللَّه ﷺ يلبسها ويفترشها ، فدفنها فى القبر ، وقال : والله لا يلبسها أحدٌ بعدَك أبدًا . قال : فدفنت مع رسول اللَّه ﷺ[1] .

❁ ❁ ❁

فاللهم إنا نشهدك بأنا نبينا محمد ﷺ قد أدى الأمانة ،
وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ،
فاجــزه عنــــا خير الجـــزاء ،
ولا تحرمنا شفاعته يوم تلقاك ،
وآخر دعوانا أن الحمد
للّه رب العالمين.

❁

(١) أخرجه مسلم (٩٦٧/٩١) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

طبعت بمطابع الحرمين
ت: 0101009352 - 2979735